نظرات فى كتاب الله

للإمام الشهيد حسن البنا



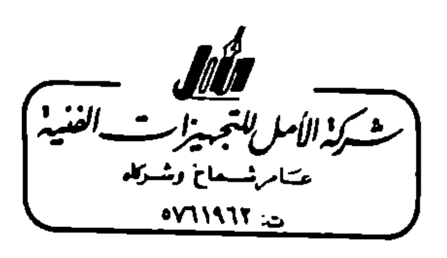
جمعة و حققه و علق عليه
عصام تليمة

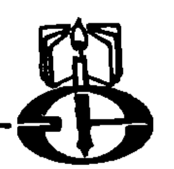
تقديم
د/ يوسف القرضاوى

١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م

رقم الإيداع: ٢٠٠٢/١٧٧٥٠

الترقيم الدولي: 4 - 402 - 265 - 977





دار التـوزيع والنشـر الإسـلامـيـة

مصـــر - القاهـــرة - السيدة زينب ص. ب ١٦٣٦

٢٥١ ش بورسـعـيـد ت: ٢٩٠٠٥٧٢ - فـاكس: ٢٩٣١٤٧٥

مكتبة السيدة: ٨ ميدان السيدة زينب ت: ٢٩١١٩٦١

www.eldaawa.com

email:info@eldaawa.com

من الدستور الإلهي

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ أَفَلا يتدبَّرُون القُرآنَ ولَوْ كَانَ مِنْ عند غَيْرِ الله لَوَجَدُوا فيه اختلافًا كثيرًا ﴾ [النساء : ٨٢].

﴿ ونُنَزِّلُ من القُرآن ما هُوَ شفاءٌ ورحمَةٌ للمُؤْمنين ولا يزِيدُ الظَّالمين إلاَّ خسارًا ﴾ [الإسراء : ٨٢].

﴿ أَفَلا يتدبَّرُونَ القُرآنَ أَمْ علَىٰ قُلوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾

[محمد : ٢٤]

*****

من مشكاة النبوة

عن حذيفة رضى الله عنه قال: «**صليت مع النبى ﷺ ذات ليلة، فافتتح البقرة فقرأها، ثم النساء، ثم آل عمران فقرأها، يقرأ مترسلا، إذا مر بآية فيها تسبيح سبح، وإذا مر بسؤال سأل، وإذا مر بتعوّذ تعوّذ**» رواه مسلم.

وعن عوف بن مالك قال: «**قمت مع النبى ﷺ ليلة، فقام فقرأ سورة البقرة، لا يمرّ بآية رحمة إلا وقف وسأل، ولا يمر بآية عذاب إلا وقف وتعوّذ**» رواه أبو داود والنسائى.

*****

من هدى الصحابة

يقول على رضى الله عنه : **ألا لا خير فى عبادة ليس فيها تفقه، ولا فى علم ليس فيه تفهم، ولا فى قراءة ليس فيها تدبر .**

ويقول عبد الله بن عباس رضى الله عنهما : **لأن أقرأ (إذا زلزلت) و(القارعة) أتدبرهما ، أحب إلى من أن أقرأ البقرة وآل عمران تهذيرا .**

*****

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

بقلم: أ.د. يوسف القرضاوى

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن اتبع هداه.

أما بعد . . .

فمن فضل الله على هذه الأمة: أنها أمة خالدة، لأن الله ختم بها الأمم، كما ختم بنبيها النبيين، وبقرآنها كتب السماء.

ومن رحمة الله بها أنه يبعث لها فى كل حين من يجدد لها دينها، فيجمعها من شتات، ويحييها من موات.

قد يكون هذا المجدد فردا موهوبا يمنحه الله من نفحاته، ويفيض عليه من بركاته، ما يعينه على أداء مهمته الكبرى فى الإيقاظ والإصلاح والتجديد، فيضىء العقول، ويحرك القلوب، ويشد العزائم، ويدفع بالأمة إلى الأمام.

وقد يكون المجدد مدرسة فكرية أو دعوية أو حركية، تمثل (الطائفة المنصورة) التى صحت بها الأحاديث أنها لا تزال فى هذه الأمة قائمة بأمر الله، حتى تقوم الساعة.

ولا يمارى دارس منصف أن حسن البنا كان من المجددين لهذا الدين، سواء نظرنا إليه فردا أم نظرنا إلى دعوته باعتبارها مدرسة متميزة بأهدافها ووسائلها ومناهجها ورجالها، وآثارها فى حياة الأمة.

ومن درس سيرة حسن البنا، علم أن الرجل لم يشتغل بتأليف الكتب الكبيرة، كما يفعل العلماء المصنفون، فقد شغله تأليف الكتائب عن تأليف الكتب، ورأى أن إنشاء الرجال الذين يقومون بنصرة هذا الدين هو واجبه الأول، وإذا وجد هؤلاء الرجال قاموا بالتأليف والتصنيف وملأوا الدنيا علما.

ومع هذا كتب حسن البنا مقالات كثيرة جدا ـ فى مختلف مجالات الثقافة الإسلامية

ـ فى مجلات شتى، ولا سيما فى السنوات الأولى للدعوة، حتى حدثنى الكاتب الإسلامى الكبير الأستاذ الدكتور محمد فتحى عثمان: أنه وجد الأستاذ البنا يكتب فى بعض الأحيان مقالتين فى الأسبوع الواحد.

وكان الدكتور فتحى قد أخذ على عاتقه أن يجمع ما استطاع من الوثائق للبدء فى كتابة تاريخ الإخوان، ليقوم بهذا الفرض وهو أحق بذلك وأهل، فهو عالم وباحث ومؤرخ وداعية، وقد جمع من ذلك كمًّا كبيرًا، وذلك فى فترة ما بعد الخروج من السجن الحربى سنة ١٩٥٦م، ثم جاءت محنة ١٩٦٥م فجاء رجال المباحث وأخذوا كل هذا التراث الهائل، ووضعوه فى جوالات، ولا يدرى أحد ماذا فعلوا به.

وكم تمنيت من قديم أن يجمع تراث الإمام البنا، وينشر فى صورة (مجموعة أعمال كاملة) كما نشر تراث رفاعة الطهطاوى، والسيد جمال الدين الأفغانى، والإمام محمد عبده وغيرهم.

وأذكر أنى منذ أكثر من ربع قرن فى أوائل السبعينيات فى القرن العشرين، لقيت الأخ الكريم الأستاذ سيف الإسلام حسن البنا، فى مدينة لندن، وقلت له: يا أستاذ سيف، إن عليك مسؤولية جسيمة، نحو تراث والدك، وعليك أن تسعى إلى تجميعه من مظانه المختلفة، وستجد الإخوان جميعًا أعوانًا لك فى ذلك، وهذا عمل ليس بضائع، بل هو مربح فى الدنيا، مربح فى الآخرة.

وقد طمأننى الأخ سيف الإسلام أنه شرع فى هذا الأمر، ومعه من يعاونه فى ذلك، وبشَّرنى أنه عن قريب سنرى ثمرات هذا العمل.

ومرت السنوات وراء السنوات، وكلما قابلت سيف الإسلام أذكره بما وعد به، فيعدنى خيرا، ولكن لا أرى ثمرا.

ومنذ ثلاثة أعوام قال لى: أبشرك أن تراث الإمام الشهيد أصبح كله مجموعا على (الكومبيوتر). قلت له: بشرك الله بالخير، فابدأوا إذن بنشره لينتفع به الناس. وحتى الآن لم أر نتيجة عملية لهذا الجهد.

ولهذا سرَّنى أن يقوم ابننا النابه الناشط عصام تلِّيمة بجمع ما تيسر له من تراث الإمام

الشهيد، الذى عُنى به منذ سنوات، ونشر من قبل ذلك بعضه مثل: (أحاديث الجمعة)، و(نظرات فى التربية والسلوك).

واليوم يقوم بنشر تراث البنا حول القرآن وعلومه وتفسيره، وقد جمعها من مصادر شتى من كتابات الأستاذ عليه رحمة الله ورضوانه.

ولا ريب أن حسن البنا كان من أقوى الناس صلة بالقرآن الكريم، حفظا واستظهارا له، وتلاوة لآياته، وفهما وتدبرا لمعانيه، كأنما المصحف مائدة ممدودة بين يديه، يأخذ منها ما يشاء بيسر وسهولة، أو كأنه شجرة قطوفها دانية له، يقطف منها ما يريد. فهو رجل القرآن حقا. وقد سمَّاه صحفى أمريكى فى مقالة عنه: (الرجل القرآنى) فأصاب كبد الحقيقة.

ولقد خدم الأخ عصام هذا التراث القرآنى والتفسيرى للإمام البنا، بما قدمه من دراسات نافعة، وما علق به من تعليقات مفيدة، ومثل ترقيم الآيات، وتخريج الأحاديث، ووضع عناوين بين كل فقرة وأخرى توضح الكلام للقارئ، ونحو ذلك مما يحتاج إليه القارئ المعاصر، خصوصا إذا كان من طلاب العلم.

وربما خالفت إمامنا البنا فى بعض آرائه حول القرآن، مثل تشدده فى منع ترجمة القرآن الكريم، مع مسيس الحاجة إليها فى عصرنا، إذا قام بها من يحسنها مع شروطها وضوابطها. وإذا تركناها نحن فلن يتركها الآخرون. وقد وجدنا المبشرين والمستشرقين من قديم معنيين بترجمة القرآن، وهم لا يملكون أدواتها. وقد قام أحد تلاميذ حسن البنا، وهو الأخ البحاثة الدكتور حسن المعايرجى، بتجميع مكتبة كبيرة من هذه الترجمات من عدة لغات، ورجا المسلمين عامة، وعلماءهم خاصة، أن يعتنوا بترجمة (تفسير القرآن) وليس ترجمة ألفاظ القرآن. كما طلب إلى المسلمين أن ينشئوا (هيئة عالمية للقرآن) تقوم على خدمته وتفسيره وترجمته.

كما أخالف شيخنا وإمامنا فى مسألة العلاج بالقرآن، وإخراج الجن من الإنسان، فإن الله لم يسلط الجن على الإنسان إلى حد ركوب الإنسان والدخول فى جسده والتصرف فيه، فالإنسان أكرم عند الله من ذلك، وقد قال القرآن على لسان الشيطان: ﴿ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي ﴾ [إبراهيم: ٢٢].

وقد بالغ بعض المعاصرين، حتى فتحوا (عيادات) للعلاج بالقرآن، وهو ما لم يفعله الصحابة ولا التابعون ولا المسلمون فى خير القرون. بل اتجهوا إلى الطب القائم على السنن والأسباب، حتى جاء من يشكو إلى النبى ﷺ، فدله على الحارث بن كلدة الطبيب الثقفى المشهور.

ولا غرو أن ارتفع صرح علم الطب فى حضارة الإسلام، وتفنن فيه المسلمون علما وعملا، وصنفوا فيه كتبا كانت مراجع للعالم كله عدة قرون.

وقد علمنا الإمام البنا رضى الله عنه فى أصوله العشرين: أن كل أحد يؤخذ من كلامه ويترك إلا المعصوم ﷺ.

ولا يسعنى إلا ان اقول لتلميذى وسكرتيرى الخاص الشيخ عصام تلّيمة: شكر الله لك جهدك وعملك المتميز فى خدمة هذا التراث المبارك، وتقديمه للمسلمين فى صورة مشرقة، وجزاك خيرا عما قدمته للأمة وللإمام، وللعلم والإسلام. ونفع الله به كل من قرأه ونشره وعمم النفع به، ونفعنا معهم.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الفقير إلى عفو ربه

يوسف القرضاوى

الدوحة فى: شوال ١٤٢٢هـ

يناير ٢٠٠٢م

المقدمة

إنَّ الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يُضلل فلا هادى له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، أنزل علينا خير كتاب[1]، وتعهَّد بحفظه ورعايته من التبديل والتحريف: ﴿**إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ**﴾ [الحجر: ٩] جعل الله فيه الهداية لمن اتبع هداه: ﴿**إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا**﴾ [الإسراء: ٩]، وأشهد أن محمداً عبد الله ورسوله، بلَّغ الرسالة، وأدَّى الأمانة، ونصح الأمة، وكشف الله به الغُمَّة، فاللهم اجزه عنا خير ما جزيت رسولاً عن أمته، وبعد:

فهذه مجموعة مقالات للإمام الشهيد حسن البنا، تندرج كلها تحت (القرآن وعلومه) لم يسبق نشرها مجموعًا من قبل، وقد جعلت عنوانها: (نظرات فى كتاب الله)، ولا غرو أن نجد هذه المادة الثرَّة عند حسن البنا فى مقالاته وكتاباته، فهو ابن القرآن، ورجل القرآن.

والمتتبع لحياة البنا يجد أنه عاش بالقرآن، وعاش للقرآن، بل ما اغتالته اليد الآثمة إلا لخوضه معركة القرآن ضد باطلهم، وأصدق وصف قيل فيه؛ وهو من أحد الغربيين من غير المسلمين وهو روبرت جاكسون الذى كتب رسالة تحت عنوان: (حسن البنا الرجل القرآنى) وكما قيل: الحق ما شهدت به الأعداء.

الهدف من وراء نشر هذه المقالات:

ولعملى فى هذا الكتاب عدَّة أهداف مهمة، أودُّ أن أوضحها للقارئ، منها:

أولاً: مدى أهمية هذا التراث فى تبصرة هذا الجيل الذى لم ير حسن البنا ولم يسمعه، وزاد التشويه لشخصيته أكثر بأن أُهيل التراب على أعماله، وعلى جهاده، ولقد

---

(١) لم التزم هنا بخطبة الحاجة بنصها كاملة، وقد ذهب الشيخ الألبانى فى كتابه: «خطبة الحاجة» إلى سنيتها وأنها سنة مؤكدة، وقد رد عليه الشيخ عبد الفتاح ابو غدة فى بحث ضاف بين فيه عدم صحة ذلك، انظر: مجلة مركز بحوث السنة والسيرة بدولة قطر، العدد التاسع ص٤٣-٨٢.

صدق الأديب الكبير الدكتور محمد رجب البيومي إذ يقول: "أعرف أنَّ نفوسًا يهون عليها أن تصاب بالبَرَص والجُذام والشَّلل، ولا يُذكر حسن البنا بخير، وقد دأَبُوا على انتقاصه في كل مناسبة تحين"(١) فَقَلَّ أن تجد الآن من الشباب الصاعد من يعرف حسن البنا، ربما عرف الناس بعض الكتاب والعلماء المشهورين الذين هم من ثمرة دعوته، ولكن ما زال صاحب الدعوة ومؤسسها مجهولاً لدى كثير من الشباب.

والسبب: هو هذا التعتيم المقصود على دعوة البنا، بل المحاربة لها، من الداخل والخارج، وأشدها بأسًا حرب الداخل، بل من بعض الشباب الذين لا هَمَّ لهم إلا النَّيْل من العلماء، الذين أشهروا أقلامهم المسمومة للنَّيْل من رموز الدين، وللأسف ما قرأنا لهم مقالاً ولا كتابًا يحذرون فيه من خطر اليهودية أو الصهيونية أو الماسونية، إنما قرأنا لهم كتابات في التطاول على العلماء، أو التنفير منهم ومن فكرهم، أو التشويش على مسيرتهم العلمية والدعوية، وما ذلك إلا لمجرَّد خلاف في الرأي، يسع المسلم أن يختلف فيه مع غيره، فضلا عن العلماء مع بعضهم البعض!

ثانيًا: أن البنا ما زال مجهولاً لدى عدد من الباحثين، وسبب جهل الباحثين بالبنا هو: قلة إنتاجه العلمي المنشور، رغم وجود (مجموعة الرسائل) وهي تعبر عن منهجه، ولكن الباحث عندما يرى هذا التراث تكتمل عنده الرؤية.

بل هناك فوائد تعود على الذين هم من ثمرة دعوة البنا وتلامذته، فبهذا التراث يتَّضح المشروع الفكري للبنا، ولا زلت أذكر يوم أن كتب الدكتور القرضاوي كتابه: (الإخوان المسلمون: سبعون عاما في الدعوة والتربية والجهاد) وقد تناول فيه جهود البنا ودعوته، ولكنه عند حديثه عن البنا والغرب نقل أن البنا كان توجُّهه توجُّه الرفض لكل ما يأتي من الغرب، ولكن سرعان ما اقتنع الشيخ بأن البنا لم يكن رافضًا لكل ما عند الغرب، ولم يكن ليقتنع - وحُقَّ له ذلك - دون أن يرى شيئًا مكتوبًا للبنا، وبخاصَّةٍ أن (مجموعة الرسائل) كل ما فيها فعلاً ضدَّ الحضارة الغربية، وذلك لأنه كان في موقف كشف عُوَار الحضارة الغربية، ولما جئته بنص للإمام الشهيد يقول فيه لأحد تلامذته وقد ذهب لإنجلترا للدراسة:

(١) نقلاً عن (النهضة الإسلامية في سير أعلامها المعاصرين) للدكتور محمد رجب البيومي الجزء السادس. طبعة دار القلم – دمشق. تحت الطبع.

"كُن مع القوم ناقداً بصيراً، ومُنصِفًا خبيرا، لا تستهويك محاسنُهم فتنسى مساويهم، ولا تؤلمك مساويهم فتنسى محاسنهم، بل ادرسهم دراسة الفاحص المدقق، وأحطْ بكل ما تستطيع من شؤونهم علمًا، ثم انقُد ذلك كله بعين البصيرة، فما كان حسنًا فاهده إلى امتك وقومك وعُدْ به مُظفَرًا مؤيَّدًا، وما كان غير ذلك فالقه إليهم ولا تقم له وزنًا، ولا تات إلا وقد نفضت منه يدك وفرغت خاطرك"(١)

بل اقرأ معى ما يقوله البنا بنفسه عن منهجه، وعن موقفه من حضارة الغرب: "أنا من أولئك الذين ينادون بوجوب التوفيق بين القديم والحديث، وانتخاب الصالح من كل منهما، وإحياء حضارة الشرق وآدابه، وان ناخذ عن الغرب اسباب قوته المادية من علم وصناعة، فاحبُّ شيء إلى نفسى: التجديد المعتدل النافع بشرط ان نحفظ على الشرق إيمانه وعاطفته، ونجنبه جحود الغرب وماديته، وان نتمسك بعقائد الإسلام وعروته الوثقى، عاملين بشرائعه وآدابه"(٢)

ثالثًا: أنى أحسست بإثم قد يصيبنى إذا تاخرت فى نشر هذه المقالات التى اجتمعت لَدَىَّ، وذلك لأن المادة اكتملت كلها - أو جلها - عندى، واحسست بانى ساسال أمام الله سبحانه وتعالى عن هذه المقالات إن طالتها اليد المفسدة قبل ان تُنشر، وكنت اتردَّد فى نشرها، وسبب ترددى أنى بعد أن بدأت العمل فى الجزء الأول أُخبِرْتُ أنَّ ورثة الإمام الشهيد سوف ينشرون التراث قريبا، وكان هذا فى صيف ١٩٩٧م، ومرَّ عام والجزء الأول عندى على وَشْك الانتهاء ويحمل عنوان: (أحاديث الجمعة)، ثم جاء صيف ١٩٩٨م ولم أر شيئا، وقد أَطْلَعْتُ الشيخ القرضاوى - بعد سفرى إلى قطر للعمل معه سكرتيرًا خاصًّا به - على هذا الجزء وأثنى خيرا على الجهد المبذول، ثم أخبرنى أن الأستاذ سيف الإسلام اتصل به، وأخبره أنه على وشك أن يُخرج تراث الإمام الشهيد، وانتظرت فعلاً، ولكنى كنت قد أنهيت الجزء الثانى وفيه جمعت مقالات الإمام البنا حول التصوف

---

(١) انظر: نظرات فى التربية والسلوك للإمام الشهيد حسن البنا ص١٢٦ بتحقيقى. طبعة دار البشير - جدة.

(٢) انظر: مقال الإمام البنا بعنوان: (إلى صاحب مجلة الحديث الحلبية) المنشور فى مجلة (الفتح) فى العدد (١٦٣) من السنة الرابعة فى يوم الخميس الموافق ٢ من ربيع الآخر سنة ١٣٤٨هـ - ٥ من سبتمبر سنة ١٩٢٩م. ويلاحظ ان الإمام قد كتب المقال وسنُّه بضع وعشرون عامًا.

والروحانية والتربية، وجعلت عنوانه: (نظرات فى التربية والسلوك)، وها قد أنهيت هذا الجزء دون أن يخرج شيء من هذا التراث للنور، عندئذ قررت نشر ما لدىَّ من أجزاء بعد تحقيقها، وذلك استجابة لنصيحة شيخنا الشيخ القرضاوى، وأيضا لرفع إثم كتمان هذا العلم عندى وحبسه، ولمخافة أن يضيع ما لدىَّ من مقالات، فيما يضيع فيه مثلها عند إخواننا الطيبين!

رابعًا: شجَّعنى على نشر ما أنجزته من عمل: أنى أحسست أن لدىَّ جديدًا أستطيع أن أقدمه لتراث الإمام، حيث إنِّى - أكاد أكون - قد استوعبت معظم ما كتبه البنا رحمه الله، إضافة إلى ذلك أن توفر لدى بعض الوقت، وهى نعمة مغبون فيها كثير من الناس كما قال ﷺ(1)، وهذا ما قد لا يتوافر لدى عدد ممن يحرصون على نشر هذا التراث.

خامسًا: أن نشر تراث البنا يُعرِّف القراء والباحثين على فقه البنا، ففى هذه المقالات يتَّضِح رأىُ الإمام البنا فى عدة قضايا مهمة، منها على سبيل المثال لا الحصر: رأيه فى ترجمة القرآن الكريم، ورأيه فى العلاج بالقرآن، ورأيه فى قضايا كثيرة وردت فى ثنايا المقالات.

سادسا: أنه من العيب على الحركة الإسلامية أن يضيع تراث مؤسسها، على ما فيه من الأهمية البالغة، فمما يؤسف له أن يهمل تراث البنا، وفى المقابل نرى أن غير الإسلاميين يهتمون بتراث روادهم، ولا أذهب بعيدا، فإن حركة كالحركة الشيوعية قامت بجمع مقالات (لينين) أحد أهم ناشرى الفكرة الشيوعية، وما كانت مقالاته إلا مقالات قالها فى المنفى، وجمعوها من شتات، فى عشرة مجلدات، تحت عنوان (مختارات لينين). فما بالنا ونحن أصحاب قضية نوقن بأنها قضية الحق المبين.

أهمية تحقيق هذا التراث:

كما أنَّ لنشر هذا التراث مُحَقَّقًا أهمية نذكرها على عجالة، أهمها:

(1) رواه البخارى (٦٤١٢) والترمذى (٢٣٠٤) وابن ماجه (٤١٧٠) والدارمى (٢٧٠٧) عن ابن عباس رضى الله عنهما.

أولاً : اننا صرنا فى زمن لا يليق فيه أن ينشر تراث دون تحقيقه، فقد كان يُقبل من قبل، اما الآن وقد تيسَّرت سبل التحقيق، وكذلك فى الاحاديث من كتب الحديث التى خُرِّجت تخريجًا كاملاً، لا يعذر بعدها باحث ولا عالم. كما أن التقنيات الحديثة من أسطوانات الكمبيوتر وغيرها ساعدت كثيرًا على هذا الامر، وبات أمر تخريج الاحاديث أمْرًا ميسورًا.

ثانيًا : أن التحقيق يفيد القارئ بأن يكون مطمئنًا وهو يقرأ المقالات مجموعة، أن كل ما فيها هو مما كتبه البنا، وأنه ليس منسوبًا إليه دون تثبت.

ثالثا : أن المُحَقِّقَ لا بد له من لمسات يُبْرِزها فى العمل المُحَقَّق، إمَّا بتعقيبٍ، أو تنقيحٍ، او تصويبٍ، أو توضيحٍ يُزيل به اللبْس عن القارئ.

وهذا ما فعلته هنا فى هذه المقالات، فقد تدَّخلت فى بعض المواضع بالتعليق، أو التصويب أحيانا، فربما تخون الإمام البنا الذاكرة فى ذكر شىء مما كتبه، أو يقع فى خطأ نتيجة عدم تَثَبُّته رحمه الله، إما لثقته فى المصدر الذى نقل عنه، أو لنقله معلومة عن شخص وثق فيه، أو لأن المقام ليس مقام البحث والتنقيب، فهو مقام المقال المختصر السريع.

وقد يكون دور المحقق: إزالة أى لبْس يَعْلَقُ بذهن القارئ على صاحب التراث المجموع، وذلك بتوهمه بأنَّ ما قاله هنا قد يخالف الصواب، بينما الخطأ من القارئ نفسه، ومثال ذلك أيضا ـ من عملى فى هذا التحقيق ـ: أن الإمام البنا فى مقالاته التى كان يكتبها فى جريدة (الإخوان المسلمون) اليومية والتى جعل لها عنوانًا ثابتًا هو: (حديث الجمعة)، وقد كتب مقالاً عنوانه: (معنى الجمعة)، وقد تكلم عن (الإمام) فى الإسلام ودوره، وهل هناك كهنوت فى الإسلام أم لا؟ فقال رحمه الله:

ومنْ الإمامُ؟ من يقود الأُمَّة فى المحراب، ويشرح لها السُّنة والكتاب، ويؤمُّها فى الصلوات، ويدعو إلى الصالحات؟! أهو ممثل السلطة الدينية، وسادن[1] الحقائق

---

(١) السادن: أى الخادم.

الروحية؟ لا - وأبيك - فليس هناك سلطتان، ولا يتنازع المجتمع الإسلامي جهتان، ولكنها سلطة واحدة لا تتعدد، إنها الدولة وحدها"(١).

فكلمة (وأبيك) هنا التي استشهد بها البنا قد يفهمها بعض من لم يتعمق في العلم على أنها قسم بغير الله، ومن حَلَف بغير الله فقد أشرك. وكلمة (وأبيك) هنا لا يقصد بها البنا القَسم بل التوكيد، كما وَرَدَ هذا اللفظ عن رسول الله ﷺ لأحد الأعراب: "أَفْلَح وأبيه إن صدق"(٢)

وهناك أشياء أخرى يراها القارئ عند تحقيقي لهذه المقالات، من تصويب أو توجيه، أو شرح غامض، يبيِّن مدى أهمية تحقيق هذا التراث.

مصادر الكتاب:

أما عن هذه المقالات المجموعة في هذا الكتاب، فقد نشرت للإمام الشهيد في عدة مجلات، فمنها ما نشر في مجلة (الفتح)، ومنها ما نشر في مجلة (جريدة الإخوان

---

(١) انظر: جريدة (الإخوان المسلمون) اليومية العدد (١٠) من السنة الأولى الصادر في يوم الخميس الموافق ٨من جمادى الآخرة سنة ١٣٦٥هـ - ٥من مايو سنة ١٩٤٦م.

(٢) رواه مسلم (١١) وأبو داود (٣٩١) و(٣٢٥٢) والدارمي (١٥٧٨) عن طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه. يقول ابن الأثير تعليقاً على قوله عليه السلام: "أفلح وأبيه إن صدق": هذه كلمة جارية على السنة العرب، وتستعملها كثيراً في خطابها وتريد التاكيد، فإن هذه اللفظة تجري في كلام العرب على ضربين: التعظيم والتاكيد، والتعظيم هو المنهي عنه، وأما التاكيد فلا، لقوله:

لعمر أبي الواشين لا عمر غيرهم لقد كلفتني خطة لا أريدها

فهذا توكيد، لانه لا يقصد أن يقسم بأبي الواشين وهذا في كلامهم كثير. نقلاً عن: "الأساس في السنة وفقهها" قسم العقائد لسعيد حوى (٣/١٥٨٧، ١٥٨٨). و"المنهل العذب المورود شرح سنن أبي داود" للشيخ محمود خطاب السبكي (٣/٢٨٢) وقال بهذا أيضا: ابن حجر والنووي، انظر: فتح الباري (١/١٣٢،١٣٣) وصحيح مسلم بشرح النووي (١/١٤٠) والمفهم للقرطبي (١/١٦٠،١٦١).

وقد استعمل هذه اللفظة (وأبيك) أبو بكر الصديق رضي الله عنه، فقد روى مالك في الموطا: "أن رجلاً من أهل اليمن اقطع اليد والرجل قدم فنزل على أبي بكر الصديق وشكا إليه أن عامل اليمن ظلمه، قال: فكان يصلي من الليل فيقول أبو بكر: وأبيك ما ليلك بليل سارق" رواه مالك في الموطأ برقم (٦٨٩) طبعة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية. وانظر شرح الموطأ للزرقاني (٥/١٥٩).

المسلمين) الأسبوعية[١]، وفى مجلة (الإخوان المسلمون) الأسبوعية [٢]، وفى مجلة (المنار) التى أسَّسها العلامة المجدِّد محمد رشيد رضا رحمه الله، وفى مجلة (النذير)، وفى جريدة (الإخوان المسلمون) اليومية، وفى مجلة (الشهاب) الشهرية والتى كانت ذات منهجية علمية[٣]. وما نشر فى مجلة (الشهاب) جمع فى رسالة تحت عنوان (من مقاصد القرآن) جُمِع فيه مقدمة الإمام الشهيد للتفسير وسورة الفاتحة والآيات الأربع الأول من سورة البقرة. ولى ملاحظات على ما جُمع فى كتاب (من مقاصد القرآن) أهمها : أنه خلا من أى تعليق أو تحقيق.

كما أعيد نشر بعض المقالات التى نقدمها للقارئ فى هذا الكتاب مثل : تفسير سورة التوبة، وقد نشرت فى مجلة (الدعوة) بعد عودة صدورها فى أواخر السبعينيات، ولى ملاحظة حول ما نشر فى مجلة (الدعوة) وذلك أن نشرها كان يأتى مبتوراً فى بعض الأحيان، وللأسف كان الاختصار يأتى على عبارات الإمام الشهيد التى يكتبها بعد أن يسوق من التراث : معانى الآيات وأسباب النزول، ولا يتسع المقام لذكر نماذج منها .

---

(١) يلاحظ أن الإمام البنا أطلق على المجلة اسم الجريدة، على الرغم من صدورها فى ثوب المجلة، وذلك أملاً منه أن تتحوَّل من مجلة اسبوعية، إلى جريدة يومية، وقد تحقَّق امله ولكن فى سنة ١٩٤٦م. يراجع فى ذلك : "مذكرات الدعوة والداعية" للإمام البنا ص١٣٩ نقلا عن : (وسائل الإعلام المطبوعة فى دعوة الإخوان المسلمين) للأستاذ محمد فتحى شعير ص ٢٠٥

(٢) كانت هذه المجلة تصدر كل نصف شهر، على الرغم من أنها أسبوعية، ولذا كان يكتب تحت عنوانها تصدر كل نصف شهر مؤقَّتا، وظلت تصدر كل نصف شهر لمدة ثلاث سنوات، ثم صدرت كل أسبوع فيما بقى من أعدادها. لمزيد حول المجلة وتاريخها وأهدافها يراجع : أعداد مجلة (الإخوان المسلمون) الأسبوعية.

(٣) وذلك عندما لاحظ الإمام الشهيد الضعف العلمى فى صفوف الإخوان المسلمين آنذاك. فاصدر هذه المجلة العلمية ليعالج بها الضعف العلمى لدى الإخوان، وكان صاحب امتيازها ورئيس تحريرها هو الأستاذ البنا. وكان مدير تحريرها الأستاذ المرحوم سعيد رمضان صهر الإمام الشهيد، وقد صدر منها خمسة أعداد، ثم توقفت. ثم أصدر الأستاذ سعيد رمضان مجلة تسير على نفس منهج (الشهاب) صدرت باسم (المسلمون) وذلك فى ٣٠ نوفمبر سنة ١٩٥١م، ثم جاءت محنة ١٩٥٤، وصدر حكم الإعدام غيابيا على الأستاذ سعيد رمضان، فخرج هارباً إلى دمشق، واصدرها من هناك بالتعاون مع العلامة الفقيه الدكتور مصطفى السباعى رحمه الله، ثم غادر دمشق إلى سويسرا وظلت تصدر منها، إلى أن توقفت سنة ١٩٦٦م. لمزيد من التفاصيل حول المجلتين، انظر: "وسائل الإعلام المطبوعة فى دعوة الإخوان المسلمين

عوائق جمع تراث البناء

إن لجمع تراث عالم من العلماء فيه ما فيه من صعوبة، يدركها من يلج باب التحقيق، سواء كان فى مخطوط من المخطوطات، أو من هو فى حكم المخطوط، كتراث الإمام البنا، ويحضرنى هنا ابيات قالها احد من اتعبهم التحقيق والبحث عن مخطوطات، يقول الشاعر:

إذا ابتليت بمخطوطٍ به عُقَدٌ	فعد عنه إلى سهْلٍ بلا عُقَد
وإن عزمت على التحقيق كن رجُلا	فى صبر أيوب أو فى قوة الأسد
وابذُل كمثل سليمانٍ نَشبا	كى لا تصير به من غير ذات يد

وأحبُّ أن أنوِّه هنا بالعوائق التى واجهتنى عند جمع هذا التراث، وأولى الصعوبات والعوائق: صعوبة تتبع تراث الإمام الشهيد، فقد كان رحمه الله لا يرد دعوةَ صاحب مجلة ولو كانت مبتدئة، نرى ذلك فى كتابته رحمه الله فى مجلة (الأمانة) التى كان رئيس تحريرها الأستاذ منصور فهمى رحمه الله[1]، وقد كتب فيها عدة مقالات، بدأها بأول مقال له فيها عن (الأمانة) وذلك بمناسبة افتتاحها. وقد حدثنى أحد أساتذتنا أن أحد الشباب وجد مقالين فى مجلة قديمة جداً فى السعودية، ولا يكاد يعرفها أحد، فحدث بذلك أستاذنا العلامة البحاثة الدكتور محمد رجب البيومى ـ حفظه الله ومتَّعه بالصحة والعافية ـ فقال له: يا بنى إن حسن البنا كان رجلا متواضعا، وكان يُلبِّى دعوة كل من يدعوه للكتابة، حتى لو فى مجلة حائط للأطفال فى مدرسة ابتدائية!

ولقد عانيتُ فى جمع شتات هذه المواد، فقد جمعتها من عدَّة مصادر كما ذكرت، منها ما كان يكتب فيها الإمام الشهيد، وهى من مجلات دعوة الإخوان المسلمين، ومنها ما لم يكن من مجلات الإخوان كالفتح وغيرها. وهذا ما بذلت فيه ما استطعت من جهد أن أجمعه.

---

(١) هو أحد جيل الرواد فى الثقافة المصرية، وقد ظل فترة يسير على الخط العلمانى التغريبى، ثم انتقل إلى الصف الإسلامى المعتدل. لمزيد من التفصيل حول (منصور فهمى) يراجع كتاب: (من منطلق إسلامى) مقال: منصور فهمى من الشك إلى الإيمان. للدكتور محمد رجب البيومى. وكتاب (النهضة الإسلامية فى سير أعلامها المعاصرين).

وثانى العوائق: انى لا أملك النسخ الاصلية، ولم اجد من تلامذة البنا من يمتلك النسخ الأصلية ولا المصوَّرة، فمن كان يملكها من قبل اتت عليه المحن وما فيها من إضاعة لكل ثمين من كتب العلم، ومن سلم من ايدى رجال الامن، لم يسلم من هاجس الخوف الذى يلاحقه أكثر من ملاحقة رجال الامن له، فلم يكن منه إلا ان تخلَّص مما لديه من هذا التراث الإخوانى، وبخاصة ان المحن كانت وراء بعضها البعض، محنة تلو الاخرى.

فلم يكن أمامى إلا ان اجمع ما لدىَّ من أصول، وان أُتمَّ ما ينقصنى من (دار الكتب المصرية) وانا ارجح - بل اجزم - أن ما جمعته ليس كل تراث الإمام الشهيد رحمه الله، ولكن هذا هو جهد المقل، وهذا ما فى وسعى، والله عز وجل يقول: ﴿**لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا**﴾ [البقرة: ٢٨٦].

وواجهتنى صعوبة ثالثة، وهى: أن ما فى دار الكتب قد تَهالك، وصار غير صالح للاطلاع، بل صدرت اوامرهم هناك بان النُّسخ غير قابلة للاطلاع، وما هو قابلٌ للاطلاع ممنوع أن يصوَّر، مما كان يضطرنى إلى ان أجلس عدة ساعات انسخ بيدى ما فى الصُّحف والمجلات، وادَّخر هذا الجهد عند ربى سبحانه وتعالى، وما كنت أحبُّ أن أذكره، ولكن أردت أن يقف القارئ معى على هذه المشاق.

على أنَّ من أهم الأسباب التى جعلتنى أنسخ المقالات بيدى، سببا مهما أذكره من باب التحدث بنعمة الله، وهو: قلَّة ذات اليد، وكان التصوير مكلفًا بالنسبة لى، فقد كنت متخرجا حديثا فى كلية الدعوة الإسلامية، وقد مُنِعْتُ من تسلم تعيينى فى وزارة الأوقاف المصرية، وأُوصِدت أمامى كُلُّ سُبُلِ الارتزاق، وعندما أبلغت بقرار منعى من التعيين، ساعتها تردد فى أذنى قول الله عز وجل: ﴿**هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَفْقَهُونَ**﴾ [المنافقون: ٧]. وظلَّ يزداد جرس هذه الآيات فى أذنى ﴿**وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ**﴾.

وما هى إلا فترة وجيزة حتى رزقنى الله من خزائنه التى لا يعلمها البشر الغافلون، وقد كان لهذا التراث فضل - بعد الله عز وجل - فى ذلك أيضا، فقد ساهم فى زواجى بالنصيب الأكبر: الكتابة عن شخصين من أحبِّ الناس إلى قلبى، بل هما أحب الناس

إلى قلبى حقيقة، الأول: الإمام الشهيد حسن البنا، أحد مجددى الإسلام فى هذا القرن، والثانى: العلامة الشيخ يوسف القرضاوى. وقد كنت مُتَّهمًا بهما، ومُنعت من التعيين بسبب فكرِهما، وسبحان من بيده خزائن السماوات والأرض! ورُبَّ محنة حملت فى طَيِّها منحة.

عملى فى الكتاب:

كما أودُّ أن أبيِّن عملى فى الكتاب، والمنهج الذى سأسير عليه فى جمع وتحقيق الكتاب، وهو كالتالى:

١ـ قمت بجمع المقالات التى نُشرت من قبل، جمعًا متناسقًا بعضه مع بعض، رغم اختلاف سنوات النشر، واختلاف الصحف والجرائد والمجلات التى نُشرت فيها.

٢ـ قمت بتحقيق المقالات، وإثبات أن صاحب المقال هو الإمام البنا، وذلك بالتأكد من وضع اسمه فى نهاية المقال، أو فى صدر المقال، أو فى فهرست المجلة.

وهذا كان واضحًا فى كل المقالات، إلا ـ وذلك من باب الأمانة العلمية ـ المقالات التى يجدها القارئ تحت عنوان: (من الأدب العالى) وهى تفسير سورة (الحجرات) وسورة (المجادلة) فهذه لم تُوقَّع مطلقا باسم الإمام البنا، ولكنها كانت توقع باسم: (الحسن)، وما أكد لى أن هذه المقالات للإمام، عدة أمور أهمها:

أن الذى يقرأ تراث الإمام الشهيد المنشور من الرسائل وغيرها، يدرك بسهولة ويُسر أسلوبه المتميِّز عن غيره، فطريقته فى تفسير الآيات هى طريقته المعروفة، ولذا سيلمس القارئ بنفسه حسَّ الإمام الشهيد وروحه فى الكلمات التى كتبها.

كما أنه نشر عدة مقالات تحت عنوان: (دعوتنا) وقد جمعت فيما بعد فى رسالة (دعوتنا) على ما تمثِّله الرسالة من أهمية قصوى فى أدبيات الإخوان المسلمين، ولم أجد فى هذه الفترة من المجلة مقالاً واحدا للإمام الشهيد موقَّعًا باسمه، ولذا أرجع عدم توقيعه للظروف الأمنية آنذاك.

ومن توثيق المقالات أيضًا: قمت بذكر تاريخ نشر المقال، وذلك بذكر رقم العدد والسنة واليوم، وفى اى مجلة نُشرت.

٣ـ كما قمت بتصويب الأخطاء المطبعية وما أكثرها، ونبهت على بعضها، وكنت أنوى التنبيه عليها كلها، غير أنى رأيتها كثيرة جدًا وستستهلك وقت القارئ، وستأخذ مساحة من صفحات الكتاب، وهذا يؤثر بالسلب من جهتين: أولا: بكثرة صفحات الكتاب، وهذا يرهق القارئ ذهنيًا. وثانيا: بارتفاع قيمة شرائه، وهذا يرهقه ماديًا. وأنا لا أحبُّ إرهاق الإخوة القراء لا ذهنيًا ولا ماديًا. ومن التصويب أيضا: علامات الترقيم التى تكاد تكون منعدمة فى كثير من المواضع للأسف، اللهم إلا فى مقالات الإمام التى نُشرت فى مجلة (الشهاب)، على ما يعتريها من نقص فى مواضع من علامات الترقيم.

٤ـ وقُمت بتخريج الأحاديث وذلك بعزوها إلى مصادرها، وذكر درجتها من حيث الصحة والضعف، وذلك بالاستعانة بما كتبه شيوخنا القدامى والمعاصرون، وقد ذكرت مراجعى فى التحقيق عامة والطبعات التى اعتمدتها فى آخر الكتاب فلتراجع، وسوف يجد القارئ أنى عندما أذكر تصحيح أو تضعيف العلماء المعاصرين لحديث، أذكر اسم المرجع وأقول وصححه أو ضعفه محققه، وذلك اعتمادا على أنى أشير فى ثبت المراجع لاسم المرجع والمحقق، وعلى ذكره فى أول مرة يرد فى الكتاب، فلينتبه القارئ لذلك.

٥ـ كما قُمتُ بوضع عناوين لتوضيح المعانى، وبخاصة إذا طال المقال ولم يوجد به عناوين توضح الفقرة أو الفكرة التى يتناولها الإمام الشهيد، وقد ميزت عناوينى عن عناوين الإمام الشهيد بأن وضعت عناوينى بين معقوفتين [ ].

٦ـ كما لاحظت بعض الفجوات فى بعض العبارات، وهنا تدخلت بقلمى لأملأ الفجوات التى فى النص، ووضعت ما أضفته أيضا بين معقوفتين [ ]، تمييزا بينها وبين كلام الإمام البنا.

كما أن هناك جهودًا أخرى فى الكتاب يراها القارئ بين ثناياه، لا نطيل فى ذكرها.

شكر وتقدير:

لقد علمنا ديننا الحنيف: أن شكر الناس على ما أسدوه من جميل: هو فى ذاته شكر لله عز وجل، يقول رسول الله ﷺ: **«من لم يشكر الناس لم يشكر الله»**[1] وأن التنكر للناس، وهضم حقهم: من شيم اللئام لا الكرام، ولا المؤمنين الشاكرين. وقد قال العلماء قديما: من بركة العلم: أن ينسب لقائله، ومن الأمانة فى العلم: عزوه إلى قائله أو ناقله. وقال الإمام الشافعى: الحر من راعى وداد لحظة، وانتمى لمن أفاده لفظة[2]

ولذا يطيب لى أن أذكر بالفضل والعرفان هنا: إخوة فضلاء ساعدونى فى مراجعة مواد الكتاب، وكانت جهودهم متمثلة فى التصحيح الإملائى، والمناقشة فى بعض الآراء، وإسداء النصح العلمى، ومن هذه التوجيهات والنصائح ما أقررتهم عليه، ومنها ما لم أقرهم عليه، إما لعدم قناعتى بما أبدوه، أو لأنها لا تتفق مع المنهج الذى سرت عليه فى التحقيق. فالله أسأل أن يجزيهم خيرا على ما قدموا من نصح ومعاونة.

وقد طلب إلى الإخوة الذين مدُّوا يد المساعدة ألا أذكر أسماءهم، غير إنى أرى ذلك من باب إنكار الجميل، وعدم الاعتراف بفضل الناس، فأذكر منهم شيخى وأستاذى الدكتور يوسف القرضاوى، الذى قرأ كثيرا من صفحات الكتاب، وصوَّب ما صوَّب من أخطاء، وناقش ما ناقش من أفكار، ثم زاد فى الكرم - رغم كثرة أعبائه - فكتب مقدمة، زيَّن بها الكتاب، وأثنى بها على المحقق بما ليس له بأهل.

وأذكر أخى الكبير المرحوم الشيخ محمود الخازندار، الذى صحَّح كلَّ الكتاب، وأبدى كثيرا من الملاحظات، واستجبت لمعظمها، وقد أبى رحمه الله أن أذكر اسمه، لأسباب معينة، ولكن بعد أن دفعت بالكتاب للمطبعة فوجئت بعدها بأيام بنبأ وفاته، الذى أفجعنا جميعا، فأذكره هنا: وفاء له، فهو رجل ما عرفته إلا وفيًّا لدعوته، وفيًّا لإخوانه. وكذلك أذكره ترحمًا عليه، فرحمه الله رحمة واسعة، وجزاه خير الجزاء عما قدم لدينه وإخوانه.

---

(١) رواه الترمذى وحسنه (١٩٥٥) وأبو داود (٤٨١١) وابن حبان (٣٤٠٧) وصححه محققه: (الشيخ شعيب الأرناؤوط)، والبيهقى (٦/ ١٨٢) والطيالسى (٢٤٩١) والبخارى فى الأدب المفرد (٢١٨) كلهم عن أبى هريرة رضى الله عنه.

(٢) انظر: كتاب (قيمة الزمن) للشيخ عبد الفتاح أبي غدة رحمه الله ص٧

الدوحة

١٦ / ٢ / ٢٠٠١م

الفقير إليه تعالى

عصام تليمة

حسن البنا

والدراســـات القرآنيـــة

حسن البنا والدراسات القرآنية

حسن البنا ابن القرآن:

لقد نشأ الإمام حسن البنا فى بيئة قرآنية، فأبوه هو العلامة الشيخ أحمد عبد الرحمن البنا الشهير بالساعاتى، أحد العلماء الأفذاذ، وكانت أمُّه رحمها الله تعتنى به، وبتربيته تربية دينية، فحفظ رحمه الله القرآن وهو طفل صغير.

ولم يكن البنا يقرأ القرآن دون تفهُّم لمعانيه، فقد نشأ الطفل حسن البنا شغوفًا بالقرآن، شغوفًا لمعرفة معانيه وأسراره، ولم يكن يترك الآية تَمُرُّ على سمعه مرَّ الكرام، بل كان يقف أمامها مرَّات ومرَّات، يروى موقفا من هذه المواقف رحمه الله فيقول:

"كنت أصحح[1] سورة "ن" أمام أستاذى رحمه الله، فوقفت عند الآية الكريمة ﴿إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ﴾ [القلم:١٧].

وتوجَّهت إليه بالسؤال فجأة: يا سيدنا الشيخ، إنك تقول لنا: إن الجنة دار نعيم ليس فيها غمٌّ ولا كَدَرٌ، ولكنَّ هذه الآية تقول: إنَّ أصحاب الجنة فى بلاء فكيف هذا؟!

فابتسم الشيخ رحمه الله وقد كان رجلا فيه حِلْمٌ وأناة، وظُرْفٌ وأدب، وعِلْمٌ وفضل، وقال: "اسمع يا بنى: إنَّ الجنَّة هنا ليست جنة الآخرة التى وعدها الله عباده المتقين، ولكنها "جنينة" وحديقة، كانت لثلاثة من الإخوة، اعتادوا أن يُخرجوا من ثمرها كل عام جزءا للفقراء والمحتاجين، شكرًا لله على نعمته، وكان الله تبارك وتعالى يبارك لهم فيها بسبب هذا الشكر.

ولكنَّهم فى عام من الأعوام بيَّتوا أمرهم من الليل، وتناجوا فيما بينهم ألاَّ يسمحوا لمسْكينٍ أن يدخلها عليهم، أو ينال من ثمرها شيئًا، وظنُّوا - وهم يتحدثون - أنهم فى خلوة خالية لا يحضرهم فيها غيرهم، ولا يسمع حديثهم أحد سواهم، ولكن الله الذى يسمع ويرى ويعلم السر وأخفى، سمع حديثهم ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ

---

(١) تصحيح السورة اى قراءة السورة التى سيحفظها امام شيخه حتى لا يخطئ فى قراءتها ويحفظها خطأ.

وَلا خَمْسَةٍ إِلاَّ هُوَ سَادِسُهُمْ وَلا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلا أَكْثَرَ إِلاَّ هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ﴾ [المجادلة: ٧].

وعلم سبحانه وتعالى قصدهم فعاقبهم على ذلك، بأن أرسل على جنتهم صاعقة دمرتها وهم نائمون، فلم تبق فيها ولم تذر، وأصبحوا يتهامسون، وانطلقوا وهم يتخافتون ﴿ **أَن لاَّ يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدَوْا عَلَىٰ حَرْدٍ قَادِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴾** [القلم: ٢٤-٢٧].

وتلك يا بنى عاقبة الذين يظنون أن الله غافل عما يفعلون، غائب عما يبيتون ﴿ **كَذَٰلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾** [القلم: ٣٣].

كان هذا الحديث منذ ثلاثين عامًا تقريبًا، ولكنى أذكره الآن كأنه وقع بالأمس، فقد ترك فى نفسى أعمق الأثر، وأذكر أنى حدقت بين يدى الشيخ، وأنا دائم التفكير فى هذه الرقابة الربانية التى فرضها الله على عباده المؤمنين به، وأذكر أن هذا التفكير دفع بى إلى التبصُّر فى كثير من آيات الكتاب الكريم، وتبع هذا المضى فيه، فلم أر إحاطةً أعظم، ولا رقابةً أحكم، ولا تسجيلا أتمَّ، مما صور به القرآن الكريم هذه الصلة بين الله والناس"[١]

هكذا كان حسن البنا الطفل، وعلاقته بكتاب الله، لم يكن مجرَّد آلة تحفظ القرآن دون تدبُّر لمعانيه، وتفهُّم لأسراره، وكذلك كان فى شبابه، بل فى حياته كلِّها، فى بيته وخارج بيته، كانت علاقته بالقرآن لا تنقطع، يروى الأستاذ عبد الرحمن البنا عن علاقة حسن البنا[٢] بالقرآن فى بيته، فيقول:

"غاب عن الناس من خلقه، ما جعله بين نفسه وربه يستره عن الناس، فلا يطلع عليه إلا خاصَّة أهله، فهو فى بيته ـ شهد الله ـ لا يَفْتُر عن مصحفه، ولا يغيب عن قرآنه، ولا

---

(١) انظر: مقال (قلم التسجيل) المنشور فى جريدة (الإخوان المسلمون) اليومية فى العدد (٣٤) من السنة الأولى، نقلا عن: (أحاديث الجمعة) الجزء الأول للإمام الشهيد بتحقيقى طبعة دار القلم دمشق. تحت الطبع.

(٢) شقيق الإمام البنا، ورفيق صباه، وهو أديب وشاعر، له قصائد كثيرة نشر عددا منها فى مجلة (جريدة الإخوان المسلمين) وله عدد من المسرحيات منها: (بنت الإخشيد) (وقصر الذهب) وغيرهما.

يغفل عن ذكره، يتلو القرآن على الحافظ منا فيسمع له، ويلقى بالمصحف - إذا لم يجد حافظًا - إلى الصغير فيراجع عليه، ويملأ البيت بالقرآن والتلاوة سابحًا فى آيات، غارقًا فى ذكريات، صاعدا إلى سماوات، يعرف الطريقة التى كان يقرأ بها النبى ﷺ فيقرأ بها، والمواقف التى كان يقف عندها.

وكان تَعْرُو جسمه رَعْدَةٌ، وتأخذ نفسه روعة، فيتجهَّم لدى آيات الوعيد، ويشرق عند آيات البشرى والنعيم، خارجا عن الجوِّ الذى يحيا فيه، غائبًا فى معنى بعيد بعيد:

يكاد - والله - فى التنزيل قارئه يحس صوت رسول الله يرتفع[1]

ومن إكرام الله للبنا - الرجل القرآنى - أن وفقه لامرأة من أهل القرآن، اكتشفتها أمه عندما كانت تزور أسرة من الأسر الصديقة لها، فسمعت فى إحدى ليالى زيارتها صوتًا جميلاً يتلو القرآن، فسألت عن مصدر ذلك الصوت؟ فقيل لها: إنها ابنتنا فلانة تصلى، فلما رجعت الأم إلى منزلها، وأخبرت ابنها بما كان فى زيارتها، وأومأت إلى أن مثل هذه الفتاة الصالحة جديرة أن تكون زوجة له، وكان ما أشارت به[2]

وظلَّت علاقة البنا بالقرآن لا تنقطع فى سَفَرٍ أو حضَرٍ، فى شغله أم فى فراغه، لقد عاش يتمتم بآيات القرآن، ومات لخوضه معركة القرآن، ومن المُضْحكات المُبْكيات: أن يُغتال الرجل الملقب بـ "الرجل القرآنى ويُحَرَّم على الناس قراءة الفاتحة - فضلاً عن القرآن - تَرَحُّمًا عليه وقت وفاته، فقد كتبت جريدة الكتلة - التى كان يصدرها مكرم عبيد - تقول: وذلك الرجل الذى اطَّلعت من جبهته وصدغيه وعينيه آثار اللكمات ياله من مُجْرِمٍ خطير! تصوروا أن أحد رجال البوليس ضبطه يتمتم بالفاتحة من إحدى النوافذ أثناء سير جنازة الشيخ حسن البنا الرهيبة، فصعد إليه واقتاده من بين أطفاله وزوجته، والسلاح فى ظهره مستعدًا ليسكته إذا حاول المقاومة أو الفرار. وكانت جريمته التى صفعه البوليس على وجهه عقابا لها: أنه قرأ الفاتحة على روح الشيخ حسن البنا!"[3]

(١) انظر: حسن البنا للأستاذ أنور الجندى ص ٢٧٧،٢٧٨ طبعة دار القلم دمشق الأولى.

(٢) انظر: الإخوان المسلمون احداث صنعت التاريخ (١ / ٦٨) للأستاذ محمود عبد الحليم.

(٣) انظر: حسن البنا مواقف فى الدعوة والتربية، للأستاذ عباس السيسى ص٣١٦

البنا ورأيه فى تحفيظ القرآن للصغار:

على الرغم من أن البنا ممن حفظوا القرآن فى الصغر، إلا أنَّ له رأيًا يخالف ما نَعم به فى الصغر من حفظ لكتاب الله، فقد كان يرى - رحمه الله - أن تحفيظ الصبيان القرآن فى صغرهم غير محبوب تربويًا، ولا يفضل ذلك، ويقترح التدرج فى حفظه على مدار سنوات التعليم حتى ينهى الطالب المرحلة الجامعية، يقول الإمام البنا مبينا رأيه فى هذه القضية وما يفضله:

"دَرَجت المناهج فى مصر، وتقرَّر فى أذهان الناس: أن تحفيظ القرآن جزءٌ من منهج التعليم لأول أدواره، إذ إنَّ هذه السن هى وقت قوة الحافظة والذاكرة، ولا يتيسر حفظه فيما بعد ذلك. وصار هذا عرفًا يجد الناس فى مخالفته كثيرا من الحرج، ويخيل إليهم أن ذلك ضياعٌ لكتاب الله، وترى من جانب آخر أن اشتغال الطلبة بحفظ القرآن كله فى هذه السن يفوت عليهم كثيراً من استخدام مواهبهم العقلية، ويعطل كثيراً من قواهم النفسانية، ويرسم القرآن فى عقولهم وقلوبهم ألفاظاً لا معنى لها، ويعودهم القراءة بدون تفكير ولا تدبر فى مستقبل حياتهم، فهذه الطريقة إن خرجتهم أوعية القرآن، فقد حرمتهم لذة تدبره، وثمرة التفكير فى معانيه ومقاصده.

والمشكل قديم، وقد عالجه أبو بكر بن العربى، وأشار إليه وأبان أن التحفيظ ابتداء طريقة المشارقة، ونَقَدَ هذه الطريقة نقداً مُرًّا، وزكَّى طريقة المغاربة والأندلسيين فى البدء بتعليم اللغة، وتذوُّق الأدب، ثم يأتى دور دراسة القرآن بعد ذلك.

ونحن نريد أن نوفِّق بين حفظ كتاب الله والمحافظة عليه، وبين الانتفاع بكل القوى والمواهب فى الطفل وتربيتها جميعًا تربية متناسقة، بحيث يقوى بعضها بعضًا، ويعضد بعضها بعضًا، ولنجمع بين الفائدتين، ونقترح أن يوزع حفظ ثلث القرآن على الأدوار الثلاثة من أدوار التعليم السابقة: الأولى والابتدائى والثانوى، فيحفظ التلميذ فى مدة دراسته التحضيرية أو الأولية جزءا واحدا فقط، وفى دراسته الابتدائية أربعة أجزاء مع استذكار الماضى، وفى دراسته الثانوية خمسة أجزاء مع استذكار ما سبق.

بذلك يكون كل متعلم فى الأمة قد حفظ شيئاً من كتاب الله، ويكون كل من تخرج من المدارس الثانوية قد حفظ ثلث القرآن، وفى دور الدراسة العالية يحفظ كل

طالب فى كليات الآداب أو الدراسات الإسلامية الثلثين الباقيَيْن، بحيث لا يجاز بشهادته إلا إذا أدى امتحانًا دقيقًا تامًا فى القرآن كله، ويحفظ كل طالب فى الكليات الأخرى خمسة أجزاء ليتم بذلك حفظه لنصف القرآن، ولا يعطى شهادته كذلك إلا بامتحان دقيق فى كتاب الله" (١).

ولعلَّ السبب وراء اقتناع الإمام البنا بأن حفظ القرآن يسبب عبئًا على الطفل، من حيث حرمانه من الاستفادة بمواهب أخرى من الممكن أن تنمى فى صغره بجانب الحفظ للقرآن.

ولعلَّه بنى رأيه على أن الأفضل أن يحفظ الإنسان ما يعى، ومن ذهب إلى هذا الرأى مستنده: سلوك الصحابة رضوان الله عليهم الذى كان الصحابىُّ منهم لا ينتقل من حفظ العشر آيات، حتى يَعِيَها، ويطبقها عمليًّا، ثم ينتقل إلى غيرها(٢).

ولكن هذا معناه: أن يظل الإنسان طوال عمره يحفظ القرآن ولن يحفظه، وهذا معناه أيضًا أن الأعجمى الذى لا يفهم اللغة العربية وبالطبع القرآن الكريم أيضا لن يحفظ القرآن، لأن كثيرًا منهم - بل معظمهم - يحفظ القرآن ولا يستوعب معناه، فهذا معناه أن الأعجمى لن يحفظ القرآن الكريم.

وأرى أنَّ الرأى الأقرب للصواب فى هذه المسألة: هو ما ذهب إليه القائلون بأفضلية حفظه فى الصغر.

وأنقل هنا رأىَ واحدٍ من القائلين بأفضلية حفظ القرآن فى الصغر، وهو الشيخ القرضاوى - حفظه الله - فى معرض رده على الذين هاجموا مكاتب تحفيظ القرآن للصغار، بدعوى أنها تعتمد على الحفظ دون الفهم، فقال:

"ولقد رأينا بعض التربويين المعاصرين ينتقدون حفظ القرآن فى الصغر، لأنه حفظ دون فهم، ولا ينبغى للإنسان أن يحفظ ما لا يفهم.

---

(١) نقلا عن مقال (ليسمع الدكتور طه) للإمام البنا نشر فى مجلة (النذير) فى العدد (٦) من السنة الثانية المنشور فى يوم الاثنين ٦من صفر سنة ١٣٥٨هـ.

(٢) أثر لابن مسعود رضى الله عنه. انظر: زاد المسير لابن الجوزى (١/ ٤) وتفسير ابن كثير (١/ ٤).

ولكن هذه القاعدة لا ينبغى أن تُطبق على القرآن، فلا بأس أن يحفظ الصبى القرآن صغيرا، ثم يفهمه كبيرا. لأن الحفظ فى الصغر، كالنقش على الحجر، كما قال الحكيم قديما. ولما قيل له: إن الكبير أوفر عقلا! قال: ولكنه أكثر شغلا!

ولقد حفظنا القرآن واختزناه صغارا، فنفعنا الله به كبارا.

على أن من مزايا القرآن: أنه كتاب مبين ميسر. ولهذا يفهمه ـ فى الجملة ـ الصغير والكبير، والأميُّ والمتعلم، ويأخذ كل منه على قدره.

وأذكر أنى ـ وأنا فى الكُتَّاب ـ كنت أقرأ القصص ومواعظه وأعرف العبرة العامة منها، وإن خفيت على معانى الغريب من الكلمات والأحكام ونحوها.

ومما أذكره أنى كنت يوما (أُسَمِّع) على فقيه كتابنا الشيخ حامد ـ رحمه الله ـ سورة الصافات، وفيها ذكر عدد من قصص المرسلين، ومنهم لوط وقومه الذين دمر الله عليهم، وأهلكهم بعذابه. وفيها يقول تعالى: ﴿ **وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ الْمُرْسَلِينَ (١٣٣) إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ (١٣٤) إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ (١٣٥) ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ (١٣٦) وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ (١٣٧) وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ** ﴾ [الصافات: ١٣٣-١٣٨].

وقد قرأت الآيتين الأخيرتين هكذا: وإنكم لتمرون عليهم مصبحين. وبالليل. ووصلت (مصبحين وبالليل) ولم أقف على رأس الآية، ثم قرأت أفلا تعقلون فقال الفقيه: الله يفتح عليك! فقد عرف الشيخ أننى فهمت المعنى: أنكم تمرون عليهم مصبحين وممسين، بالنهار وبالليل.

وقد وجدنا من إخواننا الأقباط[1] من يحرص على حفظ القرآن، أو أجزاء كثيرة منه، وأن يحفظه أبناؤه فى صغرهم، كما حكى ذلك عن نفسه الدكتور نظمى لوقا الأديب القبطى المصرى فى مقدمة كتابه الشهير: (محمد: الرسالة والرسول) وكيف بعث به

(١) لى اعتراض على إطلاق شيخنا الشيخ القرضاوى كلمة "الأقباط" على النصارى، وهو خطأ يقع فيه كثير من الكتاب، فكلمة قبطى لا تعنى النصرانى، بل معناها المصرى القديم، فكل مصرى قديم قبطى، يستوى فى ذلك من كان على ملة النصارى أو غيرها، والأولى أن نعبر عنهم بما عبر به عنهم القرآن الكريم: النصارى.

أبوه إلى أحد شيوخ المسلمين فى مدينة السويس، وكان شيخا ضريرا متقنا لقراءة القرآن، وأوصاه أن يلقن ابنه القرآن، ويحفِّظه على أصوله. وقد فعل.

وكان الزعيم السياسى القبطى المعروف مكرم عبيد يحفظ الكثير من القرآن، ويحسن الاقتباس منه فى خطبه إذا خطب، وفى مقالاته إذا كتب، وفى مرافعاته إذا ترافع، فكانت الكلمات القرآنية تكسب كلمه حلاوة، وتضفى عليه طلاوة، وتعطيه قوة لا توجد فى غيره من الكلام.

ومما يفيده حفظ القرآن فى الصغر على أصوله: تقويم اللسان، وضبط الحروف، وإخراجها من مخارجها الصحيحة، وعدم الوقوع فيما يقع فيه العوام وكثير من المتعلمين للأسف، من عدم تعطيش الجيم، وعدم إخراج اللسان فى الثاء والذال والظاء، ونحوها، وعدم تفخيم حروف الإظهار المعروفة من الخاء والصاد والضاد والطاء والظاء والغين والقاف، ونحو ذلك من الأشياء التى تعودناها، ولانت بها ألسنتنا من الصغر، بسبب حفظ القرآن، وأصبحت لنا طبيعة ثانية.

ومثل ذلك متى تفخَّم الراء ومتى ترقَّق، ومثل ذلك اللام فى لفظ الجلالة (الله) متى تفخم ومتى ترقق"(١).

البنا ومعركة المصحف:

لقد عاش البنا بالقرآن، وعاش للقرآن، عاش يطبق القرآن فى نفسه، ويربى تلامذته على العمل به، كما عاش للقرآن أى: للعمل على إعادته للحياة، فالناس فى عهده لم تكن علاقتهم بالقرآن إلا نَيْل التبرُّك بقراءته، ولم يكن يتجاوز مآتمهم وقبورهم، وقد ظلت هذه الفكرة طويلاً فى أذهان الناس أن موضع القرآن القراءة على الموتى، أما أن يعرف الناس أن القرآن دستور يجب أن يطبَّق فقد كان من المُسْتَغرب لديهم. وهذا ما أحياه حسن البنا فى نفوسهم وضمائرهم من جديد.

"لقد استطاع البنا رغم ما دُبِّر لوضع حدٍّ لدعوته - أو حياته - أن يعمل، وأن يضع فى الأرض البذرة الجديدة، بذرة المصحف، البذرة التى لا تموت بعد أن ذوت شجرتها

(١) انظر: كيف نتعامل مع القرآن العظيم؟ للدكتور القرضاوي ص ١٢٠، ١٢١ طبعة مركز بحوث السنة والسيرة.

القديمة، ولم يمت الرجل إلا بعد ان ارتفعت الشجرة فى الفضاء واستقرت.

لقد حمل حسن البنا المصحف، ووقف به فى طريق رجال الفكر الحديث الذين كانوا يسخرون من ثلاث كلمات: "شرق، وإسلام، وقرآن" كان الرجل يريد أن يقول: آن للشرق أن يمحّص أفكار الغرب قبل أن يعتنقها، بعد أن غدت الحضارة الغربية فى نظر أصحابها لا تُوفى بما يطلب منها"(١).

لقد نَذَر البنا حياته من أجل بيان عوار القوانين والأفكار المستوردة، وبيان أهمية القرآن وقيمته، وقيمة تشريعه وخلوده، وبيان ما حبانا الله عز وجل به من ثروة وكنوز نحن نفرِّط فيها، ونتعامل معها بجهل أو بعدم وعى لقيمتها، يقول رحمه الله:

"إن هذا كتاب الله كمثل ساعة، بعض الناس يتركونها، وبعضهم يلعبون بها ولا يعرفون قيمتها، وبعضهم يستفيدون باجر إصلاحها، وآخرون هم الذين يستعملونها فى الغرض الذى صُنعت من أجله.. وهكذا كتاب الله تعالى، بعض الناس يعلِّقونه على الأبواب، وبعضهم يضعه تحت وسادته عند النوم وهؤلاء كالأطفال، وآخرون يقرؤونه فى الحفلات أو على المقابر، وهؤلاء هم الذين يتقاضون أجرًا عليه، وقليل من الناس يتعامل مع القرآن فيشرحه ويعلمه ويلتزم تعاليمه، وهؤلاء هم الذين يضْبطون به حياتهم، ويجاهدون به فى سبيل إقامة الدولة الإسلامية.. فنحن نعمل جاهدين، لكى يصبح القرآن دستورنا.

لا دستور لنا إلا القرآن.. فلم ينزل القرآن من علياء السماء على قلب محمد ﷺ ليكون تميمة يُحتجب بها، أو أورادًا تُقرأ على المقابر وفى المآتم، أو ليكتب فى السطور، ويحفظ فى الصدور، أو ليحمل أوراقًا ويهمل أخلاقًا، أو ليحفظ كلامًا ويهجر أحكامًا.. وإنما نزل ليهدى البشرية إلى السعادة والخير ﴿**قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ (١٥) يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ**﴾ [المائدة: ١٥، ١٦].

أليس من العيب أيها المسلمون أن ترضوا بأحكام الإفرنج، ولا ترضوا بحكم الله، مع أن الله تعالى قد وَصم كل أمة لا تحكم بأحكام كتابه بالفسق فقال: ﴿**وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا**

(١) انظر: "الرجل القرآني" لروبير جاكسون نقلا عن: حسن البنا للأستاذ انور الجندي ص٣٠١

أنزلَ اللهُ فَأُولَئك هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [المائدة: ٤٧]، بل جعل الفسق هينا فوصمها بالظلم ﴿ومن لَمْ يحكُم بِمَا أنزلَ اللهُ فَأُولَئك هُمُ الظَّالمُونَ﴾ [المائدة: ٤٥].

إن مثلكم أيها المسلمون عندما تركتم كتاب الله وراءكم، كمثل الرجل الذى بيده المصباح، فيابى إلا أن يطفئه، ويلتمس غيره عند العميان..

وإن مثل موقف المسلمين اليوم من كتاب الله، كمثل جماعة أحاط بهم ظلام من كلّ جانب، فساروا على غير هدى يخبطون خبط عشواء مع أن فى أيديهم مفتاح كهرباء لو وصلت إليه أصابعهم، يستطيعون بحركة بسيطة أن يضيئوا مصباحا قويًا زاهرًا.. هذا مثل المسلمين اليوم من كتاب الله.

وإن العالم الآن، قد غشيه موجة مادية، فجعلته كسفينة حار ربانها، وأتت عليها العواصف من كل جانب، فالإنسانية قلقة معذبة، قد اكتوت بنيران المطامع والأغراض، فهى فى حاجة إلى عذب من هدى القرآن يغسل عنها أوضار[1] الشقاء، ويأخذ بها إلى السعادة.

وإن علماء القانون عندما تركوا القرآن، واتَّجهوا إلى غيره، مثلهم كمثل الرجل الذى تكدست خزائنه بالأموال، ثم يتَّجه إلى المرابين يقترض منهم بأفحش الفوائد الربوية، ولا يفعل ذلك عاقل أبدا.

ويحى على ساسة القانون ويحهم ... على جهود أضاعوها وما وجدوا
وبين أيديهم القرآن يوردهم ... أسمى المناهج والأحكام لو وردوا

أيها المسلمون:

ليس من العجب أن هؤلاء الغربيين، الذين لم يفتح الله بصائرهم على نور القرآن الكريم يسيرون على غير هدى، لأن الله يقول: ﴿ومن لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَما لَهُ مِن نُورٍ﴾ [النور: ٤٠]، ولكن العجب فى هؤلاء المسلمين، الذين لا يخلو جيبٌ من جيوبهم، ولا بيت من بيوتهم من نسخة من كتاب الله تعالى .. هؤلاء المسلمون، استطاع الغربيون أن يبعدوهم عن نور قرآنهم وهدى نبيهم تارة بالشهوات وطوراً بالقوة

(١) الأوضار جمع الوضر وهو: الدرن أو الوسخ. انظر: لسان العرب.

والعلم: ﴿ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴾ [الروم: ٧]، حتى أصبح المسلمون كما أخبر المصطفى ﷺ إذ يقول: «لتتبعن سنن من كان قبلكم شبرا بشبر وذراعا بذراع، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه.. قالوا: اليهود والنصارى يا رسول الله. قال: فمن غيرهم»[(١)].

هذا مع أن الله تعالى حذر المسلمين من ذلك فقال: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤٩، ١٥٠].. عجبًا، عجبًا!!"[(٢)].

بل جعل الإمام البنا من شعارات دعوته، والتي يحرص الواحد من أتباعه على تنفيذها شعار: (القرآن دستورنا)، وجعل رمز دعوته - الإخوان المسلمون - مصحفًا يحوطه سيفان، وجعل عودة القرآن للحياة حاكما ودستورا معركة يجب على كل مسلم أن يخوضها، فكتب في ذلك عدة مقالات تحت عنوان: (معركة المصحف) في جريدة: (الإخوان المسلمون) اليومية.

واتخذ البنا لعودة القرآن للحياة عدة وسائل منها: تربية الأفراد على آداب وتعاليم القرآن، ومنها دخول البرلمان أو مجلس النواب (سابقًا) والذى سمى فيما بعد بـ (مجلس الشعب)، وذلك لرفع راية القرآن وإيصال تعاليمه للناس، ولما قرر الإخوان دخول البرلمان للمناداة بتحكيم القرآن، وجَّه أحد الناس سؤالاً لحسن البنا قال فيه: ماذا تصنعون في اليمين الدستورية إذا نجحتم وفيها النص على احترام الدستور وأنتم معشر الإخوان تهتفون من كل قلوبكم (القرآن دستورنا)؟! فكانت إجابة البنا رحمه الله:

"الجواب على ذلك واضح مستبين، فالدستور المصرى بروحه وأهدافه العامة من حيث الشورى وتقرير سلطة الأمة وكفالة الحريات لا يتناقض مع القرآن، ولا يصطدم بقواعده وتعاليمه وبخاصة وقد نصَّ فيه على أن دين الدولة الرسمى هو الإسلام، وإذا كان فيه من

(١) رواه أحمد (٣/ ٥٠٥، ٥١٣) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه. ورواه أحمد (٣/ ٣٤٠) والحاكم (١/ ٩٣) وصححه، وابن أبي شيبة (٨/ ٦٣٤) عن أبي هريرة رضي الله عنه. ورواه الحاكم (٤/ ٥٠٢) عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) من خطبة ألقاها الإمام البنا في حفل المولد النبوي بالإسكندرية سنة ١٩٣٧م انظر: حسن البنا مواقف في الدعوة والتربية ص٦١-٦٣

المواد ما يحتاج إلى تعديل أو نضوج فقد نص الدستور نفسه على أن ذلك التعديل والنضوج من حقّ النوّاب بطريقة قانونية مرسومة، وتكون النيابة البرلمانية حينئذ هى الوسيلة المثلى لتحقيق هتاف الإخوان(١).

ولم يكن اهتمام البنا بالقرآن اهتمامًا شخصيًا لا يتعدّى غيره من أتباعه وتلامذته، بل نراه رحمه الله يحثُّ أتباعه على قراءة القرآن والعمل به، وبيَّن لهم أن سبب ضياع المسلمين وهزيمتهم من أعدائهم هو هجرهم للقرآن.

يقول رحمه الله: "عرف سلفنا الصالح رضوان الله عليهم فضل القرآن وتلاوته، فجعلوه مصدر تشريعهم، ودستور أحكامهم، وربيع قلوبهم، وَوِرد عبادتهم، وفتحوا له قلوبهم وتدبّروه بأفئدتهم، وتشرّبت معانيه السامية أرواحهم، فأثابهم الله فى الدنيا سيادة العالم، ولهم فى الآخرة عظيم الدرجات؛ وأهملنا القرآن فوصلنا إلى ما وصلنا إليه من ضعف فى الدنيا ورِقّة فى الدين"(٢)

بل دعا البنا ـ رحمه الله ـ تلامذته إلى أن يجعلوا لهم وردًا قرآنيًا كل يوم، على حسب ظروف كل منهم، فقال: ولهذا عُنِى الإخوان المسلمون بأن يجعلوا كتاب الله تبارك وتعالى أول أورادهم، وكان من تعهُّدهم أن يرتّب الأخ على نفسه كل يوم حزبًا من القرآن الكريم"(٣)

ثم تكلم عن مقدار الورد فقال: "تختلف ظروف الإخوان وأحوالهم، ولهذا لم يُحدد مقدار الورد، وترك ذلك لظروف كل شخص ومقدرته والمهم ألا يمر يوم بغير أن يقرأ شيئًا من كتاب الله تعالى"(٤)

---

(١) انظر: مجلة (الإخوان المسلمون) الأسبوعية العدد (٢٢) من السنة الثانية الصادر في ١٨ من ذي القعدة سنة ١٣٦٣هـ ـ ٤ من نوفمبر سنة ١٩٤٤م. والمقال بعنوان: (لماذا يشترك الإخوان في انتخابات مجلس النواب؟).

(٢) انظر: رسالة المأثورات من مجموعة رسائل الإمام البنا ص٥٧٤ طبعة بيروت.

(٣) المصدر السابق ص٥٧٥

(٤) المصدر السابق ص٥٧٦

وجعل البنا من وصاياه التى تلقى عناية من تلامذته وأتباعه: "اتلُ القرآن أو طالع أو استمع أو اذكر الله، ولا تصرف جزءاً من وقتك فى غير فائدة"(١).

ولما رأى البنا الغزو الفكرى يغزو الأمة فى أعزِّ ما تملك من مصادر عزتها، وهو القرآن الكريم، عندما انتشرت المدارس الأجنبية، وقلَّ الحفاظ لكتاب الله، لم يقف البنا وقفة المتفرِّج، الذى يقف ولا همَّ له إلا أن يتغنَّى بماض، أو يبكى على أطلال، بل وضع البنا يده على المرض، كما يضع الطبيب مبضعه على المريض، ليعلم ما فى الجسد المعتل، ثم بعد ذلك يصف الدواء، وهذا ما فعله البنا رحمه الله عندما كتب مقاله المطول فى مجلة (الفتح) بعنوان: وسائل المحافظة على القرآن الكريم. وبيَّن فيها تلك الوسائل ومن يقوم بتنفيذها.

البنا والحقيقة القرآنية(٢):

كما استطاع الإمام حسن البنا أن يحوِّل القرآن إلى حقيقة قرآنية، لا إلى مجرَّد تلاوة، أو لمجرَّد الترف العلمى، بل حوَّله إلى واقعٍ ملموس، فالمتتبع لمسيرة الإسلام منذ نزول القرآن إلى يومنا هذا يجد فارقًا بين الجيل الأول، وبين الأجيال التى تحيا اليوم، حتى سمَّى الشهيد سيد قطب هذا الجيل الأول: الجيل القرآنى الفريد، وحلَّل علَّة عدم تكرار هذا الجيل، وغياب نماذجه الفذة، مما جعله يبحث عن السِّر فى ذلك متسائلاً: هل غياب الرسول ﷺ هو السبب؟ لو كان ذلك لما أماته الله، ولكتب له الخلود والبقاء إلى يوم القيامة، وبخاصة أن الله أرسله بآخر رسالاته، ولكنَّ الله أماته، وفى ذلك دلالة على أن الدين يصلح أن يسير بغير شخصه، ولكن يسير بتعاليمه دون احتياج إلى جسده، ثم اهتدى رحمه الله إلى السر فى ذلك، وأنه الفارق بين تلاوتنا للقرآن وتلاوتهم له، فهم يتلون القرآن لأنه كتاب الله، ولأنه يجعلهم يحيون فى كنف الله، وبتلاوتهم له يستمعون كلامه.

كما أنهم يقرؤون القرآن ليس من باب الترف العلمى، أو من باب أنهم حفظوا القرآن للتباهى بأنهم من حفظته، بل كان الواحد منهم يقرأ الآية ليعمل بها، حتى رأينا منهم

---

(١) الوصية الثانية من الوصايا العشر للشيخ حسن البنا.

(٢) اقتبست هذا العنوان من مقال للأستاذ عبد الحكيم خيال فى مجلة الدعوة سنة ١٩٧٦م.

من يحفظ الآية، ولا ينتقل إلى غيرها إلا إذا طبقها. وهذا هو الفارق بيننا وبينهم، فالقرآن موجود لم يتبدَّل، ولكنها العزائم فى تلقيه، والنفوس فى الاخذ بكلماته والعمل بها[1].

فطن الإمام البنا إلى هذا السر، فعمل على تنفيذه فى نفسه اولاً، ثم تربية اتباعه عليه ثانياً.

يقول أحد تلامذته الذين عاصروه فترة من الزمن، عن هذه الحقيقة القرآنية فى حياة البنا: "لقد تجدَّدت قيمة الآية القرآنية بحركة الإمام البنا، فاصبحت قيمة حية، ووسيلة فاعلة لتحويل الإنسان باعتراف علماء ومفكرين معاصرين له أتاحت لهم ظروف حياتهم أن يكونوا قريبين منه.. اعترفوا لهذا الإمام بسلطان فريد: فيه تصبح الآية القرآنية ذات حافز حى يُملى على الفرد سلوكه الجديد، ويدفعه إلى العمل بقوة لا تقاوم. وأصبح القرآن فاعلاً، وكانه يتنزل اللحظة.

فإذا كان الإمام البنا يهُزُّ سامعيه ويثيرهم، فلانه لا يفسِّر القرآن، بل يبعثه فى الضمائر التى يهزها هزًّا عنيفًا. والقرآن لم يعد على هاتين الشفتين وثيقة باردة، أو قانونًا مكتوبًا، ولكنه انبثاقٌ للكلام الإلهى الحى، ونورٌ ياتى مباشرة من السماء، وينير الطريق، ويقود إلى الحق، ومنبع للطاقة يمنح الإرادة الإنسانية قوة وثباتًا.

إن التربية التى مارسها حسن البنا تجربة مع الكائن الإنسانى لا تستوحى حرفية القرآن، بل تغرف من منهل الوحى نفسه. إنها تجربة يصبح نتاجها شديد الحساسية تحت شكل (الحقيقة القرآنية الفاعلة) فى كل ميادين الحياة.. ذلك أن تربية القرآن شاملة لا تعنى مفهومها المألوف، فهى لا تقتصر على المسجد أو المعهد، ولا تختص بالعبادة دون السلوك، أو تهتم بالفرد وتترك المجتمع، او تعنى بالعقيدة وتهمل العمل، إنما تشمل كل جوانب النفس، وتعمل فى كل ميادين الحياة"[2].

ولم تقف علاقة البنا بالقرآن عند قراءته، وتعلمه وتعليمه للناس، بل كان يعايش هذا

---

(١) يراجع فى ذلك كتاب (معالم فى الطريق) للشهيد سيد قطب، فصل: (جيل قرآنى فريد) ص١٤-٢٣

(٢) انظر: مقدمة كتاب (منبر الجمعة) للاستاذ محمد عبد الحكيم خيال، وقد نقلت منها بتصرف شديد. وهى فى الأصل مقال نُشر فى مجلة (الدعوة) فى سنة ١٩٧٦م.

الكتاب، ويعيش به بين الناس، وقد حكى تلامذة البنا فى كتبهم كثيرًا من المواقف التى تدل على أنه كان رحمه الله يحيا حياته الخاصة والعامة بالقرآن، ويعلم الناس ذلك، فقد ذكر الأستاذ عبد البديع صقر رحمه الله[1]: أن مجموعة من الناس زاروا الإمام الشهيد فى بيته، فقابلهم بلطف، ثم تركهم لفترة من الوقت بداخل المنزل ثم خرج لهم، ولكنهم تضايقوا لما فعله من تركه لهم ودخوله داخل المنزل، ثم فوجئوا بانه يستأذن منهم من أجل موعد قد ارتبط به، عندئذ أبدوا تضايقهم مما فعل الإمام الشهيد! ولكنه بفهمه القرآنى أوضح لهم أن ما فعله انطلاقًا من فقهه للقرآن، وانَّ عليهم مراجعة ذلك، فقال بهدوء: هل جئتم بناء على موعد؟! قالوا: لا. قال: إن القرآن قال: ﴿ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ ﴾ [النور: ٢٨] وأنا لم أقل لكم: ارجعوا، بل رحَّبت بكم واستقبلتكم، ثم بعد ذلك استأذنت منكم لموعد أنا مرتبط به، وكان الحاضرون أهل فقه فسكتوا، وعندئذ أيقنوا أن الرجل يطبق (فقه القرآن الكريم). وهكذا كان دَيْدَن حسن البنا رحمه الله.

البنا والمنهج الأمثل لفهم القرآن:

لقد اطَّلع الإمام البنا رحمه الله على عدة تفاسير، كما بدا ذلك بوضوح فى مقدمته التى وضعها للتفسير فى مجلة (الشهاب)، وكان للإمام الشهيد - رغم سعة اطلاعه على كتب التفسير - رأىٌ فى أىِّ كتب التفسير أفضل؟ وأى الطرق أقرب لفهم القرآن؟

يرى البنا رحمه الله أن أقرب الطرق لفهم القرآن هو قلبه الذى بين جنبيه، فهو خير معين له على فهم معانى الآيات، والعيش فى ظلالها ومعانيها.

وفى هذا يقول إجابة عن هذا السؤال: ما أفضل التفاسير، وما أقرب الطرق لفهم القرآن؟ فقال:

"قلبك فقلب المؤمن لا شك هو أفضل التفاسير لكتاب الله تبارك وتعالى. وأقرب طرائق الفهم أن يقرأ القارئ بتدبُّر وخشوع، وأن يستلهم الله الرشد والسَّداد، ويجمع

---

(١) ذكر ذلك الأستاذ عبد البديع صقر فى مجلة (المسلمون) فى السنة الثانية على ما أذكر إن لم تخنى الذاكرة، حيث إن العدد لا يوجد لدى الآن، وذلك تحت باب ثابت فى المجلة عنوانه (انتفع بتجارب الدعاة) وقد عنون الفقرة الأستاذ عبد البديع صقر بعنوان: (من فقه الكتاب).

شوارد فكره حين التلاوة، وأن يلمَّ مع ذلك بالسيرة النبوية المطهرة، ويُعْنَى بنوع خاص بأسباب النزول وارتباطها بمواضعها من هذه السيرة، فسيجد فى ذلك أكبر العون على الفهم الصحيح السليم، وإذا قرأ فى كتب التفسير بعد ذلك، فللوقوف على معنى لفظ دقَّ عليه، أو تركيب خفى أمامه معناه، أو استزادة من ثقافة تُعينه على الفهم الصحيح لكتاب الله. فهى مساعدات على الفهم، والفهمُ بعد ذلك إشراق يَنْقَدِح ضوؤه فى صميم القلب.

ولا شك أن من أخذ بهذه الطريقة سيجد أثرها بعد حين فى نفسه مَلَكة تجعل الفهم من سجيته، ونوراً يستضىء به فى دنياه وآخرته إن شاء الله.

يعقب الدكتور رؤوف شلبى على كلام البنا قائلا: "تلك هى أمثل الطرق عند الشيخ حسن البنا لفهم القرآن الكريم.

وقد نهج هو بنفسه بطريقة عملية لتطبيق هذه الخطوات فى تفسير سورة البقرة، ووضَّح لنا المنهج الذى راق له فى طريقة فهم القرآن الكريم.

وملخص هذا المنهاج ما يلى:

أولاً: يتحدَّث عن فضائل السورة بأحاديث من السنة المطهرة ينسبها إلى رواتها.

ثانيًا: يتبع بذلك آراء العلماء الثقات فيما يتعلق بأحاديث فضائل السور.

ثالثًا: يتحدث عن التسمية وحكمتها.

رابعًا: يستعرض المقاصد الكلية للسورة.

خامسا: يبدأ فى تفسير السورة آية آية فى إطار يوضح القضايا المتعلقة بالسورة فيتحدث فى تفسير ﴿ **ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ** ﴾ [البقرة: ٢] عن أحقية القرآن الكريم وتواتره وصحته وأنه من عند الله.

ويتحدث فى شرح ﴿ **أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ** ﴾ [البقرة: ٥] عن الهداية، ويستعين بالآيات الأخرى التى وردت فى مثل هذا المقام"(١).

---

(١) انظر: الشيخ حسن البنا ومدرسته "الإخوان المسلمون" للدكتور رؤوف شلبى ص١٠٢

فالبنا رحمه الله يريد من المسلم فى تعامله مع القرآن أن يعيش معه بروحه وقلبه، بصفاء قلب، ونقاء سريرة، وتفكُّر عقل، عندئذ سيكتشف فى الآيات ما لن يجده فى كتب التفسير التى غالبًا ما تهتم بمعانى الكلمات، والإسهاب فى أسباب النزول، مما يجعل ذهن القارئ يشرد معها، وبذلك يخرج عن الإحساس المرهف بخطاب الله له فى الآيات.

ولا شك أن هذه الطريقة لا تصلح مع كل الناس، والبنا رجل قرآنى ذوَّاق لآيات القرآن الكريم كما نرى ذلك واضحًا فى مقالاته فى هذا الكتاب، وهذه الطريقة - التى يريدها من قارئ القرآن - درجة لا يرقى إليها أى قارئ لكتاب الله، وإن صلحت هذه الطريقة مع بعض المتفكرين للقرآن الذين يحيون به - ومعه - معظم حياتهم، فإنها لا تستقيم ولا تصلح أبداً مع جموع القارئين للقرآن الكريم.

وهذه الطريقة جربها عدد من العلماء وآتت ثمارها، فقد صلحت مع رجل أديب يتذوَّق المعانى ويمررها على حسِّه المرهف، كالشهيد سيد قطب، فخرج للناس بنظراته الخاصة فى القرآن (فى ظلال القرآن). بل جرَّبها الشيخ محمد متولى الشعراوى فى خواطره حول القرآن الكريم، فخرج للناس بهذه المعانى الرائعة للقرآن الكريم، وبهذا الأسلوب الذى يرضى الخاصة، ويقنع العامة. وعاشها الشيخ محمد الغزالى فى عدة كتب من كتبه، ولعل أبرزها تفسيره الموضوعى للقرآن، وغيرهم من علماء الإسلام.

ولم تكن دعوة البنا لفهم القرآن بهذه الطريقة دعوة نظرية دون تطبيق وتمرين للقارئ المسلم، بل فعلها على صفحات مجلة (جريدة الإخوان المسلمين) الأسبوعية فى مقالات التفسير، التى كتبها تحت عنوان (من الأدب العالى) وهى تفسير لسورتى الحُجُرات والمجادلة، والتى نادى فيها بلَوْن جديد من المدارسة للقرآن الكريم، وهى نفس المنهج الذى دعا إليه، فيقول رحمه الله:

« فلنتدارس هذه الآية الكريمة معًا، اقرأها كما قرأتها بتدبر وإنعام، وسَلْ نفسك بعد ذلك هذه الأسئلة كما سألت نفسى من قبلك وسأجيبك عنها، فإن طابقت إجابتى ما وصلت إليه فبها، وإن فتح الله عليك بخير مما فتح به علىَّ فاحمد الله، وإن شئت أن تفيدنى إيَّاه فافعل، وأنت فى حِلٍّ إن لم تشأ ذلك، وسأمدك فى هذه الإجابة بما عرفت

من أسباب النزول والمأثور فى الآية الكريمة، وأظنك بعد هذا عرفت أن ما أكتبه إلى مدارسة القرآن أقرب منه إلى التفسير، ولم لا نتدارس القرآن على صفحات هذه الجريدة الغرَّاء، ولِمَ لا تكون هذه المدارسة نوعًا آخر من أنواع التفسير، ومسلكا مبتكرا من مسالكه؟ ولأعد بك بعد ذلك إلى المدارسة».

القرآن معيار البنا فى كل أموره:

ومن أهم الأمور التى تدل على أن البنا كان رجلاً قرآنيًّا يعيش القرآن ويمارسه فكرًا وتطبيقًا، أنه كان يهتم بما اهتم به القرآن، ويجعله معيارا له، ولم يكن ينساق وراء عاطفته التى قد تجرُّه وراء قضايا فرعية تبعده عن الأصول، أو وراء جزئيات تشغله عن الكليات، وهذا للأسف ما يقع فيه بعض الدعاة المعاصرين، فقد كان البنا يركز على ما ركز عليه القرآن، نجد ذلك فى رسالة التعاليم عند وضعه للأصول العشرين، لقد ركز فيها على وحدة المسلمين على منهج ثقافى وفكرى يتحدون عليه، ولذا رأينا تلامذة البنا الذين شرحوا أصوله العشرين، تنبَّهوا لذلك جيداً عند شرحهم لها، فنجد عالما كالشيخ محمد الغزالى رحمه الله يجعل عنوان كتابه الذى شرح فيه الأصول العشرين: (دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين)، ونجد الشيخ القرضاوى يجعل عنوان سلسلة شرح الأصول العشرين: (نحو وحدة فكرية للعاملين للإسلام) وهم قد استمدوا هذا الفهم من هدف إمامهم من الأصول العشرين، وما فهم الإمام البنا هذا الفهم إلا من القرآن، لأنه اتَّخذ القرآن معيارًا له فى كل القضايا، ولذا نراه يصيب فى كثير من القضايا كبد الحقيقة، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، وبفضل معايشة القرآن، والاستمداد منه.

بل حتى فى أعْوص المسائل التى هى محل نزاع، وفى المسائل الشائكة، نراه يتبنَّى منهج القرآن فى عرضها، نرى ذلك فى قضية العقيدة، وشرحها للناس، هل يتخذ المنهج الفلسفى العقلى، أم المنهج التفصيلى المتعمق بذيول المسائل النظرية، الذى لا يقوِّى عقيدة، ولا يغرس يقينًا فى القلب، ويظل يفرِّع فروعًا تذهب بعقل الإنسان وقلبه بعيدا عن معانى العقيدة الصافية.

يقول رحمه الله مبينًا أولوية منهج القرآن فى شرح العقيدة للناس، وأفضليته على أى أسلوب آخر:

"سنقصد فى الكتابة على بحوث هذا الفن (أى العقيدة) إن شاء الله تعالى على أمرين أساسيين: **أولهما**: الاعتماد على طريقة القرآن الكريم والرسول ﷺ فى توصيل العقائد الدينية إلى النفوس واستيلائها على المشاعر والقلوب بدون تعمق فى الألفاظ وتشعُّب فى البحوث، أو إيراد للآراء والمذاهب، أو خوض فى مصطلحات الفلاسفة والمناطقة والكلاميين والجدليين وتلك طريقة السلف الصالح رضوان الله عليهم.

وثانيهما: العناية ببيان آثار هذه العقائد فى النفوس ليعلم القارئ أين نفسه من درجة استيلاء العقيدة الإسلامية عليها، فإن كانت متأثرةً بها، حمد الله على نعمته، وإن كانت هذه الآثار ضعيفة فى نفسه، عمل على علاجها وتقوية إيمانها، فقد كانت العقائد عند أسلافنا عواطف مستقرة فى القلوب والمشاعر، مستولية على النفوس، فلما أن صارت عندنا جدلاً وكلامًا ضعف إيمان الأمة، وتسرَّب إلى دينها الخلل والوهن[1].

كما تعامل البنا فى قضايا الدعوة الشائكة أيضًا بمعيار القرآن وأسلوب القرآن، فلم يكن يضخِّم قضايا صغيرة على حساب القضايا الكبرى، وكان كذلك يتبنَّى منهج القرآن وهو الدعوة لوحدة الصف، والاتفاق على الحد الأدنى من المُسَلَّمات، والتعامل مع المخالفين بمبدأ الائتلاف لا الاختلاف، والتوحُّد لا التفرق، نرى هذا فى موقفه عندما حُكِّم فى قضية صلاة التراويح هل هى ثمانى ركعات أم عشرون ركعة؟ وما الأفضل؟ ووجد الإمام الشهيد أن الترجيح هنا لن يحل المشكلة، بل سيزيد من الخلاف، فقال: فليُصَلِّها كلٌّ منكم فى بيته كما شاء، فإن التراويح سنة، ووحدة الصف والإخاء فريضة. وهكذا كان حسن البنا فى معظم قضايا الخلاف.

ومن الإنصاف أن نذكر أن البنا وإن كان قد شرب هذا المنهج من القرآن، إلا أن مؤثرًا مهمًا جعل البنا يتشرَّب هذا المنهج، إنه والده العلامة الشيخ أحمد عبد الرحمن البنا الشهير بالساعاتى رحمه الله، ذلك الرجل العالم الذى خَدَم مسند الإمام أحمد خدمة جليلة[1]، فقد غرس الرجل فى ابنه هذا المنهج، وأذكر للقارئ موقفا من حياة الرجل فى

---

(1) انظر: مجلة (جريدة الإخوان المسلمين) الأسبوعية العدد الأول الصادر فى يوم الخميس الموافق ٢ من صفر سنة ١٣٥٢هـ مقال (كيف اكتب القسم الدينى لجريدة الإخوان المسلمين) للبنا.

تعامله مع القضايا التى يختلف فيها العلماء، وكيف تُحَل بطريقة التوفيق بين الفريقين، وطريقة التآلف لا التناكر، دون أن يمنع ذلك من قول الحق.

"دارت مساجلة على صفحات العدد الثانى من المجلد الحادى والثلاثين من (المنار) فى باب المراسلة والمناظرة، بين السيد محمد رشيد رضا صاحب المنار والشيخ أحمد محمد شاكر، حول: حديث عن عبد الله بن مسعود فى الإعلان عن المنافقين، وهل هو فى المسند أم لا؟ وذهب صاحب المنار نقلا عن "فتح البيان" إلى أن الحديث موجود فى المسند. بينما نفى الشيخ شاكر أن يكون موجوداً فى أحاديث عبد الله بن مسعود فى المسند.

وطرفا المساجلة - كما هو معروف - من أعلام الإسلام، فالسيد رشيد رضا رحمه الله هو راوية" الشيخ محمد عبده وصاحب المنار، والتفسير والمؤلفات العديدة. والشيخ شاكر أحد الذين عنوا بتحقيق مسند الإمام أحمد بن حنبل وخدمته خدمة دقيقة، فَمَنْ ذَا يستطيع أن يتصدَّى للحكم بينهما؟ كتب الشيخ البنا (الوالد) رحمه الله فى ١٧ من صفر سنة ١٣٥٠ هـ إلى السيد رشيد رضا بالفصل فى الموضوع. فالحديث فى المسند فعلاً، ولكنه ليس من أحاديث عبد الله بن مسعود، ولكن من أحاديث "أبى مسعود"

(١) فقد رتَّب المسند وشرحه شرحًا موجزًا، حلَّ فيه الغامض من معانيه، كما بوَّب المسند مما يسَّر الانتفاع به، وللأسف لم يعرف كثير من أبناء العلم الشرعى قدر الرجل وما بذله من جهد، فى وقت لم يكن عنده فريق عمل، ولا جهاز حاسوب ييسر عليه العمل. ومما يزيد من أسفنا: أن العلامة المحدث الشيخ أحمد محمد شاكر فى مقدمته لتحقيق (المسند) لم يشر إشارة منصفة إلى عمل الشيخ أحمد البنا والد الإمام، ومرد ذلك إلى خلافه مع الإخوان المسلمين، رغم ثناء الإمام الشهيد على الشيخ شاكر فى علمه والتزامه وخلقه وذلك فى مقال فى مجلة (جريدة الإخوان المسلمين)، كما وقع فى نفس الأمر: الفريق الذى قام بتحقيق المسند بإشراف الشيخ العالم الجليل شعيب الأرناؤوط ورفاقه - بارك الله جهدهم - لم ينصفوا الرجل ولا عمله فى المقدمة التى كتبت للتحقيق، وذلك عند تعرضهم لمن خدموا المسند من قبل، ولن يكافئ الرجل على عمله إلا الله سبحانه وتعالى (إن الله لا يضيع أجر من أحسن عملا) فنتمنى من الشيخ شعيب ورفاقه استدراك الأمر فى الطبعات القادمة إنصافا للرجل، وإحقاقا للحق. قيمة عمل الشيخ البنا (الوالد) كتاب: (كتاب وعالم) للشيخ محمد عبد الله الخطيب. أو يراجع كتاب (الفتح الربانى) للعلامة أحمد عبد الرحمن الساعاتى رحمه الله رحمة واسعة.

وقدَّم نصَّه والصفحة التى جاء بها الحديث فى النسخة القديمة للمسند المطبوع بالمطبعة الميمنية سنة ١٣١٣هـ.

وجاء فى خطاب الشيخ البنا للشيخ رشيد: "وعلى هذا فيكون ما نقلتموه عن "فتح البيان" من عَزْوِ الحديث إلى المسند صحيحًا والصواب إلى جانبكم من هذه الناحية، وإن وقع تحريف فى نقل الرواية من أبى مسعود إلى ابن مسعود، ويكون ما نقله الشيخ أحمد شاكر من عدم وجود الحديث فى مسند ابن مسعود صحيحًا أيضًا والصواب إلى جانبه من هذه الناحية. وإن وجد الحديث فى مسند أحمد من رواية أبى مسعود الأنصارى

وإلى جانب هذا التحقيق الذى دَقَّ على الشيخين الكبيرين، وفصَّل فيه الشيخ البنا، فإن ما يثير الانتباه: اللباقة فى مناقشة هذه القضية، بحيث إنَّ الشيخ - رحمه الله - جعل كُلَّ واحد منهما مُصِيبًا، ولم يُخَطِّئ أحدا منهما فى كل ما قال. وهذه اللباقة هى مما عرف عن الشيخ رحمه الله، ومما ورثه الإمام الشهيد"(١).

البنا والعلاج بالقرآن:

انتشرت فى العصر الحديث قضية العلاج بالقرآن، واختلفت فيها آراء العلماء ما بين مؤيِّد ومعارض. واختلافهم ناشئٌ عن: هل يدخل الجانُّ جسد الإنسان أم لا؟ وهل هناك مسٌّ من الجان للإنسان؟ وإذا كانت الإجابة بالإيجاب، فما العلاج؟ هل يكون العلاج بالطب، أم يكون بقراءة القرآن على المريض؟

من العلماء من يرفض فكرة القول بمسِّ الجان للإنسان ودخوله جسده تماما، ويرى ذلك لونًا من الدَّجَل الدينى، الذى لا يستند على دليل ولا قول معتبر. ومنهم من يرى أن هناك مسًّا من الجان للإنسان وإمكانية دخول الجان جسد الإنسان، وأن لهذا المرض علاجًا، يكون بقراءة القرآن على المريض، وبذلك يُطرد الجان.

ولقد بحثت فى كل - أو جل - ما كتبه الإمام البنا فلم أجد له رأيًا نظريًّا فى هذه القضية، ولكن واحداً من تلامذته والملاصقين له فى الدعوة، ذكر أن الإمام البنا عالج مريضة بالقرآن، كانت قد مسَّها جان ودخل جسدها، ويبدو من القصة أن الإمام البنا لم

---

(١) انظر: خطابات حسن البنا الشاب إلى ابيه ص ٣٧، ٣٨ للأستاذ جمال البنا (شقيق الإمام الشهيد). طبعة دار الفكر الإسلامى بالقاهرة.

يكن مقتنعًا بادئ الامر، ولكنه بعد ذلك اقتنع به، يروى لنا الاستاذ محمود عبد الحليم ـ وهو رجل من الرعيل الأول فى دعوة البنا ـ قصة علاج البنا بالقرآن فيقول:

"حدثنى مرة (اى الإمام البنا) انه قرأ فى كتاب ـ سماه لى وقتها ولكنى انسيت اسمه الآن ـ ان رجلاً جاء إلى الإمام احمد بن حنبل، وشكا له أن أخاه تنتابه حالة يفقد فيها وعيه، ويمزّق ملابسه، ويهاجم من حوله، ويريد أن يفتك باقرب الناس إليه، وقال: إنه عرضه على الاطباء حتى يئسوا منه، ولا يدرون ماذا يفعلون؟ وكان الإمام احمد بالمسجد، فقال للرجل: أحضر أخاك وهو فى هذا الحال، فلما احضره أمره أن يرقده، ثم اخذ الإمام يقرأ القرآن، حتى سمع الجميع صوتًا منبعثًا من جسم الرجل المريض يستغيث بالإمام، ويقول له: حَسْبُك وسافعل ما تريد. فقال له الإمام: دَعْ هذا الرجل واخرج من أُصبع قدمه. قال الصوت: سمعًا وطاعةً. وخرج من اصبع قدم الرجل، وإذا بالمريض يستيقظ كانما حُلَّ من عقال، وكان لم يكن مُصابًا من قبل.

قال لى الأستاذ: وقد شغلتنى هذه القصة، وكنت اتا ٌهب ـ حسب جدول زياراتى ـ لزيارة إخوان السويس. وركبت القطار، وظللت طيلة الطريق أفكّر فى هذه القصة، وأتعجّب لما فيها واقول: أهو سرُّ الإمام أحمد، أم هو سرُّ القرآن، أم أن القصة فيها مبالغة؟.. ولم تزل هذه الأفكار تراودنى حتى وصل القطار محطة السويس، ونزلت من القطار، فوجدت الإخوان متجمّعين فى انتظارى فعانقتهم، ولاحظت أن واحداً منهم كان يقف وحده بعيداً، فقربت منه، فرأيت على وجهه أثر الحزن؛ فتركت الإخوان، وانتحيت به جانبًا، وسألته عما يحزنه؟ فقال لى إن الذى يحزننى أمر خطير، وإننى قد ضقت ذَرْعًا بالحياة. وسُدّت أمامى الطرق، وأُحاط بى اليأس من كل جانب ... إن زوجتى امرأة صالحة مُطيعة، ولى منها أبناء صغار، وقد اعترضها منذ عام مرض ينتابها بين الحين والحين؛ تفقد فيه رشدها، وتتحوّل إلى وحش كاسر؛ إذا استطاعت الوصول إلى أى منا حاولت قتله، وتحطم كل شيء أمامها وقد عرضتها على الأطباء هنا وفى القاهرة حتى يئسوا ... وقد انتابها المرض اليوم، ولما كنت أعلم بقدومك اليوم أدخلتها حجرة أغلقتها عليها، وجئت أنتظرك لاعرض عليك مصيبتى لعلك تعيننى فيها.

يقول الأستاذ لى: فابتسمت، والأخ لا يعلم لم أبتسم .. وتذكرت قول إبراهيم

عليه السلام: ﴿ربِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ...﴾ [البقرة: ٢٦٠] قال الأستاذ: قلت له: هيا بنا إلى البيت ... واستأذنت الإخوان.

ودخلنا البيت، ودخلنا الحجرة المغلقة، فرأيت امرأة بها، فقلت له: ادخل وغطها تمامًا بملاءة بحيث لا يبين منها شيء. ففعل، ثم دخلت الحجرة ووقفت بجانب السرير، وأغمضت عيني، وأخذت أقرأ القرآن، وظللت أقرأ حتى سمعت صوتًا منبعثًا من جسم المرأة، ولكنه صوت رجل يقول: كيف تكون يا بنًّا إماما للناس، وتنظر إلى عورات النساء؟ ففتحت عيني فرأيت جزءاً من ساقي المرأة قد انكشف نتيجة ما ينتابها من حركات عنيفة فأمرت زوجها فغطاها، ثم واصلت قراءة القرآن حتى سمعنا صوت الرجل المنبعث من جسم المرأة يقول في نغمة استعطاف: إنك إمام المسلمين، وتريد أن تحرقني وأنا مسلم قال الأستاذ: فقلت له: إن كنت مسلما لمَ آذَيْتَ مسلمة؟! قال: وماذا تريد مني؟ قلت: دَعْ هذه المرأة واخرج. قال: أمهلني ... فواصلت القراءة. فقال بعد قليل: استحلفك بالله إلا أمسكت عن القراءة، حتى لا احترق وساخرج قلت: إن كنت خارجا فاخرج من أصبع قدمها فأراد أن يساوم، فواصلت القراءة، فصرخ مستغيثا وخرج من أصبع قدمها، فقامت المرأة كأنما حُلَّت من عقال، وكأن لم تكن أصيبت من قبل"(١)

من هذه القصة يمكن أن أقول: إن البنا كان مقتنعًا بجدوى قراءة القرآن على المريض الذي مسَّه الجان، بل واقتناعه بأنَّ الجان قد يدخل جسد الإنسان، ولكني لا أستطيع أن أجزم أن البنا اتخذ ذلك ديدنا له طوال حياته، ولا أستطيع أن أجزم كل الجزم بأن هذا الموقف انتشر عن البنا، ولكنه مجرد موقف أقل ما فيه أنه ينفي عن البنا رفضه للعلاج بالقرآن.

والعجيب أنَّ معظم منكري جواز دخول الجان جسد الإنسان، وعلاج ذلك بالقرآن: من تلامذة الإمام البنا! وأشهرهم الشيخ محمد الغزالي، الذي كتب ذلك في كتابه (السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث)، والشيخ يوسف القرضاوي(٢) في كتابه (فتاوى معاصرة) الجزء الثالث، وغيرهما.

---

(١) انظر: الإخوان المسلمون احداث صنعت التاريخ (١/ ١٨٨، ١٨٩) للأستاذ محمود عبد الحليم.

(٢) ذكرت للشيخ القرضاوي ما قرأته عن البنا والعلاج بالقرآن، فقال مبيِّنًا حجته في رفض القول بالعلاج بالقرآن: إنني أرى أن المسلم أعزُّ عند الله من أن يسلط عليه جانًّا يتحكم فيه، ويسخره له وهو خليفة الله في الأرض.

البنا والتفسير الموضوعي:

لقد تناول المفسّرون القرآن الكريم من عدة نواح كلٌ حسب ما أتقن، وحسب تخصّصه، والفن الذي يجيد أن يُبدع فيه، ولذا رأينا علماء المسلمين يُثرون الدراسات القرآنية، ويتناولون القرآن من عدة زوايا. مما طُرح على ساحة الدراسات القرآنية لونٌ جديدٌ من التفسير أُطلق عليه في العصر الحديث: (التفسير الموضوعي) وهو أن يهتم الباحث باستقراء موضوع معيّن في القرآن الكريم، يلم بجوانب وأطراف الحديث في آيات القرآن. وهذا غالبًا يأتي حسب اهتمام الباحث أو تعمقه وتمكنه في لون من ألوان المعرفة الإسلامية، فالأصولي يُعنَى بإبراز الآيات التي تشتمل على قواعد أصولية، والفقيه يهتم بتناول آيات الأحكام، والنحوي يهتم بمسائل اللغة وما في الآية من دلائل الإعجاز اللغوي، وهكذا كل حسب تخصصه.

وهذا اللون ليس بحديث - زمنيًا - فقد رأينا في كتابات السابقين من علمائنا كتابات تعتبر نواة لهذا اللون من التفسير.

فالفقيه يهتم بما يَمُتُّ في القرآن بصلة بالفقه، فقد رأينا في أحكام القرآن عدة مؤلفات تحمل عنوان (أحكام القرآن) لأكثر من إمام من أئمة الفقه، فمنهم الإمام الشافعي (٢٠٤)[1]، والجصّاص الحنفي (٣٧٠)، والكيا الهراسي الشافعي (٥٠٤) وابن العربي المالكي (٥٤٣). ورأينا في المعاصرين من كتب في نفس الموضوع ولكن باسم (تفسير آيات الأحكام) للشيخ محمد على السايس، والشيخ محمد على الصابوني.

وكذلك اللغوي يهتم بما في القرآن من مجازات وإعجازات فكتب في ذلك الإمام ابن القيم (٧٥١) كتابه (الإيجاز في المجاز)، ورأينا كتاب (تلخيص البيان في مجازات القرآن) للشريف الرضي (٤٠٦)، ورأينا من يهتم بغريب القرآن ككتاب (العمدة في غريب القرآن) لمكي بن أبي طالب القيسي[2] (٤٣٧) و(غريب القرآن) لأبي عبيد الهروي (٤٠١) و(تحفة الأريب بما في القرآن من الغريب) لأبي حيان الأندلسي (٧٤٥).

---

(١) ما بين الأقواس من السنين يعني سنة الوفاة بالتاريخ الهجري.

(٢) في نسبة الكتاب إلى مكي كلام، وللدكتور أحمد حسن فرحات تشكيك في نسبته. (مجد مكي).

ومنها ما ضم مشكل القرآن كما في ابن قتيبة الدينوري (٢٧٦) في كتابه (تأويل مشكل القرآن)، والعز بن عبد السلام (٦٦٠) في كتابه (الفوائد في مشكل القرآن)، ومنهم من جمع الأشباه والنظائر في القرآن كمقاتل البلخي (١٥٠) في كتابه (الأشباه والنظائر في القرآن الكريم)، والثعالبي (٤٢٩) في كتابه (الأشباه والنظائر في الألفاظ القرآنية)، والسيوطي (٩١١) في كتابه (متشابه القرآن).

ومنهم من جمع أقسام القرآن الكريم كابن القيم الحنبلي في كتابه (التبيان في أقسام القرآن)، وقد جمع فيه كل أقسام القرآن الكريم وتناولها بالشرح والتفصيل، وغيرهم من العلماء الأفاضل.

ثم جاء العصر الحديث وبدأ هذا اللون من التفسير يأخذ لونًا من المنهجية، حتى جعل أحد علماء الأزهر[1] موضوع رسالته في الدكتوراه عن (الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم)، كما أن من أهم كتب الحديث العلامة الدكتور: محمد عبد الله دراز في كتابه (النبأ العظيم)، ثم بدأ هذا اللون من التفسير يخطو بمنهجية الآن لدى كثير من الباحثين المهتمين بالتفسير.

كما تناول عدد من العلماء في العصر الحديث هذا اللون من التفسير، ونذكر على سبيل المثال بعض الكتب: ككتاب (دستور الأخلاق في القرآن)، ورسالة ([illegible]) موضوعي للدكتور محمد عبد الله دراز، ورسالة (القرآن والقتال) للشيخ محمود شلتوت، وكتاب (الإنسان في القرآن) للعقاد، وكتاب (هكذا تحدث القرآن) و(موسوعة الأخلاق في القرآن) للدكتور أحمد الشرباصي، و(المصطلحات الأربعة في القرآن) لأبي الأعلى المودودي، و(الأمثال في القرآن) للدكتور محمود بن الشريف وغيره من موسوعته التي كتبها عن موضوعات كثيرة في القرآن، و(بنو إسرائيل في القرآن) للدكتور السيد رزق الطويل، و(المصطلحات العسكرية في القرآن الكريم) للواء ركن محمود شيت خطاب، و(الصبر في القرآن) و(العلم والعقل في القرآن) للدكتور يوسف القرضاوي، و(التصوير الفني في القرآن) و(مشاهد يوم القيامة في القرآن)

---

(1) هو الدكتور محمد محمود حجازي رحمه الله تعالى صاحب (التفسير الواضح)، والرسالة طبع دار الكتب الحديثة بالقاهرة.

و(تفسير آيات الربا) للشهيد سيد قطب، و(التفسير الموضوعي للقرآن) للشيخ محمد الغزالي وبعض الموضوعات تناولها في بعض كتبه كموضوع (أولو الألباب في كتاب الله) في كتابه (علل وأدوية)، وموضوعات أخر في كتابه: (نظرات في القرآن) وكتابه: (المحاور الخمسة في القرآن)، وكتاب (كما تحدث القرآن) للأستاذ خالد محمد خالد، والشيخ عبد المنعم تعيلب في سلسلته عن (الإنسان في القرآن)، إلى آخر ما كُتب في هذا المجال الذي صار ثريًّا بهذه الكتابات وغيرها.

والتفسير الموضوعي نوعان: التفسير الموضوعي العام، والتفسير الموضوعي الخاص.

فالتفسير الموضوعي العام هو أن يتناول المفسِّر موضوعا متعدد العناوين والموضوعات كتفسير آيات الأحكام.

والتفسير الموضوعي الخاص يقوم فيه المفسِّر بتناول موضوع واحد في القرآن الكريم، يجمع آياته، ويلمُّ بها إلمامًا كاملاً ثم يعرضها مع ربط الآيات بعضها ببعض، كموضوع اليهود في القرآن، أو الصبر في القرآن مثلا[1].

فمن النوع الأول، وهو التفسير الموضوعي العام ما تناوله الإمام البنا في مقالاته والتي يجدها القارئ في هذا الكتاب، فهي عدة موضوعات وهي: دعوتنا في كتاب الله - تربية الأمم في كتاب الله - معركة المصحف.

ومن النوع الآخر، التفسير الموضوعي الخاص ما ألقاه الإمام البنا في أحاديث الثلاثاء في عدة أحاديث وهي:

الإنسان في القرآن - المرأة في القرآن - الكون في القرآن - الكون غير المنظور في القرآن - حقوق الألوهية في القرآن - الرسالات العامة في كتاب الله - أشراط الساعة في القرآن - الجزاء في القرآن[2].

ونلاحظ في تفسير البنا لبعض موضوعات القرآن عدة ملاحظات:

---

(١) انظر: المدخل إلى التفسير الموضوعي للدكتور عبد الستار فتح الله سعيد. والتفسير الموضوعي للدكتور السيد الكومي، والتفسير الموضوعي للدكتور عبد الحي الفرماوي.

(٢) يراجع في ذلك (أحاديث الثلاثاء) للإمام حسن البنا جمع وإعداد الشيخ أحمد عيسى عاشور. طبعة دار القرآن.

أولاً: استيعابه الشديد لمواضع الموضوع المتناول فى القرآن الكريم، واستقراؤه للآيات، واستشهاده بها بطلاقة، كما نرى ذلك فى الموضوعات التى تناولها في حديث الثلاثاء الذى كان مشافهة، اى بلغة الكلام، لا لغة الكتابة، ولغة الكلام أشقُّ من لغة الكتابة، من حيث الدقة، والإحاطة بكل النصوص المراد تناولها، فالكتابة تتّسم بالدقة، وإعطاء الكاتب فسحة في مراجعة ما يقول والتثبت منه، ونَدَر من المتحدثين من يستطيع أن يقول كل ما يريد قوله فى مجال الحديث، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

ثانياً: كما نلاحظ أن الإمام الشهيد اختار موضوعات يحتاج إليها المجتمع، وتفرض نفسها على عقول الناس، وبخاصة الشباب منهم، فتلك الاحاديث كانت فى فترة بدأ التحلُّل والتفسُّخ يَنتشرى فى المجتمع، وبدأت فتنة جذب الشباب إلى الافكار الغربية الوافدة، ولذا تناول الإمام الشهيد موضوع: الإنسان فى القرآن ليجيب عن السؤال الملح الذى يساله كل شاب ـ بعيد عن الله ـ لنفسه: لماذا جئت؟ وما رسالتى فى الحياة؟ ثم قضية المرأة التى كانت ـ ولا تزال ـ مثارة آنذاك ليبيِّن نظرة الإسلام ـ من خلال القرآن الكريم ـ للمراة، وكيف كرمها واعطاها حقوقها كاملة. وهكذا يلمس القارئ فى النماذج التى تناولها البنا فى أحاديثه أنها تعالج قضية مثارة، ويدور حولها الحديث فى الصحف والمجلات والأندية العلمية.

ثالثا: أنه أسقط كل النماذج التى تناولها على الواقع، ولم يقف عند حد التحليق فى أجواء الآية، والعيش فى ظلالها، دون أن يسقط ذلك على واقعه المعيش، وليراجع القارئ مقاله: (صفحة من الوطنية فى كتاب الله) والذى ختمه بقوله: وبعد، فهى عبرة للشرق اليوم والتاريخ يعيد نفسه، وإن داود الشرق لرابض بالمرصاد لجالوت الغرب لو وجد الانصار المؤمنين فهلاً؟.

ممن اقتبس البنا هذا المنهج؟

لا أخفى على القارئ الكريم انى عُنيت بالبحث للإجابة عن هذا السؤال، فالإمام الشهيد فى تفسيره الموضوعى ـ على وجازة مادته ـ كان صاحب نظرة قوية للموضوعات التى تناولها، سواء ما ننشره هنا، أو ما نشر من قبل فى كتاب (أحاديث الثلاثاء) الذى جمعه المرحوم الشيخ أحمد عيسى عاشور. كما كان الإمام الشهيد يربط بين السورة وما قبلها، ويبيِّن مقاصد السورة التى يتعرض لها ليجعل منها وحدة موضوعية.

والحق أنى شككت فى بادئ الأمر أنه نهل هذا المنهج من العلامة الدكتور محمد عبد الله دراز، فالمتعمق فى طريقة تناول الإمام الشهيد فى التفسير - الموضوعى والتحليلى - يجد أثر الدكتور محمد عبد الله دراز واضحًا فى تناوله للآيات والسور.

ثم عثرت على دليل رجح عندى هذا الرأى، وإن لم يكن بالقوة التى تجعلنى أجزم بذلك، وهو مقدمة كتبها أحد أصدقاء الإمام الشهيد فى حياته الدعوية، إنه أستاذ الصحافة الإسلامية الأستاذ صالح عشماوى رحمه الله[1]، فقد ذكر فى مقدمته لرسالة للعلامة دراز بعنوان: (وثيابك فطهر) يقول الأستاذ صالح:

"وللدكتور الشيخ محمد دراز مؤلفات قيمة، ولكن نشاطه لم يقف عند حدّ تأليف الكتب، بل امتدّ إلى ميادين كثيرة بمختلف الوسائل الإعلامية، منها محاضراته القيمة التى كان يلقيها بالمركز العام للإخوان المسلمين بالحلمية بالقاهرة، وكان من بين هذا النشاط أيضا هذه السلسلة من الإذاعات التى تناولت تفسير القرآن الكريم، ولم يَنْح الشيخ دراز فى تفسيره النمط التقليدى من شرح للمفردات، وذكر لأسباب النزول، بل سلك طريقا ما أظنه فيه كان مسبوقا، هو أقرب إلى بيان "مقاصد كل سورة" وربطها بما قبلها وما بعدها من سور، وذكر الأهداف التى تضمنتها كل سورة، والحكمة التى تكررت فيها لتجعل من كل سورة "وحدة متكاملة" و"صورة متجانسة" تتجلى فى كل آية من آياتها"[2].

---

(١) الأستاذ صالح عشماوى من الرعيل الأول فى دعوة الإخوان المسلمين، وكان له الفضل - بعد الله عز وجل - فى انتشار دعوة الإخوان عن طريق الصحف والمجلات، فقد كان صاحب امتياز ورئيس تحرير معظم صحف ومجلات الإخوان، منها الإخوان الشهرية، والنذير، والمباحث القضائية، والدعوة، وغيرها. وللأسف لم يوف حقه من دراسة آثاره وجهوده من المختصين الإسلاميين فى مجال الدراسات العليا فى أقسام الصحافة والإعلام، فقد كان رحمه الله ملقبا بشيخ الصحافة الإسلامية، وله تراث صحفى دعوى مهم ينبغى نشره وجمعه. لمزيد من التفصيل عن الأستاذ صالح عشماوى يراجع: من أعلام الحركة الإسلامية للمستشار عبد الله العقيل.

(٢) انظر: رسالة (وثيابك فطهر) للمرحوم العلامة محمد عبد الله دراز ص٤ نشر دار الأنصار بالقاهرة الطبعة الأولى رمضان ١٣٩٨هـ - أغسطس سنة ١٩٧٨م. ومما يؤسف له أن الرسالة محدودة الانتشار، وقد أعطيتها للناشر الإسلامى الأستاذ محمد على دولة لنشرها تعميمًا للفائدة، فله - جزاه الله خيرا - مشكورا.

فما ذكره الأستاذ صالح عشماوى من علاقة الدكتور دراز بالإمام الشهيد وبالمركز العام للإخوان المسلمين، وإلقائه محاضرات فى التفسير وغيره فيه، جعلنى أتيقن تأثر الإمام الشهيد بأسلوبه فى التفسير، وبخاصة التفسير الموضوعى، وليس إلقاء الدكتور دراز للمحاضرات فى المركز العام للإخوان فقط هو المرجع لتأثر البنا بأسلوبه، فمما لا يخفى على القارئ أن العلامة دراز عالم معروف بعمقه ورسوخه فى التفسير وغيره، وإن لم يستفد البنا من محاضرات دراز، فليس أقل من أن يستفيد من كتابه (النبأ العظيم) الذى بيَّن فيه دراز منهجه، وقد نشر الكتاب فى طبعته الأولى سنة ١٩٣٢

ولست أذكر ذلك من باب الجزم بأن الإمام البنا قد اقتبس طريقته ومنهجه من العلامة دراز، ولكنها محاولة منى للبحث عمن اقتبس البنا طريقته تلك فى التفسير.

موقف البنا من التفاسير السابقة والمعاصرة:

لم يكن البنا منقطع الصلة بكتب التفسير سواء السابقة منها أو المعاصرة، فتارة تكون صلته بها مقتبسًا لبيان معنى، أو ذكر سبب النزول، أو شرحًا للآية، أو نقدًا لهذا التفسير.

لقد نهل البنا من معظم التفاسير السابقة والمعاصرة، وذلك إما بالاقتباس، وهذا واضح بجلاء فى تفسير البنا التحليلى للآيات التى تعرض لها بالتفسير، وبخاصة تفسير القرطبى المسمَّى بـ (الجامع لأحكام القرآن) ومن تفسير ابن الجوزى المسمى بـ (زاد المسير) ومن تفسير الطبرى المسمى بـ (جامع البيان عن تأويل القرآن) وتفسير ابن كثير المسمى بـ (تفسير القرآن العظيم)، ويتَّضح تأثر البنا بتفسير أبى حيان كذلك، وذلك يظهر أكثر ما يظهر فى تفسيره لسورة الحجرات، وسورة المجادلة.

هذا بالنسبة للتفاسير السابقة، أما التفاسير المعاصرة فنراه يكثر الاستشهاد من تفسير المنار على صاحبه رحمة الله ومغفرته، فقد كان محبًا له، متأثرًا به وبطريقته فى التفسير.

وقد يكون المقام مقام نقد وتمحيص. عندئذ يصول الإمام ويجول ويغوص فى بطون هذه الكتب، غوص العارف بمكنونها، نرى ذلك فى مقدمة الإمام الشهيد للتفسير أيضًا، فقد تناول عدة تفاسير بالنقد، وبين المزالق التى وقع فيها بعض المفسرين، فنبَّه

على المزلق الذى يقع فيه من يفسر الآيات الكونية والتى تتعرض لبعض ظواهر الكون، وتفسيرهم لهذه الظواهر تفسيرا يخرج بالقرآن عن رسالته الإصلاحية، فذكر فى ذلك من السابقين: الإمام الغزالى فى كتابه (جواهر القرآن)، ومن المعاصرين: الشيخ طنطاوى جوهرى فى كتابه (الجواهر).

كما نوَّه بمن يفسِّر الآيات القرآنية التى تعرَّضت لشخصيات تاريخية والمزلق الذى يقعون فيه، كطه حسين وغيره، إلى آخر المزالق التى نبَّه إليها رحمه الله[1].

البنا والإسرائيليات:

ومن الملاحظات المهمة التى تسترعى انتباه القارئ: خلو الآيات التى فسرها البنا من الإسرائيليات، وهذا يوضِّح موقفه منها، وإن لم يكن له رأى نظرى مكتوب، اللهم إلا فقرة قصيرة لا تتجاوز السطر، قالها رحمه الله فى مقدمته التى افتتح بها مجلة (جريدة الإخوان المسلمين) الأسبوعية، فقال فى المنهج الذى سيتناول به التفسير والذى منه: (التحقيق فى الحوادث والقصص فلا نذكر منها إلا ما له مساس بالآية ويؤيده الدليل)، إلا أن تفسيره يدل على أنه كان يبتعد عنها، ولا يستشهد بها، على الرغم من أن الإسرائيليات ليست بالمرفوضة كلية، كما بيَّن ذلك ابن كثير فى مقدمته للتفسير حيث قسمها إلى ثلاثة أقسام: (أحدها) ما علمنا صحته مما بأيدينا مما يشهد له بالصدق فذاك صحيح، (والثانى) ما علمنا كذبه مما عندنا مما يخالفه، (والثالث) ما هو مسكوت عنه لا من هذا القبيل، ولا من هذا القبيل، فلا نؤمن به ولا نكذبه ويجوز حكايته[2].

ولكن هل لم نلحظ الإسرائيليات فى تفسير البنا لأنه لم يتعرض كثيراً للآيات التى تكثر فيها الإسرائيليات؟ أم كان منهجه الاستغناء عنها ببدائل أخرى من تراثنا الإسلامى؟

أما من جهة أن البنا لم يتعرَّض للآيات التى تكثر فيها الإسرائيليات فهذا غير مُسَلَّم به تسليماً كاملاً، لأن الإسرائيليات تكثر فى الآيات التى تتعرض لخلق الكون والإنسان، والآيات التى تتعرَّض لقصص الأنبياء والصالحين، بداية بآدم عليه السلام، وانتهاء بعيسى

---

(١) يراجع مقدمة الإمام البنا للتفسير.

(٢) انظر تفسير ابن كثير (١ / ٤) طبعة الحديث الأولى.

عليه السلام. ولكن الملاحظ أن البنا تعرض لتفسير آيات من هذا القبيل، كتفسيره لقصة طالوت وجالوت، وتفسيره لخلق السماوات والأرض، كما فى الآيات التى فسَّرها من أول سورة الرعد، فهل ترك البنا الإسرائيليات عن قناعة عنده برأى تبناه؟ هذا ما يبدو لى واضحا من تفسيره للآيات التى معنا فى هذا الكتاب، ومن ذلك نقله عن رشيد رضا نقل المُقر له بما قال، وذلك عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿ **اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا** ﴾ [الرعد: ٢]، يقول:

"إن الأيام الستة التى وردت فى خلق السماوات والأرض هى من أيام الله التى يتجدَّد اليوم منها بالعمل الذى يكون فيه، فالمراد بها إذن ـ والله أعلم ـ التطوُّرات التى اعتورت خلق السماوات والأرض من الدخان إلى المائية إلى اليبوسة إلى خلق الأحياء والتعمير بالنسبة للأرض فهذه أربعة أيام، ثم إلى تكوين الأجرام السماوية فى زمنين آخرين فليست هى كأيام الدنيا. وما جاء من الآثار فى ذلك فهو إسرائيلى أو ضعيف وأصح ما ورد فيه حديث أبى هريرة فى ذلك وفى سنده حجاج بن محمد بن الأعور وهو قد تغيَّر فى آخر عمره ثبت أنه حدث بعد اختلاط عقله

فالبنا كان يفضِّل أن يفسر الآيات بما ورد فى القرآن، وإن لم يجد فمن السنة ما يشرح غامض الآيات وأحكامها، وفى اللغة ما يعين كذلك. ولذا رأى البنا البعد التَّام عن مرويات الإسرائيليات، والتى كثيراً ما تكون أقرب إلى الخيال والشطحات عن المنهجية العلمية.

خصائص تفسير البنا:

امتاز تفسير البنا بعدة خصائص مهمة، التزم بها فى تفسيره، وكان دائم الحرص على الالتزام بها، من أهم هذه الخصائص أنه:

تفسير أثرى:

فقد اهتمَّ الإمام الشهيد فى تفسيره بدعمه بالآثار التى توضح معنى الآية، وتُجلى المراد منه، فتراه فى كل آية يأتى بما فى موضوعها من الأحاديث والآثار، ولا تكاد تجد آية يفسرها دون نصوص من السنة النبوية وآثار الصحابة، ولعل نظرة واحدة إلى آية من الآيات التى فسرها تبيِّن هذه الخصيصة بجلاء. ولقد اتَّضح ذلك بجلاء فى تفسيره لسورة الحجرات، وسورة المجادلة، وسورة التوبة.

تفسير واقعي:

كما امتاز تفسير البنا بأنه تفسيرٌ واقعيٌّ، فلم يكن يهتم بمجرد تفسير الآيات دون إسقاطها على الواقع، بل كان كلما فسر آية أسقطها على الواقع المعيش، نسوق مثالاً من تفسيره لتتضح هذه الخصيصة، وهو عند تعرضه لشرح قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾ [التوبة: ٢٨] وبعد أن ناقش قضية نجاسة المشرك، وهل هي نجاسة حسية او معنوية؟ وقد رجَّح رأى الجمهور القائل بأنها نجاسة معنوية، ثم قال: هذا هو رأى جمهور أئمة المسلمين، على أننا نأخذ بالرأى الأول عمليًّا إذا ما استمرَّ عدوان دولهم وشعوبهم على حرياتنا وخيرات بلادنا، والإسلام صالح لكل زمان ومكان وحال.

تفسير ممزوج بالفقه:

كما امتاز تفسير البنا بأن مزجه بالفقه، كلما كانت الآية تسمح بذلك، دون تكلُّف منه، فتراه كثيراً ما يستخرج من الآيات الأحكام الفقهية الموجودة بها، ولا تكاد تخلو آية مما فسرها البنا إلا واستخرج منها أحكاما، ودروسا وعبراً، ترى ذلك واضحا جليا في تفسير (الفاتحة)، وفي تفسير سورة (الحجرات)، وفي تفسير سورة (المجادلة)، ومن قبل في تفسيره لسورة (التوبة)، فقد وقف الإمام رحمه الله عند كل آية، يستخرج منها ما فيها من أحكام.

أدوات التفسير عند البنا:

كان للبنا عدةً أدوات للتفسير استعان بها، وهي:

أولا: القرآن والسنة والآثار:

أُولى أدوات البنا التي استخدمها وارتكز عليها عند التفسير: القرآن والسنة وآثار السلف الصالح، فهو يرتكز على تفسير القرآن بالقرآن أولاً، فالقرآن يفسر بعضه بعضاً، وما لم يجده في القرآن يتَّجه إلى السنة، فالسنة مبيِّنة وشارحة للقرآن، فإن لم يجد في القرآن ما يفسره به، أو في السنة فإنه يستمد من هذه الثروة المباركة التي تركها لنا السلف الصالح، وفي كثير من الأحيان يستمد من هذا كله معًا.

ثانيا: اللغة العربية وآدابها:

ومن أدوات البنا التي استخدمها في تفسيره للقرآن: اللغة العربية وآدابها، والقرآنُ كتاب لغة لا يفهمه إلا لُغوي، وقد صدق الشيخ الغزالي - رحمه الله - حين قال: لا يفهم القرآن إلا أديب. ويقول: ولست أدرى كيف يكون عالما بالإسلام من ليس له ذوق أدبي، وقدم راسخة في فقه اللغة: شعرها ونثرها[١].

ويقول العلامة ابن باديس رحمه الله: إن العالم لا يكون إماما في الإسلام حتى يكون إمامًا في فقه اللغة، إمامًا في القرآن، إمامًا في فقه السنة، إذ بدون هذه لا يكون إمامًا، فتلك لغته التي بها نزل، وذلك كتابه الذي عليه يعول، وتلك[٢] بيانه ممن به أرسل[٣].

والبنا نشأ نشأة لغوية، وذلك بحكم دراسته في كلية دار العلوم، كما أن البنا بطبيعته أديب يحبُّ الشعر، بل ويُكثر من حفظه، حتى سُئل وهو يُختَبَر في اختبار القبول في كلية دار العلوم، وقد سأله المُمتَحِنُ: كم تحفظ من الشعر؟ قال: أحفظ اثنى عشر ألف بيت من الشعر[٤].

كما أن الأستاذ البنا ذوَّاق للشعر لم ينقصه إلا أن يقرضه، وهو أديبٌ كذلك تشعر بأدبيته في كتاباته. وهو ناقدٌ كذلك فقد نشر في بدايات كتاباته الصحفية مقالا نقد فيه طه حسين كأديب وشاعر، نقداً يدل على عمق البنا في دراسة الأدب والشعر[٥].

يرى القارئُ تمكُّن البنا من اللغة العربية وآدابها بوضوح في تفسيره، وبخاصة تفسيره للآيات السبع الأول من سورة الرعد.

ثالثا: العلوم الإسلامية:

كما استعان البنا في تفسيره بالعلوم الإسلامية مثل: التاريخ والسيرة والفقه والعقيدة

---

(١) كيف نفهم الإسلام للشيخ الغزالي ص ١١٠. ط. دار الكتب الحديثة الأولى.

(٢) يقصد بذلك السنة.

(٣) انظر: ابن باديس حياته وآثاره (٤ / ١٢٨) جمع ودراسة د. عمار الطالبي.

(٤) حدثني بها الأستاذ محمد حسين نقلا عن الأستاذ سيف الإسلام حسن البنا.

(٥) انظر: مقال (إلى حضرات النواب المحترمين) للإمام البنا المنشور في مجلة (الفتح) في العدد (٢٠٢) الصادر في ٨ من المحرم سنة ١٣٤٩هـ.

وغيرها من العلوم الإسلامية، فتراه رحمه الله مدركًا للسيرة وأحداثها، بل يستشهد بها بطلاقة، كما في تفسيره لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [الحجرات: ٤].

ونرى استيعابه الشديد لأحداث التاريخ، واهتمامه بالتاريخ، ولذا حرص البنا على أن يكون لدى الإخوان المسلمين ثقافة تاريخية، وقال: ويقرأ ولو على الأقل كتاب (حماة الإسلام)، ولكن البنا كان متعمقًا في دراسة التاريخ، ترى ذلك واضحًا -مثلا- في تفسيره لقوله تعالى: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ [التوبة: ٢٩]، وتراه كذلك مستعينًا في كثير من الآيات بالفقه الإسلامي، والعقيدة فيما يتصل بها من آيات.

ثالثًا: العلوم العصرية:

كما استعان البنا بالعلوم العصرية في تفسيره، فتراه يستشهد بكتب علمية بحتة، وقد يظن القارئ أن لا علاقة بينها وبين التفسير، ولكن البنا استطاع أن يستفيد منها بما يخدم الفكرة التي يعرضها، نجد ذلك واضحًا في تفسيره لسورة الرعد، عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُم بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾ [الرعد: ٢].

بل كان يطلع الإمام البنا على كتابات الغربيين، ويوظف هذه الكتابات في خدمة الفكرة الإسلامية، وفي خدمة الآية التي يتعرض لها، ويتضح ذلك بجلاء في سورة الرعد، فقد كان رحمه الله دائم الاطلاع، وهذا ما يحكيه أحد تلامذته فيقول: "كان الإمام رضوان الله عليه سريع القراءة بدرجة مدهشة، وهذا يرجع لكثرة الاطلاع، فكان يكفيه نصف ساعة للاطلاع على الجرائد اليومية، وكان يقرأ مجلة (المختار)، وهي المجلة التي كانت معروفة بجمود موادها من الجلدة إلى الجلدة، ليتعرف على أفكار الغرب"[1].

---

(١) انظر مقال (مع الإمام الشهيد) للأستاذ عبد الحليم الوشاحي المنشور في مجلة (الدعوة) الصادرة في ١٣فبراير سنة ١٩٥١م. نقلا عن كتاب (حسن البنا بأقلام تلامذته ومعاصريه) ص١٣٢، ١٣٤.

مما لا شك فيه - عزيزي القارئ - أن الإمام البنا كان رجلاً يحيا حياته كلها بالقرآن كما رأينا، وقد أردت بهذا التمهيد أن أبيِّن مكانة القرآن من هذا الرجل الذي غيَّر وجه التاريخ الإسلامي المعاصر، وأحدث انقلاباً في موازين الدعوات الإصلاحية. والآن أتركك مع تراث الإمام البنا ونظراته في كتاب الله.

*****

مقدمـــــات

كيف أكتب القسم الديني لجريدة الإخوان المسلمين؟ (١)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى بنعمته تتمُّ الصالحات.

اللهم إنا نستهديك إذا جَنَّ ليل الشبهات، ونستعينك إذا وهنت القوى، وكلَّت العزائم، ونسترشدك إذا اشتبهت وجوه السُّبُل، والتبست مفارق الطريق، فاسلك بنا من ذلك ما تحبُّ وترضى، واجعل ما نكتب حجة لنا لا علينا، واهدنا اللهم صراطًا مستقيمًا.

وبعد؛ فقد أُسْنِدَ إليَّ القيام بكتابة هذا القسم من (جريدة الإخوان المسلمين) الناشئة، فتقبلت ذلك على كثرة مزالقه، ووُعُورَة مضايقه، مستمدًّا من الله المعونة والتوفيق.

والبحوث التى يضمُّها هذا القسم تتَّصل من علوم الدين بالتفسير، والعقائد، والفقه وأصوله، والتصوف والأخلاق، ثم عظة منبرية، ويتبع ذلك الفتاوى.

وسأتقدَّم إلى القرَّاء الكرام لأول عهدهم بهذه الجريدة بالمنهج الذى عزمت على سلوكه - إن شاء الله - فى تحرير هذا القسم، الذى تريد إدارة المجلة أن تجعله سلسلة علمية متصلة الحلقات، يتعرَّف منها المسلم ما يحتاج إليه من أحكام دينه اللازمة.

وأرجو أن يتكرم قرائى الكرام بتفهمه، وأن يرجعوا إليه إذا التبس عليهم بعض ما يكتب، وقبل أن أُفَصِّل طريق السير فى البحوث المتعلقة بكل فن من الفنون التى ذكرتها آنفا، ألفت نظر حضراتهم إلى الملاحظات الآتية:

١- أنَّ لكلِّ عصر طريقًا فى الكتابة تتناسب مع أسلوب أهله فى الفهم وطرقهم فى الدراسة، ولا بد من هذا التجدُّد تبعًا لتجدُّد عقول الناس، وتغيُّر طرق البحث والتفكير والاستنباط، ولهذا كان لمؤلفات كل عصر من العصور الإسلامية السابقة طابعٌ خاصٌّ يمتاز به.

---

(١) نشرت فى مجلة (جريدة الإخوان المسلمين) الأسبوعية فى العدد الأول من السنة الأولى الصادر فى يوم الخميس الموافق ٢ من صفر سنة ١٣٥٢هـ.

فالعصر الأول من عصور التدوين تمتاز تآليفه بالاقتصار على المتون والأسانيد مع التعليق عليها ببعض الآراء تعليقًا مختصرًا، كما ترى ذلك فى موطأ مالك رضى الله عنه، وفى مسند أحمد وفى كتب الحديث الأولى.

وفى العصر الذى يليه التفت المؤلفون والفقهاء إلى تلخيص الأحكام وترتيبها، وبيان المسائل التطبيقية عليها، كما ترى فى "الأم" للشافعى رضى الله عنه، وفى "المبسوط" للسَّرَخسى مثلاً.

وجاء بعد ذلك عصر اقتصر فيه المؤلفون على سَرْد الأحكام والإكثار من التفريعات، وبيان الشروط والمحترزات ثقة بالمؤلفين، واعتماداً على جهود الأئمة رضوان الله عليهم.

وجاء بعد ذلك عصر التعليق والتحشية والتقرير، وهكذا نرى لكل عصر طابعًا يمتاز به، وتلك سنة الله فى خلقه. وفى منثور الحكم: "لا تقسروا أولادكم على آدابكم فإنهم خُلقوا لزمان غير زمانكم"[١].

٢- أنَّ عصرنا هذا هو عصر نهضة فى التأليف والعلوم والمعارف، ومع ما بدأ فيه من توجُّه الهمم إلى الترتيب والتهذيب والتسهيل والتعريب، لم تظفر فيه العلوم الدينية بشىء من همم المؤلفين، وجهود المصنفين، فظللنا من الكتب الدينية حيث كنا، عمادنا كتب من قبلنا، ولم نخدم نحن عصرنا بشىء، فلا زلنا إلى الآن عَالَة على من سبقنا، ولهذا كانت فائدتنا من العلوم الدينية قليلة، لان طريقة تأليف تلك الكتب وترتيبها ووضعها لا يتفق مع طرق الدراسة الحديثة.

ويظهر ذلك جليًا فى عدة مواضع، نذكر بعضها على سبيل المثال:

أ- إذا أردت أن تتعرَّف حكم مسألة من مسائل البيع، وحاولت الوصول إلى ذلك فى كتب الفقه الحالية، فإنك بلا شك تستنفد جهداً عظيمًا ووقتًا كبيرًا فى الوصول إلى موضعها، ثم فى جمع شتات أحكامها.

ب- بعض أحكام المعاملات الحديثة تخلو منه أمهات كتب الفقه، فحكم أعمال البنوك والمصارف، وبيع الكمبيالات، وما إلى ذلك كلها تتصل بالدين والفقه من حيث

١) أثر لعلى بن أبى طالب رضى الله عنه.

التحليل أو التحريم، ومع ذلك لا ترى لها وجودًا فى موسوعاته وكتبه، والعذر فى ذلك واضح فهى لم تكن عند المتقدمين، وواجبنا نحن أن نعالج ما يَجدُّ فى عصرنا من مثل هذه المسائل على ضوء القواعد الكليَّة التى وضعها الأئمة رضوان الله عليهم.

ج- الإفاضة فى أحكام لا وجود لها الآن، كالتمثيل بمسائل الرق، والإكثار من ذلك، حتى لا يكاد يخلو منه باب من أبواب المعاملات فى الفقه، والتمثيل بوزن الدراهم، وذكر مقادير الكيل والوزن والمسافات باصطلاحات نحن فى حاجة إلى بيان ما يقابلها فى هذا العصر.

د- إذا سألك شاب تعلم تعليمًا عصريًا عن كتاب يلخص العقائد الإسلامية، أو أحكام العبادات بطريقة تناسب عقله فأى كتاب تستطيع أن تدلَّ عليه؟! مع علمك أنه يودُّ فائدة ملخَّصة مقنعة فى وقت قصير لأنه هكذا تعلَّم.

لا أقصد بهذا الطعن فى المتقدِّمين رضوان الله عليهم، كلا كلا، فهم جزاهم الله خيرًا أدوا مهمتهم وقاموا بواجبهم لعصورهم، وألفوا كما تحب العقول التى عاشوا معها، وخلَّفوا لنا هذا الميراث الغنى الخصْب الفيَّاض بالعلم، الزاخر بالأحكام. ولكنى أقصد أن أستحثَّ همم علمائنا المعاصرين حتى يخدموا دينهم فى عصرهم، ويؤلِّفوا للعقول التى يعيشون معها كما كان أسلافهم، وكما قال ذلك الفلاح الشيخ: "قد غرس من قبلنا فأكلنا، ونغرس نحن ليأكل من بعدنا"(١)

لا أريد أن نكون حلقة غفلاً مجهولة فى سلسلة العصور العلمية الإسلامية يَصفُنا أبناؤنا وأحفادنا بالتَّواكل والتَّقصير، بل أريد أن نكون حلقة قوية تصوغ علوم الأسلاف بالصيغة التى تجذب إليها عقول الأخلاف.

٣- لهذا ستكون كتابتنا فى جريدة الإخوان المسلمين - إن شاء الله تعالى - على طريقة قد لا تكون مألوفة فى الكتب الدينية، ولكنها بلا ريب ستستمد من بحارها الجيَّاشة بالعلوم والمعارف، وسيكون عمادها جهود السلف الصالح وميراث الأئمة رضوان الله عليهم، فلئن كانت هذه الطريقة مبتكرة فى أوضاعها ونظمها فلن تكون جديدة فى أصول الأحكام وقواعدها، لأنها ثابتة لا يعتورها تغيير ولا تبديل.

---

(١) ويقال: إن قائله هو أبو الدرداء رضى الله عنه.

٤ - وليعلم قرائى الكرام أنى - وقد اخترت أن أطرق هذا الباب - لا أستأثر ببحث ولا أسْتَبِد برأى، بل أرجو منهم أن يتكرَّموا بمعاونتى فى هذا السبيل الشائك حتى نستخلص الحقيقة معًا، وليس أحبّ إلى نفسى من نصيحة صادقة يقدمها إلىَّ قارئ كريم، أو مشورة مخلصة يتفضَّل بها على أخ حميم، فأنزل على حكمها، وآخذ فى العمل بها إن شاء الله.

وإلى قرائى الكرام بيان خطتنا فى الكتابة على كل علم من العلوم السابقة إن شاء الله تعالى.

أولا: التفسير:

لما كانت الغاية من تفسير كتاب الله تعالى - فيما أعتقد - هى: توضيح معانى آياته توضيحًا يجمع للقارئ فهم المراد والتأثُّر به، ومعرفة ما فى الآية من أحكام وعبر. فلكى يصل القارئ إلى هذه الغاية فى الوقت القصير والجهد اليسير سنراعى فى كتابة التفسير الأمور الآتية:

١- حل المفردات اللغوية والتراكيب حلاً مجملاً.

٢- سهولة العبارة والتوسُّط فى إيراد المعانى.

٣- التحقيق فى الحوادث والقصص، فلا نذكر منها إلا ما له مساس بالآية ويؤيِّده الدليل.

٤- ربط معانى القرآن الكريم بمظاهر الحياة الحديثة علمية واجتماعية وخلقية.

٥- ذكر أسباب النزول، وبيان الرابطة بينها وبين الآيات.

٦- ذكر الأحاديث النبوية المتعلقة بالآية من حيث تأثيرها ومعناها.

٧- استنباط العِبر والعظات والأحكام الفقهية التى تحتوى عليها الآية الكريمة.

٨- الاقتصاد فى مسائل الخلاف، وقفل باب الجدل فى التأويل، وعدم التعصُّب إلى رأى من الآراء.

٩- التقفية ببحوث لغوية وأصولية بعد التفسير، حتى يجد فيها المتنورون ما تصبو إليه أفكارهم من تمام البحث وسَعَة الاطلاع.

١٠ـ التنبيه على المغالط التى وقع فيها بعض المفسرين، ورد الشبهات التى عسى أن يوردها بعض المغرضين على الآية الكريمة.

وقد راعينا فى السير على هذه الطريقة أن تكون نافعة لعامة المسلمين، فيستطيعون فهم المعنى الإجمالى، ومعرفة العبر والاحكام، وان تكون سارة للمستفيدين لما يتلو ذلك من بحوث عالية.

ويعجبنا أن نورد هنا كلمة من وصية قيمة لمصلح كبير أوصى بها بعض إخوانه فقال: "داوم على قراءة القرآن، وتفهم أوامره ونواهيه، ومواعظه وعبره كما كان يتلى على المؤمنين أيام الوحى، وحاذر النظر إلى وجوه التفاسير، إلا لفهم غاب عنك مراد العرب منه، أو ارتباط مفرد بآخر خفى عليك متصله، ثم اذهب إلى ما يشخصك القرآن إليه، واحمل نفسك على ما يحمل عليه"

وسنرتب اختيار الآيات بترتيب المقاصد الكلية للقرآن الكريم، فنبدأ ـ إن شاء الله تعالى ـ بآيات التعبد وهى الآيات التى تكثر تلاوتها فى العبادات، ووردت الأحاديث بفضيلة خاصة فى تلاوتها، كالفاتحة والمعوذتين والكافرون والكهف وتبارك والواقعة ويس، ثم نقفى بآيات العقائد والنظر فى الكون، ثم بآيات الأخلاق، ثم بآيات الأحكام، ثم بقصص القرآن الكريم، وهكذا، والله المستعان[١].

ثانيًا: العقائد:

سنقتصر فى الكتابة على بحوث هذا الفن (أى العقيدة) إن شاء الله تعالى على أمرين أساسيين:

أولهما: الاعتماد على طريقة القرآن الكريم والرسول ﷺ فى توصيل العقائد الدينية إلى النفوس واستيلائها على المشاعر والقلوب بدون تعمق فى الألفاظ وتشعب فى

---

(١) لم يتناول الإمام الشهيد هذه السور بالتفسير، وذلك لامر ينبغى ان نبينه هنا، وهو ان من تولى فقرة التفسير فى جريدة (الإخوان المسلمون) ليس الإمام الشهيد، ولكنه الأستاذ الكبير الشيخ طنطاوى جوهرى الملقب بفيلسوف الإسلام، فقد تناول كل هذه السور بالتفسير، فلم يكن باب التفسير حينئذ منوطًا بالإمام الشهيد، ثم اعقب الشيخ طنطاوى جوهرى الشيخ مصطفى الحديدى الطير، فى حالة غياب الشيخ طنطاوى، وبعد وفاته رحمه الله، ثم فى السنة الثالثة من المجلة احيل باب التفسير إلى الإمام الشهيد، وهو هنا يبين المنهج الذى ستسير عليه المجلة، وسيسير عليه هو إن كتب فى الباب.

البحوث، أو إيراد للآراء والمذاهب، أو خوض فى مصطلحات الفلاسفة والمناطقة والكلاميين والجدليين، وتلك طريقة السلف الصالح رضوان الله عليهم.

وثانيهما: العناية ببيان آثار هذه العقائد فى النفوس، ليعلم القارئ: أين نفسه من درجة استيلاء العقيدة الإسلامية عليها؟ فإن كانت متأثرة بها حمد الله على نعمته، وإن كانت هذه الآثار ضعيفة فى نفسه عمل على علاجها وتقوية إيمانها، فقد كانت العقائد عند أسلافنا عواطف مستقرة فى القلوب والمشاعر، مستوليةً على النفوس، فلما أن صارت عندنا جدلاً وكلامًا أضعف إيمان الأمة، وتسرَّب إلى دينها الخلل والوَهْن.

وسنتبع ذلك عند مناسباته برد الشبهات الحديثة، والاستدلال على العقائد الإسلامية بالنظريات العصرية لا على سبيل المزج والاختلاط ولكن على سبيل الاستئناس والاستنباط، نتاوَل قوله تعالى: ﴿ **سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ** ﴾ [فصلت: ٥٣][١].

ثالثا: الفقه:

أما الفقه فالكتابة فيه أمر مُشْكل من عدَّة وجوه، فهناك كثرة تفريعاته وجدلياته، وتعقد أساليبه والخلاف فى أصوله، وأهم هذه الوجوه تعدد المذاهب والآراء فيه، وتقررها فى نفوس الأمة تقررًا يجعل الخروج عليها ضربًا من الإلحاد يختلف عند الناس باختلاف نصيبهم من الحرية الفكرية فى البحث.

فهل أكتب للقراء الفقه الإسلامى بحسب مذهب واحد من المذاهب، فيستفيد أتباع هذا المذهب وهم جزء قليل من الأمة بالنسبة لمجموعها، ويُحْرَم الباقون؟ أم أكتب لهم بحسب المذاهب كلها، وهو مجهودٌ شاقٌ من ناحية، وفيه اختلاط الأحكام على القارئ من ناحية أخرى ولا سيما عند الطبقة العامة من القارئين، ذلك إلى ما فيه من قطع الصلة بين المسلم وبين منابع التشريع الأساسية التى هى الكتاب والسنة؟

---

(١) كتب الإمام البنا بناء على هذا المنهج ثلاث رسائل فى العقيدة، وهى: رسالة (العقائد) فى سلسلة مقالات فى مجلة (جريدة الإخوان المسلمين) الأسبوعية، ثم جمعها فى مجموعة الرسائل. ورسالة (فى صميم العقيدة) وقد نشرها فى سلسلة مقالات فى مجلة (الإخوان المسلمون) الأسبوعية، وهى لم تجمع من قبل، وسوف نجمعها إن شاء الله. ورسالة (الله فى العقيدة الإسلامية) وهذه نشرت فى مجلة (الشهاب) الشهرية، وجُمعت فى رسالة نشرتها دار الشهاب.

أم أكتب لهم الآيات والأحاديث الفقهية، وهم لم يبلغوا بعد درجة الاجتهاد، ولا يجدون من أوقاتهم ما يساعدهم على الاستنباط والفهم، فلا يستفيدون شيئًا، ويسيحون فى فوضى من الأفهام لا ضابط لها؟

أم أقفى على هذه الآيات والأحاديث بما أفهمه منها فيكون مذهبًا خاصًا، والحال أنى لو كُلِّفت نقل جبل من أقصى الأرض إلى أقصاها لكان أهون عندى من تحمُّل هذه التبعة ولست لها بأهل؟

الحق أن هذه مشكلة وقفت أمامها طويلاً، ولا شك أنك تقف نفس هذا الموقف إذا حاولت الكتابة فى الفقه كتابة تقصد بها تعليم الأمة وإفادتها، كما أنك تقف هذا الموقف نفسه إذا حاولت تدريس الفقه فى جمع من الناس فيه العامى وفيه المستنير، وتمرُّ أمامك هذه النظرات سراعًا فلا تدرى بأيِّها تأخذ، وعلى أىِّ طريق من طرقها تسير.

ولا شك أن لهذه الحيرة أثرها فى جهل العامة بأحكام عبادتهم كما هو مشاهد ملموس. وهذه وزارة الأوقاف قد خاضت لجنتها غمار هذه المعمعة، وحاولت الوصول إلى حَلٍّ لهذه المشكلة، وانتهت إلى إخراج كتاب الفقه فى المذاهب الأربعة فى العبادات، وبذلت فيه مجهوداً مشكوراً، إلا أنها لم تَزِدْ على أن جمعت الأقوال المختلفة فى مسائل العبادات على ترتيب لا يصل إلى الأحكام معه إلا أولو العلم فلم تفد العامة بشىء، فهو مرجع أكثر منه كتابًا يُدْرَس ويَتَعَلَّم الناس منه.

وقفت أمام هذه المشكلة طويلاً كما ذكرت لك، وبعد لأىٍ[1] رأيت وسيلة للخروج من هذا المأزق أذكرها لك لا على أنها فَصْل الخطاب، بل على أنها ما أفاضه الله على ذهنى، وألهمنى أن أسير عليه أنست فيها الفائدة، فإن أفاض الله عليك خيرًا منها فامدنى بما أفاض الله عليك، حتى نتعاون معًا على تذليل هذه العقبات، وتَعْبيد[2] طريق دراسة الفقه الإسلامى، فإن الأمر أكبر من أن يَسْتَقِلَّ به واحد.

هذه الوسيلة هى أن تكون الكتابة على درجات ثلاث:

الدرجة الأولى: الكتابة للعامة، وفيها نورد الكيفيات والأحكام المجمع عليها بين أئمة

(١) اللأى: الجهد والمشقة. انظر: مختار الصحاح ص ٥٨٨، ولسان العرب (١٥ / ٢٣٧).

(٢) التعبيد: أى التذليل. وهى هنا بمعنى التيسير. انظر: لسان العرب (٣ / ٢٧٤) مختار الصحاح ص٤٠٨

الفقه بدون نظر إلى تفصيلها وحكمهم عليها، ويقفى على ذلك بما ورد فيها من الترغيب والترهيب، والفوائد الدينية والدنيوية، وأسرار التشريع، وبذلك يستطيع العامى ان يعرف احكام عباداته ويصحّحها ويؤدّيها كما يريد الله ورسوله مع شعوره بفائدتها الدينية والدنيوية.

الدرجة الثانية: الكتابة للمستنيرين، وفى هذه نورد أحكام كل عمل من أعمال الكيفية العامة عند الأئمة رضوان الله عليهم مردفةً بالادلة، وذلك بعد مقدمة فى الأصول الاصطلاحية، وفى أسباب اختلاف الأئمة رضوان الله عليهم.

الدرجة الثالثة: الكتابة للعلماء المختصين، وفى هذه نورد وجوه الترجيح بين الأقوال بحيث يعلم الباحث أرجحها فى المسألة، ويكوِّن لنفسه رأيًا يطمئن إليه قلبه. وهذه لا تكون إلا للأثبَات من العلماء بعد أن تتكوَّن عندهم وسائل البحث ومَلَكَات النظر وقليل ما هم.

والذى سنعرض له فى جريدة الإخوان المسلمين القسمان الأولان أما القسم الثالث فقد تكفَّلت به المُطوَّلاتُ من كتب الفقه والحديث وسنراعى إن شاء الله تعالى فيما نكتب:

(أولا) البُعد عن التفريعات والفروض.

(ثانيا) عدم استعمال الألفاظ الاصطلاحية الغامضة ما أمكن ذلك.

(ثالثا) سهولة العبارة وبساطتها.

(رابعا) مزج الأحكام الفقهية بما يذهب بجفافها من الفوائد والأسرار وحكم التشريع[1].

---

١) كتب فى الفقه الإمام الشهيد عدة مقالات فى فقه الطهارة والصلاة والزكاة والصوم والحج والأضحية، ثم انقطع عن الكتابة، ولكنه يحسب له انه رحمه الله مرَّن عدة تلامذة له على هذا المنهج، فقد تولى بعده الكتابة الأستاذ محمد الهادى عطية المحامى الشرعى، وبعده الشيخ محمد البحيرى، وبعدهما الشيخ سيد سابق رحمه الله، وكانت كتابات الإمام الشهيد هى النواة التى انطلق منها الشيخ سيد سابق، واخرج بعدها سلسلته النافعة (فقه السنة) هذا الكتاب الذى شرق وغرب، وصار من اشهر الكتب المعاصرة فى الفقه الإسلامى. انظر: مقالنا عن الشيخ سيد سابق وعن كتابه (فقه السنة) : الشيخ سيد سابق: فقيه الدعاة وداعية الفقهاء. المنشور فى مجلة (حصاد الفكر) العدد (٩٧) الصادر فى ذى الحجة ١٤٢٠ هـ - مارس ٢٠٠٠م.

رابعًا: التصوف:

أما التصوف؛ فهو وإن لم يكن من العلوم الإسلامية الرسمية، إلا أنه استفاض فى الأمة أكثر من أىِّ علم آخر، وتخلَّلت أحكامه وقواعده قلوبها ونفوسها، وانتشرت كتبه بين طبقاتها، فكان من الواجب على من يكتب فى العلوم الدينية أن يعنى بشأنه ويهتم ببحوثه.

وفى الحق أنَّ التصوف الصحيح هو لباب الإسلام، وأن الصوفية الصادقين من خيار رجاله الذين عملوا على نشره وإعزازه، وتربية النفوس على مبادئه بطرق لم يسبقهم إليها غيرهم من الفلاسفة والمربين.

وفى رأيى أن التصوف قسمان: تصوُّفٌ دينى إسلامى، يستمدُّ أصوله وأحكامه من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

وتصوف فلسفى عقلى، يستمد أصوله وقواعده من نظريات الفلاسفة وأحكامهم على العوالم والنفوس.

وقد اختلط القسمان اختلاطًا كبيرًا عَزَّ معه إدراك الحق من الباطل، واستخدمت فيه آراء الفلاسفة لتفسير كلام الله وكلام رسوله ﷺ بقدر ما تأوَّل به المتأوِّلون الآيات والأحاديث بما يتفق وآراء الفلاسفة حتى صار للصوفية لسان خاص بهم، واصطلاحات مقصورة عليهم.

ونلاحظ كذلك أن التصوف الإسلامى نفسه قسمان: قسم يتعلق بالتربية والتهذيب وتطهير النفوس، وحملها على محاسن الأخلاق، واستكمال الفضائل وهو المعروف بعلم المعاملة.

وقسم يتعلق بنتائج الرياضة، وثمرات العبادة من الأذواق والمواجد والكشف والفيض إلى غير ذلك.

وقد اختلط القسمان كذلك اختلاطًا يصعب معه تمييز أحدهما من الآخر، ولهذا يتعلق بعض المريدين بالثمرة، ويتشوَّقون إليها قبل أن يسلكوا سبيل الوصول، بل ربما غفلوا عنه واستهتروا به.

كما يلاحظ أن التصوف الإسلامي اختلط به كثير من نتائج الأهواء، وثمرات الغايات والأغراض، ومظاهر الحياة السياسية والاجتماعية في العصور التي مرت به. وهذا إجمال له تفصيل ليس هذا محل ذكره.

والذي نقصد إليه: أن نقول إن خطتنا في الكتابة عن التصوف ستكون مبنية على الأصول الآتية إن شاء الله تعالى:

١- إيراد أحكام علم المعاملة، وبيان أدلتها من كتاب الله وسنة رسوله.

٢- الاقتصاد في إيراد ثمرتها من الأذواق والمواجد على ما يشوق إلى سلوك سبيله، ولا يتعارض مع الكتاب والسنة.

٣- بيان التفسير الصحيح لألفاظ الفن التي وضعها له شيوخه وأئمته.

٤- العناية بالقدوة الصالحة في سيرة الشيوخ رضوان الله عليهم وكلامهم.

٥- العناية بالناحية العملية من نواحي هذا العلم، لأنها أساسه وأصله. والله ولي التوفيق[١].

خامساً: العظة المنبرية:

وسنراعي فيها إن شاء الله تعالى:

١- سهولة العبارة ووضوحها وتناسقها من غير عناية بالسجع والتنميق اللفظي.

٢- التوسُّط في المقدار، فلا تكون طويلة مُمِلَّة ولا قصيرة مُخِلَّة.

٣- اعتماد أدلتها على القرآن والحديث والقضايا المسلمة المعلومة للمستمعين التي يكون لها تأثير في نفوسهم.

٤- اعتمادها على فكرة واحدة تكون العظة كلها توضيحاً لها وبياناً لأحكامها وآثارها ونتائجها بحيث تكون هذه الفكرة الأساسية واضحة في نفوس المستمعين بعد سماع العظة.

---

(١) كتب الإمام الشهيد في التصوف عدة مقالات، وقد جمعتها في جزء خاص من تراثه، تحت عنوان (نظرات في التربية والسلوك) نشرت جزءاً منها دار البشير - جدة، وتصدر الطبعة الثانية كاملة قريبا إن شاء الله.

٥- اتِّصالها بحياتهم اتصالاً وثيقًا بحيث يشعرون بأنها تدفعهم إلى منفعة أو تمنعهم عن مضرة.

٦- اتصال موضوعات العظات اتصالاً وثيقًا يجعلها نقاطًا لمنهج خاص، يقصد به تثقيف المستمعين تثقيفًا إسلاميًّا صحيحًا.

٧- وضوح خطوات الانتقال في العظة، والاعتماد على الأمثلة الواضحة، والتمثيل بالمعلوم للوصول إلى المجهول[١]

سادسًا: الفتاوى:

أما الفتاوى فسنورد فيها أقوال الأئمة ومذاهبهم مع دليل كلِّ رأى، وندع للقارئ اختيار ما تطمئن إليه نفسه منها أو نقفِّى عليها باختيار ما يطمئن إليه قلبنا مع بيان سبب الاختيار.

والذى أريد أن يلاحظه القراء والمستفتون أن الدين يُسر، والاختلاف في فروعه ضرورى، وليس العيب في الاختلاف، ولكن العيب في التعصُّب للرأى، فنحن حينما نورد الآراء ونقفى عليها باختيارنا لا نحمل غيرنا على اتباع ما جئنا به، ولكننا ندع له رأيه ما دام مطمئنًّا إليه، واثقًا به، مستدلاً عليه، بل ونَقْبَل منه أن يناقشنا رأينا، ونرجع عنه متى وضح لنا وجه الحق.

سابعًا: المأثورات:

نقصد بهذا البحث اختيار الأدعية والأذكار المأثورة عن رسول الله ﷺ حتى يحفظها ويدعو بها من أحب من القراء، فينالون ثواب المتابعة وثواب الدعاء[٢]

والله حسبنا ونعم الوكيل.

---

(١) كتب الإمام البنا في المواعظ والخطب عدة نماذج، وليست بالكثيرة، وسوف نجمعها إن شاء الله في جزء خاص.

(٢) كتب الإمام الشهيد مأثورات على حلقات في جريدة (الإخوان المسلمون) ثم بعد ذلك جمعها في رسالة (المأثورات). وتولى كتابة هذا الباب بعده الأستاذ الشيخ رضوان محمد رضوان.

وسائل المحافظة على القرآن الكريم [1]

القرآن الكريم هو مصدر الهداية الإسلامية، واصل الشريعة المحمدية، وأساس دين الإسلام ومادته. منه يأخذ المجتهدون، وعليه يعوِّل المشترعون والمستنبطون. لا علم لهم إلا ما علمهم إياه، ولا حكم إلا ما أرشدهم إليه، ولا عقيدة إلا ما ينص عليها. فهو للمسلمين قاموس علمهم، وقانون تشريعهم، ومحرر عقائدهم وعباداتهم؛ ودستور آدابهم ومعاملاتهم، ومرشد ائمتهم وحكوماتهم، والمعجزة الخالدة لنبيهم، ومركز جامعتهم؛ ومؤسس وحدتهم، حول لوائه يلتفون، وعند أخوته يلتقون، وبتلاوته يتعبدون فهو الكتاب الجامع، والنافع الشافع، والحكم العدل، والقول الفصل ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت:٤٢]. وما السنة إلا متمِّمته، وما العلوم اللسانية واللغوية، نقليُّها وعقليُّها إلا خادمته، لأجله وجدت؛ ولكشف عجائبه وُضعت، ولحفظه والمنافحة عنه وبيان وجوه إعجازه دوِّنت. وما عرفت فى الدنيا أمة عنيت بكتابها عناية المسلمين بكتاب ربهم وسنة نبيهم.

اهتمام المسلمين بدراسة القرآن فى كل أدوار حياتهم:

أجل، اهتمَّ المسلمون فى جميع أقطار الأرض بكتاب الله، وقدروه حقَّ قدره، وجعلوه أهم مواد دراستهم، وأفسحوا له المجال فى مناهج تعليمهم، بل جعلوه المحور والأساس فيها، واستغنوا به عن غيره، ولم يستغنوا بغيره عنه، فالعالم الفاضل فيهم من كان له فى حفظه وتفهُّم معانيه والدراية بأحكامه الحظ الوافر. واهتمُّوا لذلك حتى كان الغلام فى كثير من الأعصار يحفظه ويجوِّده وما جاوزت سنه العاشرة.

وهم - وإن كان من شيوخ المربين فيهم من رأى تأخير وقت حفظه كأبى بكر بن لعربى وابن خلدون - فقد اتفقت كلمتهم على أن الطالب لا يتم حياته المدرسية، ولا

---

1) نشرت فى مجلة (الفتح) فى العدد (٢٣٤) من السنة الخامسة فى يوم الخميس الموافق ٢٦ من شعبان سنة ١٣٤٩هـ. وقد قدم الأستاذ محب الدين الخطيب رئيس تحرير المجلة وصاحبها مقال الإمام الشهيد بهذه العبارة: رفع صديقنا الأستاذ حسن افندى احمد البنا مذكُرة إلى وزارة المعارف ومشيخة الأزهر وجمعيات المحافظة على القرآن، وكل من توسَّم فيهم التشجيع على تحقيق الوسائل المذكورة فيها. وهى مكتوبة بقلم العالم الخبير لذلك عنينا بنشرها.

يستحق لقب الأستاذية إلا إذا حفظ كلام الله، وفهم معانيه، وأدرك مراميه.

وإن الذى يدرس تاريخ التربية الإسلامية فى كل أعصارها من (مدرسة أبى الدرداء) بمسجد الشام التى كانت تضمُّ ستة آلاف طالب يتعلمون القرآن، إلى عصرنا هذا فى كل قطر من أقطار الإسلام شرقًا وغربًا، يعلم صدق ما نقول، ويرى كيف كان للقرآن المكان الأول فى كل قلب، والمحل الأسمى عند كل نفس، والعناية الكبرى فى دور العلم وفى الجوِّ العلمى مطلقًا.

ضعف العناية بالقرآن ومظاهره:

ظلَّت لكتاب الله مكانته فى مناهج التعليم فى مصر وغيرها إلى عهد المغفور له محمد على باشا وبعده بقليل. ومنذ أن امتدت اليد الأجنبية إلى مناهج التعليم أخذت العناية بالقرآن تضعف وتتضاءل، وأخذ رجال التربية والتعليم - وجلهم من الأوروبيين أعداء الإسلام وكتاب الإسلام الذى يرونه شَبَحًا مُخيفًا يُناوئ مطامعهم وآمالهم - يعملون على إقصائه تدريجيًّا من المناهج بحجة أن المدارس عَلمانية، وساعدهم على ذلك روح التقليد الأوروبى التى عَمَّت وطَمَّت، فاستطاعوا أن يحذفوه رأسًا من التعليم العالى الثانوى، ثم الابتدائى تقريبا بعد ذلك، وحصروه فى دائرة ضيقة هى مكاتب الإعانة والمكاتب الأولية فى برنامجها القديم.

ولم يقف هذا التيار ضد القرآن عند هذا الحد؛ بل أخذ يقوى ويشتد فإذا بمكاتب الإعانة تطاردها المدارس الإلزامية وليس من منهاجها حفظ القرآن، ولئن كان هناك قسم للحفاظ كما يقال، فإن طبيعة نظامها تجعل الوصول إلى هذه الغاية مستحيلا، وصارت البقية الباقية من هذه المكاتب تغلق تباعًا أمام عدم الإقبال وتضييق الوزارة وحظرها فتح مكاتب جديدة رغبة فى تعميم التعليم الإلزامى، وكثرة الشروط الصحية، وعدم استطاعة الفقهاء القيام بها حتى صرنا نعتقد أنه لن تمضى سنوات قلائل حتى تصبح هذه المكاتب لا عين [لها] ولا أثر.

وأما المدارس الأولية، فبعد أن كان منهاجها القديم يحتم عليها تحفيظ القرآن فى أربع سنوات طبق تقسيم مناسب حدَّدته الوزارة، نصَّ المنهج الجديد على إبطال هذا التحتيم وتحفيظ ما يمكن أن يحفظ" ومعناه أنه إذا لم يمكن تحفيظ شيء لكثرة المواد وتزاحمها

كانت هذه المدارس غير مسؤولة، لأنها نفذت المنهج الذى حددته الوزارة. وهكذا حاربت الظروف الينبوعين الباقيين لتخريج الحفاظ.

نتائج هذه النظم:

أما النتائج الخَطِرة الملموسة لهذه النظم - إن دامت - فهى:

أولاً: استحالة حفظ كتاب الله على النشء الحديث، ومعنى ذلك انقراض الحَفَظَة بموت من يحملون القرآن من الفقهاء المرتزقة والعباد الصالحين؛ أى أنه سيأتى على الأمة يوم تتلفَّت فيه، فلا ترى حافظًا ترجع إليه إلا أوراق المصاحف؛ بعد ان كانت الصدور عامرة بكلام الله والقلوب مستنيرة بحفظه وفهمه.

ثانيًا: ضياع اللغة العربية التى ما كانت العناية بها يومًا من الأيام إلا نتيجة من نتائج العناية بالقرآن الكريم.

ثالثًا: نسيان المسلمين لأصل دينهم، وقطع الصلة الحقيقية بينهم وبين كتاب الله، وانهدام ركن عظيم من أركان حياتهم الدينية والاجتماعية والعلمية.

إن دام هذا ولم يحدث له غير — لم يُبكَ ميت ولم يفرح بمولود

وبرهان ذلك الاستنباط عمليًّا، أنه كان يتقدم إلى لجان القرعة العسكرية فى كل مركز من مراكز القطر عدد عظيم مِمَّن يحفظون كتاب الله فيعفون من دفع بدل الخدمة. وفى السنوات الأخيرة أخذ هذا العدد يتناقص تناقصًا عظيمًا، حتى بلغت الحال أنه فى بعض المراكز - ومنها مركز كفر الدوار (بحيرة) - لم يتقدم فى هذا العام أحد البتة للمعافاة بالقرآن الكريم، والإحصاءات الرسمية والأرقام المحفوظة بوزارة الحربية أعدل شاهد على ذلك.

ولو أنك سألت حضرات الذين يمتحنون طالبى الدخول فى مدارس اللغة والدين - كالأزهر الشريف والمعلمين الأولية - عن مبلغ حفظ الطلبة المتقدمين للقرآن، وأجابك هؤلاء بصراحة لقضيت العجب من إهمال الناشئة الحديثة لحفظ كتاب الله.

ولئن دام ذلك فإنَّ اليوم الذى يُنزع فيه القرآن من الصدور، ويُمْحَى من السطور أصبح

لمثل هذا يذوب القلب من أسف[1] إن كان فى القلب إسلام وإيمان

نهضة المحافظة على القرآن الحديثة وأثرها:

هذه النتائج الخطرة أفزعت أهل الغيرة على القرآن، فهبوا يفكرون فى وسائل المحافظة عليه، وكان من نتائج هذا التفكير تكوين (جمعيات المحافظة على القرآن الكريم) فى كثير من بلدان القُطْر، كالقاهرة ودمنهور والإسكندرية، ونداء العلماء للشعب فى بيان مزايا التعليم القرآنى، وتنبه الأفكار إلى الخطر الذى يتهدَّدهم بسبب الانصراف عن القرآن.

ولكن هل هذه الوسائل تكفى للوصول إلى الغاية؛ وتضمن تحقيق الأمل؟

الحق أنَّ الجواب سلبى، فإنَّ جمعيات المحافظة على القرآن الكريم لم تتمكن إلى الآن إلا من فتح بعض المكاتب للتحفيظ، وهى لا تستطيع أكثر من ذلك؛ لقلة مواردها، وضعف ماليتها، والأمة جميعًا تُقدِّر لها هذا المجهود، وتشكره أجزل الشكر، وتعلم مبلغ ما يقاسيه القائمون بشؤونها فى سبيله من تعب وعناء.

على أنَّ هذه المكاتب لا تضمن تخريج الحفَظَة؛ فإنه على فرض استمرار الطلبة فيها حتى يحفظوا، فإنهم بمجرَّد أن يبارحوها ويزجُّوا بأنفسهم فى ميدان الحياة، ويزاولوا أعمالها ومشاغلها سينسونه ويهجرونه، فيذهب حفظهم سُدًى، ولا سيما والقرآن أشدُّ تفلتًا من صدور الرجال من الإبل فى عقلها. فإذا لم تفكر فى الطريق الذى يكفل استمرار حفظ هؤلاء الناشئين كان عملنا قليل الجدوى، ضئيل الفائدة.

فهما أمران: الحفظ، وضمان بقائه. ولا فائدة فى الأول ما لم يعزِّزه الثانى.

وقُلْ مثلَ ذلك فى قسم الحفَّاظ الذى تقول وزارة المعارف: إنه سيقوم بمهمة التحفيظ. وهذان هما الينبوعان اللذان نعتمد عليهما فى تخريج الحفظة لهذا العهد، وقد علمت نضوب مائهما واستعدادهما للجفاف.

فهل نترك المسألة عند هذا الحد، وهل ليست هناك وسائل تكفل لنا تحقيق أملنا فى تخريج الحفظة وبقاء حفظهم؟ اللهم إنَّ الوسائل كثيرة سهلة لا تحتاج إلا إلى اليسير من الهمة حتى نهتدىَ إلى الجادة، ونصلَ إلى الغاية.

---

(١) هناك رواية أخرى لهذا البيت: "من كمد" بدل "من أسف"

أما ما يحضرنى ذكره من هذه الوسائل حتى يكون القول مصحوبًا بالعمل، فهو :

الوسائل الناجعة فى تحفيظ القرآن:

أولاً: فى الأزهر الشريف الآن عددٌ عظيم من الطلبة فى أقسامه الكثيرة، وهؤلاء الطلبة مفروض انهم جميعًا لم يدخلوا الأزهر، حتى أدوا الامتحان فى القرآن الكريم، وشهد لهم ممتحنوهم بحفظه، ومفروضٌ أنهم سيكونون فى المستقبل أئمة فى المساجد، ووعاظا فى الأقاليم، ومدرسين للدِّين، وهم فى كل ذلك محتاجون إلى القرآن قبل كل شىء.

وإذا كان ذلك كذلك فما معنى أنهم لا يؤدُّون الامتحان فيه فى الشهادة الثانوية والعالمية والتخصُّص؟ قد يقول قائل: إنهم يؤدُّون الامتحان فى القرآن فى الشهادة الأولية[1]، ولكن اليست أربع سنوات بين الابتدائية[2] والثانوية وثلاث بين العالمية[3] والدكتوراه تكفى كلها لنسيان ما حفظ من القرآن؟

لا نريد ان نغالط أنفسنا فى الحقائق، ولا أن نخدعها عن الأمر الواقع فإن الموقف موقف إصلاح وتطبيب لا يصح فيها المداراة والمواربة، والمُشاهَدُ الملموس الذى لا يستطيع أحدٌ المُكابرةَ فيه انَّ كثيراً من العلماء أصبح لا يحفظ كتاب الله بعد أن كانوا قد مهَرُوا به حفظًا وتجويداً، وتسلَّمتهم إدارة الأزهر الشريف كذلك بنصٌ قانونها، وشهادة حضرات ممتحنى الدخول بمعاهدها، فكيف ترضى أن يتخرجوا تحت إشرافها فينتهون من دراستهم، وقد أضاعوا أهمَّ مادة قضوا فيها العمر الطويل وبذلوا فيها دم النشأة الأولى وهى بعد أمَسُّ المواد بحياتهم العملية، والزمها لما يقومون به من الوظائف، كالإمامة والوعظ والقضاء.

والمخرج الوحيد من هذا القصور: أن تجعل إدارة الأزهر الشريف الامتحان فى القرآن إجباريًا مع كل شهادة من شهاداتها، وان تُشدِّد فى ذلك تشديداً يمنع التهاون فى الاختبار، ويشعر الطلبة بتوقُّف نجاحهم على إجادة الحفظ.

---

(١) الأولية توازى حاليًا الابتدائية.

(٢) الابتدائية يعنون بها ما نسميه الإعدادية.

(٣) أى الليسانس.

فإذا نفذت إدارة الأزهر هذا الاقتراح كان لنا من الحفظة مائتا حافظ على الأقل، يتغنون بكتاب الله فى المحاريب، ويزيّنون به حلَق الوعظ، ويفقهون منه فصل القضاء.

وعلم أولياء أمور التلاميذ أنَّ أبناءهم لا يلجون باب المعاهد الدينية إلا إذا حفظوا، ففكروا قسرا فى طريق التخطيط، ونشطت له المكاتب الحالية كل النشاط.

ثانيًا: قل مثل ذلك تمامًا فى مدرسة دار العلوم العليا، هى الأخرى مدرسة عربية إسلامية تعدُّ طلبتها لتدريس اللغة والدين فى المدارس، والقرآن قاموس اللغة وأساس الدين، وإدارتها لا تقبل الطالب إلا حافظًا والمفروض أنه لا يتخرَّج فى تجهيزيّتها إلا وقد حفظ القرآن، فما معنى أن يدخل حافظًا، ويخرج ناسيًا مع شدة احتياجه إليه فى حياته العلمية.

فواجب وزارة المعارف: أن تجعل القرآن مادة أساسية فى امتحان إجازة التدريس، وبذلك تضمن مائة حافظ كل عام على الأقل يفهمون كتاب الله ويعلمون أوجه فهمه وإعجازه.

ثالثًا: مدارس المعلمين الأوليَّة تشترط فى منح شهادة الكفاءة للتعليم الأولى حفظ القرآن، ولكن تغافل الوزارة، وتهاون حضرات أعضاء الامتحان الشفهى، يجعل هذا الشرط قليل الفائدة، ضعيف الأثر، ويمكِّن غير الحافظ من اجتياز هذا الالتحاق وهو آمن مطمئن. ولا دواء لهذا إلا اهتمام مراقبة التعليم الأوَّلى بالأمر، فإنَّ أهم ما يدرسه متخرجو مدارس المعلمين بالمدارس الأولية القرآن الكريم، ولا معنى لأن يدرس المعلم ما لا يحفظ. وعليها أن تؤكِّد الوصية لحضرات أعضاء اللجان بإشعار الطلبة بأهمية امتحان القرآن. وبهذه الوسيلة التى لا تكلفنا إلا قليلاً من الاهتمام نضمن خمسمائة حافظ يتخرَّجون فى مدارس المعلمين الأوَّليَّة.

وإذا رأت مراقبة التعليم الأوَّلى الحاجة ماسَّة إلى زيادة حصص القرآن بمدارس المعلمين تحقيقًا لهذه الغاية. فعلت ذلك. وخدمت القرآن خدمة جليلة.

رابعًا: بقيت مسألة مكاتب "جمعيات المحافظة على القرآن الكريم"، وهذه لن تؤدى مهمتها إلا إذا ضمنت بقاء تلامذتها على حفظهم. أما أن تحفِّظهم ثم تهملهم بعد

ذلك، فيشتغلون بمهام الحياة، فينسون ما حفظوه، أو يدخلوا مدارس الحكومة التى لا يدرس فيها القرآن، فيضيع جميع مجهودهم ومجهود الجمعية معهم.

والوسيلة فى اتِّقاء هذا الشر: "أن تجعل الجمعية لهذه المكاتب برنامجًا مُنظَّمًا يؤهِّل طلبتها لدخول الأزهر الشريف بعد تمام مدة الدراسة فيها، وتتَّفق مع إدارة الأزهر على قبولهم بدون امتحان"

ومعنى هذا: أن تكون هذه المكاتب بمثابة قسم تحضيرى للأزهر، كالمدارس التحضيرية لمدارس المعلمين الأوَّليَّة.

وحبذا لو اقتنعت إدارة الأزهر بالفكرة فقبلتها، وخصَّصت من ميزانيتها مبلغا - ولو قليلاً - لتشجيع الجمعيات على مهمة التحفيظ. وحينئذ يجد تلميذ مكاتب "جمعية المحافظة على القرآن" نفسه منتظمًا فى سلك تعليمى ينتهى بشهادات الأزهر الشريف، فيطمئن على مستقبله، ويُقبل أولياء أمور التلاميذ على هذه المكاتب.

خامسًا: واجب كل مسلم يقضى عليه أن يحفظ شيئًا من كلام الله ليقوم به فى صلاته. فعلينا إذن أن نطالب وزارة المعارف - وعليها أن تقبل - بأن يكون ضمن مناهجها جزء معيَّن من القرآن يجرى مجرى المحفوظات العربية فى كل مدارسها.

هذه طائفةٌ من الوسائل التى يمكن بها أن نحافظ على القرآن الكريم، وبقيت وسائل أخرى تمتُّ إلى الموضوع بصلة، نشير إليها وإن كان تحقيقها للزمن وحده.

من تلك الوسائل: تقوية الروح الدينية فى الشعب، ومقاومة تيار التقليد الأوروبى، وبخاصة فى نظم التربية والتعليم، وتشجيع طلبة العلم على فهم أدلة الأحكام، والتوسُّع فى تحليل طرق الاستنباط ليجد الطالب نفسه مضطرًا إلى الرجوع إلى القرآن فى تفهُّم كثير من الأحكام، والعناية بالتشريع الإسلامى والسعى فى تطبيقه فى حياتنا العملية، حتى يشعر المشترعون بحاجتهم إلى القرآن. وهكذا.

من يقوم بتنفيذ هذه الوسائل؟

أما من يقوم بتنفيذ هذه الوسائل، فإدارة الأزهر الشريف، ووزارة المعارف بالإقدام على التنفيذ، والأئمة والوعاظ بحَضِّ الناس فى خطبهم ومواعظهم على التعليم القرآنى

ومدارسة القرآن، وجمعيات المحافظة على القرآن الكريم بالإكثار من فتح المكاتب ووصلها بالأزهر الشريف.

فإلى هذه الهيئات الثلاث، وإلى كل مسلم غيور على القرآن، أتقدم بهذه الكلمة راجيًا أنْ يكون لها الأثر المحمود في تدارك هذا الخطر المُحْدق بكتاب الله. وليسمح لى سادتى العلماء أن أصارحهم: بأنَّ هذه وسائل العمل أمامهم فليعملوا على تنفيذها، والأمة جمعاء تنتظر ما يقومون به من مجهود، أما الكلام بالألسنة والنداء على صفحات الجرائد فلا يغنى عن الواقع شيئًا ولا يغيِّر من الموقف فتيلاً.

ووالله ربِّ القرآن، ما أردت بهذه الكلمة البريئة النَّيْل من أحد أو تجبية شخص أو طائفة. إنْ أريد إلا الإصلاح ما استطعت، وما توفيقى إلا بالله، عليه توكلت، وإليه أنيب، والسلام على من اتَّبع الهدى.

*****

[مشكلة حفظ القرآن وحلها[1]]

تلك هى المشكلة: تحفيظ القرآن الكريم، فقد درجت المناهج فى مصر، وتقرَّر فى أذهان الناس: أن تحفيظ القرآن جزءٌ من منهج التعليم لأول أدواره، إذ إنَّ هذه السن هى وقت قوة الحافظة والذاكرة، ولا يتيسر حفظه فيما بعد ذلك. وصار هذا عرفًا يجد الناس فى مخالفته كثيراً من الحرج، ويُخيَّل إليهم أن ذلك ضياع لكتاب الله، وترى من جانب آخر أن اشتغال الطلبة بحفظ القرآن كله فى هذه السن يُفوِّت عليهم كثيراً من استخدام مواهبهم العقلية، ويُعطِّل كثيراً من قواهم النفسانية، ويرسم القرآن فى عقولهم وقلوبهم ألفاظاً لا معنى لها، ويعوِّدهم القراءة بدون تفكير ولا تدبُّر فى مستقبل حياتهم، فهذه الطريقة إن خرجتهم أوعية القرآن فقد حرمتهم لذة تدبُّره، وثمرة التفكير فى معانيه ومقاصده.

والمشكل قديم، وقد عالجه أبو بكر بن العربى، وأشار إليه وأبان أن التحفيظ ابتداء طريقة المشارقة، ونقد هذه الطريقة نقداً مُرًّا، وزكَّى طريقة المغاربة والأندلسيين فى البدء بتعليم اللغة، وتذوُّق الأدب، ثم يأتى دور دراسة القرآن بعد ذلك.

ونحن نريد أن نوفق بين حفظ كتاب الله والمحافظة عليه، وبين الانتفاع بكل القوى والمواهب فى الطفل، وتربيتها جميعا تربية متناسقة، بحيث يقوِّى بعضها بعضا، ويعضد بعضها بعضاً، ولنجمع بين الفائدتين، ونقترح أن يوزع حفظ ثلث القرآن على الأدوار الثلاثة من أدوار التعليم السابقة، الأولى، والابتدائى والثانوى، فيحفظ التلميذ فى مدة دراسته التحضيرية أو الأولية جزءا واحداً فقط ، وفى دراسته الابتدائية أربعة أجزاء مع استذكار الماضى، وفى دراسته الثانوية خمسة أجزاء مع استذكار ما سبق. بذلك يكون كل متعلم فى الأمة قد حفظ شيئاً من كتاب الله، ويكون كل من تخرَّج من المدارس الثانوية قد حفظ ثلث القرآن، وفى دور الدراسة العالية يحفظ كل طالب فى كليات الآداب أو الدراسات الإسلامية الثلثين الباقيين، بحيث لا يجاز بشهادته إلا إذا

---

(١) نشرت فى مجلة (النذير) فى العدد (٦) من السنة الثانية فى يوم الاثنين الموافق ٦ من صفر سنة ١٣٥٨هـ.

ادى امتحانًا دقيقًا تامًا فى القرآن كله ، ويحفظ كل طالب فى الكليّات الاخرى خمسة اجزاء ليتم بذلك حفظه لنصف القرآن، ولا يعطى شهادته كذلك إلا بامتحان دقيق فى كتاب الله .

وللتغلُّب على صعوبة اختلاف الاديان فى المدارس، يكلَّف غير المسلمين من الطلبة حفظ نصوص مختارة من جهد النظم والنثر، تحل درجاتها محل درجة القرآن الكريم فى الشهادات والامتحانات المدرسية .

ويلفت دائماً نظر الكلية إلى ان القرآن شئ يُتعبَّد به، فهو للعلم وهو للعبادة، فعليهم أن يقرؤوه دائمًا كذكرٍ لله يطلب به ثوابه، ويُتقرَّب به إليه، حتى يدوم تعلقهم به، وتستمر ملازمتهم له، ويستذكرونه عن رغبة وإجلال، لا عن عنف وإرهاق، وبذلك نخدم كتاب الله، ويكثر عدد الحفاظ المتفقهين، ويقضى على الاحتراف بالقرآن، الذى ما نزل إلا ليكون نوراً وهداية للناس جميعًا، وتنحل مشكلة تحفيظ القرآن على أفضل وجه، ولا يختص بدراسته قوم دون قوم .

*****

المنهج(1)

المنهج الذى ينهض بأمة من الأمم يجب أن تتوفَّر فيه شروط عدة حتى يؤدى مهمته، ليكون أقرب الطرق للوصول إلى الغاية، لا بد أن يكون واضحًا سهلاً محدود الغايات والمرامى، ولا بد أن يكون عمليًا لا يعتمد على الخيال، ولا بد أن يكون شاملاً يعبر عن أمانى الأمة وعواطفها، وخلجات نفسها، ويصوِّر آمالها ومطالبها، ولا بد أن يكون محُوطًا بصفة من القداسة تدفع إلى المحافظة عليه، والتضحية فى سبيله، ولا بد أن يكون بعد ذلك معينًا على جمع كلمتها، ومساعدا على ضمِّ صفوفها، وتوحيد وجهتها، إذا تمكنت أمة من وضع منهج تتوفَّر فيه هذه الشروط فهى واصلة لا محالة إلى ما تبتغى من أقرب الوسائل واخصر السبل.

ومن فضل الله تبارك وتعالى على هذه الأمة المحبوبة أن منَّ عليها بهذا المنهج تامًّا كاملاً، موفور الشروط، مُكتمل الوسائل والغايات، ذلك المنهج الإلهى هو "القرآن الكريم

لو كشفت غشاوة الأهواء والأغراض، وانزاح كابوس التقليد والضعف عن صدر هذه الأمة: قادتها وجمهورها، لتأكدت تمام التأكُّد أن المنهج الوحيد الذى يحقِّق آمالها وأمانيها إنما هو القرآن، بل أقول وأنا ممتلئ عقيدة: لا سبيلَ بغيره أبدًا، فقد أحكمت الحوادث غلقَ كلِّ باب يقوِّى معنوية الأمة إلا القرآن الكريم الذى جعله الله ميزان العدالة فى الأرض، وكتب له الخلود إلى يوم الدين.

القرآن الكريم منهجٌ سهلٌ محدَّد، واضحُ المرامى والغايات، مستفيض فى الأمة، يحفظه الصغير والكبير، ويعلمه الشيخ والشاب.

وهو عملى لا يعتمد على الخيال، ولا يهتم بتنسيق النظريات الوهمية، ولكنه ينادى الناس جهارًا: ﴿ **وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ** ﴾ [التوبة: ١٠٥].

---

(١) نشرت فى مجلة (جريدة الإخوان المسلمين) الأسبوعية فى العدد (٣١) من السنة الأولى الصادر فى يوم الخميس الموافق ٢٢ من ذى القعدة سنة ١٣٥٢هـ.

ويعالج النفوس والمشكلات بالعمل لا بالقول، وبالتكاليف لا بالأحلام.

وهو شامل لكل أمانى الأمة، فهو يشعرها بعزتها وكرامتها فى قوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَعْلَمُونَ ﴾ [المنافقون:٨].

ولا يقف منها عند هذا الحد بل يتسامى بها إلى أبعد من ذلك مكانةً، وأعز رفعةً، وأعلى مقامًا فيقول: ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة:١٤٣]

وأيَّة أمة تطمع فى أعلى من هذه المنزلة؛ منزلة الأستاذية العامة فى العالم كله، تعلِّم أهله، وتُقيم ميزان العدالة فيه، وتحطِّم صروح الظلم والمنكرات؟

وهو يحفظ عليها مقوِّماتها وخواصَّها ومميزاتها كاملة غير منقوصة، ويحذِّرها أن تنتقص منها المقدمات فيقول: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لا يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [آل عمران: ١١٨].

ثم يضع لها القواعد فى العبادات والمعاملات، والقوانين والأخلاق، والصحة والاجتماع، والعلم والتعلُّم، بل المطعم والمشرب، بل فى كلِّ شؤون الحياة.

ثم هو يوحِّد بين عناصرها، ويؤلِّف بين طوائفها، فيضع لهم هذا الميزان المضبوط الدقيق: ﴿ لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ۝٨ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ [الممتحنة: ٨، ٩].

وهو بعد ذلك كله مَحوطٌ بجلال القداسة، محفوف بالعناية الربانية، مُفَدًّى عند الجميع بالأموال والأنفس والثمرات.

ذلك منهجٌ أهداه الله إلينا، والناسُ يَحارون(١) فى وضع المناهج، وتعرُّف الخطط،

(١) يخطئ كثير من الناس فى هذه اللفظة، فيقولون: يحتار، وهو خطأ، والصواب كما كتبها الإمام البنا: يحار.

ويُقاسون من مرارة التجارب ونتائجها، ما يقاسون من عَناءٍ وبلاءٍ، وفشلٍ وتضحيات.

فيا قومنا هلمُّوا إلى منهج الحق، وطريق الهداية، ولسان الصدق، والصراط السوىّ الذى إنْ اتَّبعتموه لن تضلُّوا بعده ابدا، فإن أبيتم إلا ان تتخبَّطوا فى دَيَاجير(١) الحَيْرة، وتضيعوا الوقت فى التجارب الفاشلة والمناهج الآفلة فإنَّ الله سيقتصُّ منكم، وسياتى بمن ينفِّذ منهجه، ويسير على كتابه غيركم، ثم لا يكونوا أمثالكم، وما أقول لكم إلا ما قال النبى الصالح من قبل: ﴿ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي ﴾ [طه: ٩٠].

فإن أبيتم إلا البعد عن كتاب الله، والتَّجافى عن منهجه ﴿ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [المائدة: ٥٤].

*****

(١) دياجير: جمع ديجور وهو الظلام.

مقدمـــات(١)

لا بد لمثل هذه المجلة(٢) أن تتناول تفسير القرآن الكريم، كأول مصدر من مصادر الإسلام الحنيف، وأقدمها وأهمها.

ولقد فكرت طويلاً فى المدخل الذى الج منه هذا الميدان الفسيح المتشعِّب النواحى، وخطر لى أن أتناول تفسير المنار فابدأ من حيث انتهى صاحبه السيد رشيد رضا رحمه الله، وخصوصًا وقد بدأتُ بذلك فعلاً حين أُسند تحرير (المنار) وإصدارها إلى الإخوان المسلمين خلال سنة ١٩٤٠ الميلادية، فكتبت فى تفسير سورة (الرعد) وعُطِّلت المجلة بعد صدور ستة أعداد، كانت تمام المجلد الخامس والثلاثين.

ولكن رأيت أن ذلك ليس من حقى الآن، وعلمت أن بعض حضرات أصحاب الفضيلة من علمائنا الأجلاَّء على هذا العزم الطيب، وهم بحمد الله أقدر على تمامه، للفُسْحَة فى الوقت، والتمكُّن من الأمر أكثر مما أجد ذلك من نفسى، فعدَلت عن ذلك إلى الكتابة فى التفسير على نَهْجٍ كنت جريْتُ عليه من قبل فى بعض دروسى ومحاضراتى للإخوان المسلمين؛ وذلك بأن أتناول مقاصد القرآن الكريم بحسب ما يلهمنى الله إيَّاه من فهم وتدبُّر وفقه، وذلك ابتداء من فاتحة الكتاب الكريم إلى خاتمته إن شاء الله، فأكون بذلك قد جمعت بين الحرص على الترتيب والإفادة من حيث وحدة الموضوع بقدر الإمكان.

وإذا أعان الله على هذا العمل وباركه فسيكون عنوانه إن شاء الله (مقاصد القرآن الكريم)، ورأيت قبل البدء فى ذلك أن أُمهد له فى هذا المقال بهذه المقدمات حول: علم التفسير، ونشأته، وتطوراته، وآراء الناس فيه(٣).

---

(١) نشرت فى مجلة الشهاب فى العدد الأول الصادر فى غرة المحرم سنة ١٣٦٧هـ - ١٤من نوفمبر سنة ١٩٤٧م.

(٢) يقصد بها مجلة (الشهاب).

(٣) كتب الإمام الشهيد هذه الفقرة قبل العنوان (مقدمات)، ولكن وضعتها بعده نظرا لأن ذلك الأنسب والأفضل، وقد جعل الإمام العنوان العام للباب: التفسير وعلوم القرآن. وهذه الفقرة لم تطبع فى رسالة (مقاصد القرآن) التى نشرتها دار الشهاب.

القرآن الكريم:

"كتاب الله تبارك وتعالى، فيه نبأ من قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم، هو الفَصْل ليس بالهزل، من تركه من جبار: قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره: أضلَّه الله، هو حبل الله المتين، ونوره المبين، والذِّكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، وهو الذى لا تَزِيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة، ولا تتشعَّب معه الآراء، ولا يشبع منه العلماء، ولا يملُّه الأتقياء، ولا يَخْلَقُ على كثرة الرَّد، ولا تنقضى عجائبه، هو الذى لم تنته الجن إذ سمعته أن قالوا: إنا سمعنا قرآنًا عجبًا، من علم علمه: سبق، ومن قال به: صدَق، ومن حكم به: عدل، ومن عمل به: أُجر، ومن دعا إليه: هُدىَ إلى صراط مستقيم" الترمذى عن على مرفوعا(١)

ذلكم هو القرآن الكريم وقد أنزله الله على نبيِّه ﷺ ليتلوه المؤمنون، فتنشرح بهذه التلاوة صدورهم، وتستنير أفئدتهم وقلوبهم، وينالوا به مثوبة الله يوم القيامة، وما تقرَّب أحدٌ إلى الله تبارك وتعالى بمثل كلامه. ثم ليكون بعد ذلك دستور حياتهم ونظام مجتمعهم، يرسم لهم طرائق الحياة السعيدة فى هذه الحياة الدنيا، وطرائق الفوز والنجاة فى العقبى ﴿ **مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴾ [النحل:٩٧] ﴿ **وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ** ﴾ [طه:١٢٤].

فليس المقصود من القرآن: مجرَّد التلاوة، أو التماس البركة، وهو مبارك حقًّا، ولكن بركته الكبرى فى تدبُّره، وتفهُّم معانيه ومقاصده، ثم تحقيقها فى الأعمال الدينية والدنيوية على السواء، ومن لم يفعل ذلك، أو اكتفى بمجرَّد التلاوة بغير تدبُّر ولا عمل، فإنه يخشى أن يحقَّ عليه الوعيد الذى يرويه البخارى عن حذيفة رضى الله عنه: يا معشر القراء: استقيموا فقد سبقتم سبقًا بعيداً، وإن أخذتم يمينًا وشمالاً لقد ضللتم ضلالاً بعيداً"(٢).

---

(١) رواه الترمذى برقم (٢٩٠٦) وقال: هذا حديث لا نعرفه إلا من هذا الوجه، والدارمى (٣٢١١) وأحمد (١/٩١) والبزار (٨٣٦) عن على رضى الله عنه. وقال محقق الدارمى (حسين سليم أسد): فى إسناده مجهولان ابو المختار سعد الطائى، وابن اخى الحارث. انظر: سنن الدارمى (٤/٢٠٩٨).

(٢) رواه البخاري (٧٢٨٢) وابن أبي شيبة (٨/٢٠١).

الحاجة إلى التفسير:

ولهذا كانت الحاجة ماسَّة إلى التفسير المفهم الذى تتَّضح به المعانى والمقاصد بحسب مدارك البشر، وما تتَّسع له عقولهم، وإن كان القرآن فى الحقيقة قد يسره الله للناس تيسيرًا عجيبًا ﴿ **وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ** ﴾ [القمر:١٧] ﴿ **فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا** ﴾ [مريم: ٩٧] ﴿ **فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ** ﴾ [الدخان: ٥٨]، ولكنه بعد تبلبل الألسنة وفشو اللحن، وانتشار العامية، والبُعد عن الفصحى، صار الناس فى حاجة إلى تفسير الألفاظ والتراكيب التى قد يغيب معناها عن أذهانهم، أو يخْفى مدلولها عن إدراكهم، هذا مع أنَّ القرآن الكريم هو دستور الدين والدنيا. وقد ضمنه الله من علومهما، وما يتصل بهما من المعارف ما تتفاوت فى إدراكه عقول الناس، وما لا يزال الزمن والبحث يكشف عن دُرَره وجواهره، ويبين من غرائبه وعجائبه، ﴿ **سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ** ﴾ [فصلت:٥٣].

وسئل علىٌّ كرم الله وجهه: هل خصَّكم رسول الله ﷺ بشىء أهل البيت؟ قال: لا، إلا فهمًا أوتيه رجل فى كتاب الله، وما فى هذه الصحيفة. وعرض عليهم صحيفة فيها بعض الأحكام(١)

ومن هنا نشأ علم التفسير بسيطا(٢)، ثم ما زال الناس يتوسَّعون فى شأنه حتى ورثنا مجموعة ضخمة من التفسير كان بعضها هداية ونورًا، وكان بعضها موسوعات علمية فيها كل شىء إلا تفسير القرآن.

---

(١) رواه احمد (١ / ١٩١، ١٩٧) والبخارى (١١١) و (٣٠٤٧) و (٦٩٠٣) و (٦٩١٥) والترمذى (١٤١٢) والنسائى فى "المجتبى" (٤٧٤٤) وفى "الكبرى" (٨٦٨٢) وأبو داود (٤٥٣٠) وابن ماجه (٢٦٥٨) والبزار (٧١٤) وأبو يعلى (٣٣٨) و (٦٢٨) والبيهقى (٨ / ٢٨) والطبرانى فى "الأوسط" (٥٢٧٧) وعبد الرزاق فى "المصنف" (١٨٥٠٧) عن أبى جحيفة.

(٢) يقصد الإمام بكلمة بسيطًا هنا بمعناها الدارج بين الناس، وهو اليسير المختصر، وإلا فمعناها لغويا من البَسْط، أى المد والتطويل.

عناية السلف به:

وكان السلف رضوان الله عليهم يهتمون بتعرُّف مقاصد القرآن الكريم، ويرون الفضل لمن علم شيئًا من تفسيره، فعن على رضى الله عنه أنه ذكر جابر بن عبد الله ووصفه بالعلم، فقال له رجل: جُعلت فداءك، تصف جابرا بالعلم وأنت أنت؟! فقال: إنه كان يعرف تفسير قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ﴾ [القصص: ٨٥].

وقال مجاهد: أحبُّ الخلق عند الله تعالى أعلمهم بما أنزل.

وقال الحسن: والله ما أنزل الله آية إلا أحب أن أعلم فيمَ أنزلت وما يعنى بها(١).

وقال الشُعبى: رحَل مسروق إلى البصرة فى تفسير آية، فقيل له: إن الذى يفسِّرها رَحَل إلى الشام، فتجهَّز ورحل إلى الشام، حتى علِمَ تفسيرها.

وقال عكرمة فى قوله عز وجل: ﴿ وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ [النساء: ١٠٠] طلبت اسم هذا الرجل أربع عشرة سنة [حتى] وجدته، وقال ابن عبد البر: هو: ضمرة بن حبيب.

وقال ابن عباس: مكثت سنتين أريد أن أسأل عمر عن المراتين اللتين ظاهرتا على رسول الله ﷺ ما يمنعنى إلا مهابته. فقال: هى حفصة وعائشة.

وقال إياس بن معاوية: مثل الذين يقرؤون القرآن وهم لا يعلمون تفسيره: كمثل قوم جاءهم كتاب من ملكهم ليلاً، وليس عندهم مصباح، فتداخلتهم روعة ولا يدرون ما فى الكتاب، ومثل الذى يعرف التفسير: كمثل رجل جاءهم بمصباح فقرؤوا ما فى الكتاب"(٢).

التفسير بالرأى:

ومع هذا التعظيم لقدر التفسير والمفسرين الذين يعلمون فيم أنزلت الآيات وماذا أريد

---

(١) انظر: زاد المسير (١/ ٤).

(٢) انظر هذه الأقوال فى: زاد المسير (١/ ٤) و"المحرر الوجيز" لابن عطية (١/ ٢٦) وتفسير القرطبى (١/ ٢٦).

بها، فإنّ السلف رضوان الله عليهم كانوا يتحرّون دائمًا في التفسير الأ تتحكم فيما يفهمون من الآيات أغراضٌ خاصة، أو أهواءٌ شخصية، أو ظروف طارئة. ولكنهم كانوا يجرّدون أنفسهم من كلّ ذلك حتى يكون القرآن أميرًا على تصرُّفاتهم، ويكون هواهم تبعًا لما جاء به رسولهم ﷺ. وهو صريح الإيمان، ومن هنا: كان الكثير منهم يتحرّج من التفسير، ويخاف أن يقول في القرآن برأيه.

قال ابن عطية: "وكان جلّةٌ من السّلف الصالح كسعيد بن المسيّب، وعامر الشّعبي، وغيرهما، يعظّمون تفسير القرآن، ويتوقّفون عنه تورعًا واحتياطًا لأنفسهم مع إدراكهم وتقدُّمهم"[1].

قال أبو بكر الأنباري: وقد كان الأئمة من السلف الماضي يتورّعون عن تفسير المُشْكِل من القرآن، فبعض يقدر أن الذي يفسّره لا يوافق مراد الله عز وجل، فيحجم عن القول، وبعض يشفق من أن يجعل في التفسير إمامًا يبني على مذهبه، ويقتفي على طريقه. فلعل متأخرًا يفسر حرفًا برأيه، ويخطئ فيه، ويقول: إمامي في تفسير القرآن بالرأي: فلان الإمام من السلف.

وعن أبي مليكة قال: سئل أبو بكر الصديق رضي الله عنه في تفسير حرف من القرآن فقال: أي سماء تظلني، وأي أرض تقلني، وأين أذهب، وكيف أصنع إذا قلت في حرف من كتاب الله بغير ما أراد الله تبارك وتعالى؟[2].

وروى الترمذي وأبو داود من حديث جُندب قال: قال رسول الله ﷺ: **"من قال في القرآن برأيه فأصاب: فقد أخطأ"**[3]

والمراد بالقول بالرأي هنا: أن يقول بغير علم خجلاً أو تورّطًا، أو هروبا من الوصف

---

(١) انظر: تفسير ابن عطية (١/ ٢٩).

(٢) انظر: تفسير القرطبي (١/ ٣٤).

(٣) رواه الترمذي (٢٩٥٢) وقال: حديث غريب، وأبو داود (٣٦٥٢) وأبو يعلى (١٥٢٠) والبيهقي في "الشعب" (٢٢٧٧) والطبراني في "الأوسط" (٥١٠١) و"الكبير" (٢/ ١٦٣) عن جندب بن عبد الله رضي الله عنه. وضعف إسناده الألباني في "ضعيف الترمذي" (٥٧١)، وضعف إسناده كذلك محقق أبي يعلى (حسين سليم أسد) (٣/ ٩٠).

بالجهل، أو أن يتحكم الهوى، وتتغلب الأغراض فتجور بصاحبها عن نهج الصواب، وتعدل به عن طريق الحق، فلو أصاب أحدهم مع هذه النية فقد أخطأ وأثم، ولا شك أن الذين يجتهدون فى تحرى الحق متجردين له من أهوائهم فهم مثابون، إن أخطؤوا فلهم أجر، وإن أصابوا فلهم أجران إن شاء الله. وبهذا يجمع بين رغبة السلف فى التفسير وتعظيمهم لقدر المفسرين، وبين خوفهم من القول فى القرآن بالرأى، وما ورد فى النهى عن ذلك(١).

تأثر أسلوب التفسير بالثقافات والعصور المختلفة:

ولا شك أنَّ أسلوب التفسير قد تأثَّر بالتطوُّرات الاجتماعية والثقافية فى العصور الإسلامية المختلفة، فبدأ أول ما بدأ هينًا يسيرًا ساذجًا. يتناول بعض الآيات وبعض الألفاظ والوقائع لاستغناء الناس عن ذلك بسليقتهم العربية وذوقهم اللسانى الذى ما زال متمكِّنًا منهم، وما زالوا مقيمين عليه، واكتفاء بالسنة العملية التى شاهدوها مع رسول الله ﷺ ومع أصحابه والتابعين لهم بإحسان.

وجاء عصر التدوين والقصص، فكتبت فى التفسير رسائل لا تعدو أن تكون روايات منقولة وأقاصيص، منها ما هو صحيح يتصل بأسباب النزول، ووقائع الأحكام، ومنها ما هو منقول عن أهل الكتاب فيه الغث وفيه السمين، وعرف بذلك مفسرون، ووضعت كتب على هذا الأسلوب الذى يعرف بأسلوب الرواية أو "التفسير بالمأثور" لا شك أن من أعظمها وأجلها وأبقاها وأنفعها وأغزرها مادة تفسير الإمام محمد بن جرير الطبرى المتوفى سنة ٣١٠هـ واسمه "جامع البيان فى تفسير القرآن"

---

(١) وجْه الحديث الوارد فى النهى عن القول فى القرآن بالرأى هذا التوجيه: ابن عطية فى تفسيره، وابن كثير فى تفسيره ايضا، ولابن كثير كلمة جيدة ننقلها للاهمية، يقول رحمه الله "هذه الآثار الصحيحة وما شاكلها عن ائمة السلف محمولة على تحرجهم عن الكلام فى التفسير بما لا علم لهم فيه. فاما من تكلم بما يعلم من ذلك لغة وشرعًا فلا حرج عليه، ولهذا روى عن هؤلاء وغيرهم اقوال فى التفسير ولا منافاة، لانهم تكلموا فيما علموه، وسكتوا عما جهلوه، وهذا هو الواجب على كل احد، فإنه كما يجب السكوت عما لا علم له به، فكذلك يجب القول فيما سئل عنه مما يعلمه" انظر: تفسير ابن كثير (١/٦)، ونحا هذا النحو فى توجيه النهى عن تفسير القرآن بالرأى: الإمام ابو حامد الغزالى فى الإحياء (١/٢٨٨-٢٩٣) وكذلك ابن الاثير فى "جامع الاصول" (٢/٤-٦).

وجاء عصر الترجمة والفلسفة والاتّصال بعلوم الفرس واليونان، ووقع الخلاف بين فلاسفة الإسلام وعلمائه فى كثير من الشؤون العقدية والفروع الفقهية وما إلى ذلك، فَنَحَتْ كتب التفسير نحو هذا الأسلوب من حيث تضمُّنها لكثير من النظرات الفلسفية، والاستدلال بالآيات على الآراء والمذاهب العقدية المختلفة، بل إنّ كثيرا من المفسرين كان يجتهد أن يستنبط من الآية ما يوافق مذهبه فى الفروع، وذلك أمر طبيعى، وكثير من كتب التفسير إنما كان الدافع إليه مجرد الرد على بعض الكتب السابقة، ويرى ذلك واضحاً فى تفسير الفخر الرازى المتوفى سنة ٦٠٦هـ والمسمَّى "مفاتيح الغيب"، وفى تفسير الزمخشرى المتوفى سنة ٥٢٨هـ وهو المسمَّى بالكشاف" واضرابهما، ويطلق بعض الباحثين على هذا الأسلوب "التفسير بالمعقول"

وكثيراً ما تناول بعض اللغويين تفسير القرآن الكريم، فصرفوا وجهتهم إلى النكات البلاغية، والتوجيهات اللغوية، والاستعمالات النحوية وهكذا كما ترى ذلك فى تفسير الزَّجَّاج والواحدى وأبى حيان الأندلسى. وما زال بين يدينا كتاب (المفردات) للراغب الأصفهانى.

واتَّجهت وجهة كثير من المفسِّرين العصريين إلى مسايرة النهضة العلمية، وبيان ما تناوله القرآن وأشار إليه من أصول العلوم الكونية ونواميسها ومظاهرها كما فعل ذلك الأستاذ الشيخ طنطاوى جوهرى فى تفسيره "الجواهر"(١).

كما اتجهت وجهة آخرين إلى بيان السُّنن الاجتماعية، وأساليب الهداية النفسية، وأسباب التطورات التاريخية، واستنباط ذلك من آيات القرآن الكريم، ليكون حافزًا للمسلمين إلى استعادة مجدهم بالقرآن، وربط حياتهم الاجتماعية بتعاليمه وشرائعه،

---

(١) هو الأستاذ طنطاوى جوهرى الملقب بحكيم الإسلام، من قرية (وراق العرب) إحدى ضواحى الجيزة. بايع الإمام البنا على أهداف ومبادئ جماعة الإخوان المسلمين، وكان موضع الاهتمام والتقدير العلمى فى الأوساط العلمية، بل والمستشرقين، وكان رئيسًا لتحرير مجلة (جريدة الإخوان المسلمين) الأسبوعية، ومن مؤلفاته: تفسير (الجواهر) وكتاب (الأرواح) توفى سنة ١٣٥٨هـ. وقد كتب تفسيره للقرآن الكريم المسمى بالجواهر، وللأسف ملاه بالتفسير العلمى للآيات، واسرف فى إيرادها، حتى خرج عن مجال التفسير، حتى قيل عن تفسيره: فيه كل شىء إلا التفسير.

كما فعل الاستاذ الإمام الشيخ محمد عبده، واقتفى اثره وارثه وتلميذه السيد محمد رشيد رضا رحمهما الله [تعالى] فى تفسير (المنار) .

وهكذا نجد ان اسلوب التفسير يتجدَّد مع كلِّ مفسِّر، ومع كل عصر بحسبه، وذلك امر طبيعى كما قدمنا، فإنما يصوِّر المفسرون بالتفسير ما فهموا من كتاب الله، واداة فهمهم عقولهم، ومادة علمهم بيئتهم ومعارف عصرهم، فكان لزامًا ان يظهر ذلك كله جليًا فى نَفَثَات اقلامهم، ومعرض آرائهم .

ولا نريد أن نتناول هنا جميع كتب التفسير بالوصف والتحليل، فذلك ما لا نقصد إليه، ولا هو من مواد هذا البحث، وحسبنا ما ذكر على سبيل المثال .

مزالق المفسرين:

وهذا التأثر فى أسلوب التفسير بثقافات المفسرين وعصورهم كثيرًا ما يجرُّ بعضهم إلى مزالق الخطأ . وينحرف بهم عن جادة الصواب فى الفهم أو التعبير، وبخاصة إذا لم يكونوا قد تمرَّسوا بالدراسات الشرعية واللغوية والدينية التى تعين على صحة الفهم، وإدراك المقصد، ووضوح العبارة، ولهذا رأينا المستشرقين أفحش خطأ من غيرهم كلما تناولوا الحديث عن القرآن لضعف مادتهم اللغوية وبعدهم عن التمكن من الدراسات الإسلامية الصحيحة، وهذا فى المخلصين للبحث الحر منهم، فما بالك بالمغرضين؟! ثم يتلوهم الباحثون الذين لم يأخذوا بحظ وافر من هذه الدراسات .

وكثيراً ما يكون مظهر الخطأ الفاحش صياغة العبارة وقصورها عن الوفاء بالمراد بحيث لو صيغ هذا المعنى فى عبارة أدق وأحكم لكان أدل على غرض الكتاب وأوفى بمقصده، مع تمشيه مع الأدب اللازم فى معالجة مثل هذه البحوث، ومسايرته للحق والمنطق والصواب، ولعل من المفيد أن نلم إلمامة وجيزة ببعض هذه المزالق فى أساليب الكاتبين عن مقاصد القرآن المختلفة لعل فيها تحذيراً وتبصرة، فهناك :

أ ـ فى القصص والمعجزات :

يتناول القرآن الكريم قصص الأنبياء والمرسلين، ويذكر طرفًا من معجزاتهم، ومن المقرَّر أنه ليس الغرض من ذلك استقراء الوقائع ولا تحديد الأزمان، ولا تناول الظروف والملابسات، ولا تسجيل مجرد الحوادث والأشخاص، ولا البحث التاريخى الاصطلاحى والفنى، وإنما

الغرض من ذلك الهداية والعظة والعبرة، وتقرير قواعد هذه الهداية فى النفوس بذكر هذه القصص وعرض وقائعها أمام السامعين والقارئين، والقرآن الكريم يصرح بهذا فى وضوح فيقول: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [يوسف: ١١١].

ومن المقطوع به كذلك عند كل مسلم أنَّ كل ما ذكره القرآن فى هذه الناحية حقٌ لاشك فيه، وأنَّ علم التاريخ الاصطلاحى لا يمكن ان يأتى بحقيقة تخالف ما جاء فى قصة من القصص التى ذكرها القرآن الكريم، نعم إنه قد يعجز عن ان يصل بوسائله الفنية المجردة إلى بعض ما ذكره القرآن الكريم، فيكون ما ذكره القرآن الكريم زائدًا عن علم التاريخ المجرد، وقد يعجز التاريخ المجرد عن ان يجد الدليل باسلوبه الخاص على ما ورد فى القرآن الكريم. ولكن يجب ان يلاحظ: انَّ عجز علم التاريخ عن المعرفة أو الاستدلال ليس معناه عدم صحة ما جاء فى القرآن، فليس انتفاء العلم بالشيء دليلاً على عدم وجوده.

وهنا المزلق. فالمؤرخون قسمان: قسم لا يؤمن بالقرآن الكريم ولا يتخذ وحيه دينًا. وهذا يقول: إنَّ القرآن لا يصح ان يكون - عنده - كتابًا تاريخيًّا يعتمد عليه فى بحوثه الفنية المجردة عن أىِّ اعتبار آخر، وهو معذور فى هذا القول، ولا ينتظر منه غيره، لأنه لم يلتزم التصديق والإيمان بالقرآن من قبل، وقسم آمن بالقرآن وقام عنده الدليل على صدقه. وعليه حينئذ واجبان: أولهما: أن يكون أصدق الأدلة التاريخية عنده، وأثبتها ما جاء فى القرآن عن الأمم والعصور التى أرخ لها أو تناولتها آياته، وثانيهما: أن يرد عنه تكذيب الصنف الأول إن حاولوا ذلك أو أرادوه، وأن يقيم لهم الدليل على خطئهم بالأسلوب التاريخى الفنى، ولن يعجزه ذلك متى أراده.

ولكن بعض الباحثين من هذا القسم يحلو له أن يتشبَّه بأولئك. فيجرد من شخصيته المؤمنة بالقرآن شخصية أخرى يدَّعى أنها تاريخية بحتة لا تهتم بأى اعتبار آخر، ثم يمضى فى بحثه متقمِّصًا هذه الشخصية الجديدة، وينسى تمامًا شخصيته الأولى، فيزل ويهوى، ولو عاد فذكر شخصيته المؤمنة، وعقب على بحثه المجرد بما يفيد إيمانه بصدد هذا التاريخ القرآنى، ثم ناضل عن ذلك ودعمه بالأسلوب العلمى لقام ذلك عذرًا له أمام إيمانه أولاً، وأمام الناس بعد ذلك ولاستحق الشكر والثناء.

زَلَّ الدكتور طه حسين بك فى هذا المزلق حين انتحل من قبل ما قاله أحد

المستشرقين "للتوراة أن تحدِّثنا عن إبراهيم وإسماعيل، وللإنجيل أن يحدِّثنا عنهما، وللقرآن أن يفعل ذلك، ولكن هذا لا يكفى لإثبات وجودهما التاريخى بهذا الدليل"(١)، وثار الناس وهم محقون، ولو قال بعد ذلك: " ولكنى كمؤمن بالقرآن الكريم، أثبت وجودهما التاريخى بهذا الدليل، وإذا كان البحث التاريخى المجرد بأدلته الفنية الخاصة لم يصل إلى إثبات شيء عن إبراهيم وإسماعيل فذلك لقصور قد يكشفه الزمن، وقد نصل فى المستقبل إلى ما عجزنا عنه الآن كما يحدث ذلك دائمًا، وأخيلة الأمس حقائق اليوم، وأخيلة اليوم حقائق الغد، وحسْبَ الكتب السماوية أن تضع أيدينا على طرف الحبل، وعلينا بعد ذلك تمام البحث. ومن أنكر ذلك من المستشرقين فهو مُتَجَنٍّ على العلم، فليس توقف العقل عن حكم دليلا على الاستحالة" لكان محققًا، وكان مُحقًّا، وكان جامعا بين تحليل العالم العصرى، واعتقاد المؤمن القوى، ولما ثار الناس به وثار هو كذلك بالناس.

وهذا الكاتب الجديد صاحب رسالة "القصص الفنى فى القرآن"(٢) التى لم تظهر للناس بعد، وإنما ظهر طرف منها تناولته الصحف نحا هذا النحو. ولكن فى وادٍ أدبىٍّ

---

(١) قال ذلك الدكتور طه حسين فى كتابه (الشعر الجاهلى)، وقد رد عليه عدد من العلماء آنذاك منهم الشيخ محمد الخضر حسين فى كتابه (نقض الشعر الجاهلى)، والدكتور محمد أحمد الغمراوى، والأستاذ محمد فريد وجدى وغيره.

(٢) هو الدكتور محمد خلف الله عضو المجمع اللغوى، كان معيداً آنذاك بقسم اللغة العربية بكلية الآداب، وقد أثارت رسالته جمهور القراء، ومن قبله المناقشين: الأستاذ أحمد أمين، والأستاذ أحمد الشايب، وقد اعترضا على الرسالة، وثارت ضجة شهيرة آنذاك، وقد تناولتها الصحف والمجلات، وعلى رأسهم مجلة (الرسالة) فى العددين (٤٧١) و(٤٧٢) عام ١٩٤٧م. ولم تنشر الرسالة وقت كتابة الإمام البنا هذا المقال، ولكنه نقل الكلام من مجلة (الرسالة)، وعنوانها (الفن القصصى فى القرآن الكريم) وقد كان - ولا زال حتى وفاته - للدكتور خلف الله اتجاه علمانى، برز بعد ذلك فى نهاية القرن العشرين، وقد أجريت مناظرة شهيرة بين العلمانيين والإسلاميين، مثَّل العلمانيين فيها ومعه الدكتور فرج فودة، ومثَّل الإسلاميين: الشيخ محمد الغزالى رحمه الله، والدكتور محمد عمارة، والمستشار محمد مأمون الهضيبى.

استقيت معظم هذه المعلومات عن الدكتور خلف الله من: الدكتور عبد المنعم تليمة، ومن كتاب "إنهم يكرهون الإسلام" نشر دار الفضيلة، ومن مقدمة الأستاذ أمين الخولي للرسالة، فقد كان المشرف عليها، بل ومن المتحمسين لها، انظر: مقدمة كتاب (الفن القصصي في القرآن الكريم) لمحمد أحمد خلف الله.

متَّصل بالتاريخ، فهو يريد أن يقول: إنَّ رعاية الناحية الفنية عند الأديب المجرَّد لا تستلزم صدق الرواية ولا صحة الواقعة، وهذا حق، بل إنه كثيرًا ما يتجلى فن الأديب المبتكر من الحوادث والمتخيَّل من الروايات أكثر مما يتجلَّى فى رواية الوقائع الصادقة المحققة، بصرف النظر عما يقوله المربون وعلماء النفس فى خطر هذا الأسلوب على التكوين الفكرى والنفسانى للأشخاص، ثم هو يريد بعد هذا أن يجرِّد من نفسه أديبًا بعيداً عن كل اعتبار آخر، ويجرِّد من القرآن كتاب أدب بعيداً عن كل اعتبار آخر كذلك، وينظر فيه على هذا الأسلوب بصرف النظر عن صدق هذه القصص ومطابقتها للواقع والتاريخ أو مخالفتها لذلك كله.

ولو قال: إنه يتخذ هذا البحث وسيلة إلى إثبات سمو الناحية الفنية فى كتاب الله وعمقها، وإنه مؤمن بالقرآن الكريم، يصدِّق بأن هذه الوقائع جميعا لا بد أن تكون حقائق تاريخية، وذلك مما يزيد فى روعة التصوير ودِقَّة الفن. ولا عجب فهو (صنع الله الذى أتقن كل شىء) لو قال هذا لاستراح وأراح، ونفى عن نفسه وعن الذين يقرؤون له: لَوْثَات[1] الزيغ والضلال، وقل مثل ذلك فى مثل هذه المناحى جميعا.

هذا من حيث التاريخ والأدب مع القصص القرآنى والحوادث التاريخية فيه، أما المعجزات والقصص الغريبة التى لم تأت على حسب مألوف الناس. وَوَفْق ما يعرفون من النَّواميس العادية، كقصة أهل الكهف، وقصة الذى مَرَّ على قرية وهى خاوية على عروشها. فذلك بحث آخر سنفرده بالكلام فى أولى مناسباته إن شاء الله، وإنما نقصد إلى التنبيه لمثل هذا المزلق وللاستقراء بعد ذلك موضعه بتوفيق الله.

***

هى فتنة بلا شك فلتحذرها الأمة، ولتستمسك بالقرآن[2]:

منذ شهور قابلت كاتبًا معروفًا يكتب عن الإسلام كثيرًا، ويرد على الملحدين أحيانًا،

---

(١) لَوْثَات: جمع لوثة، وهى الحماقة. انظر: لسان العرب (٢/ ١٨٥).

(٢) نشرت فى مجلة (جريدة الإخوان المسلمين) الأسبوعية فى العدد (١٤) من السنة الأولى الصادر فى يوم الخميس ٢٤ من جمادى الأولى سنة ١٣٥٢هـ. وهذا المقال لم يكن فى صلب المقال الذى كتبه الإمام كمقدمة للتفسير فى مجلة (الشهاب)، ولكنى وضعته هنا لاتحاده فى الموضوع، ولأهميته كذلك. وقد عنون الإمام المقال بالعنوان المكتوب، ثم كتب تحته قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٠].

ودار بيننا حديث حول العقائد والآراء. فكان من آراء هذا الكاتب: أن ما ورد فى القرآن الكريم من معجزات الأنبياء ليس خارقًا للعادة، ولكنَّه مبنيٌّ على قواعد علمية عرفها الأنبياء ولم يعرفها الناس الذين كانوا فى زمنهم، وضرب لذلك مثلاً بانفلاق البحر لموسى وقال: إنَّ هذه ظاهرة طبيعية بسيطة لا تتجاوز نظرية المد والجزر التى صار يعرفها صبيان المدارس فى علم الجغرافيا، فموسى علم أن البحر سينجزر ماؤه على شاطئ السويس، فانتهز هذه الفرصة، واجْتَاز الماء بقومه، وفرعون جاء من بعد ذلك فى وقت [المدّ] فغرق هو وقومه، ويكون الإعجاز: أن موسى عرف هذه الظاهرة، وغيره لم يعرفها. وأثنى على الشيخ أبى زيد وكتابه خيرا، وعابَه بأنه لم يجهر بهذه الآراء، ولم يوضِّحها كما يجب.

فقلت له: إنَّ عبارة القرآن ليست كذلك، فإن الله تعالى يقول فى سورة الشعراء: ﴿ فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ (٦١) قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ (٦٢) فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ (٦٣) وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ (٦٤) وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ (٦٥) ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ (٦٦) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴾[الشعراء: ٦١-٦٧].

فقال: إنَّ هذا تصوير القرآن البليغ، وخطابته المؤثرة، وإلا فليس هناك ضرب بعصا، ولا انفلاق ولا طُرُق ومسالك، وإلا هى الاستعارة التمثيلية والبلاغة الخطابية.

فقلت له: لو سلمت لك جدلاً بأن معجزة موسى فى انفلاق البحر كانت ظاهرة طبيعية أساسها المد والجزر، فما قولك فى معجزته فى انقلاب العصا حية؟ وما قولك فى معجزات عيسى الكثيرة، ومنها ما حكاه القرآن فى سورة آل عمران ﴿ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ [آل عمران: ٤٩].

فكان جواب الأستاذ الكاتب الكبير على ذلك: "الحاوى يعمل أكثر من كده!"

وهنا لم أُطقْ صبراً، فقلت: معاذ الله ان يكون ذلك ايها الرجل، ومعاذ الله أن يكون أنبياء الله ورسله مُمخْرقين "حُوَاة" يضحكون على أممهم بما يضحك به الحاوى على المتفرجين برؤيته، وإن ما ذكرته فى قصة موسى لا يتفق مع المعقول ولا المنقول.

فاما عدم اتفاقه مع العقل: فلأن المُحَال ان يعرف موسى طبيعة البلاد المصرية اكثر مما يعرفها فرعون وقومه وقادة جيشه ومهندسوه والطبوغرافيون، ولا سيَّما في ظاهرة متكرِّرة ملموسة كظاهرة المدِّ والجَزْر.

وأما عدم اتفاقه مع النقل: فلأنَّ القرآن الكريم والسنة النبوية صرَّحت أوضح تصريح: بأنَّ موسى ضرب البحر بعصاه، وبأنَّ الماء تفرَّق وانحسر إلى طُرُق عدَّة سلكها موسى وقومه، وأراد فرعون اتِّباعه فغرق وهلك، وما ذلك على الله بعزيز.

وبعد شهور من هذه المقابلة قرأنا تفسير "وادي النمل" ورأينا عالمًا كبيرًا ومؤرِّخًا شهيرًا يعتزُّ بالعروبة والإسلام، يقول: إنَّ وادي النمل: وادي المستضعفين من سكان فلسطين وما إليها، وأن النملة التي أمرت قومها بدخول مساكنهم، لا يحطمنهم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون: رجلٌ من هؤلاء القوم. وقد نسي هذا العالم الكبير سياق الآية كله، واقتطع منه هذه الكلمة يذهب بها في أودية التأويل كُلَّ مَذْهب!

إنَّ الله تبارك وتعالى يقول: ﴿ **وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ (١٥) وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ (١٦) وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (١٧) حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (١٨) فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ** ﴾ [النمل: ١٥-١٩].

هذا هو سياق الآيات التي يمتن الله فيها على داود وسليمان بانه فضَّلهما على كثير من عباده المؤمنين من تعلم منطق الطير والإتيان من كل شيء، وتجنيد الجن والإنس والطير، وفي آيات أخرى امتنَّ عليهما بإلانة الحديد، وسَيَلان عين القطر، وتأوِيب الجبال مع داود يسبحن والطير.

فإذا كان حضرة العالم الكبير لا يَسْتَسيغ عقله ان سليمان فهم قول النملة لبني جنسها على أنها نملة حقيقية، فليخبرنا حضرته بموقف عقله أمام فهم سليمان لمنطق

الطير، وتجنيد الجن والإنس، وتسخير الريح والشياطين، أهذه هي الأخرى ألفاظ حقيقية أم لها معان لم يعرفها العرب بعد؟

فإن استساغها عقل حضرته بمعانيها الظاهرة، فليس خطاب النملة للنمل إلا واحداً من هذه، وربما كان أقلها، وإن كان لها عند حضرته معان أُخَر فليات بها. ثم بعد إتيانه بها أنا واثق أنها لا تمتُّ إلى معاني القرآن الكريم ولا أغراضه ومقاصده بصلة.

وتصدَّى كاتب كبير للرد على العالم الكبير فكان خلاصة ردِّه: أنَّ القرآن مُحْكَمٌ ومُتشابه، وأن المتشابه: هو الذى لا نستطيع أن نعلم معناه، أو ندرك حقيقته، وأنَّ علينا أن نؤمن بالمتشابه كما ورد، وأننا بذلك نتخلَّص من الاصطدام بمفردات العلوم الحديثة، ونتائج البحوث العقلية، وأن من المتشابه: معجزات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وقصصهم، وما ورد عن النعيم والعذاب وشؤون اليوم الآخر.

فأمَّا أنَّ فى القرآن محكما ومتشابها فمسلَّمْ؛ لأن الله تبارك وتعالى قال ذلك(١). وأمَّا أنَّ المتشابه هو الذى لا نستطيع أن نعلم معناه، فمحل خلاف بيننا وبين حضرة الأستاذ، وبين علماء التفسير بعضهم وبعض، ولنَتَنَاس هذا الخلاف مؤقتا، ونساير الأستاذ فى تعريفه للمتشابه ونسلِّمه له جدلاً على أن نعود إليه فى مقال آخر إن شاء الله تعالى.

ولكن الذى لا نستطيع أن نسلِّمه لحضرته هو أن قصص الأنبياء ومعجزاتهم، وما ورد عن النعيم والثواب، وشؤون اليوم الآخر، وهو ما يَرْبو على نصف القرآن من المتشابه الذى لا نعلم معناه، ولا نعرف المقصود به.

فأنت إذا قرأت قصة يوسف، أو قصة هود، أو قصة صالح، أو غيرها من قصص الأنبياء: فهمت المراد، وعرفت المقصود، وأدركت وجوه العِبْرة، وتفصيل العزة؛ ولأمر ما قال الله تبارك وتعالى: ﴿ وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ ﴾ [هود: ١٢٠]، وقال تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [يوسف: ١١١].

---

(١) يقصد الإمام قوله تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ ﴾ [آل عمران: ٧].

فإذا لم يُفهم المعنى، ويتضح المراد، فما وجه العظة والاعتبار والتثبيت؟!

وانت إذا قرأت القرآن فيما يتعلق بالجزاء والحساب، والنعيم والثواب: لم يلتبس عليك المعنى، ولم يخْف عليك المراد، ولم تجد شيئًا من مظاهر اللبس او الغموض أو التشابه؛ واسمع قول الله تبارك وتعالى: ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

وقوله تعالى: ﴿ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ (١٨) فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ (١٩) إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلاقٍ حِسَابِيَهْ (٢٠) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ (٢١) فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (٢٢) قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ (٢٣) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الأَيَّامِ الْخَالِيَةِ (٢٤) وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ (٢٥) وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ (٢٦) يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ (٢٧) مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ (٢٨) هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ ﴾ [١٨-٢٩].

اين التشابه أو اللبس أو الغموض فى هذه الآيات البيِّنات والتراكيب الواضحات؟

ستعلم إذا قرأت هذه الآيات: أنك ستحاسب، وستوزن أعمالك، وستعرض على ربك، وستتناول كتابًا فيه ما قدمت يداك، وستُجَازَى بالخير: جنة عالية، قطوفها دانية، فيها أكل، وفيها شراب، وستجازى بالشر: نارا حامية، ليس لك هناك حميم، ولا طعام إلا من غسْلين.

هذه معان يدركها كل إنسان عنده مسْكَةٌ من إدراك اللسان العربى.

حقًّا إننا لا نستطيع أن ندَّعى علم حقائق هذه المُسمَّيات، فما شكل الميزان؟ وما طريقة الوزن به؟ وما حقيقة الكتاب؟ وما كيفية الكتابة؟ وما حجم هذه القطوف؟ وما طولها؟ كل ذلك لا نستطيع أن نتعرفه، ولكننا نستطيع بهذه الآيات الكريمات أن نتعرَّف وجود هذه الأشياء والغايات التى وجدت لها وهو ما يعنينا علمه وتهمنا معرفته، فليس هناك إذًا غموض ولا تشابه.

وكذلك لا نُسَلِّم للأستاذ بأن هذا الطريق هو الذى يبعدنا عن الاصطدام بالعلم الحديث، لانه إذا كان الخلاف بين العلم الحديث وبين نصوص الاديان فى حقائق مؤسَّس

الكون[١]. فالعلم لم يترق إلى إدراك كُنْه هذه الحقائق إلى الآن، ولا نزال نعيش بين الأوهام والفروض فيما يتعلق بهذه الناحية، ونحيل الأستاذ إلى ما نقله هو عن شارل ريشيه وجيو وفلامريون، وغيرهم من أقطاب هذا العلم من اعترافهم بقصوره عن إدراك حقائق هذه النواميس، واشتغاله بتفهم ظواهرها وآثارها فقط.

وإن كان الاصطدام بين العلم والنص في آثار هذه النواميس وظواهرها، فإنَّ عدم الاصطدام إنما يكون بإلزام العلم وحده، وبيان قصوره عن الإحاطة بجملة نظام الكون، ودقائق أسراره لا بأن نَفِرَّ من الميدان، ونتجاهل الآثار التي ذكرتها الأديان.

وأوضح مثال لذلك المعجزات، فالدِّين يثبت أن موسى انقلبت عصاه حية تسعى، وعيسى نفخ في الطير فصار طيرا بإذن الله. والعلم لا يُقِرُّ ذلك لأنه خارج عما أدرك من النظم والنواميس العادية.

فالأستاذ يريد ألاَّ يصطدم بهذا العلم فيقول: نحن لا ندرك كيفية الانقلاب، ولا كيفية النفخ، ولا كيفية حياة هذا الطير الذي نفخ فيها عيسى، وإنما نؤمن به كما ورد، لأنه من المتشابهات، ويظن أنه بذلك لا يصطدم بالعلم الحديث، وما درى أنه ترك له الميدان، وانهزم على طول الخَطِّ، ووقف وقفة جامدة تهزم الدين وبنيه أشْنع الهزيمة.

أما نحن فنقول لهذا العالم: على رِسْلك[٢]، إنك لم تحط بكل نواميس الكون، فهل هناك ما يمنع أن تكون هذه المعجزات جاءت على ناموس لم نعلمه، بل نذهب إلى أبعد من ذلك وأوضح، فنقول لهذا العالم: ولماذا لا يكون من النواميس الكونية أن الله إذا أرسل رسولاً فكذبه قومه خَرَق له النواميس العادية، فأتى بما لم يستطع غيره الإتيان به، ولا شك أنَّ العلم الصحيح سيسلِّم بهذه النظريات حتى يأتيه مصداق قوله تعالى:

---

(١) لا يجوز أن يطلق على الله عز وجل مثل هذا الوصف: مؤسِّس الكون، لأن أسماء الله عز وجل وصفاته توقيفية، وبالطبع لم يقل الإمام البنا هذه الكلمة مُقرًّا بها، بل ذكرها على لسان كاتب المقال، وإلا؛ فالإمام البنا يرفض أن تطلق مثل هذه الأوصاف على الله عز وجل، من نحو: مهندس الكون... الخ، كما بين ذلك في رسالته (العقائد) من مجموع رسائله ص٣٨٧ طبعة المؤسسة الإسلامية ببيروت، وهذه الرسالة كانت مقالات نشرت في نفس المجلة. بل في إن رأيه في عدم جواز إطلاق مثل هذه الأوصاف على الله، مما لم يرد بها نص: كان في مقالاته السابقة لهذا المقال مباشرة، فلينتبه لذلك.

(٢) أي اتئد ولا تتعجل. انظر: مختار الصحاح ص٢٤٢، ولسان العرب (١١ / ٢٨١، ٢٨٢).

﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [فصلت : ٥٣].

أما بعد؛ فهؤلاء ثلاثة من شيوخ البحّاثين في هذه الأمة، وكبار كُتّابها ضلَّ بهم الفكر، وزاغ بهم البحث، فتركوا الجادَّة، وتَنَكَّبوا الطريق[١]، وطلعوا على الناس بما لا يتفق مع أحكام الإسلام وقواعده، وقوانين تفسير القرآن وتفهُّمه، وكأنَّ الله تبارك وتعالى لم يَقُلْ: ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [يوسف : ٢].

وقد سبقهم غيرهم بمثل قولهم، تشابهت قلوبهم، وما أُتى القوم إلا من ناحية واحدة: هي أنهم أرادوا أن يحصروا قدرة الله وتصرُّفاته في دوائر عقولهم، وفي حدود هذه النواميس العادية التي جهلنا فيها أضعاف ما علمنا، والله تبارك وتعالى أكبر من ذلك وأجَلّ، ولو سمت المدارك، وصَفَت الأرواح، لعلموا أنَّ من آحاد الناس من استطاع أن يقهر هذه النواميس المتعارفة، فكيف بالرسل والأنبياء، فكيف بالحقّ تبارك وتعالى. اللهم قنا شرَّ الحجاب، وتَنَكُّب الصَّواب.

هي فتنة بلا شك، وفي الأمة كثير من هذا الصِّنف، وما انتدبنا للكتابة في هذا الموضوع إلا لنكشف للأمة النقاب عما يشاع فيها من هذه الآراء المنحرفة، حتى تَتَّخذ الحَيْطَة، وتَسْتَمْسك بالكتاب، ولا تَغْتَرَّ بشخصيات الكاتبين وما لهم من شهرة في عالم الكتابة والتأليف، فقد أصبحنا في زمن كله فتن وأهواء تَتَجارَى بأصحابها كما يتجارى الكلب بصاحبه، لا يبقى منه عِرْقٌ ولا مفْصَل إلا دخله، ولا نجاة إلا بالاعتصام بحبل الله المتين، وكتابه المبين، وسنة رسول الله ﷺ، وأنَّ نَتَفَهَّمهما كما كان تفهمهما النبيُّ ﷺ وأصحابه في سهولة وبساطة؛ بغير نظر إلى وجوه التأويل ونَوَاحي الخلاف، ثم نتوجه إلى ما يوجِّهنا الدين إليه، مستعصمين بالإيمان وصالح الأعمال، وإنَّ أكبر ما أتمناه لهذه الأمة: أنْ يرزقها الله حُسْن فِرَاسَةٍ، تميِّز بها بين العدُوّ والصَّديق، والمُبْطلِ والمحقّ.

---

(١) تَنَكَّبوا: أي عدلوا ومالوا. انظر: مختار الصحاح ص ٦٧٨، ولسان العرب ( ). والمعنى هنا: أنهم ضلوا الطريق الصواب، وابتعدوا عنه.

ب ـ في العلوم الكونية[1]:

من المقرَّر: أنَّ القرآن الكريم لم ينزل ليكون كتاب هيئة أو طب أو فلك أو زراعة أو صناعة، ولكنَّه كتاب هداية وإرشاد، وتوجيه اجتماعى إلى أمَّهات المناهج الاجتماعية، التى إذا سلكها الناس سعدوا فى دنياهم، وفازوا فى آخرتهم، وهو إنما يَعْرِضُ للعلوم الكونية، ولمظاهر الوجود المادية الطبيعية بالقدر الذى يعين على الإيمان بعظمة الخالق جل وعلا، ويكشف عن بديع صنعه، وعمَّا أوْدع فى هذا الكون من المنافع والفوائد لبنى الإنسان، حتى ييسر لهم بذلك طرائق الاهتداء إلى الاستفادة من هذه الخيرات فى الأرض وفى السماء وفيما بين ذلك، ثم ترك بعد ذلك للعقل الإنسانى أن يجاهد ويكافح فى سبيل الكشف عن مساتير هذا الوجود، والاستفادة ممَّا فيه من قُوى ومنافع، وحَثَّ على ذلك، وجعل هذا من أفضل العبادة، وأعلى أنواع ذكر الله: ﴿**قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ**﴾ [يونس: ١٠١].

﴿**إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُولِي الأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ**﴾ [آل عمران: ١٩٠، ١٩١].

ولقد ذهب كثير من المؤلفين فى القديم والحديث إلى أنَّ القرآن الكريم قد تضمَّن كلَّ أصول العلوم الكونية، وحاولوا أن يصلوا إلى ذلك بتطبيق آيات الخلق والتكوين وما إليها على ما عَرف الناس من هذه العلوم.

ومن هؤلاء: الإمام الغزالى قديمًا فى (جواهر القرآن)، والشيخ طنطاوى جوهرى حديثا فى تفسير (الجواهر)، والدكتور عبد العزيز إسماعيل فى كتابه عن (القرآن والطب)، وأمثالهما.

وهو جهد مشكور ولا شك، ولكنه تكليف بما لم يكلفنا الله به قد يصل فى كثير من الأحيان إلى التكلُّف، وخروجٌ بالقرآن عما نزل له من الهداية والإصلاح الاجتماعى،

---

(١) من هنا إلى نهاية المقال من المقدمة التى كتبها الإمام فى التفسير فى مجلة (الشهاب) والتى انتهى فيها إلى ما كتبه عن القصص والمعجزات، والحقت ما كتبه تحت عنوان: هى فتنة بلا شك فلتحذرها الأمة.

وتقرير قواعدهما فى النفوس والمجتمعات، وتعريض لمعانى كتاب الله تبارك وتعالى لاختلاف الآراء، وتضارب المقررات العلمية، واختلاف أقوال العلماء، ولهذا كَرِهَ بعضُ السلف هذا المعنى وأشار إليه، كما فعل الشاطبى فى الجزء الثانى من (الموافقات)، وناقشه مناقشة دقيقة خَلُص منها إلى "أنَّ القرآن لم يُقصد فيه تقرير لشىء من هذه العلوم، وإن كان قد تضمَّن علومًا هى من جنس علوم العرب، أو ما ينبنى على معهودها مما يتعجب منه اولو الألباب، ولا تبلغه إدراكات العقول الراجحة دون الاهتداء بإعلامه، والاستنارة بنوره أما ان فيه ما ليس من ذلك فلا"(١).

ومن المقرَّر كذلك : ان القرآن قد تعرض لكثير من مظاهر هذا الوجود الكونية، فتناول خلق الإنسان، وتكوين الأرض والسماء، وجَرَيَان الشمس والقمر، وتسخير الكواكب والنجوم والأفلاك، وتَرَاكُم السحاب، ونزول المطر، وظاهرة الرَّعْد والبَرْق، ونمو النبات وتنوع أصنافه، وعجائب البحار، وأعلام الطريق، والجبال الرواسى على هذه الأرض، وأطوار الأجنَّة فى بطن أمهاتها، إلى غير ذلك مما يتناوله علماء الكون بالتمحيص والبيان، وما هو موضوع بحوثهم ومحل عنايتهم وتجاربهم.

وكثيرًا ما تختم هذه الآيات بالحثّ على التعقُّل والتفكُّر والنظر والتدبُّر. وإشارة إلى أن القرآن الكريم لم يقصد بهذا التعرض تقرير أصول هذه العلوم أو تناول فروعها. ولكنه إنما قصد إلى الهداية، وتوجيه الأنظار والنفوس إلى ما تدل عليه من عظمة الخالق وفائدة المخلوق.

ولكن الذى لا يمكن أن يكون محل نزاع هو أنَّ القرآن حين أشار إلى هذه النواميس الكونية والمظاهر الوجودية المادية، كان من دقة التعبير وصدق التصوير بحيث لا يمكن أبدًا أن يصطدم بما يكشف العقل الإنسانى عنه فى أطواره المختلفة من حقائق هذه العلوم ومقرراتها، وخصوصًا إذا لاحظنا أن هذه المقررات العلمية تنقسم إلى قسمين: قسم تظاهرت عليه الأدلة، وتوافرت الحجج حتى كاد يلحق بالبديهيات، وقسم لا زال فى طور البحث العلمى، وكل الذى بين يدى العلماء الكونيين منه فروض تؤيِّدها بعض القرائن التى لم ترق إلى مرتبة الأدلة القاطعة أو الحجج المُقْنِعَة.

---

(١) انظر الموافقات للشاطبى (١/ ٣٨٩، ٣٩٠) تحقيق الشيخ عبد الله دراز طبعة دار المعرفة ـ بيروت.

فما كان من القسم الأول فلا شك أن ما أشار إليه القرآن الكريم منه يوافق كل الموافقة، ويطابق كل المطابقة، ما عرفه العلماء الكونيون، حتى إنه من الحق أن يقال: إن ذلك من إعجاز هذا الكتاب الذى جاء به أمى لم يتعلم فى مدرسة، ولم يلتحق بجامعة من الجامعات!

ومن أمثلة ذلك: إشارته إلى أطوار الجنين، وتلقيح الرياح، وتكون السحاب وصلته بالرياح إلخ...

وما كان من القسم الثانى: فمن التجنى وظلم الحقيقة أن يوازن بينه وبين ما جاء فى القرآن الكريم. فلننتظر حتى يطمئن العلم الكونى إلى ما بين يديه، ويُؤْمن العقل الإنسانى بما وصل إليه. ثم ننظر على ضوء هذا الإيمان إلى النص القرآنى ولن نجدهما إلا متعاونين على تثبيت دعائم الحقيقة ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [فصلت: ٥٣].

ومن هذا القبيل: ما يتصل بنشاة الإنسان، وحقيقة الحياة، وبدء التكوين، وصلة الأرض بالسماء، على أنه من عجيب أمر هذا القرآن: أنه حتى فى مثل هذه المواطن يسوق التعبير سوقًا عجيبًا معجزًا فى مُرونة عبارته ودقَّة إشارته، حتى إنه ليساير بحق تطوّر العقل الإنسانى فى كل زمان ومكان.

وتأمَّل تصويره لنهاية العالم المادى، ووصفه للقيامة وآثارها، فيه تَرى أنه أتى فى ذلك بالعجب العاجب!

وهنا المزلق. فإن كثيراً من الكاتبين فى هذه المعانى، والناظرين إليها، يكتبون وينظرون وقد آمنوا إيمانًا لا شك فيه بصحة هذه الفروض العلمية، واعتبروها حقائق بدهية مقرَّرة لا نقص فيها ولا إبرام، وهم مع هذا الخطأ لا يكلفون أنفسهم دقة النظر فى نصوص القرآن، ولطف التركيب فى عباراته، وسر الوضع فى ألفاظه، فيتورَّطون فى الحيرة أحيانا، وفى التكذيب أحيانا أخرى.

فما دام (داروين)[1] عندهم قد قرَّر: أن الإنسان لا بدَّ أن يكون مشتقًا من حيوان

---

(١) تشارلز داروين: عالم طبيعة إنجليزى، ولد سنة ١٨٠٩م، وتوفى سنة ١٨٨٢م، صاحب نظرية التطور فى الأجناس الحية، قال: إن ذلك نتيجة اختيار طبيعى لصالح الأجناس الأكثر أهلية للبقاء، له مؤلف نشر فيه رأيه، وهو (أصل الأنواع). انظر: المنجد فى الأعلام ص٢٣٨

آخر، فليس للقرآن أن يقول: إنه من طين، أو صلصال كالفخار، حتى لا يصطدم بالكشوف العلمية، وفاتهم: أنهم لم يحيطوا بما قال داروين[1]، ولم يطالعوا ما كتب خصوم نظريته فى هدمها وإبطالها، وبخاصة فى هذه الناحية بالذات، وما ذكره بعض العلماء من نظريات تعاكسها تماما. كما فاتهم سرُّ تركيب القرآن فى قوله: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلَالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [السجدة:٧-٩]. وفى قوله: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ [نوح:١٣، ١٤] والحق والإنصاف: أن يُسَلِّموا بصدق هذه الآيات الكريمة تمام الصدق، وأن ينتظروا ما ينتهى إليه علم الناس، ثم ينظروا بعد ذلك (والله غالب على أمره) (وما أوتيتم من العلم إلا قليلا) وهذه إشارة عابرة إلى الموضوع يأتى تفصيلها فى موضعه إن شاء الله[2].

ج- فى السمعيات وصفات الله تبارك وتعالى:

ومما يلحق بذلك ويشبهه ما ذكره القرآن الكريم مما يسمَّى فى اصطلاح النظَّار والمؤلفين بالسمعيات. ومن ذلك الجن، والملائكة، وأحوال الموت، والقبر، والبعث والجزاء، والجنة والنار .. الخ ثم صفات الله تبارك وتعالى.

فلقد تناول القرآن الكريم هذه الموضوعات بكثير من الاستفاضة والإسهاب. فذكر الجن فى عدة مواطن، ووصفهم بالفقه والفهم والإيمان، والقدرة على ما يعجز عنه البشر فى كثير من الأحيان، وذكر الملائكة ووصفهم بأوصاف عدة فى كثير من الآيات، وأفاض

---

(١) لم يتلق العلماء الأوربيون نظرية داروين بالتسليم كما تلقاها -وقت انتشارها- كثير من العرب، وقد رد على نظرية داروين عدد كبير من علماء أوربا ممن لهم ثقلهم فى العلوم التجريبية، انظر هذه الردود والمناقشات فى كتاب: (الإنسان فى القرآن الكريم) ص٦٨-١٢٨ للأستاذ عباس محمود العقاد. وانظر فى رأى الدين فى نظرية داروين ومناقشتها كذلك كتاب: (الإسلام فى عصر العلم) لمحمد فريد وجدى ص٧٩٧-٨٠٨

(٢) عاد الإمام البنا لتناول هذه القضية بتفصيل عند تفسيره لسورة الرعد، وفى رسالته (فى صميم العقيدة: الله جل جلاله) فى مجلة (الإخوان المسلمون) الأسبوعية. ولمزيد من التفصيل فى هذه القضية انظر: كتاب (العلم والعقل فى القرآن) للدكتور يوسف القرضاوى. وكتاب (كيف نتعامل مع القرآن) للشيخ محمد الغزالى، وكتاب (كيف نتعامل مع القرآن العظيم) للدكتور القرضاوى.

في ذكر الموت وأحواله، وما بعده من بعث ونشور وحساب وجزاء: ﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ۝ ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره﴾ [الزلزلة: ٧، ٨].

ثم عرض لصفات الله تبارك وتعالى فوصفه بالكمالات كلها، ونزهه سبحانه عن أوصاف النقص جميعًا، ونفى عنه المشابهة لخلقه والمماثلة لغيره: ﴿ليس كمثله شيء وهو السميع البصير﴾ [الشورى: ١١]، ﴿ولم يكن له كفوا أحد﴾ [الإخلاص: ٤].

كما جاءت الآيات فيها ذكر الاستواء على العرش، واليد، والوجه، والأعين مضافة إليه سبحانه.

ولا شك أن ما ذكره القرآن من أحوال هذا العالم غير المادى، ثم من صفات البارى جل وعلا كلها لا تدخل فى حدود نواميس المادة ولا قواعد عالمها، والعقل الإنسانى لازال إلى اليوم عاجزًا عن إدراك ما يحيط بالمادة نفسها من قوى وأسرار فكيف بما هو وراءها؟!!

وهنا المزلق، فكثير من الناظرين فى معانى الكتاب الكريم يعز عليه أن يسلم بوجود شيء لم يصل عقله بعد إلى حقيقته، فما هؤلاء الجن الذين تخفى علينا حقيقتهم؟ وما هذه الملائكة التى لا ندرى كنهها؟ وما هذا البعث بعد أن تحللت عناصرنا المادية وردت إلى أصولها الأولية؟ وما هذه الأرواح المزعومة فى هذه الأجساد، ونحن لا نحس إلا بهذه العوامل المادية تتصرف فى أبداننا؟ فالبرد يؤذينا، والحر يؤذينا، والسم يقتلنا، والطعام يقوينا، والهواء ينعشنا، وكلها من المادة، وهم أمام هذه النظرة الضيقة يزلون، فمنهم من ينكر ذلك جملة، ومنهم من يتعسف فى التأويل فينكر الحقيقة ويذهب إلى أنها تمثيل أو تخيل، وكلاهما أخطأ الطريق وضل سواء السبيل.

وهم لو أنصفوا لعرفوا أن من خصائص العالم الألمعي(١): أن يعترف بالعجز والقصور فيما لم يصل إليه علمنا.

إذ ما كشفه العقل الإنسانى إلى اليوم بالنسبة إلى ما لم يكشف عنه من أسرار هذا

---

(١) الألمعي: هو الذكي المتوقد، الحديد اللسان والقلب. انظر: مختار الصحاح ٦٠٤، ولسان العرب (٨/ ٣٢٧).

الوجود شيءٌ يسير لا يكاد يقام له وزن كجزيرة صغيرة في وسط محيط عظيم.

ولقد اعترف بذلك وبأكثر منه أكابر علماء الكون، وسيمرُّ بنا من ذلك الكثير، حتى إن بعضهم ليقول: إنَّ من خصائص العالم العصري: أن يكون متواضعًا وجريئًا، متواضعًا لأنه لم يصل إلى شيء يُذْكَر من أسرار هذا الوجود، وجريئًا لأن المجهولات التي أمامه من الكثرة بحيث لا يفيد في الكشف عن بعضها إلا الجرأة.

فالتكذيب بمثل هذه السَّمْعيَّات لمجرد أنها لم تُدْرَك بالحواس البشرية مع دخولها في حَيِّز الإمكان الفعلي ظلمٌ صارخ، وضلالٌ مبين، والتأويل تكلُّف لا مبرر له، والإيمان بها مع عدم التكلُّف في تصور حقيقتها هو الصِّراط المستقيم.

وأمَّا ما أحاط بهذه المعاني في بعض الكتب أو الأذهان من صور خرافية، ومن أقاصيص خيالية، وأوصاف روائية لم ترد في كتاب ولا سنة ولا ثبتت من طريق صحيح، فليس من هذا البحث في شيء، ويجب على كل مؤمن ألا يقيم له وزنًا، ولا يرفع به رأسًا.

ومن الناس من يحاول أن يقرِّب هذه المعاني إلى أذهان غيره من المتشككين الذين لم تشرق بعد أنوار الإيمان على صدورهم، فيتصرف في الألفاظ، ويتجوَّز في التصوير، فعليه إن فعل ذلك أن يردفه بما يفيد تصديقه الكامل بما جاء عن هذه العوالم في القرآن الكريم، وأن يصارح بذلك أولئك المتشككين، بعد أن يخطو بهم الخطوة الأولى للإفهام والتقريب، حتى لا يقف بهم أو يقف معهم في وسط الطريق.

وليست هذه الصورة جديدة في البحوث الإسلامية الدينية، بل إنها لتتكرر منذ ترجمت الفلسفة، وأُدمجت في علوم الإسلام إلى اليوم، والموفَّق من شرح الله صدره للإيمان فهو على نور من ربه.

أفضل التفاسير وأقرب طرائق الفهم:

وبعد، فلقد سألني أحد الإخوان(١): عن أفضل التفاسير وأقرب طرق الفهم لكتاب الله تبارك وتعالى؟ فكان جوابي على سؤاله هذا هذه الكلمة: " قلبك

---

(١) ذكر الأستاذ محمود عبد الحليم: أنه السائل للإمام الشهيد. انظر: كتاب (الإخوان المسلمون أحداث صنعت التاريخ) (١/ ١٨٨).

فقلب المؤمن لا شك هو أفضل التفاسير لكتاب الله تبارك وتعالى. وأقرب طرائق الفهم أن يقرأ القارئ بتدبُّر وخشوع، وأن يستلهم الله الرُّشد والسداد، ويجمع شوارد فكره حين التلاوة، وأن يُلِمَّ مع ذلك بالسيرة النبوية المطهَّرة، ويُعْنَى بنوع خاص بأسباب النزول، وارتباطها بمواضعها من هذه السيرة، فسيجد في ذلك أكبر العون على الفهم الصحيح السليم، وإذا قرأ في كتب التفسير بعد ذلك، فللوقوف على معنى لفظ دَقَّ عليه، أو تركيب خفي أمامه معناه، أو استزادة من ثقافة تعينه على الفهم الصحيح لكتاب الله. فهي مساعدات على الفهم، والفهم بعد ذلك إشراق ينقدح ضوؤه في صميم القلب.

ومن وصايا الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده رحمه الله لبعض تلامذته: "وأدم قراءة القرآن، وفهم أوامره ونواهيه، ومواعظه وعبره كما كان يتلى على المؤمنين أيام الوحي، وحاذر النظر إلى وجوه التفاسير إلا لفهم لفظ غاب عنك مراد العرب منه، أو ارتباط مفرد بآخر خفي عليك متصله، ثم اذهب إلى ما يشخِّصك القرآن إليه، واحمل نفسك على ما يحمل عليه"

ولا شك أنَّ من أخذ بهذه الطريقة سيجد أثرها بعد حين في نفسه ملكة تجعل الفهم من سجيته، ونوراً يستضيء به في دنياه وآخرته إن شاء الله.

*****

خواطر فى ترجمة معانى القرآن الكريم[1]

أما رأينا فهو: أننا لسنا من أنصار المشروع، ونعتقد أن البعد عنه خير من الشروع فيه بأية صورة من صوره، وأنَّ الجهود التى يستنفدها لو أنفقت فى غيره من وسائل النهوض بالمسلمين أو الدعوة للإسلام لكان ذلك خيرًا.

ذلك ما نؤمن به. حتى بعد أن قرأنا ما كتب به الكاتبون، وما أفتى به حضرات أصحاب الفضيلة العلماء الأجلاء، وبعد قرار مجلس الوزراء[2].

---

(١) نشرت فى مجلة (جريدة الإخوان المسلمين) الأسبوعية فى العدد الثانى من السنة الثالثة الصادر فى يوم الثلاثاء الموافق ٢٩من محرم سنة١٣٥٥هـ - ٢١من إبريل سنة ١٩٣٦م.

(٢) ثار موضوع (ترجمة معانى القرآن) فى ذلك الوقت، وذلك عندما اقترح شيخ الأزهر الشيخ محمد مصطفى المراغى أن تترجم معانى القرآن الكريم إلى اللغات الأجنبية، وحتى يكون القارئ مُدْركًا لكلام الإمام الشهيد أضع بين يديه المقال الذى نشره شيخ الأزهر، والذى دعا فيه إلى ترجمة معانى القرآن، وفتاوى العلماء، وأول ما نذكر بيان شيخ الأزهر الشيخ محمد مصطفى المراغى، وهو مقال نشرته الصحف اليومية آنذاك، وتصدر صفحاتها الأولى، ومنها جريدة (الأهرام) المصرية، والذى قال فيه:

إلى حضرة صاحب الدولة رئيس مجلس الوزراء

اشتغل الناس قديمًا وحديثًا بترجمة معانى القرآن الكريم إلى اللغات المختلفة، وتولى ترجمته أفراد يجيدون لغاتهم، ولكنهم لا يجيدون اللغة العربية، ولا يفهمون الاصطلاحات الإسلامية، الفهم الذى يمكنهم من أداء معانى القرآن على وجه صحيح. لذلك حدث فى التراجم أخطاء كثيرة، وانتشرت تلك التراجم ولم يجد الناس غيرها، فاعتمدوا عليها فى فهم أغراض القرآن الكريم، وفهم قواعد الشريعة الإسلامية، فأصبح لزاما على أمة إسلامية كالأمة المصرية لها المكان الرفيع فى العالم الإسلامى أن تبادر إلى إزاحة هذه الأخطاء، وإلى إظهار معانى القرآن الكريم نقية فى اللغات الحية لدى العالم.

ولهذا العمل أثر بعيد فى نشر هداية الإسلام بين الأمم التى لا تدين بالإسلام، ذلك أن أساس الدعوة إلى الدين الإسلامى إنما هو الإدلاء بالحجة الناصعة والبرهان المستقيم. وفى القرآن الكريم من الحجج الباهرة والأدلة الدامغة ما يدعو الرجل المنصف إلى التسليم بالدين والإذعان له.

وفائدة أخرى للأمم الإسلامية التى لا تعرف العربية، وتَشْرئب أعناقها إلى اقتطاف ثمرات الدين من مصدرها الرفيع، فلا تجد أمامها إلا تراجم ملئت بالأخطاء، فإذا ما قدمت لها ترجمة صحيحة تصدرها هيئات لها مكانتها الدينية فى العالم، اطمأنت إليها، وركنت إلى أنها تعبِّر عن الوحى الإلهى تعبيرًا دقيقًا.

ونرى أن عهد صاحب الجلالة الملك فؤاد الذى تمت فيه أعمال جليلة لخير الإسلام والمسلمين خليقٌ بأن يتم فيه هذا المشروع الجليل. أطال الله بقاء جلالته نصيرا للعلم والدين. =

= لذلك اقترح: ان يقرر مجلس الوزراء ترجمة معانى القرآن الكريم ترجمة رسمية، على ان تقوم بذلك مشيخة الأزهر بمساعدة وزارة المعارف، وأن يقرر مجلس الوزراء: الاعتماد اللازم لذلك المشروع الجليل.

فارجو النظر فى هذا.

شيخ الجامع الأزهر
محمد مصطفى المراغى

ثم اصدرت جماعة كبار العلماء هذه الفتوى:

بسم الله الرحمن الرحيم

ما قول السادة حضرات اصحاب الفضيلة العلماء فى السؤال الآتى بعد ملاحظة المقدمات الآتية:

١ـ لا شبهة فى ان القرآن الكريم اسم للنظم العربى الذى نزل على سيدنا محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله، ولا شبهة ايضا فى انه إذا عُبِّر عن معانى القرآن الكريم بعد فهمها من النَّص العربى بأية لغة من اللغات لا تسمى هذه المعانى ولا العبارات التى تؤدى هذه المعانى قرآنًا.

٢ـ ومما لا خلاف فيه ايضا ان الترجمة اللفظية بمعنى نقل المعانى مع خصائص النظم العربى المعجز مستحيلة.

٣ـ وضع الناس تراجم للقرآن الكريم بلغات مختلفة اشتملت على اخطاء كثيرة، واعتمد على هذه التراجم بعض المسلمين الذين لا يعرفون اللغة العربية، وبعض العلماء من غير المسلمين ممن يريد الوقوف على معانى القرآن الكريم.

٤ـ وقد دعا هذا التفكير فى نقل معانى القرآن الكريم إلى اللغات الاخرى على الوجه الآتى:

يراد اولاً: فهم معانى القرآن الكريم بوساطة رجال من خيرة علماء الأزهر الشريف بعد الرجوع لآراء ائمة المفسرين وصَوْغ هذه المعانى بعبارات دقيقة محدودة، ثم نقل المعانى التى فهمها العلماء إلى اللغات الاخرى بوساطة رجال موثوق بأمانتهم واقتدارهم فى تلك اللغات بحيث يكون ما يفهم فى تلك اللغات من المعانى ما تؤديه العبارات العربية التى يضعها العلماء. فهل الإقدام على هذا العمل جائز شرعا او غير جائز؟

هذا، مع العلم بانه سيوضع تعريف شامل يتضمَّن ان الترجمة ليست قرآنًا، وليس لها خصائص القرآن، وليست هى ترجمة كل المعانى التى فهمها العلماء، وانه ستوضع الترجمة وحدها بجوار النص العربى للقرآن الكريم.

(الفتوى)

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد: فقد اطلعنا على جميع ما ذكر بالاستفتاء المدوَّن بباطن هذا، ونفيد بان الإقدام على الترجمة بالوجه المذكور تفصيلاً فى السؤال: جائز شرعًا، والله سبحانه وتعالى اعلم.

محمود الدينارى عضو جماعة كبار العلماء وشيخ معهد طنطا، عبد المجيد اللبان شيخ كلية اصول الدين وعضو جماعة كبار العلماء، إبراهيم حمروش شيخ كلية اللغة العربية وعضو جماعة كبار العلماء، محمد مامون الشناوى شيخ كلية الشريعة وعضو جماعة كبار العلماء، عبد المجيد سليم مفتى الديار المصرية وعضو جماعة كبار العلماء، محمد عبد اللطيف الفحام وكيل الجامع الأزهر وعضو جماعة كبار العلماء، دسوقى عبد الله البدوى عضو جماعة كبار العلماء، احمد الدبشانى عضو جماعة كبار العلماء، يوسف الدجوى عضو جماعة كبار العلماء، محمد سبيع الذهبى شيخ الحنابلة وعضو جماعة كبار العلماء، عبد الرحمن قراعة عضو جماعة كبار العلماء، احمد نصر عضو جماعة كبار العلماء، محمد الشافعى الظواهرى عضو جماعة كبار العلماء. =

ومجمل خواطرنا فى هذه الناحية يمكن ان يحصر فى النقط الآتية:

١ ـ كل ما يتعلّق بالقرآن الكريم يهتم له المسلمون كل الاهتمام، فيجب التريُّث فى إنفاذه.

٢ ـ لا نتَّهم أنصار المشروع بسوء القصد، ولا نختلف معهم فى ناحية الإخلاص، وحُسْن النية، ولكنَّا نختلف فى تقدير النتائج.

٣ ـ النَّصُّ المقصود بالترجمة ما دام على ترتيب السور والآيات، فسيعتبره غير العربى قرآنًا مهما قيل فى ذلك، ويؤكد هذا المعنى فى نفسه: كتابة النص العربى للقرآن الكريم إلى جانب الترجمة الفرِنْجيَّة.

٤ ـ الأدلة الفقهية والنصوص فى هذا المعنى يتطرَّق إليها الاحتمال جميعًا.

٥ ـ يمكن الحصول على الفائدة المرجوة من وراء الترجمة بغيرها من وسائل الدعوة.

= حيث إنَّ الترجمة المرادة هى ترجمة لمعانى التفسير الذى يضعه العلماء فهى جائزة شرعا، بشرط طبع التفسير المذكور بجوار الترجمة المذكورة، والله أعلم.

كتبه بيده الفانية

عبد الرحمن عليش

الحنفى ومن جماعة كبار العلماء

ثم أصدر شيخ الأزهر الشيخ المراغى تعقيبًا على هذه الفتوى فقال: وجهت هذا السؤال إلى حضرات أصحاب الفضيلة جماعة كبار العلماء. وإنى أوافقهم على ما راوه، ولا أرى داعيًا للتحفُّظ الذى ابداه فضيلة الشيخ عبد الرحمن عليش، وهو: طبع التفسير مع الترجمة، لعدمِ الحاجة إلى ذلك بعد مراعاة الشروط المدوَّنة فى السؤال.

رئيس جماعة كبار العلماء

محمد مصطفى المراغى

ثم صدرت فتاوى ومقالات تؤيِّد المشروع من رئيس التفتيش الشرعي، ومن رئيس تحرير مجلة (الأزهر) الأستاذ محمد فريد وجدى، ونشر مقالاته بعد ذلك فى رسالة مستقلة. وقد نقلت كل هذه النقول التى سبقت ليكون القارئ على بينة من الموضوع، ويكون مُلمًّا باطرافه، وقد أصدر الشيخ محمد سليمان نائب رئيس المحكمة العليا الشرعية كتابًا هاجم فيه الفكرة من أساسها، وجعل عنوان كتابه: (حدث الأحداث فى الإسلام: الإقدام على ترجمة القرآن). وقد نقلنا كل هذه الوثائق عن هذا الكتاب، فليرجع إليه ص٣٥–٤٠. طبعة المطبعة السلفية الأولى ربيع الأول سنة ١٣٥٥هـ وقد كتب الأستاذ محب الدين الخطيب مقدمة له، رفض فيها فكرة ترجمة معانى القرآن.

٦ - الأضرار الخطيرة التى تنجم عن الترجمة تربو على الفوائد المنتظرة منها.

٧ - أفضل وسائل الدعاية وخطتنا.

وسنتناول هذه النقط بشىء من التفصيل.

[١- وجوب التريث فى كل ما يتعلق بالقرآن]

القرآن الكريم العربى هو أصل الدين الإسلامى، والمعجزة الباقية الخالدة لسيدنا محمد ﷺ، وكل عمل يتَّصل به يهتم له المسلمون فى كل انحاء الأرض، ويرونه عملاً يمسُّ أقدس عقائدهم، ويتَّصل بأعمق وجداناتهم ومشاعرهم.

رأى عمر رضى الله عنه حاجة المسلمين إلى كتابة القرآن الكريم بعد رسول الله ﷺ وتمام الوحى، وقد استحرَّ القتل فى القرَّاء، واستشهد كثير من الحَفَظَة فى الوقائع والفتوح، وعرض ذلك على الخليفة الأول أبى بكر رضى الله عنه، فتوقَّف فى الأمر، وهَالَه أن يأتى بأمر يتَّصل بالقرآن لم يفعله رسول الله ﷺ، حتى إذا اتَّضح له وجه الرأى، واعتقد أن ذلك من حفظ القرآن والعناية به أقدم عليه، وانتدب زيد بن ثابت لذلك، فتوقف هو الآخر، وهَاب الإقدام على هذه الناحية، حتى شرح الله صدره، وعلم أنه الحق ففعل.

وحافظ أئمة المسلمين منذ الصدر الأول على المأثور فى القرآن؛ حتى رسمه، وأبوا تغيير هذا الرسم بما يتفق مع القواعد المستحدثة، فأفتى مالك بالا يكتب المصحف على ما أحدث الناس من قواعد الهجاء. وقال: لا إلا على الكتبة الأولى. وقال الإمام أحمد رضى الله عنه: يحرم مخالفة خط مصحف عثمان فى واو أو ياء أو ألف أو غير ذلك.

كل ذلك إنما كان تهيبًا للقرآن، وسدًّا للذرائع، وتقديرا للتبعة الملقَاة على عاتق العلماء فى المحافظة على كتاب الله تبارك وتعالى، وكل الذى نريد أن نلفت إليه الأنظار بهذه المقدمة: وجوب التريُّث والتثبُّت وتقليب الأمر على وجوهه، والاستعانة بأولى الرأى من المسلمين كافة فى الشؤون التى تتعلق بكتاب الله، ومنها ما نحن فيه.

[٢- إحسان الظن بأنصار المشروع وإن خالفناهم فى الرأى]

لا نتهم أنصار المشروع بسوء النية، ولا بضعف الإخلاص، ولا يستطيع إنسان أن يأتى

ببرهان أو شبه برهان على مثل هذا الاتهام، ونحن مطالبون بحُسْن الظَّن، وحمل الأمور على أفضل محاملها، ما لم يتبين عكس ذلك، وليس الخلاف بيننا وبين حضراتهم فى هذه الناحية، بل إننا إنما نكتب على هذا الأساس الذى يدعو إلى التقدير والاحترام، وإنما الخلاف بيننا فى النتائج التى تترتب على هذا العمل الخطير[١].

[٣- الترجمة توحى لقارئها بأنها قرآن]

يقول حضرات أنصار المشروع: إننا لا نترجم القرآن ترجمة لفظية، بل إن ذلك مستحيل لاختلاف الأساليب والمصطلحات، ولكننا نترجم معانيه فقط.

ومعنى هذا أن المُتَرجَم إنما هو: تفسير القرآن لا القرآن. ويريدون أن يضعوا النص القرآنى العربى فى ناحية، والنص الفرنجى فى ناحية، على اعتبار أن هذا النص الفرنجى يقابل معانى هذا القسم العربى.

ونحن نقول: مهما حاول حضراتهم أن يبعدوا الصِّلة بين هذا المترجم وبين النص العربى، فهو سيعتبر عند غير العربى قرآنًا سيتلقاه على أنه قرآن، وسيفهمه على أنه قرآن، وسيتلقى منه تعاليم القرآن ومقاصد القرآن، وسيؤكد هذا المعنى فى نفسه أمرين أولهما: أنه على نسق القرآن وترتيب سوره وآياته. وثانيهما: وضع النص العربى فى مقابلته.

وإذا جاز أن يقتنع العربى المعاصر بأن هذا المترجم غير القرآن لأنه لا يعرف القرآن إلا عربيًا، ويعتقد أن قدسية القرآن فى عربيته مع قرب عهده بزمن الترجمة، فهل يستطيع أنصار المشروع أن يقولوا: إنَّ غير العربى سيعتقد هذه العقيدة، وأن الأجيال القادمة ستدرك هذا البعد كما يدركه المعاصرون، وهم يرون النصين المتجاورين، ويرون التصديق من شيخ العلماء فى مصر[٢] زعيمة العالم الإسلامى؟ اللهم لا

---

(١) لله در الإمام البنا رحمه الله، الذى يبين هنا أدبا من آداب الاختلاف، وهى: حسن الظن بالمخالف فى الرأى، وأين الذين يطعنون فى العلماء لمجرد الخلاف فى الرأى معهم، أو التشكيك فى نواياهم، من هذا الأدب السامى؟! وهذا ديدن الأئمة العظام دوما. انظر فى تفصيل هذا الموضوع كتاب "فقه الائتلاف" لصديقنا وأخينا المرحوم محمود الخزندار، طبعة دار طيبة بالرياض. وكتاب "كيف نتعامل مع التراث والتمذهب والاختلاف" للشيخ القرضاوى، طبعة مكتبة وهبة بالقاهرة.

(٢) يقصد بذلك الإمام الشيخ محمد مصطفى المراغى شيخ الأزهر آنذاك.

ومن هنا يظهر الفرق فى الخطورة بين ترجمة معانى القرآن الكامل على ترتيبه العربى، وبين ترجمة معانى بعض آياته أو موضوعاته على غير نسقه.

[٤- احتمال الأدلة والنصوص المستشهد بها لكل المعانى]

يتمسك القائلون بالترجمة بنصوص إن صحَّت كلها - وفيها غير الصحيح - فليست نصًا فى الموضوع الذى نحن فيه.

فتجويز أبى حنيفة رضى الله عنه الصلاة بالفاتحة بالفارسية شىء، وتقديم معانى القرآن بالفرنجية على نسقه العربى إلى غير العرب شىء آخر، وادِّعاء أن "سلمان" ترجم الفاتحة للفُرْس حتى على فرض ثبوته - وهو غير ثابت - لا يدل إلا على جواز ترجمة الفاتحة بذاتها للمسلمين الذين لا يتكلمون العربية، لاضطرارهم إليها فى الصلاة مؤقتًا حتى يتعلموا.

وادِّعاء أن الرسول ﷺ أرسل بكتبه وفيها الآية الكريمة: ﴿قُلْ يا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ [آل عمران: ٦٤] مع رسل يعرفون لغة المرسل إليهم، وأنه ﷺ أمرهم أن يترجموا لهم هذه الكتب فيه زيادة عن المعروف، إذ إن الرواية تعطى مجرَّد الإرسال، ولم تتعرض لشخص حامل الكتاب. بل إنَّ من الروايات ما يعطى أن الذى كان يقوم بالترجمة تراجمة هؤلاء الملوك أنفسهم، وعلى فرض وجود ذلك، فهو لم يخرج عن الصورة السابقة من ترجمة بعض الآيات، ولا يقال: إذا جازت الترجمة لمعنى آية فإنها تجوز لغيرها ضرورة، وأنَّ ما ثبت لأحد المثلين يثبت للآخر. لأن الخطر إنما يخشى من تقديم الصورة الكاملة لكتاب الله على نظمه ونسقه.

وإذًا فكل هذه النصوص لا تتصل بموضوعنا ولا تنطبق عليه.

ويتمسَّك المحرِّمون للترجمة بأمثال قوله تعالى: ﴿قُرآنًا عربيًا غَيْرَ ذي عِوجٍ﴾ [الزمر: ٢٨] وقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عربيًا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف: ٢] ونحوها.

ولقائل أن يقول: إنَّ المترجَم ليس قرآنا فى حقيقته فهو لا يصطدم بهذه الآيات.

ويتمسَّكون كذلك بأنَّ الرسول ﷺ ارسل كتبه إلى الملوك بالعربية، ولو جازت الترجمة لفعلها ﷺ.

وقد يُقال: بأنه ﷺ قد يكون ترك ذلك لمعنى غير التحريم، كما ترك أكل الضب[1] لمعنى غير التحريم.

ويتمسكون كذلك بالمعروف عن الأئمة رضوان الله عليهم وفيهم مالك والشافعى وأحمد وغيرهم، وهى مع احترامها وجلالتها لم تخرج عن أنها الاجتهاد والرأى ودعوى الإجماع متعذرة.

وإذا كان ذلك كذلك فاعتماد أحد الطرفين على النصوص وحدها فيه مجال للنظر، وإنما ترجح كفة أحدهما بالنتائج.

[٥- هناك وسائل أخرى أجدى من الترجمة]

قال المناصرون للفكرة: إن العالم الآن فى حاجة إلى تعرُّف الإسلام، والسكوت عن الدعوة: تقصير، ولا يمكن القيام بها إلا بترجمة معانى القرآن.

وقالوا: هناك ترجمات كثيرةٌ تشتمل على أخطاء يجب لتصحيحها أن يكون هناك ترجمة أصلية.

وقالوا: لا بد من انتهاج خُطَّة جديدة فى الدعوة، لأنَّ الخطة السالفة تكاد تكون حُلْمًا من الأحلام، فإذا كان أسلافنا قد استطاعوا فى الماضى أن يحملوا الأمم على أن تتعرَّب فنحن لا نستطيع ذلك، وإذًا فلا بد من نقل معانى القرآن إلى ألْسنَة الناس.

ذلك مجمل ما يُدْلون به من أسباب لمناصرة المشروع والدعوة إليه.

ونقول لهم: أمَّا عن تعميم الدعوة ووجوبها: فنعم، وأما أنها لا تكون إلا بترجمة القرآن: فلا نوافقكم عليه، بل قد يكون غير هذه الوسيلة أجدى منها، وإن القرآن ليسمو بترتيبه الربَّانى عن أمزجة العصور وأهواء الأمم، فلو وضع لهذه الأمم كتابٌ عصرىٌّ مُرتَّب

---

(١) رواه عن خالد بن الوليد رضى الله عنه: أحمد (٤٩/٥) والبخارى (٥٣٩١) و(٥٤٠٠) ومسلم (١٩٤٦) والنسائى فى "المجتبى" (٤٣١٦) و(٤٣١٧) وفى "الكبرى" (٤٨٢٩) و(٤٨٢٨) وابن ماجة (٣٢٤١) والطبرانى فى "الكبير" (١٠٨/٤، ١٠٩). ورواه عن ابن عباس رضى الله عنهما: أحمد (٥٦٨/١) ومسلم (١٩٤٨) والطبرانى فى "الكبير" (١٨٩/١٢) والبيهقى فى "السنن" (٣٠٥/١٤). ورواه عن ابن عمر رضى الله عنهما: أحمد (٢٠٨/٢) والبخارى (٧٢٦٧) ومسلم (١٩٤٤) وابن حبان (٥٢٦٤) ومالك (١٨٠٦) والدارمى (٢٠١٥).

على حسب اذواقهم فى التاليف والتبويب والتنسيق يبيِّن مقاصد القرآن ومحاسن الإسلام مدعمة بآيات كريمة، وتُرجم هذا الكتاب إلى اللغات، وانتشر فى الأمم لكان اجدى، وادعى إلى إدراك هذه القلوب الجديدة لمحاسن الإسلام ومواطن الجمال فيه، وابعد من أن يتناول كتاب الله بالنقد والتجريح من قوم لم يدركوا أسراره.

وأمَّا عن الترجمات الخاطئة: فلا باس من التنبيه عليها، سواء كان ذلك بإصدار بيان مستقل، أو بتذييل رسائل الدعوة بالرد على هذه الاخطاء كما يرد على غيرها، وبذلك ندرأ هذا الخطر إلى حد ما.

وترجمة معانى القرآن الرسمية لا تاتى باكثر من هذه الفائدة فمن الطبيعى أنه ليس معنى وجودها انعدام غيرها، وليس معنى نشرها أن يقتنيها كل من عنده تلك الترجمات الخاطئة، وعلى هذا فستظل هذه الترجمات، وسيظل اثرها فى بعض الرؤوس كما هو، وربما ازداد عددها، لأن الباب فتح للمترجمين على مصْرَاعَيْه.

وأما عن تغيير الأساليب فى الدعوة فليس محصورا فى ترجمة القرآن، بل نشر الرسائل بلغات القوم هو من هذا التغيير، وفيه الكفاية من ناحية.

وهناك من الوسائل ما لا يمكن الاستغناء عنه أبداً، وبدونه لا يمكن أن تنفع دعوة، ومن هذه الوسائل: شخصية الداعى، والظروف التى تحمل على اتباعه، وما دام المسلمون ضعَافًا مستعبدين، فستظل الدعوة ضعيفة، و"إن الله لَيَزَعُ بالسلطان ما لا يَزَعُ بالقرآن"(١)

وإِذًا فمن أهم الوسائل فى نجاح هذه الدعوة، بل لعله أهمها أن يعمل المسلمون على تحرير أوطانهم، واستعادة عزهم ومجدهم، وتقوية أنفسهم، وحينئذ يستجيب الناس لندائهم، وتلقى دعوتهم من النجاح فى تعريب الأمم ما لقيت دعوة أسلافهم.

وإذا وصلوا إلى ذلك فقد أصبحوا فى غنى عن ترجمة معانى القرآن، وسارعت الأمم الأخرى إلى تفهُّم القرآن العربى ودراسته.

وهكذا نرى أن الأسباب التى اعتمد عليها أنصار المشروع لا توجبه ولا تؤيده فضلاً عن الإسراع به، وضياع الأوقات فيه، وتكلُّف النفقات الباهظة من أجله.

---

(١) من أقوال عثمان بن عفان رضى الله عنه. انظر: نهاية الأرب (٣/ ٦).

[٦- الأضرار الناجمة عن الترجمة]

اما الأسباب التي توجب عدم إنفاذه فكثيرة، وإليك بعضها:

أ ـ مهما حسنت النية في هذا الأمر، فهو هجوم بصفة رسمية على كتاب الله يخرق سياج الحرمة، ويفتح الباب لمن أراد العبث، ونحن في عصر أهواء وفتن، مات فيه الوازع، وضعف فيه القائم، وعمَّت الفوضى، وركب كل إنسان رأيه، وزاحم الجهلةُ العلماءَ بالمَناكب، ولأنْ يظل هذا الباب مغلقًا خير من أن يفتح فيولج بحسن قصد، أو بسوء قصد.

وقد علَّمتنا التجارب: أنَّ الإقدام على الأمر اليسير يكون ذريعة إلى الإقدام على كثير، ولسنا نخاف على القرآن تغييرًا أو تبديلاً، فقد تكَفَّل الله له بالحفظ، ولكنَّا نعلم مع هذا أن الزمن لا بد أن يعمل عمله، ولعل من حفظ الله للقرآن: أن يرفعه إذا أعرض الناس عنه، ولعل من رفعه: أن يستبدل الناس به سواه، وهم يظنونه كتاب الله. ولسنا نُغْرِق في التشاؤم، ولكنَّا نضع في حسابنا احتمالاً جائزا في المستقبل مهما كان بعيداً.

ب ـ إنَّ الصلة بين الأمم المسلمة غير العربية كالهنود والأفغان؛ وبين الأمم المسلمة العربية من جهة؛ وبين تلك الأمم وبين ثقافة الإسلام من جهة أخرى، تعتمد في وجودها على القرآن العربي الكريم، ويستطيع أن يدرك هذا المعنى واضحًا كل من جمعته الظروف ببعض إخوانه من أبناء هذه الأمم، فيرى كيف تكون الآية العربية من كتاب الله رابطة روحية تهشُّ لها قلوب الجميع، ويفقهها الجميع، ويتفاهم على أساسها الجميع، فإذا ترجم القرآن إلى اللغات الأخرى: انقطع هذا الخيط بين المسلمين في أقطار الأرض.

وإذا علمنا أنَّ معظم شعوب الإسلام الآن تحت حكم الفرنجة، وهؤلاء المستعمرون الأجانب يحاولون بكل سبيل أن يقطعوا الصلة بين الشعوب الإسلامية المحكومة وبين اللغة العربية، كانت ترجمة القرآن على نسقه وترتيبه تسهيلاً لمهمة هؤلاء المستعمرين، وتمهيداً للوصول إلى غرضهم، وحُجَّةً في أيديهم يتقدمون بها إلى المُتَبَرِّمين بثقافتها.

ج ـ إننا الآن مغلوبون للغرب، وللمغلوب وَلَعٌ بتقليد الغالب، والغرب يعمل دائبًا على إحياء ثقافته بيننا، وقد أثَّرت كل هذه الحوادث في مجتمعنا الإسلامي، وبلغ الإعجاب بلغات الغرب في نفوس أبنائنا حدًّا كبيرًا، بل تَغَلْغَل في كثيرٍ من البيوت حتى

لا تسمع فيها كلمة عربية، وكأنما اقْتُطِعَ هذا البيت من جسم الامة المسلمة ليصير زائدة مُشوَّهة فى جسم أمة أخرى، وكثير من المتعلمين لا يقرأ عن الإسلام إلا فى كتب الفرنجة، ولا يَصلُه بلغته إلا قراءة القرآن عربيًا كما أنزله الله.

هذا الجمع وهو كثير، إذا وجد مترجمًا بين يديه، فسيدع الناحية العربية إلى غيرها من النواحى الاجنبية، فنكون بذلك قد ساعدناه على التَفَصِّى(١) من جامعته، والخروج على لسانه.

وقد يقال: إن هذا مما يرجِّح كفَّة الترجمة استدراجًا لمثل هذا النوع من الناس.

فنقول: إن هذا الاستدراج إنما يأتى بالإكثار من رسائل الدعاية، وتهذيب الكتب الإسلامية، والعناية بالأدب العربى، وتعليم اللغة العربية، ونحن وأنصار المشروع نعلم أن تنكُّر هذا الشباب للغته مرضٌ يجب أن يعالج، والعلاج لا يكون بتقوية الجراثيم بل بمحاربته.

ونحن حين نقدِّم إلى ابنائنا المثقفين العصريين القرآن بمعانيه الفرنجية نزيد جهلهم بلغتهم، ونساعدهم على البعد عنها، وتقوى جراثيم المرض فيهم، فنخسر جمهوراً من المسلمين قبل أن نكسب واحداً من غيرهم.

د ـ نعتقد أن من الحكَم السامية لعموم بعثة النبى ﷺ: أن تساعد النبوة الإنسانية فى بلوغ الوحدة العالمية التى يسير نحوها العالم، ولا بد أن يصل إليها إنْ قريبًا وإنْ بعيداً.

ومن أهم مُقوِّمات هذه الوحدة: اللغة، فكأنَّ الحق تبارك وتعالى يريد أن يكون القرآن بلغة عالمية بين الناس، وإذا جاز لقوم أن يعتقدوا أن فى وسعهم إيجاد لغة عالمية هى (الاسبرانتو) فكيف يبعد أن يعتقد المسلمون ان القرآن هو اللغة العالمية التى يجب عليهم أن يعملوا لتعميمها بين الناس، فتتحقق بذلك الحكمة العالية من عموم بعثة النبى ﷺ.

هـ ـ نعلم أن العقول تختلف فى فهم القرآن الكريم باختلاف العصور والأزمان، ولا

(١) التفصِّى من التُفَصِية: اى الفصل والعزل. انظر: القاموس المحيط ص ١٧٠٣

سيمًا ما يتعلق منه بالأحكام الكونية. وعلى ذلك: فسياتى اليوم الذى تكون فيه هذه المعانى المترجمة لا تنطبق على ما يعلمه الناس فى عهدهم المستقبل، وتكون بما لها من صفة رسمية حجة على معانى القرآن، فهل أعَدَّ أنصار المشروع عُدَّتهم لملاحَقَة النَّظريات والآراء الحديثة، وتغيير ترجمتهم هذه كلما جَدَّ جديد.

[٧- رأينا فى المشروع وخطتنا البديلة عنه]

وإذا تقرر هذا فرأينا فى المشروع: ألا تكون هناك ترجمة أبدًا للقرآن أو تفسيره على ترتيب السور والآيات، وإذا كان ولا بد من الدعاية عن طريق القرآن، فليكن ذلك بتلخيص المقاصد والكتابة عنها.

بقى بعد هذا أنْ نقول: إنَّ الجائز فى نفسه قد يكون حرامًا لغيره، فإذا كان السؤال الذى قُدِّم إلى حضرات أصحاب الفضيلة العلماء ينتج جواز الأمر فى نفسه، فإن النتائج المترتِّبة عليه تُنتج تحريمه لغيره، وفضيلتُهم أعرف الناس بما نريد أن نقول.

ووضعُ التفسير العربى إلى جانب التفسير الفرنجى: هو النتيجة المنطقية التى عليه نصُّ السؤال، ولا ندرى كيف استدرك فضيلة الأستاذ الأكبر على فضيلة الشيخ عليش(١) تَمَسُّكه بوضع التفسير العربى إلى جانب التفسير الفرنجى، ورأى وضع النص العربى للقرآن الكريم.

وإذا جاز للسائل أن يتحفَّظ فكيف لا يجوز للمجيب هذا التحفظ؟! وإذا كانت الترجمة الفرنجية لمعانى القرآن لا لألفاظ القرآن، فكيف نضع إلى جانبها الألفاظ التى لا تمتُّ إليها بصلة؟ ونُقْصِى عنها ما هو أصلٌ لها، إلاَّ أن يكون المراد بذلك إيهام أنَّ هذه ترجمة ألفاظ القرآن، وهو وسيلة لكل ما ذكرنا من الأخطار.

حَبَّذا لو تركت المشيخة والوزارة هذا الأمر، وسلكت غيره من سُبُل الدَّعاية الموفقة، فسدَّت الذرائع، وابتعدت عن الشبهات، فإذا أبى القوم إلا ما قرروا، فوصيتنا إلى الذين

---

(١) هو الشيخ عبد الرحمن عليش ابن الشيخ محمد عليش شيخ المالكية فى عصره. وهو من علماء الأزهر الأفذاذ، وكان له صيت ذائع بين علماء عصره، وأبوه الشيخ محمد عليش من أساتذة الإمام محمد عبده، ومن علماء المالكية فى عصره بل شيخهم كما ذكرنا، وله فى ذلك كتاب مشهور باسم (فتح العلى المالك فى الفتوى على مذهب الإمام مالك).

يريدون المحافظة على كتاب الله : أن يكونوا عمليين فينهضوا بتحفيظ القرآن، ونشره بين من يأخذون بفكرتهم، ليقضى الله أمرًا كان مفعولاً(١).

*****

(١) الواضح ان الإمام الشهيد كان مشددًا فى قضية ترجمة معانى القرآن، وقد جعل منها معركة، كما بيّن ذلك الأستاذ محمود عبد الحليم فى كتاب (الإخوان المسلمون أحداث صنعت التاريخ)، ولكن المتامل للمسالة يجد ان هناك من الأئمة المعتبرين من اجاز ترجمة معانى القرآن الكريم، أو تفسيره، ومنهم شيخ الإسلام ابن تيمية، انظر: "دقائق التفسير" لابن تيمية بتحقيق: د. محمد السيد الجليند (١/ ١٦٥،١٦٦) وغيره من الأئمة.

كما أن لترجمة معانى القرآن عدة فوائد، كما بيّنها المرحوم محمد عبد العظيم الزرقانى، وهى: رفع النقاب عن جمال القرآن لمن ليست لغته العربية، ودفع الشبهات التى لفقها أعداء الإسلام بالقرآن، وتنوير غير المسلمين بحقيقة الإسلام، وإزالة العوائق الموضوعة بين غير المسلمين وفهم القرآن، وبراءة ذمة المسلمين من تبليغ القرآن.

وإلا لردُّ على الإمام البنا برد وجيز، وهو: كيف إذن يكتب العالم المسلم غير العربى إذا شرح وفسّر القرآن للمسلمين العجم، اليس تفسيره للقرآن بلغته غير العربية جائزًا؟ والغريب ان تلامذة البنا يميلون إلى جواز ترجمة معانيه، بل تعدى إلى تنفيذهم لذلك؛ من ترجمة معانى القرآن، أو الإشراف العلمى والطباعة لترجمة معانى القرآن.

لمزيد من التفصيل فى هذه المسالة يراجع: "مناهل العرفان" للشيخ محمد عبد العظيم الزرقانى، و"التفسير والمفسرون" للدكتور محمد الذهبى، وكتاب "من ثمار الشيخ محمود شلتوت" الجزء الثالث، نشرته مجلة الأزهر، ومقالات عن ترجمة القرآن للاستاذ محمد فريد وجدى بمجلة الأزهر، و جواهر العرفان" للدكتور رؤوف شلبى، وكتاب "مباحث فى علوم القرآن" للشيخ مناع القطان، وكتاب "القرآن" للشيخ محمد أبو زهرة، وكتاب "اللآلئ الحسان فى علوم القرآن" للدكتور موسى شاهين لاشين، ورسالة (ترجمة القرآن) للدكتور عبد الله شحاته، وغيرها.

فاتحـــة الكتـــاب

فاتحة الكتاب(1)

﴿ بسم الله الرَّحْمنِ الرَّحيمِ (١) الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢) الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ (٣) مالك يوْمِ الدِّينِ (٤) إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (٥) اهْدنا الصراطَ الْمُسْتَقيم (٦) صراطَ الَّذين أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوب عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّين (٧) ﴾

فضلها:

روى الإمام أحمد في مسنده عن أبي سعيد بن المعلَّى رضي الله عنه قال: "كنت أصلي فدعاني رسول الله ﷺ، فلم أجبه حتى صلَّيْت، فأتيته، فقال: "ما منعك أن تأتيني"؟ قال: قلت يا رسول الله: إني كنت أصلي، قال: **ألم يقل الله تعالى**: (يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم) الأنفال: الآية ثم قال: "**لأعلمنَّك أعظم سورة في القرآن**، قال: نعم ﴿ **الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ** ﴾ هي السبع المثاني، والقرآن العظيم الذي أوتيته" رواه البخاري وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه(2).

وروى أحمد في "مسنده" والبيهقي في "الشعب" وذكره السيوطي في "الدر المنثور عن عبد الله بن جابر رضي الله عنه أنه قال: إن رسول الله ﷺ قال: "**ألا أخبرك بأخْيَر سورة نزلت في القرآن**"؟ قلت: بلى يا رسول الله، قال: "فاتحة الكتاب"، وقال: "فيها شفاء من كل داء"(3)

---

(1) نشرت في العدد الثاني من مجلة (الشهاب) الشهرية الصادر في غرة صفر ١٣٦٧هـ ـ ١٤ ديسمبر سنة ١٩٤٨م.

(2) رواه أحمد (٣/ ٤٥٠) و(٤/ ٢١١)، والبخاري (٤٤٧٤) و(٤٦٤٧) والطيالسي (١٢٦٦) والنسائي في "المجتبى" (٩١٣) وأبو داود (١٤٥٨) وابن ماجه (٣٧٨٥) والدارمي (١٤٩٢) و(٣٣٧١) والطبراني في "الكبير" (٢٢/ ٣٠٣) والبيهقي في "السنن" (٢/ ٣٦٨) عن أبي سعيد بن المعلَّى رضي الله عنه.

(3) رواه أحمد (٥/ ١٨٩) عن عبد الله بن جابر رضي الله عنهما والبيهقي في "الشعب" (٢٣٦٧) عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، والدارمي (٣٣٧٠) عن عبد الملك بن عمير مرسلاً. والحديث فيه: قبيصة، قال عنه يحيى بن معين: ثقة إلا في حديث سفيان، وقد روى هذا الحديث عن سفيان. وضعفه الشيخ الألباني في "ضعيف الجامع الصغير" (٣٩٥٥).

وروى على بن أبى طالب قال: قال رسول الله ﷺ: "فاتحة الكتاب، وآية الكرسى، وشهد الله أنه لا إله إلا هو، وقل اللهم مالك الملك"، هذه الآيات مُعلَّقات بالعرش، ليس بينهن وبين الله حجاب"(١) أسنده أبو عمرو الدانى فى كتاب "البيان" له، ونقله القرطبى عنه(٢).

أين ومتى نزلت؟

الجمهور على أنها نزلت بمكة لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾[الحجر: ٨٧]، والحجْر مكية بإجماع، ولان الصلاة فُرضت بمكة، ولم تحفظ فى الإسلام صلاة بغير الفاتحة، وقال أبو هريرة ومجاهد وعطاء بن يسار والزُّهرى ونَفَرٌ: هى مدنية(٣)، وجمع بعض العلماء بين القولين بأنها تكرر نزولها فنزلت بمكة ونزلت بالمدينة حين حُولت القِبْلة.

وذهب بعض المفسرين إلى أنها أول آيات القرآن وسوره نزولا، والجمهور على أن أول ما نزل من القرآن: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ الآيات، وقيل: المدثر، وقد ذكر البيهقى فى "دلائل النبوة" عن أبى ميسرة عمر بن شرحبيل أن رسول الله ﷺ قال لخديجة: "إنى إذا خلوت وحدى سمعت نداء. وقد والله خشيت أن يكون هذا أمرًا. فقالت: "معاذ الله، ما كان الله ليفعل بك فوالله إنك لتؤدى الأمانة، وتصل الرحم، وتَصْدُق الحديث فلمَّا دخل أبو بكر وليس رسول الله ﷺ، ثم ذكرت خديجة حديثه له، قالت: يا عتيق، اذهب مع محمد إلى ورقة بن نوفل، فلما دخل رسول الله ﷺ أخذ أبو بكر بيده فقال: انطلق بنا إلى ورقة فقال: ومن أخبرك؟ قال: خديجة، فانطلقا إليه فقصا عليه، فقال:

(١) أخرجه الديلمى عن على مرفوعا، وقال الشوكانى: وفى إسناده: الحارث بن عمير. قال ابن حبان: تفرد به وكان يروى الموضوعات عن الأثبات، وتعقبه العراقى بانه قد وثقه حماد بن زيد وابو زرعة وابو حاتم وابن معين والنسائى، واستشهد به البخارى فى صحيحه واحتج به اهل السنن وفى إسناده أيضا: محمد ابن زنبور وهو مختلف فيه. وفى سند الحديث انقطاع كما أشار إليه ابن حجر. وفى المتن نكارة شديدة، وقد صرح بأنه موضوع ابن حبان وابن الجوزى وليس ذلك ببعيد عندى وإن خالفهما الحافظان العراقى وابن حجر رحمهما الله. انظر: "الفوائد المجموعة" للشوكانى ص ٢٩٧- ٢٩٨

(٢) انظر: تفسير القرطبى (١/ ١١١).

(٣) انظر: "التبصرة فى القراءات السبع" لمكى بن أبى طالب ص ٢٥٠، وتفسير ابن عرفة (١/ ٩١).

"إذا خلوت وحدى سمعت نداء خلفى : يا محمد يا محمد، فانطلق هاربا فى الأرض "فقال : لا تفعل إذا أتاك فاثبت حتى تسمع ما يقول، ثم ائتنى فاخبرنى، فلما خلا ناداه : يا محمد، قل : بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين - حتى بلغ ولا الضَّالين - قل لا إله إلا الله، فاتى ورقة فذكر ذلك له، فقال ورقة : أبشر ثم أبشر، فأنا أشهد أنك الذى بشر به عيسى بن مريم، وأنك على مثل ناموس موسى، وأنك نبى مرسل، وأنك سوف تؤمر بالجهاد بعد يومك هذا وإن يدركنى ذلك لأجاهدن معك، فلما توفى ورقة قال رسول الله ﷺ : "لقد رأيت القس فى الجنة عليه ثياب الحرير لأنه آمن بى وصدقنى (يعنى ورقة) قال البيهقى : هذا منقطع[١]، وهو ليس نصًّا فى أن الفاتحة أول ما نزل على كل حال.

وذهب الإمام الشيخ محمد عبده فى تفسيره إلى أنها أول سورة نزلت من القرآن؛ محتجًّا لذلك بأن سنة الله تبارك وتعالى قد جرت بأن يسبق الإجمال التفصيل، وسورة الفاتحة قد تضمَّنت مقاصد القرآن الكريم إجمالاً، وذلك يقتضى أن تسبق فى النزول، وأفاض فى تفصيل ذلك[٢]، وقد يقال : إن هذا يصح علة للترتيب لا للنزول الذى كان يتبع غالبًا الحوادث والوقائع.

أم القرآن[٣]:

وللفاتحة أسماء كثيرة فهى : الصَّلاة، للحديث القدسى : "قسمت الصلاة بينى وبين عبدى"[٤] وسيأتى، وهى الحمد، وهى فاتحة الكتاب بلا خلاف بين العلماء فى ذلك، وهى أم الكتاب، وأم القرآن، وكره إطلاق هذين الاسمين عليها أنس وابن سيرين، والحديث الثابت ينفى هذه الكراهة.

---

(١) رواه البيهقى فى "دلائل النبوة" (٢/١٥٨، ١٥٩) وابن أبى شيبة فى "المصنف" (٨/٤٣٨) عن أبى ميسرة. وقال السيوطى : هذا مرسل رجاله ثقات. انظر : الدر المنثور (١/٢،٣).

(٢) انظر : تفسير المنار (١/٣٤-٣٨).

(٣) أرى أنه من الأفضل للإمام الشهيد أن يعنون هذه الفقرة بعنوان : أسماء سورة الفاتحة، فهو أوقع من عنوانه : أم القرآن. ولكلٍّ وجهة.

(٤) سيأتى تخريجه بعد قليل.

روى الترمذى عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: "الحمد لله أم القرآن، وأم الكتاب، والسَّبْع المثانى، وهى المثانى"(١).

وهى الشفاء، وهى الأساس، وهى الواقية، وهى الكافية، وهى الرُّقية، وهى القرآن العظيم(٢).

[اشتمال الفاتحة على مقاصد القرآن]

قال القرطبى: سُمِّيَت القرآن العظيم لتضمنها جميع علومه، وذلك أنها تشتمل على الثناء لله عز وجل بأوصاف كماله وجلاله، وعلى الأمر بالعبادات والإخلاص فيها، والاعتراف بالعجز عن القيام بشىء منها إلا بإعانته تعالى، وعلى الابتهال إليه فى الهداية إلى الصراط المستقيم، وكفاية أحوال الناكثين، وعلى بيانه عاقبة الجاحدين، كذا قال رحمه الله(٣).

ويمكن أن يُقال: إنها تضمَّنت مقاصد القرآن الكريم إجمالاً بمعنى آخر، هو أن القرآن الكريم إنما جاء لبيان حقوق الخالق على خلقه، وحاجة الخلق إلى خالقهم، وتنظيم

---

(١) رواه أحمد (٣/١٩٩) والبخارى (٤٧٠٤) بزيادة والقرآن العظيم والترمذى (٣١٢٤) وأبو داود (١٤٥٧) والدارمى (٣٣٧٤) والبيهقى فى "السنن" (٢/٣٤١) وفى "الشعب" (٢٣٤٤) عن أبى هريرة رضى الله عنه.

(٢) كتب الإمام الشهيد هذه الفقرة ضمن الحديث السابق، وبالرجوع إلى كتب الحديث لم أجد رواية كاملة بهذه الصيغة، ولعلها من إضافة الإمام الشهيد للشرح، وقد اخطأ الطابع فى وضع قوس الحديث بعدها، ومعظم هذه المعانى منها ما هو من النصوص النبوية كقوله: المثانى، وهذا من نص الحديث السابق، وقوله: وهى الشفاء، وهى الواقية وهى الرقية، من حديث البخارى الذى فيه ان صحابيًّا رقى بالفاتحة فشفى المريض. انظر: صحيح البخارى حديث رقم (٥٠٠٦) عن ابى سعيد بن المُعَلَّى رضى الله عنه. وقوله: القرآن العظيم، فهى من حديث البخارى (٤٧٠٤) عن ابى هريرة رضى الله عنه. واما قوله عن الفاتحة: وهى الأساس، وهى الكافية، فلان الصلاة بدونها لا تصح كما فى حديث "من صلى صلاة لم يقرا فيها بفاتحة الكتاب فهى خداج" أى ناقصة. كما ان الفاتحة كافية لانها اشتملت على معظم مقاصد القرآن الكريم، وقد اوضح ذلك الإمام الشهيد فى الفقرة التالية نقلا عن الإمام القرطبى، ومما استوعبه هو ايضا رحمه الله. وللفاتحة اسماء اخرى منها: سورة الحمد، وسورة الصلاة، وسورة الشكر، وسورة الدعاء، والكنز، وسورة الحمد لله، انظر فى ذلك: تفسير القرطبى (١/١١١-١١٣) وفتح البارى لابن حجر (٨/١٩٧،١٩٨).

(٣) انظر: تفسير القرطبى (١/١١٢).

الصلة بين الخالق والمخلوق. وهذه هى جملة المقاصد التى جاء بها القرآن، بل جاءت بها الكتب السماوية والأديان كلها، وقد أشارت إليها الفاتحة، فآياتها الأولى بيان لحقوق الله على خلقه، (إياك نعبد وإياك نستعين) مع طلب الهداية منه تعالى إلى الصراط المستقيم بيان لحاجة الخلق إلى خالقهم، والصراط المستقيم هو نظام هذه الصلة بين المخلوقين والخالق، كما تضمنت الفاتحة كذلك الإشارة إلى الرد على طوائف المبطلين الخارجين عن المستقيم وبيان أسباب هذا الخروج، وهى لا تتعدى الغضب عليهم أو الضلال منهم. وبهذا استحقت الفاتحة أن يُطلق عليها أُمُّ القرآن، بل القرآن العظيم[(١)].

البسملة فى الفاتحة:

قال الشوكانى فى باب (ما جاء فى بسم الله الرحمن الرحيم): "وقد اختلفوا هل هى آية من الفاتحة فقط، أو من كل سورة، أو ليست بآية؟ فذهب ابن عباس وابن عمر وابن الزبير وطاوس وعطاء ومكحول وابن المبارك وطائفة إلى أنها آية من الفاتحة، ومن كل سورة غير براءة. وحكى عن أحمد وإسحاق وأبى عبيد وجماعة أهل الكوفة ومكة وأكثر العراقيين، وحكاه الخطابى عن أبى هريرة وسعيد بن جبير، ورواه البيهقى فى [الخلافيات بإسناده عن على بن أبى طالب والزهرى وسفيان الثورى، وحكاه فى] "السنن الكبرى" عن ابن عباس ومحمد بن كعب أنها آية من الفاتحة فقط[(٢)].

وحكى عن الأوزاعى ومالك وأبى حنيفة وداود، وهو رواية عن أحمد: أنها ليست آية فى الفاتحة ولا فى أوائل السور. وقال أبو بكر الرازى وغيره من الحنفية: هى آية بين كل سورتين غير الأنفال وبراءة، وليست من السور، بل هى قرآن مستقل كسورة قصيرة. وحكى ذلك عن داود وأصحابه، وهو رواية عن أحمد[(٣)].

ولا خلاف أنها آية فى أثناء سورة النمل، ولا خلاف فى إثباتها خطًّا فى أوائل السور

---

(١) بيَّن الإمام السيوطى بإسهاب اشتمال الفاتحة على مقاصد القرآن فى كتابه "قطف الأزهار فى كشف الأسرار" ونقل معظم آراء المفسرين فى ذلك، فليراجع: (١/ ١٠١-١٠٥) بتحقيق د. أحمد الحمادى. ط: وزارة الأوقاف القطرية. كما بيَّن ذلك أيضا بجلاء: العلامة محمد عبد الله دراز فى رسالته عن سورة الفاتحة.

(٢) انظر: السنن الكبرى للبيهقى (٢/ ٣٤٠، ٣٤١).

(٣) انظر: المغنى (٣/ ١٥١، ١٥٢).

فى الصحف إلا فى أول سورة التوبة. وأما التلاوة فلا خلاف بين القرَّاء السبعة فى أول فاتحة الكتاب وفى أول كل سورة إذا ابتدأ بها القارئ ما خلا سورة التوبة. وأما فى أوائل السور مع الوصل بسورة قبلها فاثبتها ابن كثير وقالون وعاصم والكسائى من القرَّاء فى أول كل سورة إلا التوبة، وحذفها منهم: ابو عمرو وحمزة وورش وابن عامر"(١).

احتجَّ القائلون بانها آية فى الفاتحة بكتابتها فى المصحف الإمام الذى بعث به الخليفة الثالث رضى الله عنه إلى الأمصار بعد مشاورة الصحابة، وأجمعت عليه الأمة والكتابة أقوى الادلة، وبما ورد من الأحاديث الصحاح التى تثبت ذلك.

ومنها ما رواه البخارى عن قتادة قال: سُئل أنس كيف كانت قراءة النبى ﷺ؟ فقال: كانت مدًّا. ثم قرأ: (بسم الله الرحمن الرحيم) ويمُدُّ بالرحمن، ويمدُّ بالرحيم(٢).

وروى عنه الدارقطنى من طريقين أن النبى ﷺ كان يجهر بالبسملة(٣)

وما روى عن أمِّ سلمة ـ أمِّ المؤمنين رضى الله عنها ـ أنها سُئلت عن قراءة رسول الله ﷺ؟ فقالت: كان يقطع قراءته آيةً آيةً (بسم الله الرحمن الرحيم. الحمد لله رب العالمين. الرحمن الرحيم. مالك يوم الدين). رواه أحمد وأبو داود بهذا اللفظ وغيرهما(٤)

وما رواه النسائى وغيره عن نعيم بن المجمِّر قال: صَلَّيْت وراء أبى هريرة فقرأ بسم الله

---

(١) انظر: نيل الأوطار (٣/٣٤،٣٥) بتصرف يسير.

(٢) رواه البخارى (٥٠٤٥) والنسائى فى "المجتبى (١٠١٤) وابو داود (١٤٦٥) وابن ماجه (١٣٥٣) عن انس رضى الله عنه.

(٣) الطريق الاول فى سنن الدارقطنى (١١٦٥) وسنده ضعيف: فيه إسماعيل المكى ضعيف. والثانى (١١٦٧) وسنده حسن، نقلا عن: "سنن الدارقطنى (١/٣٠٦،٣٠٧) بتحقيق مجدى منصور الشورى. طبعة دار الكتب العلمية.

(٤) رواه احمد (٧/٤٢٩) وابو داود (٤٠٠١) والبيهقى فى "السنن" (٢/٣٣٩) وفى "الشعب" (٢٥٨٧) والحاكم (٢/٢٥٢) وصححه، وابو يعلى (٧٠٢٢) والطبرانى فى "الكبير (٢٣/٢٧٨) عن ام سلمة رضى الله عنها. وصححه الالبانى فى "صحيح ابى داود" (٣٣٧٩).

الرحمن الرحيم ثم قرأ بأم القرآن ـ وفيه يقول: إذا سلَّم والذى نفسى بيده إنى لأشبهكم صلاة برسول الله ﷺ، وقد صحَّح هذا الحديث: ابن خزيمة وابن حبان والحاكم وقال: على شرط البخارى ومسلم، وأقره الذهبى وقال البيهقى: صحيح الإسناد[1] وله شواهد.

وحديث على كرم الله وجهه[2]: سئل عن السبع المثانى؟ فقال: الحمد لله رب العالمين، قيل: إنما هى ست، فقال: بسم الله الرحمن الرحيم. رواه الدارقطنى[3]. وله حديثان آخران عنه وعن عمار بن ياسر فى إثبات جهر النبى ﷺ بالبسملة، وإن تكلم فى سندهما[4].

---

(١) رواه النسائى فى "المجتبى" (٩٠٥) وابن خزيمة (٤٩٩) و (٦٨٨) وقال محققه (الأعظمى): إسناده صحيح لولا أن أبا هلال كان اختلط، انظر: ابن خزيمة (١/ ٢٥١)، ورواه الحاكم (١/ ٢٣٢) وابن حبان (١٧٩٧) وصحح إسناده محققه (٥/ ١٠٠).

(٢) دأب كثير من الكتاب ومن مشايخنا الكرام على قولهم بعد ذكر على رضى الله عنه أن يتبعوه بقولهم كرم الله وجهه ولم أجد لها أصلاً يستندون إليه، اللهم إلا قولهم إن عليًا رضى الله عنه لم يسجد لصنم قط. وهذا مردود عليه بأن أبا بكر الصديق رضى الله عنه لم يسجد لصنم قط كذلك. أو قولهم إن عليًا رضى الله عنه لم ينظر لعورته قط. وهذا شئ أشبه بالمستحيل؛ إذ كيف كان يجامع أهله، وكيف كان يحلق عانته رضى الله عنه. ولكن الأصل أن نقول بعد ذكر أى صحابى رضى الله عنه، حيث إن هذا هو الوارد فى القرآن الكريم كما فى قوله تعالى: (رضى الله عنهم ورضوا عنه) التزامًا بما ورد، ويبدو أن الكلمة كانت تطلق على غير علىٍّ أيضا، فقد وجدت أبا داود يروى فى سننه حديثا عن عائشة رضى الله عنها تصف فيه أشبه الناس برسول الله ﷺ، فشبهت فاطمة ابنته ـ رضى الله عنها ـ به، فقالت: ما رأيت أحدا أشبه سمتًا ودلاً برسول الله من فاطمة كرم الله وجهها. انظر سنن أبى داود (٥٢١٧). وهذا يعنى أن تلك القولة من باب الدعاء لعموم المسلمين، وليست خاصة بأحد دون أحد، كما خصَّ بها مشايخنا عليًا رضى الله عنه، ولعلها تسربت إلى المسلمين من الشيعة، وقد قرأت رأيا لابن كثير قال فيه: غلب فى عبارة كثيرٍ من النُّسَّاخ للكتب أن يُفرد علىٌّ رضى الله عنه بأنْ يُقال: عليه السلام من دون الصحابة، أو كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ، وهذا وإن كان معناه صحيحًا لكن ينبغى أنْ يُسَوَّى بين الصحابة فى ذلك، فإنَّ هذا من باب التَّعْظيم والتكريم، وَالشَّيْخَان وأمير المؤمنين عُثْمَان أولى بذلك منه. انظر: منظومة الآداب لمحمد بن أحمد بن سالم السفارينى (١/ ٣٣) طبعة: مؤسسة قرطبة. هذا والله أعلم.

(٣) رواه الدارقطنى (١١٨١) وفى سنده السدى وهو ضعيف، والحديث ضعفه محقق الدارقطنى (١/ ٣١١).

(٤) الأول رواه الدارقطنى (١١٤٥) والحاكم (١/ ٢٩٩) وفيه عمرو بن شمر ضعيف، وجابر الجعفى ضعيف، وضعف إسناده محقق الدارقطنى (١/ ٣٠٢). والحديث الآخر: رواه الدارقطنى (١١٤٦) وهو ضعيف أيضا لضعف جابر الجعفى.

وحديث أنس رضى الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يجهر بـ﴿ بِسمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحيمِ ﴾. رواه الحاكم وقال: ورواته عن آخرهم ثقات وأقره الحافظ الذهبى[1].

واحتجَّ القائلون بأنها ليست آية من الفاتحة بما رواه مسلم وأحمد وأبو داود والترمذى والنسائى عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: "من صلى صلاة لم يقرأ فيها بفاتحة الكتاب فهى خداج" يقولها ثلاثا، فقيل لأبى هريرة: إنا نكون وراء الإمام فقال: اقرأ بها فى نفسك، فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول:

قال الله عز وجل: " قسَمت الصلاة بينى وبين عبدى نصفين، ولعبدى ما سأل. فإذا قال العبد: ﴿ الْحَمْدُ للهِ ربِّ الْعَالَمِينَ ﴾ قال الله: حمدنى عبدى. فإذا قال: ﴿ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ ﴾ قال الله: أثنى علىَّ عبدى. فإذا قال: ﴿ مَالكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ قال: مجَّدَنى عبدى. وقال مرة: فوَّض إلىَّ عبدى. وإذا قال: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ قال: هذا بينى وبين عبدى، ولعبدى ما سال. فإذا قال: ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ ﴾ قال: هذا لعبدى، ولعبدى ما سال[2].

وقد يُرد على هذا بأن البسملة فيها الثناء على الله بما تكرر فى الفاتحة فلم يكن هناك ما يدعو إلى ذكرها وبخاصة وهى مشتركة فى كل السور.

وبما روى عن أنس قال: "صَلَّيْتُ مع النبى ﷺ وأبى بكر وعمر وعثمان فلم أسمع أحداً منهم يقرأ (بسم الله الرحمن الرحيم)". رواه أحمد ومسلم[3].

وفى لفظ: "صلَّيت خلف النبى ﷺ، وخلف أبى بكر وعمر وعثمان فكانوا لا

---

(١) رواه الدارقطنى (٢٤) والحاكم (٨٥٥).

(٢) رواه أحمد (٢/٤٧٩،٥٥٥) و (٣/٢٢٠) ومسلم (٣٩٥) والترمذى (٢٩٥٣) وابن ماجه (٣٧٨٤) وأبو داود (٨٢١) والنسائى فى "الكبرى" (٨٠١٣) والبيهقى فى "السنن" (٢/٣٢٩) والطحاوى فى "شرح معانى الآثار" (١/٢٠٢) ومالك (١٨٩) وابن حبان (٧٧٦) وابن خزيمة (٥٠٢) عن أبى هريرة رضى الله عنه.

(٣) رواه أحمد (٣/١٧٧) ومسلم (٥٠) و (٣٩٩) وأبو يعلى (٣٠٠٥) وابن خزيمة (٤٩٤) عن أنس رضى الله عنه.

يجهرون بـ (بسم الله الرحمن الرحيم) " . رواه أحمد والنسائى بإسناد على شرط الصحيح[1] .

ولأحمد ومسلم : "صليت خلف النبيّ ﷺ، وأبى بكر وعمر وعثمان وكانوا يستفتحون بـ (الحمد لله رب العالمين) لا يذكرون : (بسم الله الرحمن الرحيم) فى أول قراءة ولا آخرها"[2] . وهناك روايات أخرى تدور حول ذلك .

وذكر بعض العلماء : أن ما جاء فى روايات النفى سببه : الإسرار بالبسملة، وجمع بين الأقوال بناء على ذلك .

وروى الطبرانى فى "الكبير و"الأوسط" فى سبب ترك النبى ﷺ للجهر بالبسملة فى الصلاة : عن سعيد بن جبير عن ابن عباس : أنه ﷺ "كان يجهر بـ (بسم الله الرحمن الرحيم)، وكان المشركون يهزؤون بِمُكَاءٍ وتَصْدِيَة، ويقولون : يذكر إله اليمامة ـ يشيرون إلى قول مسيلمة الكذاب، وتسميته حائطه بحديقة الرحمن ـ فأنزل الله : (ولا تجهر بصلاتك) فتُسمع المشركين فيهزؤوا بك (ولا تخافت بها) عن أصحابك فلا تسمعهم"[3] وقال فى مجمع الزوائد" : إن رجاله موثقون . فلمًّا هاجر الرسول ﷺ إلى المدينة كان يجهر بـ (بسم الله الرحمن الرحيم) تارة، ويُسرُّ بها أخرى، واختلفت الروايات بناء على ذلك[4] .

وقد أفرد هذه المسألة بالتاليف جماعة من أكابر العلماء . وجمع فيها الشوكانى رسالة تشتمل على نظم ونثر أجاب بها على سؤال ورد . وبالغ بعضهم حتى عدَّها من مسائل الاعتقاد، والأمرُ أيسر من هذا كله . وحسبنا أن نراها مثبتة فى المصحف، وقد أجمع الصحابة رضوان الله عليهم على كتابتها فى صدر الفاتحة وتلاوتها حين القراءة وأن ما بين دفتى المصحف قرآن نَزَل من عند الله لنقول إنها آية منها وكفى .

---

(١) رواه أحمد (٤ / ٢٢، ١٨٤) والنسائى فى "المجتبى (٩٠٧) وفى "الكبرى" (٩٧٩) وابن حبان (١٧٩٩) عن أنس رضى الله عنه .

(٢) رواه أحمد (٤ / ٩٦) ومسلم (٣٩٩) والبيهقى فى "السنن" (٢ / ٣٤٨) عن انس رضى الله عنه .

(٣) رواه الطبرانى فى "الأوسط" (١٠٨٠) وفى "الكبير" (١١ / ١٨٢) و(١٢ / ٤٣) والنسائى فى "الكبرى" (١٠٨٥) وابن ابى شيبة (٢ / ٢٣٠) عن ابن عباس رضى الله عنهما .

(٤) لخص الإمام البنا هنا أدلة كل فريق، واعتمد فى ذكر الأدلة هنا على نيل الأوطار (٣ / ٣٣-٤٠) .

الفاتحة فى الصلاة:

اختلف العلماء فى وجوب قراءة الفاتحة فى الصلاة فذهب الجمهور إلى وجوبها فى كل ركعة للإمام والمنفرد والمأموم[1]. وحجتهم فى ذلك ما روى من حديث عبادة بن الصامت رضى الله عنه فيما رواه الجماعة كلهم أن النبى ﷺ قال: "لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب"[2] وفى لفظ رواه الدارقطنى بإسناد صحيح: «لا تجزئ صلاة من لم يقرأ بفاتحة الكتاب»[3].

وذهب أبو حنيفة والكوفيون إلى أن الفاتحة غير واجبة، بل تجب آية من القرآن، لما جاء من قول النبى ﷺ فى حديث المسيء صلاته: "ثم اقرأ ما تيسَّر معك من القرآن"[4].

وأجيب عنه: بأنه لا أيسر من الفاتحة، ولأنه ثبت فى رواية أخرى أنه قال له: "ثم اقرأ بأم القرآن"[5] فهذا مفسِّر لما تيسَّر، وأما إذا كان مأموما: فلا قراءة عليه مطلقًا عند أبى حنيفة، محتجًا بما ورد من أن: "قراءة الإمام قراءة له"[6] فإن قرأ: كره تحريمًا.

---

(١) انظر: المغنى لابن قدامة (٣/١٤٧).

(٢) رواه أحمد (٦/٤٢٧) والبخارى (٧٥٦) ومسلم (٣٩٤) والترمذى (٢٤٧) والنسائى فى "المجتبى" (٩١٠) و(٩١١) وفى "الكبرى" (٨٠٠٩) و (٩٨٢) وأبو داود (٨٢٢) وابن ماجه (٨٣٧) والبيهقى فى "السنن" (٢/٣٢٩) وفى "الشعب" (٢٩٨٩) عن عبادة بن الصامت رضى الله عنه.

(٣) رواه الدارقطنى (١٢١٢) عن عبادة بن الصامت وصحح إسناده محققه.

(٤) رواه أحمد (٣/١٧٩) والبخارى (٧٥٧) و (٧٩٣) ومسلم (٣٩٧) والنسائى (٨٨٤) وأبو داود (٨٥٦) وابن ماجه (١٠٦٠) عن أبى هريرة رضى الله عنه.

(٥) رواه أحمد (٥/٤٤٩) عن رفاعة بن رافع الزورقى رضى الله عنه، وأبو داود (٨٥٦) عن أبى هريرة رضى الله عنه. وصححه الألبانى فى "صحيح أبى داود" (٧٦٢).

(٦) رواه عن جابر بن عبد الله رضى الله عنه: أحمد (٤/٢٩٥) وابن ماجه (٨٥٠) وابن أبى شيبة (١/٤١٤) والدارقطنى (١/٣٣١) والبيهقى فى "السنن" (٢/٥٣١) والطبرانى فى "الأوسط" (٧٩٠٣). ورواه عن عبد الله بن شداد رضى الله عنه: ابن أبى شيبة (١/٤١٢) وعبد الرزاق (٢٧٩٧) والبيهقى فى "السنن" (٢/٥٣١). وعن أبى هريرة رضى الله عنه: الدارقطنى (١/٣٣٣). وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه: الطبرانى فى "الأوسط" (٧٥٧٩) وقد ضعف الحديث ابن حجر فى "فتح البارى" وهناك من صححه، انظر فى أقوال علماء الجرح والتعديل فى هذا الحديث: "معارف السنن شرح سنن الترمذى" (٣/٢٥٤-٢٧١) للبنورى.

وذهب مالك واصحابه إلى : أنها متعيِّنة للإمام والمنفرد فى كل ركعة، مطلوبة من المأموم خلف إمامه فى صلاة السِّر، فإن تركها : فقد أساء ولا شيء عليه، وأما فى صلاة الجهر : فلا يقرأ بفاتحة القرآن ولا بغيرها لقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا ﴾ [الأعراف : ٢٠٤]، ولقول النبى ﷺ فى الإمام : "وإذا قرأ فأنصتوا" اخرجه الدارقطنى، وقال : رواه سفيان الثورى وشعبة وإسرائيل بن يونس وشريك وأبو خالد الدالانى إلخ. عن عبد الله بن شدَّاد مرسلا عن النبىِّ ﷺ(١).

وذهب الحسن البصرى، وأكثر أهل البصرة، والمغيرة بن عبد الرحمن المدنى إلى : أنَّ قراءتها واجبةٌ مرةً واحدةً فى كلِّ صلاة، اعتمادا على أنَّ من فعل ذلك فقد قرأ بأمِّ القرآن فى صلاته وذلك يجزئه.

والذى تطمئن إليه النفس : أن الفاتحة واجبة فى الصلاة على كل مصلٍّ قادر على تلاوتها، ولم يثبت أن النبى ﷺ ولا أحداً من خلفائه أو أصحابه أو التابعين لهم بإحسان صلى صلاة بغير قراءة الفاتحة فيها (أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده)(٢).

(بسم الله الرحمن الرحيم)

فى افتتاح القرآن الكريم عامة وسوره بعد ذلك بهذه الآية الكريمة إرشادٌ لنا إلى أن نستفتح بها كل أقوالنا الطيبة وأعمالنا.

وقد جاء فى الحديث : "كل أمر ذى بال لا يبدأ فيه ببسم الله الرحمن الرحيم فهو

---

(١) رواه الدارقطنى (١٢٣١) عن أبى هريرة وسنده ضعيف، برقم (١٢٣٥) عن أبى موسى وإسناده ضعيف، وبرقم (١٢٣٦) عن أبى موسى وسنده ضعيف. وقد وهم الإمام الشهيد ـ بناء على نقله عن الشوكانى ـ فى سند هذا الحديث، فالسند الذى ذكره الإمام ليس سند حديث : "وإذا قرأ فأنصتوا" بل سند حديث : "من صلى خلف الإمام، فإن قراءته له قراءة" وقد رواه الدارقطنى (١٢٢٣) عن جابر بن عبد الله.

(٢) وهناك من جمع بين الأحاديث بوجوب قراءتها إذا اسر الإمام والإنصات إذا جهر.

اقطع"(١) وفى رواية: "أجذم"(٢) وفى رواية: "أبتر"(٣) وكلها بمعنى واحد رواه أبو داود وحسَّنه ابن الصلاح، وكأنَّ المقصود بهذا الافتتاح: اقرأ مفتتحاً: باسم الله الرحمن الرحيم، أو اعمل أو أقول مفتتحاً: باسم الله الرحمن الرحيم.

والاسم ما دلَّ على ذات من الذوات، أو معنى من المعانى، ولفظ الجلالة (الله) عَلَمٌ على ذات واجب الوجود، وهو آكدُ أسمائه سبحانه وأجمعها، وما عداه صفات له سبحانه، وتسند إليه تعالى أفعال هذه الصفات، وتُضاف إليه مصادرها، ويطلق عليها الأسماء الحسنى، وكل اسم منها صفة فى المعنى، وهو يدل على ذات الله على الصفة التى اشتق منها، واسم الجلالة الأعظم يدل عليها كلها، وعلى لوازمها الكمالية، وعلى تنزُّهه سبحانه عن أضدادها. فهو دال على اتصاف مسماه بجميع صفات الكمال وتنزهه عن جميع النقائص(٤).

(الرحمن الرحيم) صفتان لله تعالى مشتقتان من الرحمة بالمعنى الذى يليق بجلاله سبحانه، قال ابن القيم: "وأما الجمع بين الرحمن والرحيم: ففيه معنى بديع، وهو أن الرحمن دال على الصفة القائمة به سبحانه، والرحيم دال على تعلقها بالمرحوم، وكأنَّ الأول الوصف والثانى الفعل. فالأول دالٌّ على أن الرحمة صفة ذات له سبحانه، والثانى دالٌّ على أنه يرحم خلقه برحمته، أى صفة فعل له سبحانه، فإذا أردت فهم هذا: فتأمل

---

(١) رواه أحمد (٣ / ٤٣) وابن ماجه (١٨٩٤) والبيهقى فى "السنن" (٤ / ٤٥١) وفى "الشعب" (٤٣٧٢) والدارقطنى (١ / ٢٢٩) عن أبى هريرة رضى الله عنه، وليس فى رواية من الروايات جملة "بسم الله الرحمن الرحيم"، ولفظه فى كل الروايات التى ساقها "كل كلام أو أمر ذى بال لا يفتح بذكر الله عز وجل فهو أبتر أو قال: أقطع" ولا توجد رواية فيها ذكر البسملة إلا رواية للخطيب فى "الجامع" من طريق مبشر بن إسماعيل عن الزهرى بلفظ: "لا يبدأ فيه ببسم الله الرحمن الرحيم فهو أقطع" وقال عنه ابن حجر: الراوى له عن مبشر مجهول. انظر: تخريج ابن حجر لأحاديث تفسير الكشاف على هامشه (١ / ٤).

(٢) رواه أبو داود (٤٨٤٠) والنسائى فى "الكبرى" (١٠٣٣١) وعبد الرزاق (١٠٤٥٥) و(٢٠٢٠٨) عن أبى هريرة رضى الله عنه. وضعفه الألبانى فى "ضعيف أبى داود" (١٠٣١).

(٣) رواه أحمد (٣ / ٤٣) عن أبى هريرة رضى الله عنه.

(٤) بين الإمام الكيا الهراسى عدة فوائد لقول المسلم "بسم الله" ومنها: أنها شعار من شعائر الدين، وأنها تطرد الشيطان، وأنها مفزع للخائف، ودلالة من قائلها على انقطاعه إلى الله، وأنها أنس للسامع، وأنها اعتراف من قائلها بالألوهية وبنعمة الله عليه، وأنها استغاثة بالله، وعبادة له. انظر: "أحكام القرآن" للكيا الهراسى (١ / ٤،٥).

قوله تعالى: (وكان بالمؤمنين رحيما) (إنه بهم رؤوف رحيم) ولم يجيء قط رحمن بهم، فعلمت أن رحمن هو الموصوف بالرحمة، ورحيم هو الراحم برحمته، وقال رحمه الله تعالى: هذه النكتة لا تكاد تجدها في كتاب"[1].

ولكن الشيخ محمد عبده رحمه الله ذهب إلى عكس ذلك فقال: " والذي أقول: إنَّ صيغة فَعْلان تدل على وصف فعلي فيه معنى المبالغة كفعال وهو استعمال اللغة للصفات العارضة كعَطْشان وغَرْثان وغضبان، وأما صيغة فعيل فإنها تدل في الاستعمال على المعاني الثابتة كالأخلاق والسجايا في الناس كعليم وحكيم وحليم وجميل. والقرآن لا يخرج عن الأسلوب العربي البليغ في الحكاية عن صفات الله عز وجل، التي تعلو عن مماثلة صفات المخلوقين. فلفظ الرحمن يدلُّ على مَنْ تصدر عنه آثار الرحمة بالفعل وهي إضافة النعم والإحسان، ولفظ الرحيم يدل على منشأ هذه الرحمة والإحسان، وعلى أنها من الصفات الثابتة الواجبة. وبهذا المعنى لا يُستغنى بأحد الوصفين عن الآخر، ولا يكون الثاني مؤكداً للأول، فإذا سمع العربي وصف الله جل ثناؤه بالرحمن وفهم منه أنه المفيض للنعم فعلاً لا يعتقد منه أن الرحمة من الصفات الواجبة له دائما. لأن الفعل قد ينقطع إذا لم يكن عن صفة لازمة ثابتة وإن كان كثيراً، فعندما يسمع لفظ الرحيم: يكمل اعتقاده على الوجه الذي يليق بالله تعالى ويرضيه سبحانه، ويعلم أن لله صفة هي الرحمة التي عنها يكون أثرها، وإن كانت تلك الصفة على غير مثال صفات المخلوقين، ويكون ذكرها بعد الرحمن كذكر الدليل بعد المدلول ليقدم برهاناً عليه. ملخصاً من تفسير المنار[2]

ولعلَّ هذا الرأي الأخير هو الأقرب إلى قواعد اللغة وأساليبها.

وقد ذهب الشيخ محمد عبده في رده على بعض المعترضين عليه وتوجيه كلامه هذا مذهبًا لطيفًا نورده هنا ملخصاً لجمال إشارته قال:

"إن احتمال التوكيد بذكر الصفتين معًا لنفي التعدد بعيد، لأنه لا علاقة بين التوحيد ومعنى الرحمة، ولم يسبق في التاريخ أنَّ أحداً ذهب إلى أن الرحمن معبود

---

(١) انظر: تفسير المنار (١/٤٨).

(٢) انظر: مشكلات القرآن الكريم وتفسير سورة الفاتحة للإمام محمد عبده ص٣٦،٣٧ طبعة مكتبة الحياة ببيروت وتفسير المنار (١/٤٧، ٤٨).

والرحيم معبود آخر حتى يرد عليه بأنها شيء واحد، ولكن الذى عرف هو قول النصارى فى ابتداء شؤونهم: باسم الأب والابن والروح القُدُس، وهو فى زعمهم ثلاثة مختلفة الآحاد مع أنها واحد. فأراد الله أن يجعل للمسلمين فاتحة أعمال تحتوى على ثلاثة معان: الأول ذات، والآخران صفتان ـ فلفظ الجلالة هو الذات وهو يقابل الأب عندهم، والرحمن وصف الفعل المتجدْد الصادر من فيض الكرم، وهذا يقابل الابن لزعمهم أنه منبثق من الذات، والرحيم يدل على الصفة الثابتة للذات الأقدس وهى التى يرجع إليها الفعل المتجدُد ـ وباعتبارها يصدر ويتجدد وهو يقابل روح القدس فإنه عندهم الصلة بين الأب والابن وإن حاولوا ستر ذلك بضروب من العبارات، فأراد الكتاب أن يعلمنا كيف نضع التوحيد مكان التثليث، ونستبدل بألفاظ التشبيه خيراً منها من ألفاظ التنزيه.

ولا يفوتنا المعنى الذى يحتج بقصده مع الأب والابن والروح القدس وهو معنى الرحمة وإفاضة النعمة. وهذا هو وجه تكرير هذه الفاتحة الكريمة فى كل سورة، والندب إلى الافتتاح بها فى كل عمل ذى بال"[١].

أقول[٢]: لو قبل أهل الدين من النصارى هذا التفسير: لانحلت أعظم عقدة تباعد بين عقيدتى المسيحية والإسلام.

ومُجْمَلُ القول: أنَّ جمهور المفسرين على أن معنى الرحمن: المنعم بجلائل النعم، ومعنى الرحيم: المنعم بدقائقها. وهو توجيهٌ لا دليل عليه، أو أنهما بمعنى واحد والثانى تأكيد للأول، وهو رأى الجلال والصَّبَّان[٣]، وبعض المفسرين وهو ضعيف[٤]، إذ إن الحق أنه لا توجد فى القرآن كلمة زائدة لغير معنى مقصود كما قال ابن جرير الطبرى[٥] أو أن أحد الوصفين يدل على صفة الرحمة الثابتة له سبحانه، والثانى يدل

---

(١) المصدر السابق.

(٢) القائل هنا: الإمام الشهيد رحمه الله.

(٣) قال فى رسالته فى تفسير (بسم الله الرحمن الرحيم).

(٤) انظر: تفسير المنار (١ / ٤٦).

(٥) انظر: تفسير الطبرى (١ / ٩٤)، وقد كتب شيخ الأزهر السابق الدكتور عبد الرحمن تاج رحمه الله بحثا علميا فى غاية القوة والرصانة حول "من" فى القرآن الكريم التى قالوا عنها: زائدة. فابدع فيه رحمه الله، فليراجع فى كتابه "بحوث أصولية ولغوية"

على تجدُّد الأفعال المتعلقة بهذه الصفة وهو ما ذهب إليه ابن القيم والشيخ محمد عبده رحمهما الله(١). وهو الذى تستريح إليه النفس.

(الحمد لله رب العالمين)

(الحمد) الثناءُ الحسن الجميل، وهو يكون على مقدار علم الحامد بصفات المحمود وكلما كان هذا العلم واسعًا شاملاً كان الحامد أصدق حمداً.

ومن هنا وجب على المسلمين أن يجتهدوا فى استطلاع أسرار الكون، وتعرُّف ما فيه من قوى وعجائب، ليستطيعوا بذلك ان يدركوا عظمة المكوِّن إدراكًا صحيحًا. فيكون حمدهم إيَّاه وثناؤهم عليه حمداً صادقًا منشؤه الإدراك الحقيقى والشعور القلبى والتقدير العقلى لا مجرد التقليد اللفظى أو التعبد الوراثى .. ومن هنا كان أعظم الحمد وأجل الثناء حمده سبحانه لنفسه: "سبحانك لا نحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك"(٢).

وحمدُهُ سبحانه واجبٌ لذاته؛ لأنه الموصوف بالكمالات كلها، المستحق للمحامد كلها، وإن أثارت الأسباب معانى هذا الحمد فى نفوس عباده، فالجائع يَحْمَد عند الشِّبَع، والظمآن يحمد عند الرى، والفقير مع الغنى، والجاهل يحمد عند العلم، والمحروم يحمد إذا أعطى (الحمد لله الذى وهب لى على الكبر إسماعيل وإسحاق إن ربى لسميع الدعاء) وهذا هو سرُّ الجمع بين استحقاق الحمد وربوبيته سبحانه للعالمين.

---

(١) ومن قبلهما: شيخ الإسلام بدر الدين محمد بن إبراهيم بن جماعة المتوفى سنة ٧٣٣، قال فى كتابه "كشف المعانى فى المتشابه والمثانى ص٩٠: "ذكر المفسرون فى إيراد الاسمين مع اتحاد المعنى فيهما معانى كثيرة مذكورة فى كتب التفسير لم نُطل بها هنا. وأحسن ما يقال مما لم أقف عليه فى تفسير: إن فعلان صيغة مبالغة فى كثرة الشيء وعظمته، والامتلاء منه، ولا يلزم منه الدوام لذلك كغضبان وسكران ونَوْمان، وصيغة فعيل لدوام الصفة ككريم وظريف، فكأنه قيل: العظيم الرحمة الدائمها. انتهى. (مجد مكى).

(٢) هذا الدعاء من دعاء النبى ﷺ كما روت ذلك عنه السيدة عائشة رضى الله عنها أنها افتقدته فى ليلة فوجدته ساجداً يدعو الله ومنه هذا الدعاء، انظر: مسند أحمد (٧/ ٨٧) ومسلم (٤٨٦) والترمذى (٣٤٩٣) والنسائى فى "المجتبى (١٦٩) و(١١٠٠) و(١١٣٠) وأبو داود (٨٧٩) وابن ماجه (٣٨٤١). وروى ذلك ايضا عنه على بن أبى طالب رضى الله عنه أن النبى ﷺ كان يدعو به فى آخر وتره، انظر: مسند أحمد (١/ ١٥٥،١٩٠،٢٤٣) والنسائى فى "المجتبى (١٧٤٧) وأبو داود (١٤٢٧) وابن ماجه (١١٧٩)

(رب العالمين) قال البيضاوى: الربُّ فى الأصل مصدر بمعنى التربية، وهى تبليغ الشىء إلى كماله شيئًا فشيئًا، ثم وصف به للمبالغة [كالصوم والعدل][(١)] ثم سمى به المالك لأنه يحفظ ما يملكه ويربِّيه، ولا يُطلق على غيره تعالى إلا مقيَّدًا [أو مضافا][(٢)].

وقال الراغب: الرَّب فى الأصل: التربية وهو إنشاء الشىء حالاً فحالاً إلى حد التمام. ولا يقال الرب مطلقًا إلا الله تعالى[(٣)].

(والعالمين) جمع عالم، قيل: المراد به الناس خاصة على حدِّ قوله تعالى: ﴿ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً ﴾ [الفرقان: ١].

وقيل: بل اهل العلم والإدراك من الخلق من الملائكة والإنس والجن.

وقيل: كل جملة متميِّزة لأفرادها صفات تقرِّبها من العاقل فهى عالم، ولهذا جمعت على هذا النحو. ومنه عالم الإنسان، وعالم النبات، وعالم الحيوان. ولا يقال عالم الحَجَر أو الجبال أو نحوها من الجمادات.

وقيل: بل المراد بالعالمين جمع أجناس المخلوقات على حد قوله تعالى: ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ (٢٣) قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴾ [الشعراء: ٢٣، ٢٤]، ولعل أولى الأقوال بالصواب أن يقال: إن هذه المعانى جميعًا تُراد بهذا اللفظ بحسب القرينة. والمراد هنا المعنى الأخير فإنه سبحانه مربِّى الخلائق جميعًا.

والتربية الإلهية للخلق جميعًا واضحة فى كل مظاهر هذه العوالم، دقيقها وجليلها، فالجمادات يربيها الخالق سبحانه بهذه النواميس الكونية التى لا تتخلف من التفاعل والتحليل والتركيب والامتزاج والاتِّحاد والتَّحوُّل.

وصنوف النبات يتضح فيها معنى التربية الإلهية بشكل أوضح مما فى الجماد لما فيها من معانى الحياة ومبادئها، فالجنين النباتى يظل مستجنًّا فى البذرة حتى يجد التربة الصالحة، فينمو ويتحرك ويتغذى بما حوله من المواد الغذائية التى جهزت لهذا الغرض،

---

(١) ما بين معقوفتين ناقص وقد استدركته من تفسير البيضاوى.

(٢) انظر: تفسير البيضاوى (١ / ٢٥، ٢٦) وبهامشه حاشية الخطيب. طبعة مركز الكتب الثقافية. وما بين معقوفتين من إضافة الإمام الشهيد، وليس من تفسير البيضاوى.

(٣) انظر: مفردات ألفاظ القرآن للراغب الأصفهانى ص٣٦٦، مادة: رب. طبعة: دار القلم - دمشق.

فتكون له بمثابة الثدى فى الحيوان، حتى إذا نما وكبر تشبث بالأرض وامتص منها غذاءه ونما وازداد فى تركيب غريب ووضع دقيق عجيب ويظهر على وجه الأرض نبتة تتحوَّل إلى شجيرة، فشجرة ذات أغصان وأوراق وثمار تتاثر وتتنفس وتتغذى وتحمل وتنتج الثمرات.

والحيوان على اختلاف فصائله والإنسان يربيهما الخالق جلَّ وعلا فى كل أطوار الحياة: من النطفة إلى العَلَقَة إلى المضغة إلى الهيكل العظمى فالتكوين التام الكامل، فالوضع والرضاع والنمو والكبر مع تيسير أسباب البقاء والمحافظة التامَّة على صيانة الأجهزة والأعضاء والإمداد بعد ذلك بأسباب المعارف والمُدْركات المتنوِّعة والعواطف والمشاعر والوجدانات المختلفة حتى يستطيع أن يميِّزَ بين الحُسْن وغيره، ويتذوَّق معانى الخير والحق والجمال.

وما من شىء يظن القاصرون أنه ليس بذى بال إلا وله من الحكَم الجليلة والفوائد العظيمة ما تتحيَّر معه الألباب، وهذا الباب من تربية الله تبارك وتعالى للعالمين، لا ينتهى مَدَاه، ولو كُتبت فيه المجلَّدات. ففيه أسرار الكون، ودقائق الصنع المتَّصلة بجميع الخلق وغرائب الإبداع فى نواميس هذا العالم الذى لم يصل العقل الإنسانى فى الإحاطة بها إلا إلى النَّزْر اليسير، ولا زال أمامه الجمُّ الكثير.

وهذه الآية الكريمة من جوامع الكلم ولا شك، فقد أشارت واحتملت هذه المعانى كلها فى هذه الألفاظ الأربعة اليسيرة.

(الرحمن الرحيم)

قال فى "تفسير المنار" ما ملخصه: النكتة فيه [إعادة ذكرها][(١)] ظاهرة، وهى أن تربية الله للعالمين ليست لحاجة به إليهم كجَلْب منفعة أو دفع مضرة، وإنما هى لعموم رحمته وشمول إحسانه. وثَمَّ نكتة أخرى وهى أن البعض يفهم من معنى الرب الجبروت والقهر، فأراد الله أن يذكرهم برحمته وإحسانه ليجمعوا بين اعتقاد الجلال والجمال، فذكر الرحمن وهو المفيض للنعم بسَعَة وتجدُّد لا منتهى لهما، والرحيم الثابت له وصفُ الرحمة لا يزايله أبداً، فكأنَّ الله تعالى أراد أن يتحبب إلى عباده فعرَّفهم أن ربوبيته

(١) ما بين معقوفتين من وضع الإمام الشهيد، وليست من عبارات صاحب المنار.

ربوبيةَ رحمة وإحسان، ليعلموا أن هذه الصفة هى التى ربما يرجع إليها معنى الصفات، فيُقْبِلوا على اكتساب مرضاته منشرحةً صدورهم، مطمئنةً قلوبهم. لا ينافى عموم الرحمة وسبقها ما شرعه الله من العقوبات فى الدنيا وما أعده من العذاب فى الآخرة للذين يتعدون الحدود وينتهكون الحرمات، فإنه وإن سمى قهرا بالنسبة لصورته ومظهره فهو فى حقيقته وغايته من الرحمة. لان فيه تربيةً للناس وزجراً لهم عن الوقوع فيما يخرج عن حدود الشريعة الإلهية وفى الانحراف عنها شقاؤهم وبلاؤهم، وفى الوقوف عندها سعادتهم ونعيمهم، والوالد الرؤوف يربى ولده بالترغيب فيما ينفعه والإحسان إليه إذا قام به، وربما لجأ إلى الترهيب والعقوبة إذا اقتضت ذلك الحال ولله المثل الأعلى لا إله إلا هو وإليه يرجعون[1].

(مالك يوم الدين)

قُرئ: مالك ومَلك[2]. ولكلٍّ من القراءتين شواهد فى كتاب الله، يشهد للأولى قوله تعالى: ﴿يَوْمَ لا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئًا وَالأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾ [الانفطار: ١٩]، ويشهد للثانية قوله تعالى: ﴿لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦].

والدين: الحساب، والمكافاة، والجزاء. وهو أنسب المعانى فى الآية الكريمة. ويوم الدين هو يوم البعث الأكبر للحساب والجزاء ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا﴾ [آل عمران: ٣٠]، ولما كانت الرحمة ليست السبيل الوحيد إلى التربية، بل لابد معها من الجزاء حتى يجتمع الترهيب إلى الترغيب ناسب أن يذكر الله خلقه بدقيق محاسبته بعد أن ذكرهم بمظاهر رحمته حتى يتمثلوا دائماً: أن رب العالمين؛ الرحمن الرحيم، هو: مالك يوم الدين، كذلك الذى سيحاسبهم ويدينهم بما يفعلون. و(البِرُّ لا يَبْلَى، والذَّنْبُ لا يُنْسى، والديَّان لا يموت.

---

(١) انظر: تفسير المنار (١/ ٥١).

(٢) كلتا القراءتين وردتا عن رسول الله ﷺ. يراجع فى ذلك: "المصاحف" لابن أبى داود (١/ ٣٦٨-٣٧٤)، وانظر: "حجة القراءات" لأبى زرعة بن زنجلة ص ٧٧-٧٩، و"التبصرة" لمكى بن أبى طالب ص ٢٥٠.

اعمل ما شئت فكما تدين تدان)[1]. وهو أسلوب القرآن الكريم دائما كما قال تبارك وتعالى: ﴿ نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴾ [الحجر: ٤٩، ٥٠].

(إياك نعبد وإياك نستعين)

تفسَّر العبادة لغة: بأنها الطاعة مع غاية الخضوع. ولكنَّ هذا التفسير اللغوى لا يؤدى المعنى المقصود بالعبادة بالضبط. ولا يزال المرء يشعر بأنه فى حاجة إلى تعريف أوْفَى وأدَقّ وأشْفى للنفس. فقد يطيع الناس الرؤساء والكبراء طاعة تامَّة مع غاية الخضوع، ولا يقال: إنهم عبدوهم بذلك، والعبادة غير العبودية، ولا بد من تفريق بينهما، يشعر بذلك الذوق السليم والطبع المستقيم. وقد ألَمَّ الشيخ محمد عبده فى تفسيره بهذا المعنى إلمامًا جمع وصوَّر معنى العبادة تصويراً بديعًا يطمئن به القلب، فقال:

يغلو العاشق فى تعظيم معشوقه والخضوع له غُلُوًّا كبيرًا حتى يفنى فى هواه، وتذوب إرادته فى إرادته، ومع ذلك لا يُسمَّى خضوعه هذا عبادة بالحقيقة، ويبالغ كثير من الناس فى تعظيم الرؤساء والملوك والأمراء، فترى من خضوعهم لهم وتحريهم مرضاتهم ما لا تراه من المُتَحَنِّثين[2] القانتين دع سائر العابدين. ولم يكن العرب يسمون شيئًا من هذا الخضوع عبادة. فما هى العبادة إذن؟

---

(١) قال الإمام العجلونى فى تخريجه: رواه أبو نعيم والديلمى عن ابن عمر رفعه. وأورده ابن عدى أيضا فى الكامل، وفى سنده ضعيف، وقال فى اللآلىء: رواه البيهقى فى كتاب الزهد والأسماء والصفات عن أبى قلابة. ثم قال: هذا مرسل. ورواه ابن عدى فى الكامل من حديث محمد بن عبد الملك الأنصارى المدنى عن ابن عمر عن النبى ﷺ، ثم ضعف محمد بن عبد الملك. وأخرجه عبد الرزاق فى جامعه عن أبى قلابة رفعه مرسلا (٢٠٢٦٢)، ووصله احمد فى الزهد، لكن جعله من قول ابى الدرداء، ولابن أبى عاصم فى السنة بسند فيه وضَّاع عن انس فى حديث أنه قال: يا موسى كما تدين تدان. وفى الحلية عن يحيى بن أبى عمرو الشيبانى انه قال: مكتوب فى التوراة: كما تدين تدان وبالكاس الذى تسقى به تشرب. وفى التنزيل: (من يعمل سوءا يُجز به). انظر: كشف الخفاء للعجلونى (٢ / ١٢٦). ورواه ابن ابى شيبة (٨ / ١٦٧) والبيهقى فى "الشعب" (١٠٦٦٤) عن أبى الدرداء موقوفًا. وضعفه الألبانى فى "ضعيف الجامع الصغير (٢٣٦٩) وفى السلسلة الضعيفة (١٥٧٦). وهو من أمثال العرب، انظر: مجمع الأمثال (٢ / ١٣٢). وقد ذكره الإمام البنا على انه اثر لا حديث مرفوع، كما نرى سياق الكلام. وذكره فى موضع آخر على انه حديث! وسبحان من لا يغفل ولا ينام.

(٢) المتحنث: أى العابد، انظر: القاموس المحيط ص ٢١٥، ومختار الصحاح ١٥٩

تدل الأساليب الصحيحة والاستعمال العربى الصراح على أن العبادة ضربٌ من الخضوع بالغ حد النهاية. ناشئٌ عن استشعار القلب عظمة للمعبود لا يعرف منشاها، واعتقاده بسلطة له لا يدرك كنهها وماهيتها، وقُصارى ما يعرفه منها أنها محيطة به ولكنها فوق إدراكه.

للعبادة صورٌ كثيرة فى كل دين من الأديان شرعت لتذكير الإنسان بذلك الشعور بالسُّلطان الإلهى الأعلى الذى هو روح العبادة وسرها. ولكل عبادة من العبادات الصحيحة أثر فى تقويم أخلاق القائم بها وتهذيب نفسه، والأثر إنما يكون عن ذلك الروح والشعور الذى قلنا إنه منشأ التعظيم والخضوع، فإذا وجدت صورة العبادة خالية من هذا المعنى لم تكن عبادة. كما أن صورة الإنسان وتمثاله ليس إنسانا"[1].

هذا أقوله ملخصًا وهو كلام بديع كما ترى يجعل حقيقة العبادة مبعث التعظيم فى القلب لا صورتها التى تمثّلها الجوارح.

والاستعانة: طلب المعونة لإزالة العجز، والمساعدة على إتمام ما يعجز المستعين عن أدائه أو إتمامه بنفسه. وهى فى الأمور العادية التى تدخل فى حيِّز قدرة الإنسان وتصرُّفه جائزة بين الناس، بل هى من القُربات التى يَتقرَّب بها المرء إلى الله تبارك وتعالى. "والله فى عون العبد، ما كان العبد فى عون أخيه"[2]، لأنها من الأسباب المشروعة المسنونة لإتمام الأعمال وأدائها.

وذلك بخلاف الاستعانة فى الأمور الخاصَّة بالله تبارك وتعالى والتى لا يصح أن تطلب من أحد سواه وهى ما يجاوز حد القدرة البشرية كطلب الشفاء بعد استخدام الدواء، وكطلب النصر على الأعداء بعد إعداد العدة وبذل المستطاع، وكالاستعاذة بالله من الجوائح والآفات وصنوف البلاء إلى غير ذلك مما هو فى يد الله وحده ولا يقدر عليه إلا مدبِّر الأمر فى الأرض وفى السماء.

---

(١) انظر: تفسير المنار (١/ ٥٦، ٥٧) بتصرف.

(٢) رواه أحمد (٢/ ٤٩٧، ٥٣٥) ومسلم (٢٦٩٩) والترمذى (١٤٢٥) و(١٩٣٠) وأبو داود (٤٩٤٦) وابن ماجه (٢٢٥) والنسائى فى "الكبرى" (٧٢٨٥) والبيهقى فى "الشعب" (١٦٩٥) وابن أبى شيبة (٦/ ٢٤٧) والحاكم (٤/ ٤٢٥) عن أبى هريرة رضى الله عنه.

العبادة والاستعانة بهذا المعنى لا تكونان إلا لله، وبالله وحده تبارك وتعالى ولهذا قدَّم الضمير (إيَّاك) ليدل على الاختصاص كما يقول أهل اللغة.

وكل المظاهر التى تدل على العبادة شرعًا حسيةً أو معنويةً لا يجوز أن تكون إلا لله كالصَّلاة والركوع والسجود والنَّذر والقُرْبان والحلف والخوف والرجاء والتوكل والإنابة والمحبة والرغبة والرهبة والتألُّه والتذلُّل .. إلخ. كما أن مظاهر الاستعانة التى اختصَّها الشرع بالله تبارك وتعالى لا يصح أن تُصرف لغيره كالدعاء والاستغاثة واستمداد الحول والقوة وطلب قضاء الحاجات .. إلخ.

وبذلك يسلم للمؤمن دينه، ويكمل إيمانه ويقينه، ويسلم من لَوْثات الشرك الأكبر والأصغر، ويجتمع له توحيد الألوهية والربوبية معًا[1]. والتوفيق بيد الله.

والآية من جوامع الكلم، لأنها أشارت إلى خلاصة ما جاءت له الرسالات كلها وبُعث به الرسل جميعًا من حقوق الله وجميع فضله على خلقه.

وليس الدين أكثر من (إياك نعبد وإياك نستعين) الأولى بداية المعرفة والثانية ثمرتها وبينهما منازل ودرجات لا يقطعها إلا المقربون. ولقد ألَّف الشيخ أبو إسماعيل الهروى رسالة لطيفة أسماها: "منازل السائرين بين إياك نعبد وإياك نستعين" ألَمَّ فيها ببعض ذلك وأشار إليه، وشرحها ابن القيم فى سِفْر كبير أسماه: "مدارج السالكين إلى منازل السائرين" هو من خير ما كُتب فى علوم الأخلاق وأدب النفس، وتربيتها بأسلوب الصوفية من السلف الصالح رضوان الله عليهم.

ومن اللطائف اللفظية فى الآية الكريمة: أن كلمة الاستعانة تشعر بوجوب العمل والأخذ فى الأسباب، لأنَّ الاستعانة هى طلب العون من الله على أداء عمل أو إتمامه. فلا بدَّ للإنسان إذن من أن يأخذ بالأسباب، ويجدَّ فى الأعمال، ثم يطلب المساعدة والمعونة من الله تبارك وتعالى. ومن كلام عمر رضى الله عنه: "لا يقعد أحدكم عن طلب الرزق وهو يقول اللهم ارزقنى، وقد علم أن السماء لا تمطر ذهبًا ولا فضةً" وفى هذا تكريم للإنسان بجعل العمل متصلاً به أساسًا فى كل ما يحتاج إليه.

---

(١) هناك خلاف حول مدى صحة تقسيم التوحيد إلى: توحيد الألوهية، وتوحيد الربوبية.

وقد ذهب بعض المفسرين إلى قَصْر طلب الاستعانة على التوفيق في العبادة استئناسًا بقول رسول الله ﷺ حين أخذ بيد معاذ رضى الله عنه وقال له: "والله إنى لأحبك! أوصيك يا معاذ: لا تدعنَّ دبر كل صلاة أن تقول: اللهم أعنِّى على ذكرك وشكرك وحُسْن عبادتك"(١) ولكن هذا التخصيص لا معنى له وإن كان أفضل الاستعانة ولا شك ما كان على الطاعة والخير وحُسْن عبادة الله.

(اهدنا الصراط المستقيم)

الصراط: الطريق، **والمستقيم**: المعتدل. والآية من جوامع الكلم كذلك، فإن الإنسان فى حاجة إلى الهداية إلى الصراط المستقيم فى كل قول وعمل وفكرة وخاطرة، لأنه فى كل ذلك بين إفراط وتفريط وكلاهما ضار، والنافع المفيد دائمًا هو الحد الوسط، وهو الصراط المستقيم الذى نطلب الهداية إليه من الله تبارك وتعالى بهذه الآية، وهو من الدين ما جاء به رسول الله ﷺ عن ربه بغير زيادة عليه ولا انتقاص منه ولا انحراف عنه. ﴿**قُل هَذِه سبِيلِي أَدْعُو إلَى الله علَىٰ بصِيرَةٍ أَنَا ومنِ اتَّبعَنِي وسُبْحان الله ومَا أَنَا من الْمُشْرِكِين**﴾ [يوسف: ١٠٨]، ﴿**وأَنَّ هذَا صراطِي مُسْتَقيمًا فاتَّبِعُوهُ ولا تَتَّبعُوا السُّبُل فَتفرَّق بِكُمْ عن سبِيلِه**﴾[الأنعام: ١٥٣]، ﴿**وإنَّك لَتهْدِي إلَىٰ صِراطٍ مُّسْتَقيمٍ (٥٢) صراط الله الَّذي لَهُ مَا فِي السَّمواتِ ومَا فِي الأَرْضِ أَلا إِلَى الله تصِيرُ الأُمُورُ**﴾ [الشورى: ٥٢، ٥٣].

وعن النواس بن سمعان رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "إن الله تبارك وتعالى ضَرَب مثلاً صراطًا مستقيمًا على كَنَفَى الصراط زواران - وفى رواية: سُوراَن - لهما أبواب مُفَتَّحة، على الأبواب سُتُور وداع يدعو على رأس الصراط، وداعٍ يدعو فوقه: (والله يدعو إلى دار السلام ويهدى من يشاء إلى صراط مستقيم) فالأبواب التى على كنفى الصراط: حدود الله تعالى، فلا يقع أحد فى حدود الله تعالى حتى يُكْشَف

---

(١) رواه أحمد (٦/ ٣٢٨) والنسائى فى "المجتبى (١٣٠٣) وفى "الكبرى (٩٩٣٧) وأبو داود (١٥٢٢) والحاكم (٣/ ٣٠٧) و (١/ ٤٠٧) وابن خزيمة (٧٥١) ابن حبان (٢٠٢٠) و (٢٠٢١) والبيهقى فى "الشعب" (٤٤١٠) والطبرانى فى "الكبير (٢٠/ ٦٠) والبخارى فى "الأدب المفرد" (٧١١) عن معاذ ابن جبل رضى الله عنه وصححه الشيخ الألبانى فى (صحيح أبى داود) برقم (١٥٢٢).

السُّتُرُ، والذى يدعو من فوقه واعظُ رَبِّه" أخرجه الترمذى[1]. وفسَّره رزين فى حديث رواه عن ابن مسعود رضى الله عنه: أن الصراط هو الإسلام[2]. وأن الأبواب: محارم الله، والداعى على رأس الصراط: هو القرآن[3]، والداعى فوقه: واعظ الله تعالى فى قلب كُلِّ مؤمن[4].

[وسائل الهداية]

ولقد منح الله الإنسان أربع وسائل للهداية، تتدرَّج مع أفراده ونوعه بتدرج نموهم واستعدادهم.

فالوسيلة **الأولى**: الوجدان الطبيعى والإلهام الفطرى، وهذا يكون مع الطفل منذ ولادته. ألا تراه يشعر بالحاجة إلى الغذاء فيلتقم الثدى ويمتصه بحركة آلية فطرية لا تفكير معها ولا تدبير.

والثانية: الحواس والمشاعر التى تنمو بنمو الإنسان مع السمع والبصر والذوق والشَمِّ والحس. وهى عُرْضَة للخطأ فى كثير من الأحيان.

والثالثة: العقل بقواه المختلفة من الإدراك والفكر والخيال والحفظ والذكر .. إلخ وهو مصدر الحكم ومناط التكليف فى الإنسان. وبه تصحح أخطاء الحواس وتدرك حقائق الأشياء فى الحسيات والمعنويات على السواء.

والرابعة: الدين والإرشاد الإلهى والرسالات السماوية مع الرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

---

(١) رواه أحمد (٥/١٩٨) والحاكم (١/١٤٤) والبيهقى فى "الشعب (٧٢١٦) والترمذى (٢٨٥٩) وصححه الألبانى فى "صحيح الترمذى (٢٢٩٥).

(٢) رواه الحاكم فى المستدرك (٢/٢٨٤) وقال: صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه ووافقه الذهبى. وهو قول جابر بن عبد الله أيضا. انظر: تفسير ابن عطية (١/١٢٠)، وقول ابن عباس فى تفسير الطبرى (١/١٠٥).

(٣) قال بهذا التأويل أن الصراط المستقيم هو كتاب الله: على بن أبى طالب رضى الله عنه فيما رواه الطبرى فى تفسيره. انظر: (جامع البيان) بتحقيق الشيخ شاكر.

(٤) اختلف المفسرون فى معنى (الصراط) فمنهم من قال: القرآن، ومنهم من قال: الإسلام، ومنهم من قال: السنة. انظر: مقدمة فى أصول التفسير" لشيخ الإسلام ابن تيمية بتحقيق د.عدنان زرزور.

هذه الوسائل جميعًا قد يضل الإنسان فى استخدامها، ولا يستطيع الاستفادة منها والانتفاع بها. فقد تقصر حواسه فى الإلمام بالمحسَّات، وقد يضعف عقله بالعلل والآفات أو الأعراض والشهوات عن الوصول إلى الحقيقة، وقد ينحرف عن الدين لجهالة به أو إعراض عنه أو غير ذلك من الأسباب، ولهذا شرع لنا الله تبارك وتعالى أن نسأله الهداية إلى الصراط المستقيم فى هذه الوسائل كلها. فلا تقصر حواسنا، ولا تضعف عقولنا، ولا نحيد فى فهم الدين والفقه فيه عن الحق وجادة الصواب.

واستقصاء مدلول الصراط المستقيم فى جميع الأقول والأفعال غير ممكن؛ لأنه الحد الوسط فى كل قول وفعل كما تقدَّم، وفى هذا الإيجاز منتهى الإعجاز. والله يقول الحق وهو يهدى السبيل.

﴿صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين﴾

[أصناف الناس]

فى هذه الآية الكريمة ثلاثة أصناف من الناس هم: الذين أنعم الله عليهم، والمغضوب عليهم، والضَّالُّون.

قال بعض المفسِّرين: الذين أنعم الله عليهم هم المؤمنون من أمة محمد ﷺ أو غيرها من الأمم السابقة، والمغضوب عليهم هم اليهود الذين انحرفوا عن هدى التوراة، والضالون هم النصارى الذين لم يستمسكوا بتعاليم الإنجيل الصحيح، وقد وردت بذلك بعض الآثار(١).

كما قال بعض المفسرين: المغضوب عليهم بالبدعة، والضالون عن السنة(٢) ولا مبرر لهذا التخصيص إلا أن يكون ذلك على سبيل التمثيل فقط.

ولعل أجمع ما يقال فى ذلك وأوفاه: أن الذين أنعم الله عليهم هم الذين عَرَفوا الحق،

---

(١) ورد فى هذا قوله ﷺ: "اليهود مغضوب عليهم، والنصارى ضُلال" والحديث اخرجه احمد (٥/٥١١) والترمذى (٢٩٥٤) عن عدى بن حاتم رضى الله عنه. والحديث حسَّنه ابن حجر "فتح البارى" (٨/٢٠٢).

(٢) انظر: تفسير البغوى (١/٥٤).

ووفقهم الله إلى اتِّباعه فاهتدوا بذلك إلى الصراط المستقيم، وأن المغضوب عليهم هم الذين عرفوا الحق، ثم أعرضوا عنه من أىِّ دين كانوا وفى أى زمان وُجدوا، ولا شك أن هذا الإعراض دليل غضب الله تبارك وتعالى عليهم، وأنَّ الضالين هم الذين غَفَلوا عن الحق وتاهوا فى أودية الضلال، أو الذين يتلمسون الحقَّ فلا يهتدون إليه من أىِّ دين كانوا، وفى أىِّ زمان وجدوا كذلك، وأن الله تبارك وتعالى أرشدنا إلى أن نسأله الهداية إلى سنن الصنف الأول من الذين أنعم الله عليهم، وأن نبرأ إليه من الصنفين الآخرين، فكلاهما هالك والعياذ بالله.

روى أبو عُبيد القاسم بن سلاَّم فى كتاب "فضائل القرآن" عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه انه كان يقرأ: (غير المغضوب عليهم وغير الضالين)، وكذلك حكى عن أُبى بن كعب رضى الله عنه[1]. وذلك محمول على أنهما كانا يقصدان بذلك التفسير لا التلاوة، إذ إنه من غير المعقول أن يُخالفا إجماع الصحابة فى تلاوة سورة الفاتحة التى تقرأ فى كل صلاة، وعمر أمير المؤمنين يقرأ بها فى صلاته بهم وإمامته إياهم صباح مساء!.

آمين

آمين، ليست من الفاتحة بإجماع، ومعناها: اللهمَّ استجب لنا، ونقل القرطبى عن الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس قال: سألت رسول الله ﷺ: ما معنى آمين قال: "رب افعل"[2] وقال مقاتل: هو قوة الدعاء واستنزال للبركة. وقال الترمذى معناه: لا تُخيِّب رجاءنا، وكلهم بمعنى قريب هو طلب الاستجابة. وأَبْعَدَ قَوْمٌ النَّجْعَةَ فقالوا: آمين لفظ غير عربى منحوت من الاسم المصرى آمون، ولا دليل على ما يزعمون!.

وآمين بعد تلاوة الفاتحة فى الصَّلاة، وفى غيرها من السنة.

عن وائل بن حجر قال: "سمعت رسول الله ﷺ قرأ: (غير المغضوب عليهم ولا

---

(١) انظر: تفسير ابن عطية (١/ ١٢٨).

(٢) رواه الثعلبى فى تفسيره عن ابن عباس رضى الله عنهما. وقال ابن حجر: إسناده واهٍ. انظر: تخريج الأحاديث والآثار الواقعة فى تفسير الكشاف للزيلعى (١/ ٢٧). وتخريج ابن حجر لتفسير الكشاف بهامشه (١/ ١٧).

الضالين)، فقال : "آمين" يمدُّ بها صوته" رواه أحمد وأبو داود والترمذى[١].

وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : "إذا أمَّن الإمام فأمِّنوا فإنَّ من وافق تأمينُه تأمينَ الملائكة غُفِرَ له ما تقدَّم من ذنبه"

وقال ابن شهاب : كان رسول الله ﷺ يقول آمين. رواه الجماعة إلا الترمذى لم يذكر قول ابن شهاب[٢].

وعن أبى هريرة قال : كان رسول الله ﷺ إذا تلا : (غير المغضوب عليهم ولا الضالين) قال : آمين حتى يُسْمِع من يليه من الصف الاول، رواه أبو داود[٣] وابن ماجه، وقال : حتى يسمعها أهل الصف الأول، فيرتجُّ بها المسجد[٤].

وإلى مشروعية التأمين جهراً للإمام والمأموم ذهب الشافعى ومالك فى رواية المدنيين، وقال أبو حنيفة وبعض المدنيين والطبرى : لا يجهر بها. وروى ابن القاسم عن مالك وهو مذهب المصريين من المالكية : أن الإمام لا يُؤمِّن، محتجين بحديث أبى موسى رضى الله

---

(١) رواه أحمد (٥ / ٤١١) والترمذى (٢٤٨) وقال : حسن، والنسائى فى "المجتبى (٩٣٢) وابن ماجه (٨٥٥) وأبو داود (٩٣٢) والطبرانى فى "الكبير (٣٤) والبيهقى فى "السنن" (٢ / ٣٦٠) والدارمى(١٢٤٧) عن وائل بن حجر رضى الله عنه. وحسنه ابن حجر فى تخريجه لأحاديث الكشاف (١ /١٨).

(٢) رواه أحمد (٢ / ٤٦٤، ٤٧٣، ٥٣٠) والبخارى (٧٨٠) ومسلم (٤١٠) والترمذى (٢٥٠) والنسائى فى "المجتبى (٩٢٧) و(٩٢٨) و(٩٣٠) وفى "الكبرى (٩٩٩) وأبو داود (٩٣٥) و(٩٣٦) وابن ماجه (٨٥١) و(٨٥٣) ومالك (١٩٥) و(١٦٦) والدارمى (١٢٤٦) وابن حبان (١٨٠٤) وابن خزيمة (٥٧٥) وأبو يعلى (٥٨٧٤) وعبد الرزاق (٢٦٤٤) والشافعى فى مسنده (١٥١) عن أبى هريرة رضى الله عنه، ولم يذكر قول ابن شهاب إلا البخارى وأبو داود.

(٣) رواه أبو داود (٩٣٤) وأبو يعلى (٦٢٢٠) عن أبى هريرة رضى الله عنه، وفيه : بشر بن رافع، قال فيه احمد بن حنبل : ليس بشىء، ضعيف الحديث. وقال يحيى بن معين : يحدث بمناكير. وقال البخارى : لا يتابع فى حديثه. وقد ضعفه الألبانى فى "ضعيف سنن أبى داود" (١٩٧). ورواه عبد الرزاق مرسلا (٢٦٣٢).

(٤) رواه ابن ماجه (٨٥٣) عن أبى هريرة رضى الله عنه، وفيه : بشر بن رافع، وقد ذكرنا قول علماء الجرح والتعديل فيه فى الحديث السابق.

عنه قال: إنَّ رسول الله ﷺ خطبنا فبيَّن لنا سنتنا وعلَّمنا صلاتنا فقال: "إذا صليتم فاقيموا صفوفكم، ثم ليؤمكم أحدكم، فإذا كبَّر فكبروا، وإذا قال: (غير المغضوب عليهم ولا الضالين) فقولوا: آمين يُجبْكم الله" أخرجه مسلم(١).

والسكوت عن ذكر الإمام فى التامين هنا لا ينهض حُجْةً أمام صريح الاحاديث التى جاء فيها ذكر تامين الإمام.

والتامين مُستحب بعد كل دعاء. روى أبو داود عن أبى مصبح المقرائى قال: كنا نجلس إلى ابى زهير النميرى، وكان من الصحابة فيحدثُ أحسن الحديث، فإذا دعا الرجل منا بدعاء قال: اختمه بآمين، فإنَّ آمين مثل الطابع على الصحيفة، قال أبو زهير: الا اخبركم عن ذلك؟ خرجنا مع رسول الله ﷺ ذات ليلة فأتينا على رجل قد ألحَّ فى المسالة، فوقف النبى ﷺ يسمع منه. فقال النبى ﷺ: "أوْجَبَ إنْ ختم، فقال له رجل من القوم: بأىِّ شىء يختم؟ قال: بآمين، فإنَّه إن ختم بآمين فقد أوجب" فانصرف الرجل الذى سأل النبى ﷺ، فاتى الرجل فقال له: اختم يا فلان [بآمين] وأبشر(٢).

ولا جَرَم انَّ آمين بَرَاعَةُ مَقْطَعٍ فى غاية الجمال والحُسن، وأىُّ شىء أولى بهذه البراعة من فاتحة الكتاب والتوجُّه إلى الله بالدعاء.

تناسب وانعام:

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ١٧]، ولا شك أن من تدبَّر الفاتحة الكريمة - وكل مؤمن مُطالب بتدبُّرها فى تلاوته عامة، وفى صلاته خاصَّة - رأى من غَزَارة المعانى وجمالها، ورَوْعة التناسب وجلاله ما يأخذ بلُبِّه ويضىء جوانب قلبه. فهو يبتدئ ذاكرًا تاليًا متيمنًا باسم الله الموصوف بالرحمة التى تظهر آثار رحمته مجددة فى كل شىء، مستشعرًا أن أساس الصلة بينه وبين خالقه العظيم هو هذه الرحمة التى وسعت

---

(١) رواه أحمد (٥/٥٥٩) ومسلم (٤٠٤) والنسائى فى "المجتبى" (٨٣٠) و(١٠٦٤) و(١١٧٢) و(١١٧٣) و(١٢٨٠) وابو داود (٩٧٢) والدارمى (١٣١٢) عن أبى موسى رضى الله عنه.

(٢) رواه أبو داود (٩٣٨) والطبرانى فى "الكبير" (٢٢/٢٩٦) عن أبى زهير النميرى رضى الله عنه، وضعف إسناده الألبانى فى "ضعيف ابى داود" (١٩٩).

كل شيء، فإذا استشعر هذا المعنى ووقر فى نفسه انطلق لسانه بحمد هذا الإله الرحمن الرحيم، وذكَّره الحمد بعظيم نعمه، وكريم فضله، وعظيم آلائه البادية فى تربيته للعوالم جميعًا، فاجال بصيرته فى هذا المحيط الذى لا ساحل له، ثم تذكَّر من جديد ان هذه النعم الجزيلة والتربية الجليلة ليس عن رغبة ولا رهبة. ولكنها عن تفضُّل ورحمة فنطق لسانه مرة ثانية بالرحمن الرحيم، ولكن من كمال هذا الإله العظيم أن يقرن الرحمة بالعدل، ويذكِّر بالحساب بعد الفضل، فهو مع رحمته السابغة المتجدِّدة سيُدين عباده، ويحاسب خلقه يوم الدين ﴿ يَوْمَ لا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئًا وَالأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴾ [الانفطار: ١٩]، فتربيته لخلقه قائمة على الترغيب بالرحمة، والترهيب بالعدالة والحساب.

وإذا كان الأمر كذلك: فقد اصبح العبد مكلَّفًا بتحرِّى الخير، والبحث عن وسائل النجاة، وهو فى هذا أشد ما يكون حاجة إلى من يهديه سواء السبيل، ويرشده إلى الصراط المستقيم، وليس أولى به فى ذلك من خالقه ومولاه. فليلجأ إليه وليعتمد عليه وليخاطبه بقوله: (إياك نعبد وإياك نستعين) وليسأله الهداية من فضله إلى الصراط المستقيم، صراط الذين أنعم عليهم بمعرفة الحق واتباعه، غير المغضوب عليهم بالسَّلب بعد العطاء، والنكوص بعد الاهتداء، وغير الضَّالين التائهين الذين يضلون عن الحق، أو يريدون الوصول إليه، فلا يوفقون للعثور عليه. آمين.

فهل رأيت تناسبًا أدَق، أو ارتباطًا أوثق مما تراه بين معانى هذه الآيات الكريمات؟ وتذكَّر وأنت تهيم فى أودية هذا الجمال ما يرويه رسول الله ﷺ عن ربِّه فى الحديث القدسى الذى أوردناه آنفًا "قسمت الصلاة بينى وبين عبدى" وأدِمْ هذا التدبُّر والإنعام، واجتهد أن تقرأ فى الصلاة أو غيرها على مُكْثٍ وتمهُّل وخشوع وتذلُّل، وأن تقف على رؤوس الآيات، وتُعطى التلاوة حقها من التجويد والنغمات من غير تكلُّف ولا تطريب، أو اشتغال بالألفاظ عن المعانى مع رفع الصوت المعتدل فى التلاوة العادية أو الصلاة الجهرية، فإن ذلك يعين على الفهم، ويثير ما غاض من شآبيب الدمع، وما نفع القلب شيءٌ أفضل من تلاوة فى تدبُّر وخشوع.

*****

سورة البقرة

سورة البقرة(١)

وهى مدنية إلا آية : (واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله) فقد نزلت بمنى فى حَجَّة الوداع. وعدد آياتها ٢٨٦ آية.

فضلها:

روى الترمذى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : "لكلِّ شىء سنام، وإن سنام القرآن سورة البقرة، وفيها آية هى سيدة آى القرآن" هى آية الكرسى"(٢).

وروى مسلم عن أبى أُمَامَةَ الباهلى رضى الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "اقرءوا سورة البقرة فإن أخذها بركة، وتركها حسرة، ولا تستطيعها البَطَلَةُ"(٣)

وروى البخارى ومسلم وابن حبان فى صحيحه واللفظ له عن أُسيد بن حُضير أنه قال: يا رسول الله بينما أنا أقرأ الليلة سورة البقرة، إذ سمعت وجْبة من خلفى، فظننت أن فرسى انطلق. فقال رسول الله ﷺ : "اقرأ أبا عتيك" فالتفت فإذا مثل المصباح مدلًى بين السماء والأرض، ورسول الله ﷺ يقول: "اقرأ أبا عتيك فقال: يا رسول الله فما

---

(١) نشرت بالعدد الثالث من مجلة الشهاب الصادر فى غرة ربيع الأول ١٣٦٧هـ- يناير ١٩٤٨م.

(٢) رواه الترمذى (٢٨٧٨) عن أبى هريرة رضى الله عنه، وقال: حديث غريب. وفيه: حكيم بن جبير، قال عنه ابن مهدى: روى احاديث يسيرة وفيها منكرات. وقال أحمد بن حنبل: ضعيف الحديث مضطرب. وقال يحيى بن معين: ليس بشىء. وقال أبو حاتم الرازى: ضعيف الحديث، منكر الحديث. وقال أبو داود: ليس بشىء. وقال النسائى: ليس بالقوى. والحديث ضعفه الألبانى فى ضعيف الجامع الصغير برقم (٤٧٢٨). ورواه الدارمى بنحوه (٣٣٧٧) عن ابن مسعود رضى الله عنه، ولفظه: "إن لكل شىء سناما، وإن سنام القرآن سورة البقرة" وحسنه محققه انظر: الدارمى (٤ / ٢١٢٦) (٣٤٢٠).

(٣) رواه احمد (٦ / ٣٣١، ٣٣٣، ٣٣٩، ٣٤٣) ومسلم (٨٠٤) عن أبى أمامة الباهلى رضى الله عنه. ورواه احمد أيضًا (٦ / ٤٧٨، ٤٨٢، ٤٩٦) والدارمى (٣٣٩١) عن بريدة بن الحصيب رضى الله عنه. والبَطَلَةُ: السَّحرة.

استطعت ان امضى، فقال رسول الله ﷺ: "تلك الملائكة تنزلت لسورة البقرة، أما إنك لو مضيت لرايت العجائب"(١).

وروى مسلم والنسائى والترمذى عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: "لا تجعلوا بيوتكم مقابر إنَّ الشيطان يَفِرُّ من البيت الذى تقرأ فيه سورة البقرة"(٢)

وروى الترمذى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم بَعْثًا، وهم ذُوو عدد، فاسْتَقْرَأَ كُل رجل منهم - يعني - ما معه من القرآن، قال: فاتى على رجل مِن أَحْدَثِهم سنًّا فقال: "ما معك يا فلان؟" قال: معى كذا وكذا وسورة البقرة فقال: "أمعك سورة البقرة؟" قال: نعم. قال: "اذهب فانت أميرهم"، فقال رجل من اشرافهم: والله ما منعنى ان اتعلم البقرة إلا خشية ألا اقوم بها. فقال رسول الله ﷺ: "تعلموا القرآن، واقرءوه، فإن مثل القرآن لمن تعلمه فقرأه كمثل جِرَابٍ مَحْشُوٌّ مسْكًا يَفُوحُ رِيحُه فى كل مكان، ومن تعلمه فيرقد وهو فى جوفه فمثله كمثل جراب أُوكِئ على مسك"(٣).

قال ابن العربى: سمعت بعض أشياخي يقول عن البقرة: فيها الف أمر، وألف نهى، وألف حكم، وألف خبر(٤).

وقال خالد بن معدان: هى فسطاط القرآن(٥). وذلك لعظمها وبهائها وكثرة احكامها ومواعظها(٦).

---

(١) رواه أحمد (٣/٤٩٩) والبخارى (٥٠١٨) ومسلم (٧٩٦) والحاكم (١/٧٤٠) وابن حبان (٧٧٩) والطبرانى فى "الكبير" (١/٢٠٨) عن أسيد بن حضير رضى الله عنه.

(٢) رواه أحمد (٢/٦٤٤،٥٥٣) و(٣/٧٦) ومسلم (٧٨٠) والترمذى (٢٨٧٧) والنسائى فى "الكبرى" (٨٠١٥) والبيهقى فى "الشعب" (٢٣٨١) عن أبى هريرة رضى الله عنه.

(٣) رواه الترمذى (٢٨٧٦) وقال: حديث حسن، والنسائى فى "الكبرى" (٨٧٤٩) وابن خزيمة (١٥٠٩) وابن حبان (٢١٢٦) و(٢٥٧٨) عن ابى هريرة رضى الله عنه. وضعف إسناده الألبانى فى "ضعيف الترمذى" (٥٤١) وفى "ضعيف الجامع الصغير" (٢٤٥٢).

(٤) انظر: "احكام القران" (١/٨).

(٥) ذكره الدارمى فى كتاب فضائل القرآن باب فضل سورة البقرة (٢/٩٠٤) برقم (٣٣٧٦).

(٦) تفسير القرطبى (١/١٧٠).

وفى كتاب "الاستيعاب"[1] لابن عبد البر كان لَبيد بن ربيعة بن عامر بن مالك بن جعفر بن كلاب بن ربيعة بن عامر بن صَعْصعة من شعراء الجاهلية، أدرك الإسلام فَحَسُنَ إسلامُه، وترك قول الشعر فى الإسلام، وسأله عمر فى خلافته عن شعره، فقال: ما كنت لأقول بيتًا من الشعر بعد إذ علمنى الله البقرة وآل عمران. فاعجب عمر قوله، وكان عطاؤه ألفين فزاده خمسمائة. وقد قال كثير من أهل الأخبار: إن لبيدا لم يقل شعرًا منذ أسلم، وقال بعضهم: لم يقل فى الإسلام إلا قوله:

الحمـــــدُ لله إذ لم يأتنى أجَلى ... حتى اكتسيت من الإسلام سربالا

وفى "موطأ مالك": أنه أبلغه أن ابن عمر مَكَث على سورة البقرة ثمانى سنين يتعلمها[2]

وذكر أبو بكر أحمد بن على بن ثابت الحافظ فى كتابه المسمى (أسماء من روى عن مالك) عن مرداس بن محمد بن بلال الأشعرى قال: حدثنا مالك عن نافع عن ابن عمر قال: تَعَلَّم عمر البقرة فى اثنتى عشرة سنة، فلما ختمها نحر جزورًا شكرًا لله[3]

حكمة التسمية:

قال المفسرون: سميت بهذا الاسم لما ورد فيها من ذكر قصة (البقرة)، ويبدو لى: أن الحكمة فى هذه التسمية أعمق من هذا الذى ذكر ـ ولعلها لفت النظر إلى هدم هذه العقيدة فى نفوس الناس ـ عقيدة تقديس البقرة وعبادتها من دون الله، والمقصد الأول من الأديان، وبالتالى من إنزال القرآن: تقرير وحدانية الله تبارك وتعالى، وصرف وجوه عباده وقلوبهم إليه، وتنزيهه عن كل ما لا يليق بجلاله، ولقد كانت البقرة أوفر أنواع الحيوان حظًا من عبادة البشر وتقديسهم، فالتاريخ يحدثنا عن قدماء المصريين، وكيف كانوا يبالغون فى تقديس هذا الحيوان وعبادته، ويعنون أشد العناية باختيار العجل (أبيس) بشروط خاصة، وكيفيات خاصة حتى سرت منهم هذه العادة إلى الإسرائيليين

---

(١) انظر: "الاستيعاب" لابن عبد البر بهامش الإصابة (٣/ ٣٢٤، ٣٢٩) دار صادر. و "أسد الغابة" لابن الأثير (٤/ ٢٦١، ٢٦٢).

(٢) ذكره البيهقى فى "الشعب" (١٩٥٦) ومالك فى الموطأ (٤٧٧).

(٣) رواه البيهقى فى "الشعب" (١٩٥٧) عن ابن عمر.

رغم ما كان فيهم من أنبياء، وما أنزل الله عليهم من كتب، ولقد عُرفت عبادة البقر فى معظم القارة الآسيوية، كذلك بين الآشوريين والبابليين والإيرانيين والهنود، ولا زالت إلى اليوم معبود الهندوس الأعظم، وسرى إلى العرب شيء من هذه العقيدة، فكان عنها السائبة والبحيرة والوصيلة والحامى وما يتَّصل بها من شعائر، ولقد استمر ظل هذه العقائد الفاسدة ممتداً حتى وصل إلى بعض المجتمعات الإسلامية، وكنا نسمع إلى وقت قريب عن (عجل السَّيِّد[١]) ونُظَرائه فى كثير من البلاد.

ولهذا كان من اللازم: أن تُحارب هذه العقيدة، وأن تُجْتَثَّ من أصولها، وأن تُسمَّى أطول سورة فى القرآن باسم الجزء الذى تعرض للبقرة منها، وفيه الأمر بذبحها بأيدى الذين سَرَى إلى نفوسهم تقديسها وتكريمها من بنى إسرائيل تقليداً للمصريين، ونقلاً عن شرائعهم حينذاك، والله أعلم[٢].

استعراض عام للمقاصد الكلية فى السورة الكريمة:

من الخير أن نضع بين يدى الناظرين فى كتاب الله تبارك وتعالى هذه الصورة المجملة لمقاصد السورة المباركة بأرقام الآيات حتى تكون مفتاحاً للتدبر والتفكُّر حين التلاوة، ومِعْوَانًا على الدرس والبحث فنقول: بدأت هذه المقاصد فى السورة الكريمة بمقدمات عامة خلاصتها:

حكمة الاستفتاح بالحروف المفردة، الآية: (١)، ثم عرض الدعوة ممثلة فى كتاب حق، الآية: (٢)، ثم بيان موقف الناس منها، وتقسيمهم إلى: مؤمنين وكافرين ومنافقين، وصفات كل قسم وخصائصه، الآيات: (٢- ٢٠)، وعموم الدعوة إلى عبادة

---

(١) يقصد بـ (عجْل السيد): أى السيد احمد البدوى، صاحب الضريح المشهور فى طنطا بمصر، وكان الناس ينذرون عجلا يذبح للسيد البدوى، ولا يقربونه ولا ياكلون منه، بحجة انه عجل منذور للسيد. وكادت - والحمد لله - ان تنتهى هذه العادة نهائيا من مصر، وذلك بفضل الله، ثم بجهود الصحوة الإسلامية ودعاتها، ودعوة العلماء إلى التوحيد الخالص من شوائب الشرك.

(٢) ويقول الشيخ صلاح أبو إسماعيل رحمه الله فى حكمة امر الله لهم بذبح بقرة: "إن الله عز وجل أراد ان يعلم بنى إسرائيل درسا فى العقيدة، فهم قد عبدوا العجل، والبقرة ام العجل، والوليد أضعف من الأم، فإذا ما ذبحت الأم امام الوليد ولم تملك ان تدفع عن نفسها ضرا ولا نفعا، هنالك يعلم من عبدوا العجل: انهم على ضلال" انظر: "اليهود فى القرآن" للشيخ صلاح أبو إسماعيل ص ٢٥ بتصرف. طبعة جمعية الشيخ عبد الله النورى الخيرية بالكويت. ودار الصحوة بالقاهرة.

الله وحده ونفي الشرك به: (٢١-٢٢)، والتحدى بإعجاز القرآن للبشر: (٢٣)، وتسجيل جزاء المصدِّقين والمكذِّبين: (٢٤-٢٥)، وحكمة القرآن فى التمثيل، وأثر ذلك فى الناس: (٢٦-٢٧)، وتلخيص أطوار الحياة الإنسانية وخلق الكائنات، والصلة بين الإنسان والجن والملائكة، وختام هذه المقدمات بتقرير جزاء المهتدين والمكذِّبين، [الآيات]: (٢٨-٣٩).

ثم عرضت بعد ذلك لناحية تطبيقية، هى استعراض تاريخ الأمة اليهودية استعراضًا تظهر فيه: أخلاقها وأعمالها، وتتخلّله قواعد ثابتة من سنن الله التى لا تتغيَّر.

والحكمة فى اختيار قصة بنى إسرائيل وكثرة تكرارها فى سور القرآن الكريم واضحة، فإنَّ شريعتها هى أقدم الشرائع السماوية المعروفة الآن، وما زالت هذه الأمة مشكلة العالم الإنسانى، ومصدر البلاء للبشرية حتى يأتى أمر الله.

وقد بدأ هذا الاستعراض بتذكيرهم بنعمة الله وعهده عندهم، ومطالبتهم بالوفاء وتوعدهم بالجزاء الآيات: (٤٠-٤٨).

ثم تذكير الله إيَّاهم بالنجاة من فرعون، وإنزال التوراة، وقبول التوبة بعد الخطيئة، والحياة بعد الصَّعْق، والسَّعْة فى الرزق، وهم مع ذلك يأبون إلا العناد والمخالفة، والتمرُّد على الحق، والعُدوان على أنبياء الله، الآيات: (٤٩-٦١).

وتقرير قاعدة التبرير بالإيمان، وأن الإيمان هو لُبُّ الدين، وأصل النجاة فى كل الشرائع السماوية، [الآية]: (٦٢).

ثم ذكر حادثة الطور، والسَّبْت، والبقرة، والقتيل، وقسوة قلوبهم من بعد ذلك كله، مما يؤدى إلى اليأس من هدايتهم ويعزز ضلالهم وسوء طويَّتهم، [الآيات]: (٦٣-٧٥).

ثم تسجيل خُلُق النفاق والكذب عليهم [الآيات]: (٧٦-٧٩)، وتقرير قاعدة الجزاء بالعمل لا بالتمنِّى والادِّعاء [الآيات]: (٨٠-٨٢)، وبيان أصول شريعة موسى عليه السلام؛ وهى أصول الشرائع عامة [الآية]: (٨٣)، وخروجهم عليها بعد إقرارهم بها استكبارًا وبغيًا وحسدًا وحرصًا على الحياة [الآيات]: (٨٤-٩٦).

ثم التعرُّض لهدم عقائدهم الفاسدة فى الملائكة وفى السحر [الآيات]: (٩٧-

١٠٣)، وكشف خَبيئة نفوسهم للمؤمنين من الخبث والحسد: (١٠٤-١٠٥)، وتقرير السنة الإلهية فى التذكير بآيات الله وقدرته على ذلك، ووجوب التسليم للرسل عليهم الصلاة والسلام [الآيات]: (١٠٦-١٠٨)، وبيان داء الحسد فى نفوس أهل الكتاب ودوائه فى نفوس المؤمنين وأعمالهم، وتقرير قاعدة: أنَّ الجنة إنما تكون جزاء الإيمان بالحقيقة والجوهر لا بالتسمية والمظهر [الآيات]: (١٠٩-١١٢)، والتنديد بالخلاف الشكلى بين اليهود والنصارى مع بُعْدهم عن لُبِّ الدِّين وحقيقته، وتعطيلهم لشعائر الله وتعصبهم لما هم عليه من الباطل، ثم تذكيرهم بنعمة الله وتوعدهم بالجزاء - إن أعرضوا- يوم لا تجزى نفسٌ عن نفسٍ شيئا [الآيات]: (١١٣-١٢٣).

ولما كان بنو إسرائيل هم أحفاد إبراهيم عليه السلام، وإليه ينتهى شرفهم وتفضيلهم؛ تناولت السورة بعد ذلك طرفًا من سيرته، فيه: تقرير إمامته عمليًّا بالبيت الحرام، ونظريًّا بمِلَّته الحنيفية السمحة، مع بيان أن هذه الحنيفية: هى حقيقة اليهودية والنصرانية والإسلام، وأنه وصية إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب لأبنائهم الأسباط عليهم الصلاة والسلام، مع بيان أن الخلاف فى القِبْلة والمِلَّة: إنما أساسه التعصُّب، مع أن الكثير [منهم] يعرفون الحق كما يعرفون أبناءهم، وأنَّ واجب المؤمنين: استباق الخيرات، واستقبال قبلة الحق أينما كانوا، [الآيات]: (١٢٤-١٥٠).

ثم أتبعت السورة هذا التطبيق التاريخى ببيان بعض الأصول التى تقوم عليها الشريعة المطهرة: من تقرير مهمة الرسول ﷺ، والوصية بالذكر والشكر والصبر والصلاة والجهاد، وتسجيل سنة الله فى القائمين بالدعوات من الامتحان والاختبار، وعقوبة الكاتمين لآيات الله، والكافرين به، والمنكرين لوحدانيته، وبيان أن التقليد لا يدفع العقوبة، وأن أساس النجاة: أكل الحلال الطيب، ومخالفة الشيطان، [الآيات]: (١٥٢-١٧٦).

كما عَرَضت بعد تقرير هذه الأصول: إلى ما يتَّصل بها من فروع الأحكام المتعلقة بالأفراد فى عقائدهم أو أعمالهم كحقيقة البرِّ، وحكمة القصاص، والوصية، والصيام، والدعاء، والاعتكاف، والحج والعمرة، والمحافظة على الأموال، وتسجيل قاعدة: وجوب مخاطبة الناس بما يعقلون، [الآيات]: (١٧٧-٢٠٣).

وتناولت الآيات بعد ذلك بحوثًا تحليلية فى مواقف الناس بالنسبة للدعوات، من حيث اختلاف طبائعهم وترددهم فى القبول، وأن من سنة الله: امتحانهم فى أنفسهم بالقتال والانتقام، وفى أموالهم بالبذل والعطاء، وأن الجزاء مُرَتَّبٌ على النجاح فى هذا الامتحان، [الآيات]: (٢٠٤-٢١٨).

وعادت بعد هذا البيان إلى تقرير كثير من الأحكام الفرعية المتصلة بالبيوت والمجتمعات، فذكرت حكم الخمر والميسر، والإنفاق والصدقات، وفضل رعاية اليتيم، وحكم نكاح المشركين والمشركات، وآداب مخالطة النساء، وأثر اليمين اللغو والمنعقدة، وأحكام الإيلاء والعدة والطلاق بصوره المختلفة، ثم الإرضاع والمتعة وعدة الوفاة، وصلاة القتال، [الآيات]: (٢١٩-٢٤٢).

ثم أردفت هذا البيان الوافى فى الأحكام الشرعية بتقرير سنة الله تبارك وتعالى فى نهضات الأمم، وأنها إنما تقوم على حُبِّ الموت، ودوام البذل، وتقرير الجهاد، وحسن الطاعات، واحترام النظام، والاعتماد بعد ذلك كله: على تأييد الله، مُؤَيِّدًا ذلك: بقصة طالوت وجالوت، وأن ذلك شأن الناس فى كل زمان ومكان، [الآيات]: (٢٤٣-٢٥٤).

واقتضى هذا السياق العودة إلى التذكير بالأصل الذى تقوم عليه الشرائع والأديان، وهو تنزيه الله تبارك وتعالى ومعرفته معرفة طواعية واختيار، وأن الإيمان وحده هو أساس صلة البشر بالله، وأن سرَّ الحياة لا يعلمه أحد سواه، [الآيات]: (٢٥٥-٢٦٠).

ولما كان المال قوام الحياة؛ عرضت السورة الكريمة لجملة صالحة من أحكام الصدقات والأموال، من الإنفاق فى سبيل الله، والزكاة، والبيع، والربا، والقرض، والدَّيْن، والتجارة، والرَّهْن، [الآيات]: (٢٦١-٢٨٣).

وكان مسْكُ الختام: إعلان التسليم لرب العالمين، والإيمان بوحدة قواعد الدين، وتقرير قاعدة: دفع الحرج عن المُكَلَّفين، وهذا الدعاء والابتهال فى إخبات المؤمنين، وخشوع الصادقين، [الآيات]: (٢٨٤-٢٨٦).

الحروف المفردة فى أوائل السور

(الم) وما شابهها فى أوائل السور القرآنية.

كَثُرت أقوال المفسرين فى ذلك، وأحقُّها بالنَّظر والتقدير آراءٌ ثلاثة[1]:

أنها للفْت النظر للاستماع للقرآن حين يُتلى، فهى أداة تنبيه، وخاصة للمشركين الذين كانوا يعلمون تمام العلم: أنَّ محمدا عليه الصلاة والسلام أمىٌّ لم يقرأ ولم يكتب قبل أن يُوحى إليه هذا القرآن، فنطقه بهذه الحروف على الهيئة التى لا يَحْذقها إلا القرَّاء والكاتبون أمرٌ يستدعى الانتباه ويستلفت النظر.

أو أنها إشارةٌ إلى الإعجاز، كأنه يقول لهم: إنَّ هذه الألفاظ والجُمَل والعبارات والآيات قد رُكبَت من هذه الحروف البسيطة التى تعرفونها جميعا، ومع ذلك فقد أعجزتهم عن الإتيان بمثل هذا التركيب، مع أن هذه هى مادته الأولية بين أيديكم، فلا مَنْدُوحةَ لكم بعد هذا من الإقرار بأن هذا الكتاب المُركَّب هذا التركيب من عند الله لا من صنع البشر.

أو أنها إشارة إلى فضل الكتابة وسموٌ منزلتها، والتفاؤل بأنه كما كانت معرفة البشر للكتابة إيذانًا بانتقالهم من طور إلى طور فى مدَارج الرُّقِى والكمال، فكذلك الاهتداء بهذه الرسالة سيكون انتقالاً جديداً إلى درجة أعلى وأكمل فى مدارج الحضارة الإنسانية والترقى الاجتماعى، وقد جاء القرآن حريصًا على إبراز هذا المعنى حتى كانت أول سورة أنزلت منه فى أرجح الأقوال: ﴿ **اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ** ﴾ [العلق: ١-٥].

وكل ما عدا هذه الآراء الثلاثة من أقوال المفسرين ظنٌّ لا يغنى من الحق شيئًا، ومن طرائف ما ذهب إليه بعضهم فى ذلك استخلاصه هذا التركيب من هذه الحروف فى أوائل السور بعد حذف المكرر منها (نص حكيم قاطع له سر) كأنه يريد أن يقول إنها وصف للقرآن ولا دليل على هذا القول ولا سند له.

---

(١) انظر فى ذلك: تفسير ابن عطية (١/ ١٣٨-١٤١) وتفسير القرطبى (١/ ١٥٤-١٥٧) وابن كثير (١/ ٣٤-٣٧).

القرآن الكريم وأحقيته:

(ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين)

والمراد بالكتاب: القرآن الكريم. والريب: الشك.

فالآية تقرر أن هذا القرآن من شأنه الحق والصدق، فلا يصح أن يخالط أحداً الشك في صدقه وأحقيته وأنه من عند الله تبارك وتعالى، وأن ما فيه هو الخير والهداية للناس. وقد يقف بعض القرّاء على (لا ريب) ويستأنف القراءة بما بعدها فيقرأ: (فيه هدى للمتقين) وهو توجيه متكلّف، وإن صحّ المعنى، ويضعفه ما جاء في فاتحة سورة السجدة (الم. تنزيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين) إذ لا يحتمل المعنى الاستئناف فيها كما احتمله في الأول.

وقد تكرّرت الإشارة إلى أحقيّة القرآن وصدقه وفضله وبركته وإعزازه وسلامته في كثير من الآيات مثل قوله تعالى: ﴿ **وإنَّهُ لَكتَابٌ عزيزٌ (٤١) لا يأْتيه الْبَاطلُ منْ بين يديْه ولا منْ خلْفه تَنزِيلٌ مِّنْ حكيمٍ حميدٍ** ﴾ [فصلت: ٤١]، ﴿ **كتابٌ أنزلْناهُ إلَيْك مُبارَكٌ ليدَّبَّرُوا آياته وَليَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ** ﴾ [ص: ٢٩]، ﴿ **وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْك من الْكتاب هُو الْحقُّ مُصدِّقًا لما بيْن يديْه إنَّ اللَّهَ بعِبَاده لَخبيرٌ بَصيرٌ** ﴾ [فاطر: ٣١].

كما أشارت الآيات أيضاً إلى الأدلة المعقولة المقبولة على هذا الصدق، ونفي الرَّيْب والشك والظِّنَّة في مواضع كثيرة، ومن هذه الأدلة: استقامة نظمه وانسجام معانيه ﴿ **ولَوْ كَانَ مِنْ عند غَيْرِ اللَّه لَوجَدُوا فيه اخْتلافًا كَثيراً** ﴾ [النساء: ٨٢]. وذلك يتضح بإمعان النظر وكثرة التدبر.

ومنها: إعجازه البالغ المحيط الشامل مع التحدي الثابت الدائم ﴿ **قُل لَّئنِ اجتمعت الإنسُ والْجنُّ علَىٰ أن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْله ولَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً** ﴾ [الإسراء: ٨٨]. وسنفرد لهذا بابا خاصا في هذا التفسير - إن شاء الله - عند أول مناسبة[1]

---

(١) عاد الإمام البنا لموضوع أحقية القرآن مرة أخرى عند تفسيره لسورة الرعد، في الآية الأولى منها قوله تعالى ﴿ **الَمر تلْكَ آياتُ الْكتاب وَالَّذي أُنزِلَ إلَيْك مِن رَّبِّك الْحقُّ ولَكنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمنُون** ﴾ [الرعد: ١].

ومنها: أنه جاء على فترة من الرسل، وفى غفلة من النبى ﷺ من مثل ذلك، وبعد أن بلغ السن التى يستبعد معها الكذب والاختلاق والتوهم، وخصوصًا مع من عرف طيلة شبابه بالصادق الأمين: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَٰذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [يونس: ١٥].

ومنها: نزوله على أُمّيّ لم يدخل مدرسة، ولم يتعلم فى جامعة، ولم يقرأ ولم يكتب من قبل ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤٨].

ومنها: موافقته للعقل والمنطق وغزارة ما فيه من العلم والمعرفة، وصحة ما أشار إليه من نُظُم الحياة وقواعد الاجتماع، وانطباق ما فيه على الحقائق الكونية الثابتة مهما ارتقى البحث أو تطورت الكشوف والمخترعات ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [فصلت: ٥٣].

والأدلة والشواهد على ذلك كثيرة متضافرة، كلها تنطق بأن هذا الكتاب فى نظمه وأسلوبه ومقاصده ومعانيه لا يمكن أن يلصق به شك أو ريب فى أنه من عند الله.

الهداية الربانية:

الهدى: الإرشاد والدلالة على الطريق المستقيم، وقد جاء هذا الوصف فى القرآن الكريم مصاحبًا للكتب السماوية جميعًا، فالقرآن هدىً للمتقين، والتوراة هدىً ونور، والإنجيل هدىً وموعظة إلخ.

وقد تقدَّم فى تفسير سورة الفاتحة: أن الله تبارك وتعالى مَنَحَ البشر هدايات هى: هداية الشعور والوجدان والفطرة، ثم هداية الحواس الظاهرة، ثم هداية العقل والتفكير، ثم هداية الشرائع والكتب التى تبصِّر العقل بالخير والشر، وترجِّح أمامه دواعى الخير وتعظه وتزجره عن وساوس الشر، وقد تُكتب هذه الهداية للصالحين من عباد الله تبارك وتعالى ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ ﴾ [الأنعام: ٩٠]، كما ثبتت بأعلى درجاتها للنبىّ ﷺ بهذا الإسلام ﴿ قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ

إبراهيم حنيفًا وما كان من المشركين ﴾ [الأنعام: ١٦١]، وأمرنا الله تبارك وتعالى أن نسأله إياها فى صلواتنا فكان من آياته الفاتحة ﴿ اهدنا الصراط المستقيم ﴾.

المتقون وأوصافهم:

التقوى والاتقاء بمعنى، وأصل المادة: وَقَى يقى، ومنه الوقاية، وهو: ما يحول بين الإنسان وما يكره، وقد ورد لفظ التقوى والأمر بها فى القرآن الكريم مضافًا إلى الله تبارك وتعالى فى كثير من الآيات مثل قوله تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ﴾ [آل عمران: ١٠٢] وقوله: ﴿ فاتقوا الله ما استطعتم ﴾ [التغابن: ١٦] وقوله: ﴿ وتزودوا فإن خير الزاد التقوى واتقون يا أولي الألباب ﴾ [البقرة: ١٩٧]، ﴿ وإياي فاتقون ﴾ [البقرة: ٤١].

وكثيرًا ما تختتم الآيات الكريمة ـ وبخاصة التى تتضمن أحكاما تتصل بالنفس، أو بالشئون الشخصية أو نحوها؛ من الأمور التى لا تقوم عليها الدلائل الحسِّيَّة الظاهرة ـ بالأمر بتقوى الله تبارك وتعالى، وبيان جزاء هذه التقوى فى الدنيا والآخرة، كما قال تبارك وتعالى: ﴿ وأتوا البيوت من أبوابها واتقوا الله لعلكم تفلحون ﴾ [البقرة: ١٨٩]، ﴿ واتقوا الله واعلموا أنكم إليه تحشرون ﴾ [البقرة: ٢٠٣]، ﴿ ومن يتق الله يجعل له مخرجا (٢) ويرزقه من حيث لا يحتسب ﴾ [الطلاق: ٢، ٣]، ﴿ ومن يتق الله يجعل له من أمره يسرا ﴾ [الطلاق: ٤]، ﴿ ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجرا ﴾ [الطلاق: ٥] وسنشير إلى المقصود بهذا الختام عند كل آية إن شاء الله.

كما جاء لفظ التقوى كذلك مضافًا إلى النار، والمراد: التحفُّظ مما يوقع فيها، كما ورد فى قوله تعالى: ﴿ فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين ﴾ [البقرة: ٢٤]، ﴿ يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا وقودها الناس والحجارة عليها ملائكة غلاظ شداد ﴾ [التحريم: ٦].

وقد ورد فى كثير من الآيات أن مثوبة التقوى الجنة مع النجاة من النار: ﴿ وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين ﴾ [آل عمران: ١٣٣] واعتبرت مقياس الكرامة الإنسانية ﴿ إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ [الحجرات: ١٣].

قال القرطبى: التقوى يقال أصلها فى اللغة: قلة الكلام. حكاه ابن فارس، قلت: ومنه الحديث: "التَقِيُّ مُلْجَمٌ والمُتَّقى فوق المؤمنِ والطائع"(١) وهو الذى يتَّقى بصالح عمله وخالص دعائه عذاب الله تعالى، ماخوذ من اتِّقاء المكروه مما تجعله حاجزًا بينك وبينه. قال الشاعر:

فالقت قناعًا دونه الشمس واتقت ... باحسن موصولين كف ومعصم

وخَرَّج أبو محمد عبد الغنى الحافظ من حديث سعيد بن زَرْبى أبى عبيدة عن عاصم بن بَهْدَلَة عن زِرْ بن حُبَيْش عن ابن مسعود قال: "قال يومًا لابن أخيه: يا ابن أخى ترى الناس ما أكثرهم! قال: نعم. قال: لا خير فيهم إلا تائب أو تقى، ثم قال: يا ابن أخى: ترى الناس ما أكثرهم! قلت: نعم. قال: لا خير فيهم إلا عالم أو متعلم

وقال أبو يزيد البسطامى(٢): "المتقى من إذا قال قال لله، ومن إذا عَمِل عمل لله

وقال أبو سليمان الدارانى(٣): "المتقون الذين نزع الله من قلوبهم حب الشهوات

وقيل: المتقى الذى اتقى الشرك وبرئ عن النفاق. قال ابن عطية: وهذا فاسد، لأنه قد يكون كذلك وهو فاسق.

وسأل عمر بن الخطاب رضى الله عنه أُبَيًّا [ابن كعب] عن التقوى. فقال: هل أخذت طريقًا ذا شَوْك؟ قال: نعم. قال: فما عملت فيه؟ قال: تَشَمَّرْتُ وحذرت. قال: فذاك التقوى.. والتقوى فيها جماع الخير كله، وهى وصية الله فى الأولين والآخرين، وهى خير ما يستفيده الإنسان(٤)..

وروى ابن ماجه فى سننه عن أبى أُمامة عن النبىِّ ﷺ أنه كان يقول: ما استفاد المؤمن بعد تقوى الله خيراً له من زوجة صالحة، إن أمرها أطاعته، وإن نظر إليها سَرَّته،

---

(١) ذكره القرطبى فى تفسيره (١/ ١٦١) ولم أقف على أصله.

(٢) هو أبو يزيد طيفور بن عيسى البسطامى وكان جده مجوسيا وأسلم، وهو من أهل بسطام - بلد على الطريق إلى نيسابور - وكان له أخان من الزهاد، وتوفى سنة ٢٦١هـ. انظر: طبقات الصوفية ص١٨، ١٩

(٣) هو أبو سليمان عبد الرحمن بن عطية الدارانى. وداريه قرية من قرى الشام، توفى سنة ٢١٥هـ. انظر: طبقات الصوفية ص ٢٠

(٤) انظر: تفسير القرطبى (١/ ١٦١ ١٦٢).

وإن أقسم عليها أبَرَّتْهُ، وإن غاب عنها حَفظَتْه في نفسها وماله"[1].

وقال سهل بن عبد الله[2]: "لا مُعينَ إلا الله، ولا دليلَ إلا رسوله، ولا زاد إلا التقوى، ولا عمل إلا الصبر عليه، ومن أراد أن تصح له التقوى فليترك الذنوب

وقال طَلْقُ بن حبيب: "التقوى عملٌ بطاعة الله على نور من الله مخافة عقاب الله"

وكان ابو الحسين الزَّنجاني يقول: "من كان رأس ماله التقوى كَلَّتْ الألسُن عن وصف ربحه"

وقيل: أصل التقوى: اتقاء الشرك، وبعده: اتقاء المعاصي والسيئات، وبعده: اتقاء الشبهات.

وقال في "تفسير المنار" ما خلاصته: معنى اتقاء الله تعالى: اتقاء عذابه وعقابه، وإنما تُضاف التقوى إلى الله تعالى تعظيماً لأمر عذابه وعقابه، وإلا فلا يمكن لأحد أن يتقى ذات الله تعالى، ولا تاثير قدرته، ولا الخضوع الفطرى لمشيئته، فالمتقى هو من يحمى نفسه من العقاب، ولا بد في ذلك أن يكون عنده نظر ورشد يعرف بهما أسباب العقاب والآلام فيتقيها.

والعقاب الإلهى الذى يجب على الناس اتقاؤه قسمان: دنيوى، وأخروى. وكل منهما يُتَّقى باتقاء أسبابه وهى أمران: مخالفة دين الله وشرعه، ومخالفة سنته فى نظام خلقه.

فأما عقاب الآخرة، فيُتَّقَى بالإيمان الصحيح، والتوحيد الخالص، والعمل الصالح، واجتناب ما ينافى ذلك من الشرك والكفر والمعاصى والرذائل، وذلك مبين فى كتاب الله وسنة رسوله، وأفضل ما يُستعان به على فهمهما واتباعهما: سيرة السلف الصالح من الصحابة والتابعين والأئمة الأوَّلين من آل الرسول صلى الله عليه وسلم[3] وعلماء الأمصار.

---

(١) رواه ابن ماجه (١٨٥٧) والطبرانى فى "الكبير (٨/ ٢٢٢) وعبد الرزاق (٢٠٦٠٥) عن أبى أمامة رضى الله عنه. وضعف إسناده الألبانى فى ضعيف الترغيب والترهيب برقم (١٢٠٥).

(٢) هو ابو محمد سهل بن عبد الله بن يونس بن عيسى بن عبد الله بن رفيع التسترى، احد ائمة التصوف وعلمائهم والمتكلمين فى علوم الرياضات والإخلاص وعيوب الأفعال. توفى سنة ٢٨٣هـ وقيل: ٢٩٣هـ. انظر: طبقات الصوفية ص٤٨

(٣) بين الإمام ابن القيم رحمه الله أن آل المصطفى صلى الله عليه وسلم، لا يعنى اهل بيته من نسبه وصهره فقط، بل يشمل كل مؤمن آمن برسالته وعمل بها. انظر: (جلاء الأفهام فى الصلاة على خير الأنام) لابن القيم.

وأما عقاب الدنيا، فيجب أن يُستعان على اتقائه بالعلم بسنن الله تعالى فى هذا العالم، ولا سيما سنن اعتدال المزاج وصحة الأبدان - وأمثلتها ظاهرة - وسنن الاجتماع البشرى. فاتقاء الفشل والخذلان فى القتال يتوقف على معرفة نظام الحرب وفنونها، وإتقان آلاتها وأسلحتها التى ارتقت فى هذا العصر ارتقاءً عجيبًا، [وهو المشار إليه بقوله تعالى ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ ﴾ [الأنفال: ٦٠]](١)، كما يتوقف على أسباب القوة المعنوية، من اجتماع الكلمة، واتحاد الأمة، والصبر والثبات، والتوكل على الله، واحتساب الأجر عنده(٢).

الإيمان بالغيب:(٣)

(الذين يؤمنون بالغيب)

الإيمان فى اللغة: التصديق، ويتعدَّى بالباء واللام.

وفى الشرع: التصديق الجازم المقترن بإذعان النفس وقبولها وتسليمها بما أشار إليه حديث جبريل عليه السلام حين قال للنبى ﷺ: فأخبرنى عن الإيمان؟قال: " أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره"(٤) وهو مروى بطوله فى الصحاح.

وآية الإيمان: العمل. وفى كتب العقائد والفرق تفصيلات وتفاريع وكلام طويل عن الإيمان وما يتَّصل به، وفى آيات القرآن الكريم بيان واف لحقيقة الإيمان الشرعى وعلاماته، وكل ما يتصل به سنعرض له فى موضعه إن شاء الله تعالى.

والغيب فى اللغة: كل ما غاب عنك، والغَيَابَة الأجمة وهى مجتمع الشجر يغاب فيه. ويُسمَّى المطمئن من الأرض: الغيب لأنه غاب عن البصر(٥)

---

(١) ما بين معقوفتين ساقط من مقال الإمام وقد اثبته هنا لاهميته فى الكلام كما نرى.

(٢) انظر: تفسير المنار (١ / ١٢٥).

(٣) نشرت فى مجلة (الشهاب) الشهرية فى العدد الرابع الصادر فى غرة ربيع الآخر ١٣٦٧هـ - فبراير سنة ١٩٤٨م.

(٤) رواه احمد (١ / ٨٥) ومسلم (٩٣) والترمذى (١٧٣) والنسائى فى "المجتبى (٥٠٠٥) وابن حبان (١٧٣) وابو يعلى (٢٤٢) والبيهقى فى "الشعب" (٢٧٨) عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه.

(٥) انظر: المعجم الوسيط (٢ / ٦٦٧).

والغيب فى الشرع: كل ما أخبر به الرسول ﷺ مما لا يقع تحت الحسّ فى عالم الشهادة، كعذاب القبر، والحشر، والنشر، والصراط، والميزان، وصفات البارى جل وعلا، ونحو ذلك.

والإيمان بهذا الغيب من صفات المتقين، وهو دليل على حُسن استعداد النفوس لتلقى حقائق الدين والتصديق بها والعمل لها، ولهذا جاء فى صدر هذه الصفات وهو أفضل أنواع الإيمان وأعلاها.

قال سعيد بن منصور: حدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن عمارة بن عمير عن عبد الرحمن بن يزيد قال: كنا عند عبد الله بن مسعود جلوساً فذكرنا أصحاب النبىّ ﷺ وما سبقونا به. فقال عبد الله: إنّ أمر محمد ﷺ كان بيّناً لمن رآه، والذى لا إله غيره ما آمن أحدٌ قط إيماناً أفضل من إيمان بغيب، ثم قرأ: ﴿ الٓمٓ ① ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ② الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ ﴾ إلى قوله: ﴿ الْمُفْلِحُونَ ﴾ وهكذا رواه ابن أبى حاتم وابن مردويه والحاكم فى "مستدركه" من طرق عن الأعمش وقال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه[1]

وروى أحمد وابن مردويه فى "تفسيره" بسنده واللفظ له عن صالح بن جبير قال: قدم علينا أبو جمعة الأنصارى صاحب رسول الله ﷺ بيت المقدس يصلى فيه، ومعنا يومئذ رجاء بن حيوة رضى الله عنه، فلما انصرف خرجنا نشيعه، فلما أراد الانصراف قال: إن لكم جائزةً وحقاً، أحدثكم بحديث سمعته من رسول الله ﷺ. قلنا: هات رحمك الله. قال: كنا مع رسول الله ﷺ ومعنا معاذ بن جبل عاشر عشرة، فقلنا: يا رسول الله هل من قوم أعظم منا أجراً؟ آمنا بالله واتبعناك. قال: ما يمنعكم من ذلك ورسول الله بين أظهركم يأتيكم بالوحى من السماء، بل قوم بعدكم يأتيهم كتاب من بين لوحين يؤمنون به ويعملون بما فيه، أولئك أعظم منكم أجرًا مرتين"[2]

---

(١) رواه الحاكم (٢/ ٢٨٦) وهو موقوف على ابن مسعود وصحح إسناده ابن حجر انظر: تفسير الكشاف بتخريج ابن حجر (١/ ٣٨).

(٢) رواه الطبرانى فى "الكبير (٤/ ٢٣).

وروى الحسن بن عرفة العبدى قال: حدثنا إسماعيل بن عيَّاش الحمصى، عن المغيرة بن قيس التميمى شعيب عن أبيه عن جده قال: قال رسول الله ﷺ: "أى الخلق أعجب إليكم إيماناً؟ قالوا: الملائكة. قال: وما لهم لا يؤمنون وهم عند ربهم. قالوا: فالنبيون. قال: وما لهم لا يؤمنون والوحى ينزل عليهم؟ قالوا: فنحن. قال: ومالكم لا تؤمنون وأنا بين أظهركم؟ قال: فقال رسول الله ﷺ: ألا إن أعجب الخلق إلىَّ إيماناً لَقَوْمٌ يكونون من بعدكم يجدون صُحفًا فيها كتاب يؤمنون بما فيها[1]. قال أبو حاتم الرازى: المغيرة بن قيس المصرى منكر الحديث. وقال الحافظ ابن كثير تعقيباً على هذا: لكن قد روى أبو يعلى فى "مسنده"، وابن مردويه فى "تفسيره"، والحاكم فى "مستدركه" من حديث محمد بن حميد - وفيه ضعف - عن زيد بن أسلم عن أبيه عن عمر عن النبى ﷺ بمثله أو نحوه، وقال الحاكم صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وقد روى نحوه عن أنس بن مالك مرفوعاً والله أعلم.

قال الطبرى: وحدثت عن عمار بن الحسن، قال: حدثنى ابن أبى جعفر عن أبيه عن العلاء بن المسيب رافع عن أبى إسحاق عن أبى الأحوص عن عبد الله قال: الإيمان التصديق.

ومعنى الإيمان عند العرب: التصديق، فيدعى المصدِّق بالشىء قولاً مؤمناً به، ويدعى المصدق قوله بفعله مؤمناً، ومن ذلك قول الله جل ثناؤه: ﴿وما أنت بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِين﴾ [يوسف: ١٧] يعنى: وما أنت بمصدِّق لنا فى قولنا.

وقد تدخل الخشية لله فى معنى الإيمان الذى هو تصديق القول بالعمل. والإيمان كلمة جامعة للإقرار بالله وكتبه ورسله وتصديق الإقرار بالفعل، وإذا كان ذلك كذلك، فالذى هو أولى بتأويل الآية، وأشبه بصفة القوم أن يكونوا موصوفين بالتصديق بالغيب قولاً واعتقاداً وعملاً، إذ كان جل ثناؤه لم يحصرهم من معنى الإيمان على معنى دون معنى، بل أجمل وصفهم به من غير خصوص شىء من معانيه، أخرجه من صفتهم بخبر ولا عقل.

---

(١) رواه الطبرانى فى "الكبير" (١٢/٦٨) عن ابن عباس رضى الله عنهما.

كما أورد فى معنى الغيب عن ابن مسعود وعن ناس من أصحاب النبى ﷺ .

أما الغيب فما غاب عن العباد من أمر الجنة وأمر النار، وما ذكر الله تبارك وتعالى فى القرآن لم يكن تصديقهم بذلك؛ يعنى المؤمنين من العرب من قبل أصل كتاب علم كان عندهم .

وعن قتادة قال : آمنوا بالجنة والنار والبعث بعد الموت وبيوم القيامة . وكل هذا غيب .
وعن الربيع بن أنس : آمنوا بالله وملائكته ورسله واليوم الآخر وجنته وناره ولقائه، وآمنوا بالحياة بعد الموت . فهذا كله غيب .

[الإيمان بالغيب عن بصيرة]

وليس المراد بالإيمان بالغيب التسليم الأعمى بدون دليل أو نظر أو برهان مما يؤدى إلى اعتقاد الخرافات والتصديق بالأوهام، والإيمان بما لا يتفق مع الحقائق العليا التى جاء بها الدين الحنيف، فقد نُهينا عن مثل هذا الإيمان الضعيف المتهافت، وقد أُمرنا بالنظر فى ملكوت السماوات والأرض وتقدير نعمة الله علينا بالإدراك والعقل، واعتُبر التفكر عبادة من أجَلِّ العبادات الموصلة إلى معرفة الخالق جلَّ وعلا وكمال الإيمان به، وجعل العقل مناط التكليف، ومدار الثواب والعقاب، وتردد ذكره فى القرآن الكريم أكثر من أربعين مرة مقروناً بالحثِّ على استخدامه فيما خلق له، فلا يمكن أن يكون معنى ذلك تشجيع الاستسلام للأوهام بدون نظر أو برهان، ولكن المراد ـ والله أعلم ـ: أن طبائع البشر مختلفة، فمنها الحجرى المتصلب المكابر المعاند؛ الذى لا يؤمن إلا بما يرى بعينه ويدركه بحاسته الكثيفة، وقد تدفعه الأهواء والأعراض الفاسدة إلى المكابرة حتى فى هذا المحسوس، وقد وردت الإشارة إلى هذا الصنف من البشر فى كثير من آيات القرآن الكريم من مثل قول الله تبارك وتعالى فى بنى إسرائيل : ﴿ **ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم من بَعْد ذَلك فَهِي كَالْحجَارَة أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ من الْحجَارَة لَما يتفجَّرُ منْهُ الأَنْهَارُ وإِنَّ منهَا لَما يشَّقَّقُ فَيخْرُجُ منْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ منْهَا لَمَا يَهبطُ من خشْيَة اللَّه وما اللَّهُ بِغَافلٍ عمَّا تعْمَلُون** ﴾ [البقرة : ٧٤]، وقوله تعالى : ﴿ **إِنَّ شرَّ الدَّوَابِّ عند اللَّه الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذين لا يعْقلُونَ** (٢٢) **ولَوْ علم اللَّهُ فيهِم خيْرًا لأَسْمعهُمْ ولَوْ أَسْمعهُمْ لَتولَّوْا وَّهُم مُّعْرِضُونَ** ﴾ [الأنفال : ٢٢، ٢٣]، وقوله تعالى :

﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٧٥]، فهؤلاء وأمثالهم لا يمكن أن تنفع فيهم موعظة أو تشرق أرواحهم بحقائق الإيمان.

كما أنَّ من النفوس البشرية المشرق المستنير اللين المستعد لتلقى الحق والإذعان له، وهو من الشفافية والصفاء والإشراق بحيث يدرك الحقائق بحاسة أخرى هى فوق الحس والشمّ والذوق والسمع والبصر، وفى هؤلاء وأمثالهم يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ ﴾ [الزمر: ٢٤].

ولا ينكر هذا التفاوت فى طبائع النفوس البشرية إلا جاحدٌ مكابرٌ من الصِّنف الأول، فإنه مشاهد ملموس.

فالمراد بالذين يؤمنون بالغيب: هو هذا الصنف المشرق الشفاف من النفوس الطيبة اللينة؛ الحسنة الاستعداد لتقبل الحقائق وإن جاءتها عن غير طريق الحواس.

قال الأستاذ الإمام[1] فى هذا المقام ما نصُّه: (وصاحب هذا الاعتقاد واقف على طريق الرشاد، وقائم على أول النهج، لا يحتاج إلا إلى من يدله على المسلك، ويأخذ بيده إلى الغاية؛ فإن من يعتقد بأن وراء المحسوسات موجودات يصدق بها العقل - وإن كان لا يأتى عليها الحس - إذا أقمت له الدليل على وجود فاطر السماوات والأرض المستعلى عن المادة و لواحقها، المتَّصف بما وصف به نفسه على ألسنة رسله، سهل عليه التصديق، وخف عليه النظر فى جلىّ المقدمات وخفيها، وإذا جاء الرسول بوصف اليوم الآخر أو بذكر عالم من العوالم التى استأثر الله بعلمها كعالم الملائكة - مثلاً - لم يشق على نفسه تصديق ما جاء به الخبر بعد ثبوت النبوة، لهذا جعل الله سبحانه هذا الوصف فى مقدمة أوصاف المتقين الذين يجدون فى القرآن هدى لهم.

وأما من لا يعرف من الموجود إلا المحسوس، ويظن أن لا شىء وراء المحسوس وما اشتملت عليه، فنفسه تنفر من ذكر ما وراء مشهوده أو ما يشبه مشهوده، وقلَّما تجد

(١) أى الشيخ محمد عبده رحمه الله.

السبيل إلى قلبه إذا بدأته بدعواك، نعم قد توصلك المجاهدة بعد مرور الزمان فى إيراد المقدمات البعيدة والأخذ به فى الطرق المختلفة، إلى تقريبه مما تطلب، ولكن هيهات أن ينصرك الصبر، أو يخضعه القهر حتى يتم لك منه الامر، فمثل هذا إذا عرض عليه القرآن نبا عنه سمعه، ولم يحمل من نفسه وقعه، فكيف يجد فيه هداية أو منقذاً من غواية؟

ولما كان الإيمان بالغيب يطلق عند الناس على ذلك الاستسلام التقليدى الذى لم يأخذ اللفظ من اللسان، وليس له أثر فى الأفعال، لأنه لم يقع تحت نظر العقل، ولم يلحظه وجدان القلب، بل أغلقت عليه خزانة الوهم، ومثل هذا الذى يسمونه إيماناً لا يفيد فى إعداد القلب للاهتداء بالقرآن، لما كان هذا شأنهم منَّ الله علينا ببيان يشعر بحقيقة ما أراده الله تعالى من معنى الإيمان[1]. فذكر علامات المؤمنين بالغيب الذين ينتفعون بهداية القرآن بالجمل الآتية[2].

إقامة الصلاة:

(ويقيمون الصلاة)

الصلاة: أصلها فى اللغة الدعاء، ومنه قوله عليه الصلاة والسلام: "إذا دُعى أحدكم إلى طعام فليجب، فإن كان مفطراً فليطعم، وإن كان صائما فليصل"[3] أى فليدع، على الأشهر، ولما ولدت أسماء عبد الله بن الزبير أرسلته إلى النبى ﷺ، قالت أسماء: ثم مسحه وصلى عليه أى: دعا له[4] ومنه قوله تعالى: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾ [التوبة:١٠٣] أى ادع لهم، وقال الأعشى:

تقول بنتى وقد قربت مرتحلا … يارب جَنِّب أبى الأوصاب والوجَعَا

عليك مثل الذى صليت فاغتمضـ … ـى نوما فإن لجنب المرء مضطجعا

أى: مثل الذى دعوت به، ومن هذا المأخذ اشتقت الصلاة شرعًا، وقيل: بل هى

(١) إلى هنا انتهى كلام الإمام محمد عبده، والجملة التالية للشيخ محمد رشيد رضا.

(٢) انظر: تفسير المنار (١/١٢٧، ١٢٨).

(٣) رواه أحمد (٢/٥٤٤) ومسلم (١٤٣١) والترمذى (٧٨٠) وابو داود (٢٤٦٠) عن أبى هريرة.

(٤) رواه مسلم (٥٥٨) والطبرانى فى "الكبير (٢٤/١١٩). بلفظ: وصلى عليه، وقد ذكر الحديث الإمام البنا بمعناه، وذلك نظرا لنقله من الإمام القرطبى.

من الصلاة، وهو عرق فى وسط الظهر، وقيل: ماخوذ من اللزوم، أو من صليت العود بالنار إذا قوَّمته ولينته بالصلاء، وقيل: هى اسم علم وضع للعبادة المعروفة فإن الله تعالى لم يُخْل زمانًا من شرع، ولم يُخْل شرعًا من صلاة، هذا ما قال أبو نصر القشيرى.

ومن معانى الصلاة: الرحمة. ومنه: اللهم صلْ على محمد.

والعبادة، ومنه: الآية الكريمة: ﴿وَمَا كَانَ صَلاتُهُمْ عِندَ الْبَيْتِ إِلاَّ مُكَاءً وَتَصْدِيَةً﴾ أى عبادتهم. والقراءة، ومنه: ﴿وَلا تَجْهَرْ بِصَلاتِكَ وَلا تُخَافِتْ بِهَا﴾ اهـ ملخصًا من القرطبى[1].

ويراد بالصلاة شرعًا: العبادة المعروفة من الأقوال والأفعال المفتتحة بالتكبير والمختتمة بالتسليم، وإقامتها: أداؤها بأركانها وسننها وهيئاتها فى أوقاتها.

قال ابن عباس: ويقيمون الصلاة: أى يقيمون الصلاة بفروضها، وحكى الضحاك عنه إقامة الصلاة: إتمام الركوع والسجود والتلاوة والخشوع والإقبال عليها فيها.

وقال ابن قتادة: إقامة الصلاة المحافظة على مواقيتها ووضوئها وركوعها وسجودها.

وقال مقاتل بن حيَّان: إقامتها: المحافظة على مواقيتها، وإسباغ الطهور فيها، وتمام ركوعها وسجودها، وتلاوة القرآن فيها، والتشهد والصلاة على النبى ﷺ، فهذا إقامتها، وقيل: إقامتها دوامها، يقال: قام الشىء، أى دام وثبت، وإلى هذا المعنى أشار عمر بقوله: من حفظها وحافظ عليها حفظ دينه، ومن ضيَّعها فهو لما سواها أضيع.

وهنا بحوث طريفة لطيفة نلمُّ بها فى اختصار وإيجاز لما فيها من فائدة وتنبيه على دقائق الآيات التى ستمر بنا بعد ذلك متصلة بأحكام الصلاة والله المستعان.

الصلاة فى القرآن والسنة:

لم تتعرَّض آيات الكتاب الكريم لتفاصيل أحكام الصلاة فى أوقاتها، أو أعمالها، وإنما عرضت لذلك إجمالاً فى عدة مواضع، منها: قول الله تبارك وتعالى: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلاةِ الْوُسْطَىٰ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ [البقرة:٢٣٨]، ﴿إِنَّ الصَّلاةَ كَانَتْ عَلَى

(١) نقلا عن: تفسير القرطبى (١/١٦٨،١٦٩) بتصرف.

الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا ﴾ [النساء:١٠٣]، ﴿ وَأَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ ﴾ [هود:١١٤]، ﴿ أَقِمِ الصَّلاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴾ [الإسراء:٧٨]، ﴿ وَلا تَجْهَرْ بِصَلاتِكَ وَلا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً ﴾ [الإسراء:١١٠]، ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ [طه:١٣٢]، ﴿ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴾ [العنكبوت:٤٥]، ﴿ إِنَّ الإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا (١٩) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا (٢٠) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا (٢١) إِلاَّ الْمُصَلِّينَ (٢٢) الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلاتِهِمْ دَائِمُونَ ﴾ [المعارج:١٩-٢٣]، ﴿ إِلاَّ أَصْحَابَ الْيَمِينِ (٣٩) فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ (٤٠) عَنِ الْمُجْرِمِينَ (٤١) مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ (٤٢) قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ﴾ [المدثر:٣٩-٤٣]، ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ ﴾ [البينة:٥]، ﴿ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ (٤) الَّذِينَ هُمْ عَن صَلاتِهِمْ سَاهُونَ ﴾ [الماعون:٤، ٥].

ذلك مَثَلٌ مما جاء فى القرآن الكريم عن الصلاة مجملاً وخُصت صلاة الجمعة بآية مفصَّلة، وصلاة الخوف أو القتال بآية مفصَّلة كذلك.

ففى صلاة الجمعة يقول الله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٩) فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٠) وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾ [الجمعة:٩-١١]

وفى صلاة الخوف أو القتال يقول الله تعالى: ﴿ وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِن وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً وَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰ أَن تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴾ [النساء:١٠٢].

كما عرضت الآيات كذلك للطهارة قبلها فى آية المائدة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ﴾ [المائدة:٦].

وقد أورد القرطبى فى هذا الموضع إحصاء لطيفًا فقال:

"فهذه جملة أحكام الصلاة وسائر أحكامها يأتى بيانها فى مواضعها من هذا الكتاب بحول الله تعالى، فيأتى ذكر الركوع وصلاة الجماعة والقبلة والمبادرة إلى الأوقات وبعض صلاة الخوف فى هذه السورة (أى البقرة)، ويأتى قصر الصلاة وصلاة الخوف فى النساء، والأوقات فى هود وسبحان (يعنى الإسراء) والروم، وصلاة الليل فى المزمل، وسجود التلاوة فى الأعراف، وسجود الشكر فى (ص) كل فى موضعه إن شاء الله"(١).

وفاته رحمه الله أن يشير إلى صلاة الجمعة فى سورة الجمعة، وسبحان من لا تأخذه سنةٌ ولا نوم.

ويلاحظ أنَّ ذكر الصلاة فى كثير من الآيات يجىء مقرونًا بالإيمان أولاً، وبالزكاة ثانيًا، وقد يقرن الثلاثة بالعمل الصالح وهو ترتيب ووضع طبيعى، فالإيمان أساس، وهو عمل القلب، والعمل الصالح مجملاً دليل صدق الإيمان، وهو عمل الحس، وأول عمل يطالب به المؤمن هذه الصلاة وهى عبادة البدن، ثم الزكاة والنفقة وهى عبادة المال وضريبة الكسب.

كما يلاحظ أنَّ الآيات تطالب بإقامة الصلاة لا بالصلاة مطلقًا؛ لأن المقصود ليس أداء الصلاة أداء شكليًا، ولكن المقصود أداؤها أداءً حقيقيًا بكمال صورتها الظاهرة، وتوفر الخشوع، وحضور القلب فيها، وهذا الحضور هو حقيقتها الباطنة.

أما السنة المطهرة، فقد جاءت مفصلة لكل ما أجمله القرآن الكريم من أحكامها فأوقاتها وأركانها، وفرائضها، وسننها، ونوافلها، وكيفياتها، وكل ما يتصل بها قولاً وعملاً، كلها مفصلة فى السنة، وأجمل ذلك رسول الله ﷺ فى قوله: "صلوا كما رأيتمونى أصلى" رواه البخارى(٢).

---

(١) انظر: تفسير القرطبى (١/١٧٧).

(٢) رواه البخارى (٦٣١) و(٦٠٠٨) و(٧٢٤٦) والدارمى (١٢٥٣) وابن حبان (٢١٣١) و(١٦٥٨) والبيهقى فى "السنن" (٣/٣٠١) و(٤/٢٩٦) وابن خزيمة (٣٩٧) و(٥٨٦) والبخارى فى "الأدب المفرد" (٢١٣) عن أبى سليمان مالك بن الحويرث رضى الله عنه.

حكم تارك الصلاة فى الفقه الإسلامى:

وقد أجمع فقهاء المسلمين على أن من ترك الصلاة جاحداً لفرضيتها ومنكرًا لوجوبها خارجٌ من الإسلام مرتدٌ عنه لأنه كـذَّب الله ورسوله، واختلفوا فيمن تركها تكاسلاً وإهمالاً؟ فأما الجمهور منهم فقد ذهب إلى أنه ارتكب كبيرة من أشد الكبائر ولكنه لا يكفر بذلك.

وذهب بعض الأئمة إلى أنه يكفر بهذا الترك. وتفصيل ذلك فى موضعه من كتب الفقه، وإنما ألممنا هنا بهذه الإشارة لبيان ما لهذه الفريضة من منزلة فى الإسلام.

كيف فرضت الصلاة ومتى فرضت؟

الجمع بين الأقوال الواردة فى ذلك يعطينا هذه الصورة: أنها فُرضت على ثلاث مراحل، ففى أوائل البعثة فرضت ركعتان بالغداة، وركعتان بالعشى، وصلاة الليل، ودليل القائلين بهذا ما نزل من الآيات فى مكة وفيها الأمر بالصلاة، وما ورد من ان خديجة رضى الله عنها صلَّت مع النبى ﷺ، وقد ثبت أنها توفيت قبل الإسراء على أرجح الأقوال فى وقته وهو قبل الهجرة بسنة، ونقله العينى عن أبى إسحاق الحربى ويحيى بن سلام قال: ويشهد له قوله تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالإِبْكَارِ﴾، وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ ① قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾.

ثم زيد عددها فى ليلة الإسراء إلى خمس صلوات ركعتين ركعتين إلا المغرب فكانت ثلاثًا فى أرجح الأقوال. وقيل: بل كانت اثنتين أيضا. ويشهد له حديث عائشة رضى الله عنها الذى رواه البخارى قالت: "فرض الله الصلاة حين فرضها ركعتين ركعتين فى الحضر والسفر، فأُقِرَّت صلاة السفر اثنتين، وزِيدَ فى صلاة الحضر"[1] ثم زيدت ركعاتها بعد ذلك فى السنة الثانية من الهجرة إلى العدد المعروف فى الظهر والعصر والعشاء والمغرب.

وبهذا التصوير يجمع بين كل الأقوال الواردة فى وقت فرضية الصلاة وكيفيتها.

---

(١) رواه البخارى (٣٤٣) ومسلم (١٥٦٨) والنسائى فى "المجتبى" (٤٥٣) وابو داود (١١٩٨) وابن حبان (٢٧٣٦) ومالك (٣٢٦) عن عائشة رضى الله عنها.

أثر الصلاة الروحى:

الإيمان الصادق بالله تبارك تعالى يُحدث ولا شك فى النفس شوقًا ولوعةً وتحرُّقًا وحنينًا وحبًّا يصل إلى حد الولَه بمناجاته سبحانه وتعالى وذكره والتبتل له، والتذلل بين يديه، وليس لهذا كله من مظهر إلا "الصلاة" التى هى الصلة بين العبد وربه والتى يقول عليها النبى ﷺ : "أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد" رواه مسلم(1).

وإذا أكثر العبد من الصلاة مستصحبًا هذا الشعور أحدثت الصلاة فى نفسه أثرًا عميقًا من التلذذ، ووجد لها حلاوة فى قرارة فؤاده، وإشراقًا فى حنايا قلبه بجعلها ربيع صدره، وقرَّة عينه، وكذلك كان الصالحون يقولون، وكذلك قال رسول الله ﷺ : "وجعلت قرة عينى الصلاة" رواه أحمد والنسائى والحاكم فى المستدرك والبيهقى فى السنن(2).

وكان ﷺ "إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة" رواه أحمد وأبو داود(3)

ومن هنا كانت الصلاة ولا شك خير مهذِّب للأرواح، ومطهِّر للنفوس من أدران الإثم والفساد ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

---

(١) رواه أحمد (٣/ ١٥٠) ومسلم (٤٨٢) وأبو داود (٨٧٥) والبيهقى فى السنن (١/ ٢٥٦) والنسائى فى "المجتبى (١١٣٦) وفى الكبرى (٧٢٣) وابن حبان (١٩٢٨) وأبى يعلى (٦٦٥٨) والطبرانى فى "الكبير (١٠/ ٧٩) عن أبى هريرة رضى الله عنه.

(٢) رواه أحمد (٤/ ٢٠١) والنسائى فى "المجتبى (٣٩٤٠) وفى الكبرى (٨٨٨٦) و (٨٨٨٨) والبيهقى فى "السنن" (١٠/ ٢٣٦) والحاكم (٢/ ١٧٤) وقال: صحيح على شرط مسلم، والطبرانى فى "الصغير (٧٤٢) وفى "الأوسط" (٥٢٠٣) وفى "الكبير (١/ ٣٣٧) وأبو يعلى (٣٥٣٠) وعبد الرزاق فى "المصنف (٧٩٣٩) عن أنس بن مالك رضى الله عنه. وحسن إسناده محققو المسند (١٩/ ٤٠٤،٤٠٥) (١٢٢٩٣).

(٣) رواه أحمد (٦/ ٥٣٧) وأبو داود (١٣١٩) والبيهقى فى "الشعب (٣١٨١) و (٣١٨٢) عن حذيفة ابن اليمان رضى الله عنه بلفظ: "كان ﷺ إذا حزبه أمر صلى . ورواه مسلم (٦٨٦١) عن ابن عباس رضى الله عنه.

أثر الصلاة الاجتماعى:

ولا يقف أثر الصلاة عند هذا الحد الفردى، بل إن الصلاة - كما وصفها الإسلام بأعمالها الظاهرة وحقيقتها الباطنة - منهاج كامل لتربية الأمة الكاملة. فهى بأعمالها البدنية وأوقاتها المنتظمة خير ما يفيد البدن، وهى بآثارها الروحية وأذكارها وتلاوتها وأدعيتها خير ما يهذب النفس ويرقق الوجدان، وهى باشتراط القراءة فيها - والقرآن الكريم منهاج ثقافة عالية شامل - تغذى العقل، وتمدُّ الفكر بكثير من حقائق العلوم والمعارف، فيخرج المصلى المتقن وقد صحَّ بدنه، ورقَّ شعوره، وغذى عقله. فأىُّ كمال فى التربية الإنسانية الفردية بعد هذا؟

ثم هى باشتراط الجُمُعة والجماعة تجمع الأمة خمس مرات فى كل يوم، ومرة فى كل أسبوع على المعانى الاجتماعية الصالحة؛ من الطاعة والنظام؛ والحب والإخاء والمساواة بين يدى الله العلى الكبير، فأى كمال فى المجتمع أتم من أن يقوم على هذه الدعائم ويشيد على هذه المُثُل العالية؟

كمال الصلاة:

وكمال الصلاة فى ثلاثة أمور: المحافظة على وقتها المحدد، وإتقان ظاهرها بتجويد الأقوال واستيفاء الأعمال، وإتقان باطنها بحضور القلب والخشوع.

وهذا فى الحقيقة هو المقصود بإقامة الصلاة فمن فعل ذلك فقد أقامها، ومن قصر فى شىء منها فهو غير مقيم لها.

ويقول بعض المخدوعين: إذا كانت حقيقة الصلاة والمقصود منها عبادة الله وحضور القلب وتزكية النفس فما قيمة هذه الأعمال الظاهرة، وإنما ينظر الله من عباده إلى قلوبهم؟ وقد خدع هؤلاء أنفسهم، فإن المعانى الوجدانية لا بد لها من رموز حسيَّة حتى تظهر فى صورتها وتثبت فى النفوس بتكرارها.

فالخشوع ومحبة الله والإخبات له كلها معان وجدانية تظهر فى هذه الأقوال والأفعال التى يأتى بها المصلى التى جاءت فى الصلاة الإسلامية على نحو من الكمال عجيب من التكبير والركوع والسجود والجلوس حتى تشترك الجوارح كلها فى هذه العبادة، ويصدر عنها على كل الصور والأوضاع الممكنة فى تعظيم الله تبارك وتعالى وتقديس عظمته

وجلاله، وبتكرار هذه الأعمال الرمزية تثبت فى النفس هذه المعانى الوجدانية، فلا بد من ربط الأعمال بالأحاسيس والوجدانات. ومن قال غير ذلك فإنما يغالط نفسه ويريد أن يفر من أعباء التكاليف وما هى بالحقيقة بأعباء وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين.

علاج الوسوسة:

ويقول بعض آخر: إنَّ جمع القلب فى الصلاة على الله تبارك وتعالى يكاد يكون مستحيلاً، فإنَّ الخواطر والوساوس تنتاب الإنسان وتتراكم عليه إذا دخل فى الصلاة، ويكون التخلص منها من أعسر الأمور وأشقها وأصعبها فهل من علاج نافع فى ذلك؟.

والجواب: أن من أنفع ما يفيد فى هذا الأمر، الاجتهاد فى الاستحضار أولاً، وجمع القلب عند استقبال القبلة وقبل التكبيرة، ثم التكبير مع استحضار معناه، ثم متابعة التلاوة مع استحضار مقاصد الآيات الكلية، ثم استصحاب معرفة الحكمة فى كل قول أو عمل مع الإتيان به، ومنْ واظب على ذلك بشىء من الإجهاد أولاً سهل عليه أخيراً ووجد لذلك لذةً وحلاوةً وفائدةً محققة إن شاء الله، وأصبح بتوفيق الله من المقيمين للصلاة.

الإنفاق فى سبيل الله:

(ومما رزقناهم ينفقون)

الرزق: العطاء، **ورزقناهم**: أعطيناهم، وهو من رزقه يرزقه رَزْقًا بالفتح وهو المصدر، وبالكسر الاسم، وجمعه أرزاق، والرازقية: ثياب كتان بيض. والرزق بلغة أزد شنوءة: الشكر، ومنه قوله عز وجل: ﴿ **وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ** ﴾ أى شكركم، ويقول: رزقنى أى شكرنى[1].

والرزق عند الجمهور: ما صحَّ الانتفاع به حلالاً كان أو حرامًا، وذهب بعضهم إلى أن الحرام لا يسمى رزقًا، وأن الرزق مشروط بما لا يملك. وهو خلافٌ لا ثمرة له فى المقصود من الآيات.

---

(١) انظر: مختار الصحاح ص ٢٤١

والإنفاق: إخراج المال من اليد، ومنه: نفق البيع، أى: خرج من يد البائع إلى المشترى، ونفق الزاد فنى وفرغ.

واختلفوا فى المراد بالإنفاق هنا. فقيل: الزكاة المفروضة، روى هذا عن ابن عباس لقرنها بالصلاة.

وقيل: نفقة الرجل على أهله، وروى ذلك عن ابن مسعود، لأن ذلك أفضل النفقة.

روى مسلم عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: "دينار أنفقته فى سبيل الله، ودينار أنفقته فى رقبة، ودينار تصدقت به على مسكين، ودينار أنفقته على أهلك، أعظمها أجراً الذى أنفقته على أهلك" [1].

وروى عن ثوبان قال: قال رسول الله ﷺ: "أفضل دينار ينفقه الرجل: دينار ينفقه على عياله، ودينار ينفقه على دابته فى سبيل الله عز وجل، ودينار ينفقه على أصحابه فى سبيل الله" قال أبو قُلابة: وبدأ بالعيال، ثم قال أبو قلابة: وأى رجل أعظم أجراً من رجل ينفق على عيال صغار يعفهم أو ينفعهم الله به ويغنيهم[2].

وقيل: صدقة التطوع، وروى عن الضحَّاك؛ نظراً إلى أن الزكاة لا تأتى إلا بلفظها المختص بها وهو الزكاة. قال الضحَّاك: كانت النفقة قرباناً يتقربون به إلى الله عز وجل على قدر جهدهم حتى نزلت فرائض الصدقات الناسخات فى براءة، وقيل: هو عام، وهو الصحيح. ملخصا من القرطبى[3].

وأقول: إنَّ الأمر أعمق من التحديد. والمراد به أولاً ـ والله أعلم ـ: بيان أثر التقوى والإيمان الصحيح فى النفوس الطيعة المستعدة للخير من زهادة فى أعراض هذه الحياة الدنيا، ومحبة لإشاعة الخير فى المجتمع، ومبادرة إلى الإيثار والبذل فى سبيل إسعاد البشر أو تخفيف آلامهم، وذلك غير قاصر على وقت أو قَدْر، فالذى تتاثر نفسه بهذه المشاعر ينفق مما رزقه الله على نفسه وعياله وعلى الناس تطوعاً وفريضة بالليل وبالنهار وفى كل فرصة تتاح له.

---

(١) رواه أحمد (٣/٢٤٣) و (٩٨١٨) ومسلم (٩٩٥) والنسائى فى "الكبرى" (٩١٨٣) والبيهقى فى "الشعب" (٨٧١٧) عن أبى هريرة رضى الله عنه.

(٢) رواه أحمد (٦/٣٧٧) ومسلم (٩٩٤١) وابن ماجه (٢٧٦٠) عن ثوبان بن بجدد.

(٣) انظر: تفسير القرطبى (١/١٧٧-١٧٩) بتصرف شديد.

سياسة القرآن فى الإنفاق:

وتدور سياسة القرآن الكريم فى الإنفاق على هذه القواعد:

١- الترغيب فى الإنفاق فى سبيل الله، ومثال ذلك قول الله تبارك وتعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢١٦].

٢- الترهيب والتخويف من البخل وكنز المال: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٤) يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ [التوبة: ٣٤، ٣٥].

٣- التحذير من الإسراف والتنبيه إلى التوسط: ﴿إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا﴾ [الإسراء: ٢٧]، ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ [الإسراء: ٢٩]، ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان: ٦٧].

٤- إيثار الأقرب فالأقرب والأحوج فالأحوج: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ [البقرة: ٢١٥]، ﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ (٢٤) لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ [المعارج: ٢٤، ٢٥].

٥- اللين فى الرد عند الاعتذار: ﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا﴾ [الإسراء: ٢٨].

٦- التنزُّه عن المنّ والأذى عند العطاء: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا﴾ [البقرة: ٢٦٤].

٧- ابتغاء وجه الله تبارك وتعالى وطيب النفس بالنفقة: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٦٥]، ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ

نفقاتهم إلا أنهم كفروا بالله وبرسوله ولا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى ولا ينفقون إلا وهم كارهون﴾ [التوبة: ٥٤].

٨- افتراض الزكاة على القادرين لتنفق في وجوه من ضروريات الإصلاح الاجتماعي: **﴿إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم﴾** [التوبة: ٦٠].

٩- الإشادة بفضل الإيثار والتطهر من الشح: **﴿والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون﴾** [الحشر: ٩]، **﴿ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا (٨) إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا﴾** [الإنسان: ٨، ٩].

١٠- تفضيل السر على العلانية إلا لحكمة: **﴿إن تبدوا الصدقات فنعما هي وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم ويكفر عنكم من سيئاتكم والله بما تعملون خبير﴾** [البقرة: ٢٧١].

ولا شك أن لهذه السياسة أثرها البالغ في صلاح المجتمع الإنساني وتحقيق معنى التكافل والعدالة واستقامة الأوضاع فيه، ولا شك أن من لاحظها وأنفق مما رزقه الله في حدود قواعدها مع إقامة الصلاة والإيمان بالغيب فهو من خيار المتقين المهتدين بهداية القرآن الكريم.

أفضل نظام اقتصادي:

ولا شك أن القرآن بسياسته هذه في الإنفاق قد أقام الاقتصاد الاجتماعي على المزج بين أصلين أساسيين أولهما: الاعتراف بمواهب الفرد، وحقه في ثمرات كسبه، وعدّ الحدّ من جهوده في هذه السبيل - ما دام يكتسب من حلال طيب لا إثم فيه ولا عدوان - وهذا هو الأساس الذي قام عليه النظام الذي يسمونه في هذا العصر بـ (الرأسمالية) وهو وحده لا يؤدي إلى صلاح المجتمع، أو استقرار الأمور بين الناس على وفاق وصفاء، فكان لا بد من المزج بينه وبين الأصل الثاني وهو: تقرير حق المجتمع في كسب الفرد،

ووجوب التكافل بين أبناء الأمة الواحدة وهو الأساس الذى قام عليه النظام الذى يسمُّونه فى هذا العصر بـ (الشيوعية) وهو وحده لا يؤدى كذلك إلى صلاح المجتمع أو استقرار الأمور فيه بين الناس على وفاق وصفاء، فكان لا بد من المزج بينه وبين الأصل الأول، فجاء نظام القرآن بهذا المزج بين أفضل ما فى النظامين وقدمه للناس سائغًا فى صورة (اشتراكية معقولة) عمادها تقديس الأخوة، وروحانية العاطفة، وحب الخير، والإيمان بالجزاء فى الدنيا والآخرة، وليس ذلك فحسب فإن من النفوس من لا تهزه هذه النواحى وحدها، بل لاحظ أيضًا وجوب تدخُّل الدولة وحماية هذا السمو بالتشريع، بل بالقتال إذا احتاج الأمر عند اللزوم، ومن هنا قال الخليفة الأول رضى الله عنه: "والله لو منعونى عقالاً كانوا يؤدونها لرسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعها"(١).

تقريب:

كما لاحظ الإسلام بأوضاعه الاقتصادية الدقيقة فى الكسب والإنفاق التقريب بين الطبقات بحيث ضاقت الشقة بين الثروة والفقر إلى أقصى حد . فمن حيث الأغنياء حدَّد أمامهم أبواب الكسب، وفتح لهم أبواب الإنفاق، وفرض عليهم الزكاة، وحرم الربا، وحيل بينهم وبين الترف، ولم تعتبر ثروتهم فى عرف المجتمع الإسلامى مظهراً من مظاهر التميز والاستعلاء، وأنذروا بأشد الوعيد فى الدنيا والآخرة إذا لم يؤدُّوا حقَّ الله والناس فى المال.

ومن حيث الفقراء رفع عنهم معنى النقص الاجتماعى بسبب الفقر، وفرض عليهم العمل، وفتح أمامهم أبوابه، وجُعلوا عند العجز فى ضمان الأقرباء أولاً، والأغنياء ثانيًا، وبيت مال الدولة ثالثًا، وتقرر بالتشريع حقهم المعلوم فى أموال الأثرياء، ثم ألزمت الدولة بعد ذلك بملاحظة هذا التوازن والمبادرة إلى المحافظة عليه كلما عرضت له عوارض الاختلال، ووضعت فى يدها كل السلطات التشريعية والتنفيذية اللائقة لإصلاح الحال، وليس بعد ذلك زيادة لمستزيد ﴿ وَلَوْ كَانَ من عند غَيْرِ اللَّه لَوَجدُوا فيه اخْتلافًا كَثيراً ﴾ [النساء: ٨٢].

(١) رواه البخارى (٧٢٨٥) ومسلم (٢٠) والترمذى (٢٦٠٧) والنسائى فى "المجتبى (٢٤٤٣) و(٣٩٧٠) وابو داود (١٥٥٦) عن أبى هريرة رضى الله عنه.

الإيمان بالكتب:

﴿ **وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (٤) أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** ﴾ [البقرة: ٤، ٥].

بعد أن وصف الله المتقين بالإيمان بالغيب، وأوضح أمثلته مما يطلق عليه علماء العقائد "السمعيات" وبإقامة الصلاة، وبالإنفاق مما رزقهم الله، أثبت لهم وصفًا رابعًا هو الإيمان بما أنزل على محمد ﷺ، وما أنزل من قبله على أنبياء الله ورسله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، ووصفًا خامسًا وهو: الإيقان بالآخرة.

والذى أنزل على محمد ﷺ هو القرآن الكريم، ومن أسمائه: الفرقان، والذكر، والنور، والشفاء[١].

والذى أنزل على الذين من قبله كتب كثيرة، وصحف إبراهيم وموسى، وإنجيل عيسى، وزبور داود. والمعروف فى العالم اليوم من الكتب السماوية: القرآن، وهذه الثلاثة الأخيرة: التوراة، والإنجيل، والزبور بأيدى أهل الكتاب من اليهود والنصارى ويجمعها عندهم (الكتاب المقدس) الذى يتألف من العهدين القديم والجديد.

ذكر القرآن الكريم صحف إبراهيم فى آية واحدة من سورة الأعلى مقرونة بصحف موسى فى قوله: ﴿ **إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الأُولَىٰ (١٨) صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ** ﴾ [الأعلى: ١٨، ١٩].

وذكر زبور داود فى آية من سورة النساء: ﴿ **إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا** ﴾ [النساء: ١٦٣].

وذكر التوراة وحدها مثنيًا عليها بالصدق والخير والهداية والنور فى كثير من الآيات منها قوله تعالى: ﴿ **إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلاً وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ** ﴾ [المائدة: ٤٤].

---

(١) النور والشفاء صفتان للقرآن. وأما أسماؤه فأربعة: القرآن، والكتاب، والفرقان، والذكر. (مجد مكى).

كما ورد ذكر الألواح التى تلقَّاها موسى من ربه فى سورة الأعراف موصوفة بأحسن الأوصاف: ﴿ وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ ﴾ [الأعراف: ١٤٥] وهل الألواح من التوراة أو هى كتاب غيرها أوحى الله به إلى موسى عليه السلام أيضا قولان، وأرجِّح أنها منها إذ إن اسم التوراة يطلق على ما أنزل على موسى عليه السلام من صحف وكتب. وإن ورد فى بعض الآثار أن الله أنزل على موسى صحفًا غير التوراة.

وذكر الإنجيل فى القرآن وحده أحيانًا، ومقرونًا بالتوراة على أنه مصدِّق لها أحيانًا أخرى.

ومن الأول قول الله تبارك وتعالى: ﴿ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [المائدة: ٤٧].

ومن الثانى قوله تعالى: ﴿ وَقَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [المائدة: ٤٦].

كما ذُكرت الكتب الثلاثة مقرونة فى آية واحدة فى مواضع عدة على أنه يصدِّق بعضها بعضا فى الهداية منها فاتحة سورة آل عمران: ﴿ الم (١) اللَّهُ لا إِلَٰهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ (٢) نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ (٣) مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ ﴾ [آل عمران: ١-٤].

ومنها قوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ ﴾ [التوبة: ١١١].

وقد افترض الله على النبىِّ ﷺ، وعلى أمته المسلمة الإيمان بكل هذه الكتب السابقة والأنبياء السابقين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين كما قال تعالى: ﴿ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ [البقرة: ١٣٦].

وقال تعالى: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

وقال فى آية ثالثة: ﴿فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ [الشورى: ١٥].

وفى آية رابعة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِن قَبْلُ وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً بَعِيدًا﴾ [النساء: ١٣٦].

كما عاب على كثير من أهل الكتاب أنهم يؤمنون ببعض هذه الكتب ويكفرون بالبعض الآخر: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ﴾ [البقرة: ٩١] وفى سورة النساء: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً (١٥٠) أُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ [النساء: ١٥٠، ١٥١].

وجاء فى بعض الآثار ذكرٌ لعدد الكتب المنزلة السابقة وبعض ما أنزل منها على الأنبياء السابقين غير هذه الأربعة، فقد روى القرطبى[١] عن أبى ذر قال: قلت: يا رسول الله كم كتابًا أنزل الله؟ قال: مائة كتاب وأربعة كتب، أنزل الله على شيث خمسين صحيفة، وعلى أخنوخ ثلاثين صحيفة، وعلى إبراهيم عشر صحائف، وأنزل على موسى قبل التوراة عشر صحائف، وأنزل التوراة والإنجيل والزبور والفرقان"[٢]

وقال القرطبى: أخرجه الحسين الآجرى وأبو حاتم البستى[٣]

---

(١) فى تفسيره (١/ ١٨٠).

(٢) رواه ابن حبان (٣٦١) وأبو نعيم فى الحلية (١/ ١٦٦-١٦٨) عن أبى ذر رضى الله عنه. وقال الشيخ شعيب الأرناؤوط: إسناده ضعيف جدا. انظر: صحيح ابن حبان (٢/ ٧٩، ٨٠).

(٣) انظر: تفسير القرطبى (١/ ١٩٧)

وقد أورده السَّفَّارينى فى "عقيدته" وفى "شرحها"[1] عند الكلام على الإيمان بالرسل مطوَّلاً عن صحيح ابن حِبَّان ثم قال: وقد تكلم عليه الولىُّ العراقى، وردَّ على ابن حبان جماعةٌ من الحفاظ لإدخاله هذا الحديث فى الصحيح.

ونقل عن ابن تيمية عن الإمام أحمد بن حنبل أنه كان يقول: يجب الإيمان بالرسل عليهم الصلاة والسلام، والإقرار بهم فى الجملة، مع الكفِّ عن عددهم، وكذلك ذكر محمد بن نصر المَرْوَزى وغيره من أئمة السلف قال: وهذا يبيِّن أنهم لم يعلموا عدد الكتب والرسل، وأنَّ حديث أبى ذر لم يثبت عندهم[2].

وبما أنَّ القرآن الكريم والسنة الثابتة لم يتعرَّضا لذكر الكتب بالتفصيل، كما لم يتعرَّضا لما فى أيدى بعض الأمم والطوائف من كتب كالبراهمة والبوذية والكونفوشيوسية والزرادشتية وغيرها، فمن الواجب أن نقف عند ذكر الله ورسوله، وأن نؤمن بما افترض علينا أن نؤمن به.

ومن تمام الفائدة أن نتناول فى بحث موجز "شخصية" كل كتاب من هذه الكتب الأربعة، وماذا يراد به فى الماضى والحاضر؟

القرآن الكريم:

الكتاب الذى أنزله الله على محمد ﷺ وهو: "المجموع فى المصاحف، المحفوظ فى الصدور، المقروء بالألسنة، المعروف بين الناس"

نزوله مُنَجَّمًا:

نزل مفرَّقًا بحسب الحوادث فى نحو اثنتين وعشرين سنة وشهرين واثنتين وعشرين يومًا على أرجح الأقوال، وكان تنجيمه مثار الاعتراض من المشركين، وقد ذكر القرآن ذلك ورد عليه، فقال فى سورة الإسراء: ﴿ **وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلاً** ﴾ [الإسراء: ١٠٦].

وقال فى سورة الفرقان: ﴿ **وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَٰلِكَ**

---

(١) المسمى: لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية شرح الدرة المضية فى عقيدة الفرقة المرضية.

(٢) انظر: لوامع الأنوار (٢ / ٢٦٣، ٢٦٤).

لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً (٣٢) وَلا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلاَّ جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴾[الفرقان : ٣٢، ٣٣] .

أول ما نزل من القرآن:

وكان أول نزوله بمكة في غار حراء، واستمرَّ ينزل بمكة من رمضان سنة ٤١ إلى ربيع الأول سنة ٥٤ من ميلاده ﷺ ، ونسبة إلى ما نزل منه في هذه الفترة يساوى ١٩ / ٣٠ من مجموعه، ويسمى هذا القسم المكي لذلك. ونزل الباقى بالمدينة من ربيع الأول سنة ٥٤ إلى ذى الحجة سنة ٦٣ من ميلاده ﷺ ، وهى السنة العاشرة من الهجرة، وما نزل من القرآن فى هذه الفترة يسمى المدنى لذلك.

وأول آياته نزولاً على أرجح الأقوال :﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ [العلق : ١ ٥] وقد نزلت في رمضان في غار حراء، وسُمِّيَت ليلة النزول ليلة القدر : ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ (١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ (٢) لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ (٣) تَنَزَّلُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ (٤) سَلامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ ﴾ .

ووصفها القرآن بالبركة والرحمة فى سورة الدخان : ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ (٣) فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ (٤) أَمْرًا مِّنْ عِندِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ (٥) رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ [الدخان :٣-٦] .

ولا خلاف فى أنها كانت فى رمضان لقول الله تعالى : ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ ﴾ [البقرة :١٨٥] ولأن رمضان هو الشهر الذى اعتاد الرسول ﷺ قبل البعثة أن يعتكف فيه بالغار ويتحنَّث ويتعبَّد .

روى ابن إسحاق عن وهب بن كَيْسان عن عبيد بن عمير بن قتادة الليثى قال : كان رسول الله ﷺ يُجَاور[١] فى حراء كل سنة شهراً، وكان ذلك مما تحنَّثُ به قريش فى الجاهلية[٢] .

---

(١) اى يعتكف .

(٢) انظر: سيرة ابن هشام (١ / ٢٥٣) .

ثم قال: حتى إذا كان الشهر الذى أراد الله تعالى فيه ما أراد من كرامته من السنة التى بعثه الله تعالى فيها، وذلك الشهر رمضان، خرج رسول الله ﷺ إلى حراء كما كان يخرج لجواره الخ [١]... فهو ينصُّ على أنَّ هذا الشهر هو رمضان.

وأما تحديد الليلة ففيه خلاف كثير، كخلافهم فى ليلة القدر، ويرجِّح ابن إسحاق أنها كانت ليلة السابع عشر من الشهر، مستأنسًا بقول الله تبارك وتعالى: ﴿ **إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ** ﴾ [الأنفال: ٤١] والمراد بيوم التقاء الجمعين: يوم التقاء المسلمين والمشركين ببدر، وقد كان يوم الجمعة ١٧ رمضان من السنة الثانية للهجرة[٢].

وحكى القسطلانى فى شرحه على البخارى[٣] خلاف العلماء فى تحديد هذه الليلة على أقوال كثيرة، ومنها القول الذى رجَّحه ابن إسحاق. وقال: إنه رواه ابن أبى شيبة والطبرانى من حديث زيد ابن أرقم[٤].

آخر ما نزل من القرآن:

وآخر آياته نزولاً فى أرجح الأقوال: قول الله تعالى: ﴿ **الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا** ﴾ [المائدة: ٣].

حكى الطبرىُّ أنَّ ذلك يوم عَرَفة عام حج النبىِّ ﷺ حجة الوداع، ولم ينزل على النبىِّ ﷺ بعد هذه الآية شىء من الفرائض ولا تحليل شىء ولا تحريمه، وأنَّ النبىَّ ﷺ لم يعش بعد نزول هذه الآية إلا إحدى وثمانين ليلة، وروى ذلك عن ابن عباس والسدى وابن جريج[٥].

وروى الشيخان عن طارق بن شهاب قال: قالت اليهود لعمر بن الخطاب رضى الله عنه: إنكم لتقرءون آية لو نزلت فينا لاتخذناها عيدا، فقال عمر: إنى لأعلم حين أنزلت،

---

(١) سيرة ابن هشام (١ / ٢٥٤).

(٢) المصدر السابق (١ / ٢٥٨، ٢٥٩).

(٣) انظر: إرشاد السارى للقسطلانى (٣ / ٤٣١-٤٣٧) طبعة دار الفكر.

(٤) رواه ابن ابى شيبة (٢ / ٤٨٩) والطبرانى فى الكبير (٥ / ١٩٨).

(٥) انظر: تفسير الطبرى (٤ / ٤١٨، ٤١٩).

وأين أنزلت، وأين رسول الله ﷺ حين أنزلت: أنزلت يوم عرفة، وأنا والله بعرفة في يوم جمعة يعني: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾[1]

وروى النيسابوري في "تفسيره"[2] عن ابن عباس في يوم لاتخذناه عيداً فقال ابن عباس: إنها نزلت في عيدين اتفقا في يوم واحد في يوم جمعة وافق يوم عرفة[3]

ومجموع القرآن: ١١٤ سورة، أولها: الفاتحة، وآخرها: الناس، وعدد آياتها في قول المكيين: ٦٢١٩، وفي قول الكوفيين: ٦٢٣٦، وفي قول البصريين: ٦٢٠٤، وفي قول أهل الشام: ٦٢٢٦ أو ٦٢٢٥

وسبب الخلاف في الآيات: الخلاف في بعض مواضع الوقف.

وعدد كلمات القرآن في قول عطاء بن يسار: ٧٧,٤٣٩ كلمة.

وعدد حروفه فيما رواه سلام أبو محمد الحماني: ٣٤٠,٧٤٠ حرفًا.

روى الحماني أن الحجَّاج بن يوسف جمع القرَّاء والحفَّاظ والكتَّاب، فقال: أخبروني عن القرآن كله كم حرفًا هو؟ قال: وكنت فيهم، فحسبنا فأجمعنا على أن القرآن ٣٤٠,٧٤٠ حرفا.

قال: فأخبروني إلى أيِّ حرف ينتهي نصف القرآن؟ فإذا هو في الكهف [الآية: ١٩] (وليتلطف) في الفاء.

قال: فأخبروني بأثلاثه؟ فإذا الثلث الأول: رأس مائة من براءة، والثلث الثاني: رأس مائة وواحدة من طسم الشعراء، والثلث الثالث: ما بقي من القرآن.

قال: فأخبروني بأسباعه على الحروف؟ فإذا أول سبع في النساء [الآية:٥٥]:

---

(١) رواه أحمد (١/٤٨، ٦٥) والبخاري (٤٦٠٦) و (٧٢٦٨) ومسلم (٣٠١٧) والترمذي (٣٠٤٣) والنسائي في "المجتبى" (٣٠٠٢) و (٥٠١٢) عن طارق بن شهاب.

(٢) انظر: تفسير النيسابوري (٦/٥٣).

(٣) رواه الترمذي (٣٠٤٤) عن عمار بن عمار وقال: حسن غريب. وقد قرأ ابن عباس قوله تعالى (اليوم أكملت لكم دينكم) أمام يهودي فقال لو نزلت هذه علينا لاتخذنا يومها عيدا، قال ابن عباس: فإنها نزلت في يوم عيد في يوم جمعة ويوم عرفة. وصحح إسناده الشيخ الألباني في "صحيح الترمذي" (٢٤٣٨).

﴿فمنهم مَّنْ آمن به ومنهم مَّن صدَّ عنهُ﴾ فى الدال، والسبع الثانى فى الأعراف [الآية: ١٤٧]: ﴿أولئك حبطت﴾ فى التاء. والسبع الثالث فى الرعد [الآية:٣٥]: ﴿أُكُلُها دائمٌ﴾ فى الألف من آخر أكلها. والسبع الرابع فى الحج [الآية:٣٤]: ﴿ولكلِّ أُمَّةٍ جعلنا منسكًا﴾ فى الألف. والسبع الخامس فى الأحزاب [الآية: ٣٦]: ﴿وما كانَ لمؤمنٍ ولا مؤمنةٍ﴾ فى الهاء. والسبع السادس فى الفتح [الآية: ٦]: ﴿الظَّانِّين بالله ظنَّ السَّوْءِ﴾ فى الواو. والسبع السابع ما بقى من القرآن.

قال سلام أبو محمد: عملناه فى أربعة أشهر. وكان الحجاج يقرأ كل ليلة ربعًا فأول ربعه خاتمة الأنعام، والربع الثانى الكهف، والربع الثالث خاتمة الزمر، والربع الرابع ما بقى من القرآن.

قال القرطبى بعد أن نقل هذه العبارات: وفى هذه الجملة خلاف مذكور فى كتاب "البيان" لأبى عمرو الدانى من أراد الوقوف عليه وجده هناك[١]

وإنما أطلنا فى نقل هذه الأرقام والأقوال لندل على مبلغ عناية المسلمين بالقرآن الكريم والتدقيق فى كلِّ ما يتَّصل به، بما أنه أصل دينهم، وأساس حياتهم الدنيوية والأخروية.

*****

(١) انظر: تفسير القرطبى (١/ ٨٠، ٨١).

من القرآن الكريم:

وحدة الدين وكيف يدعو إليها الإسلام؟(1)

﴿ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه ولقد اصطفيناه في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين (١٣٠) إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين (١٣١) ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يا بني إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون (١٣٢) أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدي قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلهًا واحدًا ونحن له مسلمون (١٣٣) تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون (١٣٤) وقالوا كونوا هودًا أو نصارى تهتدوا قل بل ملة إبراهيم حنيفًا وما كان من المشركين (١٣٥) قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون (١٣٦) فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما هم في شقاق فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم (١٣٧) صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون﴾ [البقرة : ١٣٠-١٣٨] .

أوجهك إلى هذه الآيات الكريمات من كتاب الله، فاقرأها بتدبر وتفكر، ثم انظر ماذا ترى؟ ولست أقصد إلى التفسير الفقهى، أو إلى تناولها كما يتناولها المفسرون الاصطلاحيون بالتوجيه والتأويل، وتفريع المسائل، وتقرير أوجه النظر، ولكنى أقصد إلى إبراز المعنى السامى الذى تشير إليه، وتدل عليه.

ملة إبراهيم: هى الملة التى ارتضاها الله تبارك وتعالى مدارًا لهذه الآيات، وملة

(١) نشرت فى مجلة (الإخوان المسلمون) الأسبوعية فى العدد الأول من السنة الأولى فى يوم السبت الموافق ١٧من شعبان سنة ١٣٦١هـ-٢٩من أغسطس سنة ١٩٤٢م.

تنبيه: لا يخلطن القارئ ويظن أن الإمام البنا يدعو إلى ما يسمى وحدة الأديان، إنما يبين هنا أن أصل الأديان واحد وهو: ملة إبراهيم وهى الإسلام، ولا شك أنه أسلوب موفق من الإمام أن يعود بأصحاب الديانتين الأخريين إلى أصل الديانات كلها. والإمام البنا يقصد بمقاله هنا: التقريب بين الأديان.

إبراهيم هذه هي "الإسلام لرب العالمين"، إسلام النفس؛ والقلب؛ والروح؛ والجوارح؛ وكل شيء لله وحده، وهذا سرُّ اصطفاء الله لإبراهيم في الدنيا، وسرُّ صلاح إبراهيم في الآخرة: ﴿ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [البقرة: ١٣١].

وصى إبراهيم بملته هذه - ملة الإسلام والتوحيد - بنيه من بعده، وجعلها كلمةً باقيةً في عَقِبه، ووصَّى بها يعقوبُ كذلك أبناءه وهم بنو إسرائيل حملة الملتين: اليهودية والنصرانية، وأخذ يعقوب العهد والموثق عليهم، إذ حضره الموت: ألا يعبدوا إلا الله وحده، وأجابوه إلى ذلك، وأعطوه عليه موثقهم ﴿ قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ [البقرة: ١٣٢].

والعالم كله اليوم يسير إلى الوحدة، وكل ما فيه يمهِّد لها، ويقرِّب الوصول إليها، والأديان[1] العالمية السماوية الثلاثة: اليهودية، والنصرانية، والإسلام، هي معين الروحانية في العالم المتحضِّر كله، ولها من غير شك السلطان الأول على أرواح الإنسانية الراقية المتدينة، ولو اتَّحد أهلها واجتمعت كلمتهم، لصار الوثنيون إلى هدى السماء، ولفازت البشرية بوحدة دينية رائعة جليلة تصلها بنور الله الذى يهديها سواء السبيل[2].

[وسيلة الإسلام لوحدة الدين]

سلك الإسلام إلى هذه الغاية سبيلاً عجبًا، هو أنموذج الحق الواضح، والإنصاف

---

(١) لا يوجد في الإسلام شئ اسمه أديان، فاليهودية والمسيحية ليست أديانا إنما هي شرائع، فدين الله واحد وهو الإسلام يقول الله تعالى: (إن الدين عند الله الإسلام)، (ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه) (ورضيت لكم الإسلام دينا) ويقول ﷺ: "إنا معاشر الأنبياء ديننا واحد"، ولذلك اليهودية والمسيحية شرائع، والله عز وجل يقول: (لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا). انظر: مدارج السالكين لابن القيم (٣ / ٤٧٦) بتحقيق الشيخ حامد الفقي. وشرح الطحاوية لابن أبي العز ص ٤٤٦، ٤٤٧ بتحقيق الشيخ شاكر، طبعة دار التراث.

(٢) يقصد بذلك الإمام البنا التعاون فيما هو متفق عليه من أصول دينية، والتعاون في محاربة ما هو متفق عليه من جرائم خلقية ودينية، وقد رأينا هذا التعاون فيما بعد نشر هذا المقال بنصف قرن تقريبا، رأينا تعاون الأزهر والفاتيكان ودولة إيران ضد قرارات مؤتمر السكان الذى يبيح الزنا، والشذوذ، وغيرها من المؤتمرات المحاربة للأخلاق وتتفق فيها كلمة أصحاب الديانات السماوية.

العادل، والتواضع الفاضل، والتآلف العجيب، والمنطق السليم الدقيق، إنه اتخذ ملة إبراهيم حداً وسطاً، ورضيها فى موطن الخلاف حَكَماً، ووصل نفسه بها، وجعلها له شعاراً ونسباً ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ [النحل:١٢٣]، ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا﴾ [الحج:٧٨] ثم دعا إلى تقديس كل نبىٍّ سبق، وتصديق كل كتاب نزل، والإيمان بكل وحى على هذه الأرض هبط، واحترام كل شريعة جاء بها رسول من ربِّ العالمين، وهو فى هذا لم يأت أهل الملتين بجديد، فإبراهيم أبوهم نسباً، ومرجعهم ديناً، وقد آمن إسرائيل بملة إبراهيم من قبل، وآمنوا هم بملة إسرائيل من بعد، وإبراهيم حكم مرضى، فبأىِّ حجةٍ يخالفون؟ ولأى معنى يتوقفون؟

واسمع نظم الآيات الكريمة، واملأ بهذا الجَرْس العجيب أذنك وقلبك: ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٣٥) قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٥، ١٣٦].

وانظر كيف يدعو القرآن بهذه الدعوة فى غير تحد مثير، ولا عصبية جارحة، ولكن فى منطق هادئ رزين، وإقناع واضح مبين، يكشف للناس عن الحقيقة التى لا مناص منها، وهى أن وحدتهم الروحية لا تتم إلا على هذا الأساس السليم البرىء من عصبية الأشخاص والعناصر، العالى عن عالم الأرض وما فيه، لأنه من الله وحده، ولله وحده، وأنهم وإن اهتدوا بهذا الهدى فقد وصلوا إلى ما يريدون، وإن امتنعوا عليه، فهم فى خلافهم سادرون، والله من ورائهم محيط، وتأمل لفظ القرآن فى هذا ﴿فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوا وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٣٧) صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ﴾ [البقرة: ١٣٧، ١٣٨].

وبهذا القول الفصل، والكلام الجزل، والمنطق العجيب، يحل الإسلام مشكلة الخلاف بين الأديان، ويعلن وحدة العقيدة بين بنى الإنسان ما لو كانوا يعلمون.

*****

دعوتنا فى كتاب الله

من وظائف القائد(1)

﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ (١٥١) فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلا تَكْفُرُونِ (١٥٢) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (١٥٣) وَلا تَقُولُوا لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِن لاَّ تَشْعُرُونَ (١٥٤) وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمْوَالِ وَالأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (١٥٦) أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴾ [البقرة: ١٥١-١٥٧].

تسير البشرية قُدُمًا نحو الكمال الذى كتبه الله لها يوم شاء أن يستخلف الإنسان فى الكون، وسخَّر له ما فى السماوات وما فى الأرض جميعًا، والبشرية فى محاولتها هذه أحيانًا تستوحى الشعر والخيال، وتستلهم منه صورًا رائعة جميلة وإن كانت بين الخطأ والصواب، وأحيانًا تستوحى الفكر والعقل فيرشدها إلى تجارب فى تكوين الأمم وتربية الشعوب كثيرًا ما تكون طويلة المدى، وكثيرًا ما تنزع بها المعاكسات العاطفية ونحوها إلى جهة الخطأ فتصبح عقيمةَ النتائج فاسدةَ الآثار.

لهذا اقتضت حكمة الله تبارك وتعالى ورحمته بالناس - وهو ربُّهم الرحيم - أن يشدَّ أزر العقل والقلب بنواميس ونظم إلهية تقرِّب على الإنسانية المدى، وترشد البشرية إلى مدارج الكمال الذى كتب لها، وجاء الرسل الكرام بهذه النواميس، وتلك النظم، فكان كل منهم الزعيم الربانى لأمته الذى يصلها بأسباب السماء، ويصف لها نظم الحياة فى الأرض.

تسمع عن زعماء الشعر، وقادة العواطف، وتسمع عن أساطين العلم والأدمغة

(١) نشرت فى مجلة (جريدة الإخوان المسلمين) الأسبوعية فى العدد (٩) من السنة الرابعة الصادر فى ١٩ من ربيع الأول سنة ١٣٥٥هـ - ٩ من يونيو سنة ١٩٣٦م.

الكبيرة، وتسمع عن زعماء الأمم فى السياسة والاجتماع والثورات الفكرية أو العملية، وتسمع عن قادة الحروب وبُناة الدول، فتصف أولئك جميعًا بالزعامة، وترى فيهم رؤوسًا تنهض بالإنسانية نحو الكمال.

[الفرق بين الزعامة الربانية والزعامة البشرية]

فاعلم أنَّ النبيَّ فى أمته زعيمٌ ربانيٌّ جمع الله له مظاهر الزعامة جميعًا فهو يخاطب القلوب والعقول، ويختطُّ سُبُلَ الإصلاح الاجتماعى والسياسى، ويُحدث فى أمته - وبها - ثورة فكرية عملية تدفع الإنسانية إلى الأمام عدَّة مراحل.

والفرق بين الزعامتين؛ الزعامة المستمدة من قوى البشر، والزعامة المستمدة من إمداد الله. أن الثانية صواب كلها لا خطأ فيها، وأنها أدوم أثرًا وأبقى على الزمن، وأنها أعم وأشمل فى نواحى الحياة كلها.

والفرق بين الزعماء الربانيين، وهم الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم فى القديم، وبين الزعيم الأخير سيدنا محمد ﷺ: أنَّ أحد أولئك صلوات الله وسلامه عليهم إنما كان يأتى للأمة الواحدة أو الأمم المتجاورة، وهو ﷺ إنما بُعث للناس كافة بشيرًا ونذيرًا. وأن الشرائع السابقة كانت عرضة للتبدُّل أو التغيُّر، أما الشريعة الختامية فقد كفلت بالحراسة الإلهية، وبقيت فى كنف قوله تعالى: ﴿**إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ**﴾ [الحجر: ٩].

إذا تقرَّر هذا علمنا أية نعمة على البشر ينعمها الله تبارك وتعالى بالأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم، وعلمنا الارتباط بين الآية الكريمة ﴿**كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ**﴾ وبين ما قبلها من قول الله تبارك وتعالى: ﴿**وَلأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ**﴾.

[من وظائف الرسول ﷺ]

أما وظائف الرسول ﷺ فقد أجملتها الآية الكريمة فى هذه العناصر المباركة:

(يتلو عليكم آياتنا) يصلكم بالحق، ويبلِّغكم دستور السماء، ويتلو عليكم نظام الله الذى إن تمسكتم به سعدتم، وإن هديتم بهديه رشدتم، فوظيفة الرسول الأولى: تبليغ دستور الله لعباد الله.

(ويزكيكم) يطهِّر أخلاقكم، ويصفى نفوسكم، ويطبعها على الخير، ويغسلها من أدران الرذائل حتى تستعد لفقه هذا الدستور، وتنشط للعمل به، وتحرص على حمايته، فإذا كانت الوظيفة الأولى إيصال الدستور من السماء إلى الأرض، فإن الوظيفة الثانية إمداد النفوس، وتقوية الأخلاق، وتدعيم القلوب لتحفظ هذا الدستور وتحرسه.

(ويعلمكم الكتاب والحكمة) فإذا تطهَّرت النفس، وصفا القلب، واستعدت الفطرة، جاء دور العلم، وتلاه دور الحكمة.

والعلم: تلقى المعلومات ودراستها، والحكمة: إلقاء المعلومات وفيضانها وانتزاعها من النفس والروح فأنت فى مركز العالم منفعل وفى مركز الحكيم فاعل، وشتَّان ما بينهما وأولاهما من وسائل الثانية، فإذا فقه الإنسان المعلومات الحاضرة، وقويت ملكته العلمية بالحكمة استدل بهذا الذوق العلمى على الكشف والتحقيق، فعلم ما لم يكن يعلم، وكان فضل الله عليه عظيما.

أرأيت التدرُّج فى هذا النَّسق البديع؟ يوضع النظام من السماء فتصقل النفوس لتلقيه فتفقهه وتتعلمه فتتذوقه، وتفيض به فتكشف المساتير، وتبنى المستقبل على أساسه إن هذا لهو الفضل العظيم.

أو رأيت بعد ذلك كيف يجدِّد الزعيم الربانى أمته تجديداً قويًا ثابتًا؟ وكيف يسير هذا التجديد فى خطوات متناسقة مأمونة العثار؟ إذا عرفت هذا فإن القائد لا يزال، وسيظل قائمًا، والخطوات مرسومة، وما بقى إلا وظيفة الأمة، وذلك ما سنتحدث عنه إن شاء الله.

*****

من وظائف الأمة الناهضة[1]

﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلا تَكْفُرُونِ (152) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (153) وَلا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِن لاَّ تَشْعُرُونَ ﴾ [البقرة:١٥٢-١٥٤].

قد علمت فى الكلمة الأولى الإشارة فى الآية الكريمة إلى وظيفة القائد، وهنا ترى الإشارة إلى واجب الأمة.

تحتاج الأمة المجاهدة إلى قوتين لا بد منهما لتنجح فى مهمتها وتنتصر فى جهادها: تحتاج إلى الإيمان القوى المتين المرتكز على قواعد ثابتة من روحها وفطرتها، المستند إلى نبع فيَّاض من قلبها ووجدانها، وتحتاج إلى قوة مادية يتشكل بها هذا الإيمان، فيعرب للناس عن وجوده، ويبرهن للخصوم على قوته وثباته.

ومن الناس من ينصرف إلى القوة الروحية فى الأمة ويراها كل شيء، ومن الناس من ينصرف إلى المادة وحدها، ويرى أنه لا حاجة إلى ما سواها، وكلا النظرتين يرى النهضة من جانب واحد فقط، والمصلح إنما ينظر إليها من كل ناحية.

لا بد من الجانب الروحى الذى يستند إلى الإيمان والخلق وهو أول وأولى بالعناية، وهو الدعامة التى تستند عليها القوة المادية، فإذا قويت روح الأمة وأخلاقها تبع ذلك حتمًا دوام التفكير فى وسائل القوة المادية، وتلا ذلك التفكر القوة نفسها، وإلى هذا يشير القرآن الكريم فى نظامه الحكيم الذى وضع لحياة الأمم ونهوضها فها أنت تسمع قول الله تبارك وتعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ [الرعد:١١] إلى جانب قوله تعالى: ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ ﴾ [الأنفال:٦٠].

وأساس القوة الرُّوحيَّة كما علمت: "الإيمان" بالمثل الأعلى والتفانى فى سبيل الوصول إليه، وكلما سما هذا المثل سمت نهضة الأمة، وتوفَّرت لها وسائل القوة، وأىُّ

---

(١) نشرت فى مجلة (جريدة الإخوان المسلمين) الأسبوعية فى العدد (١٠) من السنة الرابعة الصادر فى ٢٦ من ربيع الأول سنة ١٣٥٥هـ - ١٦ من يونيو سنة ١٩٣٦م.

مثل أسمى من "سبيل الله" الذى تفنى أمامه الماديات والأهواء والمطامع والمنافع الشخصية، ولا يجد النفعىُّ ولا الوصولىُّ ولا الدسَّاس ولا المُغْرِض إليه سبيلاً؛ لهذا كان المثل الذى وضعه القرآن الكريم لأمته[1] وجعله أساس نهضتها: الإيمان بالله أولاً، ومن هذا الإيمان تستمد الأمة سيادتها فى قوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

وتستمد عزتها من قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨].

وتستمد التأييد والهداية من قوله تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

وتستمد القوة من قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر: ٣١].

وتستمد فى النهاية النصر من قوله تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠].

وهذا معنى خاص تنفرد به النهضة المستندة إلى جانب الله والإيمان به وسلوك سبيله لا يكون فى غيرها من النهضات أبداً.

وتأمَّل قول الله: ﴿فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ [النساء: ١٠٤].

وعلى ضوء هذا البيان نتفهَّم الآية الكريمة، ونعرف منها وظائف الأمة وواجباتها فى النهضة: (فاذكرونى أذكركم) فالواجب الأول: أن تستذكر الأمة دائماً مثلها الأعلى، وتجعله القائد فى نهضتها، والهادى فى حَيْرتها، فيكون جزاء ذلك تأييد الله، وتسديد الخطط، ونجاح الغايات.

(واشكروا لى ولا تكفرون) والواجب الثانى: أن تتعرَّف الأمة خطواتها ومدى نجاحها، وإذا كانت حقيقة الشكر استخدام النعمة فيما خُلقت له، فعلى الأمة أن تجعل النصر سبيلاً إلى نصر آخر، ولا تقف عند حدِّ النصر الأول، فإن مهمة المسلم أن يسير بالدنيا إلى

(١) كتبت فى المقال: لأممه، والصواب ما اثبته، فالأمة الإسلامية امة واحدة، وليست عدة امم مختلفة. صوب هذا الخطا الشيخ يوسف القرضاوى.

منتهى الكمال الممكن لها لا يلهيه نصرٌ عن نصرٍ، ولا يشغله واجبٌ عن واجبٍ، وبذلك تنجو الأمة من دور الاستغلال والانتفاع الذى يلى غالبًا دور النصر والنعمة، وما تزال الأمة بخير ما دامت مجاهدة، فإذا انقلبت مستغلة فتلك أُولى بوادر الانهزام.

(يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة) والواجب الثالث من واجبات الأمة: ان تحتمل التضحيات، وتصبر على المشاق فى كفاحها ونضالها، وأن تستروح روح النصر بالصلاة لما فيها من الصلة بالله تبارك وتعالى، واستمداد فيضه، واستعادة ما فقدته الروح من مضائها وقوتها بهذا النضال، فالصلاة امتلاء الروح بالقوة المعنوية، والصبر هو المحافظة على هذه القوة واستخدامها بأكبر قدر مستطاع حتى إذا أضناها الجهد، وأمضَّها الجِلاد تجدَّدت مرةً أخرى بالصلاة، وهذا تلازُمٌ غريب بينهما يدركه من صَفَت نفسه، وقويت روحه.

وفى الصبر وحقيقته وآثاره ومعناه كلام واسع لعلنا نعرض له فى كلمة أخرى إن شاء الله، فإذا استعانت الأمة فى جهادها بالصبر والصلاة كان الله معها، وأدركها نصره وتأييده، وظلت فى كنفه (إنَّ الله مع الصابرين).

(ولا تقولوا لمن يقتل فى سبيل الله أموات بل أحياء ولكن لا تشعرون) وهنا نرى الواجب الرابع من واجبات الأمة، وهو واجب هام إنْ أدَّته الأمة لم تسقط راية الجهاد من يدها أبداً، ولم يتطرَّق إليها الضعف يومًا من الأيام، ذلك الواجب أن تعتبر الأمة التضحية والفداء مغنمًا لا مغرمًا ونصراً لا هزيمة، وتجارةً رابحة لن تبور، وان تعتقد أن الموت فى ميدان الشرف هو حياة الخلود، وأنَّ الفناء فى سبيل الواجب هو عين البقاء، وهذا المعنى إن تشبَّعت به الأمة فهى لا شك منصورة مهما كان فى سبيلها من عقبات، وانظر إلى الكتيبة الأولى كيف استولت عليها هذه العقيدة فكانت سرّ نجاحها.

أو لست تشمُّ بوارق النصر من قول عُمير بن الحمام فى بدر:

ركضًا إلى الله بغير زاد ... إلا التقى وعمل المعاد[1]

---

(١) الأبيات لعمير بن الحمام رضى الله عنه، وقد ذكرها ابن كثير فى "البداية والنهاية" (٣ / ٢٧٧)، والصالحى فى "سبل الهدى والرشاد" (٤ / ٧٠) وابن الأثير فى "أسد الغابة" (٤ / ٢٩١) وابن عبد البر فى "الاستيعاب" (٣ / ١٢١٤).

أو من رجَز الأنصار بين الصفوف :

نحن الذين بايعــوا مــحــمــدا ... على الجـهــاد مــا حــيــينا أبدا[1]

الا إن أعـذب من الأناشيـد فى أذن المجاهد المؤمن وأحلاها على قلبه ذلك الهتـاف العالى المجيـد ﴿وَلا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِن لاَّ تَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ١٥٤].

ولقد جمعت هذه الآية الكريمة فى نسق واحد أركان النهضة، وهى :

المثل الأعلى؛ فى قـوله تعـالى : ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة:١٥٢].

والقـوة المعنوية؛ فى قـوله تعـالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ﴾ [البقرة:١٥٣].

والقوة المادية؛ فى قوله تعالى : ﴿وَلا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ﴾ [البقرة: ١٥٤].

واعلم أنهما سبيلان لا ثالث لهما :

أولهما : ما علمت وما يشير إليه قوله تعالى : ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة:١٥٢] وهو سبيل البقاء والمجد.

وثانيهما : ما يشير إليه قوله تعالى : ﴿نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾ [الحشر: ١٩]، وهو سبيل الفناء والتدهور.

فأى سبيل من السبيلين تختار أمتنا؟.

*****

---

(١) معظم الروايات تذكر ان هذا البيت من رجز المهاجرين والأنصار معا فى حفر الخندق، فمن روى أنه من رجز المهاجرين والأنصار : أحمد (٤ / ٣٦،٦٤،١٤٥،٢٠٦) والبخارى (٢٨٣٥) و(٢٩٦١) و(٣٧٩٦) و(٤١٠٠) و(٧٢٠١) ومسلم (١٨٠٥) والبيهقى (١٠ / ١٦٠) والنسائى فى "الكبرى (٨٣١٧) و (٨٨٥٩) عن أنس بن مالك رضى الله عنه. ومن روى أنه من رجز الأنصار : أحمد (٣ / ٦٥٢) والنسائى فى "الكبرى" (٨٣١٦) وابن حبان (٥٧٨٩) عن أنس بن مالك رضى الله عنه.

تربية الأمم فى كتاب الله

من وسائل إعداد الأمة[1]

﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمْوَالِ وَالأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (١٥٦) أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴾ [البقرة: ١٥٥-١٥٧].

يقول المربُّون: إنَّ أعظم مظاهر القوة فى الإنسان، أن يتغلَّب على ما يحيط به، وأن يُخضع الصِّعاب لإرادته، وإذا وصلت الأمة إلى هذا الحد فلم تتأثر بالحوادث، ولم تُبال بالعَقَبات، وكان عندها من المناعة الطبيعية ما يحول بينها وبين تسرُّب الوهْن إليها كانت خليقةً بأن ترث الأرض، وتسودَ الدنيا، وتُحسن الخلافة فى الكون.

والآية الكريمة تشير إلى "التدريبات" الربانية التى تنشئ فى الأمة هذه المناعة وتطبعها بطابع القوة الحقيقية، وتجعلها أسمى من ظروفها، وأقوى مما يحيط بها، ويجمع هذه التمرينات (الابتلاء) أو الاختبار الذى يبتلى الله به الناس؛ لتصفو به نفوسهم، وتتطهَّر من الأدران أرواحهم، ويعتادوا مقاومة الصِّعاب وتحمُّل الصَّدمات، فإن صبر العبد على اختيار الله إياه، وشغلته الغاية عن ألم الوسيلة كانت العاقبة خيرًا، وأبدله الله بهذا الصبر قوةً فى الدنيا وثوابًا فى الآخرة، وكان مثله كمثل من يصبر على مرارة الدواء أملاً فى الشفاء، وإن جزع وتألم أفسد على نفسه العلاج، وكان الاختبار وبالاً عليه.

وأساس الصبر على الابتلاء: الإيمان بالله، والاشتغال بمراقبة عظمته، والتسليم لحكمة تصرفه، ولهذا ورد فى الأثر: "الصبر شطر الإيمان"[2] وفى قوله تبارك وتعالى:

---

(١) نشرت فى مجلة (جريدة الإخوان المسلمين) الأسبوعية فى العدد (١٣) من السنة الرابعة الصادر فى ١٨ من ربيع الآخر سنة ١٣٥٥هـ - ٧ من يوليو سنة ١٩٣٦م.

(٢) رواه البيهقى فى "الشعب" مرفوعا عن عبد الله بن مسعود (٩٧١٦). ورواه البيهقى فى "الشعب" (٤٤٤٨) عن المغيرة بن عامر رضى الله عنه موقوفا. ورواه الحاكم (٢ / ٤٨٤) والطبرانى فى "الكبير" (٩ / ١٠٤) و البيهقى فى "الشعب" (٤٨) عن ابن مسعود رضى الله عنه موقوفا. ولفظه: "الصبر نصف الإيمان" وذكره الغزالى فى "الإحياء" وقال العراقى: أخرجه أبو نُعيم فى "الحلية" والخطيب فى "التاريخ" عن ابن مسعود بسند حسن. انظر: الإحياء (١ / ٢٣١).

﴿ الٓمٓ (١) أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ (٢) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴾ [العنكبوت : ١-٣]، ومن ذلك ترى أن الاختبار كما يكون تدريبًا على المقاومة يكون دليلاً على الإيمان والتسليم، فإذا صبر العبد وسلَّم، كان ذلك دليل إيمانه، فيرفع الله درجته، ويُعلى منزلته، وكان الابتلاء وسيلة إلى رفع الدرجات وإعلاء الرتب ونوال الفضل، وربما منعك فأعطاك وربما أعطاك فمنعك[١] : ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [الزمر: ١٠].

والتمرينات التي ذكرتها الآية الكريمة أنواع منها:

(الخوف) وإنما بدأ القرآن به لأنه غريزة مستقرة في النفس، لاصقة بالفؤاد، تولد مع المرء منذ ولد، وتتحرك لأدنى مؤثر، وتتولد عنها الأوهام والخرافات، فإذا استطاع الإنسان أن يكبح جماحها، وألا يتأثر بمثيراتها خمدت وسكنت، وذهب من نفسه ما تولد عنها من الجبن والوهم والخرافة، وصار شجاعًا قويَّ النفس بعد أن كان رعديداً خائر العزيمة، وبذلك يحسن استعداده النفسي، وتكون الصدمات التي تلي هذه الصدمة أقل منها أثرًا وأضعف خطرًا.

يلي ذلك: (الجوع) وإنما ثنَّى به القرآن الكريم، لأنه ألم الجسم، فإذا تعوَّد الإنسان مقاومة دواعيه، والصبر على حرارته، فقد قوى جسمه، وصَلُبَ عوده، وانضمت قوة جسمه بمقاومة الجوع إلى قوة روحه بمقاومة الخوف، فكان إنسانًا كاملاً جسمًا وروحًا.

يأتي بعد هذين التدريب الثالث في قوله تعالى: (ونقص من الأموال والأنفس والثمرات) وهو الصبر على مفارقة المألوفات من مظاهر البيئة القريبة إلى الشخص، الحبيبة إلى النفس، وللألفة على القلب سلطان، ولها في النفس منزلة، ورحم الله أبا الطيب إذ يقول:

خلقت ألوفًا ولو رحلت إلى الصبا ... لفارقت شيبي موجع القلب باكيا

هذه المألوفات التي تعوق الإنسان عن العظائم، وتحول بينه وبين الجد في المطالب يريد القرآن أن يعوِّد الأمة الصبر على مفارقتها، وعدم الركون إليها حتى يتحرَّر الإنسان حرية كاملة، وحتى لا يقف شيء دون وصوله إلى الغاية.

---

(١) من حكم ابن عطاء الله السكندري.

فإذا دربت نفسه على الصبر، وقويت روحه بمقاومة الخوف، وقوى جسمه بمقاومة الجوع، وتحرَّر من أغلال البيئة وقيود المالوفات تحقَّق له قوله تعالى: ﴿وبشِّرِ الصَّابِرِين﴾ [البقرة:١٥٥] يبشرهم بحُسن الأجر، وجزيل الثواب فى الدنيا بالمناعة التى تخفف وقع المصائب وفى الآخرة بالنعيم المقيم.

ولما كان أعظم شيء يساعد على الصبر، ويتقوَّى به الإنسان على مرارة هذه التدريبات: اللجأ إلى الله تبارك وتعالى، وتذكُّر الغاية السابقة، وتمثُّل المثل الأعلى، وقد يهون على المستنجح العمل، لهذا كان أحسن شعار للمبتلى عند الابتلاء: أن يضع مراقبة الله نصب عينيه، وأن يهتف من أعماق قلبه مسترجعًا، وأن يحقق معنى قوله تعالى: ﴿الَّذين إذَا أصابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لله وَإِنَّا إِلَيْه راجِعُونَ﴾[البقرة:١٥٦] وفى هذا التركيب العجيب من لطائف اللطائف وعوارف المعارف ما يدق ويرق وما هو بهذا النظام اليق وأخلق.

وحسب الإنسان أن يذكر فى محنته أن لله بدءه، ولله نهايته ليكون لله فيما بينهما: ﴿قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّه﴾ [آل عمران:١٥٤].

أما البشرى فقد أشارت إلى مضمونها الآية الكريمة فى قوله تعالى: ﴿أُوْلَئِكَ عَلَيْهِم صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ ورحْمَةٌ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة:١٥٧] سمعها عمر رضى الله عنه فقال: نعْم العدْلان ونعْمت العلاوة.

والصلاة من الله على عبد: الثناء والتشريف والتكريم والرحمة والعطف والعفو وإغداق النعم ظاهرة وباطنة، فالأولى إشارة إلى اللطائف الروحية، ولهذا عبَّر عنها بلفظ الصلاة، والثانية إشارة إلى اللطائف الحسية وهذه عبر عنها بلفظ الرحمة، ومن جمع الله له هذه الصفات فى الدنيا، وهذه المنح فى الآخرة فقد هُدى إلى صراط مستقيم، ولنا فى الصبر وثوابه والدوافع إليه كلمات أخرى إن شاء الله.

*****

من أخلاق الأمم الناهضة:

الصبـــر[1]

﴿ يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا اصبِرُوا وصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران: ٢٠٠].

وعدتك فى عدد سابق أن أتحدَّث إليك عن الصبر.

فالصبرُ خلقٌ كريم يقوم بالنفس فتحتمل المشاق، وتُغالب المصاعب، وترضى بمقاومة الميول والعواطف والأهواء، وهم يقولون: الصبر فى مواطن كثيرة، فمنها: الصبر على الشدائد والنكبات، ومنها: الصبر على أداء الواجبات ومزاولة الطاعات، ومنها: الصبر على الحرمان من لذائذ المعاصى والبُعد عن تناول الشهوات، ومنها: الصبر حين البأس، وقد التقى الجمعان وحَمِيَ الوطيس، وكشَّرت الحرب عن نابها، وشمَّرت عن ساقها، وهو فى كلٍّ هذه المواطن خلق كريم.

وليس منه أن تصبر على الإهانة تنال من أمتك، أو تنتقص من كرامتك، أو تهتك من سترك، أو تمس عرضك، فقد وصف الله المؤمنين فقال: ﴿ وَالَّذِين إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ ينتصِرُونَ ﴾ [الشورى: ٣٩].

والصبر الذى علمته آنفًا وليد الإيمان، وثمرة معرفة الله تبارك وتعالى وتفسير الآية الكريمة ﴿ وما كَان لمُؤْمنٍ ولا مُؤْمِنَة إِذَا قَضى اللَّهُ ورسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُون لَهُمُ الْخيرَةُ من أَمْرِهِمْ ﴾ [الأحزاب: ٣٦]، وهو الذى حدا بمؤمن آل فرعون أن يقول: ﴿ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾ [غافر: ٤٤].

وهو أيضًا قرين الرجولة الصادقة، وخدن الإباء والشمم، فكم من مصيبة صغرتها الرجولة، ونائبة تضاءلت أمام عظمة الإباء، ومقام ضيق فرَّجته الأنفة من الجزع، ولقد

---

(١) نشرت فى مجلة (جريدة الإخوان المسلمين) الأسبوعية فى العدد (١٤) من السنة الرابعة الصادر فى ٢٥ من ربيع الآخر سنة ١٣٥٥هـ - ١٤ من يوليو سنة ١٩٣٦م. ويلاحظ القارئ أن الآية ليست من سورة البقرة، وقد وضعناها ضمن تفسير سورة البقرة، لارتباط المقال بالمقال السابق.

ضاق الأمر بأحد القواد، وهمَّ بالفرار، وعظم عليه الأمر فى أحد المواقع فما ثبته إلا أبيات ابن الأطنابة:

أبت لى همتى وأبى بلائى ... وأخذى الحمد بالثمن الربيح
وإقحامى على المكروه نفسى ... وضربى هامة البطل المشيح
وقولى كلما جشأت وجاشت ... مكانك تحمدى أو تستريحى
لادفع عن مآثر صالحات ... وأحمى بعد عن عرض صحيح

والصبرُ من لوازم العقل، ومن نتائج حُسن النظر فى الأمور، فما دام الجزع لا يرد فائتًا، ولا يحيى ميتًا، ولا يغيِّر من الواقع شيئًا، فأخلق بالعاقل أن يتحمَّل ويتجلَّد، وإليه الإشارة بقول رسول الله ﷺ فى كتاب له إلى معاذ بن جبل يعزيه فى ابن له توفى ما معناه: "إن ابنك كان من عوارف الله المستودعة لديك، وقد استرد الله وديعته، وكتب لك إن صبرت عظيم الأجر، فلا تجمعن عليك مصيبتين: فَقْدُ الابن، وفَقْدُ الأجر"(١).

والعارفون يرون الصبر وسيلةً إلى رفع الدرجات، وامتحانًا ينتقل به الصابر من منزلة إلى أخرى أرقى منها وأعظم، فهم لا يعرفون الجزع، ولا يدركون معنى الفزع.

لا تهتدى نُوَبُ الزمان إليهم ... ولهم على الخطب الشديد لجام

وهم يرون البلايا والمحن والفاقات وسائل العطايا والمنن ورفع الدرجات، ويعتقدون أنها أقل أى برهان يعرب به المحب عن حُسن استعداده للقرب، ويقول قائلهم فى ذلك: يخفِّف ألم البلاء عليك: علمك بأنه تعالى هو المبتلى لك، فالذى واجهك من الأقدار هو الذى أشهدك حُسن الاختيار"(٢) وما أحسن قول منشدهم:

تلذُّ لى الآلام إذ أنت مسقمى ... وإن منحتنى فهى عندى صنائع

وبعد " فالصبر مفتاح من مفاتيح الخير تتنزل به كنوز الأجر الجميل، وسحابة من

(١) لم أقف على أصله.

(٢) من حكم ابن عطاء الله السكندرى.

سحائب الرحمة تمطر الثواب الجزيل، وقرض جزاؤه أجمل العوض، و﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ﴾ [النحل: ٩٦].

وإليك شواهد ذلك من حديث رسول الله ﷺ:

١ـ عن أُمْ سَلَمة زوج النبىُ ﷺ أنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "ما من مصيبة تصيب عبداً فيقول: إنا لله وإنا إليه راجعون، اللهم آجرنى فى مصيبتى، واخلف لى خيراً منها، إلا آجره الله فى مصيبته، وأخلف له خيراً" قالت أم سلمة: لما توفى أبو سلمة عزم الله لى، فقلت: اللهم أجرنى فى مصيبتى، واخلف لى خيراً منها، فأخلف الله لى رسول الله ﷺ(١).

٢ـ وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "من يُرد الله به خيراً يُصب منه"(٢).

٣ـ عن أبى سعيد الخدرى عن أبى هريرة رضى الله عنهما عن النبى ﷺ قال: "ما يُصيب المسلم من نَصبٍ ولا وَصب ولا هَمٌ ولا حزن ولا أذى ولا غَمٌ، حتى الشوكة يشاكها إلا كَفَّرَ الله بها من خطاياه"(٣)

٤ـ عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: جاءت امرأة بها لَمَمٌ(٤)، إلى رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله ادع الله لى أن يَشْفِيَنى، قال: "إن شئْت دَعَوْتُ لك الله أن يَشْفيَك، وإن شئت فاصبرى ولا حساب عليك"، قالت: بل أصبر ولا حساب علىّ"(٥)

---

(١) رواه أحمد (٧/٤٣٧) ومسلم (٢١٢٤) و (٢١٢٣) وابن ماجه (١٥٩٨) والبيهقى فى "السنن" (٥/٤٢٥) وفى "الشعب" (٩٦٩٧) ومالك (٥٤٧) عن أم سلمة رضى الله عنها.

(٢) رواه أحمد (٢/٤٧١) والبخارى (٥٦٤٥) وابن حبان (٢٩٠٧) والنسائى فى "الكبرى" (٧٤٧٨) والبيهقى فى "الشعب" (٩٧٨٠) ومالك (١٧٥٢) عن أبى هريرة.

(٣) رواه أحمد (٢/٥٨٦) والبخارى (٥٦٤٢) بلفظه. ومسلم (٢٥٧٣) والترمذى (٩٦٦) بنحوه والبيهقى فى "الشعب" (٩٨٢٩) وأبو يعلى (١٢٣٧) وابن حبان (٢٩٠٥) عن أبى سعيد الخدرى وأبى هريرة وعطاء بن يسار رضى الله عنهم.

(٤) اللمم: طرف من الجنون يلم بالإنسان ويعتريه. أو به مَسٌ من الجن، وهو المراد من الحديث هنا. انظر: القاموس المحيط ص ١٤٩٦

(٥) رواه أحمد (٣/١٨٦) وابن حبان (٢٩٠٩) عن أبى هريرة رضى الله عنه. وحسن إسناده شعيب الأرناؤوط فى "صحيح ابن حبان" (٧/١٧٠).

٥ـ عن أنس بن مالك رضى الله عنه عن النبى ﷺ أنه قال: "إن عظم الجزاء عند الله مع عظم البلاء، فإن الله إذا أحبَّ قومًا ابتلاهم، فمن رَضِى فله الرضا، ومن سخطَ فله السُّخَط"(١).

٦ـ عن سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "عَجَبًا لأمر المؤمن إن أصابه خير حمد الله وشكر، وإن أصابته مصيبة حمد الله وصبر"(٢) فالمؤمن يُؤْجر فى كل أمره حتى يُؤْجر فى "اللقمة يرفعها إلى فِى امرأته"(٣).

٧ـ عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "لا يزال البلاء بالمؤمن والمؤمنة فى جسده ونفسه وماله وولده، حتى يلقى الله وما عليه من خطيئة"(٤).

وحَسْبُك فى هذا المعنى قول الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠].

لهذا ـ أيها الأخ الكريم ـ كان أسلافنا رضوان الله عليهم أعظم الناس صبرًا فى كل

---

(١) رواه الترمذى (٢٣٩٦) وقال: حسن غريب. وابن ماجه (٤٠٣١) والبيهقى فى "الشعب" (٩٧٨٢) عن أنس بن مالك رضى الله عنه. وحسنه الألبانى فى "صحيح الترمذى" (١٩٥٤) وفى "صحيح ابن ماجه" (٤٠٣١).

(٢) جعل الإمام البنا فى هذا النص من الحديثين حديثًا واحدًا وراويًا واحدًا، وليس ذاك بصواب، فحديث "عجبًا لأمر المؤمن إن أمره كله خير، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له" رواه أحمد (٥/٤٣٦، ٤٣٧) و(٧/٢٦، ٢٧) ومسلم (٢٩٩٩) والدارمى (٢٧٧٧) عن صهيب الرومى رضى الله عنه، وليس عن سعد بن أبى وقاص كما ذكر الإمام، والرواية التى ذكرها الإمام هى رواية الدارمى.

(٣) رواه أحمد (١/٢٨٠، ٢٨١، ٢٨٧، ٢٩١) والبخارى (٢٧٤٢) و(٣٩٣٦) و(٤٤٠٩) و(٥٣٥٤) و(٦٧٣٣) ومسلم (١٦٢٨) والترمذى (٢١١٦) وأبو داود (٢٨٦٤) عن سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه.

(٤) رواه أحمد (٢/٥٥٩) والترمذى (٢٣٩٩) وقال: حسن صحيح، والبيهقى فى "السنن" (٥/٢١٣) وفى "الشعب" (٩٨٣٧) وابن حبان (٢٩١٣) و(٢٩٢٤) وأبو يعلى (٥٩١٢) و(٦٠١٢) والحاكم وقال: صحيح على شرط مسلم ووافقه الذهبى (١/٣٤٦) وابن أبى الدنيا فى "المرض والكفارات" (٤٠) والبخارى فى "الأدب المفرد" (٥٠١) عن أبى هريرة رضى الله عنه. وحسن الشيخ شعيب الأرناؤوط إسناده فى "صحيح ابن حبان" (٧/٤٧٦).

حال، يصبرون عند الشدائد، وعند إحراز الوقائع، وعند لذائذ الشهوات، وعلى متاعب الواجبات.

وفى حديث أُمّ سليم، وعروة بن الزبير، والخنساء بنت عمرو، وصفية بنت عبد المطلب، وما أثر عن الجميع من محاسن الصبر، واحتمال الضر ما يكشف عن جمال هذه الخلائق الغُر.

وإذا علمت أن الصبر أولى اللبنات القوية فى بناء الأمم الناهضة؛ علمت السرَّ فى أن الله تبارك وتعالى فرضه على المؤمنين وأمرهم به، وأثابهم هذا الثواب الجزيل عليه، فلا نهوض إلا بعزيمة، ولا نصر إلا مع الصبر.

وليس يكفى المؤمن أن يكون صابراً فحسب، بل عليه أن يصابر، والذى يلوح لى فى المصابرة: أن الله تبارك وتعالى يأمر الأمة المسلمة أن تكون أشد الأمم تمسكًا بهذا الخلق، وألا تغلبها أمة عليه أيًا كانت، فبرود الإنجليز، ومثابرة الألمان بعض ما يدخل فى معنى المصابرة التى يجب أن يتَّصف بها المؤمن بحكم قوله تعالى: (وصابروا).

أفهمت أيها [الأخ] العزيز، أما المرابطة فذلك شأنه هو التمرين التطبيقى العملى على الصبر الخلقى النفسانى. وفقنا الله وإياك إلى العلم والعمل.

*****

فى سبيل الكرامة(1)

﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (١٩٠) وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (١٩١) فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٩٢) وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾ [البقرة : ١٩٠-١٩٣] .

فى الآية الكريمة مشروعية القتال فى الإسلام، وأسباب هذا القتال، والضمانات التى وضعها الشارع ليكون هذا القتال خيرًا لا شرَّ معه .

[مشروعية القتال فى الإسلام]

فاما مشروعية القتال فى الإسلام؛ فإنَّ الإسلام يفرض المسلم جنديًا لأول إيمانه بصحة تعاليم الدين واعتناقه إياها، وما ذكر الإيمان فى مواطن إلا وذكر الجهاد معه فى أغلب الأحايين، وإن القرآن الذى يقول : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ ﴾ [البقرة :١٨٣] هو القرآن الذى يقول : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ ﴾ [البقرة : ٢١٦]، وفى كل تشريعات الإسلام تحضير لطبع النفس المسلمة بطابع الجهاد فى سبيل الله، فليس فى الدنيا نظام يطبع متَّبعيه على روح الجندية الصحيحة كما يطبع الإسلامُ نفوس أبنائه عليها، والقولُ فى ذلك يطول، وإن أفضل القربات إلى الله : أن يخرج الإنسان لله وشريعته عن نفسه وماله، لا يختلف فى ذلك اثنان من المسلمين .

وإذا كان لا بد من أن نستخدم الاصطلاح الفقهى، فالجهاد فرض كفاية لنشر الدعوة الإسلامية، وفرض عين لرد عدوان غير المسلمين على أرض الإسلام وبلاد الإسلام .

إذن فالجهاد فريضة، وإذن فالجهاد قربة، بل أفضل قربة، ولهذا كانت الشهادة فى سبيل الله أقرب الطرق إلى الجنة، وكانت الجنة تحت ظلال السيوف، وكان للشهيد

---

(١) نشرت فى مجلة (جريدة الإخوان المسلمين) الأسبوعية فى العدد (٥) من السنة الرابعة الصادر فى ٢١من صفر سنة ١٣٥٥هـ ـ ١٢من مايو سنة ١٩٣٦م.

مميزاته فى الدنيا والآخرة، وليس بين الموتين فارق إلا أن الشهيد ينجو من فتنة الموت إذ فتن ببارقة السيوف، وينجو من السكرات إذ رآها رأى العين، أما غيره فيتذوق هذه السكرات، وتعترضه الفتَّانات، ولذا كان الجهاد أولاً وأخيراً يلى الإيمان فى فرائض هذا الدين، ويحتل منهما ذِرْوة السَّنام وكفى.

افلست بعد ذلك ترى أنَّ المسلم جندىٌّ بطبعه، وترى الافتراض واضحًا صريحًا فى قوله تعالى: (وقاتلوا فى سبيل الله) والأمر للوجوب، قال قوم منهم أبو جعفر الرازى: إنَّ الفريضة فى هذه الآية قتال من قاتلنا فهى فريضة دفاعية، وأن سورة براءة زادت على هذه الآية أن نقاتل للدعوة، فأتت بالفريضة الهجومية أيضًا، واستدل لرأيه هذا بظاهر لفظ الآية: (وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم)(١).

وقال غيره: كلا بل الأمر فى الآية الكريمة عام يشمل الدفاع والهجوم معًا، وأن قوله تبارك وتعالى: (الذين يقاتلونكم) إغراء وتهييج وذكر لبعض أسباب القتال، وأن ما جاء فى براءة وغيرها مؤكِّد لهذه الآية لا مجدِّد لحكم زائد.

ومهما يكن من شىء، فقد اتفق الطرفان على أن القتال واجب فى الدفاع وفى الهجوم متى توفرت أسبابه الشرعية.

إلى هنا نقول لمن يريدون طبع الأمم على التربية العسكرية: هذا حظكم الذى تنشدون، ولن تجدوا تشريعًا يساعدكم على تحقيق غايتكم كهذا التشريع الذى يجعلها فريضة لا فكاك منها، إلى ما يمتاز به من قداسة ونور وبرهان.

ولماذا يقاتل المسلم؟

أيقاتل المسلم طلبًا للعسل واللبن كما قاتلت الجنود الصليبية فى القرون الوسطى؟

أم يقاتل طلبًا للبترول والفحم والأسواق والخبز والمأوى كما تقاتل جنود الغرب الآن؟

أم يقاتل عتوًّا وتجبُّرًا وطغيانًا وخُيلاء كما حارب نابليون بجنوده قيصر روسيا؟

كلا. المسلم لا يقاتل لهذه الأغراض أبدًا، ولكن المسلم حين يقاتل، يقاتل لله.

---

(١) انظر: تفسير الرازى (٥/١٣٨) طبعة دار الفكر.

سُئل رسول الله ﷺ عن الرجل يقاتل شجاعة، ويقاتل حميَّة، ويقاتل رياء: أى ذلك فى سبيل الله؟ فقال: "من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله"(١).

[أهداف القتال فى الإسلام]

يقاتل المسلم لغايات نبيلة وأغراض سامية، أشارت الآية إلى بعضها، يقاتل المسلم دفاعًا عن كرامته، وذيادًا عن وطنه، وحفظًا لدمه، والقتل أنفى للقتل؛ وموضع ذلك فى الآية الكريمة قوله تعالى: (الذين يقاتلونكم) وقوله تعالى: (واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم).

ويقاتل دفعًا للفتنة ودرءًا للشر، وانتصارًا للضعفاء الذين يريد الأقوياء أن يفتنوهم عن عقائدهم بما لهم من قوة وجبروت، ولأن تبقى الفضيلة على الأرض خيرٌ من أن تعيش الأجسام على أنقاضها، فإذا دار الأمر بين الفضيلة بثمن من الدماء والأرواح؛ وبين الجسوم والدماء بغير فضيلة ولا حرية ولا كرامة؛ فأجدى على العالم أن تُراقَ الدماء، وتسيل النفوس من أن تنهار مبادئ الحق، وتُندَكَّ معالم الفضائل، وموضع هذا المعنى من الآية الكريمة قوله تعالى: (والفتنة أشد من القتل).

ويقاتل نشرًا للعدل بين الناس، وتعميمًا لمبادئ السمو والنور، وتبليغًا لرسالة الله التى كلفه إبلاغها، وإنَّ رسول الله ﷺ بُعث إلى الأمم كافة، فبلغ من عاصره، وهم من بعده نوَّابه فى إبلاغ دعوته، أمناء عليها إلى يوم القيامة، مامورون بتبليغها حتى لا يبقى فى الأرض كافر واحد، وموضع ذلك فى الآية الكريمة قول الله تبارك وتعالى: (حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله).

فإذا قبل الناس هذه المبادئ واعتقدوها فقد انتهى الخلاف بينهم وبين المسلمين، وقد سوَّى الإسلام بين الجميع، وأظلَّهم تحت راية عَلَمٍ خافق من العدل والإنصاف والحرية والمساواة: "أُمرت أن أقاتل الناس، حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فإذا قالوها فقد عصموا

---

(١) رواه أحمد (٥/٥٤٨) والبخارى(١٢٣) و (٢٨١٠) و(٣١٢٦) و(٧٤٥٨) ومسلم (١٩٠٤) والترمذى (١٦٤٦) والنسائى فى "المجتبى (٣١٣٦) وفى "الكبرى (٤٣٤٤) وابن ماجه (٢٧٨٣) والبيهقى فى "الشعب" (٤٢٦٣) وابو يعلى (٧٢٥٣) وابن حبان (٤٦٣٦) وعبد الرزاق (٩٥٦٧) وسعيد بن منصور فى سننه" (٢٥٤٣) عن ابى موسى الأشعرى رضى الله عنه.

منى دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله"[1] ذلك إلى مغفرة من الله ورضوان وثواب وإحسان، وموضع هذا المعنى من الآية الكريمة: (وإن انتهوا فإن الله غفور رحيم).

هذا وحشىٌّ قاتل حمزة سيد الشهداء يُسْلم، فإذا له ما للمسلمين وعليه ما عليهم، وهذه هند بنت عتبة آكلة الكبد تُسْلِم فيصافحها رسول الله ﷺ[2] وينسى لها سالف عدائها و"الإسلام يَجُبُّ ما قبله"[3]

ما أسمى الغاية التى يُقاتل لها المسلم!! وما أجلها!! وما أحوج الإنسانية فى عصرنا هذا إلى سيف من سيوف الله يحمى فيها مبادئ العدالة العامة، ويقيم ميزان الإنصاف الذى أمالته الأغراض والأهواء وقَضَتْ عليه مظاهر الرياء.

[أخلاقيات القتال فى الإسلام]

وإذا قاتل المسلم، فكيف يقاتل؟ أينتهك الحرمات، ويخرق المعاهدات، ويعبث بالقوانين، ويوغل فى الفتك والتدمير، ويستخدم كل سلاح حتى الغازات الخانقة والسامة والمشوِّهة كما يفعل ذلك متمدنو القرن العشرين؟!

كلا. إنَّ المسلم - الجندى بطبعه الذى يقاتل لأسمى غاية - لا يلجأ إلى مثل هذه الوسائل أبداً. إنه نبيل فى خصومته بقدر ما هو شريف فى غايته، وهل ترى أنبل فى الخصومة من هذا القانون الذى يمليه رسول الله ﷺ على قادة جيوشه:

---

(١) رواه البخارى (٢٥) عن ابن عمر و (٢٩٣٦) عن أبى هريرة، ومسلم (٢٢) عن ابن عمر و (٢١) عن ابى هريرة والترمذى (٢٦٠٦) والنسائى فى "المجتبى (٣٠٩٠) و (٣٠٩٥) وأبو داود (٢٦٤٠) وابن ماجه (٣٩٢٧) عن أبى هريرة رضى الله عنه والدارمى (٢٤٤٦) عن أوس بن أبى أوس رضى الله عنه.

(٢) لم يصح ان النبى ﷺ بايع امراة بيده مصافحًا، وحتى مبايعة هند لم يكن فيها مصافحة، وحديث بيعة هند ترويه عائشة رضى الله عنها فتقول: جاءت هند بنت عتبة بن ربيعة إلى رسول الله ﷺ لتبايعه، فنظر إلى يديها فقال لها: اذهبى فغيرى يدك. فذهبت فغيَّرتها بحناء، ثم جاءت إلى رسول الله ﷺ الخ" رواه أبو يعلى (٤٧٥٤) وقال محققه (الشيخ حسين سليم أسد): فى سنده ضعف.

(٣) رواه أحمد (٥/ ٢٢٢، ٢٣١، ٢٣٤) والبيهقى فى "السنن" (١٣/ ٤٥٠) والبخارى فى "التاريخ الكبير (٢/ ٣١٢) عن عمرو بن العاص رضى الله عنه. وحسَّن إسناده محققو المسند برقم (١٧٧٧٧) (٢٩/ ٣١٥). ومعنى يجب ما قبله: اى يمحو ما قبله من خطايا.

"اخرجوا باسم الله، قاتلوا فى سبيل الله من كفر بالله، لا تعتدوا، ولا تغلُوا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا الولدان، ولا أصحاب الصوامع" رواه أحمد[1] ومثله لأبى داود[2].

وفى الحديث الآخر: "إياكم والمُثلة ولو بالكلب العَقُور"[3].

وفى وصية أبى بكر رضى الله عنه لجيشه "لا تغدروا، ولا تغلوا، ولا تمثلوا، ولا تتبعوا مدبرا، ولا تجهزوا على جريح، ولا تقتلوا طفلاً ولا امرأةً ولا شيخًا كبيرًا، ولا تقطعوا شجرةً مثمرةً، ولا تعقروا بعيرًا إلا للأكل، وستمرُّون على قوم ترهَّبوا فى الصَّوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له"[4].

أىُّ تعاليم هذه؟ وأىُّ قانون دولى جمعها هذا الجمع ولخصها هذا التلخيص؟ وأيَّةُ أمة التزمتها كما التزمتها جنود الإسلام الفضلاء؛ حتى إذا تمَّ للمسلم الغلب وواتاه النصر فهو فى نصره نبيل كريم، كما هو فى غايته وحربه يستعمر للتعليم والإرشاد والتحرير والإسعاد.

ويقول حذيفة رضى الله عنه: ضَرَب لنا رسول الله ﷺ مثلاً فقال: "إنَّ قومًا كانوا أهلَ ضَعْفٍ ومَسْكَنَةٍ قاتلهم أهلُ تَجَبُّر وعداء[5]، فأظهر الله أهل الضعف عليهم، فَعَمَدُوا إلى عدوهم فاستعملوهم وسلطوهم، فأسخطوا الله عليهم إلى يوم يلقونه"[6].

---

(١) رواه أحمد (١/٤٩٣) وأبو يعلى (٢٥٤٩) والطبرانى فى الكبير (١١/١٧٩) والبيهقى فى "السنن" (١٣/٣٨٥) عن ابن عباس رضى الله عنهما. وحسَّن إسناده محققو المسند حديث رقم (٢٧٢٨).

(٢) رواه أبو داود برقم (٢٦١٤) عن أنس رضى الله عنه.

(٣) رواه الطبرانى فى "الكبير" (١/٩٧) عن على بن أبى طالب رضى الله عنه. وقال الهيثمى: مرسل وإسناده حسن. انظر: مجمع الزوائد (٩/١٤٥) وضعَّف إسناده الألبانى فى "إرواء الغليل" برقم (١٦٤٠) (٦/٧٦).

(٤) رواه البيهقى فى "السنن" (١٣/٣٧٤) عن سعيد بن المسيب.

(٥) كتبها الإمام "عداوة" والتصويب من المسند.

(٦) رواه أحمد (٦/٥٦٥) وابن أبى شيبة (٨/٦٠٦) وقد حسَّن إسناده الشيخ أحمد الساعاتى (والد الإمام البنا) فى "الفتح الربانى" (١٩/٨٣)، وضعف إسناده محققو المسند برقم (٢٣٤٦٢) (٣٨/٤٤٨). وقال السندى فى معانى الحديث: استعملوهم: أى اتخذوهم عبيدًا، وسلطوهم: أى على أعدائهم، وهذا مثل لقوم ضعاف أنعم الله عليهم، فاتخذوا نعمة الله سُلَّمًا إلى معاصيه والتَّجَبُّر والتكبر. وقال الشيخ الساعاتى: "سلطوهم": أى فى أشغال شاقة عليهم ولم يرحموهم. انظر فى هذه المعانى المسند طبعة الرسالة (٣٨/٤٤٨)، والفتح الربانى للشيخ الساعاتى (١٩/٨٣).

هذا مَثَلُ - يجمع فيه رسول الله ﷺ بين إحياء الأمل وإرشاد الأمم - أمّةٍ ضعيفةٍ غزتها قوية فنصر الله الضعيفة على عدوتها، فلما انتصرت ظلمت القويةَ التى ضعفت، فغضب الله عليها بذلك حتى ولو أن هذه المظلومة كانت معتدية، فانظر كيف يحيى رسول الله ﷺ آمال الضعفاء، ويلزمهم العدالة إذا صاروا أقوياء.

فالمسلم حين يحارب لا يخرق قانون الفضيلة؛ الفضيلة الناصعة البيضاء التى تمليها الأرواح الصافية، والإنسانية الكاملة، لا الفضيلة الصناعية التى يمليها الرياء السياسى فى صحف المعاهدات حتى إذا فتشت عنها لم تجدها شيئًا.

والمسلم إلى جانب هذا يحترم المقدَّسات ولا يمسها إلا إن أصابه منها العدوان، واستخدمت فى غير ما وضعت له وموضع ذلك كله من الآية الكريمة قوله تعالى: (ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين) وقوله تعالى: (ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه فإن قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكافرين).

ما أحوج العالم فى ظرفه هذا الدقيق إلى كتيبة إسلامية تؤمن بهذه المبادئ الربانية السامية علمًا وعملاً، فتتخلص من قيود هذه البيئة الفاسدة، وتدعم السلام فى العالم بالقوة الفاضلة، وتقضى على هذا الاضطراب بسيف من سيوف الله.

*****

في سبيل الكرامة (٢)[1]

﴿ الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾ وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [البقرة: ١٩٤، ١٩٥].

[سبب النزول]

قال عكرمة: عن ابن عباس والضحاك والسدى وقتادة ومقسم والربيع بن أنس وعطاء وغيرهم: لما سار رسول الله ﷺ معتمراً في سنة ست من الهجرة، وحبسه المشركون عن الدخول والوصول إلى البيت، وصدوه بمن معه من المسلمين في ذي القعدة، وهو شهر حرام حتى قاضاهم على الدخول من قابل، فدخلها في السنة التالية وأقصه الله منهم، ونزلت الآية الكريمة[2].

وقال الإمام أحمد رضي الله عنه بسنده عن جابر قال: "لم يكن رسول الله ﷺ يغزو في الشهر الحرام إلا أن يُغزَى فإذا حضره أقام حتى ينسلخ"[3] ولقد حاصر الرسول ﷺ المشركين من هوازن فأتى عليه ذو القعدة وهو محاصرهم بالمنجنيق، فلم ينصرف عنهم إلا بعد مُضي أيام من شهر ذي القعدة، ثم اعتمر وانصرف إلى المدينة.

هذا الذي رويناه لك يؤيد ما تقدم من احترام المسلم المجاهد للمقدسات فلا يعتدي عليها حتى يبدأه أهلها بالعدوان، وهو حين يقف هذا الموقف يلتزم فيه حدود رد العدوان فقط ولا يكون معتدياً، هذا الروح العادل واضح جلي في قول الله تعالى:

---

(١) نشرت في مجلة (جريدة الإخوان المسلمين) الأسبوعية في العدد (٦) من السنة الرابعة العاشر في يوم الثلاثاء الموافق ٢٨ من صفر سنة ١٣٥٥ هـ ـ ١٩ من مايو سنة ١٩٣٦م.

(٢) انظر: تفسير الطبري (٢/ ٢٠٢-٢٠٤)، وتفسير ابن أبي حاتم (١/ ٣٣١).

(٣) رواه أحمد (٤/ ٣٠٦:٢٨٧) والطحاوي في "مشكل الآثار" برقم (٤٨٢٩) عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما. وقال محققه (الشيخ شعيب الأرناؤوط): إسناده صحيح على شرط مسلم. وكذلك قال محقق مسند أحمد.

(الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم) وبديهي أن مقابلة العدوان بمثله ليست عدوانًا، ولكن الآية الكريمة عبرت عنها بكلمة: (فاعتدوا عليه) تأكيداً للمماثلة والمشابهة حتى في الألفاظ، وبيانًا لأن رد العدوان مطلوب حتى ولو استدعى ذلك أن نقابل عمل العدو بعمل آخر يدفعه، وإن لم يكن شبيهًا له في الصورة. ثم أكدت الآية الكريمة هذا الروح النبيل العادل ببيان أن المجاهد إذا التزم هذا الحد واتّقى العدوان وابتعد عنه كان الله معه يحوطه ويؤيّده بنصره.

[الجهاد بالمال]

ومن الجهاد: جهادٌ بغير النفس، وهو الجهاد بالمال، وقد نَدَب الإسلام إليه في كثير من آياته ومن أحاديث الرسول ﷺ، وحَسْبُنا قول الله تبارك وتعالى: ﴿ **وَمَا لَكُمْ أَلاَّ تُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُوْلَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلاًّ وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى** ﴾ [الحديد: ١٠] والآيات والأحاديث في ذلك أكثر من أن تحصر. ومنها الآية الكريمة التي نحن بصددها، ولهذا كان السلف الصالح رضوان الله عليهم من أسخى الناس بأموالهم في سبيل الله.

كانت أموال أبي بكر رضي الله عنه أربعين ألفًا، أنفق منها خمسا وثلاثين ألفًا على الدعوة، وجاء ذات مرة بكل ماله، فقال له الرسول ﷺ: "وماذا أبقيت لعيالك يا أبا بكر؟" فقال: أبقيت لهم الله ورسوله[١].

وجاء عمرُ بنصف ماله، وجهز عثمان جيشَ العُسْرَةِ واشترى بئر رومة وجعلها صدقة للمسلمين، ودفع عبد الرحمن بن عوف نصف ماله، ودفع معه (الأراشي)[٢] صاعا من تمر هو نصف أجرة ذلك اليوم، فَتَقَوَّلَ المنافقون ولمزوهما بالرياء، فأنزل الله قوله تعالى

---

(١) رواه الترمذي (٣٦٧٥) وقال: حسن صحيح، وأبو داود (١٦٧٨) والدارمي (١٦٦٠) والحاكم (١ / ٥٧٤) والبيهقي في "السنن" (٦ / ١٣٣) والبزار (٢٧٠) عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وحسنه الشيخ الألباني في "صحيح الترمذي" (٢٩٠٢).

(٢) الأراشي هو: ابن عقيل أخو بني أنيف الأراشي، حليف بني عمرو بن عوف.

﴿الذين يلمزون المطَّوِّعين من المؤمنين في الصدقات﴾ - يعنى عبد الرحمن بن عوف وأمثاله ﴿والذين لا يجدون إلا جهدهم﴾ يعنى الأراشى وأمثاله - ﴿فيسخرون منهم سخر الله منهم ولهم عذاب أليم﴾ [التوبة : ٧٩].

والآثار فى ذلك كثيرةٌ وهم رضوان الله عليهم فوارس هذا الميدان امتثالاً لأمر الله، وبذلاً فى سبيله، وإيثاراً لما عنده، فذلك أثر قوله تعالى : (وأنفقوا فى سبيل الله).

[تصحيح فهم مغلوط للآية الكريمة]

ولقد أراد قوم بعد ان فتح الله على المسلمين ونشر دعوتهم أن يركنوا إلى السكينة، ويَدَعُوا الجهاد، ويبخلوا بالنفقة، ويقيموا فى الاموال والزروع اكتفاء بما فتح الله عليهم، فانزل الله الآية الكريمة، وفيها : (ولا تلقوا بايديكم إلى التهلكة) إلى الهلاك بالإخلاد إلى الراحة وترك الجهاد، قال الحسن : ولا تلقوا بايديكم إلى التهلكة هو البخل[١].

وقال آخرون : بل الإلقاء باليد إلى التهلكة : أن يذنب الرجل فلا يتوب من ذنبه.

وعن النُّعمان بن بشير رضى الله عنه فى قوله تعالى : (ولا تلقوا بايديكم إلى التهلكة) قال : "يذنب الرجل الذنب فيقول : لا يغفر له، فانزلها الله" رواه ابن مردويه[٢].

وقال غيرهم : بل نزلت فى القوم يخرجون إلى الجهاد بغير نفقة فيجوعوا أو يكونوا عالة، فاوصاهم الله بالتزود للخروج[٣]

وأيًّا ما كان سبب نزول هذه الآية أو محملها، فليس المقصود بالإلقاء باليد إلى التهلكة الاستبسال فى لقاء العدو، ولا طلب الموت فى سبيل الله، ولا المسارعة إلى الشهادة، ولا أن يلقى الرجل الجيش فلا يرهبه، بل إن ذلك مما يرضى الله تبارك وتعالى، ويدل على قوة الإيمان، وثبات اليقين، والفناء فى الغاية، وتقدير ثواب الجهاد فى سبيل الله، وهذا ما فهمه السلف رضوان الله عليهم من الآية الكريمة، وإليك المثل من ذلك :

---

(١) انظر : تفسير الحسن (١ / ١٣٦).

(٢) رواه الطبرانى فى الأوسط وذكره الهيثمى فى مجمع البحرين (٣٢٩٦) وانظر : تفسير ابن أبى حاتم (١ / ٣٣٢)، والدر المنثور (١ / ٣٧٥).

(٣) انظر : تفسير ابن أبى حاتم (١ / ٣٣١).

١ـ عن أسلم أبي عمران قال: حَمَل رجلٌ من المهاجرين بالقسطنطينية على صفُ العدو حتى خرَقه ومعنا أبو أيوب الأنصاري، فقال ناس: ألقى بيده إلى التهلكة. فقال أبو أيوب: نحن أعلم بهذه الآية، إنما أُنزلت فينا، صحبنا رسول الله ﷺ، وشهدنا معه المشاهد ونُصرنا، فلما فشا الإسلام وظهر اجتمعنا معشر الأنصار تحببًا فقلنا: قد أكرمنا الله بصحبة نبيِّه ﷺ ونصره حتى فشا الإسلام وكثُر أهله، وكنا قد آثرناه على الأهلين والأموال والأولاد، وقد وضعت الحرب أوزارها؛ فنرجع إلى أهلينا وأولادنا فنقيم فيهما فنزل فينا: (وانفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة) فكانت التهلكة في الإقامة في الأهل والمال وترك الجهاد" رواه أبو داود والترمذي والنسائي وعبد بن حميد في تفسيره وابن أبي حاتم وابن جرير وابن مردويه والحافظ أبو يعلى في "مسنده" وابن حبَّان في "صحيحه" والحاكم في "مستدركه"(١).

ولفظ أبي داود فيه: "فخرج من المدينة صف عظيم من الروم، فصَفَفْنا لهم، فحمل رجل من المسلمين على الروم، حتى دخل فيهم، ثم خرج إلينا، فصاح الناس إليه، فقالوا: سبحان الله ألقى بيده إلى التهلكة، فقال أبو أيوب: يا أيها الناس: إنكم تَتَأوَّلون هذه الآية على غير التأويل، وإنما نزلت فينا معشر الأنصار، إنَّا لما أعزَّ الله دينه، وكَثُرَ ناصروه، قلنا ـ فيما بيننا ـ: لو أقبلنا على أموالنا فأصلحناها، فأنزل الله هذه الآية"(٢).

٢ـ وقال أبو بكر عيَّاش بن أبي إسحاق السبيعي قال: قال رجل للبراء بن عازب: إن حمَلتُ على العدو وحدي فقتلوني أكنت ألقيت بيدي إلى التهلكة؟ قال: لا، قال الله لرسوله: ﴿فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لا تُكَلَّفُ إِلاَّ نَفْسَكَ﴾ [النساء: ٨٤] إنما هذه (أي التهلكة) في النفقة، وفي رواية: ولكن التهلكة أن يذنب الرجل الذنب ولا يتوب(٣).

---

(١) رواه الترمذي (٢٩٧٢) وقال: حديث حسن غريب، وأبو داود (٢٥١٢) وابن حبان (٤٧١١) وقال محققه: إسناده صحيح. والنسائي في "الكبرى" (١١٠٢٩) والبيهقي (١٣/٢٨٨) والحاكم (٢/٣٠٢) وصححه على شرط الشيخين ووافقه الذهبي، وأخرجه الطبري في تفسيره (٣١٨٠) وابن عبد الحكم في "فتوح مصر" ص٢٦٩، ٢٧٠ عن أسلم أبي عمران التجيبي رضي الله عنه واسمه: أسلم ابن يزيد.

(٢) رواه أبو داود (٢٥١٢). وصححه الألباني في "صحيح أبي داود" (٢١٩٣).

(٣) ذكره الهيثمي في "مجمع البحرين" (٣٢٩٤) وانظر: تفسير ابن أبي حاتم (١/٣٣٢) والدر المنثور (١/٣٧٥).

٣ـ وعن عطاء عن سعيد بن جبير عن ابن عباس فى قوله تعالى: (ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة) ليست ذلك فى القتال إنما هو فى النفقة أن تمسك بيدك عن النفقة فى سبيل الله[١].

وهكذا نرى الإسلام الصحيح يقتضى المسلم نفسه وماله، وهل أعز من النفس والمال؟ وهاأنت ترى أنَّ الآية الكريمة لا تصلح حجةً للمتقاعدين المثبطين الذى يجبُنون عن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، والدعوة إلى المجاهدة فى سبيل الله، فإذا اعترضهم معترض احتجُوا بالآية الكريمة ولاذوا بها وهى عليهم لا لهم، ثم ختمت الآية الكريمة بقول الله تعالى: (وأحسنوا إن الله يحب المحسنين) فمن امتثل فقد أحسن، ومن أحسن أحبُه الله، ومن أحبُه الله سعد سعادة لا يشقى بعدها أبداً. فاللهمَّ أسعدنا بمحبتك، واجعلنا فداءً لشريعتك.

*****

(١) انظر: الدر المنثور (١/ ٣٧٤).

دعوتنا فى كتاب الله

من سنن الله فى تربية الأمم(1)

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ [البقرة : ٢١٤] .

[سبب نزول الآية]

قال قتادة والسدى : نزلت هذه الآية فى غزوة الخندق حين أصاب المسلمين ما أصابهم من الجهد وشدة الخوف والبرد وضيق العيش وأنواع الأذى، وقيل : نزلت فى حرب أحد .

وقال عطاء : لما دخل رسول الله ﷺ وأصحابه المدينة اشتدَّ عليهم الضر، لأنهم خرجوا بلا مال، وتركوا ديارهم وأموالهم بأيدى المشركين، وآثروا رضا الله ورسوله، وأظهرت اليهود العداوة لرسول الله ﷺ ، وأَسَرَّ قوم النفاق، فنزلت الآية الكريمة تطييبًا لقلوب المسلمين .

وأيًا ما كان سبب النزول فإن الآية الكريمة تقرِّرُ سنة من سنن الله فى حياة الأمم .

[الأمة بين طوْرين، طور القوة، وطور الضعف]

وذلك أنَّ كل أمة بين طَوْرَين لا ثالث لهما، يخلف كلٌّ منهما الآخر متى توفَّرت دواعيه وأسبابه، هذان الطوران هما طور القوة وطور الضعف .

فالأمة تقوى إذا حدَّدت غايتها، وعرفت مثلها الأعلى، ورسمت منهاجها، وصممت على الوصول إلى الغاية، وتنفيذ المنهاج ومحاكاة المثل مهما كلفها ذلك من تضحيات .

إذا صدقت عزيمة الأمة، وقويت إرادتها فى ذلك، فقد قويت قوة مطَّردة، لا تزال

---

(١) نشرت فى مجلة (جريدة الإخوان المسلمين) الأسبوعية فى العدد (٧) الصادر فى ٥ من ربيع الأول سنة ١٣٥٥هـ - ٢٦ من مايو سنة ١٩٣٦م.

تزداد حتى تتنسَّم غوارب المجد[1]، ولا يمكن لاية قوة فى الارض أن تضعف هذه القوة، او تنال من تلك الأمة وهى على هذا الحال.

ولا تزال الأمة كذلك بخير حتى تنسى الغاية، وتجهل المثل، وتضل المنهاج، وتؤثر المنفعة والمتعة على الجهاد والتضحية، وتهن العزائم، وتضعف الإرادات، وتنحل الاخلاق، ويكون مظهر ذلك: الإغراق فى الترف، والقعود عن الواجب، وحينئذ تأخذ الامة فى الضعف، ويدب إليها دبيب السقم الاجتماعى، ولا تزال تضعف حتى تتجدد أو تبيد.

[سبيل التجدد والإبادة]

وسبيل التجدُّد: أن يتيح الله لها الطبيب الماهر فيهتدى إلى الدواء الناجع، وتتبعه الامة فى تناول هذا الدواء، فتموت جراثيم المرض، وتعود إليها القوة، وتلك مهمة المصلحين والقادة، مصابيح الهدى، وشموس النهضات، بهم تنجلى كل فتنة عمياء.

وسبيل الإبادة: أن تَسْدرَ الامة فى غيِّها، وتظل هائمة على وجهها، لا تصيح لناصح، ولا تسمع لمرشد حتى تحين فيها ساعة الفناء.

هذه السُّنَّة الربَّانية فى بناء الامم تقررها هذه الآية الكريمة، فلا بد للمصلحين المجاهدين فى سبيل إحياء الامم، وإعادة قوتها ومجدها أن يصمدوا لكل خَطْب، ويحتملوا آلام الجهاد حتى تتحقق غايتهم، فيكون جزاؤهم النصر (ألا إن نصر الله قريب).

ولم تتخلف هذه السنة أبدًا فى قديم ولا حديث، حتى مع أفضل الرسل وخير الأنبياء وصفوة الخليقة سيدنا محمد ﷺ وأصحابه الغُرّ الميامين، والله تبارك وتعالى يقول: **﴿الٓمٓ ① أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ ② وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾** [العنكبوت: ١-٣].

وفى الصحيح: انَّ هرقل حين سال أبا سفيان عن رسول الله ﷺ قال: هل قاتلتموه؟

---

(١) تتنسم: أى تشم، انظر: مختار الصحاح ٦٥٨ وغوارب: جمع غارب، والغارب أعلى الشىء، انظر: لسان العرب (١/ ٦٤٤). ومعنى الجملة: أى تشم عوالى المجد والعزة.

قال : نعم . قال : فكيف كانت الحرب بينكم؟ قال : سجالا يُدَالُ علينا ونُدَالُ عليه . قال : كذلك الرسل تبتلى ثم تكون لها العاقبة(١).

وفى الصحيح : عن خبَّاب بن الارت رضى الله عنه قال : قلنا : يا رسول الله الا تستنصر لنا؟ الا تدعو لنا؟ فقال : "إن من كان قبلكم، كان أحدهم يوضع المِنْشَارُ على مفرق رأسه، فَيَخْلُص إلى قدميه، لا يصرفه ذلك عن دينه، ويُمشَّط بأمشاط الحديد ما بين لحمه وعظمه لا يصرفه ذلك عن دينه" ثم قال : "والله ليتمنَّ هذا الأمر، حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت، لا يخاف إلا الله، والذئب على غنمه، ولكنكم قوم تستعجلون"(٢).

ولقد تمَّت نبوءة رسول الله ﷺ، فتمَّ الامر، وظهر الدين، وقويت الأمة، وأدال الله للمسلمين من أعدائهم.

وفى حديث عتبة بن غزوان رضى الله عنه : لقد رأيتُنى سابع سبعة مع رسول الله ﷺ ما لنا طعام إلا الدقل وحسك السعدان، حتى تقرحت أشداقنا، ولقد شققت نَمرَة (عَبَاءة) بينى وبين سعد [بن مالك] وهاأنذا أنظر فلا أرى منا إلا أمير قُطْر أو مصرٍ(٣).

إنَّ فى ذلك لعبرة لأمم الإسلام فى نهضتها الحالية لو أرادت أن تعتبر، فلا مجال لليأس.

وهذه سبيل القوة : حدِّدوا الغاية، واعرفوا المثل، وارسموا المنهاج، واصبروا على الجهاد، وأعِدُّوا له عدته، والنصر من وراء ذلك إن شاء الله : ﴿ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف : ١٢٩].

*****

---

(١) رواه احمد (١/٤٣٣) والبخارى (٧) و(٤٥٥٣) ومسلم (١٧٧٣) عن ابن عباس رضى الله عنه.

(٢) رواه احمد (٦/١٢٥،١٢٨) و(٧/٥٤٢) والبخارى (٣٨٥٢) وابو داود (٢٦٤٩) و النسائى فى "الكبرى" (٥٨٩٣) والطبرانى فى "الكبير" (٤/٦٣،٦٤) والبيهقى فى "السنن" (١٣/١٩٤) وفى "الشعب" (١٦٣٣) وأبو يعلى (٧٢١٣) وابن حبان (٢٨٩٧) عن خباب بن الأرت رضى الله عنه.

(٣) رواه احمد (٥/١٨٥) ومسلم (٢٩٦٧) وابن ماجه (٤١٥٦) وابن حبان (٧١٢١) ووكيع فى "الزهد" (١٢٠) والطبرانى فى "الأوسط" (٥٣٤٢) عن عتبة بن غزوان رضى الله عنه والبيهقى فى "السنن" (١/١٨٦) عن سعد بن مالك رضى الله عنه.

صفحة من الوطنية فى كتاب الله[1]

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلأِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلاَّ تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلاَّ نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلاَّ قَلِيلاً مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٢٤٦) وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢٤٧) وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلائِكَةُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٢٤٨) فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلاَّ مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلاَّ قَلِيلاً مِنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاقُوا اللَّهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (٢٤٩) وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٢٥٠) فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٦ - ٢٥١].

[كيف تسترق الأمم؟]

كان موسى فى بنى إسرائيل هاديًا مرشدًا يقودهم إلى الخير، ويأمرهم بالمعروف، وينهاهم عن المنكر، ويبلّغهم أمر الله، فكان نعم الزعيم لهم، ونعم البانى لأمتهم، حرّرهم الله على يده من خصومهم، وردَّ عليهم ملكهم ووطنهم، وأعادهم أمة جديدة مجيدة كما كانوا من قبل.

---

(١) نشرت فى مجلة (جريدة الإخوان المسلمين) فى العددين: (٣) من السنة الرابعة الصادر فى يوم الثلاثاء الموافق ٧ من صفر سنة ١٣٥٥هـ - ٢٨ من إبريل سنة ١٩٣٦م، والعدد (٤) من نفس السنة الموافق ١٤ من صفر سنة ١٣٥٥هـ - ٥ من مايو سنة ١٩٣٦م.

وذهب موسى وقضى هارون فدبَّ إليهم داء الأمم، شاخت الأمة وكبرت وتلهَّت عن الحق، فضعفت، فسلط الله عليها أعداءها يقضون على حريتها ويخرجونها من ديارها وأبنائها.

تركت بنو إسرائيل التوراة وأحكام التوراة وتشريع التوراة فغزتهم العمالقة، واقتحموا ديارهم، واستعمروا أوطانهم، واستأثروا بها دونهم، فانظر كيف يكون جزاء الأمم إذا اهملت شأنها، وخرجت على مقوِّماتها.

[بمَ تتحرر الأوطان؟]

اخذ العقلاء من الشعب يفكرون فى شأنهم: ماذا يكون موقفهم أيقرون الذل ويرضون(١) بالضيم؟ أيتركون هذه البلاد نهبًا مقسمًا للغاصبين، وطعمة سائغة للمستعمرين، ملكهم ومجدهم وديارهم كل هذه ينسونها ويغفلون عنها؟! كلا، إن الشعب الحى لا يرضى بالمذلة، وإذن فلا بد من تخليص الوطن.

وبِمَ نخلص الأوطان من أيدى الغاصبين، نتحدث إليهم، نرجوهم، نتملقهم، لا، لأنَّ الغاصب لا يفهم لغة الحق، ولا يذعن لصوت الإنصاف، وإن حرية الأمم والشعوب لا تنال بالكلمات، فلا بد إذن من العمل. وما العمل؟ لا بد من القتال، لا بد من الجهاد فى سبيل الحقِّ المغصوب والمَجْد المسْلوب، وهكذا رأى زعماء بنى إسرائيل أنه لا نجاةَ للوطن إلا بالقتال فى سبيل الوطن.

وهنا لجؤوا إلى نبيِّهم وهو المرجع إذا لجَّ بهم الأمر، وهو الزعيم الروحى الذى يتنزل عليه أمر السماء، رجعوا إلى نبيهم فقصُّوا عليه القصص، وطالبوه أن يختار لهم زعيمًا عمليًّا عسكريًّا يقود جمعهم ويرأس كتيبتهم.

وهنا نرى صورة واضحة من وجوب تعاون قوى الأمة فى سبيل درء الخطر، وكيف يجب أن ينهض كل إنسان فى الأمة بالناحية التى يحسنها حتى تتناسق النهضة وتؤتى أكلها، وكان فى وسع نبىِّ بنى إسرائيل أن يدَّعى لنفسه القيادة الحربية، ويُلهب الحماس،

---

(١) كتبها الإمام البنا فى المقال (ام يرضون) والأفضل ان تكون (و) كما اثبتها، لان ما بعد ام غير مغاير لما قبلها كما نرى فى الفقرة.

ويغذى النفوس، ويصلح الأرواح، أما الميدان والقتال والكرُّ والفرُّ فهناك آخرون يجب عليهم أن يقوموا بنصيبهم فيه.

[التطلع للتحرر]

ونبىُّ بنى إسرائيل عليه السلام وهو (شمويل) أو (شمعون) على الخلاف فى اسمه أيًّا كان، فإنما يريد القرآن أن يعرض علينا الصورة من حيث هى، بعيدة عن الأشخاص والأزمان، لتكون نموذجًا يطبق على العصور وينتظم جميع الأمم.

هذا النبى يعلم نزوات النفوس، ويعلم البعد الشاسع بين الكلام والتنفيذ، ويعلم سعة الهوة بين القول والعمل، ويعتقد أن الحماس الوقتى شىء؛ والإيمان الثابت القوى شىء آخر، وكثير من الناس يتحمَّسون فى الرخاء ويهربون فى العناء، فأراد أن يستوثق منهم، ويستثير عزيمتهم فقال: (هل عسيتم إن كتب عليكم القتال ألا تقاتلوا قالوا وما لنا ألا نقاتل فى سبيل الله؟!).

وذكروا فى حماس وحدة ذلك السبب الذى أهاج نفوسهم وأثار حماستهم، وهو تخليص الوطن والأبناء.

ثم يذكر الله تبارك وتعالى صدق فراسَة ذلك النبى الكريم، وكيف أنهم حين جدَّ الجد، وكتب عليهم القتال تولَّوا إلا قليلا منهم، ووصف الحق تبارك وتعالى هؤلاء الفارين بأنهم ظلموا أنفسهم، وهو عليم بهذا الظلم فلا يدعه لهم، وسيؤاخذهم عليه أشد المؤاخذة.

ألا فليستوثق المجاهدون وليعلموا أن الجهاد جهد وعناء، فهل هم مستعدُّون؟

[البحث عن قائد]

قُضِىَ الأمر، ودوَّى النفير، ونادى منادى الجهاد، وبقى الزعيم. والزعيم والزعامة صخرة تتحطم أمامها الجماعات، وتحيا عندها المطامع، وتتمرد لها النفوس، وتدب عقارب الغايات والأغراض، فمن يا ترى سيكون زعيم الجماعة المجاهدة فى سبيل الوطن المغصوب؟

أخذ الأشراف يعدون أنفسهم للزعامة المنتظرة، ولكن الزعامة فى ساعة الخطر أسمى من المواريث والتقاليد، وفوق العرف والعادات إنها المواهب وكفى.

استعد الأشراف بحكم منزلتهم ومنصبهم لتلقى راية العبادة من النبى الكريم، ولكن النبى الكريم عَدَلَ بها إلى رجل من عامَّة الناس، إنه أعطى الراية طالوت، وما طالوت إلا سقَّاء أو دباغ من سبط بنيامين الذى لم يتشرَّف من قبل بالملك ولا بالنبوة؟!

وهنا وقع ما ينتظر من تقلُّب النفوس، وتحرُّك الأهواء، فهبَّ الأشراف والنبلاء ينكرون على طالوت حقَّه المكسوب، ويقولون فى عزَّة وإباء: (أنى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ولم يؤت سعة من المال).

يا سبحان الله حتى فى ساعة الخطر لا يريد الناس أن يتحرَّروا من الأوهام! ولكن النبى الكريم أجابهم فى هداة وسكون: إن الله اختاره لكم لموهبته، إنه أقواكم جسمًا والجهاد فى حاجة إلى القوة، إنه أوسعكم علمًا والجهاد فى حاجة إلى العلم، لهذا اصطفاه الله عليكم، ولهذا آثره الله بالملك، ولهذا أيَّده الله لأول أمره بأن أعاد إليكم التابوت والتوراة، وما فيهما من خير تركه آل موسى وآل هارون.

أيَّتها الأمة المجاهدة: اختارى الرجال للقيادة، واجعلى الأساس المواهب والرجولة، ودعى ما سوى ذلك من المقاييس، واعلمى أن أساس النهضات: قوة وعلم، أو عقل وجسم، يمدهما إيمان ثابت، ويقين راسخ، وشعور فيَّاض، فهل أنتم سامعون؟!

وبذلك ينتهى الدور الأول من أدوار تكوين الأمة المجاهدة، فنرى جماعة اتَّحدت على المطالبة بحقِّها، وتعاونت قوتها الروحية والعملية فى سبيل الوصول إلى هذا الحق، ووجد القائد الذى ترتكز بيده الراية ومن خلفه الجنود يرقبون ساعة الجهاد، وسنرى بعد ذلك من أمرهم ما سيكون.

[جهاد النفس قبل جهاد العدو]

هاهى الأمة المجاهدة قد سوَّت صفوفها، وأعدت كتائبها، ووقفت مع قائدها، تنتظر الأمر، وترقب النصر، ولكن هل هذا يكفى؟ هل مجرَّد دعوى المدَّعين ترفعهم إلى صفوف المجاهدين؟ وهل كل من زعم أنه بطل شجاع وعامل مُجِدٌّ يكون كذلك إذا جدَّ الجد؟ ذلك ما تثبت التجربة خلافه، وذلك ما ينقضه تاريخ نهضات الأمم، وذلك ما يعلم الله أن نفوس البشر لم تطبع عليه.

ووجود الأدعياء في صفوف المجاهدين خطر على كتيبتهم إذ ينهزمون لأول معركة، فيسرى الخَوَر منهم إلى الشجعان المغاوير، وإذن فمن الواجب في بناء الكتيبة الأولى أن تكون سليمة اللبنات، قوية الأسس، ثابتة الدعائم، وإذن فلا بد أن يخرج من بين أفرادها ضعاف النفوس، ومجاهدو الأقوال والألسن، وإذن لا بد من الاختبار والابتلاء حتى تتمحص الكتيبة، ولا يبقى في مواجهة العدو إلا الثابتون المخلصون، وذلك ما كان.

سار الجيش في مفازة قاحلة واجتاز صحراء قَفْر، فأخذ العطش من الجنود كل مأخذ، وأخذوا يعللون النفس بالماء يروون به الظمأ، وينقعون به الغُلَّةَ، حتى إذا ما تراءى لهم النهر من بعيد، ورأوا الماء يلمع، كأنه المرآة المجلوة، وأخذوا يتهيؤون للري، وإذا بأمر القائد العام: ألاّ تشربوا، ولا يباح لكم من هذا الماء إلا غَرفة واحدة لمن شاء، فمن خالف فليعتزلنا وليعتزل كتيبتنا، وليقعد في بيته، وكانت تلك أول معركة بين الجنود وبين أنفسهم أولاً، حتى إذا انتصروا على النفوس، ووثقوا بالعزائم كان ذلك عربون النصر على الأعداء.

بدأت المعركة فلم يثبت فيها إلا قليل، وصرع الظمأ الأدعياء، فذابت عزائمهم أمام حرارته، فانخزلوا عن الكتيبة، وبقى المجاهدون الثابتون، وقليل ماهم.

[النصر بالقلة المؤمنة لا بالكثرة الغافلة]

لا يضر الكتيبة قلة العدد ما دامت كثيرة الإيمان. وقف خالد في حروب الردة أمام جيش مسيلمة؛ وفي جيش خالد أخلاط من أهل القرى والبوادي يكثر بهم السواد، وتذهب مع كثرتهم النجدة، فلما طال به الأَمَدُ ميَّز الناس فلم يُبق إلا المؤمنين الصادقين من الأنصار والمهاجرين، فكانت النصرة، وكان التأييد، ذلك أن الله لا ينصر بكثرة عَدد ولا بكمال عُدد، وله سبحانه وتعالى جُند السماوات والأرض، ولكنه ينصر بالثبات والصبر.

[من عوامل النصر، الأمل]

بقى القلائل الثابتون من جيش طالوت وجاوزوا النهر، وعزموا على مناجزة عدوهم، وهم يعلمون أن عدوهم كثير العَدد، كامل العُدد، شديد البأس، وعلى رأسه جالوت القوى الشجاع.

ونظر جيش طالوت إلى قلة عدده فقال بعضهم: (لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده).

كادت هذه العاطفة اليائسة تسرى بين الجنود، فتقتل معنوياتهم، وتقضى على ثباتهم، وكيف وهم المنتخبون المختارون؟ وكيف وهم البقية الباقية من المجاهدين فى سبيل الوطن المغصوب؟

وهنا علا صوت الإيمان من قلوب أهل الإيمان، وهنا ظهرت العقيدة الصادقة، تفصح بأجلى بيان، وهنا يظهر الفارق البعيد بين المؤمنين والمأجورين، قال الذين يظنون ويعتقدون بنصر الله إياهم وتأييده لهم، وأنه من ورائهم، وأنهم لا شك مائتون، فموت فى ساحة الشرف خير من موت على فراش المذلة، قال هؤلاء: (كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين).

وإذن فلا قنوط، وإذن فلا معنى لليأس، وإذن فليسر الجيش المجاهد على بركة الله.

[مواجهة]

تراءت الفئتان، فهذا الغاصب المعتدى المغتر بقوته وجبروته وصولته وجنوده، وهذا المؤمن المدافع عن دينه وعرينه يستمدُّ النصر من الله، ويلجأ إليه فى كل أحواله: (ربنا أفرغ علينا صبرا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين) فلم يكن إلا رجع الطَّرْف حتى نصر الله كتيبته، وأعلى كلمته، وأيَّد جنده، (فهزموهم بإذن الله وقتل داود جالوت) ملك العمالقة وورثه فى ملكه، وأفاض الله عليه الحكمة، وشرَّفه بالنبوة، وعلَّمه مما يشاء.

وبعد فهى عبرة للشرق اليوم، والتاريخ يعيد نفسه، وإنَّ داود الشرق لرابض بالمرصاد لجالوت الغرب لو وجد الأنصار المؤمنين، فهلاَّ[1]؟.

*****

(١) ممن تناولوا قصة طالوت وجالوت بأسلوب أدبى دعوى رائع أيضا: الشيخ محمد الغزالى رحمه الله، فى كتابه: "الإسلام المفترى عليه بين الشيوعيين والرأسماليين" فتراجع فيه، ففيها من الدروس والعبارات الأدبية السامية ما يدعو لقراءتها.

ســـــورة التوبـــــة

تأثـــر(1)

[سبب اختيار سورة التوبة]

الحمد لله، وصلّى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

مررنا بسورة التوبة فى تراويح رمضان، ولتراويح رمضان فيضٌ، وللقرآن فيها ضوء وإشراق، وسورة التوبة سورة نَفَذَت إلى أعماق النفوس البشرية، فكشفت عن خباياها، وصوَّرت المجتمعات الإنسانية فاوضحت وقائعها وخفاياها. وأشدُّ الناس شعورا بهذه المعانى وتأثرا بها: أهل الدعوات، والعاملون لها، والمنتسبون إليها، أولئك الذين يحاولون تحويل النفوس، وتبديل الأوضاع، وإصلاح المجتمعات.

وما أشبه الليلة بالبارحة، وإنه لحقٌّ قول من قال: إنَّ الإنسانية التى خَطَت خُطُوات واسعة فى طريق الرُّقى العلمى والفكرى والمادى؛ لم تزل تَحْبُو فى طريق التقدم النفسى، والصلاح الاجتماعى.

ولقد كان يُخيَّل إلى وأنا أتلو آيات الكتاب الكريم من هذه السورة، وأتمثَّل معانيها، وما تصوِّره من دقائق النفوس والجماعات، أنها مازالت تتحدث عن العصر الذى نعيش فيه، وتعالج الداء الذى نعانيه، وتصف الدواء الذى نبغيه.

ولهذا اعتزمت منذ تلك اللحظة - مستعينًا بالله تبارك وتعالى - على أن أتدارسها من جديد مع القرَّاء الكرام على صفحات مجلة "الإخوان المسلمين"

[أسماء] سورة التوبة:

هى التوبة، وهى براءة، وهى المقشقشة. قال ابن عمر: لأنها تقشقش من النفاق، أى تبرأ منه.

وهى المبعثرة: لأنها تبعثر أخبار المنافقين وتبحث عنها وتثيرها.

---

(1) نشرت فى مجلة (الإخوان المسلمون) الأسبوعية فى العدد (167) الصادر فى 21 من شوال سنة 1366هـ - 6 من سبتمبر سنة 1947. وقد كتب الإمام الشهيد هذه المقالات التى احتوت على تفسير آيات من سورة التوبة تحت عنوان: نظرات فى كتاب الله، وقد اقتبست عنوان الكتاب من هذا العنوان.

والفاضحة: لأنها فضحت المنافقين. عن سعيد بن جُبَيْر، قلت لابن عباس: سورة التوبة، فقال: بل هى الفاضحة ما زالت تقول: "ومنهم، ومنهم" حتى ظنوا ألا يبقى أحد إلا وذكر فيها(١).

وهى سورة العذاب: لأنها تتوعدهم به. وهى المخزية: لأن فيها خزيهم. وهى المُدَمْدِمَة: لأنها تُدَمْدِم عليهم بالهلاك. وهى المُشَرِّدَة: لأنها شرَّدت جموع المنافقين لما كشفت من دسائسهم ومؤامراتهم. وهى المُثيرة: لأنها أثارت مخازيهم، وكشفت عن أحوالهم، وهتكت أستارهم، فهذه عشرة أسماء لهذه السورة، ولها بعد ذلك أسماء أُخَر(٢) وكلها تشير إلى ما تضمنته من تصوير النفوس والمجتمعات(٣).

ترك البسملة فى أولها:

قال محمد بن الحنفية: قلت لأبى - يعنى - علىُّ بن أبى طالب كرم الله وجهه: لِمَ لَمْ تكتبوا فى براءة بسم الله الرحمن الرحيم؟

قال: يا بنىَّ إنَّ براءة نَزلت بالسيف، وإن بسم الله الرحمن الرحيم أمان(٤)

---

(١) رواه البخارى فى صحيحه (٤٨٨٢) ومسلم (٣٠٣١).

(٢) وهى سورة البحوث لأنها تبحث عن سرائر المنافقين، قاله المقداد بن الأسود انظر: سنن البيهقى (١٣/ ٢٣١). وهى الحافرة، لأنها حفرت عن قلوب المنافقين، قاله الزجاج. انظر فى أسماء السورة: زاد المسير (٣/٣٨٩)، و«المحرر الوجيز» لابن عطية (٦/٣٩٦) و«روح المعانى» للآلوسى (١٠/ ٢٤٠). وقد ذكر الإمام السيوطى لها بضعة عشر اسمًا، انظر: "الإتقان فى علوم القرآن" (١/ ١٥٥، ١٥٦).

(٣) اعتاد الإمام البنا رحمه الله قبل الخوض فى تفسير اى سورة ان يبيِّن التناسب بين السورة وما قبلها، والغريب أنه لم يفعل ذلك فى هذه السورة، وإننى تتمة للفائدة أنقل هنا التناسب بين سورة التوبة وما قبلها (سورة الأنفال) مما كتبه العلامة المجدِّد محمد رشيد رضا، يقول رحمه الله: "وأما التناسب بينها وبين ما قبلها فإنه أظهر من التناسب بين سائر السور بعضها مع بعض، فهى كالمتمِّمة لسورة الأنفال فى معظم ما فيهما من أصول الدين وفروعه والسنن الإلهية والتشريع - وجله فى احكام القتال وما يتعلق به من الاستعداد له، وأسباب النصر فيه وغير ذلك من الأمور الروحية والمالية - واحكام المعاهدات والمواثيق من حفظها ونبذها عند وجود المقتضى له، واحكام الولاية فى الحرب وغيرها بين المؤمنين بعضهم مع بعض والكافرين بعضهم مع بعض، وكذا احوال المؤمنين الصادقين والكافرين والمذبذبين من المنافقين ومرضى القلوب، فما بدئ به فى الأولى اتم فى الثانية". انظر: تفسير المنار (١٠/١٤٧)

(٤) رواه الحاكم (٢/ ٣٦١) عن ابن عباس، وضعف السيوطى إسناده فى "قطف الأزهار فى كشف الأسرار (٢/١١٢٩) طبعة قطر. وانظر: زاد المسير (٣/ ٣٩٠) وذكره القرطبى (٨/ ٦٢).

وسُئل سفيان بن عيينة عن هذا؟ فقال: لأن البسملة رحمة، والرحمة أمان، وهذه السورة نزلت فى المنافقين(١).

وسُئل أبيُّ بن كعب عن هذا؟ فقال: إنها نزلت فى آخر القرآن، وكان رسول الله ﷺ يأمر فى كل سورة بكتابة بسم الله الرحمن الرحيم، ولم يأمر فى براءة بذلك، فضمت إلى الأنفال لشبهها بها(٢).

وعن ابن عباس قال: قلنا لعثمان [بن عفان]: ما حملكم إلى أن عمدتم إلى الأنفال وهى من المثانى، وإلى براءة فهى من المئين، فقرنتم بينهما، ولم تكتبوا سطر بسم الله الرحمن الرحيم، ووضعتموها فى السبع الطوال، ما حملكم على ذلك؟ قال عثمان: كان رسول الله ﷺ كثيراً ما يأتى عليه الزمان وهو ينزل عليه السور ذوات العدد، وكان إذا نزل عليه شيء دعا بعض من كان يكتب فقال: ضعوا هؤلاء الآيات فى السورة التى يذكر فيها كذا وكذا، وإذا نزلت عليه الآية يقول: ضعوا هذه الآية فى السورة التى يذكر فيها كذا وكذا، وكانت الأنفال من أوائل ما نزل بالمدينة، وكانت براءة من آخر القرآن نزولاً، وكانت قصتها شبيهة بقصتها، وظننت أنها منها، وقبض رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يبيِّن لنا أنها منها أو من غيرها، من أجل ذلك قرنت بينهما ولم أكتب بسم الله الرحمن الرحيم، ووضعتها فى السبع الطوال. أخرجه أبو داود والترمذى وقال: حديث حسن(٣).

---

(١) انظر: تفسير سفيان ابن عيينة ص ٢٥٧ . جمع: صالح محايرى. طبعة المكتب الإسلامى.

(٢) انظر: تفسير الكشاف (٢/ ٢٤١).

(٣) رواه أحمد (١/ ٩٢،١١١) والترمذى (٣٠٨٦) وقال: حديث حسن صحيح، وأبو داود (٧٨٦) و(٧٨٧) والحاكم (٢/ ٢٤١، ٣٦٠) وصححه على شرط الشيخين، والبيهقى فى "السنن" (٢/ ٣٣٦) والنسائي فى "الكبرى" (٨٠٠٧) والطبرانى فى "الأوسط" (٧٦٣٨) وأبو عبيد بن سلام فى "فضائل القرآن" (٢٢٢) والبغوى فى "شرح السنة" (٤/ ٥١٨) برقم (١٢٣١)، ورواه ابن أبى داود فى "المصاحف" برقم (٩٩) و(١٠٠) و(١٠١) و(١٠٢) عن ابن عباس رضى الله عنهما، ورده الشيخ الساعاتى فى "الفتح الربانى" (١٨/ ١٥٥)، وضعفه الشيخ شاكر، بل حكم عليه بانه لا اصل له، وذلك لوجود راو فى الحديث ضعيف فى الحديث، وهو يزيد الفارسى، قال فيه الحافظ: مقبول. كما ردُّ الشيخ احمد شاكر الحديث من جهة متنه، فقال: فيه تشكيك فى معرفة سور القرآن الثابتة بالتواتر القطعى قراءة وسماعا وكتابة فى المصاحف، وفيه تشكيك فى إثبات البسملة فى أوائل السور، كان عثمان كان يثبتها برايه، وينفيها برايه وحاشاه من ذلك. انظر: "المسند" (١/ ٣٢٩) بتحقيق الشيخ احمد شاكر. وقال محققو المسند: إسناده ضعيف ومتنه منكر، انظر: المسند (١/ ٤٦٠) (٣٩٩) طبعة الرسالة. وضعفه الشيخ الالبانى فى "ضعيف ابى داود" (١٦٨) و(١٦٩) وفى "ضعيف الترمذى" (٥٩٩).

أيَّةُ دقة كان يتحراها سلفنا الصالح رضوان الله عليهم فى كل ما يتصل بكتاب الله.

جــزى الله بالخــيــرات عنا ائمــةً لنا نقلوا القــرآن عــذبا وسَلْسـلا(١)

[زمن النزول]

والسورة مدنية بالاتفاق. قيل: إلا قوله تعالى: ﴿ما كَانَ للنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ﴾ [التوبة:١١٣]، لما رُوى فى الحديث المتفق عليه لنزولها فى النهى عن استغفار النبى ﷺ لعمه أبى طالب(٢).

وقد يُجاب عن هذا: بجواز أن يكون نزولها تاخر عن ذلك، كما زعم ابن الفَرَس وابن الجوزى: أن الآيتين الأخيرتين منها: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ [التوبة:١٢٨] مكيتان(٣).

ويردُّه ما رواه الحاكم وأبو الشيخ فى "تفسيره" عن ابن عباس من أن هاتين الآيتين آخر ما نزل من القرآن(٤). وقول الكثيرين أنها نزلت تامة.

سبب النزول:

سورة التوبة آخر سورة نزلت كاملة من كتاب الله(٥). وقد نزلت بعد عودته ﷺ من غزوة تبوك، وهى آخر غزواته ﷺ، فكان طبيعيًا أن تنزل سورة تحدِّد صلة النبى ﷺ ودعوته بالذين لم يؤمنوا بها من المشركين، وتكشف عن خفايا المندسين بين صفوف هؤلاء المؤمنين من المنافقين العابثين.

---

(١) من قصيدة للإمام الشاطبى القارئ، البيت العشرون منها، وتعرف بمتن الشاطبية، المسمى: حرز الأمانى ووجه التهانى فى القراءات السبع" ص٢ وانظر: "الوافى فى شرح الشاطبية فى القراءات السبع ص١٥ لعبد الفتاح عبد الغنى القاضى.

(٢) رواه أحمد (٦/٤٣٣) والبخارى (٤٦٧٥) ومسلم (٢٤) والنسائى فى "المجتبى (٢٠٣٥) وفى "الكبرى (٢١٦٢) و(١١٢٣٠) و(١١٣٨٣) وابن حبان (٩٨٢) والحاكم (٢/٣٦٦) والطبرانى فى "الكبير (٢٠/٣٤٩) عن المسيِّب بن حزن رضى الله عنه.

(٣) انظر: زاد المسير لابن الجوزى (٣/٣٨٨).

(٤) رواه أحمد (٦/١٦١) عن أبى بن كعب رضى الله عنه، والحاكم (٢/٣٦٨) وصححه عن أبى بن كعب وعبد الله بن عباس رضى الله عنهم. وضعف محققو المسند إسناده (٣٥/١٥٠).

(٥) ذكر ذلك أحمد (٥/٣٨٢) والبخارى (٤٦٥٤) ومسلم (١٦١٨) عن البراء بن عازب رضى الله عنه.

والإسلام شريعة واضحة صريحة تواجه الواقع وتطوِّعه، ولا تخادع ولا تخاتل، وقد خَبَر رسول الله ﷺ المشركين، وقاسى العناء الشديد من غدرهم ونقضهم مواثيقهم بعد الحديبية تارة، وبعد الفتح وتبوك تارة أخرى. كما صبر ﷺ على مؤامرات المنافقين ومُداراتهم صبرًا طويلاً جميلاً، حتى أصبح استمرار هذا الصبر: ضارًا بالدعوة وبالمجتمع الإسلامي الجديد، فلم يبق بعد ذلك إلا أن يفاصل هؤلاء وأولئك، وكانت سورة التوبة سورة المُفَاصَلَة، وكان إعلانها على رؤوس الأشهاد ويوم الحج الأكبر سنة تسع من الهجرة.

بعث بها رسول الله ﷺ أولاً أبا بكر رضي الله عنه، وقد أمَّره على الموسم، ثم أردفه بعليٍّ وأمره أن يكون هو مُبَلِّغ الرسالة(١).

وقد أراد قوم أن يستدلوا بذلك على تفضيل على كرم الله وجهه على أبي بكر رضي الله عنه، ولا دليل في ذلك على شيء من هذا، فإنما جرى فيه رسول الله ﷺ على سُنَّة العرب وتقليدهم، إذ كان من عادتهم: أن يعلن العهد أو ينقض الموثق: زعيم القوم، أو أمَسُّ الناس به رحمًا(٢).

ولا شك أن عليًا كرَّم الله وجهه أمَسُّ رَحِمًا برسول الله ﷺ من الصدِّيق رضي الله عنه، ولا يقتضي ذلك التفضيل المُطْلق، والمَزِيَّة لا تقتضي الأفضلية كما يقولون، ومن الخير للناس: ألا يخوضوا في هذه الأحاديث، فقد أفضى كُلٌّ إلى ما قدَّم، والفضل بيد الله يرفع درجات من يشاء(٣).

وقد أدَّى عليٌّ كرم الله وجهه رسالة رسول الله ﷺ بإذن من أبي بكر رضي الله عنه، قام أبو بكر فخطب الناس، وحدَّثهم عن مناسكهم ثم التفت إلى عليٍّ فقال: يا عليُّ قُم

---

(١) انظر: الطبري (٦/٣٠٧).

(٢) انظر: فتح الباري (٨/٤٠٩).

(٣) راجع في الرد على من أخذ - من الروافض وغيرهم - من هذا الموقف تفضيل عليٍّ على أبي بكر رضي الله عنهما: "زاد المسير" لابن الجوزي (٣/٣٩١،٣٩٢) وما كتبه العلامة الشيخ محمد رشيد رضا رحمه الله في "تفسير المنار" حول هذه القضية، انظر: تفسير المنار (١٠/١٦١-١٦٤) وقول الإمام الشهيد: "والفضل بيد الله يرفع درجات من يشاء" اقتباسٌ من قوله تعالى: ﴿نَرْفَعُ درجاتٍ مَّن نَّشَاءُ﴾ [يوسف:٧٦].

فادُ رسالة رسول الله ﷺ، فقمت فقرات أربعين آية من براءة، ثم صدرنا حتى رمَيْت الجمرة، فطفقت أتتبع بها الفساطيط اقرؤها عليهم، لأن الجميع لم يكونوا حضروا خطبة ابى بكر رضى الله عنه(١).

وقال زيد بن يُثَيْع: سألنا عليًا: بأى شىء بُعثت فى الحجة؟ قال: بعثت بأربع: لا يطوف بالبيت عُرْيان، ومن كان بينه وبين النبى ﷺ عَهْدٌ فهو إلى مُدَّته، ومن لم يكن له عهدٌ فأجله أربعة أشهر، ولا يدخل الجنة إلا نفسٌ مؤمنة، ولا يُجمع المشركون والمسلمون بعد عامهم هذا فى حج(٢).

*****

(١) رواه النسائى فى "المجتبى" (٢٩٣٣) وابن حبان (٦٦٤٥) والدارمى (١٩١٥) عن جابر بن عبد الله رضى الله عنه.

(٢) رواه احمد (٢/٢٩٩) وقال محققوه: إسناده صحيح، انظر: المسند (٢/٣٢، ٣٣) والترمذى (٨٧١) عن زيد بن يثيع وقال: حديث حسن. وبرقم (٣٠٩٢) عن زيد بن يثيع وقال: حديث حسن صحيح، وصححه الألبانى فى "صحيح الترمذى" (٢٤٦٧). وقد اختلف المحققون فى اسم الراوى، فقد ذكره محققو المسند باسم زيد بن اثيع، وذكره الشيخ الألبانى فى "صحيح الترمذى" باسم زيد بن يثيع.

[موقف القرآن من مشركى الجزيرة العربية][1]

﴿ بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ① فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ ② وَأَذَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ③ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾ [التوبة : ١-٤].

بعد ان أيَّد الله نبيَّه، واظهر شريعته، واعلى كلمته، وفُتحت مكة، وبُدئ فى غزو الروم، كان لا بد أن يستتبَّ الامنُ، ويستقرَّ الأمر فى الجزيرة العربية لهذا الدين القيِّم وتلك الدعوة الجديدة، حتى يسير الراكب من أقصاها إلى أقصاها لا يخشى إلا الله والذئب على غنمه، كما قال رسول الله ﷺ، وكان الذين لم يدخلوا فى هذا الدين من المشركين والمنافقين بالنسبة لصلتهم به ثلاثة أقسام:

[القسم الأول]

قسم كانت بينه وبين رسول الله ﷺ عهود ومواثيق فلم يحفظوها، وانتهزوا فرصة اشتغاله عليه الصلاة والسلام بالغزوات الكبرى كتبوك، ونقضوا عهدهم، وأخذوا يشيعون قالة السوء، ويذيعون الأراجيف بالباطل، وكان أمد هذه العهود يمتد إلى أقل من أربعة أشهر أو أكثر منها، فكان من الطبيعى أن يأمر الله نبيَّه بنقض عهودهم

---

[1] نشرت فى مجلة (الإخوان المسلمون) الأسبوعية فى العدد (١٦٨) من السنة الخامسة فى يوم السبت الموافق ٢٨ من شوال سنة ١٣٦٦هـ-١٣ من سبتمبر سنة ١٩٤٧م. وقد قدمت مجلة الإخوان المسلمين لهذه النظرات القرآنية بهذه الفقرة: "أحب شىء إلى الإخوان أن يسمعوا مرشدهم، وأن يقرأوا ما يكتب. وذلك لما انطوت عليه نفوسهم وضمته قلوبهم من حب عميق لمرشدهم الذى اجتمعت عليه القلوب، فاحاطته بحب نادر لا يحظى به إلا العباقرة المخلصون، والقادة المصلحون، ورجال التاريخ القلائل...
وقد تفضل فضيلته فاخذ على نفسه أن يكتب لقراء المجلة. فليهنأوا بهذا الخير الذى نرجو الا ينقطع أبدا إن شاء الله.
وها نحن نقدم بكل فخر تفسير آيات القرآن بآيات من روائع البيان.. وليروا النظرات النفاذة التى ترى الحقائق بعين البصيرة، وتكشف الخير للناس من كنوز قرآننا العزيز ودستورنا القويم.

ومواثيقهم، وأنْ يَنْبِذَ إليهم بالخصومة والعداء والحرب، وأن يمنحهم الفرصة إذا كانت عهودهم تنتهي قبل أربعة أشهر تفضلاً منه وكرمًا.

قال البغوي: لما خرج النبي ﷺ إلى تبوك، كان المنافقون يرجفون الأراجيف، وجعل المشركون ينقضون عهودًا كانت بينهم وبين رسول الله ﷺ، فأمر الله عز وجل بنقض عهودهم[1].

[القسم الثاني]

وقسم كان بينه وبينه ﷺ عهود ومواثيق فوفَّى بها، وحافظ عليها كبني مُرَّة وبني مدلج وبني خزيمة بن عامر من بني كنانة، وهؤلاء أمر الله نبيَّه ﷺ أن يتم إليهم عهدهم إلى مدتهم.

[القسم الثالث]

أولئك الذين لم يتَّصلوا بالرسول ﷺ، ولم يؤمنوا بدعوته، ولم يربطهم به عهد ولا مَوْثِق، وهؤلاء اغلب ما يكونون مثار فتنة، ومبعث إرجاف، ومن الخير كل الخير للدعوة الجديدة: ألاَّ يجتمع في جزيرة العرب دِينان، ولهذا آذن الله ورسوله هذا القسم: بان يُحدِّد صلته بالدعوة، وأمامه هذه الفرصة المحتومة: أربعة أشهر ليختاروا لأنفسهم ويحددوا موقفهم.

فذلك قول الله تعالى: (براءة من الله ورسوله) الآيات.

والبراءة والتَّبرِّي: التَّقَصِّي والبُعْد والمُجانَبَة.

[معنى الحج الأكبر]

واختلف المفسِّرون في المقصود بالحج الاكبر، فقيل: هو يوم عرفة، وروى هذا القول عن عمر وعثمان وابن عباس وطاووس ومجاهد، وهو مذهب أبي حنيفة، وبه قال الشافعي[2]، واستدلوا بحديث مخْرَمة انَّ النبي ﷺ قال: "يوم الحج الاكبر يوم عرفة"[3].

---

(١) انظر: تفسير البغوي (٤ / ٨).

(٢) انظر: البحر المحيط (٥ / ٧) والمحرر الوجيز (٦ / ٤٠٥) والقرطبي (٨ / ٦٩).

(٣) رواه الطبري عن أبي قيس بن مخرمة، واسمه محمد بن قيس بن مخرمة بن عبد المطلب بن عبد مناف، تابعي ثقة، روى عن النبي ﷺ مرسلا، فالحديث مرسل. انظر: تفسير الطبري (١٤ / ١١٥) الأثر (١٦٣٨٩) تحقيق الشيخ محمود شاكر.

وقيل: هو النحر، واختاره الطبرى، وروى عن علىٍّ وابن عباس أيضًا وابن مسعود وابن أبى أوفى والمغيرة بن شعبة(١). لما روى ابن عمر: أن رسول الله ﷺ وقف يوم النحر فى الحجة التى حج فيها فقال: "أىُّ يوم هذا؟ فقالوا: يوم النحر، فقال: هذا يوم الحج الأكبر أخرجه أبو داود(٢).

وقال ابن أبى أوْفَى: يوم النحر: يوم الحج الأكبر، يهراق فيه الدم، ويوضع فيه الشَّعْر، ويُلقى فيه التَّفَث، وتُحَلُّ فيه الحُرَم، وهو مذهب مالك(٣).

وقيل: الأكبر أيام منى كلها، وذهب إليه الثَّوْرى وابن جريج.

وعن مجاهد: أيام الحج كلها(٤).

وقال ابن سيرين: يوم الحج الأكبر: العام الذى حج فيه النبى ﷺ(٥).

[الرأى الراجح]

وأشبه الأقوال بأسلوب القرآن الكريم أن يُقال: إنَّ هذا الوصف إنما أُريد به تعظيم شأن الحج، فكل حجٍّ أكبر، وهذه الأقوال كلها تفصيل لذلك.

[دروس من الآيات]

وفى الآيات الكريمة: دعوة ضِمْنيَّة، وإغراء للمشركين بأن يتوبوا، وأن يدخلوا فى هذا الدين فهو خير لهم، وتهديد بأنهم إن لم يفعلوا ذلك فلن يُعجزوا الله تبارك وتعالى، بل إنه قادر على أن ينتقم منهم فى الدنيا، ويعذبهم العذاب الأليم فى الآخرة،

---

(١) انظر: مصنف ابن أبى شيبة (٤/ ٤٧٠، ٤٧١) والبحر المحيط (٥/ ٧) والمحرر الوجيز (٦/ ٤٠٥) والقرطبى (٨/ ٦٩). وهو قول سفيان الثورى أيضا، انظر: تفسير سفيان الثورى (ص١٢٣ ط: دار الكتب العلمية.

(٢) رواه أبو داود (١٩٤٥) وابن ماجه (٣٠٥٨) عن ابن عمر رضى الله عنهما. وصححه الألبانى فى صحيح أبى داود (١٧١٤).

(٣) انظر: القرطبى (٨/ ٦٩).

(٤) المصدر السابق (٨/ ٧٠).

(٥) انظر: البحر المحيط (٥/ ٧) والقرطبى (٨/ ٧٠).

فذلك قول الله تعالى : ﴿ فإن تبتم فهو خير لكم وإن توليتم فاعلموا أنكم غير معجزي الله وبشر الذين كفروا بعذاب أليم ﴾ [التوبة :٣] .

كما أن في الآيات كذلك : إشارة إلى فضل المحافظة على العهد والميثاق، وأن ذلك من شرائط الإيمان وعلامات التقوى ﴿ فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم إن الله يحب المتقين ﴾ [التوبة : ٤] .

*****

[من أحكام العهود مع المشركين][1]

﴿ فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَعْلَمُونَ ۝ كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ اللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِ إِلاَّ الَّذِينَ عَاهَدتُّمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ۝ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلاًّ وَلا ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ۝ اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلاً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝ لا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلاًّ وَلا ذِمَّةً وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ ۝ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [التوبة: ٥-١١].

غاية المسلم من القتال:

انْسَلَخَ الشهر: انتهى وانقضى[2]، والأشهر الحرم المقصودة هنا هى الأربعة التى مُنحت لهم فى أغلب أقوال المفسرين وأوضحها، تمشيًا مع السياق، وقيل: هى الأشهر الحرم المعروفة: (ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، ورجب). والأول أدق وألصق بالمقصود.

وقد أذن الله بهذه الآية للمؤمنين بقتال خصومهم بعد انتهاء مدة الهدنة، وأباح لهم بها ما تقتضيه الحرب من القتل أينما وُجدوا، ومن الأَسْر ومن الحصار والتضييق، ومن المراقبة وتعرُّف أحوالهم، وتبيُّن مواطن الضعف والقوة منهم حتى توضع خطط قتالهم على ضوء هذه المراقبة.

ثم تعرَّضت الآية الكريمة بعد ذلك للغاية من هذا القتال وأنها ليست غاية مادية من اتِّساع ملك، أو طلب سلطان، أو استعباد شعب، أو الحصول على الخامات والمواد

---

(١) نشرت فى مجلة (الإخوان المسلمون) الأسبوعية فى العدد (١٦٩) من السنة الخامسة فى يوم السبت الموافق ٥ من ذى القعدة سنة١٣٦٦هـ- ٢٠ من سبتمبر سنة ١٩٤٧

(٢) انظر: لسان العرب (٦/ ٣٤٤).

الأولية، أو فتح الأسواق والميادين للتجارة، وتصريف المصنوعات إلى غير ذلك من أغراض الحرب المادية والاقتصادية، ولكن الغاية تأمين الدعوة في جزيرة العرب تأمينًا كاملاً بحيث لا يكون فيها إلا مسلم، حتى تقوم الدعوة على أمة موحَّدة العقيدة، وعلى دولة محددة الهدف، فإذا كان هؤلاء المشركون سيذعنون للدعوة ويدخلون فيها، وآية دخولهم: توبتهم بالندم على ما مضى من كفران، والمسارعة بالدخول فيما دخل فيه أهل الإيمان، وإثبات ذلك عمليًا بالشعيرة الروحية العبادية وهي الصلاة، وبالشعيرة الاجتماعية المالية وهي الزكاة، فحينئذ تحققت الغاية المقصودة، ولا يصح أن يُقاتَلوا أو يُحارَبوا، ولهذا أمر الله المؤمنين بأن يخلوا سبيلهم ولا يؤاخذوهم بما مضى من أعمالهم، و"الإسلام يجُبُّ ما قبله"[1] إن الله غفور رحيم، ومن هنا يتضح سمو الغاية التي يقاتل من أجلها المسلم وهي حماية الحق بالقوة.

وقد أطال كثيرٌ من المفسرين في الاستدلال بالآية على كفر تارك الصلاة، واستطرد بعضهم إلى مدلول الإيمان، وهل يدخل فيه العمل أم هو مجرد الاعتقاد؟ ودخلوا في تفاصيل وتفاريع تضيع وضوح القصد الأهم في ثناياها، ولهذا لم نشأ أن ندخل معهم فيها، وحسبنا أن نعلم أن المسلم لن يَكْمُل له معنى الإسلام؛ ولن يكون في عداد المؤمنين الصادقين إلا إذا تطهَّر وجدانه بالتوبة والعقيدة الثابتة، وظهر ذلك في أعماله التي أظهرها الصلاة والزكاة[2]. وحسبك من القلادة ما أحاط بالجيد[3]

حق الأمان:

ولكل مشرك أن يطلب الأمان ليتفقَّه في الدين، وليسمع الدعوة من كتاب الله تبارك وتعالى، وعلى المؤمنين أن يتقبلوا هذا الطلب منه، وأن يجيروه ويسمعوه، ولا يمسوه بأذى، ثم عليهم بعد ذلك أن يصلوا به إلى مأمنه مطمئنا معافى، ثم تجرى عليه بعد ذلك أحكام غيره من الناس.

---

(١) حديث رواه أحمد (٥/٢٢٢، ٢٣٤) وابن خزيمة (٢٥١٥) والبيهقي في "السنن" (١٣/٤٠١) عن عمرو بن العاص رضي الله عنه.

(٢) لمزيد من التفصيل في هذه القضية، انظر: تفسير المنار (١٠/١٦٩-١٧٦).

(٣) مثل عربي معناه: اكتف بالقليل من الكثير، ولكن بذكر المثل بلفظ: حسبك من القلادة ما أحاط بالعُنُق، انظر: مجمع الأمثال للميداني (١/٣٤٨) المثل رقم (١٠٣٥)، وموسوعة أمثال العرب (٣/٥٦١).

ومن وُجد فى أرض الإسلام من الحربيين أو التجار مثلا فقبض عليه فاعتذر بانه جاء ليطلب الأمان، أو بانه لم يكن يعرف أن التجار يعاملون معاملة المحاربين أمضى له هذا الأمان، إلا أن يثبت عليه غير ذلك من تجسس، أو مكيدة حرصًا من المشرِّع الإسلامى على استبقاء النفوس، واستمالة الأفئدة إلى الدعوة التى هى المقصود الأول والأخير فى الحرب وفى السلم.

[من له حق إعطاء الأمان؟]

والأمان من حق الإمام أو نائبه بلا خلاف، وفى إعطاء هذا الحق لغيره تفصيل طويل، حتى ذهب بعض الأئمة إلى أن الأمان من حقِّ كل مسلم حر، رجلاً كان أو امرأةً، أو صبيًّا بلغ سن التمييز واحتمل تكاليف القتال[1]، أخذًا من قول رسول الله ﷺ : "المسلمون تتكافأ دماؤهم، ويسعى بذمتهم أدناهم، وهم يدٌ على من سواهم"[2] وللعبد المسلم أن يعطى الأمان، وأمانه نافذ عند قوم بلا شرط، وعند آخرين بشرط: أن يجيزه سيده، أو يوافق الإمام على هذا الأمان[3] وليس بعد ذلك تكريم لإنسانية الإنسان، أو تقدير لوحدة الجماعة وحق الفرد فيها، كما أن لها فى دمه وماله إذا هددها شيء كل شيء، وذلك قول الله تعالى: ﴿ وإن أحد من المشركين ﴾ الآية.

لمن نفى؟

لا وفاء إلا لمن وفى، وهؤلاء المشركون الذين ستأتى أوصافهم وقيمة العهود والمواثيق عندهم لا عهد لهم عند الله وعند رسوله، إلا قبائل من بنى بكر عاهدوا رسول الله ﷺ عند المسجد الحرام عام الحديبية - ونقضت قريش وحلفاؤها عهدهم - ولكنهم ثبتوا،

---

(١) بل ذهب أكثر أهل العلم إلى ذلك، وليس بعضهم كما قال الإمام البنا، فقد نصوا على: صحة الأمان من كل مسلم بالغ عاقل مختار، وهذا القول مروى عن: الثورى، والأوزاعى، والشافعى، وإسحاق، وابن القاسم، وأكثر أهل العلم، كما قال ابن قدامة. انظر: المغنى (١٣ / ٧٥).

(٢) رواه أحمد (١ / ١٩١،١٩٧) والبخارى (١١١) و (٣٠٤٧) و (٦٩٠٣) و (٦٩١٥) والترمذى (١٤١٢) والنسائى فى "المجتبى" (٤٧٤٤) وفى "الكبرى" (٨٦٨٢) وأبو داود (٤٥٣٠) وابن ماجه (٢٦٥٨) والبزار (٧١٤) وأبو يعلى (٣٣٨) و (٦٢٨) والبيهقى فى "السنن" (٨ / ٢٨) والطبرانى فى "الأوسط" (٥٢٧٧) وعبد الرزاق فى "المصنف" (١٨٥٠٧) عن أبى جحيفة.

(٣) انظر: المغنى (١٣ / ٧٥).

فكافاهم الإسلام بأن حافظ كذلك على عهدهم، وأمر المؤمنين أن يستقيموا لهم ما داموا مستقيمين على عهدهم، إن الله يحب المتقين.

العهد عند المشركين:

العهد عند المشركين مصونٌ محفوظ ما داموا فى ضعف وخوف، فإذا أحسُّوا بشىء من معانى القوة والظهور لم يَرْقُبوا فى مؤمن عهداً ولا ذمةً ولا مَوْثقًا. (والإلُّ: العهد واليمين والموثق)(١) وخدعوا المؤمنين بالألفاظ المعسولة والأقوال الكاذبة، وتأبى ذلك قلوبهم المريضة وأنفسهم العليلة المملوءة بالغيظ والحقد على الإسلام والمسلمين، وأكثرهم مطبوع على الخروج عن طاعة الله ومخالفة أمره، وكما كان هذا الوصف فى المشركين، فهو كذلك فى كثير من الكتابيين الذين نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم، واشتروا بآياته ثمنًا قليلاً، وتخلقوا بأخلاق أهل الشرك والجهالة، فصاروا هم الآخرون لا يرقبون فى مؤمن إلا ولا ذمة، واعتدوا بذلك على حدود الله التى عرفوها فلم يقفوا عندها.

هذا على أن الآية الأولى فى المشركين، والثانية فى اليهود الكتابيين(٢)، وهو قولٌ حسن، وإن كانتا الاثنتان فى المشركين، فالثانية توكيد للأولى وهو مألوف فى الأسلوب العربى حين يراد المبالغة فى الكشف والبيان.

ومع هذه الصفات فى المشركين، أو فى المشركين والكتابيين، فإن مدار معاملتهم متوقِّف على صلتهم بهذه الدعوة، وليس [هنالك] ما يمنعهم من أن يدخلوها فيصونوا بذلك دماءهم وأرواحهم إلا بحقِّها وحسابهم على الله، ويثبت لهم فيمن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة: حقّ أخوة أهل الإيمان وإنه لحقٌّ عظيم، وسنبين فى الكلمة الآتية ما يترتَّب على نقض هذه المواثيق من جزاء إن شاء الله.

*****

(١) انظر: تفسير غريب القرآن ص١٨٣، و وضح البرهان فى مشكلات القرآن لبيان الحق النيسابورى (١/٣٩٢). وقال الطبرى: الإلُّ: اسم يشتمل على معان ثلاثة، وهى: العهد والعقد، والحلف، والقرابة، وهو أيضا بمعنى الله. فإذا كانت الكلمة تشمل هذه المعانى الثلاثة، ولم يكن الله خص من ذلك معنى دون معنى، فالصواب أن يعم ذلك كما عمَّ بها جل ثناؤه معانيها الثلاثة، فيقال: لا يرقبون فى مؤمن: الله، ولا القرابة، ولا عهداً ولا ميثاقًا. انظر: تفسير الطبرى (١٠/٦٠).

(٢) انظر: تفسير القرطبى (٨/٧٩).

[موقف الإسلام من المشركين عند نقض العهود][1]

﴿ وَإِن نَّكَثُوا أَيْمَانَهُم مِّنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ (١٢) أَلا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (١٣) قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ (١٤) وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٥) أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِن دُونِ اللَّهِ وَلا رَسُولِهِ وَلا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [التوبة: ١٢-١٦].

حرب جزاء:

للمشركين مع المسلمين حالان: حال المسالمة والمعاهدة والوفاء بالمواثيق، وواجب المسلمين حينئذ: الوفاء كذلك: ﴿ فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾ [التوبة: ٤]، ﴿ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ ﴾ [التوبة: ٧].

وحال الغدر ونكث الأيمان، أو الاعتداء والطعن فى الدين والوقوف فى وجه الدعوة، وجزاؤهم حينئذ: القتال والحرب: ﴿ وَإِن نَّكَثُوا أَيْمَانَهُم مِّنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ ﴾ [التوبة: ١٢]، ولا علاج إلا القتال فإن الغدر يفقد الثقة، والاعتداء يثير الحفيظة، ولا علاج إذا فقدت الثقة، ولا شفاء إذا ثارت الحفيظة إلا بالقتال وآخر الدواء الكَى.

وتلك أحكام عامة تطبق فى كل زمان ومكان، والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

ولقد طبقها رسول الله ﷺ مع قريش حين نقضت عهدها بعد الحديبية، واعتدى حلفاؤها من بنى بكر على حلفاء رسول الله ﷺ من خزاعة، فناصرتهم وآزرتهم ولم

---

[1] نشرت فى مجلة (الإخوان المسلمون) الأسبوعية فى العدد (١٧٠) من السنة الخامسة فى يوم السبت الموافق ١٢ من ذى القعدة سنة١٣٦٦هـ - ٢٧من سبتمبر سنة ١٩٤٧

تزجرهم ولم تردعهم، مما دعا عمرو بن سالم الخزاعى أن يلجأ إلى النبى ﷺ يستنصره ويستمده بهذه الأبيات المثيرة:

يا ربُّ إنى ناشدٌ محمداً حلفَ أبينا وأبيه الأتلدا[1]

قد كنتم ولْداً وكُنَّا والِدا ثمَّت أسْلَمْنا فلم ننزعِ يدَا

فانصر هداك الله نصراً أعتَدَا وادعُ عباد الله يأتوا مددا[2]

فيهم رسولُ الله قد تجرَّدا إنْ سيم خسفًا وجهُهُ تَرَبَّدا[3]

فى فَيْلق كالبحر يجرى مُزْبِدا إنَّ قريشًا قد أخلفوك الموعدا[4]

ونقضوا ميثاقك المؤكَّدا وجعلوا لى فى كَداء رُصَّدَا[5]

وزعموا أن لستُ أدعو أحدا وهم أذَلُّ وأقلُّ عددا

هم بيَّتونا بالوتير هجدا وقتلونا ركَّعًا وسُجَّدا[6]

فقال رسول الله ﷺ: "لا نُصرت إن لم أنصركم" وتجهَّز سنة ثمان من الهجرة وكان الفتح[7].

وقد أقرَّ النبى ﷺ قتلَ من طعن فى الدين، ونال منه عليه الصلاة والسلام، وأهْدَر دم المقتول، فقد رُوى عن الدارقطنى: أن رجلاً أعمى كانت له جارية، وكان له منها ولدان،

---

(١) ناشد: طالب ومذكر، والأتلد: القديم.

(٢) نصرا اعتدا: أى حاضرا، والمدد: العون.

(٣) قد تجردا: اى شمر وتهيأ لحربهم. وسيم خسفا: طلب منه وكلفه، وتربد: تغير.

(٤) الفيلق: العسكر الكثير.

(٥) كداء: موضع بمكة، ورصدا: جمع راصد، والراصد: الذى يترصد للأمر ويطلبه.

(٦) الوتير: اسم ماء، هجد: جمع هاجد، ويطلق على النائم أو المستيقظ. وقد ذكر الإمام البنا الأبيات بالفاظ تختلف عن رواية ابن هشام وكتب السيرة، ولذا آثرت اعتماد رواية ابن هشام وغيره، وأخذت عن تحقيق محيى الدين عبد الحميد لسيرة ابن هشام معانى كلمات الأبيات، انظر: سيرة ابن هشام (٤/١٠-١٢) وزاد المعاد (٣/٣٩٦) بتحقيق شعيب وعبد القادر الأرناؤوط. ط: الرسالة.

(٧) رواه الطبرانى فى "الصغير" (٩٦٩) من حديث ميمونة بنت الحارث رضى الله عنها، وضعف إسناده شعيب وعبد القادر الأرناؤوط، انظر: "زاد المعاد" (٣/٣٩٦) ط: الرسالة.

فنالت من النبى ﷺ، فما صبر عليها وقتلها، وذُكرَ ذلك لرسول الله ﷺ، فقال: "الا اشهدوا أن دمها هدر"(١).

حكم الطعن فى الدين والتعرُّض لرسول الله ﷺ:

أكثر العلماء على أن من طعن فى الدين أو نال من رسول الله ﷺ بسبٍّ أو شتمٍ فجزاؤه القتل، وقد روى أن رجلا قال فى مجلس علىٍّ كرم الله وجهه: ما قُتِل كعب بن الأشرف إلا غدرا، فأمر على بقتله. وقال آخر مثل ذلك فى مجلس لمعاوية، فقام محمد بن مسلمة فقال: أيقال هذا فى مجلسك وتسكت، والله لا أساكنُك تحت سقف أبدا، أما ولئن خلوتُ به لأقتلنَّه(٢).

والذمِّى إذا طعن فى الدين فحكمه كذلك، وانتقض عهده بهذا الطعن،(٣) إلا عند أبى حنيفة والثورى فإنهما قالا: يستتاب، فإن تاب وإلا عُزِّر وأُدِّب ولا يقتل، فإنا لم نعطه الذمة أو العهد على هذا وما أتوا عليه من الشرك أعظم، وإذا أسلم هربًا من العقوبة: أُمضىَ له إسلامه عند الجمهور ونجا من العقاب، لأن الإسلام يجُبُّ ما قبله(٤).

عود إلى موقف المشركين من المؤمنين:

إنَّ المشركين نكثوا أيمانهم ونقضوها ـ والنكث: نقض الحبل وتفكيك خيوطه(٥)ـ وهمُّوا بإخراج الرسول، فأهل مكة تآمروا عليه ليقتلوه أو يخرجوه أو يُثْبِتُوه، فأنجاه الله من ذلك كله، ويهود المدينة ائتمروا به ﷺ كذلك، وأرادوا أن يمدوا إليه أيديهم

---

(١) رواه أبو داود (٤٣٦١) وصححه الألبانى فى "صحيح سنن أبى داود" برقم (٣٦٦٥)، والنسائى فى المجتبى" (٤٠٧٥) وفى "الكبرى (٣٥٣٣) والبيهقى فى "السنن (١٠/١٩٧) وفى "السنن الصغرى (٣٤٠٣) والطبرانى فى "الكبير (١١/٢٧٨) والدارقطنى (٤/٢١٦،٢١٧) عن ابن عباس رضى الله عنهما، انظر: سنن الدارقطنى بتحقيق: هاشم اليمانى.

(٢) انظر: تفسير القرطبى (٨/٨٠،٨١).

(٣) انظر: المحلى (١٢/٤٤١).

(٤) انظر: أحكام القرآن للجصاص (٣/٨٥،٨٦) وأحكام القرآن لابن العربى (٢/٩٠٥،٩٠٦) والبحر المحيط (٥/١٥) وراجع هذه الأحكام بالتفصيل فى (الصارم المسلول) لشيخ الإسلام ابن تيمية فقد أسهب فيها رحمه الله.

(٥) انظر: مختار الصحاح ص٦٧٨، ولسان العرب (٢/١٩٦،١٩٧).

بالأذى، فكفَّ أيديهم عنه، وردهم خائبين وقال قائلهم(١): ليخرجنَّ الأعزُّ منها الأذلَّ، فكان رسول الله ﷺ هو الأعز، وكانوا الأذلين، وقضى عليهم وعلى أمثالهم بالبلاء والجلاء، ﴿ وَلَوْلا أَن كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ ﴾ [الحشر: ٣].

وبدأ أهل مكة المسلمين بالقتال فى بدر وفى أحد وفى الخندق، فلقد خَلُصت لهم العيرُ فى بدر - وهم ما خرجوا إلا من اجلها - ولكنَّ جَهالة أبى جهل أَبَت عليهم إلا ان يَتَحَدُّوا محمدا ﷺ، ويتحرَّشوا به، وينالوا منه ومن أصحابه ثأر ابن الحضرمى، وأوقدها المُغْرِضون من قريش ناراً، ولم يستمعوا إلى قول حكيمهم وشيخهم عتبة بن ربيعة، الذى أراد أن يحمل عنهم عارها - إن كان فيها عار - ويَعْصِبُوها برأسه إن أرادوا، فأبت إلا البَطر والرياء والحرب، فكانوا البادئين، وكانوا لها وقوداً والبادئ أظلم.

ومن كانت هذه خلائقهم فلن يقيم معوجهم إلا الحرب.

والناس إن ظلموا البرهان واعتسفوا ... فالحرب أجدى على الدنيا من السلم

تحريض:

ولهذا كان تحريض الحق لعباده على قتال هؤلاء المتمردين تحريضًا نافذًا مثيرًا، يذيب القلوب الجامدة ويدفع الهمم الخامدة، أتخشونهم؟ أتخافون منهم وهم لا شيء والله بيده كل شيء؟! وما دمتم مؤمنين بقدرة الله العلى الكبير وانفراده بالتصرُّف فى ملكوت السماوات والأرض، ففيم خشية الناس إذن؟ لا تخافوهم وخافوا الله وحده، فذلك مُقْتضى الإيمان إن كنتم مؤمنين.

وإنَّ الله ليعد المؤمنين إن هم فعلوا ذلك - وهم فاعلون - أن يُعَذِّب المشركين بأيدى المؤمنين، فتكون الغَلَبة لهؤلاء، والهلاك والنَّكَال لأولئك، وتحل بهم الهزيمة والخزى، ويكون للمؤمنين الفوز والنصر عليهم، وبذلك تثلج صدورهم وتهدأ أنفسهم، ويذهب غيظ قلوبهم، ومن بقى بعد ذلك منهم وآمن فباب التوبة مفتوح، ويتوب الله على من

(١) قائلها: عبد الله بن ابى ابن سلول راس النفاق. وهو حديث رواه احمد (٥/ ٤٩٥) والبخارى (٤٩٠٠) ومسلم (٢٧٧٢) والترمذى (٣٣١٢) عن زيد بن أرقم رضى الله عنه.

يشاء، والله عليم بالتوبة الصادقة النصوح، حكيم فى قبول هؤلاء التائبين المنيبين إليه، ليعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور.

تكرير للتقرير:

وإنَّ القارئ ليلمح فى هذه الآيات الكريمة: الإسهاب والإطناب، وتكرير المعانى والألفاظ، وقد يقال: إن الإطالة ليست من الإعجاز، والتكرار ليس من البلاغة، وهذا خطأ فى الحُكْم عظيم، فإن البلاغة مراعاة مقتضى الحال، والإعجاز نفاذ المعانى إلى النفس واستقرارها فيها بصورة لا يصل إليها أسلوب آخر.

والمقام هنا: مقام تكوين وتأسيس وإنشاء للأمة الإسلامية الجديدة، التى تأذن الله لها أن تحمل إلى الإنسانية بأجمعها رسالته الشاملة الخالدة الباقية، وتكوين خير أمة أخرجت للناس، وذلك لا يتم إلا بتخليصها من كل عناصر الفتنة والضعف والشغب والفساد والتهدُّم مهما كانت التضحيات فى هذه الوسائل، حتى تصير نقية قوية خالصة صالحة، فاقتضى المقام الإطناب فى صفات المشركين والمنافقين، والتطويل فى واجبات المؤمنين المجاهدين، ليهلك من هلك عن بينة، ويحيى من حيٍّ عن بينة والله سميع عليم، فهو تكرير للتقرير، والمكرر فى هذا المقام أحلى، وحكمة الله أجل وأعلى.

تصفية وتخليص:

ولهذا أهاب الحق تبارك وتعالى بالمؤمنين بعد هذا البيان الشافى بأن يستمسكوا بأمرين: الجهاد الحق فى سبيله والنُّصرة الكاملة، والبُعد التام عن إيذاء الله ورسوله، وألاَّ يتَّخذ مؤمنٌ وليجةً وصلةً ومودةً ورابطةً بينه وبينهم أبداً من دون الله ورسوله والمؤمنين. وهو تبارك وتعالى خبير بخلجات النفوس، عليم بخائنة الأعين وما تخفى الصدور، وبيَّن أن تلك سنته الماضية فى امتحان أهل الإيمان فى كل عصر وزمان، وأنها تطبق عليهم كما طبقت على غيرهم، ولن يتركوا حتى يعلم صدق ذلك منهم والله خبير بما يعملون.

القضاء والقدر:

ولقد أدار المفسرون جدلاً عنيفًا ونقاشًا طويلاً حول أفعال الله وأفعال العباد، بمناسبة

ما ورد في الآيات الكريمة: ﴿ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴾ [التوبة: ١٤]، ولهذا الجدل موضوع آخر وبحث خاص مستفيض يتجلى به وجه الحق في هذا البحث(١)، والآيات الكريمة إنما تشير إلى أن مردَّ كلِّ شيء إلى الله تبارك وتعالى، وذلك لا ينافي اختيار الإنسان، ولا ما وهب له الله من إرادة وتصرُّف هما مناط الثواب والعقاب ولا شك، والله أعلم.

*****

(١) لمزيد من التفصيل يراجع: "شفاء العليل" لابن القيم، وتفسير المنار (١٠/١٩٥-٢٠٠).

[مقاييس التكريم عند الله][1]

﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنفُسِهِم بِالْكُفْرِ أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ (١٧) إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ (١٨) أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِندَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٩) الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ (٢٠) يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ (٢١) خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [التوبة: ١٧-٢٢].

إلغاء الامتيازات:

معلومٌ أنَّ أمر الكعبة والمسجد الحرام انتقل من إسماعيل إلى ذُرِّيته من بعده حتى انتهى إلى قريش، ومنها إلى عبد المطلب وبنيه حتى ظهر الإسلام، وفى هذه الفترة أدخل العرب على أعمال الحج من مظاهر التوحيد ـ التى قام من أجلها البيت الحرام ـ أعمالاً من الشرك وضروبًا من عبادة غير الله، حتى كان فوق الكعبة نفسها أكثر من ثلاثمائة صنم، وكانت تلبيتهم: "لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك، إلا شريكًا هو لك تملكه و[ما] ملك" وهى كما ترى تلبية تتأرجح بين صفاء التوحيد وكدورة الإشراك بالله العلى الكبير.

واستمرت قريش تقوم على المسجد الحرام، وتمتاز بذلك على سائر العرب حتى بعث الله نبيه بالإسلام، وكتب له الفوز والنصر، وآذن أولئك المشركين جميعًا بالخصومة إلا أن يؤمنوا.

والإسلام دين التوحيد، والكعبة والمسجد الحرام رمز هذا التوحيد، فكان طبيعيا أن

---

(١) نشرت فى مجلة (الإخوان المسلمون) الأسبوعية فى العدد (١٧١) من السنة الخامسة فى يوم ١٩ من ذى القعدة سنة ١٣٦٦هـ ـ ٤ من أكتوبر سنة ١٩٤٧م.

يحرم المشركون امتيازاتهم السابقة، وأن يحظر عليهم حظراً باتًا أن يعمروا مساجد الله التى لم تقم إلا لتوحيده وحسن عبادته، وكان طبيعيًا أن يكون هذا الحرمان أول ثمرة من ثمرات الخصومة والمقاطعة التى أعلنها عليهم الإسلام بعد انتهاء فترة الهدنة ﴿ فَسِيحُوا فِي الأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ ﴾ [التوبة : ٢].

وشهادتهم على أنفسهم بالكفر معلومة عملاً بما يأتون من مظاهره كعبادة الأصنام ودعائها والحلف بها والنذر لها، واعتقاد النفع والضر فيها، وقولاً بنطقهم بالسنتهم، فأنت حين تسأل أحدهم : ما دينك؟ يجيبك : غير الإسلام، وهى شهادة صريحة منه على نفسه بالكفر، وإن بعضهم ليسجل هذه الشهادة على أبنائه بتسميتهم بأسماء الأصنام، فيقال : عبد اللات وعبد العُزَّى وعبد مناه .. إلخ، وكل ذلك داخل فى نفس شهادتهم على أنفسهم بالكفر.

ومن كانت هذه حالته : فقد حبط كل عمل له فى الدنيا : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لاَّ يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلالُ الْبَعِيدُ ﴾ [إبراهيم : ١٨].

وجزاؤهم يوم القيامة : الخلود فى النار التى وقودها الناس والحجارة.

انتقال هذه الخصائص للمؤمنين:

وبعزل المشركين عن هذه المهمة وإقصائهم عنها تُسْند إلى أحقّ الناس بها، وأعرفهم بحقها من المؤمنين الصادقين، الذين كملت فيهم شرائط الإيمان الظاهرية والباطنية والقولية والعملية. فالقولية : من التصريح بكلمة الإيمان بالله واليوم الآخر. والعملية : من إقامة الصلاة وهى العبادة البدنية، وإيتاء الزكاة وهى العبادة المالية، وخشية الله تبارك وتعالى دون سواه وهى العبادة الباطنية القلبية، وهى كذلك أغلى ثمرات الإيمان، وأظهر الأدلة على استقراره فى النفوس، واستيلائه على الجوارح والقلوب، فهؤلاء الذين توفَّرت فيهم هذه الصفات : هم الذين اهتدوا بنور الله وتوفيقه إلى الصراط المستقيم، وهم أحق الناس بعمارة المساجد والقيام عليها.

من أحكام عمارة المساجد:

وعمارة المساجد صنفان:

١ـ عمارتها ببنائها وتشييدها وترميمها وتدمغها.. إلخ وهي العمارة الحسيَّة.

٢ـ وعمارتها بالمواظبة على أداء العبادات فيها، وقصدها للذكر والدعاء وإحياء شعائر الله.

وكلا الصِّنفين من خصائص المؤمنين لا ينهض به غيرهم، ولا يُؤْمَن عليه سواهم.

وهل إذا بنى غير المسلم مسجداً، أو تبرع بشيء من ماله في بناء مسجد أو تعميره.. إلخ يرد عليه ذلك، أخذاً من الآية الكريمة؟

والجواب: لا يرد عليه ذلك، ويقبل منه ما يتطوع به ما دام قد خرج من ملكه لهذه الغاية، وما دامت ليس له من وراء ذلك غاية تضر بالمسلمين، وما دام غير محارب لدينهم أو دعوتهم[١].

أما المحاربون أو ذوو الغايات والمقاصد السيئة: فلا يقبل منهم شيء أبدا، فلو أرادت دولة أجنبية أو مؤسَّسة يهودية مثلاً ان ترمِّم المسجد الاقصى أو توسعه، أو تقوم بشيء من عمارته: وجب على المسلمين جميعًا منعها من ذلك، وعدم تمكينها منه بحال، لانه ليس أكثر من ذريعة لمآرب سياسية لا يقرها الإسلام[٢].

وقد ورَد في عمارة المساجد بهذين المعنيين السابقين أحاديث كثيرة.

[العمارة الحسيَّة للمساجد]

فممَّا ورد في المعنى الأول: قول رسول الله ﷺ من حديث عثمان، وقد لامَه الناس لما وسَّع مسجد رسول الله ﷺ وجدَّد بناءه قال: إنكم أكثرتم عليَّ، وإني سمعت

---

(١) قال بهذا الراى: الإمام ابن الصلاح، انظر: فتاوى ابن الصلاح (٢ / ٦٣٣) تحقيق د. عبد المعطى أمين قلعجي، طبعة دار المعرفة ـ بيروت.

(٢) نقل الإمام البنا هذا الراى باختلاف طفيف في بعض العبارات؛ من تفسير العلامة الشيخ محمد رشيد رضا، انظر: تفسير المنار (١٠ / ٢٠٨). وهو يدل على مدى فهم الإمامين لمخاطر الصهيونية مبكرًا، وهذا ما لم يفطن له كثير من المتدينين في عصرهم، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

رسول الله ﷺ يقول: من بنى لله مسجدا يبتغى به وجه الله: بنى الله له بيتا فى الجنة"(١).

وروى أحمد عن ابن عباس وغيرهما: "من بنى لله مسجداً ولو كمفْحص قَطَاة لبيضها، بنى الله له بيتا فى الجنة"(٢).

وفى الصحيحين: "أنَّ امرأة كانت تقُمُّ المسجد وتنظفه، فماتت فسأل عنها النبى ﷺ؟ فقيل له: ماتت، فقال: أفلا آذنتمونى بها؟ دلونى على قبرها، فأتى قبرها فصلى عليها"(٣).

[العمارة المعنوية للمساجد]

وقد ورد فى المعنى الثانى: قول رسول الله ﷺ فيما رواه الشيخان: صلاة الجميع - وفى رواية: صلاة الجماعة - تزيد على صلاته فى بيته وصلاته فى سوقه خمسا وعشرين درجة، فإنَّ أحدكم إذا توضَّأ فأحسن الوضوء، وأتى المسجد لا يريد إلا الصلاة، لم يخْطُ خطوة إلا رفعه الله بها درجة، وحط عنه خطيئة، حتى يدخل المسجد، وإذا دخل المسجد كان فى صلاة ما كانت تحبسه، وصلَّت عليه الملائكة ما دام فى مجلسه الذى يصلى فيه: اللهم اغفر له، اللهم ارحمه، ما لم يؤذ بحدث"(٤).

---

(١) رواه أحمد (١/١١٢) والبخارى (٤٥٠) ومسلم (٥٣٣) والترمذى (٣١٨) وابن ماجه (٧٣٦) والدارمى (١٣٩٢) عن عثمان بن عفان رضى الله عنه.

(٢) رواه أحمد (١/٢٤١) والطيالسى (٢٦١٧) وابن أبى شيبة (١/٣١٠) والطحاوى فى "مشكل الآثار" (١/٤٨٦) عن ابن عباس رضى الله عنهما، وقال الشيخ شاكر فى تحقيق "المسند": إسناده ضعيف. وقال محققو المسند: إسناده صحيح لغيره انظر: مسند أحمد (٤/٥٤،٥٥) ط.الرسالة. ورواه ابن ماجه (٧٣٨) وابن خزيمة (١١٩٢) عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما وصححه الشيخ الألبانى فى "صحيح سنن ابن ماجه" (٦٠٣). ورواه عن أبى ذر رضى الله عنه: ابن حبان (١٦١٠) و (١٦١١) والطبرانى فى "الصغير" (١١٠٧) والبيهقى فى "السنن" (٣/٤٥٨). ورواه عن ابن عمر: الطبرانى فى "الأوسط" (٦١٦٧). وعن أنس بن مالك: أبو يعلى (٤٠١٨). وعن عثمان بن عفان رضى الله عنه: البيهقى فى "الشعب" (٢٩٣٦).

(٣) رواه البخارى (٤٥٨) و(١٣٣٧) ومسلم (٩٥٦) والنسائى فى "المجتبى" (٢٠٢٢) وأبو داود (٣٢٠٣) وابن ماجه (١٥٢٧) عن أبى هريرة. و(١٥٢٩) عن عامر بن ربيعة بن كعب. و(١٥٣٣) عن أبى سعيد الخدرى.

(٤) رواه أحمد (٣/٣٤٧) والبخارى (٦٤٧) ومسلم (٦٤٩) والترمذى (٢١٦) والنسائى فى "المجتبى (٨٣٨) وأبو داود (٥٥٩) وابن ماجه (٧٨٧) والدارمى (١٢٧٦) ومالك (٣٨٥) عن أبى هريرة.

وروى أحمد والترمذى وحسَّنه وابن ماجه والحاكم وصحَّحه وغيرهم من حديث أبى سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: "إذا رأيتم الرجل يعتاد المساجد: فاشهدوا له بالإيمان" ذلك (إنما يعمر مساجد الله) الآية[1].

الإيمان والجهاد أفضل عمل للإنسان:

روى مسلم وأبو داود وابن حِبَّان: أن النعمان بن بشير رضى الله عنه قال: كنت عند منبر رسول الله ﷺ فى نفر من أصحابه، فقال رجل منهم: ما أبالى ألا أعمل لله عملا بعد الإسلام إلا أن أسقى الحاج، وقال آخر: بل عمارة المسجد الحرام، وقال آخر: بل الجهاد فى سبيل الله خير مما قلتم. فزجرهم عمر وقال: لا ترفعوا أصواتكم عند منبر رسول الله ﷺ - وذلك يوم الجُمُعة - ولكنْ إذا صلَّيت الجمعة دخلت على رسول الله ﷺ فاستفتيه فيما اختلفتم فيه، فدخل بعد الصلاة فاستفتاه فأنزل الله: (أجعلتم سقاية الحاج) إلى قوله تبارك وتعالى: (إن الله لا يهدى القوم الظالمين)[2]

[سبب النزول]

ورُوى عن ابن سيرين قال: قَدِمَ علىٌّ مكة، فقال للعباس: أى عَم ألا تهاجر؟ ألا تَلْحق برسول الله ﷺ؟ فقال: أعْمُرُ المسجدَ، وأحْجُبُ البيتَ، فأنزل الله الآية: (أجعلتم سقاية الحاج)[3].

وروى ابن أبى حاتم عن طريق على بن أبى طلحة عن ابن عباس: قال العباس حين أُسِر يوم بدر: إن كنتم سبقتمونا بالإسلام والهجرة والجهاد، فقد كنا نَعْمُر المسجد الحرام،

---

(١) رواه الترمذى (٢٦١٧) و(٣٠٩٣) وقال: حسن غريب، وابن ماجه (٨٠٢) وابن خزيمة وصححه (١٥٠٢) وأقره محققه (د. محمد مصطفى الأعظمى) والحاكم وصححه وضعفه الذهبى (٢/٣٣٢) وابن حبان (١٧٢١) وقال محققه: إسناده ضعيف. والدارمى (١٢٢٣) وقال محققه: إسناده ضعيف، انظر: سنن الدارمى بتحقيق حسين سليم أسد (٢/٧٨٠) رقم (١٢٥٩)، والبيهقى فى "السنن" (٤/١٨٩) وفى "الشعب" (٢٩٤١).

(٢) رواه أحمد (٤/٢٦٩) ومسلم (١٨٧٩) وابن حبان (٤٥٧٢) عن النعمان بن بشير.

(٣) انظر: تفسير الطبرى (٦/٣٣٧) طبعة دار الكتب العلمية.

ونسقى الحاج، ونفك العانى، فانزل الله الآية الكريمة : (أجعلتم سقاية الحاج)[١].

وروى ابن جرير عن كعب القرظى قال : افتخر طلحة بن شيبة من بنى عبد الدار، وعباس بن عبد المطلب، وعلى بن أبى طالب. فقال طلحة : أنا صاحب البيت معى مفتاحه، ولو أشاء بت فيه، وقال العباس : أنا صاحب السقاية والقائم عليها، ولو أشاء بت فى المسجد، فقال عليٌّ رضى الله عنه : ما أدرى ما تقولون، لقد صليت إلى القبْلة ستة أشهر قبل الناس، وأنا صاحب الجهاد، فأنزل الله الآية الكريمة : (أجعلتم سقاية الحاج)[٢].

[معانى الكلمات]

وسقاية الحاج: هى مهمة نقل الماء للحُجَّاج فى الموسم وتوزيعه عليهم بلا مقابل، وكانت للعباس بن عبد المطلب رضى الله عنه، قال الأزرقى فى "تاريخ مكة" السقاية حياض من أدَم أى جلد، توضع بفناء الكعبة بعد أن تُملأ من الآبار العذبة بظاهر مكة، وكانت على عهد قُصى بن كلاب، ثم جعلها لابنه عبد مناف، وآلت إلى العباس رضى الله عنه. والمكان لا زال معروفا الآن بمكة، ويسمى سقاية العباس فى جهة الجنوب من بئر زمزم[٣].

والرِّفادة: ضيافة الحجيج وإطعامهم، وكانت مهمة هاشم بن عبد مناف، وورثها بنوه من بعده، وفيها وفيه يقول القائل :

عمرو العلا هشم الثريد لقومه وبطون مكة مسنتون عجاف

والحجابة: سدانة البيت والقيام على مفتاحه وبابه، وكانت لبنى عبد الدار، ومنهم لبنى شيبة، وما زالت فيهم إلى اليوم، والشيخ عبد الله الشيبى[٤] صاحب المفتاح حاليا هو من هذه السلالة. وفى المثل : "المفتاح لا يخرج من بنى شيبة"

---

(١) انظر : تفسير الطبرى (٦ / ٣٣٦) وتفسير ابن كثير (٢ / ٣٢٧).

(٢) انظر : المصدرين السابقين وفتح القدير (٢ / ٣٦٥) طبعة دار الوفاء.

(٣) انظر : أخبار مكة للأزرقى (٢ / ١٠٤، ١٠٥).

(٤) هو الشيخ عبد الله بن عبد القادر بن على بن محمد بن زين العابدين الشيبى، ولد بمكة سنة ١٢٩٧هـ وتوفى بمكة سنة ١٣٧١هـ. انظر ترجمته، وتراجم سدنة البيت قبل الإسلام وبعده إلى عصرنا، فى كتاب : "التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم" للشيخ محمد طاهر الكردى (٥ / ٦٢-٧٠) (مجد مكى).

[شرح الآيات]

والآيات الكريمة والأحاديث والآثار المروية فى أسباب نزولها تدل جميعًا على أمر واحد: هو أن هذه الأعمال مع جلالة قدرها وعظيم أثرها، واتصالها بالبيت العتيق والمسجد الحرام لا تساوى ولا تصل إلى فضل الإيمان بالله والجهاد فى سبيله، فإن صدرت عن المشركين فلا قيمة لها بغير[1] الإيمان، وإن قام بها المؤمنون فلا غَناء لهم بها عن صدق الإيمان، وتدعيم هذا الصدق بالجهاد فى سبيل الله بالنفس والمال، ومن حَكَم بغير هذا فقد ظلم الحق، وظلم نفسه بهذا الظلم، والله لا يهدى القوم الظالمين.

وحتى يتأكد هذا المعنى ويتقرر صرَّح الحق تبارك وتعالى بأفضلية المجاهدين فقال: **﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾** [التوبة: ٢٠].

ثم أبان عن معنى هذا الفوز ومظاهره فقال: **﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾** [التوبة: ٢١، ٢٢]، فهذا الفوز فوزان: فوز معنوى برحمة الله ورضوانه، وفوز حسِّى بالجنات ذات النعيم المقيم، والأول أعلى وأجَلّ، والثانى فضل من الله لا يزهد فيه أحد.

روى الشيخان عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "إن الله يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة، فيقولون: لبيك ربنا وسعديك، فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى وقد أعطيتنا ما لم تعط أحدا من خلقك. فيقول: أنا أعطيكم أفضل من ذلك. فيقول: أحِلُّ عليكم رضوانى فلا أسخط عليكم بعده أبدا"[2]

ومن ذلك تعلم: أن أفضل عمل العبد: الإيمان بالله، والجهاد فى سبيله، والله أعلم.

*****

---

(١) كتبت فى المقال بعد، وهى خطأ. وربما كانت الكلمة المفقودة: إلا بعد.

(٢) رواه أحمد (٣ / ٥١١) البخارى (٦٥٤٩) و(٧٥١٨) ومسلم (٢٨٢٩) والترمذى (٢٥٥٥) والنسائى فى "الكبرى (٧٧٤٩) وابن حبان (٧٤٤٠) عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه.

[الولاء والبراء، ودروس من يوم حنين][1]

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الإِيمَانِ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٢٣) قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٢٤) لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ (٢٥) ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (٢٦) ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة: ٢٣-٢٧].

التجرُّد:

كانت الآيات الأولى تحديداً لصلة غير المسلمين بالمسلمين، وجاءت هذه الآيات تبيانًا لواجبات المسلمين فى مجتمعهم الجديد، أو القواعد الأساسية التى يجب أن يُقام عليها هذا المجتمع، وأول هذه الواجبات "التجرُّد"، التجرد للفكرة التى آمنوا بها، والتضحية فى سبيلها بكل شيء، بولاية الآباء وهم أقرب الناس إلى القلب، والإخوة وهم السناد فى هذه الحياة، ومن هنا اشترط الله على المؤمنين أن يبرؤوا من الآباء والإخوة إذا وقفوا فى طريق الدعوة واستحبُّوا الكفر على الإيمان، فإذا لم يحقّق أحد المسلمين هذا الشرط: فقد ظلم نفسه بادّعاء الإيمان، وظلم الحق فى هذه الدعوى غير الصادقة.

ومن لُطف الله بعباده: أن يشترط للتبرى: أن يستحب الآباء والإخوة الكفر على الإيمان، فلو وقفوا محايدين أو مُكْرهين لكان لأبنائهم وإخوتهم أن يوالوهم إن شاءوا تقديراً للرحم، وإبقاءً للصلات الاجتماعية بين الناس.

---

(١) نشرت فى مجلة (الإخوان المسلمون) الأسبوعية فى العددين (١٧٢) الصادر فى ٢٦ من ذى القعدة سنة ١٣٦٦هـ - ١١ من أكتوبر سنة ١٩٤٧م. والعدد (١٧٣) الصادر فى ٤ من ذى الحجة سنة ١٣٦٦هـ - ١٨ من أكتوبر سنة ١٩٤٧م.

وهذا المعنى أوضح ما يكون فى الآية التالية، فقد جمع القرآن الكريم مباهج الحياة، ومجامع زينتها، وقوام شؤونها، من الآباء والأبناء والإخوان والأزواج والعشيرة والأموال والمتاجر والمساكن، وليس فى الدنيا إلا هذه الثمانية فى كفَّة واحدة، ووضع قُبالتها: حب الله ورسوله والجهاد فى سبيله، فأيما مؤمن رجح عنده حب الله ورسوله على هذه المحبوبات: فهو قوى صادق الإيمان قوى اليقين، وأيما رجل كانت هذه الثمانية مجتمعة؛ أو كان بعضها أحب إلى نفسه وأقرب إلى قلبه من حُبِّ الله ورسوله: كان ناقص الإيمان ضعيف العقيدة، والله لا يهدى القوم الفاسقين.

ومن جميل لطف الله: أنه لم ينف أصل الحب، فتلك غريزة فى البشر لا يمكن التخلى عنها، ولكنه إنما نفى تقديم حبِّ هذه الأمور على حب الله ورسوله، ويظهر أثر ذلك فيما لو تعارض الحُبَّان، فهذا كسبٌ حرام يغضب الله ولكنه كثير، وهذا ربح حلال يرضى الله ولكنه قليل، فمن آثر الأول: فقد فسق، ومن آثر الثانى: فهو من المؤمنين الصادقين، وهذه أرض طيبة ومساكن جميلة رحْبةٌ، ولكن المُقام فيها على ضَيْم وذل واستكانة فى الدنيا واستهانة بالدين، وهذه هجرة متعبة ولكنها ترضى الله ورسوله، وبحسب ما يختار العبد تكون منزلته من الإيمان أو الفسق، وهل الإيمان إلا الحب والبغض؟!

فضل محبة الله ورسوله:

ولا يمكن أن يتم إيمان عبد أو يتحقق إلا إذا أحب الله ورسوله من كل قلبه، وظهرت آثار هذا الحب فى تصرفاته، والله يقول: ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾ [البقرة: ١٦٥]، ويقول: ﴿ النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ [الأحزاب: ٦].

وقد روى الشيخان عن أنس رضى الله عنه عن النبى ﷺ أنه قال: "ثلاث من كُنَّ فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود فى الكفر كما يكره أن يقذف فى النار"(١).

---

(١) رواه أحمد (٤ / ١٣٧) والبخارى (١٦) و(٢١) و(٦٩٤١) والنسائى فى "المجتبى (٤٩٨٨) عن أنس رضى الله عنه.

ورويا من حديث أنس أيضاً: "لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين"(١).

وروى البخارى من حديث عبد الله بن هشام قال: "كنا مع النبىِّ ﷺ، وهو آخذٌ بيد عمر بن الخطاب، فقال له عمر: يا رسول الله لأنت أحب إلى من كل شىء إلا نفسى التى بين جنبى. فقال النبى ﷺ: لا والذى نفسى بيده حتى أكون أحب إليك من نفسك. فقال له عمر: فإنه الآن والله لأنت أحب إلىَّ من نفسى. فقال له النبى ﷺ: الآن يا عمر"(٢).

والطريق إلى محبة الله تبارك وتعالى ومحبة رسول الله ﷺ واضحة مستنيرة، أن يُكثر المؤمن من التفكر فى مصنوعات الله، مع دوام ذكره، والإكثار من الصلاة والسلام على رسول الله ﷺ، وتقدير الهداية العظمى التى جاء بها هذا النبىُّ العظيم عن ربِّه عزَّ وجل فى رسالته الإسلام الحنيف، والبحث عن أسرارها ووقائعها، مع دوام طاعة الله والتحرز عن معصيته، فالطاعة للإيمان: كالزيت للمصباح، والماء للنبات، والمعصية سُمٌّ قاتل، وظلام محيط يذهب بنور القلب، وسعَة الصدر، وبهاء الوجه، وإشراق الإيمان.

وفى الحديث القدسى: "ما تقرَّب إلى عبدى بشىء أحبَّ إلىَّ مما افترضت عليه، ولا يزال عبدى يتقرَّب إلىَّ بالنوافل حتى أحبَّه، فإذا أحببتُه كنت سمعَهُ الذى يسمع به، وبصرَه الذى يُبْصِر به، ويدَه التى يبطش بها، ورِجْلَه التى يمشى بها" رواه البخارى(٣) كما أن الاتِّباع والمواظبة على السنة أقرب الطرق إلى هذه المحبة كما قال تعالى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ [آل عمران: ٣١].

---

(١) رواه أحمد (٤/ ١٨٣) والبخارى (١٥) ومسلم (٤٤) والنسائى فى "المجتبى" (٥٠١٣) و(٥٠١٤) وابن ماجه (٦٧) عن أنس بن مالك رضى الله عنه.

(٢) رواه أحمد (٥/ ٤٤٢) والبخارى (٦٦٣٢) عن عبد الله بن هشام بن زهرة رضى الله عنه.

(٣) رواه البخارى (٦٥٠٢) عن أبى هريرة رضى الله عنه.

يوم حنين

الوقائع:

لما بلغ (هوازن) فتح مكة جمعهم مالك بن عوف النصرى من بنى نصر بن مالك، وكانت الرياسة فى جميع المعسكر إليه، وساق مع الكفار أموالهم ومواشيهم ونساءهم وأولادهم، حتى تشتدَّ شوكتهم فى القتال دفاعًا عن أهليهم وأموالهم، وكانوا ثمانية آلاف من (هوازن) و(ثقيف) فيما يرويه الحسن ومجاهد . ونزلوا بـ (أوطاس) ـ وهو واد فى ديار (هوازن) ـ وبعث رسول الله ﷺ عبد الله بن أبى حَدْرد الأسلمى عينًا له، فأتاه وأخبره بما شاهد منهم، فعزم رسول الله ﷺ على قصدهم، واستعار من صفوان بن أمية دروعًا، قيل: مائة درع، وقيل: أربعمائة، واستسلف من ربيعة المخزومى ثلاثين ألفًا أو أربعين، فلما قدم قضاه إياه ودعا له بخير فقال: "بارك الله لك فى أهلك ومالك، إنما جزاء السلف: الوفاء والحمد"(١)

وخرج رسول الله ﷺ فى اثنى عشر ألفًا من المسلمين، منهم عشرة آلاف صحبوه من المدينة، وألفان من مسلمة الفتح وهم الطلقاء، إلى من انضاف إليهم من الأعراب من (سليم) و(بنى كلاب) و(عبس) و(ذبيان) واستعمل على مكة عتاب بن أسيد .

ومن الطرائف: أن بعض الأعراب رأى فى طريقه شجرة خضراء، وكان لهم فى الجاهلية شجرة معروفة تسمى: (ذات أنواط) يخرج إليها الكفار يومًا معلومًا فى السنة يعظِّمونها فقالوا: يا رسول الله، اجعل لنا ذات أَنْواط، كما لهم ذات أَنْواط، فقال عليه السلام: "الله أكبر! قلتم ـ والذى نفسى بيده ـ كما قال قوم موسى: ﴿ **اجْعَل لَّنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ** ﴾ [الأعراف :١٣٨] لتركبنَّ سنن من قبلكم حذو القُذَّة بالقُذَّة، حتى إنهم لو دخلوا جُحْرَ ضَبٍّ لدخلتموه"(٢)

ونهض رسول الله ﷺ حتى أتى وادى (حنين) وهو من أودية (تهامة)، وكانت

---

(١) رواه أحمد (٤ / ٦٢١) وابن ماجه (٢٤٢٤) وأبو عبيد فى "الأموال" (١٧٣٤) عن ربيعة المخزومى رضى الله عنه. وقال محققو المسند: إسناده صحيح رجاله ثقات رجال الشيخين. انظر المسند: (٢٦ / ٣٣٧).

(٢) رواه أحمد (٦ / ٢٨٥، ٢٨٦) والترمذى (٢١٨٠) عن أبى واقد الليثى رضى الله عنه، وقال: حسن صحيح. وصححه الألبانى فى "صحيح الترمذى" (١٧٧١).

(هوازن) قد كمنت فى جنبتيه، وذلك فى غَبَشِ الصبح، فحملت على المسلمين حين توسطوه حملة رجل واحد، وكانوا قومًا رماة، فانهزم جمهور المسلمين لهوْل المفاجأة، وتساقط النبل كأنه رجل من جراد، وثبت رسول الله ﷺ، وأخذ يدفع بغلته إلى الأمام ويترَنَّم بقوله: "أنا النبى لا كذب أنا ابن عبد المطلب"[١] وثبت معه نفر من أصحابه قيل: ثمانون. وقيل: عشرة. والجمع بين القولين ميسور، فالثابتون بجواره: عشرة، والثابتون بعدهم: بقية العدد.

ومن الثابتين: أبو بكر، وعمر، وعلىٌّ، والعباس، وأبو سفيان بن الحارث، وابنه جعفر، وأسامة بن زيد، وربيعة بن الحارث، والفضل بن عباس، وأيمن بن عبيد وهو ابن أم ايمن حاضنته ﷺ [٢]- واستشهد يومئذ[٣] - وفى ذلك يقول العباس:

نصرنا رسول الله فى الحرب تسعة ... وقد فرَّ من قد فرَّ عنه وأقشع

وعاشرنا لاقى الحمام بنفسه ... بما مسَّه فى الله لا يتوجع[٤]

وثبتت أمُّ سُلَيْم فى جملة من ثبت مُحْتَزِمَة مُمْسكة ببعير لأبى طلحة وفى يدها خنجر[٥].

وفى صحيح مسلم عن أنس: قال العباس: "وأنا آخذ بلجام بغلة رسول الله ﷺ أكُفُّها إرادةَ الا تُسرع، وأبو سفيان آخذٌ بركاب رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: "أى عباس ناد أصحاب السمرة" فقال: "بأعلى صوته: أين أصحاب السمرة؟" قال: فوالله لكأنَّ عطفتهم حين سمعوا صوتى عطفة البقر على أولادها، فقالوا: يا لبيك يا لبيك"[٦] وكرُّوا عليهم كرَّة رجل واحد، وأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين،

---

(١) رواه مسلم (١٧٧٦) وابن أبى شيبة فى "المصنف" برقم (١٨٨٢٩) (١٤ / ٥٢١، ٥٢٢) عن البراء بن عازب رضى الله عنه.

(٢) انظر: مسند الإمام أحمد (١ / ٤٥٣، ٤٥٤).

(٣) انظر: سيرة ابن هشام (٤ / ٧٢).

(٤) انظر: فتح البارى (٨ / ٣٠).

(٥) رواه أحمد (٣ / ٥٥٥) و (٤ / ٢٠٣) ومسلم (١٨٠٩) وأبو داود (٢٧١٨) عن انس بن مالك رضى الله عنه.

(٦) رواه أحمد (١ / ٣٤١) ومسلم (١٧٧٥) عن العباس بن عبد المطلب رضى الله عنه. وقد نقل الإمام الشهيد القصة كلها من تفسير القرطبى (٨ / ٩٣، ٩٤).

وأنزل جنوداً لم تروها، وعذب الذين كفروا بالهزيمة الماحقة، وذلك جزاء الكافرين، ثم يتوب الله بعد ذلك على من يشاء ممن أسلم منهم، وقد أسلم عامتهم بعد ذلك، وجاؤوا إلى النبى ﷺ تائبين مستغفرين والله غفور رحيم(١).

(اللواحق)

١ـ شماتة المنافقين:

ولما وقعت الهزيمة تكلّم رجال من المنافقين حديثى العهد بالإسلام بما فى أنفسهم من الظنّ والرِّيبة، وأخذوا يَتَنَدَّرون بذلك فقال بعضهم: "لا تنتهى هزيمتهم دون البحر"(٢)، وقال آخر: "ألا قد بطل السحر اليوم"(٣) حتى إنّ رجلاً من المشركين رد على هذا القائل(٤) بقوله: "اسكت فوالله لأن يَرُبَّنى(٥) رجل من قريش؛ أحب إلىّ من أن يَرُبَّنى رجل من هَوَازِن"(٦) وذلك شأن هؤلاء الضعفاء فى كل زمان ومكان.

٢ـ إسلام شيبة بن عثمان الحجبى:

قال شيبة [بن عثمان بن أبى طلحة]: "لما كان عام الفتح، ودخل رسول الله ﷺ

---

(١) طبقات ابن سعد (٢/١٤٩-١٥٣).

(٢) القائل: أبو سفيان بن حرب، انظر: سيرة ابن هشام (٢/٤٤٣، ٤٤٤) والبيهقى فى "دلائل النبوة" (٢/٤٥) وفى سنده أبو علاثة محمد بن عمرو بن خالد مجهول، وابن كثير فى "البداية والنهاية" (٤/٣٣٠) نقلا عن: "السيرة النبوية الصحيحة" للدكتور أكرم ضياء العمرى (٢/٤٩٩) وانظر: زاد المعاد (٣/٤٦٩).

(٣) القائل: كَلَدَة بن الحَنْبَل، أخو صفوان بن أمية لأمه.

(٤) الذى رُدَّ عليه هنا: صفوان بن أمية.

(٥) يربنى أى: يكون ربًّا فوقى، وسيداً يملكنى.

(٦) رواه أبو يعلى (١٨٦٣) وقال محققه: إسناده حسن، انظر: مسند أبى يعلى (٣/٣٨٩، ٣٩٠)، ورواه ابن حبان (٤٧٧٤) عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما. والبيهقى فى "السنن" (١٠/٧٣) ورواه أحمد (٣/٣٧٦) عن عمرو بن العاص رضى الله عنه، وقال الهيثمى: ورجال أحمد رجال الصحيح "مجمع الزوائد" (٦/١٧٩، ١٨٠). وذكر الإمام الزيلعى أن الدارقطنى رواه فى كتابه المسمى "غرائب مالك" عن الزهرى. نقلا عن: تخريج الأحاديث والآثار الواقعة فى تفسير الكشاف للزيلعى. ط: دار ابن حزم. وذكره ابن هشام فى سيرته (٤/٧٢، ٧٣) وابن كثير فى سيرته (٣/٦١٨، ٦١٩) والواقدى فى "المغازى" (٣/٩١٠).

مكة عنوة، قلت: أسير مع قريش إلى هوازن بحنين فعسى إن اختلطوا أن أصيب من محمد غرَّة، فأثأر منه فأكون أنا الذى قمت بثار قريش كلها، وكنت أظن أنه لو لم يبق من العرب والعجم أحد إلا اتبع محمداً ما اتبعته أبداً، وكنت مرصداً لما خرجت له لا يزداد الأمر فى نفسى إلا قوة، فلما اختلط الناس اقتحم رسول الله صلى الله عليه وسلم عن بغلته، فأصْلَيْتُ بالسيف ودَنَوْتُ أريد ما أريد منه، فَرُفِعَ لى شُوَاظٌ من نار كالبرق يكاد يمحشنى(١)، فوضعت يدى على بصرى خوفًا علىَّ، فالتفت إلى رسول الله ﷺ، فنادانى: "يا شيبُ ادْنُ منِّى"، فدنوتُ منه فمسح صدرى، ثم قال: "اللهم أعذه من الشيطان" قال: فوالله لهو كان ساعتئذ أحب إلى سمعى وبصرى ونفسى، وأذْهَبَ الله ما كان فى نفسى، ثم قال: "ادنُ فقاتِل"، فتقدمت أمامه أضرب بسيفى - الله أعلم أنى أحب أن أقِيَهُ بنفسى كل شىء - ولو لقيت تلك الساعة أبى - لو كان حيا - لأوقعت به السيف، فجعلت ألزمه فيمن لزمه حتى تراجع المسلمون، فكرُّوا كرَّة رجل واحد، وقربت بغلة رسول الله ﷺ فاستوى عليها، وخرج فى أثرهم حتى تفرَّقوا فى كل وجه، ورجع إلى معسكره، فدخل خباءه فدخلت عليه ما دخل عليه أحد غيرى حُبًّا لرؤية وجهه، وسرورا به، فقال: يا شَيْبُ، الذى أراد الله بك خيرًا مما أردت لنفسك، ثم حَدَّثنى بكل ما أضْمَرْتُ فى نفسى مما لم أكن أذكره لأحد قط، قال: قلت: أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله. ثم قلت: استغفر لى، فقال: "غفر الله لك"(٢)

٣- وفد هوازن:

وانصرف رسول الله ﷺ من الطائف إلى الجعرَّانة وبها السَّبْىُ والغنيمة، وقَدِمَ عليه بها وفد هوازن مسلمين، وفيهم تسعة نفر من أشرافهم، فقالوا: يا رسول الله إنا أهل وعشيرة قد أصابنا من البلاء ما لم يخْف عليك فامْنُنْ علينا منَّ الله عليك. وقام خطيبهم زهير بن صرد فقال: يا رسول الله إن اللواتى فى الحظائر من السبايا خالاتك

(١) أى يحرقنى.

(٢) انظر: زاد المعاد لابن القيم (٣/ ٤٧٠، ٤٧١) والإصابة لابن حجر ترجمة رقم (٣٩٤٠) وذكره ابن هشام فى سيرته مختصرا (٤/ ٧٣) والواقدى فى "المغازى (٣/ ٩٠٩، ٩١٠).

وعماتك وحواضنك اللاتى كُنَّ يكفلنك وانت خير مكفول. وانشد ابياته المشهورة التى فى أولها:

امْنُنْ علينا رسول الله فى كرم ... فإنك المرء نرجوه وندخر[(١)]

وإنما يريد بخالاته وعمّاته عليه الصلاة والسلام: قرابة الرضاع، فقد استُرْضِعَ فى بنى سعد بن بكر عند حليمة السعدية وهى من هوازن، وكان فى السبايا: اخته الشيماء، وقد اكرمها وحباها ﷺ [(٢)]، فقال النبى عليه الصلاة والسلام: "ساطلب لكم وقد وقعت المقاسم ومعى من ترون، وأحبُّ الحديث إلىَّ أصدقه، فاختاروا إحدى الطائفتين: إما السبى وإما المال"؟ فقالوا: خيرتنا يا رسول الله بين الحسب والمال، فالحَسبُ أحب إلينا، ولا نتكلم فى شاة ولا بعير. فقال رسول الله ﷺ: "اما الذى لبنى هاشم فهو لكم، وسوف اكلم لكم المسلمين، فقام فاثنى على الله بما هو اهله، ثم قال: "اما بعد: فإن إخوانكم قد جاؤونا تائبين، وإنى قد رأيت أن أرُدَّ إليهم سَبْيَهم، ولقد رددت الذى لبنى هاشم عليهم، فمن أحب أن يطيب بذلك فليفعل، ومن أحب منكم ان يكون على حظه حتى نعطيه إياه من أول ما يفىء الله علينا فليفعل" فقال الناس: "يا رسول الله قد طبنا بذلك يا رسول الله" وردوا عليهم ما كان لهم من سبى[(٣)].

٤ـ قسمة الغنائم:

روى أحمد والبخارى ومسلم من عدَّة طرق من حديث عبد الله بن زيد بن عاصم قال: لما أفاء الله على رسوله يوم حنين قسم فى الناس فى المؤلفة قلوبهم ولم يعط الأنصار شيئًا، فكأنهم وجدوا إذ لم يصبهم ما أصاب الناس فخطبهم فقال: "يا معشر الأنصار ألم أجدكم ضُلاَّلا فهداكم الله بى، وكنتم متفرِّقين فألَّفكم الله بى، وكنتم عالَةً فأغناكم الله بى" كلما قال شيئا قالوا: "الله ورسوله أَمَنُّ" قال: "ما يمنعكم أن تجيبوا رسول الله؟ كلما قال شيئا قالوا: الله ورسوله أَمَن". قال: "لو شئتم قلتم: جئتنا كذا

(١) انظر: فتح البارى (٨ / ٣٣، ٣٤).

(٢) ذكره ابن هشام (٤ / ٩١) وابن القيم فى "زاد المعاد" وقال محققاه: رجاله ثقات لكنه منقطع. وانظر: أسد الغابة (٧٠٤٩) والإصابة (٤ / ٣٣٥).

(٣) انظر: سيرة ابن هشام (٤ / ١٣٥، ١٣٦) وابن القيم فى "زاد المعاد" وقال محققاه: إسناده حسن.

وكذا ـ وهو تأدُّب من الراوى فسَّرته رواية أبى سعيد قال: "أما والله لو شئتم لقلتم فصدَقْتُم وصُدِّقتم: أتيتنا مُكَذَّبًا فصدَّقْناك، وطريدا فآويناك، وعائلا فواسيناك ـ وفى رواية من حديث أنس ـ أفلا تقولون: جئتنا خائفا فأمَّنَّاك، وطريدا فآويناك، ومخذولا فنصرناك"؟ فقالوا: "بل المَنُّ علينا لله ورسوله" ثم قال: "ألا ترضون أن يذهب الناس بالشاة والبعير، وتذهبون بالنبى إلى رِحَالكم، لولا الهجرة لكنت امرأً من الأنصار، ولو سَلَكَ الناس وَاديًا وشِعْبًا، لسلكت وادى الأنصار وشِعْبَها، الأنصار شِعَارٌ والناس دِثَار. إنكم ستلقون بعدى أَثَرَةً فاصبروا حتى تلقونى على الحوض، فبكى القوم حتى اخْضَلَّت لحاهم بالدموع، وقالوا: "قد رضينا يا رسول الله"(١).

٥ - المؤلفة قلوبهم:

وروى أحمد ومسلم من حديث رافع بن خديج قال: أعطى رسول الله ﷺ أبا سفيان بن حرب، وصفوان بن أمية، وعيينة بن حصن، والأقرع بن حابس كل إنسان منهم مائة من الإبل يتألَّف بها قلوبهم، وأعطى عباس بن مرداس دون ذلك، فقال عباس:

أيجعل نَهْبى ونَهْبَ العُبَـ ... ـيد بين عيينة والأقرع

فما كان بدر(٢) ولا حابس ... يفوقان مِرْدَاسَ فى مجمع (٣)

وما كنت دون امرئ منهما ... ومن تخفض اليوم لا يرفع (٤)

فأتمَّ له رسول الله ﷺ مائة(٥).

---

(١) رواه أحمد (٤/ ٦٣١) والبخارى (٤٣٣٠) ومسلم (١٠٦١) عن عبد الله بن زيد بن عاصم رضى الله عنه. ومعنى: عالة: فقراء. والشِّعب: الطريق فى الجبل. والشِّعار: الثوب الذى يلى الجلد من الجسد. والدِّثار: الثوب فوق غيره من الثياب.

(٢) فى كثير من كتب السيرة (حصن) بدلا من كلمة (بدر).

(٣) بعد هذا البيت يوجد بيت آخر ـ كما ذكر صاحب سبل الهدى والرشاد ـ وهو:

وقد كنت فى الحرب ذا تدرأ ... فلم أعط شيئا ولم امنع

(٤) انظر: سبل الهدى والرشاد للصالحى (٥/ ٥٨٠) وقد ذكر ابن عبد البر الأبيات بصيغة أخرى، مع نفس القصة، انظر: "الدرر فى اختصار المغازى والسير" لابن عبد البر ص٢٣٢ بتحقق: د: شوقى ضيف. طبعة دار المعارف.

(٥) رواه مسلم (١٠٦٠) والبيهقى فى "السنن" (١٠/ ١٠٧) عن رافع بن خديج رضى الله عنه. ولم أجده فى مسند أحمد، وقد نقل الإمام البنا الحديث من تفسير المنار مقلدا له دون مراجعة (١٠/ ٢٥٩). وانظر: فتح البارى (٨/ ٥٥،٥٦).

وروى البخارى: أن رجلاً رأى ما أخذ هؤلاء وغيرهم فقال: ما أُريدَ بهذه القسمة وجه الله، فبلغ ذلك النبى ﷺ، فقال: "رحم الله موسى قد أوذى بأكثر من هذا فصبر"(١).

وروى الواقدى أن القائل: معتب بن قشير بن عوف وكان من المنافقين. ونقل الحافظ ابن حجر فى "الفتح" أسماء المؤلفة الذين أجزل لهم العطاء، فبلغوا أربعين ونَيِّفًا(٢). والله أعلم.

الحكم

وقد تجلَّت فى غزوة حُنين حكَمٌ جليلة منها:

١ـ التوجيه الربانى: وذلك أنَّ الجيش الإسلامى الظافر حين دخل مكة المكرمة وهى معقل الأمة العربية وموطن قريش قادة الناس سبق إلى بعض الظنون أن ذلك كان بمحض قوته وعدده وكثرته، فأراد الحق تبارك وتعالى أن يوجِّه عباده إلى الطريق القويم والصراط المستقيم، ويلفت الأنظار إلى أن الأعداد سبب ولكن النتائج بيده هو، وأن عليهم أن يصدقوا فى التوجُّه إليه والاعتماد عليه، ففاجأتهم الهزيمة فى حنين لتكون تذكيرًا بهذا التوجيه ﴿**وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ**﴾ [التوبة: ٢٥] ضعها إلى جانب قول الله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ**﴾ [آل عمران: ١٢٣] لتعلم أنَّ عواقب الأمور جميعًا بيد الله، وأن ذلك لا يمنع أبدًا من أن نعد كل ما نستطيع من قوة، بل إنَّ من الواجب أن نفعل ذلك امتثالا لأمر الله العلى الكبير. ومنها:

٢ـ كسر حدة الغرور المتوقع بعد هذا النصر المبين وخصوصًا لقوم حديثى عهد بهذا الدين، والعربىُّ فخور بطبعه مُعْتَدٌّ بعمله.

ولقد دخل رسول الله ﷺ مكة حين الفتح: خاشعًا متواضعًا قد أحْنَى رأسه الشريف

---

(١) رواه أحمد (١/ ٦٧٨) و (٢/ ٦) والبخارى (٣١٥٠) و(٣٤٠٥) و(٤٣٣٥) و(٤٣٣٦) و(٦٠٥٩) ومسلم (١٠٦٢) وابن حبان (٤٨٢٩) وأبو يعلى (٥٢٠٦) عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه.

(٢) انظر: فتح البارى (٨/ ٥٥، وما بعدها) نقلا عن: السيرة النبوية فى فتح البارى لابن حجر. والنيِّف: كل ما زاد على العقد فهو نيف حتى يبلغ العقد الثانى. انظر: مختار الصحاح ص٦٨٧

تواضعًا لله تبارك وتعالى وشكرًا له حتى كاد يمس سَرْجَه. وليس كل الناس رسول الله ﷺ، فكان في هذه المفاجاة ما يطير بوساوس الغرور، أو خواطر الاعتداد، حماية لهذه النفوس الكريمة من غَوَائِل هذه الأخلاق الذميمة. ومنها:

٣ـ المعونة المالية: فقد فتح المسلمون مكة وهي حرم الله وأمنه، ونادى منادى رسول الله ﷺ: "من دخل الحرم فهو آمن[١]، ومن اغلق عليه بابه فهو آمن، ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن"، فاستامن الناس ولم يغنم الفاتحون دينارا ولا درهما، وبذلوا لهذه الغزوة من ذات أنفسهم وذات يدهم ما بذلوا[٢]، فعوضَّهم الله خيرا بهذه الغنيمة من هوازن، وكانت الإبل أربعة وعشرين الفا، والغنم اربعين الفا، والفضة أكثر من أربعة آلاف أوقية. ومنها:

٤ـ التثبيت: فهؤلاء الذين دخلوا في دين الله أفواجًا بعد الفتح لا بد أن يروا من لطف الله تبارك وتعالى بنبيه وبالمؤمنين ما يزيدهم يقينًا، وقد رأوا ذلك بأعينهم بعد سوء الظن، فكان الدرس أعمق في نفوسهم أثرًا، وأجَلَّ خَطَرًا، والله وليُّ المؤمنين.

*****

(١) رواه عن أبي هريرة: أحمد (٢/ ٥٦٨) و(٣/ ٣٥٨) ومسلم (١٧٨٠) والنسائي في "الكبرى (١١٢٩٨) وابن حبان (٤٧٦٠) والدارقطني (٣/ ٦٠) والبيهقي في "السنن" (١٣/ ٤٣٩). ورواه عن ابن عباس: ابو داود (٣٠٢١) و(٣٠٢٢) والبيهقي في "السنن" (٨/ ٥٣٨) و(١٣/ ٤٤١). ورواه عن العباس بن عبد المطلب: البزار (١٢٩٢). ورواه عن انس بن مالك: الطبراني في "الكبير (٨/ ١٤).

(٢) لعل خامس الخلفاء الراشدين عمر بن عبد العزيز فهم من هذه الحادثة: أن الإسلام دين هداية لا دين جباية، وانه دين لا يُعنى بكسب المال اكثر من عنايته بكسب القلوب، وذلك عندما شكا إليه أحد ولاته: انه في ولايته يسلم الناس لتسقط عنهم الجزية، واقترح عليه: ان يجعل عليهم الجزية وهم مسلمون! فرد عليه عمر بن عبد العزيز بقولته الخالدة: "قَبَّح الله رايك! إن الله بعث محمدا هاديًا، ولم يبعثه جابيا"

[من أحكام المسجد الحرام][1]

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ إِن شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة :٢٨].

نجاسة المشرك:

الكفر: ضد الإسلام، ومن اتَّخذ من دون الله نداً، ولم يؤمن بالكتب ولا بالأنبياء فهو المشرك، ومن آمن بكتاب نزل ونبى سبق فهو كتابى، وقد يوصف بالشرك أحيانًا، وقد يُطْلِقُ القرآن وصف الكفر على الفريقين.

والنَّجاسة نوعان: حسيَّة ومعنوية، أو هى لغوية وشرعية، وقد ذهب بعض العلماء إلى أن المشرك نجس نجاسة حسية ومعنوية، وحكى هذا القول عن ابن عباس والحسن البصرى ومالك، وعن الهادى والقاسم والناصر من أئمة أهل المعتزلة، وهو مذهب جمهور الظاهرية والشيعة الإماميَّة، وبناء على هذا الرأى: فإن من صافح مشركًا وجَب عليه أن يطهر يده من نجاسته[2].

وجمهور أئمة المسلمين على خلاف هذا الرأى، ومنهم أهل المذاهب الأربعة، وقد حملوا الآية على النجاسة المعنوية. والسنة تؤيِّد ذلك، وأحكام الإسلام العملية تعزِّزه، فمن المعلوم أن المسلمين كانوا يعاشرون المشركين ويخالطونهم ولا سيما بعد صلح الحديبية. وكانت رسل المشركين ووفودهم تَرِدُ على النبى ﷺ ويدخلون مسجده، وكذلك أهل الكتاب كنصارى نجران واليهود، ولم يعامل أحدٌ أحداً منهم معاملة الأنجاس، ولم يأمر بغسل شيء مما أصابته أبدانهم. بل ورد أنه ﷺ توضأ من مزادة مشركة[3]. وأكل من طعام اليهود[4] وربط ثُمامة بن أُثال [الحنفى] وهو مشركٌ

---

(١) نشرت فى مجلة (الإخوان المسلمون) الأسبوعية فى العدد (١٧٤) الصادر فى ١١من ذى الحجة سنة ١٣٦٦هـ ـ ٢٥من أكتوبر سنة ١٩٤٧م.

(٢) انظر: البحر المحيط (٥/ ٢٨) وتفسير المحسن (١/ ٤١٢).

(٣) ذكره صاحب "منار السبيل" ص ١٤، ١٥، وقال الشيخ الألبانى عن هذا الحديث: لم أجده، وقد ذكره مجد الدين بن تيمية فى "المنتقى" ومرّ عليه الشوكانى فى "نيل الأوطار" (١/ ٧٠) فلم يخرجه ولم يتكلم عليه من حيث ثبوت وروده بشىء! انظر: إرواء الغليل (١/ ٧٢) حديث رقم (٣٦).

(٤) وذلك عندما دعته يهودية للطعام، ووضعت فى الشاة سُمًا، مات أحد أصحابه منه. رواه الحاكم (٤/ ١٢٢) وصححه عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه، وابو داود (٤٥١٢) وحسنه الشيخ الألبانى فى "صحيح سنن ابى داود" برقم (٣٧٨٤) ورواه الطبرانى فى "الكبير" (٢/ ٣٤) عن أبى هريرة رضى الله عنه.

بسارية من سوارى المسجد(١).

وروى أحمد وأبو داود من حديث جابر بن عبد الله قال: كنَّا نغزو مع رسول الله ﷺ فنصيب من آنية المشركين واسقيتهم، فنستمتع بها ولا يَعِيبُ ذلك علينا(٢).

هذا هو رأى جمهور أئمة المسلمين، على أننا ناخذ بالرأى الأول عمليا إذا ما استمرَّ عدوان دولهم وشعوبهم على حرياتنا وخيرات بلادنا، والإسلامُ صالحٌ لكل زمان ومكان وحال(٣).

وكالسيف إن لاينته لان متنه　　وحَدَّاه إن خاشنته خَشِنَان

الكفار فى دار الإسلام:

خلاصة أقوال الفقهاء فى ذلك: ان بلاد الإسلام بالنسبة للكفار ثلاثة أقسام:

١ـ الحَرَم: فلا يجوز لكافر ان يدخله بحال ذميًّا كان أو مستأمنًا لظاهر الآية، وبه قال الشافعي وأحمد ومالك. فلو جاء رسول من دار الكفر والإمام(٤) فى الحرم فلا ياذن له فى دخوله، بل يخرج إليه، أو يبعث له من يسمع رسالته، وأجاز أبو حنيفة للمعاهد دخول الحرم بإذن الإمام أو نائبه.

٢ـ الحجاز: وهو ما بين تهامة ونجد وتبوك، وفيه لا يمنح الكفار حق الإقامة. ويباح دخوله لضرورة.

---

(١) رواه أحمد (٣/٢٠٥) والبخارى (٤٦٢) و مسلم (١٧٦٤) وابو داود (٢٦٧٩) والبيهقى فى "السنن" (٩/٤٧٨) و(١٣/٣٣٣) وابن حبان (١٢٣٩) وابن خزيمة (٢٥٣) والنسائى فى "المجتبى" (٧١٢) وعبد الرزاق فى "المصنف" (٩٨٣٤) عن ابى هريرة رضى الله عنه.

(٢) رواه احمد (٤/٣٦٢) وأبو داود (٣٨٣٨) والبيهقى فى "السنن" (١/٥٢) و (١٤/٤٠٩) عن جابر رضى الله عنه.

(٣) هذا الرأى يدل على الفقه السياسى عند الإمام الشهيد، فقد كان رحمه الله يعلن فى مؤتمراته هذا الرأى، وهو ان المشركين نجس، ونجاستهم حسيَّة، حتى يخرجوا من أرض المسلمين، وهذا من باب السياسة الشرعية.

(٤) اى إمام المسلمين، سواء كان خليفةً او حاكمًا، او من يقوم مقامه.

روى مسلم عن ابن عمر أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: "لأُخْرِجَنَّ اليهود والنصارى من جزيرة العرب فلا أترك فيها إلا مسلما"(١).

وفي رواية لغير مسلم: أنه ﷺ أوصى فقال: "أخْرِجوا المشركين من جزيرة العرب"(٢) فلم يتفرغ لذلك أبو بكر رضي الله عنه، وأجلاهم عمر في خلافته. وأحل لمن يقدم تاجراً ثلاثاً.

وعن ابن شهاب: أن رسول الله ﷺ قال: "لا يجتمع دينان في جزيرة العرب" أخرجه مالك في الموطأ مرسلا(٣).

وحدُّ الجَزيرة: من أقصى عَدَن إلى ريف العراق طولاً، ومن جُدَّة وما إليها من ساحل البحر إلى أطراف الشام عرضاً.

٣ـ سائر بلاد الإسلام: فيجوز للكافر أن يقيم فيها [بعهد وأمان وذمة(٤)]، (إن كان معاهدا ـ كالأجنبي الذي بين حكومته وبين الحكومة الإسلامية عهد ـ أو مُسْتأمنًا وهو الذي يدخل بأمان كالرسل، أو ذميًا وهو الذي يتبع الحكومة الإسلامية)(٥) ولكنهم لا

---

(١) رواه أحمد (١/ ٥٠، ٥٤) والترمذي (١٦٠٧) و (١٦٠٦) وقال: حسن صحيح، وأبو داود (٣٠٣٠) والبزار (٢٣٤) وابن حبان (٣٧٥٣) وصححه محققه، انظر: صحيح ابن حبان (٩/ ٦٩) وعبد الرزاق (٩٩٨٥) وابن أبي شيبة (١٢/ ٣٤٥) عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

(٢) رواه أحمد (١/ ٣٦٦) والبخاري (٣٠٥٣) و (٣١٦٨) و (٤٤٣١) ومسلم (١٦٣٧) وأبو داود (٣٠٢٩) والنسائي في "الكبرى" (٥٨٥٤) وأبو يعلى (٢٤٠٩) والبيهقي (١٤/ ٥٦) وعبد الرزاق (٩٩٩٢١) عن ابن عباس رضي الله عنهما. وقد نقل الإمام البنا عن الشيخ رشيد رضا دون مراجعة، فالحديث رواه مسلم كما نرى!

(٣) رواه مالك مرسلا (١٦٥١) عن ابن شهاب، وبرقم (١٦٥٠) عن عمر بن عبد العزيز. ورواه احمد مرفوعا (٧/ ٣٩٠) والطبراني في "الأوسط" (١٠٧٠) عن عائشة رضي الله عنها، بلفظ: "لا يُترك بجزيرة العرب دينان". ورواه البيهقي في "السنن" (٩/ ٣٦٢) مرسلا عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة. والحديث هنا ينهى عن اجتماع دينين في جزيرة العرب، والنهي عن اجتماع ثلاثة أديان فأكثر أوجب، والإثم في إتاحته اعظم!

(٤) ما بين معقوفتين سقط من مقال الإمام، وقد استدركت النقص من تفسير المنار.

(٥) ما بين القوسين ليس من كلام البغوي ولا الخازن ولا رشيد رضا، إنما هو من كلام البنا.

يدخلون المساجد إلا بإذن من مسلم. انتهى ملخصا بتصرف من تفسير المنار عن البغوى والخازن[1].

نموذج من الامتثال،

ومن المعلوم أنّ أرزاق أهل الحرم وقوام معايشهم وفود هؤلاء الزوار والحجاج والمعتمرين إليهم، وأكثرهم حين ذاك لا زال مشركًا، فتحريم دخول الحرم عليهم حرمان كبير، ومع ذلك فقد صبروا عليه صبر الكرام امتثالاً لأمر الله تبارك وتعالى وإيثاراً لما عنده. ولم يدعهم الحق تبارك وتعالى فريسة الوساوس بل طمأنهم بقوله: ﴿ **وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ إِن شَاءَ** ﴾ [التوبة: ٢٨] وقد صدقهم الله وعده وأغناهم من فضله، وفتح عليهم أكْنَافَ الأرض، وجُبِيتْ إليهم ثمراتُ كل شيء والله عليم حكيم[2].

*****

---

(١) نقل الإمام البنا هذه الفقرة عن تفسير المنار للعلامة محمد رشيد رضا (١ / ٢٤٤، ٢٤٥)، وانظر: تفسير البغوى (٢ / ٢٨١، ٢٨٢) ط: دار المعرفة. وتفسير البغوى (٤ / ٣٢) طبعة طيبة. وتفسير الخازن (٣ / ١٠٠) ط: دار الكتب العلمية.

(٢) إلى هذه الفقرة انتهى تفسير الآية، وقد قال الإمام الشهيد بعد هذه الفقرة:

(من أحكام القتال والجزية:

ولما كانت الآية اللاحقة تتضمن أحكام قتال أهل الكتاب مما يتبعها من تفاصيل أحكام الجزية، وفي ذلك كلام طويل فموعدنا العدد القادم إن شاء الله).

وهى كما يرى القارئ أليق بالمقال الصحفى لا بكتابة مسترسلة فى التفسير، وقد كتبناها فى الهامش من باب الأمانة فى النقل.

[من أحكام القتال والجزية][1]

﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ [التوبة: ٢٩].

وفي الآية مباحث منها:

حكم القتال في الإسلام:

وقد قال الفقهاء: وتظاهرت على ذلك الأدلة من الكتاب والسنة: إن القتال فرض عين إذا ديست أرض الإسلام، أو اعتدى عليها المعتدون من غير المسلمين[2].

وهو فرض كفاية لحماية الدعوة الإسلامية، وتأمين الوطن الإسلامي، فيكون واجبا على من تتم بهم هذه الحماية وهذا التأمين.

وليس الغرض من القتال في الإسلام إكراه الناس على عقيدة أو إدخالهم قسْرًا في الدين، والله يقول: ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ [البقرة: ٢٥٦] كما أنه ليس الغرض من القتال كذلك الحصول على منافع دنيوية أو مغانم مادية، فالزيت والفحم والقمح والمطاط ليست من أهداف المقاتل المسلم الذي يخرج عن نفسه وماله ودمه لله بأن له الجنة: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١١١]، والغنيمة بعد ذلك خير ومكافأة دنيوية يسوقها الله للمقاتلين في سبيله مع النصر والأجر، وليست من مقاصدهم ولا من أهدافهم[3]

---

(١) نشرت في مجلة (الإخوان المسلمون) الأسبوعية في العدد (١٧٥) الصادر في ٢٥ من ذي الحجة سنة ١٣٦٦هـ - ٨ من نوفمبر سنة ١٩٤٧م.

(٢) انظر: فتح القدير (٤ / ٢٧٨) وحاشية ابن عابدين (٣ / ٢٣٩) نقلا عن: الفقه الإسلامي وأدلته (٨ / ٥٨٥١) للدكتور وهبة الزحيلي. طبعة دار الفكر المعاصر.

(٣) تعرض الإمام الشهيد لغاية المسلم من القتال عدة مرات، فقد ذكرها مرة أخرى في مقال بعنوان: (في سبيل الكرامة) وهو مجموع في هذا الكتاب، وذلك عند تعرضه لقوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٩٠]؛ ومرة ثالثة في مقال بعنوان: (السلام وحكمة مشروعية القتال في الإسلام) في العدد الرابع من مجلة (الشهاب) الشهرية.

والمقاتل المسلم أرحم المقاتلين وأبَرُّهُم بخصومه محاربين أو أسرى، وهذه وصية رسول الله ﷺ وخلفائه من بعده لقواد الأجناد: "لا تَغُلُّوا، ولا تَغْدِرُوا، ولا تقتلوا امرأةً ولا طفلاً ولا شيخًا كبيرًا، ولا تتبعوا مُدْبِرًا، ولا تُجْهِزوا على جَريح، ولا تقطعوا شجرة مُثْمِرة، ولا تَعْقِروا بَعيرًا إلا للأكل، وستمرُّون على أقوام تَرَهَّبُوا في الصَّوامِع فَدعُوهم وما فَرَّغوا أنفسَهُم له"(١).

حكم قتال أهل الكتاب:

وأهل الكتاب يُقَاتَلُون كما يُقَاتَل المشركون تمامًا إذا اعتدوا على أرض الإسلام، أو حالوا دون انتشار دعوته، وكل ما هنالك من فرق أنَّ المشركين من العرب لا يقبل منهم حين يقاتلون إلا الإسلام حتى لا يكون في جزيرة العرب دينان، وهي (دار الإسلام الدينية الخالدة) وأما أهل الكتاب فقد ترخَّص الإسلام في أمرهم، وأجاز الاكتفاء بأخذ الجزية منهم، فمتى تعهدوا بأدائها، ورضوا بها فقد وجب أن يُرفع عنهم السيف، ومثلهم في ذلك المجوس والصابئون والمشركون من غير العرب والوثنيون كذلك في أرجح الأقوال، وفي المسألة خلاف بين الفقهاء وأرجحها وأولاها بالتطبيق ما ذكرنا هنا إن شاء الله.

أوصاف أهل الكتاب في الآية:

وقد وصفت الآية أهل الكتاب - وهم في عُرف الإسلام: اليهود والنصارى - بثلاث صفات: بأنهم لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر، وبأنهم لا يحرِّمون ما حرم الله ورسوله، وبأنهم لا يدينون دين الحق، وذلك معلوم من سيرتهم ومن كتبهم، فهم وإن اعترفوا بالألوهية من حيث هي فهم يخلطون في صفات الله تبارك وتعالى وأفعاله تخليطًا عجيبًا، وهم وإن آمنوا بالجزاء والدَّيْنُونة واليوم الآخر بمعناه الأعم فإنهم لا يتصورون فيه نعيمًا حسيًا ولا عقابًا ماديًا.

---

(١) في هذه الوصية ما ورد مرفوعًا عن رسول الله ﷺ، وهو قوله: "اخرجوا باسم الله، فقاتلوا في سبيل الله من كفر بالله، لا تغدروا، ولا تمثلوا، ولا تغلوا، ولا تقتلوا الولدان، ولا أصحاب الصوامع" رواه أبو يعلى عن ابن عباس رضي الله عنهما، ورواه أحمد (٤ / ٢٤٠) والبيهقي في "السنن" (٩ / ٦٩) مختصرا، عن صفوان بن عسال رضي الله عنه. أما هذه الوصية الكاملة فهي وصية أبي بكر الصديق للجند عند الخروج للقاء العدو، انظر: "معجم الصغير" للطبراني حديث رقم (٩٦٩).

وقد قعدت بهم هذه العقائد المشوَّهة عن تحقيق القسم الثانى من الدين وهو القسم العملى، واستشهدت الآية على ذلك بانهم لا يحرِّمون ما حرَّم الله ورسوله.

وهل المقصود بعدم التحريم أنهم استحلُّوا بعض ما ورد تحريمه عن أنبيائهم السابقين؟ أو انهم استحلُّوا ما وَرَدَ على لسان رسول الله سيدنا محمد ﷺ؟

قولان، والثانى اظهر، فهم مخاطبون بهذا الدين لعموم بعثته عليهم، فإن آمنوا فهم ناجون، وإن اعرضوا فقد هلكوا، وذكر التحريم واكتفى به عن ذكر الناحية المقابلة له وهى فعل الفرائض والمأمورات ببيان أنهم غير حريصين على ما فيه فائدتهم، فإن حكمة التحريم ظاهرة وهى الضَّرر، فإذا كانوا يُقْدمون على ما يجلب عليهم الضرر عناداً وتحدِّياً فهم على القعود عما يجلب عليهم النفع أجرأ تحدِّياً وعناداً كذلك، ومن استحلَّ الحرام فمن باب الأولى لن يفعل الحلال.

وبهاتين الصفتين تحقَّقت الصفة الثالثة وهى: أنهم لا يَدينونَ دينَ الحق وهو الإسلام: ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١٨) إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ ﴾ [آل عمران: ١٨، ١٩] ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [آل عمران: ٨٥].

وبهذا تكون الآية قد كشفت عن أوصاف أهل الكتاب، وهذه الأوصاف فيها البيان بالواقع.

وقد ذهب بعض العلماء إلى أنَّ من أهل الكتاب من يؤمن بالله واليوم الآخر، ومن يحرِّم ما حرم الله ورسوله عليه فى كتبه التى هو مخاطب بها مُكلَّف باتباعها، وأنهم بذلك يدينون دين الحق فى عرفهم، وعلى هذا فلا تجب مقاتلتهم إلا إذا غيَّروا وبدَّلوا واستحلُّوا ما حرَّم الله عليهم على لسان أنبيائهم، فاعتبروا الأوصاف شروطًا فى وجوب القتال.

والنتيجة العملية واحدة، لأنه من المقطوع به أنهم غيَّروا وبدَّلوا، وأنهم لا يدينون دين الحق، لا الذى جاء به أنبياؤهم ـ ففيه البشارة بمحمد ﷺ والأمر باتِّباعه ـ ولا الذى جاء به محمد ﷺ وهو الإسلام.

أحكام الجزية

الجِزْيَةُ: ضريبةٌ من الخَراج تُضرب على الأشخاص لا على الأرض، والكلمة عربيةٌ مشتقةٌ من الجَزاء كأنها تدفع جَزاءً لحقن الدم، أو للحماية والمَنَعَة والتمتّع بحقوق أهل الإسلام، أو هى جزاء الإعفاء من ضريبة الدم والجندية فى القتال.

وقال شمس العلماء الشيخ شبلى النعمانى الهندى[١] رحمه الله: إنها فارسية معرَّبة وأصلها "كزيت" ومعناها الخراج الذى يستعان به على الحرب، وأطال فى الاستدلال على ذلك فى رسالة خاصة نشرت فى المجلد الأول من مجلة المنار، ومما استأنس به فى ذلك أن التاريخ يثبت أن كسرى هو أول من وضع الجزية، فالجزية نظام فارسى وليس مبتكرًا من الإسلام[٢].

ولقد كان يخطر ببالى ويهمس فى نفسى دائمًا أن الجزية إنما وضعت "كبَدَل نَقْدى" عن الجندية، وأن الإسلام إنما لجأ إليها وأوجبها على غير المسلمين من باب التخفيف والرحمة وعدم الحرج، حتى لا يُلزمهم أن يقاتلوا فى صفوف المسلمين فيُتَّهم بأنه إنما يريد لهم الموت والاستئصال والفناء والتعريض لمخاطر الحرب والقتال، فهى فى الحقيقة "امتياز فى صورة ضريبة" هذا فى الوقت الذى يتّخذ منها الإسلام أيضا احتياطا لتنقية صفوف المجاهدين من غير ذوى العقيدة الصحيحة، والحماسة المؤمنة البصيرة. وكان يخطر لى: أن مقتضى هذا أن الإمام إذا رأى من مصلحة الوطن الإسلامى أن يجنِّد غير المسلمين سقطت عنهم الجزية بهذا التجنيد.

ولقد ناقشنى فى هذه الخواطر بعض الفقهاء الصالحين مستدلين بنصوص بعض المذاهب فى هذا المعنى، ولم أشأ الاسترسال فى الجَدَل، إذ لم يكن بين يدى حينذاك من الشواهد والأدلة التاريخية العملية ما يَدْعم الخواطر التى تتوارد على نفسى، ثم رأيت

---

(١) هو علامة الهند، الأديب للمؤرخ الناقد والبحاثة: شبلى بن حبيب الله البندولى النعمانى، ولد سنة ١٢٧٣هـ وتوفى سنة ١٣٣٢هـ رحمه الله تعالى. انظر ترجمته الحافلة فى كتاب "شبلى النعمانى علامة الهند الأديب وللمؤرخ الناقد الأديب" للأستاذ محمد أكرم الندوى. طبعة: دار القلم - دمشق. الأولى.

(٢) انظر: مقال (الإسلام والجزية) للعلامة الشبلى المنشور فى مجلة (المنار) فى العدد (٤٤) من السنة الأولى الصادر فى ٩من رمضان سنة ١٣١٦هـ - ٢١من يناير سنة ١٨٩٩م.

بعد ذلك "تفسير المنار" قد ألَمَّ بهذه القضية، وذهب إلى ما كان يدور بنفسى، ودعمه بكثير من هذه الشواهد والأدلة، وإليك تلخيص ما قاله فى ذلك:

"ولعلك تطالبنى بإثبات بعض القضايا المنطوية فى هذا البيان، أى إثبات أنَّ الجزية ما كانت تُؤْخذ من الذميين إلا للقيام بحمايتهم والمدافعة عنهم، وأن الذميين لو دخلوا فى الجند أو تكفَّلوا أمر الدفاع لاعفوا من الجزية، فإن صدق ظنى فاصغ إلى الروايات التى تعطيك الثلج فى هذا الباب، وتحسم مادة القيل والقال.

فمنها ما كتبه خالد بن الوليد لصلوبا بن نسطونا حينما دخل الفرات وأوغل فيها وهذا نصُّه:

"هذا كتاب من خالد بن الوليد لصلوبا بن نسطونا وقومه، إنى عاهدتكم على الجزية والمنعة فلك الذمة والمنعة، وما منعناكم فلنا الجزية وإلا فلا. كتب سنة اثنتى عشرة فى صفر[1].

ولقد ردَّ الأمراء بأمر أبى عبيدة بن الجراح ما كانوا أخذوه من الجزية من أهل حمص وما إليها حين جلوا عنها ليتجمعوا لقتال الروم، وقالوا لأهل البلاد: إنما رَدَدْنا عليكم أموالكم لأنه قد بلغ ما جُمع لنا من الجموع، وإنكم قد اشترطتم علينا أن نمنعكم، وإنا لا نقدر على ذلك الآن، وقد رَدَدنا عليكم ما أخذنا منكم، ونحن لكم على الشرط وما كان بيننا وبينكم إن نصرنا الله عليهم.

فكان جواب أهل هذه البلاد. ردكم الله علينا، ونصركم عليهم، فلو كانوا هم لم يردوا علينا شيئا وأخذوا كل شيء، لولايتكم وعدلكم أحبُّ إلينا مما كنا فيه من الظلم والغشم، ولنذمنَّ جند هرقل. وأغلقوا الأبواب وحرسوها، وكذلك فعل أبو عبيدة مع دمشق وذلك حين كان يتجهز لليرموك[2].

ومنها - وهو بعد يدل على أنَّ أهل الذمة إذا لم يشترطوا الحماية أو شاركوا فى الجندية لا يطالبون بالجزية -: كتاب العهد الذى كتبه سويد بن مقرف أحد قُوَّاد عمر رضى الله عنهما لرزبان وأهل دهستان وسائر أهل جرجان، ونصه:

---

(١) انظر: تاريخ الطبرى (٢ / ٣١٨) ط: دار الكتب العلمية.

(٢) انظر: الخراج لابى يوسف ص ٨١

"هذا كتاب سويد بن مقرف لرزبان وأهل دهستان وسائر أهل جرجان، إن لكم الذمة وعلينا المنعة على ان عليكم من الجزاء فى كل سنة على قدر طاقتكم على كل حالم، ومن استعنا به منكم فله جزاؤه (اى جزيته) فى معونته عوضا عن جزائه، ولهم الأمان على انفسهم وأموالهم ومللهم وشرائعهم، ولا يغير شيء من ذلك. شهد سواد بن قطبة وهند بن عمر وسماك بن مخرمة وعتيبة بن النهاس" وكتب فى سنة ١٨هـ (الطبرى)[١].

ومنها: كتاب عُتْبة بن فَرْقد احد عمَّال عمر بن الخطاب، وهذا نصُّه: "ما أعطى عتبة ابن فرقد عامل عمر بن الخطاب أمير المؤمنين أهل أذربيجان، سهلها وجبلها وحواشيها وشفارها وأهل مللها كلهم الأمان على أنفسهم وأموالهم ومللهم وشرائعهم، على أن يؤدُّوا الجزية على قدر طاقتهم، ومن حشر منهم فى سنة وضع عنه جزاء تلك السنة، ومن أقام فله مثل من أقام من ذلك. (الطبرى).

ومنها: العهد الذى كان بين سُراقة - عامل عمر - وبين شهر براز، وقد كتب به سراقة إلى عمر فاجازه واستحسنه وهذا نصُّه: "هذا ما أعطى سراقة بن عمرو عامل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب شهر براز وسكان أرمينية والأرمن من الأمان، أعطاهم أمانًا لأنفسهم وأموالهم وملتهم ألا يُضَارُّوا ولا ينقضوا وعلى أرمينية والأبواب الطراء منهم (أى الغرباء) والقناء (أى المقيمين) ومن حولهم فدخل معهم أن ينفروا لكل غارة، وينفذوا لكل أمر ناب أو لم ينب رآه الوالى صلاحًا على أن يوضع الجزاء (أى الجزية) عمَّن أجاب إلى ذلك، ومن استغنى عنه منهم وقعد فعليه مثل ما على أهل أذربيجان من الجزاء، فإن حشروا (أى جندوا) وضع ذلك عنهم. شهد عبد الرحمن بن ربيعة، وسلمان بن ربيعة، وبكير بن عبد الله وكتب مرضى بن مقرن وشهد انتهى (الطبرى).

ومنها: ما كان من أمر الجراجمة فيما ذكره البلاذرى فقال: حدثنى مشايخ من أهل إنطاكية أنَّ الجراجمة من مدينة على جبل لكام عند معدن الزاج فيما بين بيامن وبوقا يقال لها الجرجومة، وأن أمرهم كان فى استيلاء الروم على الشام وأنطاكية إلى بطريرك إنطاكية وواليها، فلما قدم أبو عبيدة إلى إنطاكية وفتحها لزموا مدينتهم، وهمُّوا باللحاق

(١) انظر: تاريخ الطبرى (٢ / ٥٣٨).

بالروم إذ خافوا على أنفسهم، فلم ينبه المسلمون لهم ولم ينتبهوا عليهم، ثم إن أهل إنطاكية نقضوا وغدروا فوجه إليهم أبو عبيدة من فتحها ثانية، وولاها بعد فتحها حبيب بن مسلم الفهري فغزا الجرجومة فلم يقاتله أهلها، ولكنهم بادروا بطلب الأمان والصلح فصالحوه على أن يكونوا أعوانًا للمسلمين وعيونًا، ولم يؤخذوا بالجزية[1].

ثم إن الجراجمة مع أنهم لم يوفوا ونقضوا العهد غير مرة لم يؤاخذوا بالجزية قط، حتى إن بعض العمال في عهد الواثق بالله العباسي ألزمهم جزية رؤوسهم فرفعوا ذلك إلى الواثق فأمر بإسقاطها عنهم. اهـ[2].

وهذا الكلام واضح كما ترى في أن الجزية مقابل المنعة إن اشترطوها، وفي حقّ الإمام في إسقاطها عنهم إذا اقتضى الأمر تجنيدهم، ونحن نضعه أمام أنظار السادة الفقهاء الأجلاء والعلماء الفضلاء ليقولوا كلمتهم فيه والحقيقة بنت البحث[3].

*****

(١) انظر: فتوح البلدان للبلاذري ص١٥٩ نقلا عن "غير المسلمين في المجتمع الإسلامي" للقرضاوي ص٦٣

(٢) نقل الإمام البنا هذه الفقرة عن: تفسير المنار (١٠ / ٢٩٣-٢٩٨) بتصرف. وقد نقلها العلامة محمد رشيد رضا في تفسير المنار عن: مقال (الإسلام والجزية) للعلامة الشبلي النعماني المنشور في مجلة (المنار) في العدد (٤٥) من السنة الأولى الصادر في ١٦من رمضان سنة ١٣١٦هـ-٢٨من يناير سنة ١٨٩٩م. وانظر أيضا: الدعوة إلى الإسلام لأرنولد ص٧٩-٨١

(٣) اختلف العلماء في سبب أخذ الجزية من أهل الكتاب، فقال علماء المالكية: وجبت بدلاً عن القتل بسبب الكفر. وقال الشافعي: وجبت بدلاً عن الدم وسكنى الدار. وقال بعض الحنفية مثل قول المالكية، وقال البعض الآخر: إنما وجبت بدلاً عن النصر والجهاد. انظر: تفسير القرطبي (٨/ ١٠٨). ولعل ما ذهب إليه الإمام البنا أوجه وأولى بالترجيح، وقد دلل عليه بما نقله من نقول من تفسير المنار. وقد سار كثير من تلامذة البنا على نفس رأيه، انظر: "غير المسلمين في المجتمع الإسلامي" للدكتور يوسف القرضاوي طبعة مكتبة وهبة، والرسالة، و"أحكام الذميين والمستأمنين" للدكتور عبد الكريم زيدان طبعة دار الرسالة.

[كفر أهل الكتاب وعداؤهم للإسلام][1]

﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ (٣٠) اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٣١) يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (٣٢) هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة: ٣٠ ٣٣].

دعوى البنوة في الأديان السابقة:

عُزَيْر هو الذى يسمَّى عند اليهود: "عِزْرَا"، وله عندهم المنزلة العليا، إذ يعتبر عصره من أزهر عصور اليهود الدينية، وله فضل عظيم عندهم إذ ينسبون إليه أنه جدَّد التوراة بإلهامٍ من الله بعد أن أحرقت كل نسخها فى عهد بختنصر أو (نبو خذ نصر)، قال كليمص اسكندريانوس: "إن الكتب السماوية ضاعت فأُلهِم عزرا أن يكتبها مرة أخرى[2]. ثم هم يقولون: إن ما كتبه عزرا قد أحرق هو الآخر عندما استولى "انطيوكس" ملك سوريا على "أورشليم"، وأمر أن من يوجد عنده نسخة من كتب العهد العتيق [أى القديم] يقتل وتعدم تلك النسخ.

ولفظ (ابن الله) أطلق فى كتب اليهود والنصارى عدة إطلاقات، أُطلق على آدم، كما جاء فى نسب المسيح فى آخر الفصل الثالث من إنجيل لوقا: (ابن شيث بن آدم بن الله)، وأُطلق على يعقوب كما فى الفصل الرابع من سفْر الخروج: (٤ :٢٢ هكذا يقول الرب: إسرائيل ابنى البكر)، وأُطلق على أفرايم كما فى سفر أرميا: (٣١: ٩ لأنى صرت أنا وأفرايم هى بكرى)، وأُطلق على الملائكة وعلى المؤمنين الصالحين فى مواضع كثيرة من العهد القديم والجديد، ولا شك أن المراد بالبنوَّة فى كل هذه الإطلاقات معان

---

(١) نشرت فى مجلة (الإخوان المسلمون) الأسبوعية فى العدد (١٧٦) الصادر فى ٢من محرم سنة ١٣٦٧هـ - ١٥ من نوفمبر سنة ١٩٤٧م.

(٢) نقلا عن: إظهار الحق لرحمة الله الهندى (١ /١٦٧).

مجازية من التكريم أو الرحمة أو نحو ذلك. وتخصيص ما ورد فى هذه الكتب نحو عزير وعن المسيح من حيث وصفهما بهذه البنوة بأن المقصود به الحقيقة اللغوية أمرٌ عجيب لا مبرِّر له من هذه النصوص نفسها.

ولهذا ردَّ القرآن هذه الدعوى التى لم ينص عليها دليل، واظهر ان مصدرها ما تسرَّب من افكار الامم السابقة، فقد كان الهنود والفرس والصينيون والرومان وغيرهم ينسبون إلى آلهتهم الأبناء من ملوكهم أو عظمائهم. وهذه من معجزات القرآن الكريم؛ فما كان العرب يعرفون شيئًا عن معتقدات الأمم السابقة وآرائها التى كشف عنها البحث الحديث؛ وأفاض فى ذكرها والموازنة بينها علماء الغرب فى هذه الأيام، كما أنهم لم يكونوا يعرفون كذلك مبلغ مشابهتها لما يردده أهل الكتاب، ومع هذا فإن القرآن يقول: ﴿يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ﴾ [التوبة: ٣٠].

ربوبية الأحبار والرهبان:

الاحبار: جمع حبر، وهو العالم بالدين، والرهبان: جمع راهب، وهو المتبتل المنقطع للعبادة. والمقصود باتخاذهم أربابًا: أحد أمرين - والله أعلم -:

أولهما: التعظيم الزائد عن الاحترام المعتاد، والذى يؤدى إلى اعتقاد أنهم هم مصدر نفع أو ضرر، كما يلاحظ ذلك فى غُلاة التلاميذ أو المريدين بالنسبة لأشياخهم.

وثانيهما: اعتقاد أنَّ لهم حق التشريع والتحريم والتحليل وَفْق أهوائهم، فالحلال ما أحلوه، والحرام ما حرموه، بغير سلطان أتاهم، أو حجة من الله بين أيديهم، وإلى هذا المعنى ذهب كثير من المفسرين.

روى الترمذى وحسَّنه وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه والبيهقى فى السنن وغيرهم عن عدى بن حاتم رضى الله عنه قال: "أتيت النبىَّ ﷺ وهو يقرأ فى سورة براءة: (اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله) فقال: أما إنهم لم يكونوا يعبدونهم، ولكنهم كانوا إذا أحلُّوا لهم شيئًا استحلوه، وإذا حرَّموا عليهم شيئًا حرَّموه"(١).

---

(١) رواه الترمذى (٣٠٩٥) عن عدى بن حاتم رضى الله عنه، وقال: حديث غريب. ورواه ابن أبى حاتم فى تفسيره (٦/١٧٨٤) الأثر رقم (١٠٠٥٧). وحسنه الشيخ الألبانى فى صحيح الترمذى (٢٤٧١).

وروى الإمام أحمد والترمذي وابن جرير عن عدى أنه لما بلغته دعوة رسول الله ﷺ فَرَّ إلى الشام، وكان قد تنصَّر في الجاهلية، فأُسِرت أخته وجماعة من قومه، ثم مَنَّ رسول الله ﷺ عليها وأعطاها، فعزم على القدوم على النبيْ ﷺ، فقدم على المدينة، وكان رئيسًا في قومه طيئ، وأبوه حاتم المشهور بالكرم، فتحدَّث الناس بقدومه، فدخل على رسول الله ﷺ، وفي عُنُق "عدى" صليب من فضة، وألقى رسول الله ﷺ هذه الآية: (اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله) فقلت: إنهم لم يعبدوهم! فقال: بلى، إنهم حرَّموا عليهم الحلال، وأحلُّوا لهم الحرام، فاتبعوهم فذلك عبادتهم إياهم.

وقال رسول الله ﷺ: يا عدى ما تقول؟ أيضرُّك أن يُقال: الله أكبر، فهل تعلم شيئا أكبر من الله؟ أيضرك أن يقال: لا إله إلا الله، فهل تعلم إلهًا غير الله، ثم دعاه إلى الإسلام، وشهد شهادة الحق. قال: هذا رأيت وجهه استبشر"[1].

وكلا المعنيين نهى الإسلام عنهما وحذَّر منهما، وهذا رسول الله ﷺ نهى أشد النهي عن أن يتمثَّل له الرجال قيامًا[2]، أو أن يقولوا عنه أكثر من أنه عبدُ الله ورسولُه[3]، ثم هو بعد ذلك يجهر: بأنه لا يحل ولا يحرم، ولا يأمر ولا ينهى إلا بما أُوحي إليه: ﴿ **وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَٰذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ** ﴾ [يونس: ١٥]، فكيف بغيره من العلماء والعُبَّاد؟!

أما أن أهل الكتاب قد أمروا بعبادة الله وحده على لسان موسى وعيسى عليهما

---

(١) رواه أحمد (٥/ ٥١١) والترمذي (٢٩٥٤) وقال: حديث غريب. والطبراني في "الكبير" (١٧/ ٩٨) عن عدى بن حاتم رضي الله عنه.

(٢) وذلك عندما خرج ﷺ متوكئا على عصا، فقام الصحابة إليه، فقال: "لا تقوموا كما تقوم الأعاجم يعظم بعضهم بعضا" رواه أحمد (٦/ ٣٣٧، ٣٤١) وابن ماجه (٣٨٣٦) والبيهقي في "الشعب" (٨٩٣٧) عن أبي أمامة رضي الله عنه. بل نهى عن السجود له ﷺ، عندما أراد بعض الصحابة ذلك، ونهاهم عن ذلك نهيا جازما.

(٣) وذلك في قوله ﷺ: "لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم، فإنما أنا عبد الله ورسوله" رواه أحمد (١/ ٤٠، ٤٢) والبخاري (٣٤٤٥) والدارمي (٢٧٨٤) وابن حبان (٦٢٣٩) وأبو يعلى (١٥٣) وعبد الرزاق (٢٠٥٢٤) عن عمر رضي الله عنه.

السلام فذلك بنص كتبهم، فلقد جاء فى "سفر الخروج" فى أول الوصايا العشر: (أنا الرب إلهك الذى أخرجك من أرض مصر من بيت العبودية، لا يكن لك آلهة أخرى أمامي، لا تصنع لك تمثالاً منحوتًا، ولا صورة مما فى السماء من فوق ولا مما فى الأرض من تحت، ولا مما فى السماء تحت الأرض، لا تسجد لهن ولا تعبدهن، لأنى أنا الرب إلهك إله غيور) وجاء فى إنجيل يوحنا قوله: (٧: وهذه الحياة الأبدية أن يعرفوك أنت الإله الحقيقى وحدك ويسوع المسيح الذى أرسلته) فذلك أمر الله إياهم ألا يعبدوا غيره سبحانه عما يشركون[١].

كيد أعداء الدين للدين:

ولقد دَأَبَ أعداء النور الربانى - من هداية الله التى جاء بها موسى وعيسى ومحمد صلوات الله وسلامه عليهم - على مقاومة هذا النور ومحاولة إطفائه، فأخذ اليهود منذ بعثة الرسول ﷺ يناوئون هذه الدعوة الربانية بالمجادلة الباطلة تارةً، ثم بالغزوات والحروب الفاشلة تارة أخرى، ثم بعد ذلك بالدسائس والمؤامرات والمكايد[٢] وإدخال البدع والخرافات، والأفكار الفاسدة المفرقة تارة ثالثة، وهاهم اليوم لا زالوا يحلمون بالدولة اليهودية[٣] التى يريدون من وراء إنشائها تمزيق وحدة الإسلام والمسلمين، ولن يصلوا إلى شيء من ذلك بإذن الله[٤]. وهاهو الغرب المسيحى صورة، يحاول بكل الوسائل أن يفرق جماعة المسلمين ويقضى على نهضتهم باحتلال أرضهم والاستيلاء على مقدرات أوطانهم ما وجد إلى ذلك سبيلاً، ولكن الله تبارك وتعالى تكفَّل لهذا الدين بالحفظ

(١) الغريب أن ظهر علينا فى العصر الحديث من يدعى عدم كفر أهل الكتاب، وهذا سببه إما الجهل بنصوص القرآن والإسلام، أو الطعن فيهما. انظر رسالة: حكم اليهود والنصارى العقدى للدكتور يوسف القرضاوى.

(٢) كتبها الإمام البنا فى المقال: "مكائد" وهو خطأ، والصواب ما أثبته، لأن أصل الكلمة: كاد يكيد كيدا، فالياء أصلية فى الكلمة.

(٣) كانت الصحف العربية والإسلامية تطلق على إسرائيل فى هذه الفترة وما بعدها: إسرائيل المزعومة، ثم أخذت تزداد سيطرتها يومًا بعد يوم، حتى كاد العرب - كما يقول الشيخ القرضاوى - أن يكونوا المزعومين!

(٤) يتكلم الإمام الشهيد على قضية فلسطين وأطماع الصهيونية فيها، وقد قدم البنا - بدفعه بتلامذته وأبناء دعوته - فى فلسطين أروع أمثلة للبطولة والجهاد، وليت الدول تركت المتطوعين فى مواجهة اليهود، لحسموا معهم المعركة، ولكنها الخيانة على مستوى الدول والزعماء.

والظهور، وتكفَّل للمؤمنين الصادقين بالفوز والنصر، ﴿ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾ [التوبة: ٣٢].

ما يرجى من ظهور الإسلام:

ولقد وعد الله تبارك وتعالى فى آيات كثيرة بتأييد كلمة الإسلام وإعزاز أهله فقال: ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ﴾ [النور: ٥٥]، وكما جاء فى هذه الآية الكريمة: ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة: ٣٣، والصف: ٩].

وقد ذهب قومٌ إلى أنَّ ذلك الظهور قد تمَّ ووقع وانتهى أمره، وذهب آخرون إلى انه لا يتمُّ إلا على يد المهدى وعيسى عليه السلام فى آخر الزمان. وقعد آخرون عن العمل لمجد الإسلام يأسًا، وقعد آخرون عن ذلك انتظارًا، وكلا الفريقين غير محق، والصواب ـ والله أعلم ـ: أن هذا الوعد وعدٌ دائم متجدِّد باق، وأنه سنة من سنن الله تعالى التى لا تتخلَّف، والتى تقررت بقوله تعالى: ﴿ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ ﴾ [الرعد: ١٧]، وبقوله: ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ﴾ [الأنبياء: ١٨]، وقد جرت سُنَّةُ الله تبارك وتعالى أنَّ إرادته تتحقَّق بأخذ العباد فى الأسباب، وكل شيء له سبب، فإذا أخذ المسلمون فى أىِّ عصر من العصور فى أسباب القوة فإن ذلك ولا شك إيذان من الله تبارك وتعالى بظهور دينه على كل الأديان، وعلو شريعته على كل الشرائع فى هذا العصر، ولو كره ذلك المشركون الذين يخلطون بنظم الله وأديانه وشرائعه غيرها مما كسبت أيديهم ومما يكتبون، والله أعلم(١)

*****

(١) كتب الإمام الشهيد عدة مقالات فى جريدة (الإخوان المسلمون) اليومية فى (حديث الجمعة) يدعو فيها: إلى الأمل والتفاؤل، وعدم اليأس والقنوط، فكتب مقالاً تحت عنوان: (أربعة أدلة) دلل فيها ـ رحمه الله ـ على ان المستقبل للإسلام. وتحت عنوان: (بين اليأس والأمل) و(بين المحنة والمنحة) وغيرها. ولمزيد من التفصيل فى هذه المبشرات بنصر الله للإسلام، يراجع رسالة "المبشرات بانتصار الإسلام" للدكتور يوسف القرضاوى طبعة مكتبة وهبة بالقاهرة، والمكتب الإسلامى ببيروت.

[البخل بالمال وعاقبة كنزه][1]

﴿ يا أيُّها الَّذين آمنُوا إنَّ كثيرًا مِّن الأَحْبَارِ والرُّهْبَان لَيأْكُلُون أَمْوال النَّاس بِالْبَاطِلِ ويصُدُّون عن سبِيلِ اللَّه والَّذين يكْنِزُون الذَّهب والْفضَّة ولا يُنفقُونَهَا في سبِيلِ اللَّه فبشِّرْهُم بعذابٍ أليمٍ (٣٤) يوْم يُحْمىٰ علَيْها في نَارِ جهنَّم فتُكْوىٰ بِها جباهُهُمْ وجُنُوبُهُمْ وظُهُورُهُمْ هذا ما كنزْتُمْ لأنفُسكُمْ فذُوقُوا ما كُنتُمْ تكْنِزُون ﴾ [التوبة : ٣٤، ٣٥] .

فتنة المال:

الأحبار: علماءُ اليهود، **والرهبان**: عُبَّاد النصارى، والصنفان خيَار أهل الكتاب الذين تغالى كثيرٌ منهم فى تقديسهم حتى اتخذوهم أربابًا من دون الله كما تقدَّم. ومع هذا فتن المال الكثير منهم، فانزلقوا عن قدسية الزهادة فى الدنيا والعزوف عن زينتها، وتهافتوا على جمع الثروة وطلب الغنى وكنز المال وأكله بالباطل.

وفى التعبير بالكثير دون التعميم عدل وإنصاف يلازمان دائمًا أحكام القرآن الكريم، ولا تجد أعدل حكمًا ولا أكثر نصْفةً من أحكامه حين يصدرها حتى على مخالفيه، والذين لا يؤمنون به، وذلك واضح فى كل مواضعه وتأمَّل قوله فى موطن آخر عن عيسى عليه السلام وأتباعه: ﴿ وآتيْناهُ الإنجِيل وجعلْنا فِي قُلُوب الَّذين اتَّبعُوهُ رأْفةً ورحْمةً ورهْبانِيَّةً ابْتدعُوها ما كتبْناها عليْهِمْ إلاَّ ابْتِغاء رِضْوان اللَّه فما رعوْها حقَّ رِعايتِها فآتيْنا الَّذِين آمنُوا مِنْهُمْ أجْرهُمْ وكثِيرٌ مِّنْهُمْ فاسِقُون ﴾ [الحديد : ٢٧] تر أعدل وأوضح وأدق تلخيص لتاريخ الرهبنة ونتائجها فى المسيحية.

[من صور أكل أموال الناس بالباطل]

وأكل أموال الناس بالباطل له صورٌ شتَّى عند أهل الكتاب وعند الأحبار والرهبان وغيرهم، والحديث وإن كان فيهم إلا أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب كما

---

(١) نشرت فى مجلة (الإخوان المسلمون) الأسبوعية فى العددين: (١٧٨) الصادر فى ١٦ من المحرم سنة ١٣٦٧هـ - ٢٩ من نوفمبر سنة ١٩٤٧م. والعدد (١٧٩) الصادر فى ٢٣ من المحرم سنة ١٣٦٧هـ - ٦ من ديسمبر سنة ١٩٤٧م

يقولون فهو توجيه للناس جميعا. ومن هذه الصور:

١ـ تقديم القرابين والهدايا والضرائب لرؤساء الأديان كالأحبار والرهبان عند أهل الكتاب، وشيوخ الطرق عند المسلمين، ويسمُّونها (العوائد) فهذه العوائد حرام، وهى من أكل أموال الناس بالباطل، حتى ولو قدِّمت فى صورة هدايا، فإن الغرض منها والدافع إليها معلوم، وكذلك النذور والهدايا للأضرحة ونحوها إنما يتقاسمها ذوو الغنى والثراء من سدَنتها، مع أنها تُقدَّم من أفقر طبقات الأمة وممن هم أحوج إليها ممن يتقاسمونها[١].

٢ـ ومنها: ما كان يقدم للأحبار والرهبان لقاءَ مغفرة الذنوب وضمان الجنة والمثوبة، وقد تبجَّحوا بذلك حتى جعلوه صكوكًا مكتوبة كانت سببًا فى ثورة الإصلاح الدينى فى أوروبا على ما هو معروف فى التاريخ[٢].

٣ـ ومنها: الربا يتعامل به هؤلاء الناس ويستغلون سلطانهم الروحى على أتباعهم الفقراء أو الأغنياء على السواء، ويحللون لهم ذلك بنصوص وتأويلات ما أنزل الله بها من سلطان.

٤ـ ومنها: المكافآت على الفتاوى الباطلة، والزُّلْفَى لدى الكبراء والأمراء والأغنياء بتهوين أمر الطاعات والمعاصى لديهم، ومسايرتهم على ما هم فيه من باطل، وعدم إزعاجهم عنه بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، بل بتصوير المنكر معروفًا لديهم، حتى لا يَصْطدم برغباتهم وأهوائهم.

---

(١) هذه الفقرة من كلام الإمام البنا ـ وأشباهها كثير ـ تدفع ما يتهم به من تصوفه غير الملتزم، وتدفع عنه أيضاً ما يتهم به من مداهنة فى محاربة البدع، على الرغم من أن كلامه فى الأصول العشرين واضح وضوح الشمس فى رابعة النهار، إذ يقول رحمه الله فى الأصل الرابع عشر من أصوله العشرين: "وزيارة القبور أيًّا كانت سنة مشروعة بالكيفية المأثورة، ولكن الاستعانة بالمقبورين أيًّا كانوا ونداءهم لذلك، وطلب قضاء الحاجات منهم عن قُرْب أو بُعْد، والنذر لهم، وتشييد القبور وسترها وإضاءتها والتمسُّح بها، والحلف بغير الله وما يلتحق بذلك من المبتدعات: كبائر تجب محاربتها ولا نتأوَّل لهذه الأعمال سدًّا للذريعة" انظر: مجموعة الرسائل ص١٠

(٢) انظر فى ذلك: قصة الحضارة لوول ديورانت الجزء الخاص بالإصلاح الدينى. طبعة دار التأليف والترجمة بمصر. وموجز تاريخ الإنسانية لويلز.

وقد اخذ الله العهد والموثق على اهل الكتاب ان يبيِّنوه ولا يكتموه، وان يقوموا به في الناس ويجعلوه ميزانًا فيما بينهم وبين غيرهم، فما أحلَّه أحلُّوه، وما حرَّمه حرَّموه، وبخروجهم عن هذه القاعدة لُعنوا على لسان داود وعيسى ابن مريم: ﴿ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ (٧٨) كَانُوا لا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ [المائدة: ٧٨، ٧٩].

من أساليب الصد عن سبيل الله [قديمًا وحديثًا]:

كما ذكرت الآية: أنَّ من أخلاق هذا الكثير من الأحبار والرهبان أنهم يصدُّون عن سبيل الله، ولذلك مظاهر عدة وأساليب كثيرة في القديم وفي الحديث منها:

١ـ تغريرهم باتباعهم وإفهام هؤلاء الاتباع أن زِمَامَ التشريع في أيديهم، وأن سلطة الله قد انتقلت إليهم، فما أحلُّوه في الأرض أحلَّه الله في السماء، وما حرَّموه في الأرض حرَّمه الله في السماء، ومن غفروا له فقد غفر الله له، ومن حرموه من ملكوت السماء فقد حرمت عليه الجنة، وهكذا، وهم بذلك يصدونهم عن أن يتوجَّهوا إلى الله العلي الكبير ويسلكوا سبيله القويم بمبرر من إيمانهم.

وقريب من هذا ما يفعله بعض الشيوخ من مثل هذه المزاعم يموِّهون بها على أتباعهم، والحلال والحرام حكم الله، والمغفرة والعذاب بيد الله: ﴿ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [آل عمران: ١٢٩].

٢ـ تكذيبهم برسالة رسول الله ﷺ مع معرفتهم إيَّاه كما يعرفون أبناءهم، ووضوح دلائل نبوته في كتبهم، حتى كان ابن صوريا الحبر اليهودي بالمدينة يقول: والله إني لأعرف محمدا كما أعرف ابني، ولكن أتذهب النبوة من بني إسرائيل؟

٣ـ ومن هذه الأساليب في العصر الحديث: انتشار إرساليات التبشير في كل مكان من أرض المسلمين وغيرهم تحميها الدول، وتمدُّها الهيئات بالمال الوفير ليفتنوا المسلمين عن دينهم، وليَحُولُوا دون انتشار الإسلام في الأرض المتعطشة لريِّه، والأقطار المتشوِّقة لنوره، وافتتاح المدارس، وإنشاء المَشَافي ودُور العلاج، وإقامة الملاجئ وغير ذلك من الأعمال التي في ظاهرها الرحمة وخدمة الإنسان، وفي باطنها العذاب والصدُّ عن سبيل الله.

٤ـ ومن هذه الأساليب فى العصر الحديث: محاولة الصهيونية الاستيلاء على الأرض المقدسة وتمزيق وحدة العرب والمسلمين، والحيلولة دون قيام رابطتهم، وإغراء الضعفاء منهم بالمال والشهوات وفى ذلك أكبر صد عن سبيل الله[١].

عاقبة كنز المال والبخل به:

وبما أن المال وسيلة لا غاية، والمقصود من جمعه واكتسابه: إنفاقه فى الخير، واستخدامه فيما ينفع صاحبه ويعود على الناس جميعًا بالفائدة، حرَّم الله كنزه وتعطيله، وتوعَّد الذين يكنزونه بهذا الوعيد الشديد: ﴿ **وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ** ﴾ [التوبة: ٣٤] وفى التعبير بالتبشير هنا تهكم لاذع، ولفتُ نظرٍ شديد إلى ألم العذاب ومرارته.

وهل الآية الكريمة خاصَّة بأهل الكتاب؟ أو هى عامة تشملهم وتشمل المسلمين معهم؟

ذهب معاوية إلى الأول، وذهب أبو ذر إلى الثانى، وكان الخلاف بينهما حول ذلك[٢]، والأخْلق بعموم رسالة القرآن، وشمول مقاصده، أنها صفة عامة لكلِّ كائن من أهل الكتاب أو من غيرهم.

---

(١) هذا ما حاولته الصهيونية ونجحت فيه، حيث استولت على معظم أرض فلسطين بهذه الوسائل القذرة، من شراء الأرض بأغلى من ثمنها، ومما يذكر هنا من باب تصحيح ما يعلق بذهن كثير من المسلمين: أن الذين باعوا أرضهم ليسوا من مسلمى فلسطين، إنما باعها غير المسلمين فى فلسطين، أو الأجانب الذين كانوا يمتلكون أراضى فى فلسطين. حيث تروج هذه الشائعة عن مسلمى فلسطين، وذلك لإصابة المسلمين خارج فلسطين بالسلبية تجاه أرض فلسطين، حيث يشاع أنهم باعوا أرضهم، مما يدعو المسلم غير الفلسطينى أن يقول: فلم ندافع ونستثار للدفاع عن أرض باعها أهلها؟!

(٢) ذكر هذا النقاش البخارى عن زيد بن وهب قال: مررت على أبى ذر بالربذة، فقلت: ما أنزلك بهذه الأرض؟ قال: كنا بالشام فقرأت: (والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم) قال معاوية: ما هذه فينا، ما هذه إلا فى أهل الكتاب. قال: قلت: إنها لفينا وفيهم" انظر: "صحيح البخارى" كتاب (تفسير القرآن) باب قوله: (والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم) برقم (٤٦٦١).

[رأى العلماء فى الكنز]

واختلف العلماء فى نفس الكنز، فقال أبو ذر: إنه ادّخار ما فوق الحاجة مهما كان قليلاً.

روى أبو يعلى بإسناد فيه ضعف عن ابن عباس قال: استأذن أبو ذر على عثمان، فلما دخل قال له عثمان: أنت الذى تزعم أنك خير من أبى بكر وعمر؟ قال: لا. ولكن سمعت رسول الله ﷺ يقول: "إن أحبّكم إلى وأقربكم منى من بقى على العهد الذى عاهدته عليه"(١) وأنا باق على عهده، قال: فامره أن يلحق بالشام، وكان يحدثهم ويقول: لا يبيتنّ عند أحدكم دينار ولا درهم، إلا ما ينفقه فى سبيل الله أو يعده لغريم، فكتب معاوية إلى عثمان: إن كان لك بالشام حاجة فابعث إلى أبى ذر، فكتب إليه عثمان: أن اقْدِم، فقدم"

وروى البخارى ومسلم عن الأحنف بن قيس قال: جلست إلى ملأ من قريش فجاء رجل خَشِن الشعر والثياب والهيئة حتى قام عليهم، فسلَّم ثم قال: بشِّر الكانزين برَضْفٍ يحمى عليهم فى نار جهنم، ثم يوضع على حَلَمَة ثدى أحدهم حتى يخرج من نُغْضِ كتفه، ويوضع على نُغْضِ كتفه حتى يخرج من حلمة ثديه يتزلزل، ثم ولّى فتبعته وجلست إليه، وأنا لا أدرى من هو، فقلت: لا أدرى القوم إلا قد كرهوا الذى قلت، قال: إنهم لا يعقلون شيئًا، قال لى خليلى: قلت: ومن خليلك؟ قال: النبى ﷺ يا أبا ذر: أتبصر أحداً؟ قال: فنظرت إلى الشمس ما بقى من النهار، وأنا أرى أن رسول الله ﷺ يرسلنى فى حاجة له، فقلت: نعم. قال: ما أُحبُّ أن لى مثلَ أُحُد ذهبًا أنفقه كله إلا ثلاثة دنانير إنَّ هؤلاء قوم لا يعقلون إنما يجمعون الدنيا، والله ما أسألهم دنيا، ولا أستعينهم فى دين حتى ألقى الله عز وجل"(٢)

وَوَجَّه إليه حبيب بن أبى سلمة(٣) ـ وهو أمير بالشام ـ ثلاثمائة دينار وقال: استعن

---

(١) رواه أحمد (١ / ٣٢١) عن أبى عبيدة بن الجراح رضى الله عنه، ورواه الطبرانى فى الكبير (٢/١٤٩) عن ابن عباس رضى الله عنهما. دون ذكر للقصة.

(٢) رواه البخارى (١٤٠٨) ومسلم (٩٩٢) عن الأحنف بن قيس رضى الله عنه. والرُضْف: الحجارة المحماة. والنُغْض: عظام رقيق على طرف الكتف.

(٣) ذكره الإمام البنا فى المقال أن اسمه: صهيب بن سلمة، وهو خطأ والصواب ما أثبته، ولعل خطأ الإمام ناتج عن نقله النص من تفسير المنار، دون مراجعة.

بها على حاجتك، فردَّها وقال لرسوله: ارجع بها إليه أما وجد أحداً أغَرَّ بالله منا؟ مالنا إلا الظل نتوارى به، وثلاثة من غَنَم تروح علينا، ومولاة لنا تصدَّقت علينا بخدمتها، ثم إنى لأتخوَّف الفضل[1].

وذهب الجمهور إلى أن المراد بالكنز: ادخار المال مع عدم إخراج زكاته، فإذا أخرجت الزكاة فقد طهر بها، وخرج صاحبه من وعيد الكانزين.

أخرج ابن أبى شيبة فى "مسنده"[2] وأبو داود والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقى فى سننه عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: لما نزلت هذه الآية: (والذين يكنزون الذهب والفضة) كَبُرَ ذلك على المسلمين وقالوا: "وما يستطيع أحد منا لولده مالاً، يبقى بعده؟ فقال عمر: أنا أُفَرِّجُ عنكم، فانطلق، واتَّبعه ثوبان، فأتى النبىَّ ﷺ فقال: يا نبىَّ الله إنه قد كبر على أصحابك هذه الآية؟ فقال: "إنَّ الله لم يفرض الزكاة إلا ليطيب بها ما بقى من أموالكم، وإنما فرض المواريث من أموال تبقى بعدكم، فَكَبَّرَ عمر رضى الله عنه، ثم قال له النبى ﷺ: "ألا أخبرك بخير ما يُكْنَز؟ المرأة الصالحة التى إذا نظر إليها سرَّته، وإذا أمرها أطاعته، وإذا غاب عنها حفظته"[3].

---

(١) ذكره أحمد فى "الزهد" (٢/ ٧٨،٧٩) ورجاله ثقات، وأبو نعيم فى "الحلية" من طريق أحمد به (١/ ١٦١)، وذكره السيوطى فى "الدر" (٣/ ٨٥). نقلا عن: "مرويات الإمام أحمد فى التفسير" جمع وتخريج: محمد بن رزق بن طرهونى، ود: عبد الغفور عبد الحق البلوشى، وحكمت بشير ياسين. ط: مكتبة المؤيد بالسعودية.

(٢) هو غير مصنف ابن أبى شيبة، ولم تنشر منه إلى الآن نسخة كاملة. والمنشور منه نشرته دار الوطن بالرياض. بتحقيق: عادل يوسف العزازى، وأحمد فريد المزيدى.

(٣) رواه أبو داود (١٦٦٤) والحاكم (١/ ٥٦٧) و (٢/ ٣٦٣) وقال: صحيح على شرط الشيخين، والبيهقى فى "السنن" (٧٣٣٦) وفى "الشعب" (٣٣٠٧) وأبو يعلى (٢٤٩٩) عن ابن عباس رضى الله عنهما. وقال محققه: إسناده ضعيف. انظر: مسند أبى يعلى (٤/ ٣٧٨،٣٧٩) حديث رقم (٢٤٩٩)، كما ضعف إسناده محقق "شعب الإيمان للبيهقى" (٦/ ٤٨٠،٤٨١) برقم (٣٠٣٥) طبعة السلفية بالهند، وحسن إسناده عبد القادر الأرناؤوط فى تحقيقه لـ "جامع الأصول" (٢/ ١٦٣) برقم (٦٥٣). ولم أجد الحديث فى مسند ابن أبى شيبة كما ذكر الإمام البنا، ويبدو أنه من الجزء المفقود، أو أن الإمام البنا نقل عن كتب أحد السلف هذا الحديث معزوا لابن أبى شيبة.

وأخرج مالك والشافعي وابن أبي شيبة وغيرهم عن ابن عمر أيضا قال: ما أدى زكاته فليس بكنز، وإن كان تحت سبع أرضين، وما لم تؤد زكاته فهو كنز وإن كان ظاهرا(١).

والأخْلَقُ بشريعة القرآن الكريم أن يقال ـ والله أعلم ـ: إن ما ذهب إليه أبو ذر رضي الله عنه هو شريعة الزاهدين، وعزيمة الأقوياء من المتقشفين، وما ذهب إليه الجمهور هو التشريع العام للناس جميعًا في أموالهم العادية، فإذا استدعت مصلحة الجماعة نفقةً زائدةً عن الزكاة المفروضة وجَبَ على الأغنياء بذلها، فإذا قصَّروا كانوا من الكانزين الكنز المذموم، واستحقُّوا هذا الوعيد حتى ولو استغرقت حاجة الجماعة ومصلحتها كل أموالهم بعد الكفاف، فالحكم على هذا يدور مع مصلحة الجماعة وحاجتها، وحدُّه الأدنى: الزكاة، وحدها الأعلى: الكفاف والله أعلم.

أسلوب العذاب:

وقد صوَّرت الآية العذاب الأليم للكانزين تصويرًا هائلاً، فهو أن يحمى على هذه الكنوز، وليس بلازم أن تكون أعيانها، بل بما هو بقدرها في نار جهنم، حتى تصير حميمًا مذابًا، ثم تكوى بها جباههم التي كانوا يرفعونها استعلاء بالمال والثروة، وجنوبهم وظهورهم التي كانت تتقلَّب على فُرُش النعيم وتنحرف لطلاب الحاجات، ويقال لهم مبالغة في التوبيخ: ﴿هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ [التوبة: ٣٥].

روى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا: "ما من رجل لا يؤدي زكاة ماله إلا جعل له يوم القيامة صفائح من نار، فيُكْوَى بها جَنْبُه وجبهته وظهره"(٢).

وفي البخاري والنسائي مرفوعًا كذلك: "من آتاه الله مالا فلم يؤد زكاته مُثِّلَ له يوم

---

(١) رواه عبد الرزاق في "المصنف" (٧١٤١) والبيهقي في "السنن" (٤٧١/٥) والطبراني في "الأوسط" (٨٢٧٩) عن ابن عمر رضي الله عنهما مرفوعا، وقال الهيثمي: فيه سويد بن سعيد. وقال الشيخ محمود شاكر: المرفوع فيه سويد بن سعيد بن عبد العزيز وليس بالقوي، انظر: تفسير الطبري (٢١٨/١٤) أثر رقم (١٦٦٥١). ورواه عبد الرزاق (٧١٤٠) والشافعي (٣٩٤) عن ابن عمر موقوفًا. ورواه عبد الرزاق (٧١٤٣) عن عبيد بن عمير موقوفا.

(٢) رواه أحمد (٥٤٠/٢) ومسلم (٩٨٧) وابن حبان (٣٢٥٣) والبيهقي في "السنن" (٨٠/١٠) وفي "الشعب" (٣٣٠٢) والطبراني في "الأوسط" (٨٩٤٥) وابن خزيمة (٢٢٥٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

القيامة شجاعٌ أقرع له زَبِيبَتَان يُطَوَّقهُ يوم القيامة فيأخذ بِلِهْزِمَتَيْه يقول: أنا مالُك أنا كنزُك، ثم تلا الآية الكريمة: (سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة)[1].

ولو أخذ الناس بهدى القرآن الكريم فى الادخار والإنفاق لما كان فى الدنيا جائع ولا عُرْيان ولا مهضوم ولا مظلوم، ولاقفرت الجفون من المدامع، واطمأنت الجنوب فى المضاجع، ولَمَحت الرحمةُ الشقاءَ من المجتمع كما يمحو نورُ الصُبح ظلامَ الليل، فيا أيها السعداء: امسحوا دموع الأشقياء، "وارحموا من فى الأرض، يرحمكم من فى السماء"[2].

*****

(١) رواه أحمد (٣/٣٦) والبخارى (١٤٠٣) و(٤٥٦٥) والنسائى فى "المجتبى" (٢٤٨٢) و(٢٤٤٨) وفى "الكبرى" (٢٢٦١) والبيهقى فى "السنن" (٥/٤٦٦) و(١٠/٧٩) وفى "الشعب" (٣٣٠١) عن أبى هريرة رضى الله عنه. ومعنى: لهزمتيه: اى شدقَيْه.

(٢) هذا المعنى مقتبس من حديث: "الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء" رواه احمد (٢/٣٤٣) والترمذى (١٩٢٤) وقال: حسن صحيح، وابو داود (٤٩٤١) والبيهقى فى "السنن" (١٣/٢٨٠) وفى "الشعب" (١١٠٤٨) وابن ابى شيبة (٦/٩٣) عن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما

[النسيء نموذج لتلاعب المشركين بالدين](1)

﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (٣٦) إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِّيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ [التوبة: ٣٦، ٣٧].

مناسبة:

بعد ان بيَّن القرآن الكريم طرفًا من أحوال المشركين فى أول السورة، وطرفًا من أحوال أهل الكتاب، وكان ختام هذا البيان ذكر ما تشترك فيه الامم جميعًا فى كثير من الاحيان بدافع حب المال من أكل أموال الناس بالباطل، وكنز الذهب والفضة وعدم إنفاقها فى سبيل الله، ناسب أن يذكر بعد ذلك تقدير الوحدة الشريفة فى عرف القرآن، وهى (العام) وبيان أقسامها، ووجوب تَحَرِّى العمل الصالح فيها، ثم ما عَرَض عليها من تغيير وتبديل للاغراض الدنيوية الزائلة، ووجوب التزام نظام ثابت فى ذلك تتحرَّى فيه مصالح الدنيا والآخرة، فذكر عدة الشهور والقاعدة فيها، وتحريم أربعة منها، وما يترتَّب على ذلك من احكام، وعرض لعادة المشركين التى جروا عليها فى جاهليتهم من التغيير والتبديل اتباعًا للعرب، ورغبةً فى القتال والمغانم الحرام، وعابها عليهم ونهى عنها المؤمنين أشد النهى، وهى عادة النسيء الذى وصفته الآية الكريمة بانه زيادة فى الكفر.

حكمة إيثار الشهور القمرية:

وللشهور حسابان أساسيان، فالحساب الأول: تابع لحركة الشمس، والحساب الثانى: تابع لحركة القمر، وتحديد الوحدة بعام شمسى أو قمرى إنما جاء بطبيعة انتهاء الدورة خلال هذا الزمن، والتقسيم إلى اثنى عشر شهرًا إنما جاء بطبيعة البروج والمنازل، فبروج

(١) نشرت فى مجلة (الإخوان المسلمون) الاسبوعية فى العدد (١٨٠) الصادر فى ٣٠ من محرم سنة ١٣٦٧هـ - ١٣ من ديسمبر سنة ١٩٤٧م.

الشمس: اثنا عشر، ومنازل القمر: اثنا عشر كذلك، وذلك التقسيم قائم منذ تمَّ تكوين هذه المجموعة، فهو فى كتاب الله بحكم التكوين، فقد خلق الله السماوات والارض، ومعنى الكتاب على هذا الفهم: التقدير الإلهى التكوينى.

ويرى بعض المفسرين: أن هذا التقسيم بحكم الشرع، فمعنى الكتاب إذن: التقييد الإلهى التشريعى السابق فى علم الله تبارك وتعالى، ولعل الأول أولَى وأدَق وأوفى بالغاية من تأكيد هذا التقسيم، وأنه لا يمكن أن يخالف بحال.

وإنما آثر الإسلام الحساب بالشهور القمرية لا الشمسية، فالصوم والحج والاعياد والمواسم كلها تتبع هذا الحساب، لحكمة بالغة هى: بساطة هذا الحساب، وسهولة إدراكه للناس جميعًا، لانَّ ظهور الهلال علامة لاول كل شهر، فيستطيع كل إنسان ان يدرك، وأن يحسب، وأن يؤدى شعائر الله المرتبة بهذا التوقيت من غير حاجة إلى الحاسبين أو المتحكمين من رؤساء الأديان، أو علماء الفلك، أو أدعياء التنجيم والتوقيت، فبساطة هذا الحساب وفطرته تتمشَّى مع سهولة الإسلام ويسره، كما أن من الحكَم كذلك: أن تقع العبادات فى أوقات وفصول مختلفة من السَّنَة، فيستفيد الإنسان بمزاياها جميعا، ويستقبلها كلها بطاعة الله[1].

لطيفة:

ولعلَّ من اللطائف فى الآية الكريمة: التنصيص على عدد الشهور بهذا الوضوح، وتاكيد هذا العدد بهذه القوة مع التسليم بصحته، فقد ظهر فى هذا الزمان من يزعم أنَّ الشهور تسعة عشر، ويحسبها حسابا لا قاعدة له ولا أساس يستند إليه، ويدَّعى هذا دينًا ورأيًا سديداً، وما هو إلا خرافة ووهم، فكأنما سبقت الآية بالرد على مثل هؤلاء قبل أن يظهروا فى عالم الوجود، وهى من دقائق القرآن الكريم ومعجزاته ولا شك.

الأربعة الحرم:

والأربعة الحرم هى ثلاث متواليات: (ذو القعدة وذو الحجة والمحرم) وواحد فرد هو: (رجب).

---

(١) يقصد بذلك الإمام الشهيد ان علة إيثار الشهور القمرية، ان المسلم يستفيد منها فى العبادة، كالصوم مثلا، فهو يصوم فى الصيف والشتاء والربيع والخريف، وبذلك يحسُّ بطعم لعبادته، وانها ليست ثابتة فى برد الشتاء دون حرِّ الصيف.

روى الشيخان وغيرهما من حديث أبى بَكْرَةَ رضى الله عنه عن النبىُّ صلى الله عليه وسلم قال فى حجة الوداع: "إن الزمان استدار كهيئته يوم خلق الله السماوات والأرض، السنة اثنا عشر شهراً، فيها أربعة حُرُم، ثلاث متواليات: ذو القعدة وذو الحجة والمحرم، ورجب مُضَر الذى بين جُمادى وشعبان"(١).

ومعنى استدارة الزمان الواردة فى الحديث - والله أعلم -: أنَّ الشهور قد عادت إلى حسابها المعتدل بعد أن غيَّرها العرب بالنسىء كما سيأتى، ووقع حج النبى ﷺ فى ذى الحجة على وضعه الأول منذ قسمت الشهور.

وروى الطبرانى عن بعض السلف: أنه اتفق فى حجة الوداع حج المسلمين واليهود والنصارى فى يوم واحد هو يوم النحر من هذا العام(٢). فإذا صحَّ كان بشارة وإشارة إلى ما جاء له الإسلام من جمع كلمة الناس جميعًا على شرع واحد هو هذا الدين القيم(٣).

(فلا تظلموا فيهن أنفسكم):

[أى] فى الأربعة الحرم، باستحلال القتال فيها بعد أن أكَّد الإسلام حرمتها وحرم فيها القتال، أو فى الشهور كلها بأن يستخدم الوقت فى العبث أو العصيان، فيظلم الإنسان نفسه بصرف وقته فى غير ما خُلق له من طاعة الله وأداء حقوقه، وقد خلق الله الموت والحياة، وجعل العمر بينهما ابتلاءً وامتحانًا للناس: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ [الملك: ٢] قولان، ولعل الثانى أشمل وأفضل والله أعلم.

من أحكام القتال:

وهل يجب على المسلمين جميعًا قتال المشركين جميعًا كما هو ظاهر الآية الكريمة: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً﴾ [التوبة: ٣٦]؟ نعم، وذلك هو الشأن

---

(١) رواه أحمد (٦/ ١٥) والبخارى (٤٦٦٢) و (٥٥٥٠) ومسلم (١٦٧٩) وأبو داود (١٩٤٧) وابن حبان (٥٩٧٥) و(٥٩٧٤) والبيهقى فى "السنن" (٧/ ٣٦٣) عن أبى بكرة رضى الله عنه.

(٢) ذكره ابن أبى شيبة فى "المصنف" (٤/ ٤٧٠) والطبرانى فى "الكبير" (٧/ ٢٥٦) عن سمرة بن جندب رضى الله عنه، وقال الهيثمى: فيه من لم أعرفهم. انظر: مجمع الزوائد (٨/ ١٠٢).

(٣) أخذ الإمام البنا هذه الفقرة من تفسير المنار لكنه صاغها بأسلوبه، فلزم الإشارة من باب رد الأمر لنصابه. يراجع فى ذلك: تفسير المنار (١٠/ ٢٤٠).

ابتداء، فالمشركون أهل باطل، والمؤمنون أهل حق، وما التقى الباطل والحق إلا اصْطَرَعا جميعا، ويُديل الله للحق من الباطل، ويقذف به عليه فيدمغه فإذا هو زاهق، ولكن الأمور لا تجرى دائمًا على هذا الوضع النظرى، بل قد يقاتل بعض المشركين بعض المسلمين، وحينئذ يكون القتال فرض عين على من ندبهم الإمام له، وفرض كفاية على الأمة كلها، وإذا أعلن الإمام النفير العام فقد وجب القتال على الجميع.

أحكام النسيء:

والنَّسيء في اللغة: التأخير[1]، وعملاً: تغيير الشهور عن أوضاعها وتأخير حرمة بعضها تعجيلاً في القتال والغارة، وكانت الصورة الغالبة فيهم بعد أن ينتهوا من الحج يقف أهل بني كنانة ممن وكل إليهم النسيء - وقد انتهى ذلك قبيل الإسلام - إلى أبي ثمامة القلمي بن أمية بن عوف فيقول: إني لا أحاب ولا أعاب ولا يرد ما قضيت به، وإني قد أخَّرت حرمة المحرم، وجعلتها في صفر، فيمضي الأمر بينهم على ذلك، ويقتتلون في المحرم ويتهادنون في صفر مع بقاء كل شهر على اسمه. وقد تتغيَّر هذه الصورة فيطلق على صفر اسم المحرم، وتتغيَّر أسماء الشهور كلها بذلك التغيير، ويجعلون السنة ثلاثة عشر شهرًا أو اثني عشر شهرًا وعشرين يومًا تسمى النسيء، أو يضيعون حرمة الشهور كلها، ويحلون فيها القتال كما كانت تفعل طيء وخثعم، وكان صاحب النسيء يحل دماءهم مع تأخير حرمة الشهر.

وقد سمَّى القرآن الكريم هذا النسيء: زيادة في الكفر، ووصفه بأنه ضلال وإضلال للناس، وأنه عمل سيئ زُيِّن لفاعله مع أنه لا خير فيه ولا هداية، والله لا يهدى القوم الكافرين.

*****

(١) انظر: معاني القرآن للفراء (١/ ٤٣٦-٤٣٧) وتفسير غريب القرآن لابن قتيبة ص١٨٦

غـزوة تبـوك[1]

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ (38) إِلاَّ تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [التوبة :٣٨، ٣٩] .

[سبب النزول]

وسببُ نزول هذه الآيات الكريمة: استنهاض هِمم المسلمين لينفروا مع رسول الله ﷺ إلى غزوة تبوك، وهي آخر غزواته عليه الصلاة والسلام، وقد كانت في ساعة عسرة والناس في قَيْظٍ وحر وجَدْب[2] كما قال الله تبارك وتعالى في الآية الاخرى: ﴿ لَقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ﴾ [التوبة :١١٧] .

كانت هذه الغزوة في شهر رجب من السنة التاسعة للهجرة، وكان السبب فيها على ما ذكره ابن سعد [وشيخه] وغيره: أنه قد بلغ المسلمين من الأنباط الذين يقدمون من الشام إلى المدينة أن الروم قد جمعت جموعًا، وضمت إليها قبائل لخم وجذام وغيرهم من مُتنصِّرة العرب، ووصلت مقدمتهم إلى البلقاء، فلم ينتظر النبي ﷺ وصولهم إلى المدينة، وعاجلهم بالخروج إليهم، وندب الناس إلى غزوهم رغم ما كانوا فيه من عسرة[3]

وروى الطبراني من حديث عمران بن حُصين قال: كانت نصارى العرب كتبت إلى هرقل تخبره خبر النبي ﷺ، وتقول: إن هذا الرجل الذي خرج يدعي النبوة، ضعف وأصابت قومه سنون أهلكت أموالهم، فبعث أحد قواده ومعه أربعون ألفًا، فتجهز لهم

---

(١) نشرت في مجلة (الإخوان المسلمون) الأسبوعية في العدد (١٨٢) الصادر في ١٤ من صفر سنة ١٣٦٧هـ ـ ٢٧ من ديسمبر سنة ١٩٤٧م.

(٢) انظر: المغازي للواقدي (٣/ ٩٨٩، ٩٩٠).

(٣) فتح الباري (٩/ ٤٤٨) وابن سعد في الطبقات الكبرى (٢/ ١٦٥).

رسول الله ﷺ وقصد إليهم قبل أن يصلوا إليه[1].

وروى ابن عباس ومجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وقتادة والضحاك وغيرهم: أنه لما أمر الله تعالى أن يُمنَع المشركون من قربان المسجد الحرام في الحج وغيره قالت قريش: لتنقطعنَّ عنا المتاجر والأسواق أيام الحج، وليذهبنَّ ما كنا نصيب منها، فعوضهم الله عن ذلك بالأمر بقتال أهل الكتاب حتى يسلموا أو يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون.

قال ابن كثير: فعزم رسول الله ﷺ على قتال الروم لأنهم أقرب الناس إليه، وأولى الناس بالدعوة إلى الحق لقربهم من الإسلام وأهله، وقد قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ١٢٣][2].

والقول: إنَّ الرأي الأول أشبه بالصواب، والله أعلم[3].

شرح الآيات

ولما أمر رسول الله ﷺ أصحابه بالتهيؤ لغزو الروم، كان ذلك في زمان عُسْرة من الناس، وشدةُ من الحر، وجدب من البلاد، فكان أحب شيء إلى الناس المقام في ثمارهم وظلالهم. وكان رسول الله ﷺ إذا خرج إلى غزوة ورَّى عنها بغيرها، إلا ما كان في هذه الغزوة فإنه بيَّنَها للناس لبعد الشُّقَّة وشدة الزمان وكثرة العدو؛ ليتأهَّبوا لذلك أُهْبَته، فأمرهم بالجهاد وأخبرهم أنه يريد الروم، وحثَّهم على النفقة والحَمْل في سبيل الله، فجاء عثمان بن عفان إلى النبيِّ ﷺ بألف دينار في ثوبه فصبَّها في حجْر النبيِّ ﷺ، فجعل النبيُّ ﷺ يقلِّبها بيده ويقول: ما ضَرَّ عثمانَ ما عَمِلَ بعد اليوم. وقال عثمان: يا رسول

---

(١) رواه الطبراني في «الكبير» (١٨/ ٢٣١) عن عمران بن حصين رضي الله عنه.

(٢) انظر: البداية والنهاية لابن كثير (٢/ ٥).

(٣) مما يصوب الرأي الأول، ويضعف الرأي الثاني أن الرأي الثاني يظهر الإسلام أنه دين يغير على الناس بغية الطمع في أموالهم، ويؤكد ما يطعن به المستشرقون الإسلام، بأنه دين ليس بعالمي، وأن الذي دعا العرب للخروج به من العرب إلى بلدان العالم: الفقر والفاقة وقلة الموارد الاقتصادية. لمزيد حول هذا المبحث، يراجع: جهود الدعوة بين عجز الداخل وكيد الخارج للشيخ محمد الغزالي. وكتاب: الصحوة الإسلامية من المراهقة إلى الرشد للدكتور يوسف القرضاوي.

الله هذه مائتا بعير بأحْلاسها وأقْتابها"(١) فقال: "اللهم ارْض عن عثمان فإني عنه راض"(٢)، وتبارز المسلمون يجهزون جيش العسرة، وقال رسول الله ﷺ: "من جهَّز جيش العُسْرة غفر الله له"(٣)

وعاتب الله من تخلَّف عن تبوك بغير عذر من المنافقين والمُقصِّرين ولامَهم ووبَّخهم وقرَّعهم أشد التَّقْريع، وفضَحهُم وأنزل فيهم قرآنا يُتْلى، وأمر المؤمنين بالنُّفر على كل حال فقال تعالى: ﴿ انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالاً وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٤١) لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لاَّتَّبَعُوكَ وَلَكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ [التوبة: ٤١، ٤٢] ثم الآيات بعدها وسنمرُّ بها إن شاء الله.

وقال رسول الله ﷺ ذات يوم، وهو في جِهَازِه ذلك، للجد بن قيس أحد بني سلمة: يا جد هل لك العام في جلاد بني الأصفر؟ فقال: يا رسول الله أو تأذن لي ولا تفتنِّي، فوالله لقد عرف قومي أنه ما من رجل بأشد عُجْبًا بالنساء مني، وإني أخشى إن رأيت نساء بني الأصفر ألا أجْسر، فأعرض عنه رسول الله ﷺ، وقال: قد أذنت لك، ففي الجد أنزل الله هذه الآية: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلا تَفْتِنِّي أَلا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴾ [التوبة: ٤٩].

وقال قوم من المنافقين بعضهم لبعض: ﴿ لا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ ﴾ [التوبة: ٨١]، زَهَادَة في

---

(١) رواه أحمد (٥/ ٢٨) والترمذي (٣٧٠٠) وقال: حديث غريب، والحاكم (٣/ ١١٠) وقال: صحيح الإسناد ولم يخرِّجاه ووافقه الذهبي، والطبراني في "الأوسط" (٦٢٨١) عن عبد الرحمن بن سمرة رضي الله عنه. وإسناده حسن. انظر: "السيرة النبوية الصحيحة" (٢/ ٥٢٥). وحسنه محققو "مسند أحمد" (٢٠٦٣٠).

(٢) رواه ابن هشام في سيرته (٤/ ١٧٢) بإسناد معضل، والحاكم (٣/ ١٠٢) وصححه ووافقه الذهبي، عن عبد الرحمن بن سمرة. وضعفه الألباني في تخريج "فقه السيرة" ص٤١٧ طبعة دار إحياء التراث الإسلامي بقطر.

(٣) رواه النسائي في "المجتبى" (٣٦٠٨) و(٣٦٠٩) وفي "الكبرى" (٤٣٩١) و(٦٤٣٣) و(٦٤٣٤) وابن حبان (٦٩٢٠) والبزار (٣٩١) وابن أبي شيبة في "المصنف" (٨/ ٧١٣) عن الأحنف بن قيس رضي الله عنه. والدارقطني في "السنن" (٤/ ١٩٩) والبيهقي في "السنن" (٩/ ١٤٧) عن أبي عبد الرحمن السلمي رضي الله عنه. وحسنه الشيخ شعيب الأرناؤوط في "صحيح ابن حبان" (١٥/ ٣٦٢).

الجهاد وشكًا في الحق وارْجافًا بالرسول صلى الله عليه وسلم، فأنزل فيهم: ﴿ **وَقَالُوا لا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ (81) فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ** ﴾ [التوبة: ٨١، ٨٢][١]

[البكَّاءون]

وجاء البَكَّاءُونَ إلى رسول الله ﷺ ليحملهم، حتى يصحبوه في غزوته هذه، فلم يجدوا عنده من الظَّهْرِ ما يحملهم عليه، فرجعوا يبكون تَأَسُّفًا على ما فاتهم من الجهاد في سبيل الله، وكانوا سبعة نفر منهم: أبو ليلى[٢] [عبد الرحمن بن كعب المازني]، وعبد الله بن مغفل رضي الله عنهما، وقد لقيهما رجل من المسلمين يبكيان فقال: ما يبكيكما؟ فقصا عليه القصص، فَرَقَّ لهما وأعطاهما راحلة وزوَّدهما شيئًا من تمر، فخرجا مع النبي ﷺ[٣].

ومنهم: عُلْبَة بن زيد، رجع يبكي، ثم خرج من الليل، فصلَّى ما شاء أن يصلي، ثم بكى وقال: اللهم إنك قد امرت بالجهاد ورَغَّبْت فيه، ثم لم تجعل عندي ما أَتَقَوَّى به، ولم تجعل في يد رسولك ما يحملني عليه، وإني أتصدَّق على كل مسلم بكل مظلمة أصابني فيها من مال أو جسد أو عرض، ثم أصبح مع الناس، فقال رسول الله ﷺ: أين المتصدِّق هذه الليلة؟ فلم يقم أحد. قال: أين المتصدق فليقم؟ قام إليه فأخبره. فقال رسول الله ﷺ: "أبْشر، والذي نفسي بيده لقد كتبت في الزكاة المُتَقَبَّلَة"[٤]. وأنزل الله فيهم: ﴿ **لَّيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلا عَلَى الْمَرْضَىٰ وَلا عَلَى الَّذِينَ لا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (91) وَلا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلاَّ يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ** ﴾ [التوبة: ٩١، ٩٢].

---

(١) انظر: سيرة ابن هشام (٤ / ١٧٠).

(٢) ذكر الإمام الشهيد في مقاله أن اسم الصحابي: أبو يعلى، وهو خطأ والصواب ما اثبتُّه.

(٣) انظر: سيرة ابن هشام (٤ / ١٧٢) وطبقات ابن سعد (٢ / ١٦٥).

(٤) انظر: زاد المعاد لابن القيم (٣ / ٥٢٨، ٥٢٩) وقال محققاه: حديث صحيح ورد مسنداً موصولاً كما قال الحافظ في الإصابة (٢ / ٤٩٣) من حديث مجمع بن حارثة، ومن حديث عمرو بن عوف، وأبي عبس بن حبر، ومن حديث علبة بن زيد نفسه، وقتيبة.

صوت النفير العام[1]

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ (٣٨) إِلاَّ تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٣٩) إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٤٠) انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالاً وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [التوبة :٣٨-٤١].

اخْلُ بنفسك من شوائب المادة، واحصر تفكيرك فى هذه التعاليم الروحية، واستجمع لها روحك وقلبك، واستمع لها كما يستمع الجندى المطيع أوامر القائد المحبوب الحازم المطاع، فإنك ستفهم منها فلسفة رائعة فى تكوين [الرجال المجاهدين، وتوضح لك][2] دعائم النصر، وتستطيع أن تلخص مقاصد هذه الآيات الكريمة فى هذه الجمل.

١- على المؤمن بالدعوة أن يعمل لها.

٢- أجر العمل أفضل من حرمان القعود.

٣- إذا قصر المؤمن فى الجهاد عُوقب واستُبْدل به غيره.

٤- حسب المجاهد ثوابًا أن رضيه ربه لهذا الميدان.

٥- فى واقعة الهجرة العملية آية ذلك ودليله.

٦- لا عذر لقاعد عن نصرة الحق مهما كان فإنما هو النفير العام.

وإليك بيان ذلك.

---

(١) نشرت فى مجلة (جريدة الإخوان المسلمين) الأسبوعية فى العدد الأول من السنة الرابعة الصادر فى يوم الثلاثاء الموافق ٢٢من محرم سنة ١٣٥٥هـ- ١٤ من أبريل سنة ١٩٣٦م.

(٢) ما بين المعقوفتين من وضعى حيث إن الصفحة متآكلة عند هذه العبارة، وقد استنبطتها من سياق الكلام

١ـ على المؤمن بالدعوة أن يعمل لها:

من الناس من أحاطت به ظروف جعلت عبء حياته على غيره، فهو في أمنٍ ودَعَة وهدوء وراحة، ومنهم من أحاطت به ظروف جعلته يحمل عبء سواه، فهو في كفاح دائم وفي نضال مستمر وفي عمل لا ينقطع، وكذلك الأمم في حياتها تتقلَّب بها الحادثات، وتنتابها عوامل الاجتماع، فهي أحيانًا وادعة هادئة، وأحيانًا كادحة مجاهدة، وإنما يحمل عبء الجهاد فيها أصحاب الدعوات الخالصة والمبادئ السليمة، ورجال الإصلاح الصحيح الذين آمنوا بوجوب العمل، واعتقدوا ضرورة الحاجة إلى الجهاد، هؤلاء النفر من بُناة الأمم، ودعاة الحق، ودعائم الإصلاح، لا بد أن يجاهدوا، ولا بد أن يستعدوا لكفاح طويل لا نهاية له، فإن حاجات الأمم أطول من أعمارها مهما طالت، وعليهم الا يقصروا، أو يَنُوا في أداء المهمة التي كان من حظهم أن يحملوا عبئها وينتدبوا أنفسهم للقيام بها.

٢ـ أجر العمل أفضل من حرمان القعود:

وهم إذا فعلوا ذلك فقد أعد الله لهم أعظم الأجر لقاء هذا التعب، وهم إذا حرموا أنفسهم لذائذ حقيرة في حياة قصيرة، فقد أعدَّ الله لهم في خُلد جنته ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، فإن سمت أنفسُهُم عن المعاوضات وجاهدت لأنها اعتقدت وجوب الجهاد، ورأت في لذة العمل وفي سعادة النجاح وفي إسعاد المجتمع ثواب عملها وجهادها فبها ونعمت، ولن يضيع الله أجرها، بل سيضاعفه لها، وإن كان ولابد من معاوضة فشتان بين ما يفنى وما يبقى، وبين لذائذ هذه الحياة الدنيا ولذائذ الأخرى، ﴿ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ ﴾ [التوبة : ٣٨]، و"لموضع سوط أحدكم في الجنة خير من الدنيا وما فيها"(١)

٣ـ إذا قصر المؤمن في الجهاد عوقب واستبْدل به غيره:

فإذا أبى المجاهدون إلا القعود، واستسلموا للضعف، وسلموا الراية، وخانوا الأمانة فهناك العذاب الأليم والجزاء الوفاق، ولن يدع الله الراية بغير حَمَلَةٍ، ولن يترك الدعوة

---

(١) رواه أحمد (٣ / ١٨٠) والبخاري (٢٨٩٢) والترمذي (١٦٦٤) عن أبي هريرة رضي الله عنه. ورواه أحمد (٤ / ٤٥٣) عن سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه.

بغير أنصار، بل يديل الله منهم، ويستبدل قومًا غيرهم، ويكون إثم المقصرين القاعدين الذين ملُّوا العمل، وسئموا الكفاح على أنفسهم، والضرر حائق بهم ولن يضروا الله شيئا، فإن الله هو الغنى الحميد.

٤ـ حَسْبُ المجاهد ثوابًا أن رضيه ربه لهذا الميدان:

وعلى المجاهد أن يعلم أنه شرفٌ عظيمٌ وفضلٌ كبيرٌ أن يختاره ربُّه لحمل أمانته ونُصرة دعوته، ولو لم يكن له من الثواب إلا هذا التكريم لكان فيه فوق الكفاية، فإنَّ الله لا يختار لهذا الشرف إلا من أحبَّهم، وماذا يرجو مؤمن بعد أن يكون لربه حبيبًا ومن رسوله قريبًا، فليشكر الله على هذه المنَّة، ولا يرى لنفسه فضلا فى شىء، ﴿ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [الحجرات:١٧].

٥ـ فى واقعة الهجرة العملية آية ذلك ودليله:

ولقد تجلَّت قدرة الله العظيم، واستغناؤه تبارك وتعالى عن الأسباب والمخلوقات فى حماية أوليائه ونُصرة أنبيائه، وإظهار كلمته فى مواطن كثيرة منها يوم الغار، إذ خرج رسول الله ﷺ ليس معه إلا صاحبه الكريم، يملأ قلبهما الإيمان، وتظلهما العقيدة الصادقة بجنود لا قبَل لأحد بها، ولا سلطان لمخلوق عليها، فكان عاقبة ذلك تأييد الله ونصره لهما، وخذلان أعدائهما، وردهم على أعقابهم لم ينالوا خيرًا، وكفى الله المؤمنين القتال، وكان الله قويًا عزيزًا، وأنزل سكينته على رسوله، وأيده بجنوده، وأعلى كلمته، وأحبط مكيدة الكافرين.

فانظر إلى هاتين العبرتين: صدق عقيدة من المجاهدين، يقابله تأييد ومناصرة من رب العالمين لا دخل فيه لأحد من المخلوقين، وهما صنوان لا يفترقان أبدا: "صدق الإيمان، وفخر النصر

٦ـ لا عذر لقاعد عن نصرة الحق مهما كان فإنما هو النفير العام:

وإذا كان كذلك فمفروض على كل مؤمن أن يكون جنديًا فى سبيل العقيدة التى آمن بها، يذود عنها ويعمل لها، ويجاهد فى سبيلها بنفسه وماله، ولا عذر لأحد فى ذلك.

قرأ أبو طلحة سورة براءة فأتى على هذه الآية: ﴿انفروا خفافا وثقالا وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله﴾ [التوبة: 41] فقال: أرى ربنا قد استنفرنا شيوخاً وشباناً، جهزوني يا بني. فقال بنوه: يرحمك الله قد غزوت مع رسول الله ﷺ حتى مات، ومع أبي بكر حتى مات، ومع عمر حتى مات، فنحن نغزو عنك. فأبى فركب البحر ومات مجاهداً(1).

وشهد أبو أيوب الأنصاري مع رسول الله ﷺ بدراً، ثم لم يتخلف عن غزاة للمسلمين إلا عاماً واحداً.

وقال [ابن سيرين](2): وكان أبو أيوب يقول: قال الله تعالى: ((انفروا خفافاً وثقالاً)) فلا أجدني إلا خفيفاً أو ثقيلاً(3).

ومازال رضي الله عنه مجاهداً [illegible] حتى قضى ابن [illegible] الشيخ [illegible] على أسوار القسطنطينية، ولم [illegible] على [illegible] البسفور(4).

وحدث أبو راشد الحراني قال: وافيت المقداد بن الأسود جالساً على تابوت من توابيت الصيارفة بحمص، وقد فضل عنها من عظمه، وهو يريد الغزو، فقلت له: قد أعذر الله إليك. فقال: أتت علينا سورة البعوث ((انفروا خفافاً وثقالاً))(5).

وقال ابن جرير: حدثني حيان بن زيد الشرعبي قال: نفرنا مع صفوان بن عمرو، وكان

---

(1) رواه أبو يعلى (3413) وقال محققه: إسناده صحيح، والبيهقي في السنن (9/21)، و(3/233) وابن حبان (7184) وقال محققه: إسناده صحيح، والحاكم (3/353) و(3/398) وصححه على شرط مسلم، وابن سعد في الطبقات (3/507) [illegible] وقال الهيثمي: رواه أبو يعلى ورجاله رجال الصحيح. مجمع (9/312) وذكره ابن حجر في المطالب العالية برقم (4026).

(2) ما بين المعقوفتين [illegible] ولا يستقيم الكلام بدونه [illegible].

(3) رواه الحاكم (3/458) عن محمد بن سيرين.

(4) ذكره الحاكم (3/458) عن أبي عمران [illegible].

(5) رواه الحاكم (3/352) والبيهقي في السنن (9/21).

والبًا على حمص - إلى الجراجمة، فرأيت شيخًا كبيرًا قد سقط حاجباه على عينيه من أهل دمشق على راحلته فيمن أغار، فأقبلت إليه فقلت: يا عم لقد أعْذَرَ الله إليك، فرفع حاجبيه فقال: يا ابن أخي اسْتَنْفَرَنَا الله خفَافًا وثِقَالاً ولم يعذر أحدًا[١].

وقال ابن أبي نَجِيح[٢] عن مجاهد: (انفروا خفافا وثقالا) قالوا: فإن فينا الثقيل وذا الحاجة والضَّيْعَة والشُّغل والمتيسْر به أمره، فأنزلها الله وأبى الله أن يعذرهم دون أن ينفروا - مهما كانت ظروفهم - وعلى ما كان منهم[٣].

"وبعد" فإلى من يريدون تكوين الأمم على روح الجندية الصحيحة: هل رأيتم نفيرًا عامًا كهذا النفير؟! فإن كنتم جادين فحذوا على هذا الدرب ودعوا العبث.

*****

---

(١) انظر: ابن كثير (٣ / ٣٤٤).

(٢) هو أبو يسار عبد الله بن أبي نجيح، كان مفتي أهل مكة بعد عمرو بن دينار، وكان فصيحا مفسرا ثقة. انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي (٦ / ١٢٥) وتاريخ الإسلام للذهبي (٥ / ٢٦٩). نقلا عن: العلماء العزاب الذين آثروا العلم على الزواج للشيخ عبد الفتاح أبي غدة رحمه الله (٢٦، ٢٧) بتصرف. وقد خطأ الشيخ أبو غدة من ضبط شكل (أبي نُجيح) بضم النون، والصواب فتحها.

(٣) انظر: المصدر السابق، وتفسير مجاهد ص٢٧٩ طبعة قطر. وقول الإمام البنا: مهما كانت ظروفهم، ليست من قول مجاهد، ولذا وضعتها بين عارضتين.

[وجوب نفر الخفاف والثقال بإعلان النفير العام][1]

﴿ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ وَلَٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (٤٢) عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ (٤٣) لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ (٤٤) إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ (٤٥) وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ (٤٦) لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٤٧) لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّىٰ جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ ﴾ [التوبة: ٤٢-٤٨].

[معانى كلمات الآيات]

العرض القريب: الفائدة، والمنفعة القريبة المتناولة.

والسفر القاصد: السفر القريب غير البعيد.

والشُّقَّة: المسافة والجهة[2].

وهذا بيانٌ لصنف كثير فى الناس يريدون الحصول على الفوائد والمنافع بأقل التضحيات، فإذا طلب إليهم أن يعملوا ليصلوا، وأن يجاهدوا ليغنموا تعلَّلوا بالمعاذير، وأكَّدوا تعلّتهم الكاذبة بالأيمان الفاجرة ﴿ **لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ** ﴾ [التوبة: ٤٢]. ثم هم يبالغون فى المكر والخبث، فيستأذنون فى القعود والتخلُّف.

ولقد جُبِلَ رسول الله ﷺ على حُسنِ الخُلُق، ورقَّة الطَّبع، وجميل المعاملة للناس،

---

(١) نشرت فى مجلة (الإخوان المسلمون) الأسبوعية فى العدد (١٨٥) الصادر فى ٢٧ من ربيع الأول سنة ١٣٦٧هـ - ٣١ من يناير سنة ١٩٤٨م. وقد اقتبست هذا العنوان من تفسير المنار.

(٢) وتأتى كلمة "الشُّقة" بمعنى السفر كذلك، انظر: تفسير غريب القرآن لابن قتيبة ص ١٨٧

وستر نقائصهم وعيوبهم والرحمة بهم، وهو رحمة الله للعالمين، فهم يعتمدون فى خلقه الكريم على هذه الصفات، ولهذا يستأذنون وهم مطمئنون، ولقد أذنَ لهم رسول الله ﷺ فعاتبه ربُّه هذا العتاب الرقيق: عفا الله عنك لم أذنت لهم، حتى يتبين لك الذين صدقوا فيثق الناس بهم، وتعلم الكاذبين فَتَحْذَرُهُم وتَحْذَرُهُم الأمَّةُ، وفى ذلك حمايةً لها وتاديبًا لهم. ومن هنا كان من الواجب على أصحاب الدعوات ألا يجاملوا أحدًا على حساب مصلحة الدعوة أبدًا، وأن يُظْهِرُوا الناس على خفايا الكائدين المنافقين ليحذروهم.

تعرُّض لعصمة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام:

ولقد أطال المفسِّرون بمناسبة هذه الآية فى موضوع عصمة الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم، والإجماع منعقد على عصمتهم الكاملة فيما يبلغون عن الله عز وجل، وفيما يتَّصل بصميم الرسالة من قول أو فعل، أما ما يتصل باجتهادهم فجائز عليهم الخطأ والصواب فيه[١]، وفى ذلك معنى عال من معانى القدوة فى التشريع، ورفع عقيدة التَّأليه، وقد رجع رسول الله ﷺ عن رأيه فى أُحُد لرأى أصحابه[٢]، وفى بدر لرأى الحُباب بن المنذر[٣]، وفى تَأْبِير النَّخْل لقول أهل

---

(١) انظر فى ذلك: الإحكام للآمدى، وإرشاد الفحول للشوكانى وغيره.

(٢) استشار النبيُّ ﷺ أصحابه فى الخروج للقاء المشركين، وكان رايه ﷺ ان يظلوا فى المدينة ولا يخرجوا منها، وان تكون حربًا من داخل المدينة نفسها، بان يقاتلهم المسلمون على أفواه الأزقة، والنساء من فوق البيوت، ولكن الشباب الذين لم يخرجوا فى (بدر) تحمَّسوا للخروج، وكانوا الأغلبية فى الخروج، فنزل النبى ﷺ على رايهم، على الرغم من رؤياه التى رآها فى منامه، فقد راى بقرًا تذبح، ورأى أن فى سيفه ثلمة، وانه ادخل يده فى درع حصينة، فتاول الثلمة فى سيفه برجل يصاب من اهل بيته، وتاول البقر بنفر من أصحابه يقتلون، وتاول الدرع بالمدينة. والمعلوم أن رؤيا الأنبياء حق، ولكنه مع ذلك أخذ برأى الأغلبية. روى قصة شورى رسول الله ﷺ فى أحد: أحمد (٣١٧/٤) عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما، ورواه البيهقى فى "السنن" (١٥٦/١٠) والحاكم (١٤١/٢) وصححه ووافقه الذهبى عن ابن عباس رضى الله عنهما، ورواه عبد الرزاق (٩٧٣٥) والبيهقى فى "السنن" (١٥٥/١٠) عن عروة مرسلا وانظر: زاد المعاد لابن القيم (١٩٣/٣، ١٩٤) وقال محققاه: رجاله ثقات.

(٣) استشار النبى ﷺ فى بدر عندما سار حتى نزل عشيًا ادنى ماء من مياه بدر، فقال: "أشيروا علىَّ فى المنزل" فقال الحباب بن المنذر: يا رسول الله! أنا عالم بها وبقُلُبِها، إن رأيت ان نسير إلى قُلُب قد =

الخِيَرَة(١)، وعُوتِب في الإعْرَاضِ عن الأعمى(٢)، وفي أخذ الفداء من الأسرى(٣)، ولا يقال في هذا كله: إنه ارتكب إثمًا أو قارف معصية، أو فعل ما يتنافى مع العصمة، ولكنه اجتهاد إن وافق الصواب ففيه أجران، وإلا ففيه أجرٌ واحد(٤).

وفي الصيغة من أدب الخطاب ما يأخذ باللُّبِّ ويدل على عظيم منزلة الرسول ﷺ

= عرفناها، فهي كثيرة الماء، عذبة، فننزل عليها ونسبق القوم إليها ونغور ما سواها من المياه". ذكره ابن القيم في "زاد المعاد" وقال محققاه: رواه ابن هشام (١ / ٦٢٠) عن ابن إسحاق قال: فحدثت عن رجال من بني سلمة... وفيه جهالة الواسطة بين ابن إسحاق والرجال من بني سلمة، وقد وصله الحاكم (٣ / ٤٢٦، ٤٢٧) وفي سنده من لا يعرف، وقال الذهبي: حديث منكر، وذكره ابن كثير في "البداية" (٣ / ١٦٧) عن ابن عباس، ونسبه للأموي، وفيه الكلبي، وهو متهم. نقلا عن: "زاد المعاد" (٣ / ١٧٥) بتحقيق الشيخين: شعيب وعبد القادر الأرناؤوط. ط: الرسالة. وقال الشيخ الألباني: سنده ضعيف، انظر: فقه السيرة للشيخ الغزالي بتحقيق الشيخ الألباني ص ٢٣٧ وقال الشيخ القرضاوي: وقد نقلت كتب السيرة خبر الحباب، وتلقته بالقبول. انظر: (الرسول والعلم) للشيخ القرضاوي ص٥٥ ط: وهبة.

(١) ويقصد به الحديث القائل: " أن النبيُّ ﷺ مرَّ بقوم يلقحون (أي نخلا) فقال: لو لم تفعلوا لصلح، قال: فخرج شيصا، فمر بهم فقال: ما لنخلكم؟ قالوا: قلت كذا وكذا، قال: أنتم أعلم بأمر دنياكم رواه أحمد (٧ / ١٧٨) ومسلم (٢٣٦٣) وابن ماجه (٢٤٧١) عن عائشة وثابت بن أسلم وأنس بن مالك رضي الله عنهم.

(٢) هو عبد الله بن أم مكتوم رضي الله عنه ذهب إلى النبي ﷺ وهو واقف مع عدد من كبار المشركين يدعوهم للإسلام، وجاءه عبد الله وهو كفيف، وقد تكبَّد عناء الطريق، فقال له عبد الله ـ ولم ير من مع رسول الله من المشركين ـ: يا رسول الله علمني، فاعرض عنه النبي ﷺ، فانزل الله قوله: ﴿عبس وتولى ① أن جاءه الأعمى﴾ [عبس: ١، ٢] والحادثة ذكرها: مالك في "الموطأ" (٤٦٣) عن عروة بن الزبير. والترمذي (٣٣٣١) وقال: حديث غريب، والبيهقي في "الشعب" (٨١٧٨) والطبراني في "الأوسط" (٩٤٠٤) والحاكم (٢ / ٥٥٨) و(٣ / ٧٣٥) وقال: صحيح على شرط مسلم، وابو يعلى (٤٨٤٨) وابن حيان (٥٣٥) عن عائشة رضي الله عنها، وقال محققه: إسناده صحيح على شرط مسلم. ورواه ابو يعلى (٣١٢٣) عن أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٣) وذلك عندما استشار النبي ﷺ أصحابه في أسرى (بدر) هل يأخذ الفداء، أم يقتل الأسرى؟ وكان راى ابي بكر الصديق: الفداء، وكان رأى عمر: القتل، ونزل القرآن برأى عمر. انظر: الطبراني في "الأوسط" (٥٦٦٢) عن ابن عباس رضي الله عنهما. وقال الهيثمي: فيه أبو عبيدة بن فضيل بن عياض وهو لين، وبقية رجاله ثقات. انظر: مجمع الزوائد (٩ / ٦٧، ٦٨).

(٤) راجع في هذا المبحث تفسير المنار (١٠ / ٤٦٥-٤٦٧)، وكتاب (اجتهاد نبي الإسلام) للمرحوم الشيخ عبد الجليل عيسى. طبعة عيسى الحلبي. و(فتاوى معاصرة) للدكتور يوسف القرضاوي (٣ / ١٢٩-١٤٣) طبعة دار القلم.

عند ربه، إذ قدم العفو على المؤاخذة فقال: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ [التوبة:٤٣] وبين وجه الامر فقال: ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ﴾ [التوبة:٤٣].

المجاهدون والقاعدون:

ثم بيّن القرآن الكريم أن الناس قسمان: "مجاهدون وقاعدون" فالمجاهدون يترقّبون النفير حتى إذا سمعوه طاروا إليه، لأنهم يؤمنون بالله فيجاهدون في سبيله، ويؤمنون باليوم الآخر فيترقبون الجزاء فيه، ويعلمون ان الله سيعوضهم خيراً مما انفقوا أو فقدوا من نفس أو مال، وانهم بهذا الجهاد يتّقون عذاب الله تبارك وتعالى فهم يبذلون رَغَبًا ورَهَبًا ابتغاء مرضاة الله عز وجل(١)

روى مسلم من حديث أبي هريرة مرفوعا: "مِنْ خَيْرِ مَعَاشِ النّاسِ لهم رجل ممسك بعنان فرسه في سبيل الله، يطير على مَتْنِه كلما سمعَ هَيْعَةً أو فَزْعةً طَارَ عليه يبتغي القتل والموت.."(٢) والله عليم بالمتقين(٣)

واما القاعدون فهم أولئك الكُسالى الذين يتمحكون في الاستئذان، وينتحلون الاعذار الواهية فيكون ذلك دليلاً على انهم لم يؤمنوا بالله ولا باليوم الآخر، وأن الشك والريب لا زال كَامنًا في أنفسهم، فلا يحمل الإنسان شيء على الجهاد كالإيمان، ولا يقعده عنه شيء كالشك والريبة، فهم في ريبهم يترددون.

ومن آية تردُّدهم: أنهم لم يُعدُّوا عُدَّتَهُم، ولم ياخذوا أُهْبَتَهُم ولكنهم ظلوا مترددين، يسيرون أم يتخلفون حتى غلب على أنفسهم الجبن والضعف فقعدوا، وفي قعودهم خير كبير للمجاهدين، فلن يُضْعف قوةَ المجاهدين كهؤلاء الضعفاء الرِّعاديد، ولهذا كان من توفيق الله لعباده أن صرفهم عن الخروج والجهاد في سبيله.

---

(١) يشير الإمام بذلك إلى قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٤٤].

(٢) رواه مسلم (١٨٨٩) وابن ماجه (٣٩٧٧) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) يبيِّن الله في الآية: (لا يستاذنك) ان الاستئذان للجهاد ليس من عادة المؤمنين، كما يقول الزمخشري.

ويقول ابن المنير: وهذا الأدب يجب ان يقتفى مطلقا، فلا يليق بالمرء ان يستاذن اخاه أن يُسدي إليه معروفًا، ولا بالمضيف ان يستاذن ضيفه في أن يقدم إليه طعاما؛ فإن الاستئذان في أمثال هذه المواطن امارة التكلُّف والتكره. انظر الانتصاف من الكشاف لابن المنيِّر بهامش الكشاف (٢/ ٢٧٤).

ولو خرجوا ما زادوا المسلمين الشجعان إلا خبالاً بالدسائس والمكايد والتوهين وضَعْف الجَلَد، ولَمَشَوْا في صفوفهم بالفتنة وبالكلمات المُوهِنَة المؤلمة وبمعاني التَّخْذِيل والانقسام ابتغاء تمزيق الوحدة حتى يعود الجميع جبناء ولا ينفردون هم بهذا الوصف.

وفي الناس من يستمع إلى القول، ومن يؤثِّر في نفسه الحديث فيظنه صدقًا وما هو بصدق، ولكنه يحيك في صدره وينال من نفسه، ويظهر أثره في فعله، ولقد ظهر هذا التوهين منهم يوم أُحُد فقد أشاع عبد الله بن أبي - رأس المنافقين - الفتنة في الناس وهم قادمون على عدوهم، وأخذ ينفث في صدورهم السحر، ويقول: ما كان لنا أن نخرج، لقد أطاع محمد الولدان والصغار وعصاني[1]، فيم هذا القتال ولا فائدة لنا من ورائه؟ ولقد أثَّر قوله بعض الشيء، حتى هَمَّ بنو سلمة وبعض الخزرج بالفشل لولا أن ثبتهم الله وفيهما نزلت الآية الكريمة: ﴿إِذْ هَمَّت طَّائِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾ [آل عمران: ١٢٢]، ولم يلبث عدو الله مع هذا أن عاد أدراجه، وأمثال هؤلاء في الجيوش أو الدعوات أخطر عليها من ألد أعدائها وخصومها، وهم: دعاة الهزيمة والطابور الخامس الذي يجب أن يُسْتَأصل ويُباد[2]، والله عليم بالظالمين.

ولكن هذا لن يؤثر في الدعوة أو يحول دون النصر وإن كان له خطره وضرره، وترى أمثال هؤلاء يُسَرُّون بهزيمة أصحابهم ويكرهون لهم الفوز والظهور، وقُتِلَ الإنسان ما أكفره، ومن الخير كل الخير للجيش والجماعة أن تتخلَّص من هذه الأشكال.

ولقد رَوَوْا أن خالداً في غزو اليمامة استبطأ النصر، فصاح به أحد الصحابة: مَيِّزْنَا يا خالد فقد أهلكت الناس واحمل بالأنصار والمهاجرين، ففعل ومَيَّزَ أهلَ السَّابِقَة وهم ثلاثة آلاف، وترك الباقين وهم أضعافهم، ثم حمل فانتصر وظهر أمر الله وهم كارهون، ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٢١].

*****

(١) انظر: سيرة ابن هشام (٣/٨).

(٢) كتبت في المقال ويبيد، وقد رأيت أن الأنسب أن تكون ويباد، والله أعلم.

[من أخلاق المنافقين][1]

﴿ ومنهم من يقول ائذن لي ولا تفتني ألا في الفتنة سقطوا وإن جهنم لمحيطة بالكافرين (٤٩) إن تصبك حسنة تسؤهم وإن تصبك مصيبة يقولوا قد أخذنا أمرنا من قبل ويتولوا وهم فرحون (٥٠) قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون (٥١) قل هل تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين ونحن نتربص بكم أن يصيبكم الله بعذاب من عنده أو بأيدينا فتربصوا إنا معكم متربصون (٥٢) قل أنفقوا طوعا أو كرها لن يتقبل منكم إنكم كنتم قوما فاسقين (٥٣) وما منعهم أن تقبل منهم نفقاتهم إلا أنهم كفروا بالله وبرسوله ولا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى ولا ينفقون إلا وهم كارهون (٥٤) فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم إنما يريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون (٥٥) ويحلفون بالله إنهم لمنكم وما هم منكم ولكنهم قوم يفرقون (٥٦) لو يجدون ملجأ أو مغارات أو مدخلا لولوا إليه وهم يجمحون (٥٧) ومنهم من يلمزك في الصدقات فإن أعطوا منها رضوا وإن لم يعطوا منها إذا هم يسخطون (٥٨) ولو أنهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله وقالوا حسبنا الله سيؤتينا الله من فضله ورسوله إنا إلى الله راغبون ﴾ [التوبة: ٤٩-٥٩].

وهذا طرفٌ من أخلاق المنافقين ومرضى القلوب الذين لم يتمكن الإيمان من نفوسهم، ولم يتغلغل فى أعماق قلوبهم، عرضته الآيات الكريمة هذا العرض الواضح المستنير، ليكون فضحًا للخادعين الكاذبين، وعزاءً للمؤمنين الصادقين.

فمن أخلاقهم: تعلُّلهم بالمعاذير واختلاق الأكاذيب ليهربوا من تبعات الإيمان وواجبات الجهاد. وهذا الجدُّ بن قيس أحد هؤلاء المرضى يقول له الرسول ﷺ - فيما يروى فى الصحيح - فى غزوة تبوك: "يا جد هل لك فى غزو بنى الأصفر؟" فيقول: إنى أخشى إن رأيت نساء بنى الأصفر أن أفتتن، فائذن لى ولا تفتنِّى[2] وأخذ يغالط

(١) نشرت فى مجلة (الإخوان المسلمون) الأسبوعية فى العدد (١٨٦) الصادر فى ٤ من ربيع الآخر سنة ١٣٦٧هـ - ١٤ من فبراير سنة ١٩٤٨م.

(٢) رواه الطبرانى فى "الأوسط" (٥٦٠٤) وفى "الكبير" (١٢/ ٩٥) عن ابن عباس رضى الله عنهما. وقال الهيثمى: فيه يحيى الحمانى. انظر: مجمع الزوائد (٧/ ٣٠).

ويدَّعى أن نساء بنى الأصفر يفتنه ويشغلن لُبَّه عن القتال، وما درى هذا المسكين المغالط أنه بهذا التخلُّف قد ترك القتال جملة فسقط فى الفتنة إلى الحضيض، ولهذا كان الرد عليه : ألا فى الفتنة سقطوا، وإن جزاء من سقط فى الفتنة جهنم، (وإنَّ جهنم لمحيطة بالكافرين) .

ومن أخلاقهم : أنهم يحزنون للخير يصيب المؤمنين، ويفرحون للمصائب تنزل بهم، ويُسِرُّون هذا الشعور فى أنفسهم فلا يظهرونه إلا بعد ظهور النتائج، ويظلون قبل ذلك يرجفون بالقول الكاذب، ويختلقون المفتريات والأباطيل، فإذا انكشف الأمر عن حسنة تصيب المؤمنين تَمَعَّرَت لذلك وجوههم، وظهرت آثار الحزن على أساريرهم، وإذا واجهت المؤمنين الصادقين إحدى المصائب فرحوا واستبشروا وصَرَّحُوا بمَكْنُون النفاق، وفخروا بأنهم قد أعدوا للأمر عدته من قبل، ولم يتورطوا فيما تورَّط فيه هؤلاء المؤمنون المصابون، وقالوا : ﴿ قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴾ [التوبة : ٥٠] .

وظهر مصداق هذا الخلق من هؤلاء المنافقين فى غزوة تبوك أيضًا، فقد قعدوا خلف رسول الله ﷺ يختلقون الأباطيل، ويشيعون قالة السوء.

روى ابن أبى حاتم عن جابر بن عبد الله رضى الله عنه قال : جعل المنافقون الذين تخلَّفوا فى المدينة يخبرون عن النبى ﷺ أخبار السوء، ويقولون : إنَّ محمداً وأصحابه قد جهدوا فى سفرهم وهلكوا، وبلغهم تكذيب خبرهم وعاقبة النبى ﷺ وأصحابه، فساءهم ذلك، فأنزل الله فيهم : (إن تصبك حسنة تسؤهم) الآية، وهؤلاء هم دعاة الهزيمة والتردُّد، والطابور الخامس، وهم أخطر وأنكى أثرًا من الأعداء السافرين.

ولكنَّ المؤمنين الحقيقيين لا يهمهم ذلك فى شىء، وأمرهم كله لهم خير، فإن أصابتهم النعماء شكروا وكان خيراً لهم، وإن أصابتهم الضراء صبروا ورضوا واحتسبوا فكان خيرا لهم وعليهم[1]، فالأسباب والنتائج بيد الله ﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ [التوبة : ٥١] .

---

(١) اقتبس الإمام الشهيد هذا المعنى من قوله ﷺ : "عجبًا لأمر المؤمن إن أمره كله له خير، وليس ذلك إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له

وقصارى أمر المؤمن أن يموت في سبيل الله وهي أمنية من أمانيه؛ لأن بعدها الجنة والحياة الباقية حياة الخلود ﴿ وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ [العنكبوت: ٦٤]، وهذا إذا لم ينتصر ويحقق الله ما وعده إياه من نصر مبين وفتح قريب، فهو ينتظر دائمًا إحدى الحسنيين: النصر والسيادة، أو الموت والشهادة وكلاهما خير.

والكافر والمنافق على العكس من ذلك؛ إن عاش أحدهما عاش معذبًا مهزومًا، وإن مات مات خاسرا مذمومًا: ﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلاَّ إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴾ [التوبة: ٥٢].

[التستر بالرياء والأيمان الكاذبة]

ومن أخلاقهم: الرياء والتقية بل ذلك أساس تصرفاتهم جميعًا، وهم لهذا يحاولون أن يستروا كفرهم وجحودهم ونفاقهم بمال يبذلونه، ويساهمون به في بعض أعمال المؤمنين متظاهرين بأنه عن طواعية واختيار، والله يعلم أنهم إنما فعلوا ذلك عن خُبْث وكراهية واضطرار. ولهذا فضحهم القرآن الكريم وكشف عن خبيئة نفوسهم، وأعلن أن ذلك لن ينفعهم بشيء، في الدنيا ولا في الآخرة، وأنه لن يتقبل منهم بحال: ﴿ قُلْ أَنفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴾ [التوبة: ٥٣]، وبيَّن السبب في هذا الحرمان والخذلان ورفض نفقاتهم وعدم قبول صدقاتهم وتبرعاتهم، وهو أنهم كفروا بالله وبرسوله ولا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى متغافلون، ولا ينفقون إلا كارهين مضطرين، وليس ذلك من أخلاق المؤمنين في شيء، ولن تغني عنهم في الدنيا ولا في الآخرة كثرة الأموال أو الأولاد، لأنها ستكون وبالاً عليهم يتعذبون بفقدانها في الغنائم والقتال، ثم يتعذبون مرةً ثانية إذا ماتوا على الكفر وحقت عليهم كلمة العذاب ﴿ فَلا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾ [التوبة: ٥٥].

ومن أخلاقهم التي يدفعهم إليها رياؤهم وخبثهم وخبث طويتهم: أنهم يتسترون كذلك بالأيمان الكاذبة ﴿ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ [المجادلة: ١٦] فهم يجرؤون على الحلف بأغلظ الأيمان أنهم من أخلص أهل الإيمان وما هم منهم في قليل ولا كثير، ولكن يحملهم على ذلك الخوف والجبن، ولو وجدوا مهربًا

من ملجأ حصين أو كهف عميق أو سرب ضيّق لفرُّوا إليه بأقصى سرعتهم وهم يجمحون.

ومن أخلاقهم: أنهم ينتهزون الفرصة لينفذوا إلى الطعن فى القادة بالباطل والنَّيْل من نزاهتهم بغير الحق، ولا يجدون فرصةً أسنح من قسمة مال أو تصرف فى غنيمة، فتنطلق ألسنتهم بالطعن والوقيعة واللمز والغمز وإشاعة التهم والأباطيل.

عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال: بينما رسول الله ﷺ يَقْسم قسْمًا إذ جاءه ذو الخويصرة التميمى فقال: اعدل يا رسول الله. فقال: ويلك! ومن يعدل إذا لم أعدل؟! [قد خبت وخسرت إن لم أكن أعدل](١) فقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه: ائذن لى فاضرب عنقه، فقال رسول الله ﷺ: دعه فإن له أصحابًا يَحْقرُ أحدُكم صلاتَه مع صلاتهم، وصيامه مع صيامهم، يَمْرُقون من الدين كما يَمْرُقُ السَّهْم من الرَّمِيَّة" رواه البخارى. قال أبو سعيد: فأنزل الله الآية الكريمة ﴿ومِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ﴾ [التوبة: ٥٨](٢).

وروى ابن مردويه عن ابن مسعود رضى الله عنه قال: لما قسم رسول الله ﷺ غنائم حنين سمعت رجلاً يقول: إن هذه قسمة ما أريد بها وجه الله، فأتيتُ النبىَّ ﷺ فذكرت له ذلك، فقال: "رحمة الله على موسى لقد أُوذى بأكثر من هذا فصبر"(٣) ونزلت: ﴿ومِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ﴾ [التوبة: ٥٨].

وهكذا تتكرر هذه المآسى فى كل عصر، ويخرج من بين الطوائف والجماعات من لا يجد إلا أمثال هذه الاتهامات يوجهها إلى رؤسائها والقائمين بأمرها، وهم ليسوا مخلصين فى ذلك النقد، ولا مُتحَرِّين الحق أو الخير فى هذا الاتهام، ولكنهم إنما يريدون

---

(١) ما بين المعقوفتين غير موجود بالمقال، وقد استدركته من رواية الحديث.

(٢) رواه أحمد (٣/٤٥٩،٤٧٣) والبخارى (٣٦١٠) ومسلم (١٠٦٤) والبيهقى (١٢/٣٢٦) والنسائى فى "الكبرى" (١١٢٢٠) وعبد الرزاق (١٨٦٤٩) عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه. ولم يذكر قول أبى سعيد: فأنزل الله الآية الكريمة ﴿ومِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ﴾ إلا أحمد والنسائى.

(٣) رواه أحمد (١/٦٢٧) والبخارى (٤٣٣٥) و(٦٠٥٩) و(٦١٠٠) و(٦٢٩١) ومسلم (١٠٦٢) عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه.

منفعة ذاتية لأشخاصهم، ﴿ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴾ [التوبة :٥٨] مع أنهم بذلك يخسرون كل شيء حتى هذا المطمع، فلو أنهم رضوا وسلموا وصبروا وانتظروا ما يأتي به المستقبل، وقالوا: ﴿ حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ ﴾ [التوبة: ٥٩] لتحقق لهم ما يريدون، ولكن هكذا كانوا هم في كل زمان ومكان، ولله في خلقه شؤون.

*****

[الزكاة ومصارفها][1]

﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٦٠].

[مناسبة الآيات لما قبلها]

وحين عرضت الآيات الكريمة لهذا الخلق من أخلاق المنافقين وهو الطعن فى القادة والتشكيك فى نزاهتهم، وانتهاز فرصة تقسيم الأموال؛ لأن ذلك عند الناس هو نطفة الخيانة والطمع، وخصوصًا إذا لم ينالوا من هذه الأعطيات ما يرضى مطامعهم، ناسب بعد ذلك أن تقرر أحكام الصدقات وبيان مصارفها حتى يكون فى هذا التقرير قطع ألسنتهم، وتسجيل براءة من يتهمونهم بالباطل، فجاءت هذه الآية الكريمة تقرر مصارف الصدقات.

[أقسام الصدقات]

والصدقات قسمان: قسم هو الفريضة الواجبة، وقسم تطوع وتبرع، والأول هو الذى أطلق عليه فى العرف الفقهى: الزكاة، والثانى ما غلب عليه اسم الصدقة وإن كان كلاهما فى الواقع صدقة، وأطلق عليهما هذا اللفظ فى كتاب الله تبارك وتعالى معًا كما فى قوله تعالى: ﴿إِن تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّئَاتِكُمْ﴾ [البقرة: ٢٧١].

[متى فرضت الزكاة؟]

وفرضت الزكاة مع الصلاة فى أول الإسلام بمكة بدليل اقترانهما فى كثير من الآيات المكيَّة، ولأن الصلاة هى مظهر الإسلام البدنى العملى، والزكاة هى شعيرته المالية، والأولى صلة بين الخالق والمخلوق، والثانية صلة بين المخلوقين بعضهم وبعض، والعقيدة أساسهما معًا، وما جاء الإسلام إلا لهذين المقصدين الجليلين. ولكن الزكاة كانت

---

[1] (١) نشرت فى مجلة (الإخوان المسلمون) الأسبوعية فى العدد (١٨٧) الصادر فى ١١ من ربيع الآخر سنة ١٣٦٧هـ - ٢١ من فبراير سنة ١٩٤٨م. والعدد (١٨٨) من المجلة نفسها الصادر فى ١٨ من ربيع الآخر سنة ١٣٦٧هـ - ٢٨ من فبراير سنة ١٩٤٨م.

حينذاك مجرد صدقة ونفقة يتقدم بها المؤمن بحسب ظروفه والفائض من ضرورياته لتنفق على إخوانه من المحتاجين، ولم يكن لها قدر محدَّد ولا مصرف محدَّد كذلك، وفى السنة الثانية من الهجرة حدد مقدارها ومصارفها ونظمت جبايتها، فسبق إلى ذهن الكثير أنها إنما فرضت فى السنة الثانية من الهجرة، وكان هذا التدرُّج فى التشريع طبيعيًا، فإن جباية الزكاة من مهمة الحاكم أولاً، ولم يكن ثَمَّ حاكم إسلامى بمكة، حتى إذا استقرَّ الأمر فى المدينة وقامت فيها الحكومة الإسلامية الأولى كان طبيعيًا ان يكون من تمام مهمتها أن ينظم الله هذه الناحية الهامة للناس.

[مصارف الزكاة]

[١ ، ٢- الفقراء والمساكين]

وتصرف الزكاة لثمانية أصناف هم هؤلاء، وهما صنفان لجنس واحد هو أهل الحاجة. الفقراء والمساكين: هم المحتاجون وذوو الفاقة، إلا أن الفقير هو الذى تكون حاجته وفاقته عن ضيق وسائل الأرزاق وقلة الموارد ونُدْرة أبواب العمل والكسب، والمسكين هو الذى تكون حاجته عن ضعف فى بدنه يحول بينه وبين العمل والسعى، وبهذا التوجيه تندفع كل الاعتراضات ونخرج من الخلاف الطويل بين الفقهاء بأحسن المخارج، ويكون التوفيق بين الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة على أفضل وجوهه، فضلاً عما فى ذلك من التنبيه على دقة التصور فى الآية واستيعابها لذوى الحاجات. فإنك لا تكاد تجد فرقًا فى أوصاف الفقير أو المسكين فى الآيات الواردة من حيث الاحتياج أو التعفُّف أو غفلة الناس عن التفطُّن إليهم، وتكاد الصفات من هذه الوجوه كلها تكاد تكون واحدة فى الآيات والأحاديث، فالآية تقول فى الفقراء: ﴿ **لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا** ﴾ [البقرة: ٢٧٣] والحديث يقول فى المساكين: "ليس المسكين الذى ترده التمرة والتمرتان، ولا اللقمة واللقمتان، إنما المسكين الذى يتعفَّف اقرؤوا إن شئتم: (لا يسألون الناس إلحافا)[1] وفى لفظ: "ولكن المسكين الذى لا يجد غنى يغنيه، ولا يُفْطَنُ

---

(١) رواه احمد (٣/١٠٦) والبخارى (٤٥٣٩) والنسائى فى "المجتبى (٢٥٧١) وفى "الكبرى (١١٠٥٣) و (٢٣٥٢) والبيهقى فى "السنن" (١٠/٩٥) وفى "الشعب" (٣٥١٨) والدارمى (١٦١٥) وابو يعلى (٦٣٧٨) عن ابى هريرة رضى الله عنه.

له فيتصدق عليه، ولا يقوم فيسأل الناس"(١) والحديث متفق عليه.

وكون المسكين ذا متربة لا يُنافي ما قلناه، ولا يشير إلى الفرق بينه وبين الفقير بشيء، وغاية ما فيه أن الإشارة إلى ان حاجته قد ألصقته بالتراب لشدتها، بل لعلَّ فى هذا ما يشير من طرف دقيق لطيف إلى معنى العجز البدنى، كما أن مادة اللفظ تشير إلى ذلك أيضًا، فالمسكنة من السكون، وأكثر ما يكون السكون عن مثل هذا العجز. ولعل هذا الذى ذهبنا إليه أفضل ما يقال فى الموضوع، والله أعلم بالصواب.

[٣- العاملون على الزكاة]

(والعاملين عليها) وهم الصنف الثالث ممن يستحقون الزكاة، والمراد بهم: القائمون بجبايتها وحسابها والإشراف على صرفها.. الخ، وبالعرف المصرى "الموظَّفون" فى ديوان الزكاة من جُبَاةٍ ومحاسبين ومشرفين.

قال الفقهاء(٢): ولا تجوز العمالة لمن تحرم عليهم الصدقة من آل رسول الله ﷺ، وهم بنو هاشم بالاتفاق وبنو عبد المطلب، لأن الفضل بن عباس والمطلب بن ربيعة بن عبد المطلب سالا النبى ﷺ أن يُؤمّرهما على الصَّدقات بالعمالة كما يؤمُر الناس فقال لهما: إنَّ الصدقةَ لا تحل لمحمد ولا لآل محمد، إنما هى أوساخ الناس"(٣) وفى لفظ: "لا تنبغى" بدلا من "لا تحل" رواه أحمد ومسلم(٤)

والذى يظهر لى: أن المحرم هو أخذ العمالة لا الإمارة نفسها(٥)، فإذا وجد من أهل

---

(١) رواه أحمد (٢/٥١٢) والبخارى (١٤٧٩) ومسلم (١٠٣٩) والنسائى فى "المجتبى" (٢٥٧٢) وابو داود (١٦٣١) ومالك فى "الموطأ" (٧٦٠) وابن حبان (٣٣٥٢) عن أبى هريرة رضى الله عنه.

(٢) انظر: نيل الأوطار (٤/١٧٥). نقلاً عن: "فقه الزكاة" (٢/٥٩٥) للدكتور القرضاوى.

(٣) رواه احمد (٥/١٧٢) وابو داود (٢٩٨٥) ومالك فى "الموطأ" (٩٣٢) والبيهقى فى "السنن" (١٠/١٣٤) وفى "الشعب" (١٥٩٠) والنسائى فى "المجتبى" (٢٦٠٩) وفى "الكبرى" (٢٣٩٠) وابن خزيمة (٢٣٥٢) والطبرانى فى "الكبير" (٥/٥٤) عن المطلب بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب رضى الله عنه.

(٤) رواه احمد (٥/١٧٣) ومسلم (١٠٧٢) وابن حبان (٤٥٢٦) والبيهقى فى "السنن" (٢/٥١٢) عن المطلب بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب رضى الله عنه.

(٥) قال بهذا الراى من الفقهاء: الشافعى واحمد. انظر: الأحكام السلطانية ص٩٩، والمجموع للنووى (٦/١٦٨).

البيت من يتطوّع بالعمل فى الصدقات بدون مقابل فليس ما يمنع من تاميره عليها، وحسبه سهمه من بيت مال المسلمين، والله أعلم.

أما من غير أهل البيت فليس ما يمنع من أخذهم العمالة، روى أحمد والشيخان عن بُسْر بن سعيد أن ابن السعدى المالكى قال: استعملنى عمر على الصدقة، فلما فرغت منها وأديتها إليه، وأمر لى بعُمَالَةٍ فقلت: إنما عملت لله. فقال: خذ ما أعطيت فإنى عملت على عهد رسول الله ﷺ فعملنى فقلت مثل قولك، فقال لى رسول الله ﷺ: "إذا أُعْطيتَ شيئًا من غير أن تسأل فكُلْ وتصدَّق"(١) والظاهر من هذه الآثار كلها قصر المعنى على الجُباة، ولكن عموم اللفظ يستغرق مَنْ عَدَاهم من المحاسبين والمشرفين على التوزيع، فهم يدخلون فى العاملين عليها بهذا العموم، والله أعلم بالصواب.

[٤- المؤلفة قلوبهم وأصنافهم]

(والمؤلفة قلوبهم): وهم الصنف الرابع من مصارف الصدقة وقد ذكر الفقهاء لهم أنواعًا منها:

الأول: رؤساء المسلمين الذين يُرجى بإعطائهم دخول غيرهم من نظرائهم من الكفار فى الإسلام، كما أعطى أبو بكر رضى الله عنه عدى بن حاتم والزبرقان بن بدر مع حُسن إسلامهما يتالف بذلك قلوب أمثالهما من رؤساء القبائل والعشائر الذين كانوا يظنون أن دخولهم فى الإسلام سيؤدى بهم إلى الفاقة والفقر.

والثانى: رؤساء مطاعون فى قومهم يُرجى بإعطائهم تقوية صلتهم بالجماعة الإسلامية، ومناصحتهم فى الجهاد لإعزازها وتقوية وحدتها، كبعض الطلقاء من أهل مكة الذين أغدق عليهم النبىُّ ﷺ من غنائم هوازن فى حنين.

والثالث: المعرضون للفتنة من أهل الإسلام المجاورين لأهل الكفر، ويُرجى بإعطائهم حمايتهم من فتنة المال والوقوع فى مغريات الأعداء ورشاويهم وهداياهم، ليتَّخذوا منها ذرائع لاحتلال أرض الإسلام وبسط سلطانهم عليها والدخول فى حمايتهم ورعايتهم.

---

(١) رواه أحمد (١/ ٥٢) والبخارى (٧١٦٤) ومسلم (١٠٤٥) والنسائى فى "المجتبى" (٢٦٠٤) و(٢٦٠٥) وفى "الكبرى" (٢٣٨٥) وابو داود (١٦٤٧) و(٢٩٤٤) وابن حبان (٣٤٠٥) والبيهقى فى "السنن" (١/ ٣٩، ١٠٣) وابن خزيمة (٢٣٦٤) عن عبد الله بن السَّعدى رضى الله عنه.

والرابع: الرؤساء من غير المسلمين الذين يُرجى بحُسن معاملتهم استمالة قلوبهم للإسلام، كما فعل رسول الله ﷺ مع صفوان بن امية، وقد كان أحد العشرة الذين انتهى إليهم شرف الجاهلية، ووصله لهم الإسلام. منحه رسول الله ﷺ إبلاً محملة يملأ واديًا فسيحًا، فقال: هذا عطاءُ من لا يخشى الفقر. وألَّف الله بذلك قلبه فقال: والله لقد أعطانى النبى ﷺ وإنه لأبغض الناس إلىَّ، فما زال يعطينى حتى إنه لأحب الناس إلىَّ، وقد اسلم بعد ذلك وحَسُن إسلامُه.

والخامس: من يُخشى شرُّه فيُعطى لكفِّ شره، أو يُرجى ببذل نفوذه لخدمة الدعوة الإسلامية فيعطى ليفعل ذلك.

قال ابن عباس: إن قومًا كانوا يأتون النبى ﷺ فإن أعطاهم مدحوا الإسلام، وقالوا: هذا دين حسن، وإن منعهم ذموا وعابوا، وكان منهم عيينة بن حصن والأقرع بن حابس. وورد أن سهمهما قد اعترض عليه عمر وقطعه فى خلافة أبى بكر رضى الله عنه فى قصة لطيفة دقيقة المآخذ جمَّة الفوائد.

جاء عيينة والأقرع إلى أبى بكر رضى الله عنه يطلبان منه أرضا، فكتب لهما خطًا بذلك، فخرقه عمر رضى الله عنه وقال: هذا شىء كان يعطيكموه رسول الله ﷺ تاليفًا لكم، فأما اليوم فقد أعزَّ الله الإسلام واغنى عنكم، فإن ثَبَتُّم على الإسلام وإلا فبيننا وبينكم السيف، فرجعوا إلى أبى بكر رضى الله عنه. فقالوا: أنت الخليفة أم عمر؟! بذلت لنا الخط ومَزَّقه عمرا فقال أبو بكر: هو إن شاء كان وأقره على ما فعل، ولم يعترض عليه فى ذلك أحد من الصحابة[1].

---

(١) يتُخذ بعض مدعى العلم - من العلمانيين وممن يريدون غمز الإسلام - هذا التصرف العمرى مدعاة لإلغاء النصوص إذا دعت لذلك مصلحة، بل ويتملقون الحكام بذلك فى أحقيته فى أن يلغى بعض النصوص للمصلحة، وما فعله عمر رضى الله عنه ليس إلغاء للنص، إنما هو انعدام وجود الحالة التى نزل لها النص، فمتى وجدت طبق النص عليها. والحكم يدور مع علته وجودا وانتفاء. لمزيد من التفاصيل فى الرد على هذه الفرية راجع: المقالات التى كتبها الأستاذ الشيخ محمد محمد المدنى رحمه الله فى مجلة الأزهر تحت عنوان: (من فقه عمر) ثم جمعت بعد ذلك فى كتاب تحت عنوان: (نظرات فى اجتهادات الفاروق عمر بن الخطاب) نشر دار النفائس والفتح ببيروت. وكتاب (دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين) للشيخ محمد الغزالى رحمه الله طبعة دار الانصار، والدعوة بالقاهرة، ودار القلم دمشق. وكتاب (السياسة الشرعية فى ضوء نصوص الشريعة ومقاصدها) للدكتور يوسف القرضاوى طبعة مكتبة وهبة بالقاهرة والرسالة ببيروت، و(فقه الزكاة) للقرضاوى (٢ / ٦٠٦-٦١٤) طبعة وهبة.

[٥-الرقاب]

﴿وفى الرقاب﴾(١): وهم الصنف الخامس والمصرف الخامس من مصارف الزكاة، فللدولة أن تنفق سهمًا فى سبيل تحرير الرقيق بشرائها وإعانة المُكَاتَبِين على أداء ما ضرب عليهم، كما أن لدافع الزكاة أن يدفعها لهم لهذا الغرض، وقال ابن عباس: لا بأس بأن يعتق من زكاة ماله.

وعن البراء بن عازب رضى الله عنه قال: جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال: دُلَّنى على عمل يقربنى من الجنة ويبعدنى من النار. فقال: "أَعْتق النَّسمة، وفُكَّ الرقبة" فقال: يا رسول الله أو ليسا واحدًا؟ قال: لا. عتق الرقبة أن تنفرد بعتقها، وفك الرقبة أن تعين بثمنها" رواه أحمد والدارقطنى(٢).

وعن أبى هريرة رضى الله عنه أنَّ النبىَّ ﷺ قال: "ثلاثة كُلٌّ حَقٌّ على الله عَونُه: الغازى فى سبيل الله، والمُكَاتَب الذى يريد الأداء، والناكح المتعفِّف" رواه الخمسة إلا أبا داود(٣).

والمأثور عن على بن أبى طالب وسعيد بن جبير والليث والثورى والعترة والحنفية والشافعية وأكثر أهل العلم: صرف المعنى إلى المكاتبين، يُعَانُون من الزكاة على الكتابة

(١) يلاحظ أن الآية عدلت عن اللام إلى (فى) فى الأربعة الأخيرة، والحكمة فى ذلك كما يقول الزمخشرى: للإيذان بأنهم أرسخ فى استحقاق التصدُّق عليهم ممن سبق ذكره، لأن فى للوعاء، فنبَّه على أنهم أحقاء بأن توضع فيهم الصدقات ويجعلوا مظنة لها ومصبًا. وأضاف ابن المنيِّر حكمة أخرى فقال: ثم سر آخر هو أظهر وأقرب، وذلك أن الأصناف الأربعة الأوائل ملاك لما عساه يدفع إليهم، وإنما يأخذونه ملكًا، فكان دخول اللام لائقًا بهم. وأما الأربعة الأواخر فلا يملكون ما يصرف نحوهم، بل ولا يصرف إليهم، ولكن فى مصالح تتعلَّق بهم. انظر: الكشاف للزمخشرى وبهامشه الانتصاف لابن المنير (٢/ ٢٨٣).

(٢) رواه أحمد (٤/ ٢٩٩) والحاكم (٢/ ٢٣٦) والبيهقى فى "السنن" (١٥/ ٤٣٤) وفى "الشعب" (٤٣٣٥) والبخارى فى "الأدب المفرد" (٦٩) وصححه الشيخ الألبانى فى "صحيح الأدب المفرد" برقم (٥٠) كما صححه فى "مشكاة المصابيح" برقم (٣٣٨٤) ورواه ابن حبان (٣٧٤) وصححه محققه الشيخ شعيب الأرناؤوط، والدارقطنى (٢/ ١٣٥) عن البراء بن عازب رضى الله عنه.

(٣) رواه الترمذى (١٦٥٥) وقال: حديث حسن، والنسائى فى "المجتبى" (٣١٢٠) و(٣٢١٨) وفى "الكبرى" (٥٠١٤) و(٥٣٢٦) و(٤٣٢٨) وابن ماجه (٢٥١٨) و(٩٣٤٨) والحاكم (٢/ ٢٣٦) وأبو يعلى (٦٥٣٥) عن أبى هريرة رضى الله عنه. وحسنه الألبانى فى "صحيح سنن النسائى" (٢٩٢٣) وفى "غاية المرام" (٢١٠).

(والمكاتبون منهم: الأرقّاء الذين اتفق معهم مالكوهم على أن يشتروا حريتهم بمبلغ معلوم من المال) والمأثور عن ابن عباس والحسن البصري ومالك وأحمد بن حنبل وأبي ثور وأبي عبيد، وإليه مال البخاري وابن المنذر صرف المعنى إلى الشراء، والمأثور عن الزهري أنه يجمع بين الأمرين، ولعل هذا هو الأحق بعموم الآية.

وليس معنى ذلك اعتراف الإسلام بالرق اعترافاً مطلقاً، بل معناه مقاومة الرق ومحاولة القضاء عليه، والإسلام هو أول شريعة أعلنت حريات الإنسان وقدستها ودافعت عنها، وحاربت الرق وحرمته، وابتكرت أفضل الوسائل للقضاء عليه، وهذا بحث طويل نخوض فيه في مناسبة أخرى إن شاء الله.

[٢٦- الغارمون]

(والغارمون): وهم الصنف السادس من مصارف الزكاة، وهم الذين عليهم غرامة مالية بديون لزمتهم وتعذّر عليهم أداؤها، ويشترط الفقهاء بأن تكون الاستدانة بغير معصية إلا أن يكون قد تاب، وفي غير إسراف أو سفاهة إلا أن يكون قد رشد.. ولا شك أن في هذا التشريع الكريم تمسكاً بمكارم الأخلاق، وإشارة إلى تكافل المجتمع أمام مطالب الحياة وضروراتها، وقد كان من عادة العرب وكرم أخلاقهم قبل الإسلام أن الأشراف منهم يتحمّلون أعباء المنقطعين ويضامنون في المآزق الحرجة، كتحمُّل ديات القتلى حين الحرب فيعينهم الأغنياء على حمالتهم. هذا وأقرّ الإسلام هذه المكرمة، وجعلها سهماً من سهام الزكاة.

عن أنس أن النبي ﷺ قال: "لا تحل المسألة إلا لثلاثة: لذي فقر مُدقع، أو لذي غُرم مُفظع، أو لذي دم مُوجع" رواه أحمد وأبو داود(١).

وعن قبيصة بن مخارق الهلالي قال: تحمّلت حمالة، فأتيتُ النبي ﷺ أسأله فيها، فقال: أقم حتى تأتينا الصدقة فنأمر لك بها، ثم قال: يا قبيصة إن المسألة لا تحل إلا لأحد ثلاثة: رجل تحمّل حمالة فحلّت له المسألة حتى يصيبها ثم يمسك، ورجل أصابته

(١) رواه أحمد (٣/ ٥٥٨، ٥٧٩٤) وأبو داود (١٦٤١) وابن ماجه (٢١٩٨) والبيهقي في "السنن" (١٠/ ١٣٣) وفي "الشعب" (١٢٠١) و(١٦٤١) عن أنس بن مالك رضي الله عنه، وضعفه الألباني في "ضعيف أبي داود" (٣٦٠) وفي "مشكاة المصابيح" (١٨٥٩).

جائحة اجتاحت ماله فحلَّت له المسالة حتى يصيب قوامًا من عيش أو قال: سداداً من عيش، ورجل أصابته فاقة حتى يقول ثلاثة من ذوى الحجى من قومه: قد أصابت فلانًا الفاقة، فَحَلَّت له المسالة [فسأل] حتى يصيب قِوَامًا أو قال: سِدَادًا من عيش، [ثم يُمْسك]، وما سواهنَّ من المسالة يا قبيصة فَسُحْتٌ يأكلها صاحِبُهَا سُحْتًا" رواه أحمد والنسائى وأبو داود(١).

[٧- فى سبيل الله]

(**وفى سبيل الله**): وهو الصنف السابع من مصارف الزكاة، والمراد به بالإجماع: الغزو فى سبيل الله من إعانة الغزاة والمجاهدين وتجهيزهم والإنفاق عليهم، وشراء العدة والسلاح لهم، قال مالك رحمه الله تعالى: "سبل الله كثيرة، ولكن لا أعلم خلافًا فى أن المراد بسبيل الله ههنا الغزو من جملة سبل الله"(٢).

وهل يشترط فى الغازى الذى يأخذ من الصدقة أن يكون فقيراً أم إنه يأخذ منها ولو كان غنيًا؟ قولان، والثانى أرجح، بحجة أنه يأخذ ليستعد بوصفه غازيًا فى سبيل الله، كما يشترط كذلك: ألا يكون مقيداً فى ديوان السلطان أى جنديًا محترفًا.

وقال بعض العلماء: إن سبيل الله عام فلا موجب لتخصيصه، ولا يجوز قصره على نوع خاص، ويدخل فيه جميع أبواب الخير ووجوهه، وهو مروى عن ابن عمر وأحمد وإسحاق.

والأصح بالتحقيق أن يقال: إن سبيل الله عامة، ولكن أولى وجوهها هنا الغزو وما يستلزمه، فإن كان الجيش المنظم مكفيًا بديوان السلطان أنفق من الزكاة فى الإعداد، وإن كان مال السلطان لا يكفى حاجة الغزاة صرف لهم من هذا السهم كذلك، وإذا كان هناك من وجوه الخير ما هو فى حاجة إلى أن ينفق عليه من مال الله وهو الزكاة فكذلك، والله أعلم.

---

(١) رواه أحمد (٦/ ٥٠) ومسلم (١٠٤٤) والنسائى فى "المجتبى" (٢٥٩١) وفى "الكبرى" (٢٣٦١) وأبو داود (١٦٤٠) والدارمى (١٦٧٨) وابن خزيمة (٢٣٧٥) وابن حبان (٣٣٩٦) والدارقطنى (٢/ ١٢٠) والبيهقى (١٠/ ١١٤، ١١٨) والطبرانى فى "الكبير" (١٨/ ٣٧١) وابن أبى شيبة (٣/ ١٠٠) عن قبيصة رضى الله عنه.

(٢) انظر: أحكام القرآن لابن العربى (٢/ ٩٥٧).

[٨- ابن السبيل]

(وابن السبيل) : الصنف الثامن والأخير من مصارف الزكاة، وقد اتفقوا على أنه المنقطع عن بلده في سفر لا يتيسَّر له فيه شيء من ماله إن كان له مال، فهو غنيٌّ في بلده، فقير في سفره، وهذا من عناية الإسلام بالسياحة والضرب في الأرض، واشترطوا أن يكون سفره في طاعة أو في غير معصية على الأقل، واختلفوا في السفر للأمور المباحة كالتنزُّه، والأولى أن تدخل في المقصود هنا كذلك.

تلك هي فريضة الله تبارك وتعالى في المال افترضها لتكون تطهيراً للنفوس، وتأميناً للمجتمعات، وتوثيقًا للروابط، والله عليم بما يؤدي إلى ذلك، حكيم في أوامره ونواهيه وشرائعه.

[تعميم الصدقة على المصارف الثمانية]

وهل لا بد من تعميم الصدقة على الموجود من الأصناف الثمانية؟

قال الشافعي: نعم(١). وقال الجمهور: يجتهد ما أمكنه ذلك، وكُلّما عممها كان نفعها أعظم، ومثوبتها أجزل، والله أعلم.

*****

---

(١) انظر: المجموع للنووي (٦ / ١٨٥).

[من سخرية المنافقين بالنبى والدين](1)

﴿ ومنهم الذين يؤذون النبي ويقولون هو أذن قل أذن خير لكم يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين ورحمة للذين آمنوا منكم والذين يؤذون رسول الله لهم عذاب أليم (٦١) يحلفون بالله لكم ليرضوكم والله ورسوله أحق أن يرضوه إن كانوا مؤمنين (٦٢) ألم يعلموا أنه من يحادد الله ورسوله فأن له نار جهنم خالدا فيها ذلك الخزي العظيم (٦٣) يحذر المنافقون أن تنزل عليهم سورة تنبئهم بما في قلوبهم قل استهزءوا إن الله مخرج ما تحذرون (٦٤) ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزءون (٦٥) لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم إن نعف عن طائفة منكم نعذب طائفة بأنهم كانوا مجرمين ﴾ [التوبة : ٦٠-٦٦] .

بيَّنت السورة الكريمة فيما مضى طرفًا من أخلاق المنافقين، وتتعرض الآيات الكريمة بعد ذلك لطرف آخر من هذه الأخلاق .

فالمنافقون فى الدعوات، فى الجماعات، فى كل عصر ومكان من أخلاقهم : التشكيك فى القادة وتَلَمُّس العيوب والمطاعن للرؤساء حتى تتفكك وحدة الجماعة . وقد أشارت الآيات السابقة إلى مغمزهم الباطل للنبىّ ﷺ فى تصرُّفاته فى الصدقات، وتشير هذه الآية الكريمة إلى أن لمزهم هذا لم يقف عند انتقاد التصرفات، بل تعدى ذلك إلى انتقاد الأخلاق والطباع، فهم يحاولون أن يشيعوا أنه "أُذُن" أى كثير الاستماع وسريع التأثُّر بوشايات الواشين وأكاذيب المُتَمَلِّقين، شأنه فى ذلك شأن الرؤساء والمتعاظمين من أهل الدنيا .

روى السدى قال : اجتمع ناس من المنافقين فيهم جلاس بن سويد بن صامت ومخشن بن حمير ووديعة بن ثابت، فأرادوا أن يقعوا فى النبى ﷺ فنهى بعضهم بعضاً، وقالوا : نخاف أن يبلغ محمداً فيقع بكم . وقال بعضهم : إنما محمد أُذُن نحلف له فيصدقنا، فنزل : (ومنهم الذين يؤذون النبى) الآية .

---

(١) نشرت فى مجلة (الإخوان المسلمون) الأسبوعية فى العدد (١٩١) الصادر فى ٩ من جمادى الأولى سنة ١٣٦٧هـ - ٢٠ مارس سنة ١٩٤٨م.

وقد ردَّ القرآن عن الرسول ﷺ هذه التهمة تهمة الإصغاء إلى الأباطيل والتأثر بالوشايات، وقرر أنه ﷺ يستمع حقًا، ولكن إلى الخير عن الله تبارك وتعالى وعن المؤمنين، وان فى استماعه هذا رحمة للذين اظهروا الإيمان منهم، إذ إنه لو أخذ ينقب عن بواطن أمورهم، ويفتش عن دقائق أحوالهم، ولم يعاملهم بظواهر حالهم، لكان فى ذلك حَرَجٌ شديد عليهم، واستماعه هذا رحمة لهم ولا شك، والذين لا يدركون هذه الحقائق ويُصرُّون على إيذائه ﷺ بالأقوال الباطلة لهم عذابٌ اليم.

كما أن من أخلاق هؤلاء المنافقين: الجرأة على الأيْمان الباطلة والحلف الكاذب، فهم يدرءون عن أنفسهم بذلك، ويستجلبون به مرضاة الناس.

روى ابن أبى حاتم عن قتادة قال: ذكر لنا ان رجلاً من المنافقين قال فى شأن غزوة تبوك ـ الذين نزل فيهم ما نزل ـ: والله إن هؤلاء لخيارنا وأشرافنا وإن كان ما يقول محمد حقًا (يعنى نفسه) لهم شرٌ من الحُمُر[1]، فسمعها رجل من المسلمين فقال: والله إن ما يقول محمد لحق ولانت اشر من الحمار، وسعى بها الرجل إلى نبيِّ الله ﷺ فاخبره، فأرسل إلى الرجل فدعاه، فقال: ما حملك على الذى قلت؟ فجعل يلتعن (يلعن نفسه) ويحلف بالله: ما قال ذلك، وجعل الرجل المسلم يقول: اللهم صَدِّق الصادق وكَذِّب الكاذب، فانزل الله فى ذلك: (يحلفون بالله لكم ليرضوكم) الآية[2].

وأخرج ابن أبى حاتم عن السدى مثله، وسمى الرجل المسلم عامر بن قيس الأنصارى،

---

(١) قائل العبارة هو الجُلاس بن سويد. وقد تاب وحسنت توبته. انظر: الطبقات الكبرى لابن سعد (٤/ ٣٧٦).

(٢) رواه عبد الرزاق فى "المصنف (١٨٣٠٣) عن عروة بن الزبير. وعمير بن سعيد رضى الله عنهما. وقد ذكر ابن سعد ان اسمه: عمير بن سعيد، وذكر ابن حجر أن اسمه: عمير بن سعد. وعمير بن سعيد رضى الله عنه، امه امراة الجلاس بن سويد وعمير تربى يتيما فى حجر الجلاس، فسمعه يقول مقولته تلك، التى كانت سببًا فى نزول الآيات، فقال له عمير: اى عم، تُب إلى الله، واخبر عمير رسول الله بما قاله الجلاس، وكذَّب الجلاس عمير بن سعيد، فانزل الله هذه الآيات تبرئة لعمير وكان صغيرا فى السن، فقال له ﷺ: وَفَت أُذُنُك. انظر: "الإصابة" لابن حجر (٤/ ٧١٨) الترجمة رقم (٦٠٤٠) و"الطبقات الكبرى" لابن سعد (٤/ ٣٧٥، ٣٧٦).

وكان من الخير لهؤلاء أن يرضوا الله ورسوله فإن الناس لا يملكون لهم من الله شيئا والله خير وأبقى.

ووحدة الضمير في (يرضوه) إشارة إلى أن مرضاة رسول الله ﷺ مرضاة لله، لأنها تأييد لرسالته، وهي من عند الله عز وجل، وليس هنا تركيب آخر يعبر هذا المعنى أبداً إلا هذا التعبير البليغ، ﴿ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ ﴾ [التوبة: ٦٢] إن كانوا يعلمون الأمور على وجهها الصحيح، فإن أصروا على إيذائهم لرسول الله ﷺ، والاستتار بالأيمان الباطلة كانوا بذلك محاربين لله ولرسوله، واستحقوا بهذا نار جهنم خالدين فيها وذلك هو الخزي العظيم والخسران المبين.

والعجيب أن هؤلاء المنافقين كانوا يعلمون ويعتقدون أنّ محمداً يوحى إليه، ولا تخفى عليه من أمرهم خافية، فهم يحذرون أن يطّلع من أعمالهم وأقوالهم على ما يكره، ولكن تأصُّل الكفر والنفاق يتغلّب عليهم في كثير من الأحيان، فيخوضون فيما يحذرون الخوض فيه أملاً في التعلُّل بعد ذلك بالمعاذير، مستهزئين بالدعوة وصاحبها، ويحذّرهم من انكشاف أمرهم وافتضاح نفاقهم وكفرهم.

فنزلت الآيات الكريمة تصوّر أدقّ تصوير هذه الخوالج النفسية، وتكشف عن هذه المؤامرات الخفية العملية، وتتوعدهم بالفضيحة وسوء الجزاء، فذلك قوله تعالى: ﴿ يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ ﴾ [التوبة: ٦٤]، ومع ذلك يصرُّون على الهزء والسخرية ﴿ قُلِ اسْتَهْزِءُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴾ [التوبة: ٦٤]، فإذا انكشف أمرهم قالوا: ﴿ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ﴾ [التوبة: ٦٥]، مع أن الموضع موضع جدٍّ لا موضع لهو وعبث، ﴿ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴾ [التوبة: ٦٥].

ومن هنا سجَّل عليهم الوصف الذي ينطبق عليهم، والجزاء الذي يستحقونه، ورد عليهم اعتذارهم الواهي فقال: ﴿ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ﴾ [التوبة: ٦٦].

ولما كان فريق منهم قد تاب وحَسُنت توبته سجَّلت الآية الكريمة عفو الله عنهم، كما سجَّلت مؤاخذته للمُصرِّين على الجريمة منهم، وإن نعف عن طائفة منكم بتوبتهم، نعذِّب طائفة بأنهم كانوا مجرمين، وما زالوا على جريمتهم.

أخرج ابن المنذر وأبو الشيخ وابن أبي حاتم عن قتادة قال: "بينما رسول الله ﷺ في غزوته إلى تبوك، وبين يديه أناس من المنافقين فقالوا: أيرجو هذا الرجل أن يفتح الله له قصور الشام وحصونها هيهات هيهات، فأطلع الله نبيه على ذلك فقال النبي ﷺ: "احبسوا على هؤلاء الركب" فأتاهم فقال: قلتم كذا قلتم كذا، قالوا: يا نبي الله إنما كنا نخوض ونلعب، فأنزل الله فيهم ما تسمعون[1].

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: نزلت هذه الآية في رهط من المنافقين من بني عمرو بن عوف فيهم: وديعة بن ثابت، ورجل من أشجع حليف لهم يقال له: مُخَشِّن بن حُمَيِّر. كانوا يسيرون مع رسول الله ﷺ، وهو منطلق إلى تبوك فقال بعضهم لبعض: أتحسبون قتال بني الأصفر كقتال غيرهم؟ والله كأنَّا بكم غدا تقادون في الحبال. قال مُخَشِّن بن حُمَيِّر: لوددت أني أُقاضَى على أن يضرب كل رجل منكم مائة، على أن ننجو من أن ينزل فينا قرآن. فقال رسول الله ﷺ لعمار بن ياسر: "أدرك القوم فإنهم قد احترقوا فسلهم عما قالوا، فإن هم أنكروا وكتموا فقل: بلى قد قلتم كذا وكذا" فأدركهم فقال لهم، فجاءوا يعتذرون فأنزل الله: ﴿لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم إن نعف عن طائفة منكم﴾ الآية. فكان الذي عفا الله عنه: مخشن بن حمير، فتسمى عبد الرحمن، وسأل الله أن يقتل شهيدا لا يعلم بمقتله، فقتل باليمامة، لا يعلم بمقتله ولا من قتله ولا يرى له أثر ولا عين[2].

*****

(1) ذكره الزمخشري في "الكشاف" وقال ابن حجر في تخريجه: ذكره الواحدي عن قتادة بغير سنده، ووصله الطبري. انظر: الكشاف (2/286).

(2) انظر: سيرة ابن هشام (4/180).

عهــد[1]

﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١١١].

يوم أراد الله تبارك وتعالى أن يسعد الإنسانية، وأن يعم العالم برحمته، ويقدم للناس كافة أجمع نظام كامل يضمن لهم سعادة الدارين بعث إليهم رسوله ﷺ، وأنزل عليه كتابه ومنحه أستاذية الدنيا جميعًا، وجعل كل مسلم معه أو بعده ﷺ حارسًا على هذا الكنز، ووارثًا لهذه الأستاذية الكبرى، وقائمًا بحق هذه المهمة العظيمة.

فليس عجيبًا بعد ذلك أن يعقد الحقُّ تبارك وتعالى بينه وبين هؤلاء الحُرَّاس من المؤمنين ذلك العَقْد المُحْكَم، فيكون هو المشترى وهم البائعين السلعة والنفس والدم والروح، والجزاء: الجنة، وكيفية التسليم: جهاد فى سبيل الحق، وفناء فى أداء هذه الحراسة القدسية للكنز الثمين، وهل تؤدى مهمة المؤمن الحق بأقل من هذا الثمن، كتب هذا العقد المحكم على صفحات التوراة والإنجيل والقرآن، وشهد عليه عيسى وموسى ومحمد وجبريل [عليهم السلام]، وليس أحدٌ أوفى بعهده من الله. فما أربحها من تجارة، وما أجْزَلَه من ثواب، وما أقْدَسها من بشرى، ﴿فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١١١].

قالوا: إنَّ هذه الآية حين نزلت فرح بها عامة الصحابة فرحًا شديدًا، ووجد خاصَّتهم فى أنفسهم شيئًا إذ قالوا: أيشترى الله منا ما هو ملك له؟! وكيف يشترى المالك ملكه؟ أو قد غلب علينا العقوق حتى لا نسلِّم لله وديعته إلا بثمن، فما أعلى هذا المشهد وما أسمى هذا المقام.

[1] نشرت فى مجلة (جريدة الإخوان المسلمين) الأسبوعية فى العدد (٢٦) من السنة الرابعة الصادر فى ٢٠ من رجب سنة ١٣٥٥هـ - ٦ من أكتوبر سنة ١٩٣٦م.

قال محمد بن كعب القرظي : لما بايعت الأنصار رسول الله ﷺ ليلة العقبة بمكة، (وهم سبعون نفسًا أو اثنان وسبعون نفسًا وامرأتان) قال عبد الله بن رواحة : يا رسول الله اشْتَرِطْ لربك ولنفسك ما شئت . فقال : "أشترط لربي عز وجل : أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئًا . واشترط لنفسي : أن تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأموالكم . "قالوا : فإذا قلنا ذلك فما لنا؟ قال : الجنة، قالوا : ربح البيع، لا نقيل ولا نستقيل"[1] فنزلت الآية .

ترى في أية طريق ولا أية غاية يقدم المؤمن نفسه للقتل! لظلم وعدوان! لمال وملك وجاه! لاهتضام شعب، واحتلال أرض، وعبث بأمن، وانتقام لوهم، واعتزاز بجنس أو عصبية! اللهم لا لشيء من ذلك يتقدم المؤمنون إلى هذه الميادين، ولكن ليعلو الحق، ويسود العدل، وتخفق راية السلام، وتكون كلمة الله هي العليا، وليقولها خليفتهم داوية قوية جريئة ملء الأرض والسماء : متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارًا؟!

أيها المسلمون اليوم : إن نفوسكم ليست ملكًا لكم ومع هذا فقد اشتراها الله منكم . وإن مهمتكم وإيمانكم وعزتكم لا تكمل بغير إنفاذ هذا البيع وتسليم الأمانة مهما حاولتم . وإن الأمانة ستسلم طوعًا أو كرهًا : ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ [النساء : ٧٨] .

ولن يمنعها القعود من القتل إن كتب عليها، ولن يحدُوهَا الإقدام إليه إن منحها الله إيَّاه، ففيم القعود إذن؟

ليت شعْرِي أي جزاء سيقدمه (موسوليني) لجنود الفاشستية؟ لعله قطعة من طرابلس المهضومة، أو من سهول الحبشة حيث يذوق أهلها مُرَّ العذاب، وينعم بعذابهم الفاتحون .

ولَيْتَ شعري أي جزاء سيقدِّمه (هتلر) لجنود النازية؟ لعله يمنيهم اليوم بالكاميرون وذهبها، أو بإفريقية الشرقية ومطاطها وغاباتها .

ولَيْتَ شعرى أى جزاء يمنى به (ستالين) جنودَ البلاشفة الحمر؟ وأظنهم سيقتسمون أنقاض الحمراء[1] أو قصر طليطلة بأسبانيا!

أيها المسلمون اليوم: أين هذا الجزاء مما أعده الله لجنود الإسلام الفضلاء من جنة عرضها السماوات والأرض، أُكُلها دائم وظلها تلك عقبى الذين اتقوا وعقبى الكافرين النار.

أبعد هذا أيها المسلمون يغلبكم القوم بعسكرية طائشة على هذه العسكرية الفاضلة، حياكم الله يا أبطال فلسطين وأحيا فى المسلمين جميعا هممًا كهممكم[2].

*****

(١) يشير الإمام البنا إلى قصور الحمراء بالأندلس (أسبانيا حاليا)، تلك القصور التى تدل على أن العرب كانوا أصحاب حضارة، وستظل هذه القصور شاهدا على حضارة الإسلام فى تلك البلاد. وانظر للتعرف على هذه القصور : (حضارة العرب) لجوستاف لوبون.

(٢) كان هذا المقال قد تزامن مع قيام الانتفاضة فى فلسطين، وهى الانتفاضة الأولى على يد الشيخ المجاهد عز الدين القسام رحمه الله، وقد كتب الإمام الشهيد عدة مقالات تؤيد أهل فلسطين، وهذه واحدة من مقالاته، والأخرى فى مجلة النذير تحت عنوان (صناعة الموت).

أين هؤلاء الذين عاهدوا الله؟(1)

﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١١٢].

قد علمت نبأ العهد الوثيق بين الحق تبارك وتعالى وبين عباده المؤمنين أن يبيعوه أنفسهم وأموالهم جهادًا في سبيله، وعملاً لنصرة شريعته، وأن يجزيهم بذلك الجنة. وعلمت أنه تبارك وتعالى قد بشر الأوفياء بهذا البيع الرابح فقال تبارك وتعالى: ﴿فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١١١].

إذ أردت أن تعرف صفات هؤلاء "الأوفياء" من المؤمنين فتأمل هذه الصورة الرائعة من صور الكمال البشري واسمع.

«التائبون» وإنما التوبة رجوعٌ إلى الحق يمليه الحس الدقيق، ويدفع إليه الشعور الحي اليقظ.

وبدقة الحس ورقة الشعور تظهر مزايا الإنسانية في الإنسان، وهل هناك صفة أنبل في النفس الإنسانية من صفة العدالة والإنصاف فيكون منها لها حارسا أمينا ومرشدا حكيمًا، يزعها عن النقائص ويكشف لها عن مساويها فتندم وتهب مسرعة نحو الكمال. إذن ليس المقصود بالتوبة هذه الكلمات التي تلوكها الألسنة، وليس المراد بالتائبين من يكثرون قول هذه الكلمات، بل المراد أولئك الذين كملت في نفوسهم معاني الإنسانية السامية، فاتصفوا بالعدالة والإنصاف، وكان أول مظاهرها عندهم أن يحاسبوا أنفسهم.

«العابدون» فإذا رقي هذا الشعور النبيل في النفس كشف لها عن كثير من حقائق الكون فعرفت الكون من حولها، وعرفت نفسها، وعرفت خالقها، فقدرت عظمته،

(1) نشرت في مجلة (جريدة الإخوان المسلمين) الأسبوعية في العدد (٢٨) من السنة الرابعة الصادر في ٢٨ من شعبان سنة ١٣٥٥هـ - ٣٠ من أكتوبر سنة ١٩٣٦م.

واتَّصلت به فاكثرت من خشيته، واتَّصفت بالعبودية الصحيحة له، والعبودية يا فتى ارقى منازل الوصول إلى الله، واقدس مراتب القرب:

لا تدعني إلا بيا عبدها فإنه أشرف أسمائي

وبقدر اتصافك بأوصاف عبوديتك يتفضَّل عليك ربُّك بفيض من كرم ربوبيته: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة:١٨٦].

اولست ترى أيها العاقل أن التوبة وهى مظهر الإنصاف أنجبت حُكْمًا عادلا هو تحقق العبد بعبوديته.

(الحامدون) ووصول العبد إلى هذه المنزلة يُشعره بعظيم فضل الله عليه وكبير نعمائه لديه، فيلهج بالحمد، ويكثر من الثناء، ومَنْ أولى بهذين الامرين من وليّ النعمة.

(السائحون) فإذا حملت هذا الوصف على الصيام فهو تجرُّد عن المادة لعذوبة متعة الروح، وإذا حملت على السياحة فهو تفكر فى مظاهر الكون أنتجه الشعور بجمال المكوِّن وعظيم نعمته، وكلاهما - كما ترى - حمد عميق وشكر فائق، ونعمة الله بعد ذلك أجزل، وهل هذان إلا من نعمه؟

(الراكعون الساجدون) والركوع مظهر التعظيم، والسجود أقرب القُرَب، فإذا رَقَت الروح بالصوم، أو رَقَّت بالفكر فقد أعظمت ما وصلت إليه، فعبرت عن علمها هذا الجديد وشعورها الفائض بالصلاة، ولأمرٍ ما كانت الصلاة قرة عين سيد الشاكرين ﷺ.

(الآمرون بالمعروف) وإذا وصلت النفس إلى هذا الشعور الجميل، وأنست بذلك المقام السامى أرادت أن تُشرك غيرها فى هذا الخير، وأن تفيض على سواها من مظاهر الإمداد الروحى، فامرت بالمعروف وقادت الناس: أن هلموا إلى ذلك الجناب.

(والناهون عن المنكر) وهى ترى أنه لا يمنع الناس أن يتوبوا ويستغفروا إلا شهوات زائفة ومعاصٍ حقيرة فهى تنهاهم أبدا عن المنكر، وتبيِّن لهم ضرر الخطيئة لو كانوا يعقلون.

(والحافظون لحدود الله) وهى فى ذلك كله فى توبتها وعبادتها وحمدها وسياحتها

وركوعها وسجودها وامرها ونهيها وصلتها بربها وبخلقه، تحفظ حدود الله، ولا تخرج عما شرَع لعباده، وتتخذ من تعاليمه سِياجًا مَنيعًا ومرشداً حكيمًا تحفظه ولا تتخطاه وتسير عليه ولا تتعداه.

بربك يا أخى أليس هؤلاء لهم البشرى؟ أو ليس هؤلاء خلاصة المؤمنين؟ أو ليس هؤلاء نماذج الكمال التى ينشدها الفلاسفة فلا يجدونها إلا فى بطون الكون؟ إنهم كذلك. فاين هم الآن؟!

*****

سورة الرعد

تفسير القرآن الحكيم

سورة الرعد

تفسير سلفى أثرى مدنى عصرى إرشادى اجتماعى سياسى(1)

بهذه الأوصاف قدم السيد محمد رشيد رضا رحمه الله تفسير المنار، كما كان يقدِّمه بأنه التفسير الذى فسَّر به القرآن من حيث هو هداية عامة للبشر ورحمة للعالمين، جامع لأصول العمران وسنن الاجتماع، وموافق لمصلحة الناس فى كل زمان بانطباق عقائده على العقل، وآدابه على الفطرة، وأحكامه على درء المفاسد وحفظ المصالح.

ولقد بدأ هذا التفسير حكيم الإسلام الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده، على هيئة دروس يلقيها فى الأزهر على نخبة من خيرة الطلاب، وكان تلميذه السيد رشيد يلخِّص ما يسمع من هذه الدروس وينشر هذه الملخصات تباعًا فى المنار، ثم استقلَّ بعد ذلك بالتفسير مُسترْشداً بطريقة أستاذه، مجتهداً أن يكون تفسيره للقرآن الكريم محقِّقًا لهذه الأوصاف التى صَدَّرَه بها، حتى وصل إلى قوله تعالى: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١] فكانت آخر آية كتب فيها ثم أدركته الوفاة(2).

ولقد أتم الأستاذ السلفى المحقق الشيخ بهجة البيطار فى الجزأين اللذين صدرا بعد وفاة صاحب المنار بقية سورة يوسف، وتوقفت المجلة عن الصدور، حتى تعرضت للنهوض بهذا العبء جماعة الإخوان المسلمين، وانتدبنى أعضاء مكتب الإرشاد العام لكتابة التفسير مع رياسة التحرير، فلم أر بدا من النزول على حكمهم والامتثال لرأيهم، احترامًا للجماعة وإيثاراً للطاعة، رغم المشاغل الكثيرة، والأعمال المتراكمة، سأكتب التفسير فى المنار مستمداً من الله تعالى الحَوْل والقوة.

[خصائص هذا التفسير]

وسأحاول أن يكون فى هذه الحدود المرسومة:

(1) نشر فى مجلة المنار فى الجزء الخامس والثلاثين الصادر فى غرة جمادى الآخرة سنة ١٣٥٨هـ - ١٨ من يوليه سنة ١٩٣٩م.

(2) وعدت وفاة الشيخ رشيد رضا عند هذه الآية من كراماته رحمه الله.

سلفيًا : يتّجه القصد فيه أول ما يتّجه إلى استجلاء روح القرآن واستطلاع مقاصده، في بُعْدٍ عن المُمَاحَكَة اللفظية، والمجادلة الشكلية الصناعية، كما كان يفهم السلف رضوان الله عليهم كتاب الله.

أثريًا : يستمدُّ من هذه الثروة المباركة التى تركها لنا الرواة الصادقون عن رسول الله ﷺ وعن صحابته الأكرمين ومن تبعهم بإحسان.

مدنيًا : يربط قواعد الحضارة الإسلامية التى وضعها القرآن الكريم بالأصول الصالحة لهذه المدنية الحديثة، ويبيِّن فضل الأصول القرآنية على ما ابتدع الناس لأنفسهم من أصول جرَّت عليهم الشقاء والوبال. فليست مدنية هذا العصر شرًّا كلها، وليست خيرًا كلها كذلك، والقرآن الكريم خيرٌ كله فعلى ضوئه نتبيَّن الصالح من نظم الاجتماع وغير الصالح.

عصريًا : يصل روح القرآن الخالد بروح هذا العصر، ويقرب فكرة القرآن المُشْرِقَة إلى العقل العصرى، فى أسلوب قريب المأخذ سريع الإفادة.

اجتماعيًا : يعرض لمشكلات[1] الاجتماع وأصوله النافعة، ويبيِّن حلولها وصلاحيتها كما جاءت من لَدُن الحكيم الخبير.

سياسيًا : يصوِّر الأمة المسلمة المثالية والأمة المسلمة الحالية، ويكشف عن الفرق بين الحالين، ثم يشخِّص الداء، ويصف الدواء للحاكم والمحكوم على السواء.

على هذه الأصول سأكتب تفسير المنار إن شاء الله، فإن وُفِّقتُ : فمن الله وهو وليُّ التوفيق، وإن كانت الأخرى : فحسبى أن حاولت أداء الواجب واجتهدت فى تحرِّى الفائدة، ورجائى إلى القرَّاء الكرام : أن يتكرَّموا ببيان ما يبدو لهم من ملاحظات حتى نتعاون جميعًا على الوصول إلى الكمال الممكن، والله حسبنا ونعم الوكيل.

*****

(١) كتبها الإمام فى المقال «مشاكل» والصواب ما اثبته، لزن مفردها مُشْكلة، على وزن مُفْعلة. فيكون جمعها مُشْكلات لا مشاكِل.

«سورة الرعد»(١)

يرى بعض العلماء أن من حرمة القرآن وتوقيره ألا يقال: سورة النحل، وسورة الرعد، وسورة البقرة الخ. ولكن يقال: السورة التى يذكر فيها النحل، والسورة التى يذكر فيها الرعد وهكذا(٢). ولقد جرى على ذلك شيخ المفسرين الطبرى فعنون لهذه السورة فى تفسيره بقوله: «أول السورة التى يذكر فيها الرعد»(٣).

وقد رد القرطبى على من قال بهذا الرأى فقال: هذا يعارضه قوله ﷺ: «والآيتان من آخر سورة البقرة: من قرأ بهما فى كل ليلة كفتاه» أخرجه البخارى ومسلم من حديث أبى مسعود(٤). ولعل هذا هو الأقرب إلى سماحة الإسلام وابتعاده عن التعقيد الشكلى(٥)، وفى اللغة والمجاز مندوحة.

---

(١) يلاحظ أن الإمام الشهيد حسن البنا رحمه الله بدأ باب التفسير فى مجلة (المنار) بسورة الرعد، ولم يبدأ بسورة الفاتحة، وذلك لحكمة بينها الشيخ محمد الغزالى - رحمه الله - إذ يقول: «قال لى الأستاذ حسن البنا عليه الرضوان: إنه تناقش مع الشيخ رشيد فى إحدى القضايا الفقهية، واتسعت مسافة الخلاف بينهما، ولم يصلا إلى وفاق.

ثم رأيت الأستاذ البنا يصدر صحيفة الشهاب (هى المنار وليست الشهاب، وقد خانت شيخنا الغزالى ذاكرته فى ذلك) وبدأ فيها باب التفسير، فإذا هو يستفتح بسورة الرعد! قلت له: لم هذا البدء؟ قال: من حيث انتهى الشيخ الكبير محمد رشيد رضا.

قلت (أى الشيخ الغزالى) فى نفسى: «لا يعرف الرجال إلا الرجال». انظر: «علل وادوية» للإمام المرحوم الشيخ محمد الغزالى ص١١١ طبعة مؤسسة دار العلوم بالدوحة. الطبعة الأولى. وص١٢٣ طبعة دار القلم دمشق.

(٢) استدل القائلون بهذا الرأى بما روى عن أنس مرفوعاً: «لا تقولوا سورة البقرة ولا سورة آل عمران ولا سورة النساء، وكذلك القرآن كله، ولكن قولوا: السورة التى يذكر فيها البقرة، والتى يذكر فيها آل عمران، وكذلك القرآن كله» رواه الطبرانى فى «الأوسط» وقال الهيثمى: فيه عبيس بن ميمون وهو متروك. انظر: مجمع الزوائد (٧/١٥٧). وقال ابن كثير: لا يصح رافعه. وقال البيهقى: إنما يعرف موقوفاً على ابن عمر. انظر: التحبير فى علم التفسير للسيوطى ص٦٣٣، ٦٣٤.

(٣) انظر: تفسير الطبرى (٧/٣٢٦).

(٤) رواه أحمد (٥/٩٦، ١٠٠، ١٠١) والبخارى (٤٠٠٨) و(٥٠٤٠) ومسلم (٨٠٧) والترمذى (٢٨٨١) وأبو داود (١٣٩٧) وابن ماجه (١٣٦٨) والدارمى (١٤٨٧) و(٣٣٨٨) عن أبى مسعود البدرى الأنصارى. وقد أخطأ الإمام البنا فى ذكر راوى الحديث فذكر أن راويه: عبد الله بن مسعود، والصواب ما أثبته.

(٥) بل هو الأرجح لما ورد فى السنة من ذكر أسماء هذه السور باسمها دون تحرج، ولله در الإمام البخارى الذى ذكر فى كتاب (فضائل القرآن) باباً عنوانه بـ(باب من لم ير بأساً أن يقول: سورة البقرة وسورة كذا وكذا).

مكان النزول:

قال ابن الجوزى: اختلفوا فى نزولها على قولين:

أحدهما: أنها مكية، رواه أبوطلحة عن ابن عباس، وبه قال الحسن، وسعيد بن جبير، وعطاء، وقتادة. وروى أبوصالح عن ابن عباس أنها مكية، إلا آيتين إحداهما: قوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ﴾ [الرعد: ٣١] والأخرى قوله تعالي: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا﴾ [الرعد: ٤٣].

والقول الثانى: أنها مدنية، رواه عطاء الخراسانى عن ابن عباس، وبه قال جابر بن زيد. وروى عن ابن عباس أنها مدنية، إلا آيتين نزلتا بمكة، وهما قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ....﴾ [الرعد: ٣١][1].

وقال آخرون: المدنى منها قوله: ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ﴾ [الرعد: ١٢]، إلى قوله: ﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ﴾ [الرعد: ١٤]، وقال آخرون: نزلت آية منها بالجحفة وهى قوله تعالي: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي﴾ [الرعد: ٣٠].

وتكاد الطبعات فى المصاحف تجمع على أنها مدنية نزلت بعد سورة محمد ﷺ.

ويلاحظ اضطراب الروايات عن ابن عباس رضى الله عنهما فى تحديد المكى والمدنى منها، ولعل ذلك من اشتباه الأمر على الرواة.

[ترجيح أنها مكية]

والذى يتفق مع القواعد العامة فى تعرف المكى والمدنى: أن معظم هذه السورة الكريمة مكى، فقد جعل العلماء من علامات المكى غالبًا[2]: أنه يتعرض للعقائد وأدلتها، من النظر فى الكون، واستجلاء عجائب صنع الله فيه؛ مع الزجر والوعيد، وبيان جزاء المخالفين والمؤمنين، لأن ذلك هو الموافق لحال المخاطبين من الكفار والمشركين.

أما المدنى: فغالبه تقص فيه الأحكام التفصيلية من عبادات ومعاملات وغيرها.

---

(١) انظر: زاد المسير لابن الجوزى (٤ / ٢٩٩).

(٢) يلاحظ ان الإمام البنا ذكر علامات المكى والمدنى وقال: غالبًا، وهذا يدل على حنكته رحمه الله، وعدم تورطه بالجزم بهذه العلامات، فقد لا تستقيم هذه الشروط دائمًا فى المكى والمدنى، ولذا ذيل كلامه بقوله: غالبًا.

وايضاً فمن علامات المكى: أن يغلب فيه الخطاب والتعبير بـ (يا أيها الناس) ونحوها من الفاظ العموم، على حين أن الخطاب والتعبير يغلب فى المدنى أن يكون بـ (ياأيها الذين آمنوا) ونحوها.

والناظر فى مقاصد السورة الكريمة يراها بحال المكيين وموقفهم أخلق، فنحن نرجح القول بمكية معظمها، والله أعلم.

[عدد آيات السورة]

وعدد آياتها: ثلاث وأربعون عند الكوفيين، وخمس وأربعون عند الشاميين. والسبب فى ذلك: اختلافهم فى أن الآية الاولى: ﴿الٓمٓر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ﴾، أو أن (المر) وحدها آية، و(تلك آيات الكتاب) آية ثانية، وما بقى بعد ذلك آية ثالثة، فعلى الأول هى ثلاث وأربعون، وعلى الثانى هى خمس وأربعون مع الاتفاق على جواز الوقف، بل على استحسانه فى كل موضع من هذه المواضع.

المقاصد العامة فى السورة:

عرضت السورة الكريمة لتقرير عظمة الخالق، وإثبات المعاد، والرد على منكريه مع التقديم لذلك بعرض الأدلة من ظواهر هذا الكون العجيب، والتقفية[1] بضرب الأمثلة الرائعة لكل من الحق والباطل.

ثم عرضت بعد ذلك لقسمى المؤمنين والمخالفين، وأوصاف كل منهما، والأخلاق التى تبنتها فى نفسه العقيدة وتنميها، وجزاء كل من الفريقين فى الدنيا والآخرة، ثم تثبيت الرسول ﷺ وارتقاب يوم الفصل الذى يعلم فيه الجاحدون لمن عقبى الدار.

وتستطيع أن تجمل هذه المقاصد السامية فى أنها: إثبات التوحيد والمعاد، وبيان ما ينتج من الإيمان بهما من أخلاق فاضلة وجزاء حسن كريم، والمقابلة بين ذلك وضده كما هى عادة القرآن.

---

(١) التقفية أى المتابعة: انظر: مختار الصحاح ص٥٤٧

المناسبة بين هذه السورة الكريمة وما قبلها:

وتستطيع من ذلك أن تلمس المناسبة بين هذ السورة وبين السورة التى قبلها، ففى السورة التى قبلها أجمل يوسف عليه السلام عقيدة التوحيد فى قوله: ﴿ يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ [يوسف: ٣٩]، وفى هذه السورة أفاض فى بيان هذه العقيدة وتدعيمها بالأمثلة الواضحة والبراهين والأدلة.

وفى السورة التى قبلها تناول بالتحليل نفوس إخوة يوسف، وما استولى عليها من أخلاق إذ ذلك دفعتهم إلى ما فعلوا بأخيهم، ثم ما كان بعد ذلك من توبتهم ومسامحته إياهم واستغفار أبيهم لهم، وفى هذه بسط لأخلاق المؤمنين كالتأكيد لما ذكر هنالك والتبيين له.

وفى سورة يوسف أجمل الإشارة إلى ما فى الكون من روائع الآيات، وإن أعرض الناس عنها، ولم يكلفوا أنفسهم عناء النظر فيها، فذلك قوله تعالي: ﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴾ [يوسف: ١٠٥]، وفى هذه السورة الكريمة تناول هذا الإجمال بالتفصيل المبين، فذكر من آيات الله فى السماء والأرض، والشمس والقمر، والليل والنهار، والماء والنبات، والرعد والبرق إلخ ما يلفت الأبصار الزائغة، ويسترعى الأفئدة الغافلة المعرضة.

ولما كانت سورة يوسف قد تناولت بالبيان والتفصيل ما كان من جدود اليهود والنصارى وهم أبناء يعقوب بالنسبة لأخيهم، ثم ختمت بأن فى قصص هؤلاء وغيرهم من أنبياء الله الذين قص الله من نبئهم على رسوله عبرة لأولى الألباب، وكان ذلك مظنة اعتراض من اليهود على عادتهم فى التحريف والعناد، جاءت فاتحة سورة الرعد مؤكدة لكل هذه المعانى، فذلك قوله تعالي: ﴿ وَالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ ﴾ [الرعد: ١]، وبذلك ينقطع عليهم سبيل الاعتراض ويتقرر المعنى فى نفس القارئ والسامع.

ولما كان ختام سورة يوسف قد عرض لحقيقة الدعوة القرآنية وسبيلها فى قوله تعالى: ﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ﴾ [يوسف: ١٠٨] مع بيان أن

هذه الدعوة ليست بدعًا من دعوات المرسلين، ولا مخالفة لما جاؤوا به، وكانت المناسبة تامة بين السورتين، فقد جاء كذلك فى ختام سورة الرعد عرض لهذه الدعوة الكريمة فى قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبِ ﴾ [الرعد: ٣٦]، ثم ذكر بعدها طرفًا من شئون المرسلين من قبل لبيان أن محمدًا ﷺ لم يكن فى أحواله بدعًا منهم فقال: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً ﴾ [الرعد: ٣٨]، وإذا نظرنا إلى سورة يوسف كلها وأنها جاءت تفصيلاً لما وقع من ذرية يعقوب وأبنائه عليه السلام، رأينا أن ورود هذه الآية الكريمة فى سورة الرعد إجمال فى الدليل يتكئ على ذلك، وسيأتى التفصيل فالمناسبة تامة ولا شك.

وثم وجوه أخرى من المناسبات يطول بنا الأمر إذا أردنا أن نتقصاها، وسيأتى بعضها خلال التفسير إن شاء الله(١).

*****

(١) هذا الربط بين السورة وما قبلها مبنى على القول بالوحدة الموضوعية بين السور، وبين أوائل السورة وخواتيم ما قبلها، وهناك وحدة موضوعية فى السورة الواحدة أيضًا، ولعل الإمام الشهيد قد استفاد من كتاب (نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور) للبقاعى. ولمزيد من التفصيل حول هذه المسألة يراجع: (النبأ العظيم) لمحمد عبد الله دراز، و(الوحدة الموضوعية فى القرآن الكريم) لمحمد محمود حجازى، و(الأساس فى التفسير) لسعيد حوى.

[أحقية القرآن]

﴿ الٓمٓر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ ﴾ [الرعد : ١].

حروف الفواتح:

(المر) الكلام فى فواتح السور بهذه الحروف الكريمة تقدم مسهبًا، واختار صاحب المنار فى ذلك أنها أسماء للسور[1]، وقد يعترض على هذا القول بأن ذلك يتجه لو لم يكن لهذه السور أسماء، أما وقد سميت بعد ذلك فما الحكمة فى تعدد التسمية؟.

وقد أشار الحافظ ابن كثير إلى أن كل سورة تفتتح بمثل هذه الحروف ففيها الانتصار للقرآن وبيان أحقيته، مما يدل على أن المقصود بها لفت النظر إلى اختصاصه بالإعجاز مع أنه مركب من جنس هذه الحروف التى تفتتح بها السور. ومن طرائفه فى ذلك أنه نقل عن بعضهم: أن مجموع حروف الفواتح فى القرآن أربعة عشر حرفًا يجمعها قولك: «نص حكيم قاطع له سر»[2] ولاشك أنه استئناس طريف ولكن غير مقصود طبعًا.

وقد قيل فى تأكيد المعنى الأول - وهو أن هذه الحروف فى فواتح السور للإشارة إلى الإعجاز -: أنك لو أنعمت النظر فى حروف كل سورة من السور التى تفتتح بالحروف المتقطعة لوجدت حروف الافتتاح أكثر الحروف دورانًا فيها، وعلى هذا القول نستطيع أن نفهم حكمة اختلاف هذه الفواتح، فهى أحيانًا الم فقط، وأحيانًا (المص)، وأحياناً (الر)، وأحيانًا (المر)، وتتضح لك بهذا حكمة زيادة الميم فى فاتحة الرعد بخلاف ما قبلها وما بعدها.

ونقل عن ابن عباس أن الحكمة فى زيادة الميم فى هذه الفاتحة: أن معنى الفواتح السابقة فى (الر) فقد أنا الله أرى، وأما فى هذه فمعناها أنا الله أعلم وأرى بزيادة أعلم على ما نقل عن ابن عباس فى أن هذه الحروف أجزات عن كلمات[3]، والقول الأول أوضح وأبين.

ومما يعجبنى فى حكمة افتتاح السور بهذه الحروف ما أشار إليه الحافظ ابن كثير: أن المراد التحدى بنفس هذه الحروف وبيان ذلك: أن المعلوم لدى قريش ومن جاورها، بل

---

(١) انظر: تفسير المنار (٨/ ٢٩٦ - ٣٠٣).

(٢) انظر: تفسير ابن كثير (١/ ٣٦).

(٣) انظر: زاد المسير (٤ / ٣٠٠).

لدى كل من عرف النبى ﷺ واتصل به: أنه أمى لم يقرأ ولم يكتب، فحين يفاجأ الناس باستفتاح كهذا فى أول تلاوته للقرآن فهو بلا شك سيسترعى التفاتهم لما يقرأ من جهة، وسيحملهم على التفكير فى مصدر هذا العلم الجديد الذى طلع عليهم من جهة أخرى، والتفكير سلم الهداية، وأول خطوات الإيمان الصحيح، ثم نقول بعد هذا: والله أعلم بمراده بذلك كما كان يقول سلفنا رضوان الله عليهم[1]

[صفات آيات القرآن الكريم]

(**تلك آيات الكتاب والذى أنزل إليك من ربك الحق**) إشارة إلى آيات القرآن الكريم، وتأكيد لمعنى أحقيته ونزوله من عند الله تبارك وتعالى، وأنه لاشك فيه ولا مرية.

إنه تبارك وتعالى لما أشار فى سورة يوسف إلى القرآن الكريم، وبين أنه سيقص على نبيه فيه أحسن القصص، ثم ختم السورة بأن هذه القصص القرآنية عبرة لأولى الألباب، وتصديق لما بين يديها من الكتب السماوية السابقة والشرائع الإلهية الماضية، وهى بعد ذلك كله تفصيل كل شىء ينفع الناس فى دينهم ودنياهم، وهى كذلك هدى ورحمة لقوم يؤمنون بها ويصدقون. لما تقدم ذلك فى فاتحة السورة وختامها أكد ذلك المعنى فى فاتحة هذه السورة فقال: تلك آيات الكتاب بخصائصها وروعتها وصفاتها النافعة الجليلة التى تقدمت، وهى حق من عند الله لا شك فيه ولا مرية.

[القلة والكثرة فى القرآن]

(**ولكن أكثر الناس لا يؤمنون**) لما ذكر فى الآية السابقة صفات هذه الآيات وأنها عبرة وتصديق وتفصيل وهداية ورحمة، ختم ذلك بأن الذى يستفيد هذه الفوائد جميعًا إنما هم المؤمنون المصدقون، وقد ورد أنه ما جلس أحد إلى القرآن إلا زاد أو نقص، فإن كان مؤمنًا زاد إيمانًا وهدى، وإن كان غير ذلك نقص ﴿**وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا**﴾ [الإسراء: ٨٢][2].

---

(١) ما ذهب إليه الإمام هنا من قوله: والله أعلم بمراده هو الأسلم، وهو ما كان يختاره كثير من السلف رضوان الله عليهم.

(٢) ومن الآيات التى تبين أن القرآن يزيد أناسًا إيمانًا ويزيد آخرين رجسًا وضلالة قوله تعالى: ﴿**وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (١٢٤) وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ**﴾ [التوبة: ١٢٤، ١٢٥].

لما ذكر ذلك قرر فى هذه الآية ناموسًا اجتماعيًا: وهو أن أكثر الناس لا يؤمنون، وقد تكرر هذا المعنى كثيرًا فى القرآن الكريم، وقلما تذكر الكثرة إلا ومعها الضلالة والإعراض، وقلما تذكر القلة إلا ومعها الهداية والنور والإنتاج، وتأمل ذلك فى قوله تعالى: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣]، ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الأنعام: ١١٦]، ﴿وَلا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٧]، ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ٢٤٣]، ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا﴾ [التوبة: ٢٥]، إلى جانب قوله تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣]، ﴿إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ [ص: ٢٤]، ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ(١)﴾ [آل عمران: ١٢٣]، ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٩] الخ، تجد ذلك يكاد يكون مطردًا، وأنت إذا طالعت مصداق ذلك فى شؤون الناس وأحوال الدعوات وجدته صحيحًا مطردًا، فما من دعوة حق إلا كان أهلها قلائل بالنسبة لمن يناوئها من أهل الباطل والدهماء، ولكنك إلى جانب هذا تجد أن الغلبة دائمًا للقلة المحقة والنصر دائمًا إلى جانبها. وبذلك يتضح لك وجه الجمع بين ما سبق من وعد الله لدينه أن يظهره على الدين كله مع تقرير أن أكثر الناس لا يؤمنون الإيمان الكامل الحق، ولو مع الحرص على ذلك، ومن ذلك تعلم أن قول ذلك العربى: «وإنما العزة للكاثر» لا يتمشى إلا إذا تساوت الفئتان فى غير العدد من وسائل القوة وزادت إحداهما الكثرة، أما إذا تميز أهل الحق من أهل الباطل: فقد كتب الله الغلبة للمحقين مهما كان عدد خصومهم كثيرًا، ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧].

[لماذا ينصرف أكثر الناس عن الإيمان؟]

والسر فى انصراف أكثر الناس عن الإيمان: أن الإنسان تتجاذبه قوتان تحاول كل منهما أن تتغلب عليه وأن توجهه وجهتها: قوة الخير التى يؤازرها العقل؛ ويرشدها الوحى؛ ويقويها العمل الصالح، وقوة الشر التى تمدها الشهوات؛ ويزينها الشيطان؛ ويقود إليها الهوى؛ وتغرى بها زخارف المادة وأعراض الحياة الدنيا ولذائذها، وتزداد ضراوة بالمعاصى والمخالفات.

---

(١) أذلة: أى قلة.

ولما كان العقل والوحى وما إليهما من عالم النفس السامية الفاضلة، وكانت الشهوات والأهواء والزخارف المادية من عالم هذا الحس، وكان الإنسان ما دام فى حياته الدنيا فهو إلى الحس أقرب وبه ألصق، ولا يقوى على مقاومة هذه الدوافع إلى الشرع إلا بتوفيق ربانى، وإرادة قوية، ومجاهدة دائمة، وعزيمة صادقة، وهو ما يشق على أكثر النفوس. من هنا كان أكثر النوع الإنسانى ماديًا دنيويًا إلا القليل الذى ملك عنان نفسه، وقوى على التصرف فى عوالم حسه، واستعان بطاعة الله على تثبيت هذا الإيمان الكريم وسلوك هذا المسلك القويم، وتأمل الإشارة إلى ذلك فى قول الله تعالى: ﴿ إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا الْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ ﴾ [المعارج: ١٩ - ٢٣]، وتأمل دوران هذا المعنى فى كثير من الآيات التى ورد فيها ذكر الإنسان.

وانظر كيف أن صوارف الحس ونوازع النفس وتعلق الروح بالمادة لا تزال تحاول أن تصرف الإنسان عن إيمانه لأقل المناسبات حتى بعد أن تثبت العقيدة وترسخ، وانظر مصداق ذلك فى الآية الكريمة: ﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَّهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٣٨، ١٣٩]، وإلى ما كان من بعض أصحاب النبى ﷺ فى غزوة حنين، حينما مروا بشجرة للمشركين كانوا يعلقون عليها أسلحتهم يقال لها: ذات أنواط، فقالوا: يارسول الله اجعل لنا ذات أنواط، كما لهم ذات أنواط. فقال رسول الله ﷺ: «سبحان الله! هذا كما قال قوم موسى: اجعل لنا إلها كما لهم آلهة، والذى نفسى بيده: لتركبن سنن من قبلكم» رواه الترمذى عن أبى واقد الليثى رضى الله عنه(١).

تأمل ذلك كله لتعلم صدق هذا الناموس الخالد: ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [هود: ١٧] وليس معنى أنهم لا يؤمنون أن يكونوا جميعًا كفارًا ولا شك، بل يدخل معنى الآية: أن من الناس من لا يؤمنون لا ظاهرًا ولا باطنًا، وهم الكفار على اختلاف

---

(١) رواه أحمد (٦ / ٢٨٥، ٢٨٦) والترمذى برقم (٢١٨٠) عن ابى واقد الليثى رضى الله عنه وقال: حسن صحيح. واسم ابى واقد: الحارث بن عوف. وصححه الألبانى فى «صحيح الترمذى» (١٧٧١).

انواعهم من وثنيين وكتابيين وملاحدة وزنادقة الخ، ومنهم من يؤمن ظاهرًا ولا يؤمن قلبه كالمنافقين، ومنهم من يؤمن لفظًا ولا يؤمن عملاً كالعصاة المسلمين، ومنهم من لا يتحقق بصفات أهل الإيمان الباطنة، مع قيامه باعمالهم الظاهرة فيكون ناقص الإيمان، ومنهم من يتردد بين الشك والإيمان وهكذا.

[إرشاد القرآن أصحاب الدعوات إلى أهمية الكيف لا الكم]

والحكمة في تقرير هذا الناموس فى كتاب الله تبارك وتعالى أمور:

(منها) بيان أن الحق لا يعرف بالرجال، بل الحق حق فى نفسه مهما قل تابعوه وكثر مخالفوه، فعلى الناس ان يتلمسوا الحق فى البحث الصحيح، والنظر الصادق، والدليل القوى، والبرهان المقنع، بغير نظر إلى ما سوى ذلك من كثرة الاتباع عددًا أو جاهًا او قلتهم.

(ومنها) تعزية المصلحين الذين يقضون الزمن الطويل فى الجهاد العنيف، والكفاح الممض، ثم يرون أنهم بعد ذلك كله لم يظفروا إلا بالعدد القليل من المؤمنين، وفيه - إلى جانب هذه التعزية - : إرشاد لاصحاب الدعوات أن تكون وجهتهم فى التكوين أولا الكيف لا الكم، والإيمان الصادق بالمبدأ والعقيدة لا العدد الكثير الذى لا يغنى شيئًا، ولهذا قضى رسول الله ﷺ شطر مدة الدعوة فى مكة يتخير لها الأكفاء[1]، حتى مكث مدة طويلة ولما يبلغ أصحابه الأربعين، ولكن الرجل منهم كان أمة وحده.

(ومنها) إرشاد المؤمنين إلى وجوب حياطة إيمانهم بصلاح العمل، ومجاهدة النفس، وسد الذرائع، والبعد عن الشبهات، واتباع سبيل الله، حتى لا ينتكسوا ويعودوا بعد الإيمان الكامل إلى مرتبة دون هذه المرتبة، وأكثر ما يكون ذلك إذا قلدوا غيرهم من الأمم، وسلكوا سبيل سواهم ممن لا يدين دينهم ولا يعتقد عقيدتهم **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ (١٠٠) وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ**

---

(١) أكفاء بفتح الهمزة وسكون الكاف وفتح الفاء وهى جمع كفء، ومن الخطأ الشائع قراءتها: أكفُاء، وهى جمع كفيف اى اعمى، وهذا مما ابتلينا به من وسائل الإعلام من مذيعين ومذيعات لم تسلم لغتهم العربية من التحريف والخطأ، فترى منهم من يقول: وقد قام بهذا العمل: مهندسون أكفُاء، ومعناها ان المهندس الذى بنى البناء اعمى البصر، فليحترز القارئ من مثل هذه الاخطاء اللغوية الشائعة.

تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٠٠، ١٠١].

وفى الآية الكريمة إشارة إلى أن الإيمان لا يكون كاملاً حقيقيًا إلا إذا اعتقد المؤمن أن هذا القرآن حق نزل من عند الله، ثم عمل على إنفاذه وجعله حكمًا على نفسه، والله أعلم(١).

*****

(١) بعد نهاية هذا المقال فى التفسير ذيله الإمام الشهيد بهذه الكلمة القصيرة الوجيزة، التى تدل على مدى حرصه على تسديد إخوانه وراءه، وعدم حرمانه من النصح فى الله، بل النقد، والنقد المنشور، كتب رحمه الله يقول تحت هذا العنوان:

الدعوة إلى انتقاد المنار

إننا ندعو جميع من يطلع على المنار من أهل العلم والرأى: أن يكتبوا إلينا بما يرون فيه من الخطأ فى المسائل العلمية أو ما ينافى مصلحة الأمة، ونعد المنتقدين بنشر كل ما يرسل إلينا من نقد مع بيان رأينا فيه، بشرط: أن يكون النقد مختصراً مؤيداً بالدليل، نزيه العبارة.

ونرجو عامة القراء: أن يطالبوا كل من يسمعون منه انتقاداً للمنار بكتابته وإرساله إلينا لنشره، وإلا أضاع الفائدة على نفسه وعلى الناس، وكان نقده عقيمًا لا نتيجة له، وهو مالا يرضاه لنفسه محب للمصلحة العامة، ونسأل الله أن يوفقنا جميعًا لخير ما يحب ويرضى.

[من آيات الله في السماء][1]

﴿ اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُم بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴾ [الرعد : ٢].

أكدت الآية الكريمة الأولى فى أول السورة: صدق القرآن وأحقية ما نزل على النبى ﷺ من ربه، وإن أعرض أكثر الناس عن الإيمان به. وفى هذه الآيات الكريمة: بيان لأول ما يجب أن يؤمن به الناس ويعتقدونه ويصدقوا بأحقيته، وذلك هو الإيمان بالله. فمعرفة الله والإيمان به أول ما يجب أن تتوجه إليه الهمم، وتعنى به النفوس، وقد سلكت الآيات الكريمة بالناس إلى هذا الإيمان أقوم السبل، وهى سبيل التفكر فى مخلوقات الله وعجائب صنعه، من رفع السماوات، وتسخير الكواكب والأجرام، وتدبير الأمور والشؤون، وتصريف الآيات والعبر، ومد الأرض وبسطها، وإمدادها بما ينفع أهلها من الجبال والأنهار والنبات والجنات، على نسق رائع بديع هو الآية فى الإعجاز وصدق التصوير، والاستيلاء على المشاعر والقلوب.

(الله) أكبر أسماء الخالق سبحانه وتعالى وأجمعها لا يثنى ولا يجمع، والألف واللام من بنيته لم تدخلا عليه للتعريف؛ إذ هو أعرف المعارف، وقال الخطابى: والدليل على ذلك دخول حرف النداء عليه كقولك: يا الله، وحروف النداء لا تجتمع مع الألف واللام، ألا ترى أنك لا تقول: يا الرحمن ولا يا الرحيم كما تقول: يا الله، فدل على أنهما من بنية الاسم.

(الله) اسم كريم للموجود الحق البارى الخالق المنعوت بنعوت الربوبية، المنفرد بالوجود الحقيقى، لا إله إلا هو سبحانه.

ولا تظن أننى أحاول بذلك الشرح أو التفسير[2] [أن أحصر صفات الله ووصفه]

---

(١) نشرت فى مجلة (المنار) فى العدد السادس من المجلد (الخامس والثلاثين) الصادر فى غرة رجب سنة ١٣٥٨هـ- أغسطس سنة ١٩٣٩م.

(٢) بعد هذه الفقرة نقص في المقال، ولم أعثر عليه، وقد حاولت وصل ما بين الفقرتين بما هو مكتوب بين الحاصرتين، وذلك اجتهاداً مني.

فكمالات الحق تبارك وتعالى فوق هذا، ولكن أريد أن ألخص لك رأى الإسلام الموجز الحق، الذى يشبع الروح، ويطمئن القلب فيما يجب على المسلم أن يعتقده فى ذات الخالق جل وعلا وصفاته، مستغنيا بالقليل عن الكثير، فاعلم أن الإسلام قد أجمل ذلك فيما يأتى:

[ما يجب على المسلم أن يعتقده فى ذات الله]

أولاً: عدم التعرض للحقيقة والماهية من حيث هما، مع التنبيه على المخالفة التامة بين ماهية الإله وماهية الخلق، يقول القرآن الكريم: ﴿ **ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (١٠٢) لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ** ﴾ [الأنعام: ١٠٢، ١٠٣]، وهو بذلك يشير إلى الكف عن التعرض للماهية[١].

ويقول أيضًا: ﴿ **فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ** ﴾ [الشور: ١١] وهو بذلك يشير إلى المخالفة التامة بين الخالق والمخلوقات جميعًا. وفى الحديث: «تفكروا فى آلاء الله ولا تفكروا فى الله»[٢].

---

(١) أى عدم البحث فى ذات الخالق، إنما يتفكر فى خلقه ويبحث فى أسمائه وصفاته. ومما نسب إلى على رضى الله عنه قوله: العجز عن درك الإدراك إدراك، والبحث عن كنه ذات الله إشراك.

(٢) [قال الإمام البنا فى تخريجه:] الحديث ورد بالفاظ يتفق معناها. قال الحافظ العراقى فى تخريج أحاديث الإحياء: رواه أبونعيم فى الحلية بالمرفوع منه بإسناد ضعيف، ورواه الأصبهانى فى (الترغيب والترهيب) من وجه آخر أصح منه. ورواه الطبرانى فى الأوسط والبيهقى فى الشعب من حديث ابن عمر. وقال: هذا إسناد فيه نظر. قلت: فيه الوازع بن نافع متروك اهـ. زاد الترمذى فى الشرح قلت: رواه ابن الدنيا فى كتاب (التفكر) وأبو الشيخ فى (العظمة)، والطبرانى فى الأوسط وابن عدى وابن مردويه والبيهقى وضعفه والأصبهانى وأبو نصر فى (الإبانة) وقال: غريب ورواه أبوالشيخ من حديث ابن عباس: «تفكروا فى الخلق ولا تفكروا فى الخالق فإنكم لن تقدروا قدره». ورواه ابن النجار والرافعى من حديث أبى هريرة: «تفكروا فى خلق الله ولا تفكروا فى الله» الخ. وتعدد الروايات واجتماعها يكسبها قوة. والمعنى صحيح كما قال الحافظ السخاوى فى المقاصد اهـ. نقلاً عن تعليق صاحب المنار على رسالة التوحيد. (البنا) انظر: رسالة التوحيد ص٤٤ طبعة دار الشعب سنة ١٩٦٩م. وانظر فى تخريج الحديث: الإحياء بتخريج الحافظ العراقى (٤ / ٤٥٠) وفيض القدير للمناوى (٣ / ٣٢١) وكشف الخفاء للعجلونى (١ / ٢٧١، ٢٧٢). والحديث حسنه الشيخ الألبانى فى «صحيح الجامع الصغير» (٢٩٧٥) وفى السلسلة الصحيحة (١٧٨٨).

ومن البدهى ان هذا الموقف لا يؤخذ على الإسلام فى شىء، فإن العقل البشرى وهو عماد العقيدة فى الإسلام يقف إلى الآن موقف العجز المطلق أمام حقائق الأشياء جميعًا، وكل الذى وصل إليه إنما هو الخواص والصفات والآثار، أما الحقائق والبسائط المجردة فلم يصل إليها بعد. وما كان الإسلام ليكلف الناس ما لا تستطيع أن تدركه العقول والأفهام.

ثانيًا: التوصل إلى معرفة صفات الإله وإدراك كمالات الألوهية ومميزاتها عن طريق النظر فى الكون نظرًا صحيحًا، وتحرر العقول والأفكار من الموروثات والأهواء والأغراض حتى يصل إلى الحكم الصائب.

والقرآن مملوء بالبحث عن النظر فى المكونات والتأمل فى المخلوقات، وقد ذكر العقل فى القرآن الكريم أكثر من أربعين موضعًا مقرونًا بالتبجيل والتكريم والحث على الجد والعمل فى إدراك الحقائق، والسير فى سبيل كشف مستوراتها، وذلك من مثل قوله تعالى: ﴿**إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ**﴾ [البقرة: ١٦٤].

ومن مثل قوله تعالى: ﴿**أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ (٢٧) وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ**﴾ [فاطر: ٢٧، ٢٨] فهو فى هذه الآية يحض على اكتشاف غرائب النبات والحيوان والجماد بأقسامه، ثم يرتب على ذلك الخشية من الله لما بين معرفة الكون ومعرفة مكونه من صلة، ومن مثل الآيات الكريمة التى نحن بصددها من سورة الرعد[١].

ثالثًا: إثبات صفات الكمال للخالق نتيجة للنظر فى هذا الكون، فالله موصوف فى الإسلام بالوجود، وبالعلم، وبالقدرة، وبالحياة، وبالسمع، وبالبصر، وبالجمال، وبالحكمة، وبالإرادة الخ، مع الإقرار بأن كيفياتها وحدودها مجهولة ضرورة الجهالة بذات

---

(١) لمزيد من التفصيل حول موضوع التفكر ودعوة القرآن العقل للنظر فى الكون، انظر: «التفكير فريضة إسلامية» للأستاذ عباس محمود العقاد، وكتاب: «العلم والعقل فى القرآن» للدكتور يوسف القرضاوى.

الله تعالى، ولكنا نعلمها علم اليقين من وضوح آثارها فى هذا الكون البديع الصنع، فالخالق حكيم لما يتجلى فى كونه من أسرار حكمته، وقادر وعالم بأجمع معانى العلم والقدرة، لأن هذا الكون البديع لا يكون إلا عن علم واسع وقدرة محيطة وهكذا.

والقرآن يعدد هذه الصفات فى كل المناسبات مثل قوله تعالى: ﴿هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد: ٣]. ومثل سورة الإخلاص وهكذا.

رابعًا: نفى صفات المشابهة والنقص عن الخالق. فالتجسيم منفى عنه لأن المادة تتحول والخالق لابد أن يكون ثابتًا، والتثليث منفى عنه، لأنه تركيب والإله لا بد أن يكون واحداً، والأبوة والبنوة منفصلان عن صفات الخالق لأنهما تجزئة والخالق لا يتجزأ، وهكذا، والقرآن يقرر هذا ويجادل عنه فى منطق دقيق وحجة قوية من مثل قوله تعالى: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِّنَ الأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ (٢١) لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ (٢٢) لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ (٢٣) أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ (٢٤) وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ (٢٥) وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ (٢٦) لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ (٢٧) يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَى وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ (٢٨) وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِّن دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾[1] [الأنبياء: ٢١ - ٢٩].

ومن مثل قوله: ﴿قُل لِّمَنِ الأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٨٤) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلا تَذَكَّرُونَ (٨٥) قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (٨٦) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ (٨٧) قُلْ مَن بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٨٨) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ (٨٩) بَلْ أَتَيْنَاهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (٩٠) مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٤- ٩١].

---

(١) لم يكتب الإمام فى مقاله الآيات كاملة، بل كتب أول آية وجزءاً من الآية الثانية، ثم أشار بأرقام الآيات، وقد كتبتها كاملة لتتضح للقارئ.

وقل مثل ذلك فى نفى التثليث وغيره من عقائد الأمم السابقة جميعًا.

خامسًا: تقوية الصلة بين الوجدان الإنسانى والخالق، حتى يصل الإنسان بذلك إلى نوع من المعرفة الروحية هو أعذب وأصدق أنواع المعرفة جميعًا، وذلك أن الوجدان الإنسانى أقدر على كشف المستورات غير المادية من الفكر المحدود بقيود المادة والأرقام، فالإسلام كثيرًا ما يخاطب الوجدان، ويستثير الخواص النفسانية الكامنة فى الإنسانية لتتصل بالله تبارك وتعالى وتسمو إلى حظائر الملأ الأعلى.

يقول القرآن الكريم: ﴿ **الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ** ﴾ [الرعد: ٢٨] وفى ذلك يقول أحد الفلاسفة الكونيين: «إن ضمائرنا تشهد لنا بوجود الله قبل أن تشهد به عقولنا».

ويصور القرآن هذا المعنى فى الآية الكريمة ﴿ **وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الإِنسَانُ كَفُورًا** ﴾ [الإسراء: ٦٧].

هذه الصلة الخفية بين الضمير الإنسانى وبين الخالق التى تبدو فى غاية الوضوح والجلاء عند الشدائد التى تنقطع فيها الآمال، هى التى يعمل الإسلام كثيرًا على أن تكون ضوءًا يتعرف به الإنسان خالقه العظيم سبحانه وتعالى.

سادسًا: مطالبة المؤمنين بأن تظهر عليهم نتائج هذه العقائد العملية، فالمؤمن إذا اعتقد أن ربه قادر كانت نتيجة هذه العقيدة العملية أن يتوكل عليه ويلجأ إليه، وإذا اعتقد أنه عالم راقبه واستولت عليه خشيته، وإذا اعتقد أنه عظيم عظمه فخافه وأحبه وهكذا.

وقد أشارت إلى ذلك الآيات الكريمة فى كثير من المواضع، قال تعالى: ﴿ **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٢) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٣) أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ** ﴾ [الأنفال: ٢ - ٤]. والآيات فى هذا المعنى كثيرة فى كتاب الله تبارك وتعالى، وكل عقيدة لا تنتج أثرها، ولا تحمل صاحبها على مستلزماتها، فهى عقيدة واهية ضعيفة لا تؤدى إلى الإيمان الكامل الصحيح.

ولعل من تمام هذا البحث أن أنقل لك بعض عبارات المؤمنين الصادقين في التعريف برب العالمين جلت ذاته، وتقدست صفاته.

سأل ذعلب اليماني عليا كرم الله وجهه فقال: هل رأيت ربك يا أمير المؤمنين؟ فقال رضي الله عنه: أفاعبد ما لا أرى! فقال السائل: وكيف تراه؟ فقال: «لا تدركه العيون بمشاهدة العيان؛ ولكن تدركه القلوب بحقائق الإيمان، قريب من الأشياء غير ملامس، بعيد منها غير مباين؛ متكلم بلا روية، مريد لا بهمة، صانع لا بجارحة.

لطيف لا يوصف بالخفاء، كبير لا يوصف بالجفاء، بصير لا يوصف بالحاسة، رحيم لا يوصف بالرقة.

تعنو الوجوه لعظمته؛ [وتجب القلوب من][1] مخافته»[2].

ومن كلامه رضي الله عنه في هذا المعنى: «لايدركه بعد الهمم، ولا يناله غوص الفطن، ليس لصفته حد محدود، ولا نعت موجود، ولا وقت معدود، ولا أجل ممدود.

أول الدين معرفته، وكمال معرفته التصديق به، وكمال التصديق به توحيده، وكمال توحيده الإخلاص له». اهـ من نهج البلاغة[3].

وسئل بعض العلماء عن صفته تبارك وتعالى فقال: «هو الواحد المعروف قبل الحدود والحروف».

وسئل آخر عن التوحيد: ما هو؟ فقال: «أن تعلم أنه غير مشبه للذوات ولا منفي الصفات».

ومن أحسن ما قيل في التنزيه قول بعض الصالحين: «تنزه ربنا عن أحوال خلقه فليس

---

(١) ما بين المعقوفين ساقط من مقال الإمام، وقد استدركته من نهج البلاغة. ومعنى تعنو: تخضع. وتجب القلوب: أي تخفق.

(٢) انظر: شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد (١٠/ ٦٤) بتحقيق محمد أبوالفضل إبراهيم.

(٣) في نسبة ما جاء في نهج البلاغة لعلي رضي الله عنه الخلاف المعروف بين الأدباء وسواء أكان القول من كلام علي رضي الله عنه أم من كلام الشريف فمعناه من حيث تعظيم الله وحسن الثناء عليه رائع بديع. (البنا). وممن دافعوا عن نسبتها لعلي رضي الله عنه: ابن أبي الحديد في شرحه لنهج البلاغة، انظر: شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد (١٠/ ١٢٧- ١٢٩).

له من خلقه مزاج، ولا فى فعله علاج، باينهم بقدمه كما باينوه بحدوثهم، إن قلت: متى؟ فقد سبق الوقت كونه. وإن قلت: هو. فالهاء والواو خلقه. وإن قلت: أين؟ تقدم المكان وجوده، معرفته توحيده، وتوحيده تمييزه من خلقه، ما تصور فى الأوهام فهو بخلافه، فالذى يظفر الوهم به يرتقى التصوير إليه، لا تماقله[1] العيون، ولا تقابله الظنون، علوه من غير توقل[2]، ومجيئه من غير تنقل (هو الأول والآخر والظاهر والباطن ليس كمثله شيء وهو السميع البصير)».

(الذى رفع السماوات بغير عمد ترونها) يحسن قبل الكلام عن رفع السماوات وما يليه من آيات الكون فى هذه الآيات البينات، أحب أن ألفت النظر إلى أصلين مهمين:

(أولهما) حكمة ذكر المظاهر الكونية فى القرآن الكريم.

(وثانيهما) معرفة مدى ما وصل إليه العقل الإنسانى فى تعرف حقائق هذه المظاهر.

لماذا تذكر هذه المظاهر الكونية فى القرآن الكريم؟

جاء فى القرآن الكريم ذكر السماوات و الأرضين والشمس والقمر والسحب والأمطار والنبات والحيوان وعجائب الخلق وغرائب المكونات فى كثير من المواطن، فهل يريد القرآن بهذا أن يتناول هذه النواحى بالتحليل العلمى، فيوضح للقارئين ماهيتها وكنهها وعناصرها وأجزاءها، ويبين لهم طبائعها وخواصها، ويكشف لهم عن أسرار نواميسها، وحقيقة قوانين سيرها ووقوفها ونموها وضعفها؟ أم أن القرآن الكريم يعرض لكل هذه الظواهر الكونية لغرض آخر غير هذا التحليل العلمى، ويدع هذا التحليل لوقته والظروف الملائمة له عندما تتهيأ العقول البشرية لقبوله وإدراك غوامضه وأسراره؟

لاشك أن القرآن الكريم لم يجئ ليكون كتاب فلك ولا هيئة ولا كيمياء ولا هندسة

---

(١) تماقله: اى تراه، وهى من المقل: أى النظر ومقله بعينه يمقله مقلاً: نظر إليه؛ ويقال: ما مقلته عينى منذ اليوم. وحكى اللحيانى: ما مقلت عينى مثله مقلاً اى ما أبصرت ولا نظرت. انظر: لسان العرب (١١/ ٦٢٧).

(٢) توقل: أى صعود. والواقل: هو الصاعد بين حزونة الجبال، وكل صاعد فى شيء متوقل. ومنه قول عمر: لما كنت يوم احد، كنت أتوقل كما تتوقل الأروية. اى اصعد فيها كما تصعد انثى الوعول. انظر: لسان العرب (١١/ ٧٣٣).

ولا لغير ذلك من الشؤون التى تتناولها العلوم الكونية البحتة. وإنما جاء ليكون كتاب هداية وإرشاد وتطهير للنفس البشرية وسمو بها إلى الكمال الممكن اللائق بجمالها، وإيضاح وتقوية للصلة بين الخالق والمخلوق، وبين المخلوقين بعضهم وبعض، وتقرير للحقوق والواجبات، وتفصيل للمصالح والمضار فى المأمورات والمنهيات التى تتصل بسعادة الناس فى معاشهم ومعادهم. وإن أشار فى كثير من الأحيان إلى دقائق العلوم الكونية، وعجائب النواميس التى تسير عليها المخلوقات. وإنما جاء القرآن كذلك لحكم جليلة:

(منها) أنه إذا تناول حقائق العلوم والمعارف الكونية بالشرح والبيان، فقد قطع على العقل البشرى سبيل الرقى، وحرمه لذة الجهاد العلمى، وقضى على استقلاله وحريته بالجمود والخمود، ولم يبق للعلماء فضل على الجهلاء، وكان الناس فى المواهب سواء، فلم تشهد الإنسانية إلا جيلاً واحداً ثم يقضى عليها بعد ذلك بالفناء.

(ومنها): أن طبيعة العقل البشرى فى نشوئه وتكوينه لا تقبل هذه الطفرة ولا تحتملها، وإنما يسلك العقل البشرى فى النوع الإنسانى مسلكه فى الفرد. والواحد له أطوار وأدوار فهو ينشأ ضعيفًا لا يكاد يدرك ما حوله، ثم تتسع أمامه آفاق الإدراك وحدوده فلا يزال يتعلم فيعلم حتى يبلغ أقصى قوته، ويأخذ من المعرفة بالنصيب الذى كتب له، وأنت إن فاجأته وهو فى دور طفولته وضعفه بما لا يستطيع إدراكه، ولا يقوى على اكتناه ماهيته آذيته وشردته وأضللته وقذفت به فى مهاوى الفتنة والشك والارتياب، وتصور أن طفلاً سألك عن قوانين الكهرباء وكيف يتولد؟ وكيف يسير؟ وكيف تتحرك به القوى العظيمة وتشتعل بضوئه المصابيح القوية على البعد والقرب سواء؟ أو سألك عن أوجه القمر فى نشوئه هلالاً، ثم اكتماله بدراً، ثم عودته بعد ذلك من الكمال إلى النقص حتى يختفى جرمه ويخبو نوره؟ أو سألك عن البخار كيف يدير البواخر ويحمل على الماء الأعلام المواخر؟ أتستطيع أن تتبسط فى شرح ذلك لطفل صغير لم يتلق مبادئ هذه العلوم ولم يستق بعد من معين هذه المعارف؟

كذلك العقل الإنسانى فى نشأته وأدوار حياته وأطوار نموه دائم الرقى والاكتمال بحسب ما يكتسب من المعارف المتجددة والتجارب المتكررة المتعددة. وما كان للقرآن – وهو كتاب العصور كلها، والأمم كلها، والعقول جميعًا – أن يتناول من علوم الكون إلا

ما يتفق مع مدركات هذه العقول، ثم يدع لرقيها الفكرى الكشف عما سوى ذلك بحسب قوانين النمو والارتقاء. وذلك من أدب الاسلام فى التعليم ومن سننه فى إرشاد الناس إلى حقائق المعارف.

روى البخارى فى صحيحه عن على كرم الله وجهه: «حدثوا الناس بما يعرفون أتحبون أن يكذب الله ورسوله»[1].

وروى مسلم عن ابن مسعود رضى الله عنه قال: «ما أنت بمحدث قومًا حديثًا لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة»[2].

ومن هنا نستطيع أن نفهم السر فى إجابة القرآن الكريم للسائلين عن أوجه القمر بصرفهم عن السؤال ولفت أنظارهم إلى فوائد ذلك ومزاياه ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾ [البقرة: ١٨٩].

(ومنها): أن القرآن الكريم لو عرض لبيان هذه الشؤون كلها، واستوعب حقائقها وتفصيلاتها لصعب على الناس حفظه، ولمضت الأزمان الطويلة دون استيعابه نزولاً أو معرفة، ولنسى الناس هديه وإرشاده، فإن كثير الكلام ينسى بعضه بعضاً.

ولقد يسره الله تعالى وسهله ليكون ذلك أدعى إلى تذكره وأقرب للوصول إلى مقاصده والعمل بما فيه ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ١٧].

تلك هى بعض الحكم التى من أجلها لم يتناول القرآن الكريم حقائق العلوم الكونية بالتفصيل والتوضيح، وترك ذلك للعقل البشرى يرقى إليه ببحثه المتواصل، ويتذوق لذة معرفته بكفاحه وجهاده، وهناك حكم أخرى لا نطيل القول فيها، وحسبك من القلادة ما أحاط بالجيد، والكلام فى أسرار كتاب الله ذو سعة.

ومن ذلك نستطيع أن نقول: إن القرآن الكريم جاء بهذه الظواهر واستعرضها وعرضها على الناس فى كثير من المواضع لغرض واحد: هو العبرة والعظة، ولفت العقل والقلب إلى ما فيها من جمال وروعة ورقة وإعجاز وإبداع لا يكون إلا عن صانع حكيم متصف

---

(١) رواه البخارى موقوفًا فى كتاب العلم برقم (١٢٧).

(٢) رواه مسلم فى المقدمة موقوفًا.

بالكمالات كلها، لا يلحقه نقص، ولا يناله قصور، جل ربنا عن ذلك وتعالى علوًا كبيرًا.

يسوق القرآن كل ذلك ليكون سبيلاً إلى معرفة الخالق والإيمان بالله. وفى الوقت الذى يقصد فيه إلى هذا المعنى نجد أن فى ذكر هذه المخلوقات، ولفت الأنظار إليها، ومطالبة الناس بالتفكير فيها، والتصريح بعلو منزلة العلماء بها دفعًا بكل مؤمن أن يتعلم وأن يحيط بأسرار هذا الكون العجيب.

ذلك مع الإشارات اللطيفة إلى بعض الحقائق الدقيقة التى تعنو لها عقول الخاصة، وتنحنى أمامها هام الفطاحل من الراسخين فى العلم، يتلوها عليهم أمى كريم لم يدخل جامعة، ولم يتعلم فى مدرسة، كذكر ناموس التلقيح: ﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ ﴾ [الحجر: ٢٢]، وذكر ناموس التقدير فى المخلوقات: ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾ [القمر: ٤٩] وغيرها من النواميس.

والعجيب فى شأن القرآن الكريم أنه حين عرض لهذه المكونات ساق الكلام عنها فى مساق غريب، وأسلوب مدهش معجز حقًا يساير تمام المسايرة الإدراك الفطرى، ويتفق تمام الاتفاق مع التحليل العلمى والبحث الفلسفى المنطقى، فهو يجمع بين الشعر والمنطق، ويغذى العاطفة والعقل، ويرقى الشعور والفكر، ويستولى على الإرادة كل الاستيلاء، ويفيد هذا وذاك الأثر المقصود، والعزة المنشودة، وذلك من أسرار الإعجاز التى انفرد بها القرآن الكريم، وامتاز بها كلام الخالق العليم عن كلام المخلوق القاصر العاجز.

تقرأ مثل قوله تعالى: ﴿ فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ ﴾ [الأنعام: ١٢٥]، فتصور هذه الآية الكريمة فى النفس العادية ذلك المعنى الفطرى السهل، وتمثل لها ذلك الضال رجلاً منهوكًا متعبًا قد بهرت أنفاسه، وتقطع نياط قلبه مما حمل من أعباء الضلال، كأنما عليه أن يقاسى فى مرارة متجددة هول صعود السماء، والآية بهذا المعنى الفطرى تحدث فى تلك النفس العامية ما قصدته إليه من تأثير فى تقبيح صورة الضلال والإبعاد عنه. وهذه الآية نفسها تثير فى النفس العلمية ذلك المعنى الكونى الذى أيده البحث وأثبته العلم من تخلخل طبقة الهواء كلما علا الإنسان عن سطح الأرض، وفناء عنصر الأوكسجين،

وهو العنصر الصالح للتنفس، فتنقطع بذلك انفاسه، ويقف عن التنفس صدره، فيزول عنه معنى الحياة جملة، بل إن الضغط الهوائى ليختل توازنه على جنبات جسمه باطنها وظاهرها، فتنفجر عروقه ويسيل فى الفضاء دمه مهدوراً، والآية بهذا المعنى العلمى تحدث الأثر المقصود لها كذلك من تقبيح صورة الضلال و إبعاد الناس عنه.

هذا معنى من معانى الإعجاز لم يتفق لغير القرآن الكريم، ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

[موقف الوحى من العلوم]

وأسوق لك هنا بمناسبة هذا البحث ما ذكره الأستاذ الإمام[١] عند تفسير آية الأهلة فى بيان موقف الوحى من العلوم[٢] قال رحمه الله:

«العلوم التى نحتاج إليها فى حياتنا على أقسام:

منها ما لا نحتاج فيه إلى أستاذ كالمحسوسات والوجدانات فهذا هو (**القسم الأول**).

ومنها: ما لا نجد له أستاذاً لأنه مما لا مطمح للبشر فى الوصول إليه البتة، وهو كيفية التكوين والإيجاد الأول المعبر عنه بسر القدر. يمكن للنباتى أن يعرف ما يتكون منه النبات، وكيف ينبت وينمو ويتغذى، وللطبيب أن يعرف كيفية تولد الحيوان، والأطوار التى يندرج فيها مذ يكون نطفة إلى أن يكون إنساناً عاقلاً مستقلاً، ولكن لا يعرف نباتى ولا طبيب كيف وجدت أنواع النبات، وأنواع الحيوان أو مادتهما لأول مرة، ولا كيف وجد غيرها من المخلوقات، ومن هنا كانت العلاقة بين الخالق والمخلوق من هذه الجهة جهة الإيجاد والخلق يمكن اكتناهها، وكذلك لا يمكن اكتناه ذات الله تعالى وصفاته وهذا هو (**القسم الثانى**).

ومنها: ما يتيسر للناس أن يعرفوه بالنظر والاستدلال والتجربة والبحث، كالعلوم الرياضية والطبيعية والزراعية والصنائع والهيئة الفلكية، ومنها: أسباب تطور الهلال وتنقله من حال إلى حال، وهذا هو (**القسم الثالث**).

---

(١) أى الشيخ محمدعبده.

(٢) راجع تفسير المنار (٢/١٩٨). (البنا).

ومنها: ما يجب علينا للخالق العظيم الذى أودع فطرنا الشعور بسلطانه، وهدى قلوبنا إلى الإيمان به بما نراه من آياته فى الآفاق وفى أنفسنا، فإن هذا الشعور وهذه الهداية مبهمان لا سبيل لنا إلى تحديدهما من حيث ما يجب اعتقاده فى الله تعالى، وفى حكمة خلقنا ومراده منا، وما يتبع ذلك من أمر مصيرنا، ومن حيث ما يجب له من الشكر والعبادة، وهذا مما لا سبيل إلى معرفته بطريق صناعى أو كسب بشرى، فقد وقعت الأمم فى الحيرة والخطأ فى مسائله لجهلهم بالصلة والنسبة بين المخلوق والخالق، فمنهم من وصفه تعالى بما لا يصح أن يوصف به. ومنهم من توهم أن أعمالنا تفيده أو تؤلمه، وأنه ينعم علينا أو ينتقم منا بالمصائب لأجل ذلك. ومنهم من توهم أن الحياة الآخرة تكون بهذه الأجساد، والجزاء فيها يكون بهذا المتاع، فاخترعوا الأدوية لحفظ أجسادهم ومتاعهم[1].
وإذا كان الإنسان عاجزاً عن تحديد ما يجب عليه ويحتاج إليه من الإيمان بالله وبالحياة الأخرى، وما يجب عليه فى الحياة الأولى شكراً لله واستعداداً لتلك الحياة، لأن الحواس والعقل لا يدركان ذلك، فلا شك أنه محتاج إلى عقل آخر يدرك به ما يعوز أفراده من هذه الأمور وهذا العقل هو النبى المرسل. وهذا هو (القسم الرابع).

وبقى (قسم خامس) وهو: ما يستطيع العقل البشرى إدراك الفائدة منه، ولكنه عرضة للخطأ فيه دائماً، لما يعرض له من الأهواء والشهوات التى تلقى الغشاوة على الأبصار والبصائر، فتحول دون الوصول إلى الحقيقة، أو تشبه منافع الضار وتلبس الحق بالباطل.

ومثال ذلك: السعاية، يدرك العقل ما فيها من الضرر والقبح، ولكنه إذا رأى لنفسه فائدة من السعاية لشخص يزينها له هواه، ويراها حسنة من حيث هو يخفى عليه ضررها لذاتها. وكذلك شرب الخمر والحشيش قد يعرف الإنسان مضرتهما فى غيره، ولكن الشهوة تحجبه عن إدراك ذلك فى نفسه فيؤثر حكم لذته على حكم عقله الذى ينهاه عن كل ضار، فصار محتاجاً إلى معلم آخر ينصر العقل على الهوى، ووازع يكبح من جماح الشهوة ليكون على هدى.

---

(١) والذى يؤخذ على هؤلاء قصور إدراكهم عن إمكان الإعادة بعد التحليل فى الأجساد، والمساواة بين نعيم الدنيا والآخرة مع أنه لا نسبة بينهما فنعيم الآخرة أجل وأعظم من أن يقاس بهذا المتاع الغالى مهما بالغ بالناس فى المحافظة عليه. (البنا).

فما يمكن للإنسان ان يصل إليه بنفسه لا يطالب الأنبياء ببيانه، ومطالبتهم به جهل بوظيفتهم، وإهمال للمواهب والقوى التى وهبه الله إياها ليصل بها إلى ذلك، وكذلك لا يطالبون بما يستحيل على البشر الوصول إليه، كقول بعض بنى إسرائيل لموسى: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة: ٥٥]، وأما ما كان إدراكه ممكنًا وكسبه بالحس والعقل متعذراً، وا تحديده متعسراً فهو الذى نحتاج فيه إلى هاد مخبر عن الله تعالى لنأخذ عنه بالإيمان والتسليم، ولذلك قلنا: إن الرسول ﷺ عقل الأمة.

لو كان من وظيفة النبى أن يبين العلوم الطبيعية والفلكية لكان يجب ان تعطل مواهب الحس والعقل، وينزع الاستقلال من الإنسان، ويلزم بأن يتلقى كل فرد معلوماته بالتسليم، ولوجب أن يكون عدد الرسل فى كل أمة كافيًا لتعليم أفرادها فى كل زمن كل ما يحتاجون إليه من امور معاشهم ومعادهم، وإن شئت فقل: لوجب ألا يكون الإنسان هذا النوع الذى نعرفه!

نعم، إن الأنبياء صلوات الله عليهم ينبهون الناس بالإجمال إلى استعمال حواسهم وعقولهم فى كل ما يزيد منافعهم ومعارفهم التى ترتقى بها نفوسهم، ولكن مع وصلها بالتنبيه على ما يقوى الإيمان ويزيد فى العبرة. اهـ.

[موقف القرآن من العلوم الكونية]

ونستطيع بعد ذلك أن نلخص موقف القرآن من العلوم الكونية العصرية وغير العصرية مما سبقها أو مما سيلحقها، أو موقف هذه العلوم من القرآن الكريم فى هذه النقاط:

١- ليست مهمة القرآن شرح بحوث هذه العلوم تفصيليًا، وإنما ترك ذلك للعقل الإنسانى يكشف فى كل طور من أطوار رقيه وكماله جزءاً منه يتناسب مع مقدرته وما أتيح له من وسائل البحث والإدراك السليم.

٢- إنما عرض القرآن لما عرض له من هذه البحوث تنبيهًا لما فيها من دقة الصنع وجمال الإبداع، ليكون ذلك حافزاً إلى معرفة الله وصدق الإيمان به، كما يكون حافزاً إلى دوام البحث والنظر كذلك.

٣- إن هذا لم يمنع القرآن الكريم من أن يتعرض لكثير من النواميس الدقيقة فى هذه العلوم إرشاداً للخاصة من الناس، وإثباتاً لنسبة هذا الكتاب الكريم إلى العليم الحكيم.

٤- كان أسلوب القرآن فى التكلم عن هذه المظاهر الكونية أسلوباً معجزاً حقاً.. فيه إجمال، وفيه دقة، وفيه وضوح إلى جانبهما، فهو يرضى النفس الفطرية، كما يشبع الفكرة نهمة العلمية، كما لا يمكن أبداً أن يصطدم فى مرونته وسعة معانى ألفاظه بنتائج البحث العلمى أياً كان فى أى عصر من العصور، وهذا من أبلغ وجوه إعجاز القرآن[١].

٥- إن القرآن بهذا الأسلوب فارق ما فى أيدى الناس مما يزعمونه التوراة والإنجيل، فقد امتلأت بالتفريعات الدقيقة لهذه العلوم، والتفصيلات الشاملة للتحدث عن كل مظاهر الكون والتصوير المادى لكل ما فيه، فكانت نتيجة ذلك أن اصطدمت هذه الصور والأحكام بنتائج البحوث العقلية الثابتة، فسقطت قيمتها العلمية فى نظر الكونيين سقوطاً لا قيام لها بعده، وكانت عن ذلك الخصومة الحادة التى ذهب ضحيتها كثير من العلماء أمثال جاليليو وغيره، وانتهت بأن قبع الدين فى زوايا الكنائس والأديرة[٢]، وليس فى القرآن الكريم شيء من هذا كله، وهو قدساير العلوم والمعارف منذ نزل على قلب محمد ﷺ فأشرقت الدنيا بنوره إلى الآن، فلم يصدم بنظرية علمية صحيحة، ولم يخالف حقيقة كونية ثابتة، ولم يأته الباطل من بين يديه ولا من خلفه، لأنه تنزيل من عزيز حكيم.

٦- والنتيجة من هذا البحث: أنه لا يصح للمسلم أن يعترض نصوص القرآن بنتائج هذه العلوم، فإن من هذه النتائج ما لم يثبت بعد، ومنها ما توهم العقل البشرى ثبوته فى عصر، ثم نقضه أشنع النقض فى عصر آخر، وتلك طبيعة الترقى العلمى كما سترى فى الفصل الذى يلى هذا، وفى التفسير الذى يجمع بين الإيمان بالنص وإرضاء البحث الصحيح مندوحة، بل مخارج كثيرة، هذا من جهة. ومن جهة أخرى فلا يجوز

---

(١) يراجع فى الدلائل على ذلك كتاب: (التوراة والإنجيل والقرآن والعلم) لموريس بوكاى، و(الإسلام فى عصر العلم) لمحمد احمد الغمراوى.

(٢) بل أدى ذلك إلى نشوء العلمانية المنادية بفصل الدين عن الحياة، ووقع المغفلون من بنى جلدتنا فأتوا بتلك البضاعة العفنة ظانين أن الإسلام كالديانات الأخرى فى موقفه من العلوم والاكتشافات، وشتان بين الإسلام وبين هذه الديانات المحرفة. يراجع فى نشأة العلمانية ودخولها بلاد الإسلام كتاب: (مذاهب فكرية معاصرة) للأستاذ محمد قطب، و(العلمانية والإسلام وجهاً لوجه) للدكتور يوسف القرضاوى.

للمسلمين أن يقفوا عن البحث العلمى فى مستورات الكون وخفاياه اعتماداً على ما جاء فى القرآن من ذلك، ولا سيما والقرآن نفسه مملوء بالحث على النظر فى الكون، ووجوب الازدياد من العلم ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤]، ولعلك بعد ذلك تدرك سر هذه الآية الكريمة مع قوله تعالى ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ [الإسراء: ٣٦]، فالأولى: حث على تعرف ما تمكن معرفته مما هو فى حيز البحث العلمى، والثانية: نهى عن مزاولة ما لا يمكن الوصول إليه حتى تنصرف الجهود للنافع.

إلى أى مدى وصل العقل فى العلوم الكونية؟

يحسن بعد هذا البحث أن نجيب على هذا السؤال، ليعلم المغرورون بنتائج البحث العلمى: إلى أى مدى وصل العقل الإنسانى فى حل مشكلات الكون وكشف مستوراته؟ وسنورد فى هذا البحث بعض الشواهد من كلام علماء الكون غير المسلمين، ونعتذر عن ذلك مقدماً، فلسنا فى حاجة إلى تأييد كتاب الله تبارك وتعالى بغير ما هو فيه، ولكننا قصدنا بذلك إلى أمرين:

أولهما: انتزاع الدليل من غير المؤمنين بالقرآن ليكون ذلك أبلغ فى الفضل وأقوى فى الاستدلال، و«الفضل ما شهدت به الأعداء».

وثانيهما: إقناع المغرورين بعلوم الفرنجة، المفتونين برقى أوروبا المادى أعظم الفتنة إذا عرفوا أن أساتذتهم قد أعلنوا العجز واعترفوا بالقصور، وطامنوا من غرورهم وخفضوا من حدة تعصبهم لما لا يعلمون والله الهادى إلى سواء السبيل.

لقد أتى على الناس زمان توالت فيه الكشوف العلمية المادية، ولمس الناس آثارها العملية فى مجرى حياتهم الدنيا. وظن علماء الكون أنهم وصلوا إلى لب الحقائق، وابتكروا من النظريات والقواعد ما يستطيعون به تفسير كل المظاهر الكونية، وأعلن كثير منهم فى ذلك الوقت تبرمه بالأديان وأهلها، والعقائد ومعتقديها، وطغت موجة من الإلحاد على العقول والأفكار، لم تلبث هذه الموجة أن انحسرت أمام ما تجلى لهؤلاء العلماء أنفسهم من عظمة الكون، وأمام ما انكشف لهم من النواميس التى هدمت ما اطمأنوا إليه من قبل، وما اعتقدوا أنه الحق فطامنوا من غرورهم، واعترفوا بقصورهم، وأعلنوا هذا العجز التام، وواصلوا بحوثهم فى تواضع وأدب.

ذلك أمر طبيعى، فإن هذا العقل السائح فى ملكوت الله لا يستطيع ان يكشفه جملة، ولا ان يصل إلى مكنوناته طفرة، فهو لابد ان يبلغ المدة التى كتبها الله له باحثًا منقبًا[(١)] ولابد أن يصل إلى الحقائق متدرجًا، ولابد ان يخطىء مرة ويصيب أخرى، فيتلقى عن الخطأ درسًا، ويكشف بالصواب حقيقة، وهكذا دواليك، على أن العقل مهما بلغ من الكمال فهو لم يصل بعد إلى حقيقة شيء من الاشياء، إنما كل ما ظفر به بعض العوارض والصفات التى تنفع الناس؛ أما حقائق البسائط المجردة فهو لم يصل إلى شيء منها بعد. وأغلب الظن أن ذلك ليس من شأنه، ولا مما يعنيه، وإنما هو سر الخلق الذى استأثر الله بعلمه.

وإليك بعض أقوال علماء الكون فى ذلك نستفتحها بقول الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده فى « رسالة التوحيد » فى هذا المقام.

« إذا قدرنا عقل البشر قدره وجدنا غاية ما ينتهى إليه كماله إنما هو الوصول إلى معرفة عوارض بعض الكائنات التى تقع تحت الإدراك الإنسانى حسًا كان او وجدانًا أو تعقلاً، ثم التوصل بذلك إلى معرفة مناشئها، وتحصيل كليات لانواعها، والإحاطة ببعض القواعد لعروض ما يعرض لها، وأما الوصول إلى كنه حقيقته فمما لا تبلغه قوته، لان اكتناه المركبات إنما هو باكتناه ما تركبت منه، وذلك ينتهى إلى البسيط الصرف وهو لا سبيل إلى اكتناهه بالضرورة، وغاية ما يمكن عرفانه منه هو عوارضه وآثاره.

خذ أظهر الأشياء وأجلاها كالضوء.. قرر الناظرون فيه أن له أحكامًا كثيرة حصلوها فى علم خاص به ولكن لم يستطع ناظر أن يفهم ما هو؟ ولا أن يكنه معنى الإضاءة نفسها، وإنما يعرف من ذلك ما يعرف كل بصير له عينان وعلى هذا القياس » اهـ.

وتحدث الفيلسوف الفرنسى[(٢)] (جوستاف لوبون)[(٣)] فى كتابه (تحول المادة) عن

---

(١) مفتشا وكاشفًا.

(٢) هذه الشواهد منقولة من كتاب (على أطلال المذهب المادى) للأستاذ محمد فريد وجدى (البنا).
والكتاب من تاليف كاميل فلامريون، وقد عربه الأستاذ محمد فريد وجدى، وطبعته مطبعة دائرة معارف القرن العشرين سنة ١٣٤٦هـ - ١٩٢٧ م.

(٢) طبيب وعالم اجتماعى فرنسى منصف، وهو من رواد علم الاجتماع، ولد عام ١٨٤١م، وتوفى عام: ١٩٣١م، كتب عدة كتب مهمة، منها: (حياة الحقائق) ومنها - وهو أهمها كتابه: (حضارة العرب) انصف فيه العرب المسلمين، وبين ان ما يكتبه المستشرقون المتعصبون من نفى التحضر عن المسلمين، ليس له سند تاريخى.

تطور المعارف الإنسانية الكونية وقصور العقل البشرى عن إدراك حقائق النواميس الطبيعية فى كلام طويل نقتطف منه ما يلي: «كل نظرياتنا العلمية العظيمة ليست بقديمة العهد.. لأن تاريخ العلم التجريبى المحقق لا يصعد إلى أبعد من ثلاثة قرون، وفى هذا العهد القريب قربًا نسبيًا حدث دوران مختلفان من أدوار التحول فى أفكار العلماء.

فالدور الأول كان دور الثقة والاعتقاد، فكانت فيه المقررات الفلسفية والدينية وهى قواعد مدركاتنا القديمة عن الوجود تضمحل وتزول ببطء أمام المكتشفات العلمية التى تتوالى يوميًا ولا سيما فى النصف الأول من القرن الماضى، وكان يظن مؤسسو كل علم جديد أنهم متى اتموا بناء الصرح العلمى استمر هذا الصرح قائماً على أنقاض أوهام الزمان الماضى فكانت العقيدة العلمية فى هذا الدور على غاية تمامها.

دامت هذه العقيدة فى المقررات الكبرى للعلم العصرى حافظة لقوتها، إلى أن حدثت فى الأيام الأخيرة مكتشفات غير منتظرة قضت على الفكر العلمى أن يكابد من الشكوك فى نتائج بحثه ما كان يعتقد أنه قد تخلص منه أبد الآبدين. فإن الصرح الذى كان لا يرى صدوعه إلا عدد قليل من العقول العالية تزعزع فجأة بشدة عظيمة، فصارت التناقضات والمحالات التى فيه ظاهرة للعيان بعد أن كانت من الجفاء بحيث تكاد لا تبلغها الظنون.

أدرك الناس على عجل أنهم كانوا مخدوعين وأسرعوا يتساءلون: عما إذا كانت الأصول المكونة للمقررات اليقينية لمعارفنا الطبيعية لم تكن إلا فروضاً واهية تحجب تحت غشائها جهلاً لا يسبر له غور؟ فحدث فى إدراك المقررات العلمية مثل ما حدث قبل ذلك للعقائد الدينية[1] عندما شرعوا فى مناقشتها الحساب، فبدأت ساعة الانحطاط ثم تلاها دور الزوال والنسيان.

لا مشاحة فى أن الأصول التى كان العلم يختال بها اختيالاً لم تزل كل الزوال، بل هى ستبقى أمداً طويلاً فى نظر الدهماء كحقائق مقررة وستستمر الكتب الابتدائية على نشرها، ولكنها قد فقدت كل ما كان لها من الإجلال فى نظر العلماء الحقيقيين.

---

(١) يقصد المؤلف العقائد الدينية عندهم، وإلا فإن عقائد الإسلام قد سايرت العلم فى كل عصر، فلم تضعف أمامه وقد بينا سر ذلك فى الفصل السابق. (محمد فريد وجدى).

تلك المكتشفات التي نوهت بها آنفًا قد كشفت اللثام عن الظنيات التي حوت نفحها الكتب الحديثة، وبذلك يدخل العلم نفسه في دور من الفوضى كان يظن أنه قد سلم منه إلى الآن، وأصبحنا نرى أصولاً كان يظن أنها ذات قاعدة يقينية محققة فصارت موضوع النزاع بين العلماء الذين من وظائفهم تعليمها والدفاع عنها».

ثم أورد بعد ذلك عدة شواهد على قوله هذا من كلام (هنري بوانكاريه)، و(إميل بيكار)، و(ماتش)، و(لوسيان بوانكاريه) ختمها بقول الأخير: «فالآراء التي كانت تظهر لمن سبقنا كأنها تأسست تأسيسًا ثابتًا صارت اليوم لدينا موضوعًا للمناقشة، وقد رفض اليوم على وجه تام الرأي القائل بأن كل الظواهر الطبيعية تقبل تفسيرًا ميكانيكيًا، فإن أصول علم الميكانيكا نفسه صارت مشكوكًا فيها، وقد شوهدت حوادث جديدة زعزعت عقائدنا المتعلقة بالقيمة المطلقة للنواميس التي اعتبرت أساسية إلى اليوم».

ثم قال بعد ذلك: «من حسن الحظ أنه لا شيء أكثر ملاءمة للترقي العلمي من هذه الفوضى، فالوجود مفعم بمجهولات لا نراها، والحجاب الذي يحجبه عنه منسوج على من الآراء الضالة أو الناقصة التي توجبها علينا تقاليد العلم الرسمي وأشد الأشياء خطرًا على تقدم العقل الإنساني هو تقديم الظنيات للقراء لابسة حلل الحقائق المقررة على نحو ما تفعله كتب التعليم، والتطاول لوضع تخوم للعلم ورسم حدود لما تمكن معرفته كما كان يود ذلك (أجوست كونت) اهـ.

٢- حتى (دارون) نفسه وقد فتن مذهبه كثيرًا من الأغرار بين أن غاية نجاحه العلمي لم يتعد بعض التفسيرات في أصل الأنواع، وقد كتب في هذا المعنى إلى صديقه المستر (هيات) فقال: «اسمح لي أن أضيف إلى هذا: بأني لست من قلة العقل بحيث أتصور أن نجاحي يتعدى رسم دوائر واسعة لبيان أصل الأنواع».

٣- ومن كلام (وليم جيمس)[1] الأستاذ بجامعة هارفارد بالولايات المتحدة: «إن علمنا ليس إلا نقطة، ولكن جهلنا بحر زاخر. والأمر الوحيد الذي يمكن أن يقال بشيء من التأكيد هو: أن عالم معارفنا الطبيعية الحالية محاط بعالم أوسع منه من نوع آخر لم تدرك خواصه المكونة له إلى اليوم».

---

(١) فيلسوف أمريكي ولد في نيويورك سنة ١٨٤٢م، وتوفي سنة ١٩١٠م، أحد مؤسسي مذهب (البراغماتية) القائل بأن الحقيقة لا قيمة لها ما لم تؤثر في الواقع. المصدر السابق ص ٢١٠

٤- وقال الأستاذ (وليم كروكس) الإنجليزى فى خطبة له فى مجمع العلوم: «متى امتحنا من قرب بعض النتائج العادية للظواهر الطبيعية لم نبدأ بإدراج إلى أى حد تحصر هذه النتائج أو النواميس كما نسميها فى دائرة نواميس أخرى ليس لنهايتها أقل علم عندنا . أما أنا فإن تركى لرأس مالى العلمى الوهمى قد بلغ حداً بعيداً فقد تقبض عندى هذا النسيج العنكبوتى للعلم كما عبر عن ذلك بعض المؤلفين إلى حد أنه لم تبق منه إلا كرة صغيرة تكاد لا تدرك».

وقال (كاميل فلامريون) فى كتابه (المجهول) : «ترانا نفكر ولكن ما هو الفكر؟ لا يستطيع أحدنا أن يجيب على هذا السؤال، وترانا نمشى ولكن ما هو العمل العضلى؟ لا يعرف أحد ذلك، بل كيف ينقل العصب البصرى الصور الخارجية إلى الفكر؟ وقل لى : كيف يدرك هذا الفكر؟ وأين مستقره؟ وما هى طبيعة العمل المخى؟ أستطيع أن أسأل عشر سنين ولا تستطيع أكبر رأس فيكم (يقصد العلماء الكونيين) أن يجيب على أحقر أسئلتى».

وقال الفيلسوف (أندريه كريسون) فى كتابه (قواعد الفلسفة) : «العلم لا يعطينا عن الوجود فى مجموعه إلا معارف مبهمة للغاية فإننا لا نعلم البدء الحقيقى للنجوم، ولا للكواكب التى تحيط بالشموس البعيدة، فإبداء فرض والحالة هذه على تركيب مجموع الكون لا يمكن أن يكون إلا تحكماً».

تلك صورة مصغرة فى الحقيقة عن اعتراف علماء الكون بجهالتهم بنواميس الكون نسوقها تذكرة لإخواننا الذين افتتنوا بهذه البحوث، وأرادوا ان يتخلصوا من سلطان العقيدة الدينية أستناداً إليها، بل أزيدهم فى ذلك أن الفيلسوف الإنجليزى (هربرت سبنسر) كان من حججه القوية فى المطالبة بالعناية بالعلوم الطبيعية أن معرفتها مما يقوى الإيمان، ويؤدى إلى معرفة الله، فإن ما فى الموجودات من جمال التناسق والإبداع ودقة الصنع والاختراع يثير فى النفس الإنسانية فطرة الإيمان العميق، فتعترف راضية مطمئنة بعظمة الخالق العظيم، ويزيدها تسليماً وتفويضاً عجز العقل البشرى عن تخطى الحدود العرفانية المقررة له . وضرب لذلك عدة أمثلة فى غاية الروعة فلتراجع فى رسالته فى التربية .

ومن ذلك نعلم ان الإنسان لا زالت أمامه مراحل واسعة لإدراك حقائق الظواهر الكونية، فإذا عجزنا الآن عن إدراك ملكوت السماوات، وعن تعرف عجائب الأرض، وعن اكتناه سر الحياة إذ أن القرآن الكريم لم يكشف لنا من ذلك إلا ما نحتاجه للعظة والعبرة، والعقل البشرى لم يصل فى كشفه إلا إلى بعض الجوانب دون بعض. إذا عجزنا الآن فليس ذلك بنقص ولا عيب، ولسنا ملزمين أبداً بإدراج كل الحقائق، فلنقنع مؤقتاً بما وصلنا إليه، ولنعمل بجد لإدراك ما خفى عنا امره، ولكل مجتهد نصيب ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

﴿ اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ﴾ [الرعد: ٢]، تقدم فى سورة الاعراف فى الجزء الثامن من تفسير (المنار) كلام مطول نفيس عن السماوات والأرضين، وعن الايام الستة التى خلقت فيها، وعن المطابقة بين الوارد فى القرآن والمعروف من نظريات علماء الفلك، وفى الرد على كثير من الأقاصيص حول هذه الموضوعات فليراجع هناك(١) وخلاصته ما ياتى:

١ - أن السماوات والأرض يطلقان فى مثل آية (الأعراف) على كل موجود مخلوق أو ما يعبر عنه بالعالم العلوى والعالم السفلى، وإن كان العلو والسفل فيهما من الأمور الإضافية، وقد تطلق السماوات على ما دون السفلى من العالم العلوى، ولا سيما إذا وصفت بالسبع وهذا المعنى هو الموافق فى آية الرعد.

٢ - أن الأيام الستة التى وردت فى خلق السماوات والأرض هى من أيام الله التى يتجدد اليوم منها بالعمل الذى يكون فيه، فالمراد بها إذن - والله أعلم -: التطورات التى اعترت خلق السماوات والأرض من الدخان إلى المائية إلى اليبوسة إلى خلق الأحياء والتعمير بالنسبة للأرض فهذه أربعة أيام، ثم إلى تكوين الأجرام السماوية فى زمنين آخرين فليست هى كأيام الدنيا. وما جاء من الآثار فى ذلك فهو إسرائيلى أو ضعيف وأصح ما ورد فيه حديث أبى هريرة فى ذلك وفى سنده حجاج بن محمد بن الأعور وهو قد تغير فى آخر عمره ثبت أنه حدث بعد اختلاط عقله.

(١) راجعه في تفسير المنار (٨/٤٤٤- ٤٥٥).

٣- أن تكلف التوفيق بين ما ورد فى ذكر السماوات السبع وبين الأفلاك التسع المعروفة فى الهيئة الفلكية عند اليونان مردود ببطلان هذه النظريات ولا حاجة إلى الخوض فيه.

هذه خلاصة ما تقدم فى سورة الأعراف، ونزيد عليه هنا ما انفردت به هذه الآية وهو:

النص على أن رفع السماء بغير عمد إظهار لكمال قدرة الله سبحانه وتعالى وعظيم سلطانه، فهذه السماوات كلها وما فيها من الأجرام والكواكب والخلائق مرفوعة بإذنه وإمساكه من غير أن تستند على شىء، بل بذلك الناموس العجيب الذى أودعه طبيعتها وجعله لازمًا لتكوينها فاستغنت به عن أن تعتمد على ما سواه، وسواء أسمينا هذا الناموس جاذبية أو نسبية أو إمساكاً إلهيًا أو قدرة ربانية فلا تغير هذه الأسماء من حقيقة الأمر هنا.

﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ أَن تَزُولا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [فاطر: ٤١].

وقد نقل بعض المفسرين عن بعض السلف أن للسماء عمداً، ولكن لا ترى أو أنها مرتكزة على الأرض كما يشاهد فى الأفق[١]. وكل ذلك غير صحيح، وقد نفاه شيخ المفسرين ابن جرير فقال فى ذلك: «وأولى الأقوال فى ذلك بالصحة: أن يقال كما قال الله سبحانه وتعالى: (الله الذى رفع السماوات بغير عمد ترونها) فهى مرفوعة بغير عمد نراها كما قال ربنا جل ثناؤه، ولا خبر بغير ذلك، ولا حجة يجب التسليم لها بقول سواه»[٢].

بل إنه قد ورد فى شعر الجاهلية ما يفيد الاستدلال على قدرة الله وعجيب صنعه برفع السماء بغير عمد.

قال أمية بن أبى الصلت ويروونها لزيد بن نفيل رضى الله عنه:

---

(١) انظر: تفسير القرطبى (٩/٢٨٦) وزاد المسير لابن الجوزى (٤/٣٠١).

(٢) انظر: تفسير الطبرى (٧/٣٢٩).

إلى الله اهدى مدحتى وثنائيا وقولا رضيًا لا يني الدهر باقيا
إلى الملك الأعلى الذى ليس فوقه إله ولا رب يكون مدانيا
الا ايها الإنسان إياك والردى فإنك لا تخفى من الله خافيا
وإياك لا تجعل مع الله غيره فإن سبيل الرشد اصبح باديا
[حنانيك إن الجن كانت رجاءهم وأنت إلهى ربنا ورجائيا](١)
رضيت بك اللهم ربا فلن أرى أدين إلها غيرك الله ثانيا
وانت الذى من فضل ومن رحمة بعثت إلى موسى رسولاً مناديا
فقلت له: فاذهب وهارون فادعوا إلى الله فرعون الذى كان طاغيا
وقولا له: هل أنت سويت هذه بلا وتد حتى استقلت كما هيا؟
وقولا له: أأنت رفعت هذه بلا عمد أرفق إذا بك بانيا؟
وقولا له: هل أنت سويت وسطها منيرًا إذا ما جنه الليل هاديا؟
وقولا له: من يرسل الشمس غدوة فيصبح ما مست من الأرض ضاحيا؟
وقولا له: من أنبت الحب فى الثرى فيصبح منه البقل يهتز رابيا؟
ويخرج منه حبه فى رؤوسه ففى ذاك آيات لمن كان واعيا
[وأنت بفضل منك نجيت يونسا وقد بات فى أحضان حوت لياليا]
[وإنى لو سبحت باسمك ربنا لا كثر إلا ما غفرت خطائيا]
فرب العباد ألق سيبا ورحمة على وبارك فى بنى وماليا

نقله الحافظ ابن كثير فى (البداية والنهاية) عن ابن إسحاق(٢)

وما ورد فى تحديد مادة السماوات، وتقدير الأبعاد بينها وبين الأرض أو بينها وبين عوالم الملأ الأعلى لا يصح فضلاً عن أنه غامض مبهم.

---

(١) الأبيات التى بين معقوفتين سقطت من مقال الإمام البنا وقد استدركتها من «البداية والنهاية» لابن كثير.

(٢) انظر: البداية والنهاية لابن كثير (١ / ٣٦-٣٧).

[استواء الله على العرش]

﴿ثم استوى على العرش﴾ قال صاحب المنار - رحمه الله -: فى مثل هذه الآية من سورة الأعراف بعد كلام فى المعنى اللغوى للاستواء والعرش وإيراد للآيات التى ذكر فيها ذلك ما نصه: «لم يشتبه أحد من الصحابة فى معنى استواء الرب تعالى على العرش على علمهم بتنزهه سبحانه عن صفات البشر وغيرهم من الخلق، إذ كانوا يفهمون أن استواءه تعالى على عرشه عبارة عن استقامة أمر ملك السماوات والأرض له وانفراده هو بتدبيره.

وأن الإيمان بذلك لا يتوقف على معرفة ذلك التدبير أو صفته، وكيف يكون؟ بل لا يتوقف على وجود عرش.. ولكن ورد فى الكتاب والسنة: أن لله عرشًا خلقه قبل خلق السماوات والأرض، وأن له حملة من الملائكة فهو كما تدل اللغة مركز تدبير العالم كله. قال تعالى فى سورة هود: **﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾** [هود: ٧].

ولكن عقيدة التنزيه القطعية الثابتة بالنقل والعقل كانت مانعة لكل منهم أن يتوهم أن فى التعبير بالاستواء على العرش شبهة تشبيه للخالق بالمخلوق. كيف وإن بعض القرائن الضعيفة لفظية أو معنوية تمنع فى لغتهم حمل اللفظ على معناه البشرى، فكيف إذا كان لا يعقل؟ وكيف والاستواء على الشىء مستعمل فى البشر استعمالاً مجازياً وكنائياً كما تقدم؟

والقاعدة التى كانوا عليها فى كل ما أسنده الرب تعالى إلى نفسه من الصفات والأفعال التى وردت اللغة فى استعمالها فى الخلق: أن يؤمنوا بما تدل عليه من معنى الكمال والتصرف، مع التنزيه عن تشبيه الرب بخلقه، فيقولون: إنه اتصف بالرحمة والمحبة، واستوى على عرشه بالمعنى الذى يليق به، لا بمعنى الانفعال الحادث الذى نجده للرحمة والحب فى أنفسنا، ولا ما نعهده بالاستواء والتدبير من ملوكنا.

وحسبنا أن نستفيد من وصفه بهاتين الصفتين أثرهما فى خلقه، وأن نطلب رحمته، ونعمل ما يكسبنا محبته، وما يترتب عليهما من مثوبته وإحسانه، ونستفيد من الاستواء على عرشه كون الملك والتدبير له وحده فلا نعبد غيره، ولذلك قرنه فى آخر آية

يونس [الآية: ٣] بقوله: ﴿ مَا مِن شَفِيعٍ إِلاَّ مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ﴾، وفى سورة الم السجدة ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلا شَفِيعٍ أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ ﴾ [السجدة: ٤]. اهـ(١).

ونقول: لك ان تقول هذا فتلاحظ فى معنى الاستواء الوارد فى الآيات والقرائن والملابسات؛ وذكر الخلق والتدبير والتصريف؛ ونفى الشفعاء فى معظم الآيات التى ورد فيها الاستواء، ولم يجئ ذلك عبثًا وإنما جاء لرابطة بين المعانى الواردة فى الآية فتعتقد أن المراد بالاستواء على العرش مطلق التدبير والتصرف، وتصرفه تصرفًا تاماً عن معناه الذى يوهم التشبيه كما جاء فى هذا القول المتقدم، ولك أن تتوقف مبالغة فى الورع فتقول: نمره كما جاء من غير تكييف ولا تشبيه ولا تعطيل. ولكل من الموقفين موضعه، فانت إذا خفت على نفسك أو غيرك شبهة التشبيه فامامك المعنى الاول يثلج الصدر، ويطمئن القلب، ولا يتنافى مع ظاهر اللغة، ولا يقدح فى جلال الصفة، وإن كنت رجلاً رضى النفس، مطمئن القلب بالإيمان، مستريح البال بالتفويض والتسليم تخشى أن الكلام فى هذه المعانى يفتح عليك وعلى غيرك أبوابًا من الفتنة المغلقة فقلت: آمنت بما جاء عن الله على مراد الله والله أعلم بمراده(٢)، «استفت قلبك وإن أفتوك وإن أفتوك وإن أفتوك»(٣) والله أعلم(٤).

(وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى)

يكون المراد بالجريان: ما يرى من حركتهما الظاهرة التى تلازم ناموس الاتصال بينهما وبين الأرض وبقية الكواكب حتى تقوم الساعة فيبطل ذلك النظام ويختل ذلك الناموس

(١) انظر: تفسير المنار (٨/٤٥١-٤٥٢).

(٢) هذه العبارة: «آمنت بما جاء عن الله على مراد الله، والله أعلم بمراده» منقولة عن قول أحد السلف: «آمنت بما جاء عن الله وبما جاء عن رسول الله ﷺ على مراد رسول الله ﷺ»، وقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية أن قائلها هو: الإمام الشافعى رحمه الله. انظر: مجموع الفتاوى (٤/٢).

(٣) جزء من حديث رواه أحمد (١٧٥٤٥) والدارمى (٢٥٣٣) عن وابصة الأسدى رضى الله عنه.

(٤) يأخذ بعض الإخوة السلفيين على الشيخ البنا أنه ينسب التفويض للسلف، وأن هذا فهم مغلوط من البنا لموقف السلف، والصواب: أن التفويض ورد عن عدد من السلف الصالح، وقد أتى الإمام بأقوالهم فى «رسالة العقائد» فلتراجع، وليراجع تفصيل ذلك فى كتاب «الصفات الخبرية» للدكتور محمد عياش الكبيسى ط المكتب المصرى الحديث.

وتبدل الأرض غير الأرض والسماوات، وقد يكون المراد جريانهما الحقيقي. وقد ثبت أن لكل الأجرام حركات حول نفسها، ولكثير منها حركات حول غيرها، وللشمس حركة حول نفسها، ولها هي ومجموعتها الكوكبية حركة انتقالية في السماء، بحيث إن دوران الأرض حول الشمس ليس في خط منحن مقفل، بل في خط حلزوني مفتوح دائمًا لا تمر من نقطة واحدة دفعتين منذ دارت إلى الآن وهذا عجيب حقًا.

وإلى أين تسير الشمس في السماء؟ لا يجيبك أحد من الفلكيين، ولكن القرآن الكريم يقول: ﴿لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا﴾ [يس: ٣٨] ، وأين هذا المستقر؟ ذلك ما يعلمه الله ولم يصل إليه العلم التجريبي بعد، كلا المعنيين صحيح، الأول: معنى نظري، والثاني: معنى علمي، وهو أسلوب القرآن المعجز الذي ذكرت لك آنفًا.

وإنما خصت الشمس والقمر بالذكر: لصلتهما الواضحة بالأرض وما عليها، وإلا؛ فالتسخير والتصريف والقهر يتناول كل الأجرام السماوية بل كل العوالم، وقد صرح القرآن بذلك في كثير من الآيات كقوله تعالى: ﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤].

(يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون)

هذا النظام المعجز، والخلق البديع والتكوين الكامل، والتصريف العجيب: هو تدبير الله وصنعه، وكذلك يدبر الله أمر الخلق، ويفصل لهم الآيات الكونية والقولية لعل ذلك يكشف عن قلوبهم حجب الغفلة، ويزيل غشاوة الشك والريب، فإذا أدركوا بعض مظاهر هذه العظمة الربانية اعتقدوا وأيقنوا: أن هذا الخالق قادر على إعادتهم، وأنهم سيلقونه فيحاسبهم على ما قدموا من الأعمال في حياتهم الدنيا.

واليقين صفة من صفات العلم، ومرتبة من أعلى مراتب الإيمان، وهو فوق المعرفة والدراية، وهو سكون القلب واطمئنانه مع ثبوت الحكم في النفس، واستقراره وزوال كل عوارض الشك والريب، والله أعلم.

*****

[من آيات الله في الأرض](1)

﴿ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۝ وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [الرعد : ٣، ٤].

افتتحت السورة الكريمة بتقديم القرآن للناس على أنه الكتاب الحق المنزل من عند الله تبارك وتعالى؛ وإن صرفت الصوارف كثيراً منهم عن الإيمان به والاهتداء بهديه، ثم عرضت لما في هذا القرآن الكريم من أمهات العقائد الكفيلة بالنجاة والفوز في الآخرة.
ولاشك أن أول هذه العقائد : (معرفة الله تبارك وتعالى) ولما كانت الوسيلة إلى معرفة الله تبارك وتعالى والإيمان العميق بعظمته وقدرته وجليل صفاته : النظر في ملكوته والتأمل في عجائب صنعه وبدائع مخلوقاته؛ عرضت السورة الكريمة لهذه المظاهر الكونية، مشيرة بها إلى عظمة الخالق المدبر تبارك وتعالى، وبدأت بخلق السماوات وما فيها من عجائب تسخير الشمس والقمر وجريانهما إلى أجل مسمى، فذلك قوله تبارك وتعالى :
﴿ اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الأَمْرَ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لَعَلَّكُم بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴾ [الرعد : ٢].

ثم لفتت السورة أنظار العباد بعد ذلك إلى خلق الأرض وما فيها من عجائب الصنع ودقائق الإبداع، فذلك قول الله تبارك وتعالى : (وهو الذى مد الأرض وجعل فيها رواسى . . .) الآيتان.

[القراءات الواردة في الآيتين]

قرأ حمزة والكسائى ويعقوب وأبوبكر عن عاصم : (يغشى) بفتح الغين وتشديد الشين. وقرأ الباقون : يغشى بالتخفيف(2).

---

(١) نشرت فى مجلة (المنار) فى العدد السابع من المجلد (الخامس والثلاثين) الصادر فى ربيع الأول سنة ١٣٥٩هـ ابريل سنة ١٩٤٠م.

(٢) انظر : « النشر فى القراءات العشر » لابن الجزرى (٢ / ٢٩٧) و« الكشف عن وجوه القراءات » للقيسى (١ / ٤٦٤) و« حجة القراءات » لأبى زرعة بن زنجلة ص٣٦٨.

وقرأ الجمهور (وجنات) برفعها على تقدير: وفى الأرض جنات، فهو معطوف على قطع متجاورات، وفيها جنات. وقرأ الحسن: بالنصب وجنات، على تقدير: وجعل فيها جنات.

وقرأ ابن كثير وابوعمر وحفص: (وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان) برفع الأربع عطفا على جنات. وقرأ الباقون: بالجر عطفًا على أعناب. وقرأ مجاهد والسلمى: بضم الصاد من صنوان وقرأ الباقون: بالكسر وهما لغتان،[1] قال أبوعبيدة: صنوان جمع صنو وهو: أن يكون الأصل واحداً يتفرع فيصير نخيلاً، ثم يحمل، وهو قول جميع أهل اللغة والتفسير[2].

وقال ابن الاعرابى: الصنو المثل، ومنه: قوله ﷺ: «عم الرجل صنو أبيه»[3].

والمعنى على ذلك: أن أشجار النخيل قد تكون متماثلة، وقد تكون غير متماثلة، وأخرج الغريانى وسعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبوالفتح وابن مردويه عن البراء بن عازب فى قوله: صنوان وغير صنوان.. قال الصنوان: ما كان أصله واحداً وهو متفرق وغير صنوان التى تنبت وحدها[4].

وقرأ عاصم وابن عامر قوله تعالى: (يسقى بماء واحد): بالتحتية أو يسقى ذلك كله بماء واحد. وقرأ الباقون: بالفوقية، بإرجاع الضمير إلى جنات، واختاره: أبوحاتم وأبوعبيد أبوعمرو.

وقرأ حمزة والكسائى قوله تعالى: (ونفضل بعضها على بعض فى الأكل): بالتحتية، كما فى قوله تعالى: ﴿ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ ﴾ [الرعد: ٢]. وقرأ الباقون بالنون على تقدير: ونحن نفضل.

---

(١) انظر: حجة القراءات ص٣٦٩، و«النشر فى القراءات العشر» (٢/ ٢٩٧).

(٢) انظر: أساس البلاغة للزمخشرى ص٣٦٣.

(٣) رواه أحمد (٧٢٧) والترمذى (٣٧٦٠) عن على رضى الله عنه. ورواه أحمد (١٧٠٦٢) والترمذى (٣٧٥٨) عن المطلب بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب رضى الله عنه. ورواه أحمد (٨٠٨٥) ومسلم (٩٨٣) والترمذى (٣٧٦١) وابوداود (١٦٢٣) عن ابى هريرة رضى الله عنه.

(٤) انظر: تفسير الطبرى (٧/ ٣٣٤) وتفسير القرآن لأبى مظفر السمعانى (٣/ ٧٧).

[شرح الآيتين]

وفى الآيتين بعد ذلك مباحث عدة نجملها فيما يلي:

(**وهو الذى مد الأرض**) ورد التعبير عن خلق الأرض فى القرآن الكريم بالفاظ كثيرة، منها: المد المذكور هنا.

ومنها: الفرش فى قوله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً** ﴾ [البقرة: ٢١، ٢٢] وقوله تعالى: ﴿ **وَالأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ** ﴾ [الذاريات: ٤٨].

ومنها: البسط في قوله تعالى في سورة نوح: ﴿ **وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلاً فِجَاجًا** ﴾ [نوح: ١٩- ٢٠].

ومنها: الدحو أو الدحى، فى قوله تعالى: ﴿ **وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا** ﴾ [النازعات: ٣٠، ٣١]. والمراد من ذلك كله: خلقها وسواها وجعلها ممهدة لمعايش الخلق ومصالحهم، كما قال تبارك وتعالى: ﴿ **وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ** ﴾ [الحجر: ١٩، ٢٠]. وفى هذا التنويع فى التعبير: إشارة إلى تصرف القرآن فى أساليب البلاغة اللفظية، وبلوغه من ذلك المبلغ الذى لا يسامى، وفيه كذلك: فائدة معنوية وهى الإشارة بهذه التعبيرات المختلفة إلى فوائد الأرض ومنافعها للناس، ففى المد: إشارة إلى السعة والامتداد لمن شاء الغدو والرواح والتقلب فى مناكبها والاضطراب فى مذاهبها.

وفى البسط: إشارة إلى السعة والتذليل لمن شاء اجتناء منافعها وتحصيل خيراتها.

وفى الفرش: إشارة إلى الراحة والإيواء والاستقرار على ظهرها لمن شاء أن يتذكر نعمة الله فى ذلك فيقوم بشكرها.

وفى الدحو: إشارة إلى عجائب صنع الله تبارك وتعالى فى خلقها وتسويتها وهكذا.

[كروية الأرض]

ولا تنافى بين ما جاء فى القرآن الكريم من التعبير بهذه الألفاظ وما يقوله علماء الفلك

من كروية الأرض، فإن كل جزء من أجزاء سطح الأرض يبدو فى رأى العين ممتداً مبسوطًا، وحقيقة وضعه تكاد تكون كذلك، إذ لا يتوفر فيها معنى التكوير والتقوس لسعة المحيط، والقرآن لا يريد تنبيه الناس إلى المعنى العلمى البحت فى شأن الأرض، ولكنه يريد تنبيههم إلى الاعتبار والتفكر فيما يقع تحت حواسهم منها، وهذا الذى يقع تحت حواسهم منها هو ما يستخدمونه فعلاً ويعيشون عليه فعلاً،وهذا الجزء لا مظهر فيه ولا حقيقة ولا حسا لمعنى التقوس الذى لا يكاد يدرك. فلهذا آثر التعبير بالمد والبسط والفرش ونحوها.

قال الشوكانى: (وهو الذى مد الأرض): قال الفراء: بسطها طولاً وعرضًا. وقال الأصم: إن المد هو البسط إلى ما لا يدرك منتهاه. وهذا المد الظاهر لا ينافى كرويتها فى نفسها لتباعد أطرافها[1].

وفى الجزء الأول من تفسير (المنار) عند قوله تبارك وتعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٩] استطرد إلى معنى الدحو، «الدحو» فى أصل اللغة دحرجة الأشياء القابلة للدحرجة كالجوز واللوز والكرى والحصا ورميها ويسمون المطر الداحى لأنه يدحو الحصا وكذا اللاعب بالجوز[2]. وفى حديث أبى رافع: كنت ألاعب الحسن والحسين رضوان الله عليهما بالمداحى،وهى أحجار أمثال القرصة كانوا يحفرون ويدحون فيها بتلك الأحجار فإن وقع الحجر فيها غلب صاحبها، والأغلب ذكره فى اللسان، وقال بعده: والدحو هو رمى اللاعب بالحجر والجوز وغيره... إلى أن قال: وهذا لا ينافى ما قيل من أن معناه: بسطها أى وسعها ومد فيها. وأنه سطحها اى جعل لها سطحًا واسعًا يعيش عليه الناس وغيرهم. فمن جعل مسألة كرويتها وسطحها أمرين متعارضين يقول بكل منها قوم يطعنون فى الآخرين فقد ضيقوا من اللغة والدين واسعًا بقلة البضاعة فيهما والله أعلم[3].

(**وجعل فيها رواسي وأنهاراً**) الرواسى: الجبال الثوابت، وهى جمع راسية، والإرساء: الثبوت[4]. قال جميل:

---

(١) انظر: فتح القدير للشوكانى (٣/ ٦٦).

(٢) انظر: أساس البلاغة للزمخشرى ص١٨٤.

(٣) انظر: تفسير المنار (١/ ٢٤٨- ٢٤٩).

(٤) انظر: أساس البلاغة ص٢٣٢.

احـبـهـا والذى أرسى قـواعـده ... حـتى إذا ظهـرت آياته بطنا

وأنشدوا من قول زيد بن عمرو بن نفيل:

وأسلمت وجـهى لمن أسلمت ... له الأرض تحمل صخراً ثقالا

دحاها فلما استوت شدها ... بأيد وأرسى عليها الجبالا

والأنهار: مجارى الماء العذب على وجه الأرض.

وقد ورد ذكر الجبال والأنهار فى كثير من آيات القرآن الكريم. وقلما يرد ذكر الجبال خالياً من وصفها بالإرساء، ومن بيان أن حكمة ذلك الإرساء: التثبيت للأرض حتى لا تميد بمن عليها مع مقارنة ذكر الأنهار فى أغلب الآيات ففى سورة الأنبياء: ﴿ **وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ** ﴾ [الآية: ٣١]، وفى سورة النحل ﴿ **وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ** ﴾ [الآية: ١٥]، وفى سورة فاطر: ﴿ **أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ** ﴾ [الآية: ٢٧].

[وجه الارتباط بين الجبال والأنهار]

ووجه الارتباط بين الجبال والأنهار ملحوظ معروف، فإن الجبال هى سبب حدوث الأنهار، لأن الماء حين يسقط من السحب على رؤوس الجبال ينحدر إلى سطح الأرض، فيأخذها بقوة الانحدار ويحدث فيها بمرور الزمن مجرى يكون نهراً عظيماً، وقلما نجد نهراً لا يبدأ فى منبعه بجبل أو بمجموعة من الجبال.

ولم يعرض القرآن الكريم للكيفية التفصيلية فى حدوث الجبال وتركيبها وتعداد فوائدها ومنافعها، وترك ذلك الى النظر العقلى والبحث العلمى، وإنما أشار إلى دقة الصنع وعظيم الإبداع، ليكون فى ذلك عظة للناظرين وعبرة للمعتبرين.

(ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين) الزوج يطلق على الاثنين وعلى الواحد المزاوج للآخر.

والمراد هنا بالزوج: الصنف الواحد، ولهذا أكد بالاثنين لدفع توهم أنه أريد بالزوج هنا الاثنين.

ذهب كثير من المفسرين إلى أن المقصود من ذلك: أن الله جل جلاله جعل كل نوع من أنواع ثمرات الدنيا صنفين، إما فى اللونية كالبياض والسواد ونحوهما، أو فى الطعمية كالحلو والحامض ونحوهما، أو فى القدر كالصغر والكبر، أو فى الكيفية كالحر والبرد.

وقال الفراء: إن المراد بالزوجين: الذكر والأنثى.

وأخرج أبوالشيخ عن مجاهد فى قوله: (جعل فيها زوجين اثنين) قال: ذكر وأنثى من كل صنف.

وأنت إذا عرفت ما قرره النباتيون من أن الاتحاد فى كل أصناف النبات لا يكون إلا بعد (الإخصاب) الذى يكون بعد التلقيح، وأن الأزهار النباتية منها ما هو ذكر ومنها ما هو أنثى ومنها ما هو مزدوج، ففيه أعضاء الذكورة والأنوثة معًا. علمت مبلغ الإعجاز فى هذه الآية الكريمة، وأنها تشير إلى قانون نباتى لم يكتشف إلا فى الأعصار الحديثة، ورجحت بهذا ما ذهب إليه الفراء ومجاهد من أن المراد بالزوجين الذكر والأنثى.

ولا يرد على هذا أن بعض الثمار ينمو من غير تلقيح كالدرنيات مثل نبات البطاطس ونحوها، فإن هذه ليست ثماراً حقيقية، ولكنها امتدادات أو جذور من جسم النبات الأصلى، تنمو بقوة التوالد الخضرى.

(يغشى الليل النهار) تقدم الكلام على ذلك فى سورة الأعراف[1] عن قوله تعالى: **﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا ﴾** [الأعراف: ٥٤]، وملخص ما قيل هناك: أن معنى التغشية أو الإغشاء: التغطية. وفى قراءة التشديد: المبالغة والكثرة، والمعنى: أن الله قد جعل الليل الذى هو الظلمة يغشى النهار وهو ضوء الشمس على الأرض، أى يتبعه ويغلب على المكان الذى كان فيه ويستره، وأن مسألة الليل والنهار صارت معلومة بالقطع فى هذا

---

(١) أى تقدم شرحها فى تفسير المنار، فكلما يشير الإمام البنا إلى تفسير آية سبق تفسيرها، إنما يقصد بذلك تفسير المنار، وذلك نظرًا لأنه يشرح سورة الرعد فى مجلة (المنار) التى كان يملكها ويحررها الشيخ رشيد رضا رحمه الله.

العصر، فيمكن تحديد ساعات الليل والنهار فى كل قطر ومخاطبة أهله بالتلغراف للتأكد من صحة الوقت الحسابى عندهم، وأن المحققين من علماء المسلمين فى المعقول والمنقول كالغزالى والرازى وابن تيمية وابن القيم قد اتفقوا على كروية الأرض، وظواهر النصوص أدل على هذه الكروية، وأن هؤلاء المحققين قد حكوا القول بدوران الأرض على مركزها، وأوردوا عليه نظريات تشكك فى كونه قطعيًا ولا تنقصه كما فى المواقف والمقاصد وغيرها، والنصوص لا تمنع مما يقول به علماء الهيئة من هذا الدوران(١).

ونزيد هنا: أن الامتنان بعجائب الليل والنهار وما فى تعاقبهما من الفوائد والمنافع جاء فى كثير من آيات القرآن الكريم فى كثير من المواضع وبأساليب متنوعة. ففى سورة الإسراء: ﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً ﴾ [الآية: ١٢]، وفى سورة الفرقان: ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴾ [الآية: ٦٢]. وفى سورة القصص: ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَفَلا تَسْمَعُونَ (٧١) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلا تُبْصِرُونَ (٧٢) وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [الآيات ٧١ - ٧٣]، وفى سورة يس: ﴿ وَآيَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴾ [الآية: ٣٧] إلى كثير من هذا المعنى فى كتاب الله، وهو فى ذلك كله إما أن يلفت الأنظار إلى سلخ النهار من الليل، أو إلى غشيان الليل والنهار أو إلى تعاقبهما وتخالفهما، وفى التعبير بالتغشية والسلخ والتخالف إشارة إلى الاتصال التام بين وقتى الليل والنهار والتدرج فى تعقب أحدهما الآخر، فكل جزء من سطح الأرض يخلو من أحدهما يعقبه فيه الثانى توًا وهكذا دواليك. وهو يوافق ما يقرره الفلكيون فى هذه الأعصار.

(إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون) إن فيما ذكر من مد الأرض وما يتصل بها من عوالم الجبال والأنهار، وغرائب النبات والأفلاك، لدلائل واضحة على قدرة الصانع

---

(١) انظر: التفسير الكبير للرازى (١٠ / ٣) وروح المعانى للألوسى (١٣ / ٩١) وفتح القدير للشوكانى (٣ / ٦٦) وممن رفض القول بكروية الأرض: الإمام القرطبى فى تفسيره (٩ / ٢٨٨).

الحكيم لمن أراد أن يعمل فيها فكره، ويوجه إليها أشعة بصيرته، وهذه الآيات تظهر لكل لأحد على قدر علمه وفهمه، وجودة فكره وصفاء ذهنه وصدق توجهه، فأما علماء الهيئة والنبات وغيرهم من الباحثين في علوم الكون فهم يعرفون من نظامها ما يدهش العقل، وأما سائر الناس فحسبهم هذه المناظر البديعة، والأجرام الرفيعة والعوالم العجيبة، وما فيها من الحسن والروعة والجمال.

(وفي الأرض قطع متجاورات) من دقائق البلاغة في تركيب هذه الآية الكريمة: أن تقرأ هذه الجملة منها منفصلة عما سواها، فتفهم أن المراد بذلك: لفت النظر إلى التأمل في طبيعة الأرض وأسرار تكوينها، ففيها قطع متجاورات، ولكنها تختلف في العناصر، وتتنوع في الطبائع، وتتباين في المواد والصفات، باختلاف بعض العوارض الطبيعية فترى في الأرض قطعة خصبة يانعة لما يجرى فيها من أنهار وما ينبع منها من ماء، وبجوارها صحراء قاحلة قد حرمت هذه المزايا وعطلت من تلك الخواص، وترى قطعة من الأرض معتدلة العناصر صالحة للزرع، وإلى جوارها سبخة مالحة لا تمسك ماء ولا تنبت زرعًا، وترى سهلاً فسيحًا منبسطًا يمتد في سفح جبل عالي الذرا شامخ القمة وفي كل ذلك فوائده ومنافعه للناس.

هذه المعاني الكثيرة تتوارد إلى ذهنك إذا قرأت هذه الجملة منفصلة عما بعدها من بقية الآية الكريمة، فإذا وصلتها بهذه البقية تبادر إلى ذهنك معنى آخر هو: أن المراد الاعتبار والتفكر في اختلاف ألوان النبات وصنوفه، مع أن الأرض التي يزرع فيها متجاورة متحدة الخواص والماء الذي يسقى به كذلك، ولكنه هو ينبت مختلفًا في شكله، فهو صنوان وغير صنوان، وفي طعمه فبعضه يفضل بعضًا في الأكل.

(وجنات من أعناب وزرع ونخيل) وفي الأرض كذلك جنات وحدائق وبساتين، فيها الأعناب ونحوها من النباتات المستقلة، وفيها الزروع ونحوها من النباتات الحشيشية السابقة، وفيها كذلك النخيل ونحوه من الأشجار العظيمة الكثيرة الأغصان والأوراق.

(صنوان وغير صنوان) متشابهة وغير متشابهة أو مفردة الساق ومزدوجة، كما قال تبارك وتعالى: ﴿ **وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ** ﴾ [الأنعام: ١٤١].

(يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض فى الأكل) هذه الجنات والأعناب والزروع والنخيل يسقى بماء واحد، وتزرع فى قطع متجاورة من الأرض، ثم تختلف بعضها عن بعض فى الطعم، فمنها الحلو ومنها الحامض، ومنها المز، ومنها المر.

أخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس قال: «هذا حامض وهذا حلو، وهذا دقل وهذا فارسى»[1]، بل إن الصنف الواحد من النبات قد يزرع فى الأرض المتجاورة ويسقى بالماء الواحد، ثم يختلف طعم بعض ثمراته عن بعض.

ويقول علماء النبات: إن ذلك الاختلاف يرجع إلى طبيعة الجنين المستقر فى البذور، وما ينجم عنه من جذور تمتد فى باطن الأرض، ثم تمتص منها ما يناسب هذا الجنين ويوافق أطوار حياته، حتى ينمو ويصير شجرة كاملة تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها، فما يمتصه جنين الفول من أجزاء الأرض غير ما يمتصه جنين القمح من هذه الأجزاء ولو فى نسب العناصر المختلفة، وما يمتصه العنب غير ما يمتصه الخوخ والتفاح، وهكذا فسبحان من أعطى كل شىء خلقه ثم هدى.

(إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون) إن فى هذه العجائب جميعًا: لدلائل على قدرة الخالق وعظمته، لقوم يستخدمون عقولهم فى إدراك الحقائق وتعرفها.

[لطيفة]

ومن دقائق البلاغة فى الآيات الكريمة: الإشارة إلى مراتب الاعتقاد فى تدرج وتلطف، فإن النظر فى عوالم السماوات والعرش والشمس والقمر كما هو فى الآية الثانية من السورة، يؤدى إلى اطمئنان القلب، وحسن اليقين، ولذلك ختمها بقوله: (لعلكم بلقاء ربكم توقنون).

والتأمل فى عوالم الأرض ومدها، وما فيها من جبال وأنهار، وصلتها بغيرها من العوالم؛ تلك الصلة التى تظهر فى تعاقب الليل والنهار، يؤدى إلى: يقظة الفكر، وجودة النظر، ولذلك ختمها بقوله: (إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون).

---

(١) رواه الترمذى مرفوعًا (٣١١٧) عن أبى هريرة رضى الله عنه، وقال: حسن غريب. وابن جرير (٦٩/١٣). انظر جامع الأصول (٢٠١/٢).

والبحث فى عوالم النبات وعجائب حياته - بعد حياة القلب باليقين، وصحة الفكرة - يؤدى إلى : كمال العقل وتمام المعرفة، ولذلك كان ختام الآيات : (إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون) فاليقين شعور يلتئم مع الفكرة فينتج العقل الكامل (ومن أصدق من الله قيلا) .

الحث على تعلم هذه العلوم:

ولعل من نافلة القول : أن نذكر أن ورود هذه الآيات بهذا الأسلوب فى القرآن الكريم، أكبر دافع للمسلمين إلى أن يدرسوا هذه العلوم، ويستبحروا فى دراستها، ويأخذوا منها بالنصيب الأوفر، فهى وسيلتهم إلى معرفة الله تبارك وتعالى.

وقد اعتبر الإسلام التفكر فى هذه المصنوعات الربانية، والتبحر فى دراسة أسرار الكون : عبادة لا تعدلها عبادة، وهم بذلك يستطيعون أن يدفعوا عن دينهم شبهات بعض الذين عرفوا قشوراً من هذه المعارف ثم راحوا يهاجمون بها العقائد، مخادعين بأن العلم يناقض الدين، وهو كلام كاذب لا حجة عليه، بل ان معرفة الكون هى الوسيلة الصحيحة لمعرفة الله فى نظر الإسلام، ومن كلام الفيلسوف الإنجليزى (هربرت سبنسر) فى هذا المعنى فى رسالة (التربية) :

« العلم يناقض الخرافات ولكن لا يناقض الدين نفسه . يوجد فى شىء كثير من العلم الطبيعى الشائع روح الزندقة، ولكن العلم الصحيح الذى أفاد المعلومات الصحيحة، ورسب فى أعماق الحقائق : براء من هذه الروح.

العلم الطبيعى لا ينافى الدين، ولكن الذى ينافى الدين هو ترك هذا العلم.

التوجه للعلم الطبيعى عبادة صامتة، واعتراف صامت بنفاسة الأشياء التى تعاين وتدرس ثم بقدرة خالقها، فليس ذلك التوجيه تسبيحًا شفهيًا، بل هو تسبيح عملى. وليس باحترام مدعى، إنما هو احترام أثمرته تضحية الوقت والتفكير والعمل.

وهذا العلم لا يسلك طريق الاستبداد فى تفهيم الإنسان استحالة إدراك (ذات الله)، ولكنه ينهج بنا النهج الأوضح فى تفهيمنا هذه الاستحالة بإبلاغنا جميع أنحاء تلك الحدود التى لا يستطاع اجتيازها، ثم يقف بنا فى رفق وهوادة عند هذه النهاية، وهو بعد ذلك يرينا - بكيفية لا تعادل - صغر العقل الإنسانى إزاء ذلك الذى يفوت العقل. أ هـ.

[مؤاخاة الإسلام بين العلم والدين]

(الإنسان والطبيعة) إن القرآن بهذا الأسلوب البديع الفريد ربط بين القلب المؤمن والعقل المفكر، وآخى بذلك بين الدين والعلم، ووفق بين الإنسان والطبيعة، بين الفرد وبيئته، وهذا أقصى ما وصل إليه الاجتماعيون والمربون من سمو الغاية ونبل المقصد؛ قد سبقهم به الإسلام بعدد عظيم من الأجيال.

يتبرم كثير من الشبان العصريين بالطقوس والترانيم التي جعلتها الكنيسة لب العبادة وعماد المناجاة، ويرى هذا الفريق من الشبان: أن هذا الوجود هو أقدس سفر يتلو فيه الإنسان آيات عظمة الله تبارك وتعالى، وهم لذلك يرددون آثار (شوبنهور) و(جوتة) و(بيرون) و(لامرتين) وغيرهم من شعراء الغرب، الذين تناولوا الكون بالوصف الرائع البديع.

هذا الفريق من الشباب لو قرأوا القرآن الكريم ودرسوا الدين الإسلامي الحنيف، لوجدوا فيه فوق ما يتصورون من تغذية العقول والأرواح؛ بالتأمل في خلق الله تبارك وتعالى في كونه ومخلوقاته، ولوجدوا في ذلك حياة أرواحهم وسعادة أنفسهم.

فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يحيي الأرض بعد موتها؟ إن ذلك لمحيي الموتى، وهو على كل شيء قدير(١).

*****

(١) اقتباس من قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فصلت: ٣٩].

والبحث فى عوالم النبات وعجائب حياته - بعد حياة القلب باليقين، وصحة الفكرة - يؤدى إلى: كمال العقل وتمام المعرفة، ولذلك كان ختام الآيات: (إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون) فاليقين شعور يلتئم مع الفكرة فينتج العقل الكامل (ومن أصدق من الله قيلا).

الحث على تعلم هذه العلوم:

ولعل من نافلة القول: أن نذكر أن ورود هذه الآيات بهذا الأسلوب فى القرآن الكريم، أكبر دافع للمسلمين إلى أن يدرسوا هذه العلوم، ويستبحروا فى دراستها، ويأخذوا منها بالنصيب الأوفر، فهى وسيلتهم إلى معرفة الله تبارك وتعالى.

وقد اعتبر الإسلام التفكر فى هذه المصنوعات الربانية، والتبحر فى دراسة أسرار الكون: عبادة لا تعدلها عبادة، وهم بذلك يستطيعون أن يدفعوا عن دينهم شبهات بعض الذين عرفوا قشوراً من هذه المعارف ثم راحوا يهاجمون بها العقائد، مخادعين بان العلم يناقض الدين، وهو كلام كاذب لا حجة عليه، بل ان معرفة الكون هى الوسيلة الصحيحة لمعرفة الله فى نظر الإسلام، ومن كلام الفيلسوف الإنجليزى (هربرت سبنسر) فى هذا المعنى فى رسالة (التربية):

«العلم يناقض الخرافات ولكن لا يناقض الدين نفسه. يوجد فى شىء كثير من العلم الطبيعى الشائع روح الزندقة، ولكن العلم الصحيح الذى أفاد المعلومات الصحيحة، ورسب فى أعماق الحقائق: براء من هذه الروح.

العلم الطبيعى لا ينافى الدين، ولكن الذى ينافى الدين هو ترك هذا العلم.

التوجه للعلم الطبيعى عبادة صامتة، واعتراف صامت بنفاسة الأشياء التى تعاين وتدرس ثم بقدرة خالقها، فليس ذلك التوجيه تسبيحًا شفهيًا، بل هو تسبيح عملى. وليس باحترام مدعى، إنما هو احترام أثمرته تضحية الوقت والتفكير والعمل.

وهذا العلم لا يسلك طريق الاستبداد فى تفهيم الإنسان استحالة إدراك (ذات الله)، ولكنه ينهج بنا النهج الأوضح فى تفهيمنا هذه الاستحالة بإبلاغنا جميع أنحاء تلك الحدود التى لا يستطاع اجتيازها، ثم يقف بنا فى رفق وهوادة عند هذه النهاية، وهو بعد ذلك يرينا - بكيفية لا تعادل - صغر العقل الإنسانى إزاء ذلك الذى يفوت العقل. أ هـ.

[مؤاخاة الإسلام بين العلم والدين]

(الإنسان والطبيعة) إن القرآن بهذا الأسلوب البديع الفريد ربط بين القلب المؤمن والعقل المفكر، وآخى بذلك بين الدين والعلم، ووفق بين الإنسان والطبيعة، بين الفرد وبيئته، وهذا أقصى ما وصل إليه الاجتماعيون والمربون من سمو الغاية ونبل المقصد؛ قد سبقهم به الإسلام بعدد عظيم من الأجيال.

يتبرم كثير من الشبان العصريين بالطقوس والترانيم التي جعلتها الكنيسة لب العبادة وعماد المناجاة، ويرى هذا الفريق من الشبان: أن هذا الوجود هو أقدس سفر يتلو فيه الإنسان آيات عظمة الله تبارك وتعالى، وهم لذلك يرددون آثار (شوبنهور) و(جوتة) و(بيرون) و(لامرتين) وغيرهم من شعراء الغرب، الذين تناولوا الكون بالوصف الرائع البديع.

هذا الفريق من الشباب لو قرأوا القرآن الكريم ودرسوا الدين الإسلامي الحنيف، لوجدوا فيه فوق ما يتصورون من تغذية العقول والأرواح؛ بالتأمل في خلق الله تبارك وتعالى في كونه ومخلوقاته، ولوجدوا في ذلك حياة أرواحهم وسعادة أنفسهم.

فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يحيي الأرض بعد موتها؟ إن ذلك لمحيي الموتى، وهو على كل شيء قدير[1].

*****

---

(١) اقتباس من قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فصلت: ٣٩].

[قضية البعث بعد الممات](1)

﴿ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُوْلَئِكَ الأَغْلالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [الرعد : ٥].

بعد ذكر العقيدة الأولى وهى عقيدة التوحيد ومعرفة الصانع جل وعلا، وإفاضة العقول فيها وذكر الدلائل الكونية لذوى اليقين والفكر والتعقل على وجود البارئ سبحانه، تناولت الآيات العقيدة الثابتة من أصول العقائد، وهى عقيدة المعاد والبعث بعد الموت، فذكرت الآية أن هؤلاء الذين أرسل إليهم رسول الله ﷺ يستغربون هذه الإعادة بعد التحلل، ويرونها أمرًا عجيبًا مع أن العجيب حقًا هو اعتقادهم هذا مع وضوح الدلائل عليه ونهوض البراهين المثبتة له فقال تعالى : ﴿ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ [الرعد : ٥].

أخرج ابن أبى حاتم وأبوالشيخ عن الحسن فى قوله تعالى : (وإن تعجب فعجب قولهم) قال : إن تعجب يا محمد عن تكذيبهم إياك فعجب قولهم.

وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبوالشيخ عن ابن زيد فى الآية قال : إن تعجب يا محمد من تكذيبهم وهم رأوا من قدرة الله وأمره وما ضرب لهم من الأمثال وأراهم من حياة الموتى والأرض الميتة (فعجب قولهم أئذا كنا ترابًا أئنا لفى خلق جديد) أولا يرون أنه خلقهم من نطفة، فالخلق من نطفة أشد أم الخلق من تراب وعظام؟(٢)

ولك أن تقول : وإن يكن شيء يستحق العجب فهو هذا القول منهم بعد وضوح الدلائل والبراهين على قدرة الله تبارك وتعالى لهم، وتكرير الاستفهام فى قوله : (أئذا كنا). و(أئذا) فيه إشعار بشدة استغرابهم لهذا المعاد واستبعادهم إياه، وهذا مما يضاعف العجب من جمودهم هذا. وفى التعبير بالتراب بدلاً من الموت، وبالخلق الجديد بدلاً من الإعادة: تصوير دقيق لشدة استمساكهم بهذا الجحود، وعدم تصورهم إمكان البعث بعد الموت.

---

(١) نشرت فى مجلة (المنار) فى العدد الثامن من المجلد (الخامس والثلاثين) الصادر فى ربيع الثانى سنة ١٣٥٩هـ - مايو سنة ١٩٤٠م.

(٢) انظر : تفسير الطبرى (٧ / ٣٣٩).

[علة جحود منكري البعث]

ثم وضحت الآية الكريمة سر ذلك الجحود وسببه فقال تبارك وتعالى: (أولئك الذين كفروا بربهم)، فالسبب الاول لجحودهم البعث: هو كفرهم بالله تبارك وتعالى، وعدم تقديرهم لعظمته وجليل قدرته، فلو علموا أن قدرته تبارك وتعالى فوق التقييد بالاسباب والوسائط العادية، وانه ماشاء فعل ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢] لهان عليهم الخطب، ولوجدوا ان هذا المعاد أمر داخل في حيز القدرة لا غرابة له ولا مشقة ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَن تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾ وَلَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ﴾ [الروم: ٢٥ - ٢٦]، ولكنهم لما كفروا بالله، وظنوا عدم القدرة، أو عدم كمالها، او إنكار العلم، أو إنكار كماله، أو إنكار الصدق، إلى غير ذلك من صفات الكمال التى يتصف بها البارى جل وعلا، لما كانت عقيدتهم فى ربهم هكذا: صعب عليهم أن يتصوروا سهولة الإعادة بعد الموت.

(**وأولئك الأغلال فى أعناقهم**) وسبب آخر: هو الجمود الذى استولى عليهم، فلم يطلقوا لعقولهم عنان الفكرة، ولم يتأملوا فيما بين أيديهم وما خلفهم، وعن ايمانهم وعن شمائلهم من دلائل القدرة، ورضوا بالتقليد الاعمى لاسلافهم وآبائهم، وجمدوا على ما ورثوا من فاسد عقائدهم،لما وضعوا فى أعناقهم من هذه القيود والاغلال من التقليد والجمود: لم يكن لهم مجال إلى إدراك الحقيقة الواضحة، حقيقة الإيمان بالمعاد، والتسليم بالبعث والنشور، فتكون الآية على ذلك كناية عن الجمود والتقليد، المانع عن إدراك الحق، وتعرف أصوله وقواعده، وبنحو هذا قال الاصم وتؤيده الآية الكريمة فى سورة يس: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ﴾ [يس: ٨].

قال أبوعبيدة: هو مثل ضربه الله لهم فى امتناعهم عن الهدى، كامتناع المغلول، وقال الشاعر: «لهم عن الرشد أغلال وأقياد» ولا ريب فى أن الجمود أشد ما يبعد الناس عن إدراك الحقائق.

وذهب جمهور المفسرين إلي: أن الآية على ظاهرها،وأنها وعيد لهؤلاء الجاحدين على جحودهم،وتصوير لحالهم يوم القيامة، وبيان لما ينتظرهم من عذاب، فهو من قبيل

قوله تعالى: ﴿إِذِ الأَغْلالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلاسِلُ يُسْحَبُونَ (٧١) فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ﴾ [غافر: ٧١، ٧٢]، ثم بينت الآية بعد ذلك: جزاءهم على هذا الجحود، فقال تبارك وتعالى: (وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) فهؤلاء الجاحدون للمعاد، والمكذبون بالبعث، سيذوقون النار ويخلدون فيها، وهذا هو العقاب الطبيعي لهم، فمن جحد المعاد، وكذب بالجزاء: جوزي بما كذب به، حتى يعلم أحقية الخبر وصدق المخبر: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ [السجدة: ٢٠].

الإسلام والمعاد:

جاء الإسلام الحنيف يقرر: أن للناس حياة بعد هذه الحياة الدنيا، هي الدار الآخرة، وأنها الدار الباقية حقًا، الكاملة النعيم، الشديدة العذاب كذلك. وأن الناس يبعثون من قبورهم بعد الموت، ليحاسبهم الله على ما قدموا من الأعمال: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨]، وأن هذا البعث سيكون للأجسام وللأرواح جميعًا، وأن هذا النعيم أو العذاب حسي ومعنوي معًا، وآيات القرآن الكريم وأحاديث الرسول ﷺ ناطقة بذلك كله على وجه لا يحتمل التأويل ولا التعطيل.

وقد سلك القرآن في تقرير هذه العقيدة، ورد الشبهات عنها، وتصوير ما يكون من شأن القيامة وأهوالها، وذكر المناظرات بين أهل الطاعة وأهل العصيان فيها، وبيان الغاية منها، والاستدلال على ذلك كله تارة بعجائب صنع القدرة الإلهية، وأخرى بالمشاهد الكونية من الإيجاد بعد الإعدام، وغرائب حياة الجنين والنبات، ولفت الأنظار إلى ابتداء الخلق على غير مثال، والاعادة أهون من الابتداء، وأنت ترى ذلك كله منثورًا في ثنايا كتاب الله تبارك وتعالى، وفي أحاديث رسول الله ﷺ.

وإليك بعض هذه الآيات البينات:

[بعض آيات البعث في القرآن]

١- في سورة (الإسراء): ﴿وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا (٤٩)

﴿قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا (٥٠) أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَرِيبًا (٥١) يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الآيات: ٤٩ - ٥٢].

وفيها الاستدلال على البعث بسهولة الخلق الاول.

٢- في سورة (الحج): ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (٥) ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٦) وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ﴾ [الآيات: ٥- ٧].

وفيها الاستدلال على البعث باطوار خلق الإنسان في بطن أمه وأطوار حياة النبات في الارض بهذا الأسلوب المعجز الرائع.

٣- في سورة (المؤمنون): ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ (١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤) ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ (١٥) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ (١٦) وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ﴾ [الآيات: ١٢- ١٧].

وفيها الاستدلال على البعث: بغرابة أطوار خلق الإنسان، وعجائب قدرة الله تبارك وتعالى على إبداع سواه من المخلوقات.

٤- وفي سورة (يس): ﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ (٧٧) وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (٧٨) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ (٧٩) الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ (٨٠) أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ (٨١)

إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ (82) فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [الآيات: ٧٧ - ٨٣].

وفيها: ملخص ادلة البعث التى تدور فى القرآن الكريم، ففيها: الاستدلال بالإنشاء الأول، وبعجائب قدرة الله تبارك وتعالى، وخلق الإنسان من النطفة، والمشابهة بين المخلوقات فى الايجاد، فمن أوجد هذا الخلق فهو على مثله قادر، ثم بتتويج ذلك كله: بذكر اتصاف البارى جل وعلا بالخلق والإبداع، وعلم ذلك علماً لا جهالة معه، ولا صعوبة فى شيء امامه: ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ [يس: ٨٢].

٥- وفي سورة ق: ﴿ بَلْ عَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ (2) أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ (3) قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ (4) بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَّرِيجٍ (5) أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ (6) وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (7) تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ (8) وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ (9) وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ (10) رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ ﴾ [٢- ١١].

وفيها: الاستدلال بعجائب هذا الخلق، وما فيه من تحليل وتركيب وإبداع وتصوير على سهولة إعادة الموتى من تراب، وفيها كذلك: الرد على شبهة تداخل الأجساد بعضها فى بعض بالتحلل والنبات. فهذه الآية الكريمة تبين أن ما تنقصه الأرض من أجساد الموتى معلوم عند الله تبارك وتعالى، ثابت فى كتاب حفيظ، فإذا جاء وقت البعث: وجدت الأجساد الذاهبة من مادتها الأصلية على النحو الأول، مادة وصورة وكمًا وكيفًا، فلا تغيير ولا تبديل.

٦- وفى سورة الواقعة إجمال رائع لأدلة البعث فى القرآن الكريم، فى قول الله تبارك وتعالى: ﴿ وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (47) أَوَ آبَاؤُنَا الأَوَّلُونَ ﴾ [الواقعة: ٤٧، ٤٨]، هذه أقوالهم وتلك مذاهبهم، وقد جاء القرآن يقرر هذه الحقيقة الآتية: ﴿ قُلْ إِنَّ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ (49) لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴾ [الواقعة: ٤٩،

٥٠]، ويتوعد من كذب بها أشد الوعيد: ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ ۝ لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ۝ فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ۝ فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ ۝ فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ ۝ هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ ﴾ [الواقعة: ٥١ - ٥٦]، ثم أخذ يورد البراهين الدالة على صدق البعث والنشور ووقوعه، فاستدل بخلقهم أنفسهم ﴿ نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴾ [الواقع: ٥٧].

ثم لفت أنظارهم إلى عجائب ما في النطفة، وذلك أن الماء المنوى يحتوى على مئات الملايين من العلقات التى تصلح كل منها لإيجاد رجل؛ إذا التقت ببييضة[١] اللقاح حتى قيل: إن المليمتر المربع من ماء الرجل يحتوى على نحو مليون من هذه العلقات، فكم فى قذفة واحدة من ماء الرجل من أناس لو كانوا يعقلون؟ لفتهم القرآن إلى هذا فقال: ﴿ أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ۝ أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ ۝ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ۝ عَلَىٰ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الواقعة: ٥٨- ٦١].

ثم لفت نظرهم كذلك إلى الخلق الأول، ثم إلى عجائب النبات، ثم إلى خلق الماء والماء بيئة الحياة الأولى، ثم إلى عجيبة العجائب وهى: كمون النار فى الشجر الذى لا ينبت بغير الماء، ومن يستطيع أن يوجد من عنصر الأوكسجين ناراً وماء فيكون قوامهما - وهما ضدان لا يلتقيان - يستطيع أن يوجد الموتى بعد التحلل، ويعيدهم إلى سيرتهم من الحياة، فذلك قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ۝ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ۝ أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ۝ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ۝ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ۝ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ۝ أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ۝ أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ ۝ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ۝ أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ ۝ أَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ ۝ نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِّلْمُقْوِينَ ۝ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴾ [الواقعة: ٦٢ - ٧٤].

٧ وفى سورة الزمر: ﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾

(١) كتبها الإمام البنا: بويضة، والصواب ما أثبته. والتصويب هنا من الشيخ القرضاوى.

[الآية: ٤٢] وفيها: الإشارة إلى أن البعث يقظة كبرى، كما أن الموت نوم أكبر، ونحن نرى كل يوم وليلة بعثًا وموتًا جزئيين لهذه الكائنات الحية.

وفي القرآن الكريم كثير من الآيات المطهرة تؤكد هذه المعاني وتوضحها، وفيما أوردنا بلاغ والحمد لله.

[تقرير السنة للبعث بعد الموت]

وقد جاءت السنة المطهرة مبينة وموضحة وشارحة لما جاء في هذه الآيات المطهرة، ولقد استدل رسول الله ﷺ في عبارة وجيزة بليغة بكثير من البراهين التي مرت في الآيات الكريمة، من ذلك قوله ﷺ لقريش في أول خطبة أعلن بها دعوته: «حمد الله وأثنى عليه، ثم قال: إن الرائد لا يكذب أهله، والله لو كذبت الناس ما كذبتكم، ولو غررت الناس ما غررتكم، والله الذي لا إله إلا هو! إني لرسول الله إليكم حقًا وإلى الناس كافة، والله لتموتن كما تنامون، ولتبعثن كما تستيقظون، ولتحاسبن بما تعملون، ولتجزون بالإحسان إحسانًا وبالسوء سوءًا، وإنها للجنة أبدًا أو النار أبدًا، وإنكم لأول من أنذر بين يدي عذاب شديد»[1].

وروى أحمد ورزين بسندهما عن أبي رزين العقيلي، قال: قلت: يا رسول الله كيف يعيد الله الخلق؟ وما آية ذلك؟ قال: «أما مررت بوادي قومك جدبًا، ثم مررت به يهتز خضرًا؟ قلت: نعم. قال: فتلك آية الله في خلقه، كذلك يحيي الله الموتى»[2].

بهذا الأسلوب البديع يقرر القرآن الكريم والسنة المطهرة عقيدة البعث في نفوس الناس، وهي أمر مركوز في هذه النفوس مستقر فيها، لا يحجبها عن التسليم به والإذعان له إلا هوى جامح، أو شهوة غالبة، أو مادية كثيفة، أو خبل في التصور والإدراك، وما أحسن ما قرره الشيخ محمد عبده في «رسالة التوحيد» في هذا المعنى إذ يقول:

---

(١) رواه ابن عساكر (٦/ ٣٩٦) طبعة بيروت.

(٢) رواه أحمد في مسنده (٤/ ١١) وفي السنة (٢٦٥) والبيهقي في «الأسماء والصفات» ص٥٠٧، وفي «الاعتقاد» ص١٤٥، وقال محققو المسند: إسناده ضعيف لجهالة حال وكيع بن حدس. انظر: المسند رقم (١٦١٩٣) طبعة دار الرسالة.

«اتفقت كلمة البشر موحدين ووثنيين، مليين وفلاسفة - إلا قليلاً لا يقام لهم وزن - على ان لنفس الإنسان بقاء تحيا به بعد مفارقة البدن، وانها لا تموت موت فناء، وإنما الموت المحتوم هو ضرب من البطون والخفاء، وإن اختلفت منازعهم في تصوير ذلك البقاء وفيما تكون عليه النفس فيه، وتباينت مشاربهم في طرق الاستدلال عليه... هذا الشعور العام بحياة بعد هذه الحياة المنبث في جميع الأنفس عالمها وجاهلها؛ وحشيها وإنسيها؛ باديها وحاضرها؛ قديمها وحديثها، لا يمكن أن يعد ضلة عقلية، أو نزعة وهمية، وإنما هو إلهام من الإلهامات التي اختص بها هذا النوع.

قد ألهمت العقول، وأشعرت النفوس: أن هذا العمر القصير ليس هو منتهى ما للإنسان في الوجود، بل الإنسان ينزع هذا الجسد كما ينزع الثوب عن البدن، ثم يكون حيًا باقيًا في طور آخر وإن لم يدرك كنهه، ذلك إلهام يكاد يزاحم البديهة في الجلاء» اهـ.

وثم برهان آخر غير هذا البرهان الفطري ألفتك إليه وأوجه نظرك نحوه، ذلك أن نظام هذا الكون وما فيه، ومنزلة الإنسان منه، يدلك أوضح الدلالة على أن هذه الحياة القصيرة الأمد التي تحسب بأعوام قلائل، مهما طالت فهي مدة محددة وفترة معدودة لا تتناسب أبداً مع الحكمة في تكوين هذا الإنسان وإبداعه هذا الإبداع؛ وتمييزه بهذا العقل المفكر والفكر المدبر؛ الذي سخر الله له ما في السماوات وما في الأرض جميعًا، فإذا انتهت سعادة الحيوان بحصوله على مطالب جسمه، وانتهت سعادة النبات ببلوغه حد نموه، فإن نفس الإنسان قد خلقت مستعدة لقبول معلومات غير متناهية؛ من طرق غير محصورة شيقة إلى لذائذ غير محدودة؛ ولا واقفة عند غاية، مهياة لدرجات من الكمال لا تحددها أطراف المراتب والغايات، ومن كان كذلك لا يصح أن يكون بقاؤه قاصراً على أيام أو سنين معدودات، وتأمل سر ذلك الخلق في قول الله تبارك وتعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ (١١٥) فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾ [المؤمنون: ١١٥، ١١٦].

والقول بأن بعث الأجساد بعد فنائها أمر يصطدم بنواميس الكون المقررة ولا يتفق مع المشاهدة: كلام سقيم لا حجة عليه ولا برهان معه.

فهذه النواميس نفسها تخضع لذلك الحق وتدل عليه، ومتى كانت النواميس الكونية تتحكم في القدرة الإلهية، والله غالب على أمره، ومن ذا الذي يستطيع أن يدعي العلم بكل النواميس حتى يحكم بمخالفة هذا الشيء لها أو موافقته إياها؟! ومن ذا الذي يستطيع أن يزعم أن نواميس المادة وقواعدها تنطبق على عالم غير عالمها ونظام لا يتصل بنظامها؟! ونحن نرى من عجائب الظواهر الروحية في عالمنا هذا ما لا ينقضي منه العجب، وأين هؤلاء المتطفلون على نواميس المادة وقوانينها مما يعمل فقراء الهند؟

وما أبدع الإشارة إلى هذه المعاني في قصة أهل الكهف: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾ [الكهف: ٢١].

وفي قصة الذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها، وفي قصة إبراهيم إذ قال: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٠].

*****

[ظلم الكافرين لأنفسهم وجهلهم بالله][1]

﴿ ويستعجلونك بالسيئة قبل الحسنة وقد خلت من قبلهم المثلات وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم وإن ربك لشديد العقاب ﴾ [الرعد : ٦].

بعد أن فصلت الآيات السابقة مظاهر قدرة الله تبارك وتعالى وأدلة عظمته وعجائب صنعه في الكون، ذكرت الشبهات التي يتذرع بها الجاحدون في إنكار نبوة الأنبياء، ويبررون بها انصرافهم عما جاء به الرسل الكرام من الهدى والنور، ومن هذه الشبهات: استبعاد أمر البعث والخلق الجديد بعد الموت والفناء، ومنها: استبطاء العقوبة على التكذيب واستعجالها لتكون دليلاً على صدق المبلغ عن الله تبارك وتعالى في دعواه، ومنها: اقتراح المعجزات.

فأما الشبهة الأولى: فقد فصلتها الآية الكريمة وردتها في قوله تبارك وتعالى: ﴿ وإن تعجب فعجب قولهم أئذا كنا ترابا أئنا لفي خلق جديد أولئك الذين كفروا بربهم وأولئك الأغلال في أعناقهم وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ [الرعد : ٥]. وأما الشبهتان الباقيتان: فقد أشير إليهما في الآيتين الكريمتين، كما عرض لهما القرآن الكريم في سور كثيرة ماضية وتالية.

(**ويستعجلونك بالسيئة قبل الحسنة**) ويطلبون إليك أن يوقع الله بهم العذاب والعقوبة قبل النعمة والعافية، وهذا خلق من أخلاق الجاحدين المعاندين في كل زمان ومكان، استكباراً في الأرض، وتعاليًا بالباطل، وبطراً على الحق، ولقد حكى الله عن قوم هود – عليه السلام -- في سورة الأعراف [الآية : ٧٠] ﴿ قالوا أجئتنا لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد آباؤنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين ﴾

كما حكى عن قوم نوح في سورة (هود) عليه السلام: ﴿ قالوا يا نوح قد جادلتنا

---

(١) نشرت في مجلة (المنار) في العدد التاسع من المجلد (الخامس والثلاثين) الصادر من جمادى الآخرة سنة ١٣٥٩هـ اغسطس سنة ١٩٤٠م.

﴿فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٣٢) قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ اللَّهُ إِن شَاءَ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ [هود: ٣٢، ٣٣].

كما حكى عن كفار قريش في كثير من الآيات في سورة الانفال: ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الآية: ٣٢]، وقد سبق الكلام عليها فى الجزء التاسع من هذا التفسير، وجاء قبل ذلك فى سور كثيرة: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٥٣) يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٥٣، ٥٤]، وفى سورة يونس: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾[1] [يونس: ٤٨]، الآيات من ٤٩ إلى ٥٥ وقد تقدم الكلام عليها فى الجزء الحادى عشر فليراجع[2]

وهذا الخلق غريب حقًا فى الإنسان، فإن مقتضى العقل السليم الذى يتجلى به هذا الجنس البشرى: أن يطلب الهداية والعافية بدلاً من العذاب والنقمة، وما أظرف رد السبئى الذى خاطبه معاوية بقوله: «ما أجهل قومك حين ملكوا عليهم امرأة» فقال: «أجهل من قومى قومك حين قالوا: اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فامطر علينا حجارة من السماء، ولم يقولوا: فاهدنا له!»[3]

ولعل السر في ذلك: أن الإنسان مفطور على نوع من التعالى والكبرياء يجعل قبوله للحق أمرًا شديداً على نفسه، لا يستطيعه إلا من ألهمه الله الرشد وهداه سواء السبيل، وقد سبق فى الجزء الاول من هذا التفسير إشارة لطيفة إلى هذا المعنى فقد جاء هناك ما نصه: «إن كل قوة من قوى هذه الأرض، وكل ناموس من نواميس الطبيعة فيها خلق خاضعًا للإنسان، وخلق الإنسان مستعداً لتسخيره ولمنفعته، إلا قوة الإغراء بالشر، وناموس الوسوسة بالإغواء الذى يجذب الإنسان دائمًا إلى شر طباع الحيوان، ويعيقه عن

---

(١) ورد قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ فى ستة مواضع من القرآن الكريم: فى سورة يونس: ٤٨، وسورة الأنبياء: ٣٨، وسورة النمل: ٧١، وسورة سبأ: ٢٩، وسورة يس: ٤٨، وسورة الملك: ٢٥

(٢) انظر: تفسير المنا، ط دار الكتب العلمية، بيروت ٣٢٩.

(٣) انظر: الكشاف للزمخشرى (٢/ ٢١٧).

بلوغ كماله الإنسانى، فالظاهر من الآيات: أن الإنسان لا يغلب هذه القوة ولا يخضعها مهما ارتقى وكمل، وقصارى ما يصل إليه الكاملون: هو الحذر من دسائس الوسوسة، والسلامة من سوء عاقبتها بالا يكون لها سلطان على نفس الكامل تجعله مسخراً لها وتستعمله بالشرور، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ﴾ [الحجر: ٤٢]، وقال عز وجل: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٠١].

قال صاحب التفسير [أى المنار]: ثم زاد الأستاذ هنا قوله: «أما سلطان تلك القوة فى الفناء، وقطع حركة الوجود إلى الصعود، فلا يستطيع إخضاعه لقدرته من البشر كامل، ولا يقاوم نفوذه عامل، وإنما ذلك لله وحده، وهذا حكمها فى الكائنات إلى أن تبدل الأرض غير الأرض والسماوات» اهـ.

والمراد بهذا الكلام - كما ترى -: بيان قوة الشر ونزعاته، ووضوح أثرها فى الوجود، وسهولة انجذاب النفوس إليها، وسرعة التصاقها بها، وليس المراد لاستحالة التخلص منها، فإن عصمه الله تبارك وتعالى وحفظه ويسره لمغالبة الشرور، وأعانه على مقاومة النزعات الفاسدة والوساوس المضلة، كان منها بمنجاة ولاشك كما تشير إليه الآية الكريمة.

ووجه العبرة فيما تقدم: أن ينتبه الإنسان لقوة هذه الناحية فى نفسه وفى ناموس الخليقة، وأن يراقب نفسه مراقبة دقيقة، وأن يخضد[1] فيها دائماً شوكة الكبرياء الكاذب، والتابى على الحق، وأن يلح على الله فى الدعاء: أن يجعله من أهل الهداية والتوفيق؛ الذين لا يجد الشيطان إلى نفوسهم سبيلاً.

[أخذ العظة من تاريخ من سلف]

(**وقد خلت من قبلهم المَثُلات**) خلت: مضت وذهبت. والمثلات: جمع مَثُلَة. قال الراغب: والمثلة نقمة تنزل بالإنسان فيجعل مثالاً يرتدع به غيره، وذلك كالنكال، وجمعه مَثُلات ومَثْلات.. وقد أمثل السلطان فلاناً إذا نكل به.

وقال ابن جرير: «يقول تعالى ذكره: ويستعجلونك - يا محمد - مشركو قومك

---

(١) يخضد: أى يكسر ويقطع. أنظر: أساس البلاغة ص١٦٥، ١٦٦، ومختار الصحاح ص١٧٨، والقاموس المحيط ص٣٥٧

بالبلاء والعقوبة قبل الرخاء والعافية، فيقولون: اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فامطر علينا حجارة من السماء او ائتنا بعذاب أليم، وهم يعلمون ما حل بمن خلا قبلهم من الأمم التي عصت ربها وكذبت رسلها؛ من عقوبات الله وعظيم بلائه، فمن بين أمة مسخت قردة وأخرى خنازير، ومن بين أمة أهلكت بالرجفة، وأخرى بالخسف، وذلك هو المثلات التي قال الله جل ثناؤه: (وقد خلت من قبلهم المثلات) والمثلات: العقوبات المنكلات، والواحدة منها مثلة بفتح الميم وضم الثاء، ثم تجمع مثلات كما واحدة الصدقات صدقة ثم تجمع صدقات، وذكر ان تميما من بين العرب تضم الميم والثاء جميعًا من المثلات، فالواحدة على لغتهم منها مثلة ثم تجمع مثلات مثل غرفة وغرفات، والفعل منه مثلت به أمثل مثلاً بفتح الميم وتسكين الثاء، فإذا أردت انك اقصصته من غيره قلت: أمثلته من صاحبه أمثله مثلاً، وذلك إذا اقصصته منه وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل. اهـ.

وفي الآية تبكيت لهم على هذه الغفلة التي تجعلهم يتناسون الاتعاظ بغيرهم؛ وتجاهل ماحل بسواهم من السابقين، وفي المثل: السعيد من وعظ بغيره، والشقي من وعظ بنفسه[(١)]، وبهذا تقرر الآية الكريمة ناموس العبرة والعظة، وتلفت إليه أنظار الامم والشعوب.

واعلم: أن العبرة والعظة لا تنحصر في الفرد ولا في الجماعة على الاعتبار بحال غيرهما وعاقبته، بل تكون كذلك في الفرد وفي الجماعة بما يقع لهما من الحوادث، فالفرد الذي يحرص على الاستفادة من تجاربه ونتائج أعماله: يزيد صوابه دائمًا فتزيد سعادته ويقل خطؤه فيزول شقاؤه، وكذلك الامة والفرد الذي لا يعتبر ولا يستفيد من تجاربه ونتائج أعماله: يظل على خطئه وضلاله فلا يلقى إلا الخسارة والوبال، وإلى هذا يشير حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «لا يلدغ المؤمن من حجر واحد مرتين» رواه أحمد في مسنده والبخاري ومسلم وأبو داود وابن ماجه[(٢)]، ولا يعرض عن الانتفاع

---

(١) من الأمثال. انظر: مجمع الأمثال للميداني (١/ ٤٨١).

(٢) رواه أحمد (٣/ ٧٧) والبخاري (٦١٣٣) ومسلم (٢٩٩٨) وابوداود (٤٨٦٢) وابن ماجه (٣٩٨٢) وابن حبان (٦٦٣) والبيهقي في «الشعب» (١٠٩٥٤) والطبراني في «الأوسط» (٧٨) والدارمي (٢٧٨١) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

بالآيات والنذر إلا الجاحدون الذين لم يتمكن الإيمان في قلوبهم، والله تبارك وتعالى يقول: ﴿وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١] ولو أن المسلمين راجعوا تاريخهم وتاريخ الأمم السابقة والمعاصرة وأنعموا في ذلك النظر لخرجوا بكثير من العبر، ولاستطاعوا أن يجدوا في صفحات التاريخ دروسًا واضحة تدفعهم إلى العمل وتجنبهم الأخطاء والزلل، ولو ذهب الباحث يستقصي ذلك لأعجزه حصره، ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

ولا نريد أن نفيض في ذكر حوادث التاريخ وعبره لذلك ما لا يستطاع، ولكنا نلفت أنظار المسلمين إلى عبرتين واضحتين في التاريخ الحديث: واحدة تتصل بتاريخهم وحياتهم، والثانية تتصل بتاريخ غيرهم وحياته.

[عبرة من تاريخ المسلمين المعاصر]

قامت الحرب العالمية الماضية سنة ١٩١٤ - ١٩١٨ وللمسلمين حكومة جامعة، ودولة واسعة، ووحدة قائمة، وإن كان قد دب في ذلك كله: الضعف والوهن، ولكنهم زادوا هذا الضعف ضعفًا بتفرقهم و تباغضهم وتحاقدهم؛ ونسيانهم الأخوة الإسلامية، ورابطة الدين والعقيدة التي هي أقدس الروابط وأوثق الوشائج والصلات، ودب فيهم دبيب الفكرة العنصرية، فالأتراك يحاولون تتريك عناصر الدولة، وإظهار الشمائل (الطورانية)[1]، والعرب يحلمون بالاستقلال على أساس من الوحدة العربية، وبذلك دب إلى النفوس الإسلامية داء الأمم من قبل: البغضاء وفساد ذات البين التي تفسد أمر الدنيا والدين، وهبت عواصف الحرب فزادت دسائسها ومكائدها النفوس جفوة وتباعداً، وكان أن ثار العرب على الحكومة التركية، وصار المسلمون قسمين، كل قسم إلى وصف عدو من أعداء دينهم وقوتهم وجامعتهم، وانتهت الحرب بتفريق جامعتهم، وضياع الرسم الباقي من خلافتهم وانحلال حكومتهم، وكان ذلك جزاء وفاقًا بما كسبت أيديهم، ومثلة منذرة بعاقبة المقصرين المفرطين.

هذه عبرة من تاريخنا يجب أن نطيل إليها النظر في هذا العصر الذي لا يعيش فيه إلا الأمم القوية بعددها وعددها ورابطتها وإيمانها، ونعمل جاهدين لإحياء الجامعة الإسلامية

---

(١) أي إحياء العادات واللغة التركية، وتغليبها على العربية، عصبية للجنس التركي.

والوحدة المحمدية، ولا ننخدع أبداً بهذه الوعود الكافرة والجاحدة، بل نعتمد على أنفسنا، ونستمد النصر والتأييد من الله وحده، وبذلك تعود إمامة المسلمين وتتجدد دولتهم.

[عبرة من تاريخ غير المسلمين المعاصر]

وقامت هذه الحرب الحاضرة بين قوتين عظيمتين فى أوروبة، بين الدولة الألمانية ومن شايعها من جانب، وبين فرنسا وانجلترا ومن شايعهما من جانب آخر. وما كان الناس يظنون - أو يخطر ببالهم - أن دولة غنية مجهزة مستعدة كفرنسا تهزم شر هزيمة فى أيام قلائل، ويقضى على استقلالها وجيشها وسلطانها، ويحتل عدوها أرضها ويتحكم فى كل مقدراتها، هذا أمر لم يكن يخطر ببال أحد بمثل هذه السرعة العجيبة، ولكن رئيس وزرائها (المسيو بيتان)(١) قد أماط اللثام عن سر ذلك بكلمته المشهورة: «لقد أتت الهزيمة من الانحلال ودمرت روح الملذات ما شيدته روح التضحية» وكان ذلك مصداقًا للناموس الإلهى الخالد فى حياة الأمم والشعوب: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الأنفال: ٥٣]، ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ [الإسراء: ١٦]. ومع هذا فما زال كثير من المسلمين يعجبون بحياة فرنسا الزائلة، ويتغنون بآدابها وفنونها ومفاتنها التى صرفت شعبها عن الجد والتضحية إلى اللهو والملذات، فحق عليها القول، وصارت مثلة بين الدول فى هذا المصير.

وهذا عبرة أخرى من تاريخ غيرنا ممن يعاصروننا ويتصلون بنا أوثق اتصال، يجب كذلك أن نطيل النظر فيها، ونعمل جاهدين على بناء نهضتنا على دعائم قوية صحيحة من الجد والعمل، والخلق والإيمان والتضحية والكفاح، فإن البقاء دائمًا للأصلح، ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ﴾ [الرعد: ١٧].

---

(١) هو المرشال: فيليب بيتان، مرشال فرنسا، ولد سنة ١٨٥٦م. من كبار القواد فى حرب ١٩١٤ - ١٩١٨م. اشتهر فى معركة فردون. رئيس الحكومة فى ظل الاحتلال الألمانى: ١٩٤٠ ١٩٤٤ حكم عليه بالإعدام عام ١٩٤٥، وخفف الحكم بالنفى، مات فى المنفى سنة ١٩٥١م.

[الناس بين مغفرة الله وعقابه]

(**وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم وإن ربك لشديد العقاب**) إن الله تبارك وتعالى لم يخلق الخلق عبثًا، ولم يتركهم سدى، وإنما خلقهم ليبلوهم أيهم أحسن عملاً، وليجزى الذين أساءوا بما عملوا، ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى، وفى الإنسان الاستعداد القابل للخير والشر: ﴿ **وَنَفْسٍ وما سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورها وتَقْوَاها (٨) قَدْ أَفْلَح من زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ من دسَّاهَا** ﴾ [الشمس: ٧- ١٠]، وإنما تجىء الأديان لتقوى فى النفوس البشرية معانى الخير، وتبين لها طرق المقاومة لنوازع الشر، وبذلك تهتدى إلى الصراط المستقيم: ﴿ **قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ (١٥) يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ** ﴾ [المائدة: ١٥، ١٦].

والنفس الإنسانية إنما تقاد إلى الخير وتوزع عن الشر بأحد عاملين: إما الخوف وإما الرجاء، بالرغبة أو بالرهبة، ولابد من تعادل هذين العاملين فى التأثير فى النفس، وإلا كانت عرضة للانحراف، فإذا غلبها الخوف بغير رجاء: أداها ذلك إلى اليأس، وإذا غلبها الرجاء بدون خوف: أداها ذلك إلى التحلل والإباحة، ومن هنا كان ناموس المؤاخذة من الله لخلقه دائر بين هذين العاملين، فهو سبحانه وتعالى يطمعهم فى رحمته ومغفرته وفاقًا لقانون الفضل الربانى، ثم يحذرهم سطوته وعقوبته وجبروته إحقاقًا للعدل الإلهى.

قال الحافظ ابن كثير فى تفسير هذا الشطر من الآية الكريمة: «أى أنه تعالى ذو عفو وصفح وستر للناس مع أنهم يظلمون ويخطئون بالليل والنهار، ثم قرن هذا الحكم بأنه شديد العقاب ليعتدل الرجاء والخوف، كما قال تعالى: ﴿ **فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ** ﴾ [الأنعام: ١٤٧].

وقال: ﴿ **نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٤٩) وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الأَلِيمُ** ﴾ [الحجر: ٤٩، ٥٠]، إلى أمثال ذلك من الآيات التى تجمع الرجاء والخوف، وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى حدثنا موسى بن إسماعيل حدثنا حماد عن على بن زيد عن سعيد بن المسيب

قال: لما نزلت الآية: (وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم) الآية، قال رسول الله ﷺ: «لولا عفو الله وتجاوزه ما هنا أحداً العيش، ولولا وعيده وعقابه لاتكل كل أحد»[1].

وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة ما طمع بجنته أحد، ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة ما قنط من جنته أحد» رواه مسلم[2].

وذهب ابن جرير إلى: أن المغفرة المذكورة هنا خاصة بالمؤمنين التائبين، والعقوبة للكافرين والعاصين، وأن الكلام إن كان خبراً في ظاهره؛ فإنه وعيد وتهديد للمشركين من أهل مكة إن لم يتوبوا وينيبوا إلى الله تبارك وتعالى؛ قبل أن يحل عليهم غضبه وعقوبته ونقمته[3].

ولا ينافي هذا ما ذكرناه من تقرير الناموس العام في حكمة ذكر الثواب والعقاب والعدل والرحمة مقترنين دائماً في كتاب الله.

واستدل الأشاعرة بقوله تعالى: (على ظلمهم) بعد ذكر المغفرة على مذهبهم من جواز العفو عن صاحب الكبيرة قبل التوبة، وقد أطال النيسابوري في توجيه هذا الاستدلال[4]، وكأنهم يريدون أن يجعلوا الظلم المذكور في الآية إنما يراد به التلبس بالإثم والعصيان.

والذي تطمئن إليه النفس: أن المراد بالظلم هنا: ما عرف من قوة ميل النفس الإنسانية إلى الشر أكثر مما تميل إلى الخير، حتى صار ذلك وصفاً ملازماً لها لاصقاً بها، وقد تردد هذا المعنى في كثير من آيات القرآن الكريم، وجاء ذكر الإنسان والنفس

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٢ / ٤٨٣) والحديث ذكره الزمخشري في تفسيره، وقال ابن حجر في تخريجه: اخرجه ابن أبي حاتم والثعلبي من رواية حماد بن سلمة عن علي بن زيد عن سعيد بن المسيب. انظر: تفسير الزمخشري (٢ / ١٥٤) والحديث مرسل.

(٢) رواه أحمد (٢ / ٦٣٩) ومسلم (٢٧٥٥) والترمذي (٣٥٤٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) انظر: تفسير الطبري (٧ / ٣٤١).

(٤) انظر: غرائب القرآن ورغائب الفرقان للنيسابوري (٦ / ٦٧) على هامش تفسير الطبري: ط: دار الفكر - بيروت.

الإنسانية مقرونًا بالظلم تارة، وبالجحود تارة أخرى، وهكذا قال تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٤]، ﴿وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً﴾ [الأحزاب: ٧٢]، ﴿إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾ [يوسف: ٥٣] الآيات، ويكون المراد على ذلك -- والله أعلم- : أن الله تبارك وتعالى يغفر للناس تفضلاً منه وكرمًا، وإن كانت طبائعهم إلى الشر والظلم أقرب.

ومن ذلك تعلم: أن الإنسان في أشد الحاجة إلى محاسبة نفسه ومراقبتها أدق المراقبة، ومقاومة غرائز السوء فيها، وتقوية عوامل الصلاح والخير التي تحيط بها، حتى يسلس له قيادها ويسير في الطريق المستقيم، وذلك بإشعارها الخوف تارة، وأخذها بالشدة والقسوة وإشعارها بالرجاء تارة أخرى، وأخذها باللين والأمل، قال الإمام النووي في (رياض الصالحين): «اعلم أن المختار للعبد في حال صحته: أن يكون خائفًا راجيًا، ويكون خوفه ورجاؤه سواء، وفي حال المرض يمحض الرجاء، وقواعد الشرع من نصوص الكتاب والسنة متظاهرة على ذلك.. فيجتمع الخوف والرجاء في آيتين مقترنتين، أو آيات، أو آية واحدة»[1].

وكأنه -- رحمه الله -- أشار بتغليب الرجاء حال المرض إلى قوله ﷺ في حديث جابر ابن عبد الله رضي الله عنهما: أنه سمع النبي ﷺ قبل موته بثلاثة أيام يقول: «لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله عز وجل» رواه مسلم[2].

والقاعدة التي يجب أن يسير عليها الإنسان دائمًا: الفرار إلى الخوف، وهكذا لا يزال يكسر حدة أحدهما بالآخر بحسب حاله في مجاهدة نفسه.

وفي التعبير بالربوبية في قوله تبارك وتعالى: (وإن ربك) إشارة إلى عظيم لطف الله تبارك وتعالى بعباده وتعهده إياهم بفضله وبره، وأن المراد بالثواب والعقاب: إنما هو كمال تربية النوع الإنساني، حتى يصل إلى كماله المنشود.

---

(١) انظر: رياض الصالحين ص١٦٨ بتحقيق: شعيب الأرناؤوط. ط: الرسالة.

(٢) رواه أحمد (٤/ ٢٨٧) ومسلم (٢٨٧٧) عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.

[وجه الارتباط بين أجزاء الآية]

ووجه الارتباط بين أجزاء الآية الكريمة واضح: فإنهم لما استعجلوا السيئة قبل الحسنة ذكرهم القرآن الكريم بما وقع للأمم من قبلهم، وأحالهم على ما عرفوا من أحوال المكذبين السابقين الذين حقت عليهم الكلمة، ووقعت بهم المثلات، وبين لهم بعد ذلك: أن الله قادر على المغفرة، كما أنه قادر على العقوبة الشديدة، ولكنه يغفر لمن يشاء ويعاقب من يشاء، لا تتوقف عقوبته ولا مغفرته على اقتراح أحد أو تحكم مخلوق، وفقنا الله وإياكم إلى الخير، وهدانا سواء السبيل.

*****

[من مطالب الكافرين من الرسل][1]

﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾ [الرعد: ٧].

تشير الآية الكريمة إلى صفة من صفات الكفار؛ وحجة من حججهم الواهية التى يتعللون بها فى تكذيب الرسل صلوات الله عليهم وسلامه، ويحاولون بها التشكيك فى صدقهم ويعترضون بها رسالاتهم، وفى الآيتين السابقتين عرض لبعض هذه الحجج فهم يستبعدون البعث بعد الموت وهم يستعجلون العذاب الدنيوى، ويستبطئون نزوله بالمخالفين، ويريدون أن يتخذوا من هذا وذاك حجة لهم على أن الرسول ليس بصادق، وقد علمت ما فى ذلك من المغالطة والضعف.

وهذه الآية تقول إن هؤلاء أخذوا يقترحون على الرسل أن ينزل عليهم آية يستدلون على صدقه، وقد تكرر هذا المعنى فى كثير من آيات القرآن الكريم، بل ورد فى هذه السورة نفسها في موضع آخر قول الله تبارك وتعالى: ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴾ [الرعد: ٢٧].

وفى سورة الأنعام ورد ذلك فى موضعين، ففى الأول منهما: اقترحوا آية معينة ﴿ وَقَالُوا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ﴾ [الأنعام: ٨].

وفى الثانى: اقترحوا آية مبهمة ﴿ وَقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَن يُنَزِّلَ آيَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ ﴾ [الأنعام: ٣٧].

وفى سورة طه [الآية: ١٣٣]: ﴿ وَقَالُوا لَوْلا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِّن رَّبِّهِ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الأُولَىٰ ﴾ وفى سورة يونس [الآية: ٢٠]: ﴿ وَيَقُولُونَ لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ ﴾.

---

(١) نشرت فى مجلة المنار فى العدد (العاشر) من المجلد (الخامس والثلاثين) الصادر فى شعبان سنة ١٣٥٩هـ سبتمبر سنة ١٩٤٠م.

وفي سورة الإسراء ذكر لآيات مفصلة اقترحوها: ﴿ وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا (٩٠) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا (٩١) أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا (٩٢) أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴾ [الإسراء: ٩٠- ٩٣].

وقد تكرر طلبهم نزول الملك بدلاً من الرسول البشرى فى آيات كثيرة غير سورة الانعام ففى سورة الحجر [الآيات: ٦- ٨]: ﴿ وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ (٦) لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٧) مَا نُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذًا مُّنظَرِينَ ﴾.

وفى سورة هود [الآية: ١٢]: ﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾.

وفى سورة الفرقان [الآيتان: ٧، ٨]: ﴿ وَقَالُوا مَا لِهَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا (٧) أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ﴾.

وجاء فى سورة العنكبوت: أنهم اقترحوا آيات لا آية واحدة، فذلك قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٥٠) أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [العنكبوت: ٥٠، ٥١].

وقد بين القرآن الكريم أن تلك سنة الأمم السابقة أن يقترحوا على أنبيائهم الآيات والمعجزات، وأن يستعجلوهم بالعذاب، فلقد قالت ثمود من قبل - لصالح عليه السلام: ﴿ مَا أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ [الشعراء: ١٥٤]، وقال أصحاب الأيكة لشعيب عليه السلام: ﴿ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ [الشعراء: ١٨٧]، وقال فرعون لموسى عليه السلام: ﴿ إِن كُنتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ

بِهَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (١٠٦) فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ (١٠٧) وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ ﴾ [الأعراف : ١٠٦ – ١٠٨].

[حكمة عدم تلبية القرآن لمطالب المشركين من الرسل]

وقد تضمنت هذه الآيات الكريمات جميعًا : الرد على مقترحاتهم هذه بما يفحمهم ويلجمهم،وبينت أن السبب فى عدم إجابتهم : ليس العجز عنها، فإن الله على كل شىء قدير، وإنما السبب فى ذلك اعتبارات جليلة وحكم سامية وردت منشورة فى هذه الآيات، وهذه هى حكمة تكرارها وورودها فى سور كثيرة، ومن هذه الاعتبارات والحكم التى تقتضى عدم إجابتهم إلى ما سألوا:

١– بيان أن ذلك ليس من مهمة الرسل عليهم الصلاة والسلام، فهم دعاة هداية وأساتذة إرشاد، يبينون للناس الحق ويدعونهم إليه، فمن اهتدى فقد فاز، ومن أبى فقد خسر، وليس من مهمة الرسل ولا من وظائفهم التصرف فى نواميس الكون ونظمه، فذلك لله وحده إن شاء ذلك فهو على كل شىء قدير، وإن لم يرده فلا قدرة لاحد عليه، وقد أشير إلى هذا فى الجواب عليهم فى كثير من الآيات السابقة مثل قوله تعالى : ﴿ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ ﴾ [يونس : ٢٠]، ﴿ إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾ [الرعد : ٧]، ﴿ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴾ [الرعد : ٢٧]، ﴿ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ [العنكبوت : ٥٠]، ﴿ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَن يُنَزِّلَ آيَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الانعام: ٣٧].

وإنما آثر وصف الإنذار للرسل فى هذه الآيات الكريمة – مع أنهم صلوات الله عليهم مبشرون ومنذرون كما جاء فى آية النساء [الآية : ١٦٥] ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ﴾ – لأن هذا الوصف هو الأليق والأخلق بهذه النفوس العنيدة والرؤوس الصلبة، التى تأبى الإيمان إلا أن تقسر عليه قسرًا، فالمقام يقتضى هذا الوصف، ولهذا أفرد بالذكر دون الوصف الثانى وهو التبشير لأنه مقتضى المقام، وهذا المعنى هو الغالب على النفوس البشرية أن تقاد بالقهر والتخويف أكثر مما تقاد بالحب والتبشير.

٢- بيان أن حكمة الله تعالى قد اقتضت: أن الأمة التى تقترح الآيات ثم تكذب بها: لابد أن تعذب عذاب استئصال، ويأخذها الله تعالى أخذ عزيز مقتدر، فثمود حين كذبت صالحًا: أخذتها الصيحة والرجفة، وفرعون حين كذب موسى: أخذه الله هو وجنوده، فنبذهم جميعًا فى اليم وهكذا.

ولما كانت نبوة محمد ﷺ نبوة خالدة أبد الدهر، وكانت أمته هى الوارثة إلى يوم القيامة، وقد علم الله من عناد هؤلاء الكفار وصلابة رؤوسهم أنهم لن يؤمنوا حتى ولو جاءتهم هذه الآيات، كما قال تبارك وتعالى فى سورة الأنعام [الآية: ١٠٩] ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لا يُؤْمِنُونَ ﴾، وكما قال تبارك وتعالى فى هذه السورة نفسها: ﴿ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ ﴾ [الأنعام: ٢٨]، لما علم الله منهم ذلك لم يجبهم إلى ما طلبوا، إذ لو أجابهم فكذبوا - كما فعلت الأمم السابقة - لاستأصلهم وأبادهم، وذلك مخالف لمقتضى بقائهم ووراثتهم، وإلى هذا أشارت الآية الكريمة: ﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالآيَاتِ إِلاَّ تَخْوِيفًا ﴾ [الإسراء: ٥٩]، وقد صرحت به آية (الحجر) فى قوله تبارك وتعالى: ﴿ مَا نُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذًا مُّنظَرِينَ ﴾ [الحجر: ٨].

وقد يقال: إن هذه القاعدة - قاعدة الاستئصال - لا تطبق على الأمة المحمدية؛ فقد أمنها الله برسوله وبالاستغفار، فقال تبارك وتعالى: ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ [الأنفال: ٣٣]، وهو قول محتمل.

٣- بيان أن أفضل الإيمان ما كان عن طواعية واختيار، لا عن إلجاء واضطرار، وما كان عن نظر سليم، وفكر ثاقب حكيم، وتدبر لآيات الله، وتقديس لقدرته وعظمته المتجلية فى كونه والبادية فى مخلوقاته، والمتجلية فى إبقاء آيات كتابه الكريم؛ والمعجزة الكبرى، والآية الخالدة لنبينا ﷺ هى القرآن الكريم، وفيه الكفاية كل الكفاية لمن تدبر وتذكر، وقد ورد ذلك صريحًا فى سورة العنكبوت فى قوله تعالى - جوابًا لهم عن اقتراح الآيات- : ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [العنكبوت: ٥١].

وقد روى الشيخان والترمذى والنسائى من حديث أبى هريرة مرفوعًا: «ما من نبى إلا أعطى ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذى أوتيته وحيا أوحاه الله إلىّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعًا يوم القيامة»(١).

وقد سبق فى هذا التفسير فى سورة الأنعام عند قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ﴾ [الأنعام: ٣٧] ذكر اعتراض وجوابه، قال: «هذا وإن بعض الكفار وبعض الشاكين والمتشككين فى الإسلام يقولون: لو أن محمداً ﷺ أوتى بينة ومعجزة واضحة؛ تدل على نبوته ورسالته، لما طلب قومه الآية، وأن هذا الجواب بقدرة الله على تنزيل الآية، ومعنى العلم عن أكثرهم لا تقوم به الحجة عليهم المبطلة لحقية طلبهم»، ثم أجاب عن هذا بما خلاصته ما قدمناه، من أن القرآن هو المعجزة القطعية الباقية الخالدة لرسول الله ﷺ(٢).

على أن الجواب لم يقتصر على ما ذكر، بل قد علمت أن الإجابات تعددت تلفت أنظارهم إلى حكمة الامتناع عن الإرسال بالآيات الخارقة.

ويقال أيضاً: إنه لما كانت أسئلتهم تعنت وإحراج، لا أسئلة تثبت واسترشاد، ناسب أن يجابوا بمثل هذه الإجابات: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنفال: ٢٣].

(ولكل قوم هود) أكْثَرَ المفسرون فى بيان المعنى المراد بالهادى فى هذه الآية، فذهب بعضهم إلى: أن المراد به الله تبارك وتعالى، وذهب آخرون إلى: أنه محمد ﷺ، أو النبى أيًا كان، أو قائد يقودهم، أو داع يدعوهم إلى الخير، كل ذلك مروى بأسانيده.

وقال ابن جرير - بعد أن أورد كثيراً من هذا -: «وقد بينت معنى الهداية، وأنه الإمام المتبع الذى يقدم القوم، فإذا كان ذلك كذلك: فجائز أن يكون ذلك هو الله الذى يهدى خلقه، ويتبع خلقه هداه، ويأتمون بأمره ونهيه، وجائز أن يكون داعيًا من الدعاة

---

(١) رواه أحمد (٣/٢٠٤) والبخارى (٤٩٨١) و(٧٢٧٤) ومسلم (١٥٢) والنسائى فى «الكبرى» (١١١٢٩) والبيهقى فى «السنن» (١٣/١٩٠) عن أبى هريرة رضى الله عنه. ولم أجده فى الترمذى ولا النسائى كما ذكر الإمام.

(٢) انظر: تفسير المنار (٧/٣٨٧ - ٣٨٨).

إلى خير أو شر، وإذا كان ذلك كذلك فلا قول أولى في ذلك بالصواب من أن يقال كما قال جل ثناؤه، أن محمداً هو المنذر من أرسل إليه بالإنذار، وأن لكل قوم هادياً يهديهم فيتبعونه ويأتمون به» اهـ.

وذكر الشيعة أن المراد بالهادي: على كرم الله وجهه، واستدلوا بذلك على خلافته، وأوردوا في الاستدلال له: ما رواه ابن مردويه والديلمي، وابن عساكر عن ابن عباس قال: لما نزلت (إنما أنت منذر) الآية، وضع رسول الله ﷺ يده على صدره، وقال: «أنا المنذر وأوما بيده إلى منكب على كرم الله وجهه فقال: أنت الهادي يا علي؛ بك يهتدى المهتدون من بعدي»[1].

وبما أخرج عبد الله بن أحمد [بن حنبل] في زوائده، وابن أبي حاتم، والطبراني، والحاكم وصححه، عن علي كرم الله وجهه أنه قال في الآية: رسول الله ﷺ المنذر وأنا الهادي[2].

وفي لفظ: والهادي رجل من بني هاشم، يعني نفسه[3].

وقد طال الألوسي في رد هذا الخبر ومناقشته بما خلاصته: أن تصحيح الحاكم لا يعتد به، وأنه على فرض صحة الخبر: فكل ما فيه أن علياً - كرم الله وجهه - من الخلفاء الراشدين الهادين المهديين، ولا يخالف في هذا أحد من أهل الحق[4].

وقال ابن كثير - في هذا الخبر -: فيه نكارة شديدة.[5].

ولقد أفسد الناس كثيراً مما ينتفع به من علم علي - كرم الله وجهه - بما دسوه عليه،

---

(1) وذكره الطبري في تفسيره برقم (20611) وقال ابن كثير: فيه نكارة شديدة. نقلاً عن مسند أحمد بتحقيق شعيب الأرناؤوط ورفاقه (2/207).

(2) رواه الحاكم وصححه (3/140) والطبراني في الأوسط (1383) عن علي رضي الله عنه. وقال الذهبي: بل كذب، قبح الله واضعه، وفيه حسين بن حسن الأشقر، منكر الحديث، واتهمه أبومعمر الهذلي بالكذب. انظر: مسند أحمد طبعة الرسالة (2/306-307).

(3) رواه أحمد (1/203) عن علي رضي الله عنه. وقال محققوه: إسناده ضعيف. انظر: المسند (7/306) (1041) وصححه شاكر في المسند (2/227).

(4) انظر: تفسير الألوسي (13/108).

(5) انظر: تفسير ابن كثير (2/483).

وما نسبوا كذبًا إليه، حتى روى مسلم - بسنده - عن طاوس قال: أتى ابن عباس بكتاب فيه قضاء على رضى الله عنه فمحاه إلا قدر، وأشار إلى سفيان بن عيينة بذراعه[1].

وروى كذلك عن حسن بن على الحلوانى بسنده عن أبى إسحاق قال: لما أحدثوا تلك الأشياء بعد على رضى الله عنه قال رجل من أصحاب على: قاتلهم الله أى علم أفسدوا[2].

ولا لزوم لأن تحمل الآية الكريمة كل هذه الأقوال، فالله تبارك وتعالى يجيب هؤلاء المقترحين بأن مهمة النبى ليست الإتيان بالآيات، ولكن الإنذار التى تترتب عليه الهداية، وأن محمداً ﷺ هو المنذر لهم لم يكن بدعًا من الرسل، فلكل قوم هاد يهديهم، كما قال تبارك وتعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤] والله أعلم.

وقد ورد الكلام فى هذه البحوث كلها مطولاً فى تفسير المنار فى الأجزاء السابقة: السابع والحادى عشر، عند الكلام على سورتى: (الأنعام) و(يونس) فليرجع إليه، ففيه بحوث نفيسة لم نرد التطويل بتلخيصها.

الإسلام والمعجزات والعجائب:

ليست الرسالة بدعًا من النظم، بل هى - فى حقيقتها ومهمتها - نظام طبيعى بحت يستلزمه هذا الوجود الإنسانى بما جبل عليه من فطر وأخلاق، وإلى هذه الإشارة يقول الله تبارك وتعالى: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [يونس: ٢]، وبقوله تبارك وتعالى - حكاية عن نوح عليه السلام -: ﴿أَوَ عَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: ٦٣].

وليس الوحى كذلك بدعًا من النظم فى هذا الكون، فهو لا يعدو أن يكون اتصالاً

---

(١) رواه مسلم فى المقدمة (١ / ٤٠) باب النهى عن الرواية عن الضعفاء والاحتياط فى تحملها.

(٢) المصدر السابق.

بين بشر من بني الإنسان وبين الملأ الأعلى، بأسلوب يتناسب مع طبيعة الروحانية الإنسانية التي هي في حقيقتها: فيض من روحانية هذا العالم العلوي. وليس عجيبًا أن يتصل النوع بأصله، وأن يعود الماء إلى نبعه، متى تعلقت بذلك الإرادة الإلهية.

ولقد جاء هؤلاء الرسل الكرام يرشدون الناس إلى الخير ويهدونهم سواء السبيل، وقد قص علينا القرآن الكريم من نبئهم، وذكر أن الله تبارك وتعالى أيدهم بنصره وآياته، وأن كثيرًا منهم قد جاء قومه بما أعجزهم من خوارق العادات وعجائب الآيات، فسفينة نوح، وناقة صالح، وعصا موسى، وعجائب عيسى: كلها ورد ذكرها في القرآن الكريم بما لا يدع مجالاً للارتياب فيها، ولا للشك في وقوعها وحدوثها على أيديهم صلوات الله تعالى وسلامه عليهم.

[عقيدة المسلم في المعجزات]

وقد اختلف الناس في أمر هذه المعجزات، وسنلخص في هذا البحث: نظرة الإسلام الحنيف إليها، وما يجب أن يعتقده المسلم بخصوصها:

١- تعريف المعجزة:

المعجزة: أمر خارق للعادة، يقع على يد نبي مقرونًا بدعوى التحدي.

٢- الحاجة إليها في تأييد الرسالة:

يخاطب الرسل عليهم الصلاة والسلام عقول الناس وأرواحهم، وفي هذه العقول ما هو مشرق مستنير، يدرك الحق بأشعته وأضوائه فيؤمن به ويسلم له ويهتدي بهديه. وهؤلاء لا تحتاج الرسالة معهم إلى معجزات أو عجائب.

ومن هذه العقول ما هو مظلم متحجر صلب، لا تؤثر فيه موعظة ولا ينفع في إرشاده ضياء، وهؤلاء كذلك ميؤوس من إصلاحهم مهما كانت العجائب والمعجزات.

وكلا الصنفين قليل في الناس، وإنما يكون عامة الناس ودهماؤهم في درجة عادية من الإدراج العقلي، تحتاج إلى ماينبهها من غفلتها ويوقظها من رقدتها، وليس ذلك إلا المعجزة تقرع آذانهم، وتتفتح عليها أبصارهم، فتحار فيها مداركهم وعقولهم، ويؤمنون بأن هذا النبي إنما يتحدث عن قوة فوق قوتهم، ويتصل بقدرة أعظم من قدرتهم، ويستمد من عالم أسمى من عوالمهم، ومن هذا الشعور يقادون إلى الإيمان، وتتفتح

بصائرهم لاستيعاب أدلته والنظر في حججه وبراهينه، حتى يترقوا من هذا التسليم إلى غايته وحقيقته، ولهذا كانت المعجزة من لوازم الرسالة، ولا يكابر في هذا إلا جاهل بطبائع الناس، أو ممارئ لحقائق الأمور.

٣- موقف الناس من المعجزات:

أنكر كثير من المرتابين المعجزات قليلها وكثيرها، ما تقدم منها وما تأخر، بحجة أنها تخالف النواميس الكونية ولا تتفق مع نتائج البحوث العلمية، وقد يحتج بعضهم بقول الله تبارك وتعالى: ﴿فَلَن تجد لسُنَّت الله تَبْديلاً وَلَن تجد لسُنَّت الله تَحْوِيلاً﴾ [فاطر: ٤٣]، وقد يلجأ بعضهم إلى تأويل ما ورد من النصوص القرآنية، مشيراً ومصرحاً بهذه المعجزات والخوارق.

وهؤلاء جاحدون جامدون متعسفون متكلفون، ولا دليل لهم فيما ذكروا، فإن نواميس الكون - التي علمها الناس - ليست هي كل شيء، ولا زالت هناك نواميس لم تعرف بعد، ولعلها أكثر مما عرفوا، بل إنها لكذلك، ونتائج العلم الحديث لا تزال تترقى وتتغير وتتبدل بحكم ترقي الفكر والإنساني وتقدمه، والآية الكريمة حجة عليهم لا لهم، فقد علمنا بحكم الواقع: أن من نواميس الله خرق النواميس الكونية لتأييد رسله وأنبيائه، ﴿فَلَن تجد لسُنَّتِ الله تَبْدِيلاً وَلَن تجد لسُنَّت الله تَحْوِيلاً﴾ [فاطر: ٤٣]، وكثير من أمثال هذه العجائب تقع بين ظهرانينا، ولا يقال: إنها خرق لنواميس الكون، والآيات الواردة بهذه المعجزات في صراحتها ووضوحها لا تحتمل التأويل إلا من متلاعب باللفظ، صارف له عن مدلوله صرفًا تامًا، فضلاً عن أن هذا التأويل لا موجب له بعد ما بيناه.

وفريق ثان سلم بالمعجزة من حيث هي، وبوقوعها في الأمم السابقة على يد الأنبياء السابقين صلوات الله وسلامه عليهم كما ورد ذكر ذلك في القرآن، ولكنه نفاها فيما يتعلق بأمة محمد ﷺ ورسالته نفيًا تامًا، واحتج لذلك: بأنها لم ترد في القرآن، وبتصريح القرآن برد الكفار عن مقترحاتهم هذه مع عدم إجابتهم إليها، حتى ورد ذلك صريحًا في نحو الآية الكريمة: ﴿وما مَنَعَنَا أَن نُرْسل بالآيَات إِلاَّ أَن كَذَّب بِهَا الأَوَّلُون﴾ [الإسراء: ٥٩]، وجرحوا ما جاء في ذلك من الأخبار الصحيحة، وأولوا ما رأوا أنه يحتمل التأويل منها، وقالوا: إن المعجزة الكبرى لنبينا ﷺ القرآن الكريم، واستدلوا لذلك بما قدمنا من حديث

الشيخين والترمذي والنسائي من حديث أبي هريرة مرفوعًا: «ما من نبي من الأنبياء إلا أعطى ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحيًا أوحاه الله إليّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعًا يوم القيامة»[1] قالوا: فهذا الحديث الصحيح والآيات الكريمة، تنطلق بأن آية النبي ﷺ هي القرآن الكريم، ولا نعدل عن ذلك لآثار مهما صحت، فهي لا تنهض لمعارضة هذه الأدلة.

وهؤلاء قوم غالون؛ قد ورطوا أنفسهم فيما لا موجب له من تجريح كثير من الأحاديث والأخبار الصحيحة؛ التي لامغمز فيها سندًا ولامتنًا، وكلها تنطق بغرائب المعجزات التي وقعت على يد سيدنا محمد ﷺ، كما ورد في حديث نبع الماء من بين أصابعه ﷺ، وقد أخرجه الستة إلا أبا داود[2]

وكما في حديث تكثير الطعام، وقد رواه الشيخان من طرق عدة[3]، وكما في الأحاديث الكثيرة التي استجاب الله فيها دعاء نبيه ﷺ، أو كف عنه الأذى[4]، أو أخبر فيها بما سيقع لأمته من بعده، وكلها صحاح لا مطعن عليها، ولا داعي لتأويلها أو إنكارها من عقل أو نقل.

وفريق ثالث سلم بالمعجزة من حيث هي، وبوقوعها للأنبياء السابقين صلوات الله وسلامه عليهم، وبوقوعها في هذه الأمة على يد رسول الله ﷺ متى صح بذلك الخبر، ولكنه نفى أن يكون ذلك لإثبات الرسالة، ولكنه لكشف الأذى، أو لإجابة الدعاء، أو لتثبيت أهل الإيمان، إلخ، ولم يقع شيء فيها إجابة لمقترحات المشركين، أو إقناعًا لهم بصدق الرسول، إذ إن دعامة الإيمان في هذا الدين الإسلامي الحنيف: الاستدلال العقلي

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) رواه أحمد (١١٩٣٩) والبخاري (١٦٩) و(٧٥٧٣) ومسلم (٢٢٧٩) والترمذي (٣٦٣١) والنسائي (٧٦) ومالك (٦٤) عن أنس بن مالك رضي الله عنه. وقال الإمام القرطبي عن أحاديث نبع الماء من بين أصابعه ﷺ: قصة نبع الماء من بين أصابعه قد تكررت منه ﷺ في عدة مواطن في مشاهد عظيمة، ووردت من طرق كثيرة، يفيد مجموعها العلم القطعي المستفاد من التواتر المعنوي. انظر: شرح العلامة الزرقاني على المواهب اللدنية بالمنح المحمدية (٧/ ٣).

(٣) رواه البخاري (١٤٠١) ومسلم (٢٠٣٩) والدارمي (٤٢) عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.

(٤) كحادثة الشاة المسمومة. وتآمر اليهود عليه بإيعازهم لأحد رجالهم أن يلقي بحجر على رسول الله ﷺ، وغيره مما هو ثابت في السيرة النبوية والسنة.

السليم، ولا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى، وقالوا: إن فى ذلك جمعًا بين الأدلة التى نفت والتى أثبتت، فيكون المراد بالنفى: نفى الإقناع والاستدلال، ويكون المراد بالإثبات: إثبات الوقوع من حيث هو، وهو مذهب حسن، ورأى معقول لا حرج على قائله ولا الآخذ به، إذ كل ما هنالك تنزيه الإسلام على أن يستخدم هذه الخوارق كنوع من أنواع الأدلة الإقناعية، وهو كذلك.

وقد أكثر جماعة من إيراد المعجزات وتلمس الخوارق؛ والتسليم بكل ما ورد من ذلك من طريق واه، أو ضعيف، بل موضوع، يريدون بذلك: أن يستدلوا لعظمة هذا الدين وعظمة النبى الذى جاء به ﷺ! فأساءوا من حيث أرادوا الإحسان، ودفعوا غيرهم إلى إنكار الخوارق جملة والقدح فيها، ولا لزوم لشئ من هذا، فإن هذا الدين عظيم متين بوضوح حجته واستقامة طريقه، والرسول ﷺ كريم أمين بما اختصه الله به من عظيم الفضائل وجميل الصفات، وعموم البعثة وخلود الأثر، وكان فضل الله عليك عظيمًا.

بقى أن يقال: إن انشقاق القمر معجزة وقعت لرسول الله ﷺ إجابة لاقتراح مشركى قريش وقد كذبوا به، ومع ذلك فلم يهلكهم الله تبارك وتعالى ولم يستأصلهم؟!.

وقد أجيب على ذلك بأمور منها: أن هذه المعجزة لم تكن إجابة لاقتراحهم، كما ورد فى حديث عبد الله بن مسعود رضى الله عنه، فإنه لم يذكر فيه أنهم اقترحوا ذلك[1]، ولكن هذا لا ينفى الاقتراح فى روايات أخر[2].

---

(١) الرواية التى فيها انشقاق القمر دون اقتراح المشركين على رسول الله ﷺ لفظها: «بينما نحن مع رسول الله ﷺ بمنى إذ انفلق القمر فلقتين، فكانت فلقة وراء الجبل، وفلقة دونه، فقال لنا رسول الله ﷺ: اشهدوا». رواه أحمد (١/ ٦٢٣) والبخارى (٣٦٣٦) ومسلم (٢٨٠٠) والترمذى (٣٢٨٥) وأبو يعلى (٤٩٦٨) وابن حبان (٤٦٩٥) والنسائى فى «الكبرى» (١١٥٥٢) والطبرانى فى «الكبير» (١٠/ ٧٤) عن ابن مسعود. ورواه الحاكم (٢/ ٥١٣) عن ابن عباس. ورواه الحاكم (٢/ ٥١٣) عن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما. ورواه الطبرانى فى «الكبير» (١٢/ ٣٠٥) عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما.

(٢) الرواية التى فيها انشقاق القمر إجابة لاقتراح المشركين على رسول الله ﷺ لفظها: «أن أهل مكة سألوا رسول الله ﷺ أن يريهم آية فأراهم انشقاق القمر». رواه أحمد (٣/ ٦٤٤) والبخارى (٣٦٣٧) ومسلم (٢٨٢٠) والترمذى (٣٢٨٦) وأبو يعلى (٣١٨٧) والنسائى فى «الكبرى» (١١٥٥٤) والحاكم (٢/ ٥١٣) عن أنس رضى الله عنه.

ومنها: ان قاعدة الاستئصال اغلبية لا كلية، وان امة محمد ﷺ قد امنها الله منها، وهو جواب حسن لا باس به.

ومنها: ان أحاديث انشقاق القمر نفسها فيها كلام طويل، وقد أفاض في ذلك صاحب المنار في المجلد الثلاثين، وذهب إلى ان هذه الآثار في أسانيدها ومتونها ما يوجب ضعف الاعتماد عليها، وتلك مسالة فنية الحكم فيها لقواعد المحدثين، والمهم أن نخرجها من حيز الطعن في العقيدة، فإن الأساس مسلم من كل منصف، وهو: الإيمان بما صح عن الله ورسوله من المعجزات التي وقعت لسيدنا محمد ﷺ، ولعلنا نعود إلى توفية هذا الموضوع حقه في فرصة أخرى إن شاء الله.

*****

من الأدب العالي:

ســـورة الحُجُــرات

[أدب الحديث مع النبي ﷺ](1)

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (1) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لا تَشْعُرُونَ (2) إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ [الحجرات: ١-٣].

[دعوة لمدارسة القرآن]

فلنتدارس هذه الآية الكريمة معًا، اقرأها كما قرأتها بتدبُّر وإنعام، وسَلْ نفسك بعد ذلك هذه الأسئلة كما سألت نفسي من قبلك، وسأجيبك عنها، فإن طابقت إجابتك ما وصلتُ إليه فبها، وإن فتح الله عليك بخير مما فتح به عليَّ فاحمد الله، وإن شئت أن تفيدني إياه فافعل، وأنت في حلٍّ إن لم تشأ ذلك، وسامدك في هذه الإجابة بما عرفت من أسباب النزول والمأثور في الآية الكريمة، وأظنك بعد هذا عرفت أن ما أكتبه إلى مدارسة القرآن أقرب منه إلى التفسير، ولِمَ لا نتدارس القرآن على صفحات هذه الجريدة(2) الغرَّاء، ولِمَ لا تكون هذه المدارسة نوعًا آخر من أنواع التفسير، ومسلكًا مبتكرًا من مسالكه، ولأعُدْ بك بعد ذلك إلى المدارسة.

[معاني كلمات الآيات]

الجهر: رفع الصوت.

وحبوط الأعمال: فسادها وضياع ثوابها.

وغضُّ الصوت: خفضه.

والامتحان: الاختبار.

---

(١) نشرت في مجلة (جريدة الإخوان المسلمين) الأسبوعية في العدد (٨) من السنة الثالثة الصادر في يوم الثلاثاء الموافق ٤من ربيع الأول سنة ١٣٥٤هـ- ٤من يونيه سنة ١٩٣٥م.

(٢) يقصد مجلة (جريدة الإخوان المسلمون) فقد أنشأها الإمام البنا كمجلة في البداية، وكان يؤمل أن تصير يوما ما جريدة يومية، ولم يتحقق هذا الأمل إلا في عام ١٩٤٦م.

وبعد أن عرفت معانى هذه الألفاظ سألت نفسى عدة أسئلة:

هل هناك ارتباط بين هذه الآيات الكريمة وما قبلها؟ وما سبب نزولها؟ وما المقصود بها؟ وكيف نستفيد منها؟ وإليك الجواب:

أ- ارتباط هذه الآيات بما قبلها:

يقول الله تبارك وتعالى فى آخر سورة الفتح [الآية: ٢٩]: ﴿**مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا**﴾.

فها أنت ترى أنَّ فى هذه الآية كلامًا عن مَنْصب الرسول ﷺ ومهمته، وعن صفات المؤمنين ومظاهر الكمال فيهم، فناسب بعد ذلك أن تُحدَّد الصلة بين مقام الرسالة العظيم المحفوف بجلال الزعامة الدينية والدنيوية؛ وبين غيره من المقامات، مع بيان ما يجب لهذا المقام الكريم من تكريم وتعظيم، وهو ارتباطٌ قوىٌّ متينٌ وصلةٌ وثيقةٌ تجعل الآية الثانية أولى ما يتبع الآية الأولى.

ب- سبب النزول:

أما سبب نزول هذه الآية الكريمة فقد قال قوم: إنها نزلت حين جادل أبو بكر عمر رضى الله عنهما فى شأن وفد بنى تميم، فارتفعت أصواتهما، وحجة هؤلاء ما رواه البخارى وابن المنذر وابن مردويه عن عبد الله بن الزبير رضى الله عنهما قال: قدم رَكْبٌ من بنى تميم، على النبىِّ ﷺ فقال أبو بكر رضى الله عنه: أَمِّر القعقاع بن معبد، وقال عمر رضى الله عنه: بل الأقرع بن حابس. فقال أبو بكر رضى الله عنه: ما أردت إلا خلافى. فقال عمر: ما أردت خلافك، فتماريا حتى ارتفعت أصواتهما، فأنزل الله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدى الله ورسوله) الآية[١].

(١) رواه أحمد(٤/ ٥٦٨،٥٧٢) والبخارى (٤٨٤٥) والترمذى (٣٢٦٦) والنسائى فى "المجتبى (٥٣٨٦) والبزار (٢١٨٨) عن عبد الله بن الزبير رضى الله عنهما.

وقال قوم: إنها نزلت حين ذبح بعض المسلمين أضحيتهم قبل رسول الله. واستدلَّ هؤلاء بما رواه عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن الحسن: أن أناسًا ذبحوا قبل رسول الله ﷺ يوم النحر، فأمرهم عليه الصلاة والسلام أن يعيدوا ذبائحهم، فأنزل الله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا)[1] قالوا: ومِنْ هؤلاء الذين ذبحوا: أبو بُردة بن نيار.

وقال آخرون: إنها نزلت حين توالت وفود العرب على رسول الله ﷺ، فأكثروا من مسألته قبل أن يكون هو البادئ بالكلام، فنهاهم الله عن ذلك حتى يبدأهم ﷺ بما يريد من الأحكام.

وقال غيرهم: إنَّ أناسًا كانوا يتعجَّلون، فيقولون: لو أنزل الله في كذا لكان كذا، فنهاهم الله عن هذا التمني بهذه الآية[2]. وروى ابن جرير هذا عن قتادة وغيره.

وفي سبب النزول أقوالٌ أُخَرْ لا تخرج عن مثل ما ذكرنا، ولا نخرج عن القصد من هذه المدارسة بسردها، وحَسْبُكَ ما تقدم.

[ترجيح بين الأقوال]

أعتقد أنه ليس ما يمنع من إرادة هذه المعاني جميعًا، فكلُّها لا تخرج عن مقصد واحد هو: الانتظار حتى يكون الرسول ﷺ البادئ بالكلام وبالسؤال، وبإيراد الأحكام وبتأويلها وهكذا.

وعلى ذلك يكون معنى الآيات الكريمة - والله أعلم بمراده -: يا أيها الذين آمنتم وصدَّقتم بمحمد ورسالته، واعتقدتم دينه وعقيدته: أجلُّوا قَدْرَ هذه المهمة العظمى في شخصه الكريم، وتأدَّبوا معه الأدب السَّامي العالي، فلا تكونوا بادئيه بشيء حتى يتقدَّم إليكم فيه بأمر، ولا ترفعوا أصواتكم في حضرته كما يرفع أحدكم صوته في حضرة أخيه، ولا تنادوه بما ينادي به بعضكم بعضًا، بل نادوه نداء يُشْعِر بالتعظيم والتكريم، والإجلال والاحترام، حتى لا تكون غفلتكم عن تقديس هذه المنزلة سببًا في تقصيركم ومؤاخذتكم بما يزيد على طاعتكم، فيبطل ثوابها ويربى على جزائها فتهلكون وأنتم لا تشعرون. فإن

---

(١) انظر: تفسير الطبري (١١/٣٧٨) وتفسير الحسن (٢/٢٩٥) والدر المنثور (٦/٨٥).

(٢) انظر: تفسير عبد الرزاق (٢/٢٣٠) والطبري (١١/٣٧٧).

امتثلتم وغَضَضْتم أصواتكم وخفضتموها فى حضرة الرسول ﷺ، كان ذلك دليلاً على أنَّ الله تبارك وتعالى قد اختبر قلوبكم وطهَّرها وامتحنها، فوجدها صالحةً لأن تكون مهبطًا لتقواه، ومستقرًا لرحمته، وأهلاً لمغفرته وثوابه.

[معنى جديد فى فهم الآية]

ويتردَّد فى نفسى معنى لهذا الاستفتاح سأقُصُّه عليك - وإن لم أره من قبل -: ذلك أنَّ الحقَّ تبارك وتعالى شَرَع للمسلمين فى أول الإسلام أنهم إذا أرادوا مناجاة الرسول ﷺ والدخول عليه أن يقدِّموا بين يدى نجواهم صدقة، رمزًا إلى أنَّ هذا مقام كريم، لا يقربه بين يدى رسول الله ﷺ إلا الكرام المتطهِّرون بالصَّدقات، ثم خفَّف ذلك عمَّن لا يستطيع رحمة به ورأفة، فذلك قول الله تبارك وتعالى فى سورة المجادلة [الآية: ١٢]: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ حتى إذا استقرَّ تمجيد الرسول ﷺ فى نفوسهم، واطمأنت إلى تعظيمه قلوبهم، وصار ذلك دأبًا لهم، رفع الله عنهم هذا الحكم، وأباح لهم المناجاة بغير صدقة قبلها، فذلك قول الله تبارك وتعالى: ﴿ أَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [المجادلة: ١٣].

وأراد الحق تبارك وتعالى أن يقرِّر هذا المعنى فى نفوسهم بمناسبة ما تقدَّم من الحوادث، فذكَّرهم برحمته إيَّاهم فى أنه خفَّف عنهم فى تقديم الصدقات، وأخذ عليهم أن يطيعوا ويتقوا، فعليهم أن يَفُوا بذلك ويعملوا عليه، وأردف ذلك بما يتلوه من الآداب والتعاليم، ويكون المعنى حينئذ: لا تقدموا بين يدى الله ورسوله، أى: لا تقدِّموا الصدقة التى أُمرتم بها من قبل.

ومهما يكن؛ فإن فى حذف المفعول[١] هنا كثير من معانى الإعجاز والخلود والإبهام الذى يؤدى إلى أوضح من الوضوح مما امتاز به القرآن الكريم.

---

(١) يقصد بذلك أن الله لم يذكر المفعول فى قوله (لا تقدموا) وهو يقتضيه هنا، ولحذفه فوائد منها: أن يحذف ليتناول كل ما يقع فى النفس مما يقدَّم. ومنها تصور الهجنة والشناعة فيما نهوا عنه من الإقدام على أمر دون الاحتذاء على أمثلة الكتاب والسنة. انظر فى ذلك: الكشاف للزمخشرى (٤/ ٣٤٩).

[لطائف قرآنية]

وفى الآية الكريمة - بعد ذلك - لطائف كثيرة يتذوقها من صفا قلبه وطهر لُبُّه، من ذلك: التعبير بقوله تبارك وتعالى: (بين يدى الله ورسوله)، والمعروف أن الكلام فى حق رسول الله ﷺ وحده، وأن التقديم لم يكن إلا بين يديه إشعاراً للمؤمنين بأن قيامهم بهذه الحقوق للرسول ﷺ إرضاء للحق تبارك وتعالى، وكأنهم إنما يقومون به معه جلَّ شأنه، ذلك إلى ما فيها من الإشارة إلى صلة الرسول ﷺ بربه وقُرْبه منه، وقد ورد كثير من هذا المجاز فى الكتاب الكريم وفى السنة، من ذلك ما ورد من قول رسول الله ﷺ: "من آذى مسلما فقد آذانى، ومن آذانى فقد آذى الله عز وجل"(١) وهكذا.

وفيها: التفسير عن النبىِّ ﷺ فى مواقف السورة الكريمة بوصف الرسالة عن الله عز وجل، لأن هذا الوصف - فضلاً عن أنه يُشعر بعظمته ﷺ الذاتية أولاً، ثم بفضل الله تبارك وتعالى عليه ثانيًا - يُشْعر بعظيم الصلة، وكبير القُرب بينه وبين الحقِّ تبارك وتعالى، وبَيَّن أن صلته بالخلق إنما جاءت عن هذا الطريق الإلهىِّ الكريم، وفى ذلك ما فيه من تشريف تتذوَّق حلاوته نفوس الصَّادقين من المؤمنين.

ومنها: نداء الحق تبارك وتعالى عباده بوصف الإيمان تنبيهًا على أن أداء حقِّ رسول الله ﷺ من صميم الإيمان ولُبِّ الإيمان.

ومنها: الأمر بالتقوى بعد هذا النداء، كان الذى يَتَنَكَّب طريقه غير تقى، وليس بينه وبين نقْمَة الله حاجز.

ج- ما الذى نستفيده من الآيات الكريمة؟

أما الذى استخلصته من الآيات الكريمة من روائع الأدب، ودقيق الأحكام فهو:

١- إحاطة مرتبة الزعامة العادلة الصحيحة العاملة لخير الدنيا والآخرة بهالة من

(١) رواه الطبرانى فى "الصغير" (٤٦٩) وفى "الأوسط" (٣٦٠٧) والبيهقى فى "الشعب" (٣٠٠١) عن أنس بن مالك رضى الله عنه. وقال الهيثمى: فيه القاسم بن مطيب قال ابن حبان: كان يخطئ كثيراً فاستحق الترك. انظر: المجمع (٢/ ١٧٩). وضعف إسناده محقق "الشعب" (٦/ ٢٥٩).

الاحترام والإجلال، تحول بينهم وبين زراية الزارين وتهجُّم الغافلين، وهي للرسول ﷺ بالأصالة، ولغيره من أئمة الأمة بالوراثة مع تفاوت المراتب، وقد ألمَّ بذلك أبو حيَّان فكَرِه رَفعَ الصَّوت في حضرة العالم ومَنْ في منزلته[١].

وقد كان ﷺ إذا قدم عليه الوفود أرسل إليهم من يعلمهم كيف يُسلِّمون؟ ويأمرهم بالسكينة والوقار بين يدي رسول الله ﷺ.

ومن ذلك -يا أخي- تعلم أنَّ القرآن الكريم عرض فيما عرض له لقواعد (البروتوكول) أو التشريفات، وأنَّ رسول الله ﷺ عمل بذلك فيما عمل، ولكن هناك أمرين أساسيين لا تنسهما أبداً.

أولهما: أن هذه المظاهر التكريمية لا يصحُّ أن تكون إلا لمن يستحقها من صالحي أئمة المسلمين ورؤسائهم.

و[ثانيهما]: أنه لا يصحُّ أن يكون فيها محظور شرعيٌّ، كالمبالغة في التعظيم إلى حدٍّ يشبه العبادة[٢]، وما عدا ذلك فجائزٌ أرشد إليه كتاب الله وسنة رسوله.

٢ـ هذا التعظيم والتكريم لرسول الله ﷺ كما يكون من حقِّه وهو في هذه الحياة الدنيا فهو من حقِّه ﷺ وهو في الرفيق الأعلى[٣]، ومن هنا استدل العلماء على وجوب خفض الصوت عند قبره الشريف، وعند قراءة حديثه ﷺ[٤].

٣ـ أن من تعظيم الزعامة وإجلالها أن ينتظر الإنسان حتى تتقدَّم بأمرها، وألا يدعوها

---

(١) انظر : البحر المحيط لأبي حيان (٨/١٠٦).

(٢) وفي هذا ورد حديث النبي ﷺ : "لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، فإنما أنا عبده، فقولوا: عبد الله ورسوله" رواه البخاري (٣٤٤٥) وأحمد (١ / ٤٠) عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

(٣) من الشائع لدى عوام المسلمين أن (الرفيق الأعلى) هو الله، وليس بصواب، وبخاصة عندما يقول الخطباء: ولحق النبي ﷺ بالرفيق الأعلى، والصواب أن الرفيق الأعلى هم الذين ذكرهم الله تبارك وتعالى في قوله: (ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا) النساء: ٦٩

(٤) انظر: البحر المحيط (٨/١٠٦).

بما يدعو به آحاد الناس، وألا يرفع صوته فوق صوت الكبير، وألا يجادل الناس أمامه ويماريهم، وإجمالاً يكون على حالة من الوقار في حركاته وحديثه ونقاشه، ومطالبه تتناسب مع مقام الكبير وحُرْمَته.

٤ـ أنَّ الخروج على هذه الآداب مُفسد للخُطط، مُضيِّع للجهود، يجعل الطريق مُلتوِيَةً أمام الزعيم، بَعيدةً على أتباعه ومريديه.

٥ـ أنَّ التخلُّق بهذه الآداب مُقرِّب للغاية، مُسْتَجْلِبٌ لرضوان الله تبارك وتعالى.

إذا عَرَفْتَ هذا فاعلم ـ يا أخي ـ أنَّ من الواجب أن نتخلَّق بهذه الأخلاق، وألا يكون القرآن ومدارسته مَسْلاةً نقرأ ونسمع ولا نعمل ولا نتأدب، فنكون بذلك ممن ينطبق عليهم الحديث الشريف: "رُبَّ قارئٍ للقرآن والقرآن يلعنه"(١).

[أثر هذه الآيات في الصحابة]

وإليك أثر هذه الآيات في نفوس المسلمين الأوَّلين رضوان الله عليهم:

١ـ أخرج عبد بن حميد والحاكم وصحَّحه من طريق أبي سلمة عن أبي هريرة: أن أبا بكر رضي الله عنه قال بعد نزول هذه الآية: والذي أنزل عليك الكتاب يا رسول الله لا أكلمك إلا كأخي السِّرَار حتى ألقى الله تعالى"(٢) يريد لا أكلمك إلا كما يكلم الإنسان شخصاً يساره ويهمس في أذنه بما لا يحب أن يسمعه غيره.

٢ـ وفي صحيح البخاري وغيره عن ابن الزبير: أن عمر رضي الله عنه كان إذا تكلَّم عند النبيِّ ﷺ لم يسمع كلامه حتى يستفهمه"(٣)

٣ـ وروى البخاري ومسلم وغيرهما من طرق عدة: أنه لما نزلت هذه الآية الكريمة

---

(١) لم أجده مرفوعا، وقد ذكره الغزالي في "الإحياء" موقوفًا على أنس رضي الله عنه.

(٢) رواه الحاكم في (٢ / ٥٠١) برقم (٣٧٢٠) وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه. والبزار (٥٦) والبيهقي في "شعب الإيمان" (١٥٢٠) و (١٥٢١) عن أبي هريرة رضي الله عنه. وقال الهيثمي: فيه حصين بن عمر وهو متروك وقد وثَّقه العجلي. انظر: المجمع (٧ / ١٠٨). وضعَّف إسناده محقق "الشعب" (٤ / ١٥٨).

(٣) رواه أحمد (٤ / ٥٦٨، ٥٧٢) والبخاري (٤٨٤٥) والترمذي (٣٢٦٦) والنسائي في "المجتبى" (٥٣٨٦) والبزار (٢١٨٨) عن عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما.

دخل ثابت بن قيس بن الشمَّاس بيته وأغلقه عليه، وطفق يبكى، فافتقده النبى ﷺ فقال: ما شان ثابت؟ قالوا: يا رسول الله ما ندرى ما شأنه غير انه أغلق باب بيته فهو يبكى فيه، فارسل رسول الله ﷺ إليه فساله: ما شانك؟ فقال: يا رسول الله أنزل الله عليك هذه الآية، وأنا شديد الصوت (وكان رضى الله عنه فى أذنه صمَمٌ)، فأخاف ان أكون قد حَبِطَ عملى، فقال رسول الله ﷺ: "لست منهم بل تعيش بخير، وتموت بخير"، وفى رواية: "أما يرضيك أن تعيش حميداً، وتقتل شهيداً، وتدخل الجنة"؟ فقال: رضيت ببشرى الله ورسوله، لا ارفع صوتى أبداً عن رسول الله ﷺ، فانزل الله تبارك وتعالى: (إن الذين يغضُّون اصواتهم عند رسول الله)[1]، والآية تشمل ثابتًا والشيخين وغيرهما من الأصحاب الكرام رضى الله عنهم جميعا.

وقد تحققت بشرى المصطفى ﷺ لثابت، فمات شهيداً فى خير المواطن يوم اليمامة[2].

أسمعت يا أخى؟ وهل عرفت من كل هذا أن من واجب كتَّابنا وخطبائنا وشعرائنا ومؤلفينا: أن يتادَّبوا مع رسول الله ﷺ، اللهم ألهمنا حُسْن الادب.

*****

(١) رواه البخارى (٤٨٤٦) ومسلم (١١٩) عن انس بن مالك رضى الله عنه.

(٢) انظر: تفسير عبد الرزاق (٢/ ٢٣٠) وأسد الغابة (١/ ٢٧٣) والإصابة (١/ ١٩٥، ١٩٦).

[من سلوك الأعراب مع النبي][1]

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ④ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحجرات: ٤، ٥].

تحدَّثت إليك فى الآية السابقة عمَّا أدَّب الله به المسلمين فى مخاطبة نبيِّهم ﷺ والتحدُّث فى حضرته، وسنتدارس الآن هذه الآية الكريمة على الأساس السابق، فاسمع والله وليُّ توفيقى وتوفيقك.

[معانى الكلمات]

الحُجُرات: جمع حُجْرة، وهى الغرفة. وليس فى الآيات ألفاظ تحتاج إلى بيان.

[ارتباط الآية بما قبلها]

وارتباط هذه الآيات بالآيات السابقة واضح، فإنما كانت تلك بيانا لواجب الصغير فى خطاب الكبير فى الحديث والقول، وهذه بيان لما يجب أن يتأدَّب به الناس مع أئمتهم وعلمائهم فى الاستئذان عليهم وطلب لقائهم.

[سبب النزول]

وسبب نزول الآية: أنه لما قَدِمَتْ على رسول الله ﷺ وفود العرب، قدم عليه عُطارد بن حاجب بن سعد بن زرارة بن عدس التميمى فى أشراف بنى تميم، منهم الأقرع بن حابس، والزبرقان بن بدر التميمى أحد بنى سعد، وعمرو بن الأهتم، والحُتات بن يزيد، ونعيم بن يزيد، وقيس بن الحارث، وقيس بن عاصم أخو بنى سعد، فى وفد عظيم من بنى تميم. قال ابن إسحاق: ومعهم عُيينة بن حصن بن حذيفة بن بدر الفزارى، وقد كان الأقرع بن حابس وعُيينة شهدا مع رسول الله ﷺ فتح مكة وحُنَيْنًا والطائف، فلما قدم وفد بنى تميم كانا معهم، ولما دخلوا المسجد نادوا رسول الله ﷺ من وراء حجراته: أنْ اخرج إلينا يا محمد، فآذى ذلك رسول الله ﷺ من صياحهم، فخرج إليهم، فقالوا: يا

[1] نشرت فى مجلة (جريدة الإخوان المسلمين) الأسبوعية فى العدد (٩) من السنة الثالثة الصادر فى ١٠ من ربيع الأول سنة ١٣٥٤هـ - ١١ من يونيو سنة ١٩٣٥م.

محمد جئناك نفاخرك فأذَن لشاعرنا وخطيبنا. قال: "قد أذنت لخطيبكم فليقل" فقام عطارد بن حاجب فقال: الحمد لله الذى له علينا الفضل والمنّ وهو أهله، الذى جعلنا ملوكًا، ووهب لنا أموالاً عظامًا، نفعل فيها المعروف، وجعلنا أعِزّة أهل المشرق، وأكثره عددًا، وأيسره عُدَّة. فمن مثلنا فى الناس؟ ألسنا برؤوس الناس وأولى فضلهم؟ فمن فاخرنا فليَعْدُد مثلَ ما عددنا، وإنا لو نشاء لأكثرنا الكلام، ولكن نخشى من الإكثار فيما أعطانا، وإنا نُعرف بذلك، أقول هذا لأن تأتوا بمثل قولنا، وأمْرٍ أفضلَ من أمرنا، ثم جلس.

فقال رسول الله ﷺ لثابت بن قيس بن شمّاس - أخى بنى الحارث بن الخزرج -: "قُمْ فأجِبْ الرجل فى خطبته". فقام ثابت، فقال:

"الحمد لله الذى السماوات والأرض خلْقه، قضى فيهن أمْرَه، ووسع كرسيُّهُ علْمُه، ولم يَكُ شىء قط إلا من فضله، ثم كان من قدرته أن جعلنا ملوكًا، واصطفى من خيرته رسولاً أكرمه نسبًا، وأصدقه حديثًا، وأفضله حَسَبًا، فأنزل عليه كتابه، وائتمنه على خلقه، فكان خيرة الله من العالمين، ثم دعا الناس إلى الإيمان به، فآمن برسول الله المهاجرون من قومه وذوى رحمه، أكرم الناس أحسابًا، وأحسن الناس وجوهًا، وخير الناس فعَالاً، ثم كان أول الخلق إجابة - واستجاب لله حين دعاه رسول الله ﷺ - نحن، فنحن أنصار الله، ووزراء رسوله، نقاتل الناس حتى يؤمنوا، فمن آمن بالله ورسوله منع ماله ودمه، ومن كفر جاهدناه فى الله أبدًا، وكان قتله علينا يسيرًا، أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم وللمؤمنين والمؤمنات، والسلام عليكم.

فقام الزبرقان بن بدر يقول:

نحنُ الكرام فلا حىٌّ يُعادلُنا ... منا الملوك وفينا تُنْصبُ البِيعُ[1]

وكم قَسَرْنا من الأحياء كُلّهمُ ... عند النِّهابِ وفضلُ العزّ يُتّبَعُ

ونحن نُطعم عند القَحْط مُطْعَمَنَا ... من الشِّواءِ إذا لم يُؤْنَسِ القَزَعُ[2]

(١) البيع: مواضع الصلوات والعبادات، واحدتها: بيعة.

(٢) القزع: سحب رقيق يكون فى الخريف، واحدته: قزعة، بفتح القاف والزاى فيهما.

بما ترى الناسَ تأتينا سراتُهم … من كلِّ أرضٍ هُويًا ثم نَصطنعُ(١)

فننحرُ الكُومَ عُبطًا في أرومتنا … للنازلين إذا ما أُنزلوا شَبِعُوا (٢)

فلا ترانا إلى حَيٍّ نُفَاخرُهمْ … إلا استفادوا فكانوا الرأسَ يُقتطعُ

فمن يفاخرنا في ذلك نعرفه … فيرجعُ القومُ والأخبارُ تُستمَعُ

إنَّا أَبَيْنا ولا يأبى لنا أحدٌ … إنَّا كذلك عند الفخر نرتفع(٣)

قال ابن إسحاق: وكان حسان بن ثابت غائبًا، فبعث إليه رسول الله ﷺ قال: فلما انتهيت إلى رسول الله ﷺ، وقام شاعر القوم، فقال ما قال، أعرضت في قوله، وقلت على نحو ما قال، فلما فرغ الزبرقان قال رسول الله ﷺ لحسان بن ثابت: "قُمْ يا حَسَّان فاجب الرجل فيما قال" [فقام] حسان فقال:

إن الذَّوائب من فِهْرٍ وإخوتَهم … قد بيَّنوا سُنَّةً للناس تُتَّبَعُ(٤)

يرضى بهم كلُّ من كانت سريرتُه … تقوى الإله وكلُّ الخيرِ يَصْطنِعُ

قوم إذا حاربوا ضَرُّوا عدوَّهمُ … أو حاولوا النَّفع في أشياعهم نَفَعُوا

سجيَّةٌ تلك منهم غير مُحْدَثَةٍ … إنَّ الخلائق - فاعلم - شرُّها البِدَعُ(٥)

إن كان في الناس سباقون بعدهم … فكلُّ سبْقٍ لأدنى سبقهم تَبَعُ

لا يَرْقَعُ الناسُ ما أَوْهت أكُفُّهُمُ … عند الدفاع ولا يُوهُون ما رَقَعُوا(٦)

إن سابقوا الناس يومًا فاز سبْقُهُمُ … أو وازنُوا أهلَ مجْدٍ بالنَّدى مَتَعُوا(٧)

---

(١) هويا: سراعا.

(٢) الكوم: جمع كوماء، وهي الناقة العظيمة السنام، وعبطا: أي من غير علة، تقول: مات فلان عبطة، واعتبط فلان - بالبناء للمجهول - إذا مات شابًا أو من غير علة، والأرومة: الأصل.

(٣) انظر: سيرة ابن هشام (٤ / ٢٢٤، ٢٢٦) بتحقيق محيي الدين عبد الحميد.

(٤) الذوائب: الأعالي، وأحدتها: ذؤابة، وأراد ههنا السادة.

(٥) السجية: الطبيعة والخليقة.

(٦) أوهت: أضعفت وهدمت.

(٧) متعوا: زادوا وظهروا عليهم، تقول: متع النهار، إذا ارتفع.

أعِـفَّـةٌ ذُكِـرَتْ فى الوحْيِ عِـفَّـتُـهُمْ ... لا يُطْبَـعُـون ولا يُرْدِيهُمُ طَمَعُ (١)

لا يبـخلون على جـارٍ بفـضلهم ... ولا يَمَسُّهُمُ منْ مطمَعٍ طبَعُ (٢)

إذا نَصَبْنا لحَيٍّ لم نَدبَّ لهم ... كما يَدبُّ إلى الوحشية الذُّرَعُ (٣)

نَسْمُو إذا الحرب نالتنا مخالبها ... إذا الزَّعانفُ من أظفارها خَشَعُوا (٤)

لا يفخرون إذا نالوا عدوهم ... وإن أصيبوا فلا خُورٌ ولا هُلُعُ (٥)

كـأنهم فى الوَغَى والموت مُكْتَنِعٌ ... أُسْدٌ بِحَلْيَةَ فى أرْساغها فَدَعُ (٦)

خذ منهم ما أتى عَفْواً إذا غَضِبُوا ... ولا يكن هَمُّكَ الأمرَ الذى مَنَعُوا (٧)

فإنَّ فى حربهم - فاترك عداوتهم - ... شَراً يُخَاضُ عليه السُّمُّ والسُّلَعُ (٨)

أكْرِم بقوم رسول الله شِيعَتُهُم ... إذا تفاوتت الأهواء والشِّيَعُ

أهْدَى لهم مِدْحَتِى قَلْبٌ يُؤَازره ... فيما أحبُّ لسانٌ حَائكٌ صَنَعُ (٩)

فإنهم أفضل الأحياء كلِّهم ... إنْ جَدَّ بالنَّاس جدُّ القولِ أو شَمَعُوا (١٠)

وقال ابن هشام : وأخبرنى بعض أهل العلم بالشعر من بنى تميم أن الزبرقان لما قدم على رسول الله ﷺ فى وفد بنى تميم قام فقال :

---

(١) لا يطبعون : أى لا يتدنسون .

(٢) الطبع - بفتح الطاء المهملة والباء جميعا - الدنس .

(٣) نصبنا : اظهرنا لهم العداوة ولم نسرها فى انفسنا، والذرع : ولد البقرة الوحشية .

(٤) الزعانف : أطراف الناس وأتباعهم، وخشعوا : خضعوا وتذللوا .

(٥) الخور : جمع : اخور، وهو الضعيف، والهلع : جمع هلوع، وهو الجبان الخائف .

(٦) الموت مكتنع : دان قريب . وحلية : اسم موضع تنسب إليه الأسود . والأرساغ : جمع رسغ، وهو موضع مربط القيد . وفدع : اعوجاج إلى ناحية .

(٧) عفوا : أى من غير طلب ولا مشقة .

(٨) السلع : نبات مسموم .

(٩) صنع : صانع ماهر يتقن ما يصنعه ويحسن عمله .

(١٠) شمعوا : هزلوا . انظر : زاد المعاد (٣ / ٥١٠-٥١٤) وسيرة ابن هشام بتحقيق محيى الدين (٤ / ٢٢٣-٢٢٩)، وإمتاع الاسماع للمقريزى (١ / ٣١٩-٣٢١) والأبيات فى ديوان حسان بن ثابت ص٢٣٨ ، ٢٤٩، ٢٥٠

اتيناك كيما يعلم الناس فضلنا ... إذا احتفلوا عند احتضار المواسم
بأنا فروع الناس في كل موطن ... وأن ليس في أرض الحجاز كدارم
وأنا نذود المعلمين إذا انتخوا ... ونضرب رأس الأصيد المتفاقم
وأن لنا المرباع في كل غارة ... نغير بنجد أو بأرض الأعاجم

قال: فقام حسان فأجابه فقال:

هل المجد إلا السؤدد العود والندى ... وجاه الملوك واحتمال العظائم
نصرنا وآوينا النبي محمدا ... على أنف راض من معد وراغم
بحي حريد أصله وثراؤه ... بجابية الجولان وسط الأعاجم
نصرناه لما حل بين بيوتنا[1] ... بأسيافنا من كل باغ وظالم
جعلنا بَنينَا دونه وبناتنا ... وطبنا له نفسا بفيء المغانم
ونحن ضربنا الناس حتى تتابعوا ... على دينه بالمرهفات الصوارم
ونحن ولدنا من قريش عظيمها ... ولدنا نبي الخير من آل هاشم
بني دارم لا تفخروا إن فخركم ... يعود وبالا عند ذكر المكارم
هَبِلتُم علينا تفخرون وانتم ... لنا خول من بين ظئر وخادم
فإن كنتم جئتم لحقن دمائكم ... وأموالكم أن تقسموا في المقاسم
فلا تجعلوا لله ندا وأسلموا ... ولا تلبسوا زيا كزي الأعاجم[2]

قال ابن إسحاق: فلمَّا فَرَغَ حسَّان بن ثابت من قوله، قال الأقرع بن حابس: وأبي إن هذا لمؤتَّى له، لخطيبه أخطب من خطيبنا، ولشاعره أشعر من شاعرنا، ولأصواتهم أعلى من أصواتنا. قال: فلما فرغ القوم أسلموا، وجَوَّزهم رسول الله ﷺ فأحسن جوائزهم[3].

(١) انظر: ديوان حسان بن ثابت ص ٣٨٤.

(٢) في سيرة ابن هشام: وسط ديارنا.

(٣) جوزهم اي أعطاهم، والجوائز: العطايا. انظر: مختار الصحاح ص ١١٧

وكان عمرو بن الأهتم قد خلفه القوم في رحالهم، وكان أصغرهم سنا، فقال قيس بن عاصم ـ وكان يبغض عمرو بن الأهتم ـ: يا رسول الله كان رجل منا في رحالنا، وهو غلام حَدَثٌ وأَزْرَى به، فاعطاه رسول الله ﷺ مثل ما أعطى القوم. قال عمرو بن الأهتم ـ حين بلغه أن قيسا قال ذلك ـ يهجوه:

ظَلِلْتَ مُفْتَرِشَ الهَلْباءَ[1] تَشْتِمُني ... عند الرسول فلم تَصْدُقْ ولم تُصبِ

سُدْناكُمُ سُؤْدَدًا رَهْوًا وسُؤْدَدُكُمْ ... بَادٍ نواجذُهُ مُقْعٍ على الذَّنَبِ[2]

قال ابن إسحاق: ونزل فيهم من القرآن قوله تعالى: ﴿إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون. ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيرا لهم والله غفور رحيم﴾[3].

قال ابن جرير: حدثنا أبو عمار الحسين بن حريث المروزي، حدثنا الفضل بن موسى عن الحسين بن واقد، عن أبي إسحاق عن البراء في قوله: ﴿إن الذين ينادونك من وراء الحجرات﴾ قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا محمد إنَّ حمدي زين، وذمي شين. فقال: "ذاك الله عز وجل"[4] وهذا إسناد جيد متصل[5]. وقد روى عن الحسن البصري وقتادة مرسلا عنهما[6].

وقد وقع تسمية هذا الرجل، فقال الإمام أحمد: حدثنا عفان، ثنا وهيب، ثنا موسى ابن عقبة، عن أبي سَلَمَة، عن عبد الرحمن، عن الأقرع بن حابس أنه نادى رسول الله

---

(١) الهلباء: شعر الذنب أي (الذيل) وقد استعاره هنا للإنسان.

(٢) رهوا: متسعا. والنواجذ: الأسنان. ومقع على الذنب: هو من قولهم: أقعى الكلب، إذا جلس على إليتيه وضم ساقيه وأمر ذنبه خلفه.

(٣) انظر: سيرة ابن هشام (٤ / ٢٣٠-٢٣٣). وقد شرحنا معاني المفردات التي في الأبيات من تحقيق الشيخ محيي الدين عبد الحميد لسيرة ابن هشام.

(٤) رواه الترمذي (٣٢٦٧) وقال: حسن غريب، ورواه النسائي في "الكبرى" (١١٥١٥) عن البراء بن عازب رضي الله عنه. وصححه الألباني في "صحيح الترمذي" برقم (٢٦٠٥).

(٥) المصادر السابقة.

(٦) انظر: تفسير الطبري (١١ / ٣٨٢) والحسن (٢ / ٢٩٤).

ﷺ فقال: يا محمد يا محمد، وفي رواية: يا رسول الله فلم يجبه. فقال: يا رسول الله إنَّ حمدى لَزَيْنٌ، وإنَّ ذَمِّى لَشَيْنٌ. فقال: "ذاك الله عز وجل"(١).

[معنى الآية]

ومعنى الآية على هذا واضح، فإنما هى تعليم للامة ان تتخلَّق بالصبر والأناة والرفق والحلم، والا تَشُقَّ على الرؤساء فى الحديث، فإنَّ الرئيس كثير المشاغل عظيم المهام لا يتسع وقته لها جميعًا، ولا يمكن ان يكون وقته مُوَزَّعًا وَفْق أهواء الناس ومطالبهم، فعليهم: أن يدعوا له وقته ليصرفه فيما يراه خيراً لجماعته، ولا يتألموا من ذلك ولا يظنوا به الظنون، فإنما تلك ضرورة من ضرورات تنظيم الاعمال؛ لا بد من النزول على حكمها؛ حتى لا تفوت المصالح باضطراب الأوقات وخلل نظامها.

[ما يستفاد من الآية]

والذى نستفيده من هذه الآية الكريمة - بعد ما تقدَّم من بيان معناها -: هذا الأسلوب الرائع الجميل المثمر فى التربية والتاديب، يعلم المُؤَدِّب ذنب المُذْنِب فيصارحه به فى حزم وعزم، ويعرِّفه إياه حتى يكون على بيِّنة منه، ويبين - له بعد ذلك -: آثار هذا الذنب ونتائجه، حتى يعلم خطرها ويستشعر ضررها، ثم يرشده بعد ذلك إلى ما كان يجب أن يفعل حتى يسير على هذا المنهج فيما بعد، ثم يظهر له الرفق والرحمة واللين والعطف حتى يتقبل بذلك النصيحة، وحتى تبرز إليه فى ثوب الإرشاد لا فى ثوب الانتقام، إلا أن يكون مدمنًا على الإجرام فذلك له طريق آخر.

فقوله تعالى: (ينادونك من وراء الحجرات) بيان لذنبهم، وقوله: (أكثرهم لا يعقلون) توبيخ وبيان لنتائج هذا العمل، وقوله: (ولو أنهم صبروا) تعليم لما يجب ان يكون، وقوله: (والله غفور رحيم) لطف بهم ورحمة.

ألا فليأخذ المربون كيف يقوِّمون الأخلاق، ويصلحون النفوس، ونعم المُعَلِّم كتاب الله.

---

(١) رواه أحمد (٤/٥٤١) و(٧/٥٤٠) والطبرانى فى "الكبير" (١/٣٠٠) ورواه ابن أبى عاصم فى "الآحاد والمثانى" (١١٧٨) عن الأقرع بن حابس رضى الله عنه. وقال محققو المسند: إسناده ضعيف لانقطاعه انظر المسند (٢٥/٣٦٩) حديث رقم (١٥٩٩١).

[أثر هذه الآية في نفوس السلف الصالح]

واعلم ـ يا أخي ـ أن السَّلف رضوان الله عليهم على عادتهم أخذوا بهذا الأدب، وعملوا به على سنتهم في اتباع أمر الله ورسوله.

١ـ نقل عن أبي عُبيد القاسم بن سلام(١) قال: ما دققت بابًا على عالم حتى يخرج في وقت خروجه.

٢ـ ورُوِىَ عن ابن عباس رضي الله عنه: أنه كان يذهب إلى أُبَيٍّ [بن كعب رضي الله عنه] في بيته يأخذ عنه القرآن، فيقف عند الباب، ولا يَدُقُّ الباب عليه حتى يخرج، فاستعظم ذلك أُبَيٌّ منه، فقال له يومًا: هلاَّ دققت الباب يا ابن عباس؟! قال: العالم في قومه كالنبيِّ في أمته، وقد قال الله تبارك وتعالى في حق نبيه عليه الصلاة والسلام: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحجرات: ٥].

يا أخي: أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده.

*****

(١) جعل الإمام البنا من أبي عبيد القاسم بن سلام شخصين، فقال: "وعن أبي عبيد وعن القاسم بن سلام قال كل منهما" وهو خطأ، فهما شخص واحد، وهو أبو عبيد القاسم بن سلام.. الإمام المجتهد، والمحدث الفقيه، واللغوي البارع المولود سنة ١٥١هـ، والمتوفى سنة ٢٢٤هـ. وهذا الخبر نقله ابن عساكر في ترجمته في "تاريخ دمشق (١٤/ ٣٢٧)، والداودي في طبقات المفسرين (٢/ ٣٦). نقلا عن كتاب "أبو عبيد القاسم بن سلام" للأستاذ سائد بكداش ص ٥٦. (مجد مكي).

[مخاطر الشائعات في المجتمع][1]

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ⑥ وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ⑦ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [الحجرات: ٦-٨].

[معاني المفردات]

الفسق: الخروج عن طاعة الله تبارك وتعالى.

والعنت: دخول المشقة على الإنسان وهو الفساد والهلاك، وما في هذا المعنى.

[سبب النزول]

وأكثر المفسرين على أن هذه الآية نزلت في الوليد بن عقبة بن أبي معيط؛ حين بعثه رسول الله ﷺ على صدقات بني المُصْطلق، وعلى رأسهم الحارث بن ضرار والد أم المؤمنين السيدة ميمونة بنت الحارث، وحجتهم في ذلك: ما رواه الإمام أحمد بسنده عن الحارث بن ضرار الخزاعي قال: قدمت على رسول الله ﷺ فدعاني إلى الإسلام فدخلت فيه، وأقررت به، ودعاني إلى الزكاة فأقررت بها، وقلت: يا رسول الله أرجع [إلى قومي][2] اليوم، فأدعوهم إلى الإسلام وأداء الزكاة، فمن استجاب لي جمعتُ زكاته، وتُرْسل إليَّ يا رسول الله رسولا إبَّان كذا وكذا (أي وقت كذا) ليأتيك بما جمعت من الزكاة.

فلما جمع الحارث الزكاة ممن استجاب له، وبلغ الإبَّان الذي أراد رسول الله ﷺ أن يبعث إليه، احتبس عليه الرسول، ولم يأته، وظنَّ الحارث أنه قد حدث فيه سخْطَةٌ من

---

(١) نشرت في مجلة (جريدة الإخوان المسلمين) في العدد (١٠) من السنة الثالثة الصادر في يوم الثلاثاء الموافق ١٧ من ربيع الأول سنة ١٣٥٤هـ-١٨ من يونيو سنة ١٩٣٥م.

(٢) ما بين معقوفتين صوبته من مسند الإمام أحمد، وليس موجودا في مقال الإمام البنا.

الله تعالى ورسوله، فدعا بسَرَوَات قومه[1]، فقال لهم: إن رسول الله ﷺ كان وَقَّتَ لى وقتًا يرسل إلى رسوله ليقبض ما كان عندى من الزكاة، وليس من رسول الله الخُلْفُ، ولا أرى حَبْس رسوله إلا من سخْطَةٍ، فانْطَلِقوا بنا نأتى رسول الله ﷺ، وبعث رسول الله ﷺ الوليد بن عقبة إلى الحارث ليقبض ما كان عنده مما جمع من الزكاة، فلما أن سار الوليد حتى بلغ بعض الطريق فَرِقَ - أى خاف - فرجع حتى أتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله إن الحارث قد منعنى الزكاة، وأراد قتلى، فغضب رسول الله ﷺ وبعث البَعْثَ إلى الحارث رضى الله عنه.

وأقبل الحارث بأصحابه حتى إذا استقبل البعث (أى الجيش الذى بعثه رسول الله ﷺ ليحاربه على منعه الزكاة) وفصل من المدينة، قالوا: هذا الحارث، فلما غَشِيَهُم قال: إلى من بُعِثْتُم؟ قالوا: إليك. قال: ولم؟! قالوا: إن رسول الله ﷺ بعث إليك الوليد بن عقبة فزعم أنك منعته الزكاة، وأردت قتله، فقال رضى الله عنه: لا؛ والذى بعث محمداً بالحق ما رأيته بَتَّةً ولا أتانى، فلما دخل الحارث على رسول الله ﷺ قال: مَنَعْتَ الزكاة، وأردت قتل رسولى؟ قال: لا؛ والذى بعثك بالحق ما رأيته ولا أتانى، وما أقبلت إلا حين احْتَبَس علىَّ رسولُ رسولِ الله ﷺ خشيت أن تكون كانت سخْطَةً من الله تعالى ورسوله، قال: فنزلت الحجرات: (يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا)[2].

وروى هذا الأثر على هذا الوجه من طرق كثيرة، ورواه ابن جرير الطبرى بنحوه، وزاد فيه: أن الوليد وصل إليهم فَسُرُّوا به وهَشُّوا له، واجتمعوا حوله، ولكن خَيَّلَ إليه الشيطان أنهم يتآمرون بقتله، فانقلب راجعا وقال ما قال[3].

هذا ما ذكره أكثر المفسرين فى سبب نزول الآية على هذا الوجه، وعليه: تكون الآية

---

(١) سروات قومه: أى زعماء وسادة قومه.

(٢) رواه أحمد (٥ / ٣٥١) عن الحارث بن ضرار رضى الله عنه، وقال الهيثمى: رجال أحمد ثقات. انظر: مجمع الزوائد (٧ / ١١١) وقال محققو المسند: حسن بشواهده، انظر: مسند أحمد (٣٠ / ٤٠٥) ط. الرسالة.

(٣) انظر: تفسير الطبرى (١١ / ٣٨٤، ٣٨٥) والدر المنثور (٦ / ٩٢).

إرشاداً للرسول ﷺ وللمؤمنين معه أن يتبينوا فى مثل هذه الأنباء حتى يتأكدوا من صحتها.

وهناك رواية أخرى فى سبب النزول هى ما أخرجه عبيد بن حميد عن الحسن قال: أتى النبىَّ ﷺ (هكذا بدون ذكر الآتى) فقال: يا نبىَّ الله: إن بنى فلان - حيًّا من أحياء العرب، وكان فى نفسه عليهم شىء، وكان حديث عهد بالإسلام - قد تركوا الصلاة، وارتدوا وكفروا بالله تعالى، فلم يَعْجَل رسول الله ﷺ، ودعا خالد بن الوليد فبعثه إليهم، ثم قال: ارمُقْهُم عند الصلوات فإن كان القوم قد تركوا الصلاة فشأنك بهم، وإلا فلا تَعْجَلْ عليهم، فدنا منهم بعد غروب الشمس فَكَمَنَ حتى يسمع الصلاة، فرمقهم فإذا هو بالمؤذن قد قام عند غروب الشمس فأذّن، ثم أقام الصلاة فصلوا صلاة المغرب، فقال خالد: ما أراهم إلا يصلون، فلعلهم تركوا صلاة غير هذه! ثم كمن حتى إذا جنح الليل وغاب الشَّفَقُ: أذَّن مؤذنهم فصلوا، فقال: لعلهم تركوا صلاة أخرى، فكمن حتى إذا كان فى جوف الليل: تقدم حتى أطلع الخيل بدورهم فإذا القوم تعلموا شيئا من القرآن فهم يتهجدون به من الليل ويقرؤونه، ثم أتاهم عند الصبح فإذا المؤذن حين طلع الفجر قد أذن وأقام فقاموا وصلوا، فلما انصرفوا وأضاء لهم النهار إذا هم بنَواصى الخيل فى ديارهم، فقالوا: ما هذا؟ قالوا: خالد بن الوليد، قالوا: يا خالد ما شأنك؟ قال: أنتم والله شأنى، أتى النبىَّ ﷺ فقيل له: إنكم تركتم الصلاة، وكفرتم بالله تعالى، فَجَثَوْا(١) يبكون، فقالوا: نعوذ بالله تعالى أن نكفر أبدا، فصرف الخيل وردَّها عنهم، حتى أتى النبى ﷺ وأنزل الله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق) الآية(٢).

وعلى هذا: تكون الآية تقريراً من الله تبارك وتعالى لفعل النبى ﷺ، وإرشاداً للمؤمنين أن يقتدوا به ﷺ فى هذا الخلق الفاضل؛ خُلُق التثبُّت والتبيُّن قبل البَتِّ والقطع. وهذا السياق - فضلاً عما فيه من هذه اللطيفة - هو المتَّسق مع نظم القرآن الكريم فى الآيات التالية المتممة للموضوع، وإن كانت الرواية الأولى أشهر وأعرف عند جمهور المفسرين.

---

(١) جثوا: أى جلسوا. انظر: مختار الصحاح ص ٩٣

(٢) انظر تفسير الحسن (٢/ ٢٩٥، ٢٩٦) والدر المنثور (٦/ ٩٣).

[ترجيح بين الروايات]

وعندى: أنه ليس ما يمنع من أن تكون الثانية متممة للأولى، بأن يكون الرسول ﷺ قد أرسل الوليد بن عقبة وفقا للرواية الأولى، فلما خاف وعاد وكان منه ومن القوم ما كان، ووشى بهم إلى الرسول ﷺ، فأرسل إليهم الرسول ﷺ خالدا وأوصاه بالتبين وفقا للرواية الثانية، وبذلك يجمع بين الروايتين، ولا سيما ورئيس البعث فى كليهما خالد، والسبب فيهما واحد، والواشى مجهول فى الثانية مذكور فى الأولى، ومهما يكن فقد عرفت أن السبب: أن واشيًا وَشَى بقوم إلى رسول الله ﷺ، فأرشد الله عباده إلى ما يجب أن يكون فى مثل هذه القضية.

[شرح الآية]

ومعنى الآية الكريمة على هذا: يا أيها الذين آمنتم وصدقتم بكتاب الإسلام ورسول الإسلام: ليكن شأنكم إذا نُقلت إليكم الأخبار والأنباء: أن تتأكدوا من صحتها، وتتبينوا حقيقة شأنها، ولا تأخذوها على علاَّتها، فقد يؤدى ذلك إلى عمل غير محكم يؤدى إلى الندم.

فعليهم أن يُقَلِّبوا الأمور على وجهها، ويزنوها بميزان العقل والحكمة والتبصر، ثم بين لهم تبارك وتعالى ـ بعد ذلك ـ أن بين ظهرانيهم ميزانًا آخر عليهم أن يزنوا به هذه الأمور فيرجعوا إلى أمره وينزلوا عند حكمه، ذلكم هو: الوحى، والرسول ﷺ، فإذا كانت القاعدة العامة فى إدراك حقائق الأشياء نلمسها بنور العقل، فليعلم المؤمنون أن بين ظهرانيهم طريقًا آخر لإدراك هذه الحقائق هو الرسول ﷺ، الذى ينزل عليه أمر الله ووحيه، فعليهم أن يطيعوه، وأن يرجعوا إلى رأيه فى مثل هذه الشؤون، ولو أنه ﷺ أطاعهم، ونزل على رأيهم، وهم لم يتبيَّنوا فى كثير من الشؤون حقيقتها لأصابهم من ذلك جهد ومشقة، ولكن الله تبارك وتعالى حَبَّب الإيمان والتصديق والتفويض والتسليم لرسول الله ﷺ إلى نفوس المؤمنين، وزيَّنه فى قلوبهم، وبَغَّض إليهم الخروج على رسوله ﷺ ودينه القويم، سواء كان ذلك الخروج كفرًا وهو أشد المعاداة، أو فسقًا وهو المخالفة فى الكبائر، أو عصيانًا وهو مطلق المخالفة، فقد تدرَّج من الكبير إلى الصغير،

فكان المخالفة بكل أنواعها بَغَّضَهَا الله إلى المؤمنين، وهم بذلك فى رشاد وهدى فضلاً من الله تفضَّل به عليهم، ومِنَّةً قدمها إليهم، وهو عليمٌ بجميع شؤونهم، حكيمٌ فى منحهم فضله ومِنَّتَهُ، وإذا كان هذا هو شأن المؤمنين فعليكم يا أصحاب محمد ﷺ ويا من جاء بعدهم: أن تكونوا على هذا الوصف حتى تكونوا من الراشدين الفائزين بفضل الله ومِنَّته.

[أحكام مستفادة من الآية]

ونستطيع أن نستفيد من [هذه] الآية الكريمة هذه الأحكام جميعًا وفوق كل ذى علم عليم:

١ـ أن النميمة والوشاية وتَقَوُّل الوقائع الكاذبة على الناس بغير حقيقة: نوعٌ من أنواع الفسق يَدْمَغُ صاحبه بوصف من أوصاف العار، ويجعله بعد أن كان طائعًا فاسقًا، فهو عمل من أكبر الكبائر، ومن علامات الكبائر فى الدين: أن يرِدَ فيها وعيد، أو وصف كهذا الوصف المقيت البغيض.

٢ـ أن من واجب المؤمنين أمام هذه الأخبار: أن يتثبَّتوا من صحتها، وألا يعملوا بها حتى تثبت لديهم، فإنَّ الواشين هم آفة الصِّلات، وهم الذين يشُقُّون العصا.

وما تهدمت الروابط، ولا انقطعت الأواصر، ولا تحركت فتنة نائمة، إلا وكان سبب ذلك فِرْيَة منقولة، أو وشاية مُتَقَوَّلة.

ولقد وشى بعضهم برجل إلى أمير المؤمنين على كرم الله وجهه، فقال للواشى: يا هذا: إن شئت جمعنا بينك وبين الرجل، فنظرنا صدق ما جئت به، وإن شئت أقَلْنَاكَ، ولا تَعُدْ، فقال: أَقِلْنِى أقَالك الله يا أمير المؤمنين، فتركه، فقام يجُرُّ أذياله خَجَلاً.

ووشى بعضهم بصاحب له إلى أحد الخلفاء، فلما جمع بينهما تمثَّل الموشَى به بقول القائل:

وأنت امرؤ أما ائتمنتك صادقًا فخُنْتَ وأما قلت قولاً بلا علم

فأنت من الأمر الذى كان بيننا بمنزلة بين الخيانة والإثم

ثم قال: يا أمير المؤمنين أما إن كان صادقًا فقد خان الأمانة وأفشى السر، وإن كان كاذبًا فقد افترى، وقد سمى الله الناقل: فاسقًا، فما كان الحق ليصفه بالفسق، ويكون قوله عند أمير المؤمنين حجة، فوبَّخ الخليفة النَّمَّامَ ولم يأخذ بقوله، فمن أدب الإسلام: ألا يشجع المسلمون المُتَقَوِّلين، بل عليهم أن يتأكدوا قبل أن يُقْدِمُوا.

٣ـ أن من واجب المؤمنين: أن يرجعوا إلى قول الله ورسوله، وأن يجعلوا قواعد الإسلام فى كل شأنهم هى الأساس الذى تدور عليه تصرفاتهم، فإنها من وضع الحكيم العليم، الذى يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور، وهم إذا فعلوا ذلك: فقد رشدوا وصاروا فى عداد المؤمنين، الذين تفضَّل الله عليهم بنعمة الإيمان الكامل، وامْتَنَّ عليهم بحلاوتها، وزين قلوبهم بأنوارها. وهنا مسألتان:

[حكم التبيُّن والتثبُّت من الأخبار]

١ـ هل التبيُّن والتثبُّت واجب أمام خبر الفاسق الذى عرف بالفسق قبل النقل أم هو واجب مطلقًا، ولا يثبت وصف الفاسق للناقل إلا بعد ثبوت كذبه وافترائه؟

والذى يمكن أن نستفيده من الآية الكريمة: أن التثبت واجب أمام خبر الفاسق الذى عُرِفَ بالفسق قبل النقل وجوبًا مؤكدًا.

وواجب أمام الأخبار مطلقا وجوب احتياط، وأن الوصف لا يثبت مع النقل إلا بأحد أمرين: إما أن يقصد الإفساد بنقله هذا ولو كان صحيحا، وإما أن يثبت كذبه.

[هل وقوع الخطأ من الصحابى ينفى عدالته؟]

٢ـ وهل يستدل بهذه الآية الكريمة على أن من الصحابة رضوان الله عليهم من ليس بعَدْل؟

وفى هذه المسألة أقوال كثيرة لا نفيض فى ذكرها ولكننا نُجْمِل، ونقف مع الآية الكريمة فنقول: إن الصحابة رضوان الله عليهم ليسوا بمعصومين عن الوقوع فى الخطأ، وهذه الآية تدل على أن واحداً منهم ارتكب خطأً وأذنب، ولكنهم مع هذا أقرب الناس إلى التوبة، وأرجاهم قبولاً عند الله تبارك وتعالى، والتوبة النصوح تمحو ما قبلها. فلئن كان الناقل فاسقًا حين النقل، فهو عَدْلٌ بعد التوبة النصوح[1]، وأنت عليم أن ماعزاً

(١) انظر: البحر المحيط (٨/١٠٩، ١١٠).

رضى الله عنه قد ارتكب وزرًا عظيمًا وهو جريمة الزنى، ولكنه بعد ذلك تاب توبة لو قُسِّمت على أهل الأرض: لوسعتهم بشهادة رسول الله ﷺ(١).

وانْ حاطب بن أبى بَلْتَعة نقل إلى الكفار بعض أنباء الرسول ﷺ، ثم صرح رسول الله ﷺ بعد اعتذاره: بأن الله عفا عنه وغفر له(٢).

وهؤلاء الثلاثة المخلفون(٣) من خيار الأنصار تخلفوا فى ساعة العُسْرَة، ثم نزل القرآن بتوبة الله عليهم توبةً خلَّدها القرآن ما دامت السماوات والأرض، فليس فى الآية ما يدل على تَنَقُّصِ قدرهم رضوان الله عليهم، وهم مصابيح هذه الامة، ومفاتيح الخير لها رضى الله عنهم وغفر لنا ولهم.

وقد ورد أن رسول الله ﷺ حين نزلت الآية قال: " التَّبَيُّنُ من الله، والعَجَلَةُ من الشيطان "(٤) فتمسَّكْ بهذا الخلق الفاضل، وخذ فى كل أمر بالتثبت والأناة والرفق واللين يعصمك الله من الزلل، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

*****

(١) رواه مسلم (١٦٩٥) والنسائى فى "الكبرى" (٧١٦٣) والبيهقى فى "السنن" (١٢/ ٤٢١،٤٤٨) والطبرانى فى "الأوسط" (٤٨٤٣) عن بريدة بن الحصيب رضى الله عنه، وابن حبان (٤٤٠٠) عن أبى هريرة رضى الله عنه.

(٢) رواه أحمد (١/ ١٢٨،١٦٨،٢١٠،٢١١) والبخارى (٤٢٧٤) ومسلم (٢٤٩٤) والترمذى (٣٣٠٥) وأبو داود (٢٦٥٠) عن على رضى الله عنه.

(٣) رواه أحمد (٧/ ٥٣٣) والبخارى (٤٤١٨) ومسلم (٢٧٦٩) والترمذى (٣١٠٢) عن كعب بن مالك رضى الله عنه.

(٤) رواه العسكرى عن الحسن البصرى مرسلاً، وورد الحديث بألفاظ أخرى منها: "التأنى من الله والعجلة من الشيطان" رواه الترمذى (٢٠١٢) وقال: حديث غريب، والطبرانى فى "الكبير" (٦/ ١٢٢) عن سهل بن سعد الساعدى رضى الله عنه، وقال الترمذى: فيه عبد المهيمن بن عباس بن سهل تكلم فيه بعض أهل الحديث وضعفه من قبل حفظه. وانظر: كشف الخفاء (١/ ٢٩٥) حديث رقم (٩٤٣).

[من واجبات المؤمنين: الإصلاح بين الناس](1)

﴿ وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا(2) فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ [الحجرات: ٩].

[معانى كلمات الآية]

الطائفة: الجماعة والفئة من الناس.

والبغى: الظلم والعدوان.

والفىء: الرجوع والامتثال.

والقسط: العدل والإنصاف.

[سبب النزول]

وسبب نزول هذه الآية: خلافٌ وقع بين الأوس والخزرج رضوان الله عليهم جميعًا، أو هو بين جماعتين من الأنصار مطلقًا.

روى البخارى فى (كتاب الصلح) عن مسدَّد، وروى نحوه مسلم فى (كتاب المغازى) عن عبد الأعلى، وروى الإمام أحمد فى مسنده عن أنس قال: قيل للنبى ﷺ: لو أتيت عبد الله بن أبى، فانطلق إليه النبى ﷺ وركب حمارًا، وانطلق المسلمون يمشون وهى أرض سبخة، فلما انطلق النبى ﷺ إليه قال: "إليك عنى فوالله لقد آذانى ريح حمارك". فقال رجل من الأنصار: والله لحمار رسول الله ﷺ أطيب ريحًا منك. قال: فغضب لعبد الله رجال من قومه، فغضب لكل واحد منهما أصحابه، قال: فكان

---

(١) نشرت فى مجلة (جريدة الإخوان المسلمين) الأسبوعية فى العدد (١١) من السنة الثالثة الصادر فى يوم الثلاثاء الموافق ٢٤ من ربيع أول سنة ١٣٥٤هـ - ٢٥ من يونيه سنة ١٩٣٥م.

(٢) قد يقول قائل متسائلاً: لماذا قرئت الآية: (اقتتلوا) ولم تقرأ اقتتلتا، والقياس يتطلّب ذلك، فالطائفتان مثنى، يقول الإمام الزمخشرى فى ذلك: هو مما حمل على المعنى دون اللفظ؛ لأن الطائفتين فى معنى القوم والناس. انظر: الكشاف (٤ / ٣٦٤).

بينهم ضرب بالجَرِيد والأيدى والنعال، فبلغنا انه أنزلت فيهم: (وإن طائفتان من المؤمنين)(١).

وفى بعض روايات هذا الحديث: أنَّ رسول الله ﷺ ما كان زائرًا لعبد الله بن أبى، ولكنه كان يعود مريضًا فمرَّ به، فقال ما قال، فكان ما كان. وفى بعض الروايات أيضًا تصريحٌ باسم الرجل الذى انتصر لنبى الله ﷺ، وهو عبد الله بن رواحة رضى الله عنه(٢).

وذكر سعيد بن جبير: أنَّ الأوس والخزرج كان بينهما قتال بالسعف والنعال ولم يذكر سببه، فانزل الله تعالى هذه الآية، فامره ان يصلح بينهما.

وقال السدى: إنَّ رجلاً من الأنصار اسمه عمران كانت له امراة تدعى أم زيد، وأن المرأة أرادت أن تزور أهلها فحبسها زوجها، وجعلها فى مكان عال له لا يدخل عليها أحد من أهلها، وأنَّ المرأة بعثت إلى أهلها، فجاء قومها وأنزلوها لينطلقوا بها، وأن الرجل كان قد خرج فاستعان أهل الرجل فجاء بنو عمه ليحولوا بين المرأة وبين أهلها، فتدافعوا واجتلدوا بالنعال، فنزلت فيهم هذه الآية، فبعث إليهم رسول الله ﷺ، وأصلح بينهم وفاءوا إلى أمر الله(٣).

[موقف المؤمنين من الفئتين المختلفتين]

ذلك مجمل ما ذكر من أسباب نزول الآية الكريمة، وهاأنت ترى أن سببها: أن قومًا اختلفوا فبيَّن الله تبارك وتعالى موقف بقية المؤمنين من الفئتين المختلفتين بهذه الآية الكريمة، ويتلخص هذا الموقف فيما يأتى:

أولا: أنَّ المؤمن قد أعطاه الله حقًا عليه أنَّ يستخدمه ويقوم بواجبه. هذا الحق هو أن يكون داعية السلام، ونصير الحق فى أى موطن، وفى أى وقت، فمن واجب المسلم

---

(١) رواه أحمد (٣/ ٦٣١) والبخارى (٢٦٩١) ومسلم (١٧٩٩) عن انس بن مالك رضى الله عنه.

(٢) رواه أحمد (٦/ ٢٦٢) والبخارى (٤٥٦٦) و(٥٦٦٣) و(٦٢٠٧) و(٦٢٥٤) ومسلم (١٧٩٨) عن أسامة بن زيد رضى الله عنهما.

(٣) انظر: تفسير الطبرى (١١/ ٣٨٨) وابن عطية (١٣/ ٤٩٦).

الديني على هذا ان يكون دائمًا مصدر توفيق وهداية وامن وسلام، وان يعمل لذلك ما استطاع إليه سبيلا .

وأن من واجبه كذلك : إذا ابى الناس عليه الحق الاول أن يستخدم القوة حتى يعود الحق إلى نصابه، فالإسلام لا يرضى للمسلم بهذا الموقف السلبي أمام حق يُغتصب ولو من غيره، وباطل يطغى ولو على سواه، وسلام تعبث به المطامع، وإن كان ذلك بعيداً عنه، بل عليه أن يعمل للخير في ذاته، وإن كان خيراً للجماعة لا لشخصه.

وثانيًا : أنَّ من واجب المسلم في مثل هذا الموقف أنْ يتقدَّم بالنصيحة أولاً، وان يبيِّن الحقائق بالدليل والبرهان، وأن يزيل ما عساه أن يكون من شبهة بين الفريقين.

وثالثًا : ان الأساس الذي يجب أن يدعو إليه المصلح، ويرجع إليه المتخاصمان محدود معروف واضح هو حكم الله وأمره؛ من غير أن تحرفه الأهواء أو تعطله الغايات والأغراض، فذلك هو الدستور الذي لا يقدح فيه ولا يخرج على حكمه إلا كل معتد اثيم.

رابعًا : أنَّ من حق المسلم إذا أهملت الفئة القوية الباغية هذا الأساس ان ينضمَّ إلى الفئة الأخرى فيكون في صفها حتى تنتصف؛ ويرتد عنها عدوان المفسدين وحَيْفُ الظالمين، فإن أبت الفئتان جميعًا النزول على حكم الله فهما خارجتان فمن واجبه أن يردَّهما جميعًا إلى الحق، وأن يقف منهما موقف الخصومة حتى يخضد شوكتهما، ويفلَّ غربهما، وتضعف قوتهما، وترجعا إلى حكم الله، فإن الحق لا يرهب صولة أحد، ولا يدَّخر المؤمنون في سبيل نصرته نفسًا أو مالاً، وإنما يعيش المسلم في هذه الحياة بالحق للحق.

خامسًا : إذا رجعت الفئتان إلى حكم الله فمن واجب المُحَكَّمين ان يتحروا العدل والقسط والإنصاف، وألا يجوروا في حكم أو يظلموا في قضية أو يتأثروا بهوى، فإن الحق أحق أن يتبع، ولن يجتمع الحق والهوى في قرن، والله يحب المقسطين العادلين الذين لا يتأثرون في حكمهم ولا يهضمون العدل في قضاياهم.

واعلم يا أخي أن المخاطب بهذا الخطاب في الآية الكريمة هم المؤمنون جميعًا، فكل مسلم مكلَّف كفرد بإنفاذ مضمون هذه الآية تحقيقًا لمدلولات القرآن الكريم وأوامره

ونصوصه، ولكن كيفية هذا التنفيذ تختلف باختلاف البيئات والظروف وطبائع الأشياء، فإذا كان الخلاف بين أفراد الأسرة فولى أمرها وراعيها وجيرانها ومعارفها مخاطبون بهذه الآية الكريمة، وعليهم إنفاذها، فإن لم ينفذها أفراد الأسرة رفعوا أمرهم إلى من يستطيع إلزامهم الحق، وساعدوا ما استطاعوا على أن يعود الحق إلى نصابه بكل الوسائل الممكنة لهم.

وإذا كان الخلاف بين أفراد القرية أو البلد كان ذلك واجب الرؤساء والوجهاء وذوى الرأى والمكانة فيهم، وإذا كان بين أفراد الأمة وهيئاتها كان ذلك واجب الإمام، وهو الحاكم العام للمسلمين سواء كان خليفة أو ملكًا أو أميرًا، وعليه أن يستخدم فى ذلك الجيش الإسلامى، ويكون من يجاهد البغاة فى تلك المواقف بسبب بغيهم مجاهدًا فى سبيل الله.

وهكذا ترى دائرة التنفيذ تتسع وتضيق بحسب حدود الخلاف وأقطاره.

وأظنك عرفت من هذا أن القرآن الكريم وهو دستور العالم الشامل الكامل قد وضع بهذه الآية الكريمة نظام التحكيم "بروتوكول التحكيم" قبل أن يفكر الغربيون فى عُصبة الأمم بأكثر من ألف عام.

وأظنك عرفت أيضًا: أن الآية قد أحاطت هذا النظام بسياج من العدالة والقداسة جعلته للحق وحده على حين نرى التحكيم الغربى كلمة حق يراد بها باطل، ووسيلة كل ما يقصد من ورائها تلمس الحيل ليصطبغ عدوان القوى على الضعيف بصبغة يقولون: إنها شرعية!

[مبادئ اجتماعية قررتها الآية]

وقد قررت الآية الكريمة للمسلمين عدة مبادئ من أسمى المبادئ الاجتماعية وأعظمها نفعًا للأمم والشعوب منها:

أولاً: وجوب وحدة الأمة والعمل على سلامة هذه الوحدة وصيانتها من العَبَث والبغى، وفى ذلك يقول الله تبارك وتعالى: ﴿ **وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا** ﴾ [آل عمران: ١٠٣]، وهذا ما سنتحدث عنه فى العدد القادم إن شاء الله.

ثانيًا: وجوب إصلاح ذات البين، وهو خلق شريف وعمل فاضل حثَّ عليه الإسلام، ورفع من قَدْره الكتاب والسنة. يقول الله تبارك وتعالى: ﴿ **لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا** ﴾ [النساء: ١١٤].

ويقول رسول الله ﷺ: " ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة؟ قالوا: بلى. قال: إصلاح ذات البَيْن، فإن فساد ذات البين هي الحالقة"[١]. وزيد في رواية: " لا أقول تَحْلِق الشَّعْر، ولكن تحلق الدين"[٢] والحديث رواه أبو داود والترمذي وابن حبان في صحيحه وقال الترمذي: حسن صحيح.

وعن أنس أن رسول الله ﷺ قال لأبي أيوب: ألا أدلك على تجارة؟ قال: بلى. قال: صِلْ بين الناس إذا تفاسدوا، وقَرِّب بينهم إذا تباعدوا" رواه البزار والطبراني[٣]. والآثار في ذلك أكثر من أن تحصر.

ثالثًا: الانتصار للمظلوم حتى ينال حقه. وهذا خلق إذا نما في الأمة علمها العزة ورفع عنها الذلة، وزادها ارتباطًا وحُبًّا وأخوةً وقربًا، وقد حثَّ عليه كذلك القرآن الكريم والسنة المطهرة، فقد قال الله تعالى في وصف المؤمنين: ﴿ **وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ** ﴾ [الشورى: ٣٩].

وفي الحديث الشريف: عن جابر وأبي طلحة رضي الله عنهما، أن رسول الله ﷺ قال: "ما من مسلم يَخْذُل امرأً مسلمًا في موضع تُنْتهك فيه حرمته، ويُنْتَقص فيه من عرضه، إلا خَذَله الله في موطن يحب فيه نصرته، وما من امرئ ينصر مسلمًا في موضع

---

(١) رواه أحمد (٧/ ٥٩٨) والترمذي (٢٥٠٩) وقال: حديث صحيح، وأبو داود (٤٩١٩) وابن حبان (٥٠٩٢) والبخاري في الأدب المفرد (٣٩٦) والبيهقي في الشعب (١١٠٨٨) عن أبي الدرداء رضي الله عنه. وصححه شعيب الأرناؤوط في "صحيح ابن حبان" (١١/ ٤٨٩).

(٢) رواه الترمذي (٢٥٠٩) عن أبي الدرداء رضي الله عنه وقال: حديث صحيح.

(٣) رواه الطبراني في "الكبير" (٨/ ٢٥٧) والبيهقي في الشعب (١١٠٩٤) عن أبي أيوب رضي الله عنه. وحسنه الألباني لغيره في "صحيح الترغيب والترهيب" (٢٨١٨) و (٢٨١٩) و (٢٨٢٠) عن أكثر من صحابي.

يُنْتَقَصُ فيه من عرْضه، ويُنْتَهَكُ فيه من حُرْمَته، إلا نصره الله فى موطن يحب فيه نصرته" رواه أبو داود(١).

رابعًا: وجوب تغيير العدوان وإقامة العدل مهما كانت العوائق فى سبيل ذلك، وفى الحديث: "لا تُقَدَّس أمة لا يُقْضَى فيها بالحق، ولا يأخذ الضعيفُ حقَّه من القوى غَيْرَ مُتَعْتَعٍ" رواه الطبرانى ورواته ثقات ورواه البزار(٢).

ومن أروع المُثُل النبوية الشريفة فى هذا المعنى: ما رواه النعمان بن بشير رضى الله عنهما، أنَّ رسول الله ﷺ قال: "مَثَلُ القائم على حدود الله والواقع فيها، كمثل قوم اسْتَهَمُوا على سفينة، فأصاب بعضهم أعلاها، وبعضهم أسفلها، فكان الذين فى أسفلها إذا اسْتَقَوْا من الماء مروا على من فوقهم، فقالوا: لو أنا خرقنا فى نصيبنا خَرْقًا، ولم نُؤْذ من فوقنا، فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا، وهلكوا جميعا، وإن أخذوا على أيديهم نجوا، ونجوا جميعا" رواه البخارى(٣).

وبعد: فهذه بعض المبادئُ السامية التى أشارت إليها آية واحدة فى كتاب الله، فهل تطمع أمَّةٌ تتعَشَّق الكمال فى أروع من هذا السُّمو؟ اللهم لا.

*****

(١) رواه أحمد (٤/ ٦١٢) وأبو داود (٤٨٨٤) عن جابر وأبى طلحة رضى الله عنهما. وضعفه الألبانى فى "ضعيف أبى داود" (١٠٤٠) وضعفه أيضا محققو المسند (٢٦/ ٢٨٩).

(٢) رواه الطبرانى فى "الكبير" (١٩/ ٣٨٥) عن معاوية رضى الله عنه. وقال الهيثمى: رجاله ثقات، انظر: المجمع (٥/ ٢٠٩)، وصححه الألبانى فى "صحيح الترغيب والترهيب" برقم: (٢١٩١).

(٣) رواه أحمد (٥/ ٣٣٤) والبخارى (٢٤٩٣) والترمذى (٢١٧٣) عن النعمان بن بشير رضى الله عنه.

[آصرة الأخوة](1)

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [الحجرات : ١٠] .

[شرح الآية]

بعد أن ألزم الحق تبارك وتعالى المؤمنين أن يقيموا قسْطاس العدل، ويحافظوا على وحدة الأمة الإسلامية، أرشدهم من طريق آخر إلى معنى ثان يوجب المحافظة على هذه الوحدة والعمل على سلامتها، ذلك المعنى هو الصلة التى ربط بها الإسلام بين قلوبهم وهى أخوة الإيمان.

والعقيدة - يا أخى - أقوى الروابط بين الناس إذا سلمت وصحت وقويت فى نفس صاحبها، ومنشأ ذلك: أن صاحب العقيدة القوية يرى نفسه مفرداً بسبب هذه العقيدة عن الناس، وحيداً بينهم، غريباً فيهم، فهو فى مَسِيسِ الحاجة إلى من تسكن إليه نفسه، ويأنس به قلبه، ويشتدّ به أزره، وليس فى ذلك إلا رجل اعتقد مثل عقيدته، وآمن بمثل ما آمن به، هنالك تلتئم الروحان، ويتّحد القلبان، وتسكن ثائرة النفس، ويستشعر كلٌ منهما بالآخر روح الأُنس، ويَوَدُّ أحدهما لو يفتدى الآخر بالدنيا وما فيها، وما قيمة الدنيا وما فيها إذا خلت من أنيس يرتاح إليه القلب، وتسكن معه النفس؟ هذا هو منشأ الوحدة والارتباط فى نفوس أهل العقيدة الواحدة والمبدأ المتَّفق.

وإنك لترى بين الناس روابط كثيرة من نسبية وعصبية؛ وصداقة ومعرفة، واشتراك فى تجارة؛ أو مصلحة؛ أو غاية مما يرتبط بهذه الأغراض الزائلة، فترى كل الروابط سريعة الزوال، وشيكة الانحلال، على حين ترى أهل العقيدة الواحدة على قلب واحد وشعور واحد، والله تبارك وتعالى يقول: ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾ [التوبة : ٧١]، على حين وصف المنافقين وهم الذين تذبذبت عقائدهم، واضطرب ميزان إيمانهم بقوله: ﴿ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ﴾ [الحشر : ١٤].

---

(١) نشرت فى مجلة (جريدة الإخوان المسلمين) الأسبوعية فى العدد (١٢) من السنة الثالثة الصادر فى غرة ربيع الآخر سنة ١٣٥٤هـ - ٢من يوليو سنة ١٩٣٥م.

وهناك معنى آخر من معاني توحيد العقيدة بين قلوب أبنائها الذين أخلصوا لها، ذلك أن كلاً منهم قد فني فيها وامتزج بها، فصار جزءًا منها، وصارت جزءًا منه، فهم جميعًا يفتدونها، وهم جميعًا يفتدي كل منهم الآخر، لأن افتداءه إياه افتداء للعقيدة نفسها، وذلك تعبير قد لا يراه واضحًا إلا مؤمن غرَّبته عقيدته بين الناس فرأى كيف يسعد بمن يجد ممن على شاكلته، وكيف يلذ له أن يفتديهم بنفسه معتقدًا أن في ذلك خدمة جلى لعقيدته.

هذا الارتباط بين أبناء العقيدة الواحدة هو الذي جعل من الصفوف الإسلامية الأولى كتلة متراصَّة، يتجلى عليها الحق تبارك وتعالى بمحبته ويصفها بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ﴾ [الصف: ٤]، وهذا الارتباط هو الذي جعل كُلَّ أنصاريٍّ يحرص على أخ مهاجر لم يتَّصل به من قبل ولم يعرف عنه شيئًا إلا أنه أخوه في العقيدة، حتى روى البخاري: "ما نزل مهاجر على أنصاري إلا بقرعة"(١) وحتى خلَّد الله هذه المنقبة للأنصار بالآية الكريمة: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩]، وبإزاء هذا الارتباط ترى التنابز والخلاف بين أبناء العقائد المتباعدة، حتى إن كثيرًا من الناس من ضحَّى بأهله، ونازلهم وجالدهم، ونال منهم في سبيل عقيدته، وهل الإيمان إلا الحب والبغض؟!

هذا أبو عبيدة عامر بن الجراح أمين هذه الأمة رضي الله عنه يقتل أباه في سبيل الله، والله تبارك وتعالى يقول: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾ [الممتحنة: ٤] ثم حكى الحق تبارك وتعالى عن إبراهيم أنه

---

(١) ذكر الإمام البنا الحديث بمعناه، ولفظه: "أن أم العلاء قالت: "أن عثمان بن مظعون طار لهم في السكنى حين اقترعت الأنصار على سكنى المهاجرين" رواه أحمد (٧/٥٨٨) والبخاري (٣٩٢٩) و(٧٠١٨) عن أم العلاء الأنصارية، واسمها أم العلاء بنت الحارث بن خارجة الأنصارية رضي الله عنها.

حين تبين له أن أباه عدو لله تبرأ منه(١). هذا إيمان صادق قوى لا خداع فيه ولا تذبذب، وإنما يعيش المؤمنون بقلوبهم وعقائدهم، فاللهم ارزقنا صدق الإيمان.

واعلم يا أخي أن رسول الله ﷺ أرشدنا في أكثر من حديث إلى جليل قدر الأخوة الإسلامية، وصورها لنا في أكثر من حديث أروع تصوير وأدقه. وإليك بعض ذلك وكله في الصحيح(٢):

١- "مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتواصلهم: كمثل الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر"(٣).

٢- "المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً، وشبك بين أصابعه ﷺ"(٤)

٣- "إن المؤمن من أهل الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، يألم المؤمن لأهل الإيمان كما يألم الجسد لما في الرأس" وهذا حديث تفرد به أحمد، ولا بأس بإسناده(٥).

ثم إن الحق تبارك وتعالى أكد بهذه الآية ما أرشد المسلمين إليه في التي قبلها، من وجوب السعي بالصلح بين المختلفين منهم، فقال تبارك وتعالى: ﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الحجرات: ١٠] فشد يدك يا أخي على أخوة أهل الإيمان. وسنبين بعض حقوق هذه الأخوة فيما يلي إن شاء الله.

*****

(١) يشير الإمام البنا إلى قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٤].

(٢) إن كان يقصد الإمام الشهيد بكلمة (وكله في الصحيح): الصحيح بالمعنى المعروف عند علماء الحديث أي في البخاري ومسلم، فإن الحديثين الأول والثاني في البخاري ومسلم، ولكن الثالث ليس في واحد منهما. وإن كان يريد بالصحيح - وهذا خلاف المشهور في إطلاق اللفظة عند أهل هذا الفن - ما يصلح للاستشهاد به والاحتجاج فهذا موافق للأحاديث الثلاثة. والله أعلم.

(٣) رواه أحمد (٤/ ٢٧٠) والبخاري (٢٥٨٦) ومسلم (٢٥٨٦) والبيهقي في "السنن" (٣/ ٣٥٣) عن النعمان بن بشير رضي الله عنه.

(٤) رواه البخاري (٤٨١) و(٢٤٤٦) و(٦٠٢٧) ومسلم (٢٥٨٥) والترمذي (١٩٢٨) والنسائي في "المجتبى" (٢٥٦٠) والحميدي في "مسنده" (٧٧٢) عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

(٥) رواه أحمد في مسنده (٥/ ٣٤٠) عن سهل بن سعد الغامدي رضي الله عنه. وقال محققو المسند: صحيح لغيره، انظر: "المسند" برقم (٢٢٨٧٧) (٣٧/ ٥١٧). وحسنه الشيخ الألباني في "صحيح الجامع الصغير" برقم (٦٦٥٩).

[من مساوئ الأخلاق، السخرية والتنابز بالألقاب](1)

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلا تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ بِئْسَ الاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ [الحجرات: ١١].

[أسباب النزول]

قال ابن عباس رضى الله عنهما: نزلت هذه الآية فى ثابت بن قيس بن الشمّاس، وذلك أنه كان فى أذنه وَقْرٌ، فكان إذا أتى رسول الله ﷺ وقد سبقوه بالمجلس أوسعوا له حتى يجلس إلى جنبه، فيسمع ما يقول، فأقبل ذات يوم وقد فاتته ركعة من صلاة الفجر، فلما انصرف النبى ﷺ من الصلاة أخذ أصحابه مجالسهم، فَضَنَّ كل رجل بمجلسه، فلا يكاد يوسِّع أحدٌ لأحدٍ، فكان الرجل إذا جاء فلم يجد مجلسًا يجلس فيه قام قائمًا كما هو، فلما فرغ ثابت من الصلاة أقبل نحو رسول الله ﷺ يتخطى رقاب الناس ويقول: تفسَّحوا، فقال له الرجل: قد أصبت مجلسًا فاجلس، فجلس ثابت خلفه مُغْضَبًا، فلما انجلت الظلمة غمز ثابت الرجل فقال: من هذا؟ قال: أنا فلان. فقال له ثابت: ابن فلانة، وذكر أمًّا له يعيره بها فى الجاهلية، فَنَكَّسَ الرجل رأسه، واستحيا، فأنزل الله هذه الآية(2).

وقال الضحّاك: نزلت فى وفد بنى تميم الذين تقدَّم ذكرهم فى الآية قبلها، وقد كانوا يستهزئون بفقراء الصحابة رضوان الله عليهم مثل عمار [بن ياسر] وخبَّاب [بن الأرت] وبلال [بن رباح] وصهيب [الرومى] وسلمان [الفارسى] وسالم مولى أبى حذيفة لما رأوا من رثاثة حالهم، فأنزل الله تعالى فى الذين آمنوا منهم الآية(3).

---

(١) نشرت فى مجلة (جريدة الإخوان المسلمين) الأسبوعية فى العدد (١٣) من السنة الثالثة الصادر فى ٨ من ربيع الآخر سنة ١٣٥٤هـ - ٩ من يوليو سنة ١٩٣٥م.

(٢) انظر: تفسير البغوى (٧/ ٣٤٢، ٣٤٣).

(٣) المصدر السابق (٧/ ٣٤٣).

ورُوى عن أنس: أنها نزلت فى نساء رسول الله ﷺ حين عيرن أم سلمة بالقصَر[١].
فقد روى أن عائشة وحفصة رضى الله عنهما رأتا أم سلمة ربطت حقويها بثوب أبيض، وسدّلت طرفه خلفها، فقالت عائشة لحفصة ـ تشير إلى ما تجر أم سلمة خلفها ـ: كأنه لسان كلب. فنزلت الآية[٢].

وقد روى كذلك: أن عائشة رضى الله عنها كانت تسخر من زينب بنت خزيمة الهلالية وكانت قصيرة، فنزلت الآية[٣].

وعن عكرمة عن ابن عباس: أنها نزلت فى صفية بنت حيى [بن أخطب] قال لها النساء: يهودية بنت يهوديين، فنزلت[٤].

وقيل: نزلت بسبب عكرمة بن أبى جهل كان يمشى بالمدينة، فقال له قوم: هذا ابن فرعون هذه الأمة، فعزَّ ذلك عليه، وشكاهم إلى رسول الله ﷺ، فنزلت.

[ترجيح بين الروايات]

وكلُّ ذلك محتمل جائز، وكما أن كل رواية من هذه الروايات تصلح سببًا للنزول، فجميعها كذلك يصلح سببا للنزول.

وروى الإمام أحمد بسنده: عن أبى جبيرة بن الضحاك قال: فينا نزلت فى بنى سلمة (ولا تنابزوا بالألقاب) قال: قدم رسول الله ﷺ المدينة، وليس فينا رجل إلا وله اسمان أو ثلاثة، فكان إذا دعا أحداً منهم باسم من تلك الأسماء قالوا: يا رسول الله إنه يغضب من هذا، فنزلت " ورواه كذلك أبو داود من طريق آخر[٥]

---

(١) المصدر السابق (٧ / ٣٤٣).
(٢) انظر: البحر المحيط (٨ / ١١٣).
(٣) المصدر السابق.
(٤) انظر: البحر المحيط (٨ / ١١٣) وتفسير البغوى (٧ / ٣٤٣) وذكره الزمخشرى فى الكشاف (٤ / ٣٧٠) وقال ابن حجر فى تخريجه: ذكره الثعلبى عن عكرمة، عن ابن عباس بدون إسناد وفى الترمذى من رواية هاشم بن سعيد الكوفى.
(٥) رواه أحمد (٥ / ٣٢١) والترمذى (٣٢٦٨) وقال: حسن صحيح، وأبو داود (٤٩٦٢) وابن ماجه (٣٧٤١) والنسائى فى "الكبرى" (١١٥١٦) والطبرانى فى "الكبير" (٢٢ / ٣٩٠) والحاكم (٤ / ٣١٤) وصححه عن أبى جبيرة بن الضحاك رضى الله عنه، وصححه الألبانى فى "صحيح سنن أبى داود" برقم (٤١٥١).

[معانى كلمات الآيات]

والسخرية: الاحتقار والاستهانة، وذكر العيوب والنقائص على وجه فيه تَهَكُّم وزراية، وكما تكون بالقول، تكون بالمحاكاة والإشارة والتقليد ونحوها.

والقوم: الجماعة من الناس رجالاً ونساءً، وإطلاقه على الرجال أكثر، كما فى قول زهير:

وما أدرى ولست إخال ادرى ... أقومٌ آل حصن أم نساء

واللمز: العيب. قيل: اللمز بالمقال، والهمز بالفعال، وهما صفتان مذمومتان فقد قال تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ [الهمزة: ١].

والتنابز بالألقاب: التداعى بالالقاب المكروهة بقصد الإيذاء والنَّيْلِ من صاحبها سواء كانت له شخصيًا أو لاسرته او لابيه أو لامه.

قال النووى: أجمع العلماء على تحريم تلقيب الإنسان بما يكره سواء كان صفة له أو لابيه أو لأمه أو غيرهما.

[شرح الآية]

ومعنى الآية الكريمة على هذا: أنَّ الله تبارك وتعالى ينهى المؤمنين عن عدة خصال من خصال الشر التى يترتَّب عليها شقُّ العصا، ووقوع البغضاء والكراهية بين الناس، وتفريق وحدة المسلمين، والقضاء على أخوتهم ومحبتهم.

من هذه الخِصال: أن يحقر بعضهم بعضا سواءً أكانوا رجالاً ينتقصون رجالاً، أم نساءً ينتقصن نساءً، وأن يعيب بعضهم بعضًا؛ بقول؛ أو إشارة؛ أو لقب بغيض إليه؛ أو نحو ذلك.

ثم بين لهم تبارك وتعالى أن ظُلْمةَ هذا الشر لا تتفق مع نور الإيمان، وأن نعمة الاخوة لا تقابل بأسباب القطيعة، فمن فعل شيئًا من ذلك، ثم لم يتب منه: فاولئك هم الذين ظلموا انفسهم بارتكاب المعصية، وظلموا غيرهم بهذا الاذى.

[موقف السنة من السخرية]

وكما ورد النهى عن هذه الخصال فى الآية الكريمة، فقد أكد ذلك الرسول ﷺ فى عدة أحاديث من احاديثه الشريفة.

١ـ عن أبى هريرة رضى الله عنه: أنَّ رسول الله ﷺ قال: "المسلم أخو المسلم: لا يظلمه، ولا يخذله، ولا يَحْقِرُهُ، التقوى هاهنا، التقوى هاهنا ـ ويشير إلى صدره [ثلاث مرات] ـ بحَسْبِ امرئٍ من الشَّر ان يَحْقِرَ أخاه المسلم. كل المسلم على المسلم حرام: دَمُه، وعِرْضُه، ومالُه" رواه مسلم وغيره(١).

٢ـ وعن أبى ذر رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال له: "انظر فإنك لست بخير من احمر ولا اسود إلا ان تفضله بتقوى" رواه أحمد(٢).

٣ـ وعن أنس [رضى الله عنه] قال: قال رسول الله ﷺ: "كَمْ من أشْعَثَ أغْبَرَ ذى طمْرَين لا يُؤْبَهُ له لو اقسم على الله لأبَرَّه، منهم: البراء بن مالك" رواه الترمذى وقال: حديث حسن(٣).

[وجه الارتباط بين هذه الآية والآية التى قبلها]

والاحاديث فى ذلك كثيرة، والارتباط بين الآية الكريمة والآيات قبلها واضح، فإنه تبارك وتعالى حين بيَّن صلة المؤمن بالمؤمن، وأنها أخوة فوق أخوة النسب، أرشد المؤمن إلى حقوق هذه الأخوة، وأولها: أن يحافظ بعضهم على كرامة بعض محافظة دقيقة، لا ينتقصها بسخرية ولا لمز ولا نَبْز، وانت إذا أمعنت النظر: رأيت أنَّ هذه الثلاثة هى أول أبواب الشر والخصومة بين الناس.

---

(١) رواه احمد (٢/٥٤١) و (٣/٤٥) ومسلم (٢٥٦٤) والبيهقى فى "السنن" (٨/٤٨٧) و(١٢/٤٩٧) وفى "الشعب" (٦٦٦٠) و (١١١٥١) عن ابى هريرة رضى الله عنه. ورواه احمد (٤/٥٤٦) عن واثلة بن الأسقع رضى الله عنه.

(٢) رواه احمد (٦/١٩٨) عن أبى ذر رضى الله عنه، وقال محققو المسند: صحيح لغيره، وهذا إسناد ضعيف لضعف ابى هلال الراسبى ـ وهو محمد بن سليم ـ وبكر ـ وهو ابو عبد الله المزنى ـ لم يسمع من ابى ذر. وفى الباب عن رجل من أصحاب النبى ﷺ وسياتى (٥/٤١١) وإسناده صحيح. انظر: المسند طبعة دار الرسالة. وصححه الشيخ الألبانى فى "صحيح الجامع الصغير" (١٥٠٥).

(٣) رواه الترمذى (٣٨٥٤) عن انس بن مالك رضى الله عنه، وقال: حسن صحيح، وصححه الألبانى فى "صحيح الترمذى" برقم (٣٠٢٨) وفى "صحيح الجامع الصغير" برقم (٤٥٧٣).

يستهين أحدهم بأخيه فيهزأ منه، ثم يلمزه ويعيبه، ثم يناديه بلقب يكرهه، فتتولّد من ذلك كراهية وبغضاء، لهذا أدب الله المؤمنين بترك هذه الخصال، وسدَّ هذا الباب حتى تظلَّ وحدتهم سليمة، وكلمتهم مجتمعة.

واعلم - يا أخي - أن الألقاب المستقبحة إذا جرت مجرى الأعلام، ولم يكن صاحبها يتأذّى بها لاستملاحها: فإن نداءه بها لا يكون نبزا، كما يقال: سليمان الأعمش، وواصل الأحدب، وهكذا. وقد قال ابن مسعود لعلقمة: تقول أنت ذلك يا أعور[1]. والفضل على كل حال: أن يُخاطب الإنسان الناس بأحب أسمائهم إليهم، حتى يعوِّد لسانه الطيب من القول.

ثم إن كان من خُلُق أحد في الماضي فعليه أن يتوب ويستقبل عهداً جديداً، ويتحلَّل من ذلك باستسماحهم وطلب الصفح منهم، إن لم ينجم عن ذلك شرٌّ يُخْشى تطايره[2]، فإن خشي الشرَّ: أقبل على الدعاء لهم، والندم على ما كان منه والاستغفار، حتى يَمُن الله عليه بالتوبة الصادقة والنصوح، ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ [الشورى: ٢٥].

*****

(١) فات الإمام البنا رحمه الله أن يذكر ما يدل على ذلك من السنة النبوية، فقد ورد في السنة النبوية ما يدل على جواز تلقيب المسلم لأخيه المسلم بما لا يكره، كقوله لعليٍّ رضي الله عنه: "يا أبا تراب" رواه البخاري (٦٢٨٠) ومسلم (٢٤٠٩) والترمذي (٣٧٢٤) وابن حبان (٦٩٢٥) والطبراني في "الكبير" (١٦٧/٦) عن سهل بن سعد رضي الله عنه، ورواه أحمد (٣٢٦/٥) والنسائي في "الكبرى" (٨٥٣٨) والحاكم (١٥١/٣) عن عمار بن ياسر رضي الله عنهما. وقوله لأنس بن مالك: "يا ذا اليدين" رواه أحمد (٥٨٠/٣) والترمذي (١٩٩٢) وقال: صحيح غريب، وأبو داود (٥٠٠٢) عن أنس رضي الله عنه.

(٢) كان يكون من اغتابه من أهل الشر، أو ممن لا يحمدون له هذا الخُلُق، ويؤدي ذلك إلى إيذائه، عندئذ يكون الاستغفار له والدعاء أفضل من استسماحه، وكان يكون الاغتياب لأهل بلد كاملة، وهذا يتعذر أن يستطيب أهل البلد جميعاً، عندئذ يستغفر لهم أيضاً.

(ومن معاني الأخلاق: الظن والتجسس والغيبة)(١)

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ﴾

[الحجرات: ١٢].

(معاني الكلمات)

اجتناب الشيء: تركه والبعد عنه.

والظن: التُّهمة وتوهم الشيء من غير تحقيق ودليل قوي.

والإثم: الذنب.

والتجسس: التطلُّع إلى معرفة ما غاب عن الإنسان، والعمل على ذلك بالاستماع أو النظر أو البحث.

والاغتياب: أن تذكر أخاك بما يكره وهو غائب عنك لا يسمع قولك.

وقد شبه القرآن هذا العمل بمن يأكل لحم الميت، إذ إن الغائب كالميت في عدم السماع، ونهش العرض كأكل اللحم، كلاهما تقطيع للشخص ونيل منه، وكلاهما عمل مُتَقَذَّر تعافه النفوس، وتأباه الطِّباع اللئيمة، فضلاً عن الكريمة.

(أسباب النزول)

روى البغوي أنَّ الآية الكريمة نزلت في رجلين اغتابا رفيقهما، وذلك أن رسول الله ﷺ كان إذا غزا أو سافر ضمَّ الرجل المحتاج إلى رجلين موسرَيْن يخدمهما، ويتقدَّم لهما إلى المنزل، فيهيئ لهما ما يصلحهما من الطعام والشراب، فضمَّ سلمان الفارسي إلى رجلين في بعض أسفاره، فتقدم سلمان إلى المنزل (مكان النزول للراحة) فغلبته عيناه، فلم يهيئ لهما شيئًا، فلما قدما قالا له: ما صنعت شيئًا؟ قال: لا، غلبتني عيناي، قالا له: انطلق إلى رسول الله ﷺ فاطلب لنا منه طعامًا، فجاء سلمان إلى رسول الله ﷺ

(١) نشرت في مجلة (جريدة الإخوان المسلمين) الأسبوعية في العدد (١٢) من السنة الثالثة الصادر في يوم الثلاثاء الموافق ١٥ من ربيع الآخر سنة ١٣٥٤هـ - ١٦ من يونيو سنة ١٩٣٥م.

وساله طعاما، فقال له رسول الله ﷺ: "انطلق إلى أسامة بن زيد وقل له: إن كان عنده فضل من طعام وإدام فليعطك"، وكان أسامة خازن رسول الله ﷺ وعلى رحْله، فأتاه فقال: ما عندى شيء. فرجع سلمان إليهما وأخبرهما، فقالا: كان عند أسامة طعام ولكن بخل، فبعثا سلمان إلى طائفة من الصحابة فلم يجد عندهم شيئًا، فلما رجع قالا: لو بعثناك إلى بئرٍ سميحة[1] لغار ماؤها، ثم انطلقا يتجسْسان هل عند أسامة ما أمر لهما به رسول الله ﷺ، فلما جاءا إلى رسول الله ﷺ قال لهما: "مالى أرى خضرة اللحم فى أفواهكما؟!" قالا: والله يا رسول الله ما تناولنا فى يومنا هذا لحمًا. قال: "بل ظللتم تأكلون لحم سلمان وأسامة. فأنزل الله عز وجل: ﴿يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن﴾[2] الآية.

[شرح الآية]

أمر الله المؤمنين فى هذه الآية أن يبتعدوا عن خصال ثلاث: كثير من الظن، والتجسُّس، والغِيْبَة[3]، وإنما نهاهم عن هذه الثلاث لأنها موجبة للفرقة والبغضاء، جالبةٌ للكراهية والعداء، قاطعة لأخوة الإيمان، ورابطة الحب الإسلامى، وكثيرًا ما تكون غير حقيقية فيندم صاحبها بعد أن يكون قد قُضى الأمر، وسبق السَّيْفُ العَذَلَ[4].

قد تقابل أخاك فتراه كئيبًا فتظنّ أنه إنما اكتأب لرؤيتك، وقطَّب للقائك، وأظهر هذا النفور إيذاء لك، وتبنى على هذا عملاً وهو أن تقاطع هذا الأخ وتبتعد عنه، ثم يتبين لك بعد ذلك فساد الظن، وأنه إنما كان كذلك لأنه وقع له حادث جَلَل، كفَقْد عزيز، أو خسارة مال، أو مهمَّة من مهمات شأنه أظهرته بالمظهر الذى ظننته نفوراً منه ووحشة، فتندم وتتألم.

---

(١) أى: مملوءة بالماء.

(٢) انظر: تفسير البغوى (٧/ ٣٤٤، ٣٤٥)، وذكره الزمخشرى فى الكشاف (٤/ ٣٧٤) وقال ابن حجر فى تخريجه: ذكره الثعلبى وربيعة بغير سند ولا راو. وفى "الترغيب" لأبى القاسم الأصبهانى من طريق حماد ابن سلمة عن ثابت عن عبد الرحمن بن أبى ليلى بنحوه.

(٣) الغيبة بكسر الغين: هى ذكرك أخاك بما يكره. ومن الخطأ اللغوى الشائع الذى يقع فيه عدد من الناس نطق كلمة (الغيبة) بالفتح، والتى معناها: البُعْد والتوارى. انظر: المعجم الوسيط (٢/ ٦٦٧).

(٤) مثل قاله ضبة بن أد لما لامه الناس على قتله قاتل ابنه فى الحرم، انظر: مجمع الأمثال (١/ ٤٦١). وهو مثل يقال عندما يريد الإنسان الرجوع عن أمر، ويكون قد وصل الأمر إلى مرحلة لا رجوع فيها، ولا يمكن فيها الرجوع.

وقد تَتَلَمَّس العَيْبَ لأخيك، ويُتاح لك أن تراه على حال غير مرضية فى ظنك، كان تراه مع امرأة لا تعرفها يضحك لها وتضحك له، فتنشر ذلك عنه، وتتحدث به، ثم يتبيَّن لك بعد ذلك أنها زوجه أو أخته، فتندم وتتألم.

وقد تنقل عن أخيك قولاً لم تفهم مغزاه، أو عملاً لم تُدْرك ملابساته وظروفه، وتَنْتَقِصُه بذلك وتعيبه، ثم يتبيَّن لك أن ذلك غير صحيح، فتندم وتتألم.

لهذا نهى الله المؤمنين عن هذه الخصال الثلاث، وأوصاهم بتركها والبعد عنها.

[ترتيب دقيق]

وإذا تأملت رأيتَ دقة الترتيب ومتانة الصلة بينها، فهى جميعًا أخوات يستتبع بعضها بعضًا، وتكون ثلاث حلقات متَّصلة أشدُّ الاتصال فى سلسلة الشرور والآثام، يبدأ الأمر بظنٍّ سيئ، فيحمل هذا الظن صاحبه على التجسُّس، وأن يتحدَّث بما توهَّم من عيوب ونقائص، فيكون قد ارتكب الجرائم الثلاث جميعًا، وقَلَّما يقتصر الأمر على واحدة.

[الظنُّ: ما يُحمد منه وما يكره]

ولما كان من الظنون ما هو حَسَنٌ جميل كان تظنٌّ بإخوانك المؤمنين الخير والكمال والاستقامة، بل إنَّ من الظنون التى تتصل بناحية النقص فى المظنون به ما هو خير، وذلك أن يحمل الظن على الاحتراس، والأخذ بالحيطة، والحذر دون انتقاص، أو عيب، أو ظلم، أو عدوان، أو مؤاخذة، لما كان ذلك كذلك عبَّر الحق تبارك وتعالى فى النهى عن الظن باجتناب الكثير منه، وبأنَّ بعض الظن إثم، حتى تكون هذه الأنواع التى ينجم عنها الخير خارجة عن النهى(١).

---

(١) بيَّن الإمام الكيا الهراسى أنواع الظنون وما يجوز منها وما لا يجوز فقال: "فى الظنون ما هو محظور، مثل سوء الظن بالله تعالى، وسوء الظن بالمسلمين الذين ظاهرهم العدالة.

وكل ظن استند العلم به إلى دليل يقينى، فالعمل به واجب. كالشهادات وقبولها وقيم المتلفات والأقيسة.

وقد يكون الظن مباحًا، كقول أبى بكر لعائشة رضى الله عنها: ألقى فى روعى أن ذا بطن خارجة جارية، فاستجاز هذا الظن لما وقع فى قلبه.

وأما الظن المندوب إليه، فهو حُسن الظن بالأخ المسلم. انظر: "أحكام القرآن" للكيا الهراسى (٤/ ٣٨٤).

وفي كلام العرب مما ينسبونه إلى أكثم بن صيفي حكيم تميم: حُسن الظن ورطة، وسوء الظن عصمة.

وفي الأثر: احترسوا من الناس بسوء الظن[1]. فكل ما هو من هذا الباب إنما يحمل على ما ذكرت لك من الظن الذي يؤدي بصاحبه إلى الحذر دون انتقاص أو عدوان ومؤاخذة.

[موقف السنة من الغيبة والتجسُّس]

وقد نهى رسول الله ﷺ عن هذه الخصال أشد النهي كذلك، وأبان طريقة علاجها النفسي بأشفى معنى وأوفى عبارة في كثير من الأحاديث المطهرة، وإليك بعض ذلك:

١- "إيَّاكم والظن، فإنَّ الظنَّ أكذب الحديث، ولا تجسَّسوا، ولا تحسَّسوا، ولا تنافسوا، ولا تحاسدوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخوانًا" رواه البخاري ومسلم[2]. والتحسُّس: نوع من التجسُّس.

٢- "ثلاث لازمات لأمتي: الطِّيَرَة، والحسد، وسوء الظن" فقال رجل: وما يذهبهن يا رسول الله ممن هنَّ فيه؟ قال: "إذا حسدت فاستغفر الله، وإذا ظننت فلا تحقق، وإذا تطيَّرت فامض" رواه الطبراني[3].

٣- وعن عبد الله بن عمر قال: رأيت النبيَّ ﷺ يطوف بالكعبة، ويقول: "ما أطيبك وأطيب ريحك وأعظم حرمتك، والذي نفس محمد بيده! لحرمة المؤمن أعظم عند الله تعالى حرمة منك؛ ماله؛ ودمه؛ وأن يظن به إلا خيرًا" [رواه] ابن ماجه[4]

---

(١) رواه الطبراني في "الأوسط" (٦٠٢) و(٩٤٥٨) مرفوعا عن أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٢) رواه أحمد (٢/٢٤٥) والبخاري (٥١٤٤) و(٦٠٦٤) و(٦٠٦٦) و(٦٧٢٤) ومسلم (٢٥٦٣) ومالك في موطئه (١٦٨٤) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) رواه الطبراني في "الكبير" (٣/٢٢٨) عن حارثة بن النعمان رضي الله عنه. وقال الهيثمي: فيه إسماعيل بن قيس الأنصاري ضعيف. انظر: مجمع الزوائد (٨/٨١).

(٤) رواه ابن ماجه (٣٩٣٢) عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما. وقال البوصيري: هذا إسناد فيه مقال، نصر بن محمد ضعفه أبو حاتم وذكره ابن حبان في "الثقات" وباقي رجال الإسناد ثقات. انظر: مصباح الزجاجة في زوائد ابن ماجه (٣/٢٢٣).

د- وروى أبو داود عن نفر من الصحابة منهم المقدام بن معد يكرب وأبو أمامة: أن رسول الله ﷺ قال: "إن الأمير إذا ابتغى الريبة في الناس أفسدهم"(١) فانظر إلى ما في هذا الحديث الشريف من التنبيه إلى ما يقع من الفساد في أمة فشت فيها الجاسوسية، وتوترت بينها وبين أمرها العلاقة، فهو يظن بها ويتجسس عليها حذر الحادثات(٢).

هـ- وروى أبو داود بسنده عن أبي بَرْزَة الأسلمي قال: قال رسول الله ﷺ: "يا معشر مَنْ آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه: لا تغتابوا المسلمين، ولا تتبعوا عوراتهم، فإنه من تتبع عوراتهم يتبع الله عورته، ومن يتبع الله عورته يفضحه في بيته"(٣).

و- وروى الترمذي وأبو داود وغيرهما عن أبي هريرة قال: قيل يا رسول الله: ما الغيبة؟ قال: "ذكرك أخاك بما يكره". قيل: أفرأيت إن كان في أخي ما أقول؟ قال ﷺ:

---

(١) رواه أحمد في مسنده (٦/ ٤) وأبو داود (٤٨٨٩) والحاكم (٤/ ٤١٩) والبيهقي في "السنن" (٨/ ٣٣٣) والطبراني في "الأوسط" (٧٩٦٠) وفي "الكبير" (٨/ ١٠٨) و (١٧/ ١٢٢) و (٢٠/ ٢٣٥، ٢٣٦) وقال المنذري: في إسناده إسماعيل بن عياش وفيه مقال. انظر: "تهذيب السنن" حديث رقم (٤٧٢٩). وصححه الألباني في "صحيح سنن أبي داود" برقم (٤٠٨٩) صحيح الجامع الصغير (١٥٨٥) وفي (غاية المرام) (٤٢٥).

(٢) رحم الله الإمام البنا، فقد أشار إلى أمر مهم به تضيع الثقة بين الحاكم والمحكومين، وهو اعتماده على الواشين، وكثيرا ما حرم الأمة من عباقرتها، ففروا من أوطانهم بسبب الملاحقات الأمنية المبنية على الوشايات من رجال الأمن والمخابرات، بحق وبغير حق، وأكثرها بالباطل، ولن تفلح أمة تكون مقدرات شبابها في يد ثلة لا ضمير لهم من رجال أمن أو غيره، فعندما تلغى الشهادات العلمية ويؤخر أهل العلم بحجة قرار الأمن، عندئذ تخسر الأمة ذخيرتها من شبابها. وإلى الله المشتكى.

(٣) رواه أحمد (٤/ ٤٢٠، ٤٢١) وأبو داود (٤٨٨٠) وأبو يعلى (٧٤٢٤) و (٧٤٢٣) والبيهقي في "السنن" (١٠/ ٢٤٧) وفي "الشعب" (٦٧٠٤) وفي "الآداب" (١٧٣) عن أبي برزة الأسلمي رضي الله عنه وصححه الشيخ الألباني في "صحيح أبي داود" (٤٠٨٣) صحيح الجامع الصغير (٧٩٨٤).

ورواه أحمد (٥/ ٢٧٩) عن ثوبان رضي الله عنه وإسناده حسن.

ورواه الترمذي (٢٠٣٢) والبغوي (٣٥٢٦) وابن حبان (٥٧٦٣) عن ابن عمر رضي الله عنهما وإسناده قوي. ورواه ابن أبي الدنيا في "الصمت" (١٦٧) نقلا عن: مسند الإمام أحمد (٢٣/ ٢٠، ٢١) بتحقيق الشيخ شعيب الأرناؤوط ورفاقه. ط. دار الرسالة. ورواه أبو يعلى (١٦٧٧) وقال محققه: رجاله ثقات. وأبو نعيم في "الدلائل" (٣٥٦) والبيهقي في "الدلائل" (٦/ ٢٥٦) عن البراء بن عازب رضي الله عنه.

"إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته"(١).

٧ـ وقال أبو داود عن مُسَدَّد بسنده عن عائشة رضى الله عنها قالت: قلت للنبى ﷺ: حسْبُك من صفيَّة كذا وكذا. قال غير مسدد: تعنى قصيرة. فقال ﷺ: "لقد قلت كلمة لو مُزِجت بماء البحر لمزجَتْه" قالت: وحَكَيْتُ له إنسانًا ـ أى قلَّدته وأتيت بمثل حركاته ـ فقال: "ما أحب أنى حكيت إنسانًا وأنَّ لى كذا وكذا" ورواه الترمذى من طرق عدة(٢).

ولقد تمسَّك الأصحاب رضوان الله عليهم ومن تبعهم بإحسان بهذه الآداب أجمل التمسُّك فقد كان عمر رضى الله عنه يقول فى بعض وصاياه: "ولا تظن بكلمةٍ خرجت من أخيك المؤمن إلا خيرًا وأنت تجد لها فى الخير محملاً"

وروى الإمام أحمد بسنده عن دُخَيْن كاتب عقبة قال: قلت لعقبة: إنَّ لنا جيرانًا يشربون الخمر، وأنا داع لهم الشُّرَط فيأخذونهم، قال: لا تفعل ولكن عظهم وتهدَّدهم، قال: ففعل فلم ينتهوا قال: فجاءه دُخَيْن فقال: إنى قد نهيتهم فلم ينتهوا، وإنى داع لهم الشُّرَط فتأخذهم، فقال عقبة: ويحك لا تفعل، فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: "من ستر عورة مؤمن فكأنما استحيا موءودة من قبرها" ورواه أبو داود والنسائى(٣).

وليس هناك تعارض بين هذا الحديث الشريف وبين أحاديث الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، فإنه وعظهم ونهاهم وبقيت بعد ذلك مهمة الحاكم، فهو الذى يَعَسُّ على

---

(١) رواه أحمد (٢/٤٥٨) و (٣/٨٦،٨٩،٢١٥) ومسلم (٢٥٨٩) والترمذى (١٩٣٤) وأبو داود (٤٨٧٤) والنسائى فى "الكبرى" (١١٥١٨) وابن حبان (٥٧٥٨) و (٥٧٥٩) والبيهقى فى "السنن" (١٥/٣٨١) وفى "الشعب" (٦٧١٩) وأبو يعلى (٦٤٩٣) و (٦٥٣٢) وابن أبى شيبة (٦/١١٥) وابن أبى الدنيا فى "الصمت" (٢٠٤) ص١٣٤ عن أبى هريرة رضى الله عنه.

(٢) رواه أحمد (٧/٢٧١) والترمذى (٢٥٠٢) وأبو داود (٤٨٧٥) وابن السرى فى "الزهد" (١٢٠٦) عن عائشة رضى الله عنها. وصححه الشيخ الألبانى فى "صحيح أبى داود" (٤٠٨٠).

(٣) رواه أحمد (٥/١٤٣) وأبو داود (٤٨٩١) والنسائى فى "الكبرى" (٧٢٨١) والطبرانى فى "الكبير" (١٧/٣١٩) وابن حبان (٥١٧) والبخارى فى "الأدب المفرد" والبيهقى فى "الشعب" (٦٦٥٩) عن عقبة بن عامر رضى الله عنه. وقال محققو المسند: إسناده ضعيف لاضطراب فى إسناده، ولجهالة أبى الهيثم. انظر "المسند" حديث رقم (١٧٣٩٥) (٢٨/٦١٧،٦١٨) ط: الرسالة.

الناس، ويضبط من يأتى بالمخالفات منهم، حتى لا تكون إباحة السعاية سبيلاً إلى الانتقام والإضرار، وتربية للأمة على خلق من الأخلاق الرديئة، أما إذا طلب إليه أن يؤدى الشهادة فيما علم، فمن واجبه ألا يستتر فإنه حينئذ يخدم الحق ويعين على إظهاره.

[متى تباح الغيبة؟]

وقد أجمع المسلمون على حرمة الغيبة إلا فى بعض المواطن، كموطن المشورة والنصح، فمن واجب المستشار أن يقول ما يعلم، كقوله ﷺ لفاطمة بنت قيس حين استشارته ﷺ وقد خطبها معاوية وأبو الجهم: "أما معاوية فصُعْلُوكٌ، وأما أبو الجهم فلا يضع عصاه عن عاتقه"(١) وهى فى غير مثل هذا الموطن من المواطن التى تَرْجُح فيها المصلحة على المفسدة كبيرة من أفظع الكبائر وأغلظها.

ومن واجب المسلم: أن يرد غيبة أخيه ويدافع عنه، وألا يتركه غرضًا لسهام الطاعنين، وهدفًا لرماية المغتابين.

روى الإمام أحمد بسنده عن [سهل بن معاذ بن] أنس الجهنى عن أبيه عن النبى ﷺ أنه قال: "من حَمى مؤمنًا من منافق يعيبه: بعث الله تعالى إليه مَلَكًا يَحْمِى لحمه يوم القيامة من نار جهنم، ومن رمى مؤمنًا بشىء يريد شَيْنَه: حبسه الله تعالى على جِسْر جهنم حتى يخرج مما قال"(٢)

ثم إنَّ الله تبارك وتعالى ختم الآية الكريمة بتخويف المسلمين من بطشه وجبروته، وإرشادهم إلى اتقاء سَطْوته بطاعته وبالمبادرة إلى التوبة من هذه الخصال، وبشَّرهم بأنه تعالى توَّابٌ رحيم، يقبل من تاب إليه، وندم على ماضيه، وأحسن فى مُقْتبله.

---

(١) رواه أحمد (٧/٥٦١) ومسلم (١٤٨٠) والترمذى (١١٣٥) وابن ماجه (١٨٦٩) والدارمى (٢/١٣٥) والبيهقى فى "السنن" (١٠/٣٥٠) عن فاطمة بنت قيس رضى الله عنها. ومعنى صعلوك: أى فقير، انظر: مختار الصحاح ص ٣٦٣. ومعنى: لا يضع عصاه عن عاتقه: أى كثير الضرب للنساء.

(٢) رواه أحمد (٣/٤٤١) وأبو داود (٤٨٨٣) والطبرانى فى "الكبير" (٢٠/٤٣٣) وأبو نعيم فى "الحلية" (٨/١٨٨) والبيهقى فى "الشعب" (٧٦٣١) عن معاذ بن أنس الجهنى رضى الله عنه. وضعف إسناده محققو المسند (٢٤/٤٠٦،٤٠٧) حديث رقم (١٥٦٤٩). وصحح إسناده الشيخ الألبانى فى "صحيح أبى داود" (٤٠٨٦). وقد ذكر الإمام البنا الحديث بلفظ: يغتابه، بدل يعيبه، وبلفظ: يريد سبه، بدل يريد شينه، وهى رواية الطبرانى وليس أحمد، وقد صوبتهما من مصادر الحديث.

[طريق التوبة من الظن والتجسُّس والغيبة]

وطريق التوبة من الظن: الكفُّ عنه. ومن التجسُّس: الكفُّ عنه وطلب السماح ممن تجسَّس عليهم - إن لم ينجم عن ذلك شر وخصومة - والاستغفار لهم، وهو طريق التوبة من الغيبة.

وقال بعض العلماء: إن من طرق التوبة من الغيبة: أن يكثر من الثناء على إخوانه الذين اغتابهم في المجالس التي كان يغتابهم فيها، وأن يردَّ غيبتهم، وينتصر لهم، فتكون هذه بتلك، وكلها من غير شك طرق توصل إلى التوبة النصوح، وإذا صدق العزم وضح السبيل.

*****

[التقوى معيار التفضيل عند الله][1]

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [الحجرات : ١٣] .

[سبب النزول]

قال مقاتل: لما كان يوم فتح مكة أمر رسول الله ﷺ بلالاً حتى علا ظهر الكعبة وأذن، فقال عتاب بن أسيد بن أبى العيص: الحمد لله الذى قبض أبى حتى لم ير هذا اليوم. وقال الحارث بن هشام: أما وجد محمد غير هذا الغراب الأسود مؤذنًا! وقال سهيل بن عمرو: إن يرد الله شيئًا يغيره. وقال أبو سفيان: إنى لا أقول شيئًا أخاف أن يخبر به رب السماء، فأتى جبريل فأخبر رسول الله ﷺ بما قالوا، فدعاهم وسألهم عما قالوا، فأقروا، فأنزل الله تعالى هذه الآية، وزجرهم عن التفاخر بالأنساب والتكاثر بالأموال والازدراء بالفقراء[2].

[معانى الكلمات]

خلقناكم من ذكر وأنثى: من آدم وحواء فالبشر جميعا متساوون بأصل الخلقة. وقديما قيل:

الناس من جهة التمثيل أكفاء ... أبوهم آدم والأم حواء

فإن يكن لهمو من أصلهم شرف ... يفاخرون به فالطين والماء

والشَّعْبُ بفتح الشين: القبيلة الرئيسية كربيعة ومضر. وفى العرف الحالى: الأمة والجماعة.

والقبائل: دون الشعوب كبكر من ربيعة، وتميم من مضر، ودون القبائل العمائر، واحدتها عمارة ـ بفتح العين ـ كشيبان من بكر، ودون العمائر البطون، واحدتها بطن،

---

(١) نشرت فى مجلة (جريدة الإخوان المسلمين) الاسبوعية فى العدد (١٥) من السنة الثالثة الصادر فى ٢٢ من ربيع الآخر سنة ١٣٥٤هـ ـ ٢٣ من يوليو سنة ١٩٣٥م.

(٢) انظر: تفسير البغوى (٧/ ٣٤٧).

كبنى غالب ولؤى من قريش، ودون البطون الأفخاذ، واحدتها فخذ، كبنى هاشم وأمية من بنى لؤى، ثم الفصائل والعشائر واحدتها فصيلة وعشيرة.

وقيل: الشعوب من العجم، والقبائل من العرب، والأسباط من بنى إسرائيل، وهو تقسيم تواضعى، وعلى كلٌ فالمراد من ذكر القبائل والشعوب فى الآية الكريمة: التنبيه على أن حكمة الأنساب التعارف فحسب، ليس التفاخر ولا التكاثر ولا التعاظم، فإنما الفخر والشرف بشىء واحد: تقوى الله وأداء الواجبات والحقوق.

[موقف الإسلام من الطبقية]

وقد وضعت هذه الآية الكريمة أساس المساواة بين البشر جميعا قبل أن يتشدق بها المتشدِّقون من علماء الاجتماع، وما زالت الأمم تخضع لنظام الطبقات، وتفرِّق بين الأفراد على غير أساس إلا أساس التوارث والعصبية الباطلة، حتى جاء الإسلام بدستوره العادل القويم، فصدَعَ هذه النظم، وقضى على تلك الفوارق.

كان نظام الطبقات معمولاً به فى الأمة اليونانية فى أوْجِ حضارتها وهى أمة الفلسفة والنور، وفى الأمة الرومانية وهى أمة القوانين وتقرير الحقوق، وفى الأمة الفارسية وهى أمة الحضارة العريقة، بل إنك لترى الأمم الحديثة تسير عليه وتأخذ به، وهذه فرنسا تعتبر اليوم الذى هدمت فيه نظام الطبقات والتفريق بين أبناء الأمة الواحدة على غير أساس، حتى أعلنت تلك الحقوق التى سموها حقوق الإنسان عيداً للحرية ومبدأ للمساواة، على حين هدم الإسلام هذه النظم وقضى عليها، وقرَّر حقوق الإنسان وواجباته منذ بعثة رسول الله ﷺ.

والمساواة المطلقة خيالٌ لا يتحقَّق، وأمرٌ لا يمكن أن يؤدى إلى خير البشرية إن وصل الناس إليه، فلا بد من التفاوت بين الخلق، ولا بد أن يكون هذا التفاوت على أساس صحيح من التفوق فى خدمة الإنسانية وأداء الحقوق.

ففى الوقت الذى وضع الإسلام فيه أساس المساواة بين الناس بأصل الخلقة فى الآية الكريمة، وبين أن أساس التفاوت تقوى الله، أشار كذلك إلى ضرورة هذا التفاوت فى قوله تعالى ﴿ **نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ**

لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [الزخرف: ٣٢]، ومن هنا تعلم أن الذين ينادون بالمساواة المطلقة، كالبلاشفة والشيوعيين وأضرابهم خاطئون خيالييون، كما أن الذين يتمسكون بنظام الطبقات على غير أساس، كالبراهمة وأضرابهم ظالمون معتدون، وأفضل النظم ما قرره الله لعباده وأوصى به الإسلام الحكيم.

موقف الرسول من المساواة

ولقد أيد الرسول ﷺ هذا المبدأ القويم في عدة أحاديث من أحاديثه الشريفة نورد لك طرفًا منها:

١- روى الترمذي بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: "تعلموا من أنسابكم ما تصلون به أرحامكم، فإن صلة الرحم محبة في الأهل، مثراة في المال، منسأة في الأثر"(١) ألا ترى أنه ﷺ في هذا الحديث نبه على حكمة الأنساب، وأنها إنما تعرف للتواصل والتراحم والتعارف، لا للتفاخر والتكاثر والتجبر(٢).

٢- وروى الإمام أحمد بسنده عن أبي ذر رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال له: "انظر، فإنك لست بخير من أحمر ولا أسود، إلا أن تفضله بتقوى الله"(٣).

٣- وروى الطبراني بسنده عن محمد بن حبيب بن خراش العصري يحدث عن أبيه

---

(١) رواه أحمد (٢/ ٣٧٤) والترمذي (١٩٧٩) وقال: حديث غريب، والحاكم (٤/ ١٧٨) وصححه، والطبراني في "الأوسط" (٨٣٠٨) وفي "الكبير" (١٨/ ٩٨) وابن أبي الدنيا في "مكارم الأخلاق" (٢٥٦) ص ١٨١ عن أبي هريرة رضي الله عنه. وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير برقم (٢٩٦٥). ومعنى منسأة في الأثر: أي زيادة في العمر، وقلت بأن يبارك الله فيه.

(٢) في هذا الحديث توجيه مهم للمسلمين وهو: بيان فائدة معرفة الأنساب، وأنها تصل الأرحام، وتصل ماضي الأمة بحاضرها، وهذا ما امتازت به أمة الإسلام من بين سائر الأمم، فهي أمة تميزت بأنها أمة الإسناد، فقل أن تجد عالمًا يحدث بحديث عن رسول الله ﷺ دون أن يسوق السند، ويعين أخذ العلم من الشيوخ ومن أجازه منهم. ولكن انقطعت صلة الأمة الآن بالإسناد، بل رأينا بدعة جديدة يراد لها أن تنتشر وهي: بدعة اختصار الاسم إلى ثلاثي، حتى قل فينا من يعرف اسمه رباعيًا أو خماسيًا، فضلا عمن يعرف بقية نسبه!

(٣) رواه أحمد (٥/ ١٥٨) عن أبي ذر رضي الله عنه، وقال محققو المسند: صحيح لغيره، انظر: "المسند" (٣٥/ ٣٢٩) برقم (٢١٤٠٧)، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير (١٥٠٥).

رضى الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: "المسلمون إخوة، لا فضل لاحد على احد إلا بالتقوى"(١).

٤- وروى البزار في مسنده عن حذيفة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "كلكم بنو آدم وآدم خُلِقَ من تراب، ولينتهينَّ قوم يفخرون بآبائهم، أو ليكوننَّ أهون على الله تعالى من الجُعْلان"(٢).

٥- وروى ابن أبى حاتم بسنده عن عمر رضى الله عنه قال: طاف رسول الله ﷺ يوم فتح مكة على ناقته القَصْوَاء يستلم الاركان بمحجن فى يده، فما وجد لها مَنَاخًا فى المسجد حتى نزل على أيدى الرجال، فخرج بها إلى بطن المسيل فأُنيخت، ثم إنَّ رسول الله ﷺ خطبهم على راحلته، فحمد الله وأثنى عليه بما هو له أهل، ثم قال: "أيها الناس: إنَّ الله تعالى قد أذهب عنكم عُبِّيَة الجاهلية(٣) وتعظُّمها بآبائها، فالناس رجلان: رجل بَرٌّ تقى كريم على الله تعالى، ورجل فاجر شقى هَيِّنٌ على الله تعالى. إنَّ الله عز وجل يقول: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [الحجرات: ١٣]، ثم قال ﷺ: أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم(٤).

[لطيفة اجتماعية]

وفى تغيير النداء فى الآية الكريمة من الأسلوب السابق: (يا أيها الذين آمنوا) إلى

---

(١) رواه الطبرانى فى "الكبير" (٤/ ٢٥) وقال الهيثمى: فيه عبد الحميد بن عمرو بن حبلة وهو متروك. انظر: مجمع الزوائد (٨/ ٨٧) وقال الألبانى: موضوع. انظر: ضعيف الجامع الصغير (٥٩٣٤) وقد ورد معناه فى أحاديث أخرى صحيحة. وفى قوله تعالى: ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [الحجرات: ١٣].

(٢) رواه أحمد (٣/ ٤٧، ٣٣٣) وأبو داود (٥١١٦) والبيهقى فى "السنن" (١٥/ ٣٤٧) وفى "الشعب" (٥١٢٦) و(٥١٢٧) والبزار. وقال الهيثمى: فيه الحسن بن الحسين العرنى وهو ضعيف. انظر: مجمع الزوائد (٨/ ٨٩) وصححه الألبانى فى صحيح الجامع الصغير برقم (٤٥٦٨).

(٣) عبية: أى كِبْر وتجبُّر، وعبية الجاهلية: نخوتها.

(٤) رواه ابن أبى حاتم بسنده (١٠/ ٣٣٠٦) الاثر رقم (١٨٦٢٢) وقال محققا "زاد المعاد": فى سنده موسى بن عبيدة الربذى وهو ضعيف ولا سيما فى عبد الله بن دينار، وهذا الحديث رواه عنه، ولكن يشهد له حديث أبى هريرة بنحوه عند أحمد (٢/ ٣٦١) وأبى داود (٥١١٦) وهو حسن. انظر: "زاد المعاد" (٣/ ٤٠٨) طبعة الرسالة.

هذا الأسلوب: (يا أيها الناس) لطيفة اجتماعية، فيها إشارة إلى ان هذه المساواة تنتظم الناس جميعًا، فهي بمثابة إعلان للوحدة الإنسانية، وقد استدل بهذه الآية الكريمة وما أوردنا ذلك من الأحاديث الشريفة من ذهب من العلماء إلى أن الكفاءة في النسب لا تشترط في الزواج، ولا يشترط سوى الدين، لقوله تعالى: (إن أكرمكم عند الله أتقاكم)[1].

فانظر كيف كان من المقررات الإسلامية ما يعتبره علماء الاجتماع الآن من مفاخر المدنية العصرية، ولقد علم المسلمون لو يتعلمون.

*****

[بين الإيمان والإسلام](1)

﴿ قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِن تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (14) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ [الحجرات : ١٤، ١٥] .

[معاني الكلمات]

لا يَلِتْكُم: أى لا ينقصكم من أجور أعمالكم شيئًا .

لم يرتابوا: أى لم يشكوا ولم يتطرَّق إلى قلوبهم وَهْنٌ أو ضعف .

[سبب النزول]

قال البغوىُّ : نزلت الآية فى نفرٍ من بنى أسد بن خزيمة قدموا على رسول الله ﷺ فى سنة جدبة، فأظهروا الإسلام ولم يكونوا مؤمنين فى السر، فأفسدوا طرق المدينة بالعذرات(٢)، وأغلوا أسعارها، وكانوا يغدون ويروحون إلى النبىّ ﷺ ، ويقولون : أتتك العرب بأنفسها على ظهور رواحلها، وجئناك بالأثقال والعيال والذرارى، ولم نقاتلك كما قاتلتك بنو فلان وبنو فلان، يَمُنُّون على النبى ﷺ ، ويريدون الصدقة ويقولون : أعطنا، فأنزل الله تعالى فيهم هذه الآية. كذا قال(٣) .

ولعل ذلك كان سببًا فى نزول الآية التالية وهى قوله تعالى : (يمنون عليك أن أسلموا) .

---

(١) نشرت فى مجلة (جريدة الإخوان المسلمين) الأسبوعية فى العدد (١٦) من السنة الثالثة الصادر فى ٢٩ من ربيع الآخر سنة ١٣٥٤هـ ـ ٣٠ من يوليو سنة ١٩٣٥م .

(٢) كتبها الإمام فى المقال (القاذورات) والتصحيح من تفسير البغوى. والعذرات : جمع عذرة وهى الغائط، ويقصد بها أيضا فناء الدار انظر : المعجم الوسيط (٢ / ٥٩٠) ومختار الصحاح ص ٤٢٠ .

(٣) انظر تفسير البغوى (٧ / ٣٤٩) .

وقال السدى: نزلت في الأعراب الذين ذكرهم الله في سورة الفتح، وهم أعراب من جُهينة ومُزينة وأسلم وأشجع وغفار، كانوا يقولون: آمنا ليأمَنُوا على أنفسهم وأموالهم، فلما استُنفروا إلى الحديبية تخلَّفوا، فأنزل الله عز وجل فيهم هذه الآية: (قالت الأعراب آمنا)[1]. ولعلَّ هذا هو أولى الأقوال بالصواب لمَا بين السورتين: الفتح والحجرات من رابطة في الترتيب المعنوى والوضعى، والله أعلم.

[شرح الآيتين]

وفى الآية بحثان جديران بالعناية وإنعام النظر.

أولهما: بيان حقيقة الإيمان وآثاره.

وثانيهما: التفرقة بينه وبين مجرَّد الإسلام.

[حقيقة الإيمان ودرجات الناس فيه]

فاعلم - يا أخى - أن الإيمان عقيدة قلبية تخالط القلب، وتستولى على النفس، وتتملك الفؤاد، فترى المؤمن ذاكراً لعقيدته، فانيًا فيها، مضحيًا فى سبيلها، يراها فى حلمه ويقظته وغدوِّه ورواحه؛ لأنها ملكت عليه نفسه، واستولت على مواطن حسِّه.

والناس فى الإيمان متفاوتون مختلفون درجات بعضها فوق بعض، فأنت مصدق بشىء وسمعت عنه، فإذا قرأتَ عنه بعد ذلك زاد إيمانك به وتصديقك فيه، فإذا رأيت صورته ثبت هذا الإيمان فى قلبك، فإذا رأيته رأى العين؛ وفتشت فيه؛ وعرفت ظاهره؛ وخافيه انتهيت إلى درجة من الإيمان لا تقبل شكًّا ولا يتطرَّق إليها وهن.

كذلك إيمان المؤمن بالله تبارك وتعالى تتفاوت درجاته وتتباين منازله، فمن الناس من يَدَّعُون الإيمان وهم فى هذه الدعوى كاذبون كالذين قال الله فيهم: ﴿ **وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ (٨) يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ** ﴾ [البقرة: ٨، ٩].

ومنهم: من يؤمن فى الرخاء حتى إذا عَضَّتْهُ الشدة بأنيابها انقلب على عقبه وكفر

(١) المصدر السابق (٧/ ٣٥٠).

بنعمة ربه، كالذين قال الله فيهم: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴾ [الحج: ١١].

ومنهم: من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه، فلا يظهر كلمة الإيمان وقلبه منها خواء، كأولئك الأعراب الذين عرضت لهم الآية الكريمة، ومن المؤمنين قومٌ اطمأنت بالإيمان قلوبهم، وأخبتت له أرواحهم، فهم به سعداء وعليه حريصون، أولئك الذين قال فيهم: ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ [الأنعام: ٨٢].

[أثر الإيمان في الفرد]

وإذا وَصَل الإيمان إلى مثل هذه الدرجة السامية، واحتلَّ من القلب مكانًا رفيعًا أنتج أروع الآثار، ولم يكن عاطفةً خامدةً، بل بنور النفس سائرها، فتبدو على الجوارح آثاره أوضح من الصبح، وأضوأ من النور، وأحلى من غرة النهار، وشرحُ ذلك يطول، وإنما نلمُّ من ذلك بطرف ليكون تبصرة للمؤمن، وتذكرة للمخدوعين، وحسرةً على المجرمين.

من آثار الإيمان: حبٌّ يَسْتروح معه المؤمن السعادة الكاملة والنعيم المقيم، والله تبارك وتعالى يقول: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾ [البقرة: ١٦٥].

ومن آثار الإيمان: سعادة دائمة، وراحة قلبية، واطمئنان نفسي لا يجد المؤمن معه مسَّ الشقاء، ولو عُذّب بجميع ما عَرف الناس من أنواع العذاب ما سلمت له عقيدته واطمأن إليها قلبه، كالذين حدثوا أن بعضهم خاصم زوجته المؤمنة فكان فيما قال لها: والله لأشقينَّك. فابتسمت، وقالت: إنك لا تستطيع ذلك، فقال: ولِمَ؟ فقالت: لأن سعادتي في إيماني، وإيماني في قلبي، وقلبي لا سلطان لأحد عليه، فَسُرِّي عنه وهَشَّ لها وابتسم. وهم يقولون: إن ذلك مما وقع لعمر بن الخطاب رضي الله عنه مع زوجه أم كلثوم بنت علي رضي الله عنهم أجمعين، والله أعلم حيث يجعل رسالته.

وقد علمت نبأ ذلك الشيخ الذى طال به السجن فى سبيل إيمانه[1] فأخذ تلامذته يعزُّونه، ويتلمَّسون له سبيل النجاة، فكان فيما قال لهم: إن حبسى خلوة، وقتلى شهادة، ونفيى سياحة، وكل ذلك بأجره، ولو ملأتُ لهم قلعتهم هذه ذهبًا ما كافأتهم على ما ساقوا إلىَّ من ثواب الله، وإن جنَّتى وبستانى فى صدرى.

الله أكبر، أرأيت يا أخى كيف يُحيل الإيمان المصائب المنكبات نعمًا سابغات؟ وكيف يصير الهموم الراسيات لذائذ مفرحات، وصدق رسول الله الذى يقول ما معناه: "عجبت لأمر المؤمن، إن أمره كله خير، إن أصابته النعماء شكر، وإن مسته الضراء صبر"[2].

وهذا أبو القاسم الجُنَيْد[3] يقول: نحن من إيماننا بالله ومعرفتنا إياه فى لذة لو عرفها ملوك الدنيا لقاتلونا عليها بالسيوف.

ومن آثار الإيمان: عِزَّة سابقة تجعل المؤمن عزيزاً بربه، عظيما فى نفسه، لا يرى أحداً أعزَّ منه، إذ يستمد عزَّته من الله لا من أحد من خلقه، وإذ يدوى فى نفسه صدى الآية الكريمة: ﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾ [البقرة: ٢٥٧]، إلى جانب الآية الكريمة: ﴿ الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾ [النساء: ١٣٩]، إلى جانب قوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَعْلَمُونَ ﴾ [المنافقون: ٨].

---

(١) هو شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، وقد نقل هذا الموقف عنه تلميذه الإمام ابن القيم فى كتابه (الوابل الصيب) ص ٢٢ نقلا عن كتاب: ابن تيمية للعلامة أبى الحسن الندوى.

(٢) رواه أحمد (٥ / ٤٣٦، ٤٣٧) و (٧ / ٢٦، ٢٧) ومسلم (٢٩٩٩) وابن حبان (٢٨٩٦) والبيهقى فى "الشعب" (٤٤٨٧) و (٩٩٤٩) عن صهيب الرومى رضى الله عنه. وقد ذكر الإمام الشهيد الحديث بمعناه، ولفظه: "عجبا لأمر المؤمن، إن أمره كله له خير وليس ذاك إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر، وإن أصابته ضراء صبر". وقد تقدم تخريجه.

(٣) هو أبو القاسم الجنيد بن محمد الخزاز، وكان أبوه يبيع الزجاج، فلذلك كان يقال له: القواريرى. أصله من "نهاوند"، ومولده ومنشؤه بالعراق. كان فقيها، تفقه على أبى ثور، وكان يفتى فى حلقته، من أئمة الصوفية المعتدلين، مقبول على جميع الألسنة، وقد تحدث عنه ابن تيمية وغيره كثيرا مزكيا علمه ومنهجه. انظر: طبقات الصوفية ص ٣٦.

ومن آثار الإيمان: شجاعة تتضاءل أمامها الجحافل، وتنطوى أمام قوتها الجبابرة، وتذلُّ لها النكبات والمشاق والصعاب والعقبات: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (١٧٣) فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٧٣، ١٧٤].

وبعد؛ فمن آثار الإيمان بعد ما علمت: جهادٌ فى سبيل الله بالنفس إلى آخر قطرة من دمها، وبالمال إلى آخر درهم منه: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾ [التوبة: ١١١]

ولما كان هذا الأثر الأخير يعتبر النتيجة الطبيعية والعملية للآثار السابقة من الحب والسعادة والعزة والشجاعة ذكره الله تبارك وتعالى ونوَّه به، واكتفى بذكره فى الآية الكريمة: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحجرات: ١٥].

وأمامك آيات القرآن وأحاديث الرسول العظيم ﷺ تجد فيها ما تَدْهَش له من تحصيل حقيقة الإيمان وبيان آثاره وتربية النفوس عليه، فَرَوِّض نفسك بها حتى تكون من الصادقين.

[الفرق بين الإيمان والإسلام]

هذا بحث، وأما البحث الثانى وهو الذى عرضت له الآية الأولى، فقد طال فيه الجدل بين علماء الكلام، وكلٌّ يؤيِّد مذهبه بحججه، ولسنا نفيض فى هذا...

وإن هى إلا تعبيرات تختلف قوةً وضعفًا باختلاف القوم وأحوال الناس ودرجاتهم، فقد جعل القرآن الإسلام أقل درجة من الإيمان فى الآية الكريمة، كما أشار إلى ذلك الرسول ﷺ فى حديث سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه.

فقد روى الإمام أحمد وغيره بسنده عن سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه قال: "أعْطَى رسول الله ﷺ رجالاً ولم يُعْط رجلاً منهم شيئًا، فقال سعد رضى الله عنه: يا رسول الله أعطيت فلانًا وفلانًا ولم تعط فلانًا شيئًا وهو مؤمن! فقال النبى ﷺ: أو

مسلم - حتى أعادها سعد رضي الله عنه ثلاثا، والنبيُّ ﷺ يقول: أو مسلم - ثم قال النبي ﷺ: إني لأعطي رجالاً وأدع من هو أحب إليَّ منهم فلم أعطه شيئا مخافة أن يُكَبُّوا في النار على وجوههم . وقد أخرجاه في الصحيحين[1].

فها أنت ترى الرسول ﷺ فرَّق بين المؤمن والمسلم، وقد يقول قائل: إن مقتضى هذا الحديث أن يكون الإسلام أرفع درجة من الإيمان، لأن الرسول ﷺ وَكَلَ الرجل إلى إسلامه فلم يعطه شيئًا وهو مطمئن عليه.

وقد يجاب على هذا: بأن المقصود التفريق بين الإيمان والإسلام وكل ما يستفاد بعد ذلك هو: أن المسلم على درجة من الخير تعصمه من الانتقاض والهلاك، ومهما يكن من شيء فهاأنت قد رأيت أن ثَمَّ تفريقًا بين الإيمان والإسلام، مع وضوح الإشادة بدرجة الإيمان وبيان أنها أعلى من أختها.

وفي موضع آخر سوَّى القرآن بينهما فقال تبارك وتعالى: ﴿ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ۝ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [الذاريات: ٣٥، ٣٦]، وفي موضع ثالث ذكر الإسلام وحده في موضع لا ينفع فيه إلا كمال الإيمان، فقال تبارك وتعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، كما أن الإسلام كان الدين الذى ورثناه عن إبراهيم وامتن الله علينا بهذه الوراثة، وهو الكلمة التي وصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب ﴿ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [البقرة: ١٣٢]، ومن ذلك تعلم أن هذا خلاف لفظي خير للمؤمنين أن يدعوه جانبا، وأن ينصرفوا إلى تكميل إيمانهم وتحقيق آثاره فيهم، والله وليُّ التوفيق.

*****

---

(١) رواه أحمد (١ / ٢٨٧) والبخاري (٢٧) و (١٤٧٨) ومسلم (١٥٠) والنسائي في "المجتبى" (٤٩٩٢) وأبو داود (٤٦٨٣) و (٤٦٨٥) والنسائي في "الكبرى" (١١٧٢٣) والبزار (١٠٨٧) عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه.

[الإيمان من أعظم نعم الله على الناس](1)

﴿قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (16) يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (17) إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الحجرات: ١٦-١٨].

[سبب النزول]

روى الحافظ أبو بكر البزَّار بسنده عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: جاءت بنو أسد إلى رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله أسلمنا وقاتلتك العرب ولم نقاتلك، فقال رسول الله ﷺ: "إن فقههم قليل، وإنَّ الشيطان ينطق على ألسنتهم" فنزلت هذه الآية: (يمنون عليك أن أسلموا)(2).

[شرح الآيات]

لما بيَّن القرآن الكريم صفات المؤمنين الصادقين فى الآية الكريمة السابقة ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الحجرات: ١٥] أخذ يبيِّن بعض أعراض الإيمان الضعيف، فذكر من هذه الأعراض أمرين تلاحظهما فى كل شخص ضعف إيمانه ولانت عقيدته. أما أولهما: فالتظاهر بالإيمان. وأما ثانيهما: فالمنُّ به والتحدُّث بسابقة فيه.

إنَّ المؤمنَ القوىَّ العقيدة، الثابتَ الإيمان فى غنى عن هذين المظهرين بما تشعر به من اطمئنان إلى عقيدته، وقوة فى يقينه، فهو يعمل ولا يرى داعيًا يدعوه إلى أن يتكلم أو يمتدح بما عمل، وهو إلى جانب هذا يعلم أنه كله لله فلا شيء له، ففيم الامتنان بعد هذا؟!

---

(١) نشرت فى مجلة (جريدة الإخوان المسلمين) الأسبوعية فى العدد (١٧) من السنة الثالثة الصادر فى ٧ من جمادى الأولى سنة ١٣٥٤هـ-٦ من أغسطس سنة ١٩٣٥م.

(٢) رواه النسائى فى "الكبرى" (١١٥١٩) بلفظه، وأبو يعلى (٢٣٦٣) وقال محققه: رجاله رجال الصحيح. والطبرانى فى "الأوسط" (٧٢٥٦) بدون ذكر لنزول الآية. عن ابن عباس رضى الله عنهما.

كان رسول الله ﷺ يقول في أبي بكر ما معناه: "إن من أمنّ الناس عليّ في صحبته(١) وماله أبو بكر، وما دعوت أحدًا إلى الإسلام إلا كانت له كبوة إلا أبا بكر بن أبي قحافة" أتدري ما موقف أبي بكر من هذا الإطراء؟ إنه كان يبكي ويقول: بأبي وأمي يا رسول الله، وهل أنفسنا وأموالنا إلا ملك يمينك؟!(٢)

ولقد قال النبي ﷺ للأنصار يوم حنين: "يا معشر الأنصار ألم أجدكم ضلالًا فهداكم الله بي، وكنتم متفرقين فألفكم الله بي، وكنتم عالة فأغناكم الله بي" وكلما قال شيئًا قال الأنصار: الله ورسوله أمنّ(٣).

وهؤلاء هم الذين آووا ونصروا وآثروا على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة، وخلد الله ذكرهم في كتابه الكريم، أفبعد هذا يكون لأحد منّة؟!

وأنت إذا حققت النظر وجدت أنك أنت نفسك لا شيء لك، وكلك لله يتصرف فيك، أفأنت عبده وهو سيدك؟ وأليس له سبحانه حق التصرف المطلق في ملكه ما شاء يفعل؟ فهو المختار لك لتكون مؤمنًا به، داعيًا لدينه، مثابًا على دعوته، وتأمل قوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ۝ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً﴾ [الحجرات: ٧، ٨] أفترى لنفسك في هذا شيئًا؟!

ويقول العارف(٤): حسبك من ثوابك على الطاعة أن رضيك مولاك لها أهلًا ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ﴾ [القصص: ٦٨]. فهذا الذي ذكرت لك من علامات الإيمان الصادق.

ضعف، ويتظاهر بعمله يريد أن يُقنع الناس بهذا التظاهر، وهو إن كان يحاول بها إقناع الناس فهو خاطئ، لأن الناس لا يغنون عنه من الله شيئًا، وإن كان يحاول بهذا إظهار الله تبارك وتعالى على إيمانه؛ فإن الله يعلم السرَّ وأخفى، فلا داعي إلى ذكر هذا الإيمان والمنّة به، لهذا قال الله تبارك وتعالى في ختام هذه السورة الكريمة: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الحجرات: ١٨].

واعلم -يا أخي-: أن ذلك أدب قويم من الآداب النفسية ختم الله به السورة الكريمة، فبعد أن كانت السورة كلها آدابًا تعاملية، وآدابًا عملية تؤدى بين الناس بعضهم وبعض بالجوارح والصور، انتقل إلى معاملة الناس لمولاهم، وبيّن أنها بالقلوب والعواطف المغيبة والضمائر المحجبة، وأن قوامها -إن كان صاحبها يريد الوصول إلى رضوان الله-: شهود المنّة لله تبارك وتعالى في كل شيء، وصدق العبودية، وكمال الأدب مع الحق تبارك وتعالى؛ مع دوام المراقبة.

[آداب حوتها السورة الكريمة]

أفرأيت -يا أخي- كيف جمعت هذه السورة الكريمة عدة أنماط من التربية العالية والأدب الكريم؟ جمعت أدب الحديث، وأدب المرؤوس والرئيس، وأدب المؤاخاة والصلة في حالتي الرضا والغضب، وكيف يتصرف الإنسان في الوشاية إذا بلغته؟ وفي العدوان إذا انتُدب لرده؟ وأدب احترام الناس والمحافظة على كرامتهم، وأدب المواساة بين الخلق، وأدب الإيمان بالله والتصديق به، وحسن معاملته.

وكذلك القرآن الكريم ينبوع الفضائل والحكم، ومعدن الخلائق الغر، فتمسّك به تكن من الفائزين: ﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٠].

*****

من الأدب العالي:

ســــــورة المجادلة

[رعاية الإسلام للأسرة المسلمة][1]

﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ① الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَائِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ② وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا ذَلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ③ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [المجادلة : ١-٤] .

[سبب نزول الآيات]

المرأة التى جادلت رسول الله ﷺ فى زوجها هى : خولة بنت ثعلبة[2]، وزوجها : أوس بن الصامت أخو عبادة بن الصامت . وقد كان بينهما شىء فغضب وظاهر منها . ثم

---

(١) نشرت فى مجلة (جريدة الإخوان المسلمين) الأسبوعية فى العدد (١٩) من السنة الثالثة الصادر فى ٢١ من جمادى الأولى سنة ١٣٥٤هـ - ٢٠ من اغسطس سنة ١٩٣٥م . ولم يذكر الإمام البنا هنا المناسبة بين سورتى الحديد والمجادلة كما ذكر فى سورة الحجرات، ونذكر هنا المناسبة إتماما للفائدة :

ختم الله سورة الحديد ببيان ابتداع بعض المتعبدين من الرهبانية بما لم يصرح لهم بالإذن فيه، فكان سببا للتضييع، وبدأت سورة المجادلة بالحديث عن الظهار، وكان الظهار على نوعين : مؤقت ومطلق، وكان المؤقت مما يدخل فى الرهبانية لأنه من التبتل وتحريم ما أحل الله الطيبات . كما بدأت سورة الحديد ببيان الحديث عن صفات الله تعالى الجليلة، ومنها الظاهر والباطن وبيان معرفته بما فى كونه : ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الحديد : ٤] . وكذلك بينت سورة المجادلة نفس الصفات ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِن ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [المجادلة : ٧] . ومن أسماء سورة المجادلة أيضا : سورة (قد سمع) وسورة (الظهار) . انظر : نظم الدرر للبقاعى (١٩ / ٣٣٢) والأساس فى التفسير لسعيد حوى (١٠ / ٥٧٧٧) .

(٢) اختلف أهل العلم فيمن حاورت النبى ﷺ فى شأن الظهار، فقال بعضهم : خولة بنت ثعلبة، وقال بعضهم : خويلة بنت ثعلبة، وقال آخرون : خويلة بنت خويلد ، وقال آخرون : خويلة بنت الصامت، وقال آخرون خويلة ابنة الدليج . انظر : تفسير الطبرى (١٢ / ٣) .

ندم على ما قال. وكان الظهار والإيلاء من طلاق الجاهلية، وذلك أول ظهار وقع فى الإسلام. ثم ندم على ذلك ومنعته نفسها حتى يحكم الله ورسوله فيهما بحكمه، وتَحَرَّج هو فقال لها: ما أظنك إلا قد حَرُمْتِ عليَّ. فجمعت عليها ثيابها وأتت رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله إنَّ زوجى أوس بن الصامت تزوجنى وأنا شابَّةٌ غنيَّة ذات مال وأهل، حتى إذا أكل مالى، وأفنى شبابى، وتفرَّق أهلى، وكبر سنى: ظاهرنى وقد ندم، فهل من شيء يجمعنى وإياه تُنَفِّسنى به؟ فقال رسول الله ﷺ: حَرُمْت عليه. فقالت: يا رسول الله والذى أنزل عليك الكتاب ما ذكر طلاقًا، وإنه أبو ولدى وأحب الناس إليَّ. فقال رسول الله ﷺ: حَرُمْتِ عليه. فقالت: أشكو إلى الله فاقتى ووحدتى، قد طالت صحبتى، ونفضت له بطنى. فقال رسول الله ﷺ: ما أراك إلا قد حَرُمْت عليه ولم أومر فى شأنك بشيء. فجعلت تراجع رسول الله ﷺ وكلما قال لها: حَرُمْت عليه، هتفت وقالت: أشكو إلى الله فاقتى وشدة حالى. وإنَّ لى صبيةً صغاراً إنْ ضممتهم إليه ضاعوا، وإن ضممتهم إليَّ جاعوا، وجعلت ترفع رأسها إلى السماء وتقول: اللهم إنى أشكو إليك. اللهم فأنزل على لسان نبيِّك فَرَجِى. فأنزل الله الآيات الكريمة: (قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها وتشتكى إلى الله) الآيات[1].

فَعُلم من هذا سبب نزول الآية الكريمة، وإليك بعض ما فيها من عظيم الفوائد، ونبيل المقاصد، وجليل العبر والعظات:

[مكانة المرأة فى الإسلام]

١ـ فى الآية إشادة بمنزلة المرأة فى الإسلام، وكيف أنها كانت من عظيم المنزلة، وشرف القدر ما يجعلها تقف أمام رسول الله ﷺ تجادله وتحاوره وتبادله الحجة بالحجة، حتى إن القرآن يستدل فى شأنها، ويستجيب الحق لندائها، وتكون قضيتها صدر سورة من كتاب الله خالدة ما بقيت السماوات والأرض، رضى الله عن أم المؤمنين عائشة إذ

---

(١) رواه أحمد (٧/ ٥٦٠) وأبو داود (٢٢١٤) وابن حبان (٤٢٧٩) والبيهقى فى "السنن" (١١/ ٣٢٠) والطبرانى فى "الكبير" (١/ ٢٢٥) و(٢٤/ ٢٤٧) عن خولة بنت ثعلب رضى الله عنها. والبيهقى فى "السنن" (١١/ ٣٠٩) والطبرانى فى "الكبير" (١١/ ٢١١) عن ابن عباس رضى الله عنهما. وحسنه الشيخ الألبانى فى "صحيح سنن أبى داود" برقم (١٩٣٤).

تقول: "الحمد لله الذى وسع سمعه الاصوات، لقد جاءت المُجَادلة إلى النبى ﷺ وأنا فى ناحية البيت ما أسمع ما تقول، فأنزل الله عز وجل: (قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها) الآية[(١)].

[أخلاق المرأة المسلمة ودورها تجاه أسرتها]

٢- وفى الآية كذلك بيان لما جُبِلَت عليه المرأةُ المسلمة من شريف الخلال، ونبيل الخصَال، وكريم الأخلاق، فانت تراها فى هذه القصة: مؤمنة تقية قوية الإيمان، عظيمة التقوى لله، تمنع نفسها زوجها حتى تعلم حكم الله ورسوله، وتلجأ إلى الله وحده فى حرارة ورجاء أمل؛ تسأله أن ينزل تفريج كربها على لسان نبيه ﷺ.

وتراها فقيهة ذكية الفؤاد تقرع الحجة بالحجة والدليل بالدليل. وتراها وَفِيَّة لزوجها، أمينة على صحبته، حفيظة على حقوق عشرته، وتراها مربية فاضلة تقدر حياة الأسرة قدرها وتحافظ على كيانها، وتعلم أن الأسرة المبتورة لا خير فيها، وأن أبناءها إن ضمتهم إلى أبيهم دونها ضاعوا؛ إذ فقدوا المربى الأول وهو الام، وإن ضمتهم إليها دونه جاعوا؛ إذ فقدوا العائل القوى، فما أفضله إدراكًا لمهمة كل ركن من رُكْنَيْ الأسرة، وتحديد الحقوق وواجباته فى إجمال وإيجاز.

[من أحكام الظهار]

٣- وفى الآية بعد ذلك أحكام الظهار وإليك مجملها.

[تعريف الظهار]

أ - الظهار: أن يقول الرجل لزوجته: أنت علىَّ كظهر أمى، يقصد بذلك أنها محرمة عليه كتحريم أمه، ولا يقصد بذلك الطلاق بل التحريم كتحريم من شبه بها فى ظهاره. ومثل الأم فى ذلك بقية المحارم على التأبيد كالأخت والعمة والخالة. وكذلك إذا قال لها:

---

(١) رواه النسائى فى "المجتبى" (٣٤٦٠) وابن ماجه (١٨٨) و (٢٠٦٣) والحاكم (٢/ ٥٢٣) وابو يعلى (٤٧٨٠) والبيهقى فى "السنن" (١١ /٣٠٨) عن عائشة رضى الله عنها. وصححه الألبانى فى "صحيح النسائى" برقم (٣٢٣٧) وفى (صحيح ابن ماجه) برقم (١٥٧). وصحح إسناده محقق "مسند أبى يعلى" (٨/ ٢١٤، ٢١٥).

أنت منى أو معى، يريد بذلك التحريم أيضا. أما إن أراد التكريم فليس ظهاراً[١].

ومثل الظهر سواه من أجزاء الجسم، فلو قال كبطن أمى أو كرأس أمى أو كَبَد أمى، أو شبَّه عضواً منها بعضو من أعضاء أمه أو إحدى محارمه فهو ظهار كذلك[٢]، وعند أبى حنيفة رضى الله عنه لا يكون الظهار إلا فى التشبيه بالبطن أو الفرج أو الفخذ، وأما غيرها من الأعضاء فلا[٣].

وقال الظاهرية: لا يتحقق الظهار إلا بتكرير اللفظ أخذاً بظاهر الآية فى قوله تعالى: (ثم يعودون لما قالوا)[٤]، وهو خلاف ما عليه جمهور الأئمة.

[حكم الظهار]

ب ـ الظهار كما تقدم محرم، لأنه منكر من القول، أو هو تحريف للأوضاع التى أرادها الدين، وآكدها القرابات والأنساب، وزور لأنه غير مطابق للحقيقة، فليست هى أمه وإنما أمه التى ولدته، ولهذا قال الحق تبارك وتعالى: ﴿ الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَائِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴾ [المجادلة: ٢][٥].

[كيف يعود المظاهر من امرأته إليها؟]

جـ ـ والمظاهر من امرأته إن أراد أن يعود إليها وهو المقصود فى الآية الكريمة بقوله تعالى: (ثم يعودون لما قالوا) قال الفرَّاء: يقال: عاد فلان لما قال أى فيما قال[٦].

وقال قوم: إن المراد من العود الوطء، وهو قول الحسن، وقتادة، وطاوس، والزهرى،

---

(١) انظر: المغنى لابن قدامة (١١ / ٦٠) والمبدع (٨ / ٣٢).

(٢) المصدر السابق.

(٣) انظر: تحفة الفقهاء للسمرقندى (٢ / ٣١٦، ٣١٧) والمغنى (١١ / ٦٥).

(٤) انظر: المحلى لابن حزم (٩ / ١٨٩) مسألة رقم (١٨٩٠).

(٥) المغنى (١١ / ٥٤) والمبدع (٨ / ٣٠).

(٦) انظر: معانى القرآن للفراء (٣ / ١٣٩).

وقالوا: لا كفارة عليه ما لم يطأها[1]، وذهب أبو حنيفة إلى أن الظهار نفسه يوجب كفارة لأنه محرم[2].

وقال قوم: هو العزم على الوطء، وهو قول مالك وأصحاب الرأى[3]، وذهب الشافعي إلى أن العود هو أن يمسكها عقيب الظهار زمانًا يمكنه أن يفارقها فيه فلم يفعل، فإن طلقها عقيب الظهار فى الحال، أو مات أحدهما في الوقت فلا كفارة عليه، لأن العود للقول هو المخالفة، وعلى ذلك فالمظاهر إذا أراد أن يعود وجبت عليه الكفارة قبل أن يمسها[4]، وقال مالك: إلا فى الإطعام فيجوز أن يمسها قبل أن يُكَفِّر[5].

[كفارة الظهار]

وكفارة الظهار على الترتيب فيبدأ بالعتق، فمن لم يجد فعليه الصوم، فمن لم يستطع فعليه الإطعام، وفي تمام القصة أن رسول الله ﷺ دعاها فقال: يا خويلة قد أنزل الله فيك وفى صاحبك قرآنًا، ثم قرأ عليَّ: (قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها) الآيات إلى قوله تعالى: (وللكافرين عذاب اليم)، قالت: فقال رسول الله ﷺ: مُرِيه فليعتق رقبة، قالت: فقلت يا رسول الله: ما عنده ما يعتق، قال: فليصم شهرين متتابعين، قالت: فقلت: والله إنه لشيخ كبير ما له من صيام، قال: فليطعم ستين مسكينا وسْقًا من تمر، قالت: فقلت: يا رسول الله ما ذاك عنده، قالت: فقال رسول الله ﷺ: فإنا سنعينه بِعَرَق[6] من تمر، قالت: فقلت: يا رسول الله وانا ساعينه بِعَرَقٍ آخر، قال: قد أصبت وأحسنت فاذهبى فتصدقى به، ثم استوصى بابن عمك خيرًا. قالت: ففعلت[7].

---

(١) انظر: المغنى (١١ / ٧١).

(٢) انظر: تحفة الفقهاء (٢ / ٣١٨، ٣١٩) وبدائع الصنائع للكاسانى (٣ / ٢٣٤).

(٣) انظر: المغنى (١١ / ٧٣)

(٤، ٥) المصدر السابق (١١ / ٧٤)

(٦) العَرَق: إناء كبير تكال به الأشياء.

(٧) رواه أحمد (٧ / ٥٦٠) وابو داود (٢٢١٤) عن خويلة بنت مالك بن ثعلبة رضى الله عنها، وحسنه الألبانى فى "صحيح سنن أبى داود" برقم (١٩٣٤).

وهى منقبة أخرى من مناقب خولة رضى الله عنها، وفيه: جواز أن يعين القاضى على خلاص ملتهم مما وقع فيه بمثل هذا الإحسان الكريم. فهذا أول الآداب العالية التى ذكرت فى هذه السورة الكريمة مما يتعلق بحياة الأسرة وحقوق الزوجية.

*****

[مراقبة الله خلقه](1)

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ۝ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [المجادلة: ٥-٧].

[معاني الكلمات]

المحادة: المشاقة والمخالفة والعصيان ومجاوزة الحدود.

والكبت: القمع والمنع وتغلغل الحزن والألم فى النفس(2).

والعذاب المهين: المؤلم الذى تسقط منه الكرامة وتعظم به الإهانة.

[شرح الآيات]

وفى الآيتين الكريمتين أمور ثلاثة:

١ـ سنة الله تبارك وتعالى فى الانتقام فى الدنيا من الامم التى تخرج على حدوده وتخالف عن أمره، بعد أن تتضح لها الآيات البينات وتأتيها رسلها بشرائع الله القويمة، فتابى إلا العناد والإصرار ومقاومة نور الحق بظلمة الباطل، أو تهمل هذه الشرائع فلا تعمل بها ولا تنفذ أحكامها، هذه الأمم لابد أن ينتقم الله منها بالدنيا بصنوف كثيرة من صنوف الانتقام، فهناك الضيق فى الرزق، وهناك الاستعمار والذلة، وهناك الأمراض والأسقام، وهناك بلبلة البال وفقدان الطمانينة، واختلال الامن وجور السلطان، ثم من بعد ذلك كله الآفات الكونية والاستئصال الإلهى ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر: ٣١].

وقد أوضح الحق تبارك وتعالى هذه السنة جملةً وتفصيلاً، وضرب لنا الأمثال بالأمم

---

(١) نشرت فى مجلة (جريدة الإخوان المسلمين) الأسبوعية فى العدد (٢٢) من السنة الثالثة الصادر فى ١٢ من جمادى الآخرة سنة ١٣٥٤هـ ـ ١٠ من سبتمبر سنة ١٩٣٥م.

(٢) وقيل معنى الكبت: الهلاك واللعن والغيظ. انظر: تفسير القرطبى (١٧/٢٨٨).

السابقة بعد أن بيَّن أن سرَّ ذلك الانتقام هو الانحراف عن دين الله، وإهمال شريعته، والمخالفة عن أمره، مما يؤدى إلى غضب الله تبارك وتعالى وحلول اللعنة على هذه الأمة، كما قال تعالى: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [المائدة: ٧٨، ٧٩]، وكما قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [النحل: ١١٢].

فإذا فاءت هذه الأمم إلى ربها ورجعت إلى دينها، أدال(١) الله لها من أعدائها ورد عليها عزتها، وأزال عنها آلامها وأوصابها(٢)، كما قال تعالى: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا﴾ [نوح: ١٠-١٢] بعد أن قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦].

ب - بيان أن انتقام الحق تبارك وتعالى ممن يعصونه ويحادونه ليس قاصرًا على الدنيا، ولكن الحق تبارك وتعالى يحصيه عليهم، ويبعثهم يوم القيامة فيخبرهم بأعمالهم ويحاسبهم عليها، ويعذبهم بها عذابًا شديدًا مهينًا، ويذكرهم بما كان من أعمالهم، والحق تبارك وتعالى مُنَزَّه عن الغفلة والنسيان، وفى الحديث الشريف: "البِرُّ لا يَبْلَى، والذنب لا يُنْسى، والديَّان لا يموت، كما تَدِين تُدَان"(٣).

---

(١) أى أعاد الله لها الكرَّة على عدوها بالنصر، أو: أمكنها الله من الغلبة من عدوها.

(٢) أوصاب: جمع وصب، والوصب هو: الوجع والمرض. انظر: لسان العرب مادة (وصب).

(٣) قال الإمام العجلونى فى تخريجه: رواه أبو نعيم والديلمى عن ابن عمر رفعه. وأورده ابن عدى أيضا فى الكامل، وفى سنده ضعيف، وقال فى اللآلىء: رواه البيهقى فى كتاب الزهد والأسماء والصفات عن أبى قلابة. ثم قال: هذا مرسل. ورواه ابن عدى فى الكامل من حديث محمد بن عبد الملك الأنصارى المدنى عن ابن عمر عن النبى ﷺ، ثم ضعف محمد بن عبد الملك. وأخرجه عبد الرزاق فى جامعه عن أبى قلابة رفعه مرسلا (٢٠٢٦٢)، ووصله أحمد فى الزهد، لكن جعله من قول أبى الدرداء، ولابن أبى عاصم فى السنة بسند فيه وضاع عن أنس فى حديث أنه قال: يا موسى كما تدين تدان. وفى الحلية عن يحيى بن أبى عمرو الشيبانى أنه قال: مكتوب فى التوراة: كما تدين تدان وبالكاس الذى تسقى به تشرب. وفى التنزيل (من يعمل سوءا يجز به). انظر: كشف الخفاء للعجلونى (٢ / ١٢٦). ورواه ابن أبى شيبة (٨ / ١٦٧) والبيهقى فى "الشعب" (١٠٦٦٤) عن أبى الدرداء موقوفا. وضعفه الألبانى فى "ضعيف الجامع الصغير" برقم (٢٣٦٩) وفى السلسلة الضعيفة برقم (١٥٧٦). وهو من أمثال العرب، انظر: مجمع الأمثال (٢ / ١٣٢). وقد ذكره الإمام البنا من قبل عند تفسيره لقوله تعالى: (مالك يوم الدين) من سورة الفاتحة بدون نسبته للنبى ﷺ، ولكنه هنا ذكره على أنه حديث.

ج - بيان عظيم مراقبة الله تبارك وتعالى لخلقه وإحاطته بكل ما يعملون من صغير وكبير، وذلك من عدة أوجه، منها: سعة علمه تبارك وتعالى الذى لا تخفى عليه خافية كما قال تعالى: ﴿ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴾ [غافر: ١٩]، كما قال تعالى حكاية عن لقمان: ﴿ يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴾ [لقمان: ١٦]، وكما قال تعالى: ﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ وَلا أَصْغَرَ مِن ذَلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ [يونس: ٦١].

ومنها: الكتبة الذين يحصون أعمال العبد عليه ويسجلونها فى كتاب حفيظ، كما قال تبارك وتعالى: ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ (٥٢) وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴾ [القمر: ٥٢، ٥٣]، وكما قال تعالى: ﴿ وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ [الكهف: ٤٩].

وقال تعالى: ﴿ وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا (١٣) اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾ [الإسراء: ١٣، ١٤].

وقال تعالى: ﴿ وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٨) هَذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الجاثية: ٢٨، ٢٩].

وقد جمع الحق هذين المعنيين فى آية واحدة، فقال تبارك وتعالى: ﴿ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴾ [الزخرف: ٨٠].

وخلاصة ذلك: أن سعادة الدارين موقوفة مع الأدب مع الله تبارك وتعالى، والتزام حدوده، وإنفاذ أمره، واجتناب ما نهى عنه، فشد يدك يا أخى على ذلك تكن من الفائزين.

*****

[من آداب الإسلام: عدم التناجي بالمعصية][1]

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٨) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٩) إِنَّمَا النَّجْوَىٰ مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ [المجادلة: ٨-١٠].

[معانى الكلمات]

النُّجوى: السر، وهى بين القوم التهامس وإخفاء الحديث وجعله قاصرا عليهم لا يسمعه غيرهم.

[سبب النزول]

كان بين رسول الله ﷺ وبين اليهود موادعة، وكان إذا مر بهم نفر من أصحاب رسول الله ﷺ جلسوا يتناجون بينهم حتى يظن المؤمن أنهم يتناجون بقتله[2]، أو بما يكره، أو يذهب به الظن إلى أنهم قد يكونون علموا بأخبار تسوؤه بالنسبة لإخوانه فى السرايا والبعوث، وهو لم يعلم بها فهم لهذا يتهامسون ويتغامزون، فنهاهم رسول الله ﷺ عن ذلك، فلم ينتهوا، وعادوا إلى ما كانوا عليه من هذا التهامس والتغامز على المؤمنين والخوض فى أعراضهم وتدبير المكايد لهم، ولَجُّوا فى عصيان الرسول ومخالفة أمره الشريف لا ينتهون ولا يرتدعون.

وكانوا إذا دخلوا عليه أو على أصحابه الكرام ألحدوا فى السلام، وحرفوا الكَلِم عن

---

(١) نشرت فى مجلة (جريدة الإخوان المسلمين) الاسبوعية فى العدد (٢٣) من السنة الثالثة الصادر فى ١٩ من جمادى الآخرة سنة ١٣٥٤هـ - ١٧ من سبتمبر سنة ١٩٣٥م.

(٢) انظر: تفسير القرطبى (١٧/ ٢٩١) والدر المنثور (٦/ ٢٦٩).

مواضعه ولَوَّوا به ألسنتهم فقالوا: السام عليكم، ولم يقولوا: السلام عليكم. روى ابن أبي حاتم بسنده عن عائشة رضي الله عنها قالت: "دخل على رسول الله ﷺ يهود فقالوا: السام عليك يا أبا القاسم. فقالت عائشة: وعليكم السام" وفي رواية: انها قالت: وعليكم السام والذّام واللعنة. قالت: فقال رسول الله ﷺ: "يا عائشة إن الله لا يحب الفحش ولا التفحش. قلت: الا تسمعهم يقولون: السام عليك؟! فقال رسول الله ﷺ: "أو ما سمعت أقول: وعليكم"[1]. وفي رواية: أنه قال ﷺ: "إنه يُستَجابُ لنا فيهم ولا يُستَجابُ لهم فينا"[2].

وكانوا بعد ذلك يقولون في أنفسهم: هانحن قد حرفنا القول، والحدنا السلام، وذممناهم وسببناهم، فلو كان هذا نبيًا لعذبنا الله بهذا العدوان عليه! ونسوا أن من ورائهم جهنم يصلونها فبئس المصير. فانزل الله الآيات الكريمة ردًا عليهم وتبيانًا لحالهم وتبكيتًا لهم.

هذا ما تظاهرت عليه الآيات الكريمة، وفي رواية لابن أبي حاتم بسنده عن أبي سعيد الخدري قال: كنا نتناوب رسول الله ﷺ نبيت عنده يطرقه من الليل أمر وتبدو له حاجة، فلما كانت ذات الليلة كثر أهل النُّوَب والمحتسبون حتى كنا أندية نتحدث، فخرج علينا رسول الله ﷺ فقال: ما هذه النجوى؟ ألم تنهوا عن النجوى؟! قلنا: تبنا إلى الله يا رسول الله، إنا كنا في ذكر المسيح فَرَقًا منه، فقال: "ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم عندي منه؟ قلنا: بلى يا رسول الله، قال: "الشرك الخفي أن يقوم الرجل يعمل لمكان رجل"[3] وكان معنى هذا أنَّ الآية نزلت في نفر من الصحابة، وذلك لا يتفق مع آخر الآية في قوله تعالى:

---

(١) رواه أحمد (٧/٥٧، ٢٨٤) والبخاري (٢٩٣٥) ومسلم (٢١٦٥) والترمذي (٢٧٠١) والنسائي في "الكبرى" (١٠٢١٣) و(١٠٢١٤) و(١٠٢١٥) و(١١٥٧٢) وأبو يعلى (٤٤٢١) وابن حبان (٦٤١١) والبخاري في "الأدب المفرد" (٤٦٧) والبيهقي في "السنن" (١٤/٤٦) وفي "الشعب" (٩٠٩٩) وعبد الرزاق (٩٨٣٩) و(١٩٤٦٠) والقضاعي في "المسند" (١٠٦٥) عن عائشة رضي الله عنها.

(٢) رواه أحمد (٧/١٦٧) والبخاري في "صحيحه" (٦٠٣٠) وفي "الأدب المفرد" (٣١٤) عن عائشة رضي الله عنها. ورواه أحمد (٤/٣٦٩) عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.

(٣) رواه أحمد (٣/٤١٥) عن ابي سعيد الخدري رضي الله عنه. وقال محققوه: إسناده ضعيف لضعف كثير بن زيد، انظر: المسند (١٧/٣٥٥) برقم (١١٢٥٢) طبعة الرسالة.

(ثم يعودون لما نهوا عنه ويتناجون بالإثم والعدوان ومعصية الرسول) على أن الإسناد غريب، وفيه بعض الضعفاء، وفيه بعد هذا ما علمت(١) .

[شرح الآيات]

وبعد أن أوضح القرآن الكريم فساد عمل هؤلاء المنافقين، أرشد المؤمنين إلى ما يجب أن تكون عليه النجوى فيما بينهم، وأن ذلك لا يكون إلا البرُّ والتقوى ليس الإثم والعدوان ومعصية الرسول، فإن المؤمن طاهر القلب، كريم النفس، لا يصدر عنه إلا الخير، ولا يدور بخَلَده إلا الخير، فهو محفوظ القلب، محفوظ اللُّب، محفوظ السِّر من خطرات الشياطين ولَمَّة المفسدين. ولهذا قال تبارك وتعالى بعد ذلك : (إنما النجوى من الشيطان) وإنما يراد بذلك : النجوى الكاذبة الخاطئة كنجوى المنافقين، وإنما يريد الشيطان بذلك أن يؤلم المؤمن ويحزن نفسه، وليس فى ذلك ما يَضِيرُه أبدا، فإن الأمور كلها بيد الله، والمؤمن أعرف الناس بالله، فهو متوكل على ربه، راض بقضائه، وعلى الله فليتوكل المؤمنون.

وهنا أدبٌ عالٍ من آداب الإسلام التى يرشد إليها أبناءه، ذلك هو : مراعاة شعور غيرك، والمحافظة على إحساسه، بحيث لا تأتى بعمل يتألم منه غيرك، وفى ذلك يقول رسول الله ﷺ : "إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون صاحبهما، فإن ذلك يحزنه" أخرجاه من طريق الأعمش(٢) .

ومثل ذلك : أن يتكلم الاثنان أمام الثالث بلغة يجهلها، فإن ذلك يحزنه كذلك، إلا أن يستأذناه، فانظر إلى أى حَدٍّ راعى الإسلام الرِّقة فى المعاملة، وفى المحافظة على حقوق الآخرين.

---

(١) لم يذكر الإمام البنا من الروايات التى ذكرها ما ينص على أن كلام اليهود هو السبب فى نزول الآيات، وفاته أن يذكر رواية مهمة نصت على أن سبب النزول هو قول اليهود للنبى ﷺ : السام عليك، ونصها : "أتى النبىَّ ﷺ ناسٌ من اليهود، فقالوا : السام عليك يا أبا القاسم، فقال : وعليكم، قالت عائشة : فقلت : وعليكم السام والذام، فقال رسول الله ﷺ : يا عائشة لا تكونى فاحشة، قالت : فقلت : يا رسول الله أما سمعت ما قالوا، السام عليك، قال : أليس قد رددت عليهم الذى قالوا، قلت : وعليكم ». قال ابن نمير : - يعنى فى حديث عائشة - : إن الله عز وجل لا يحب الفحش ولا التفحش وقال ابن نمير فى حديثه : فنزلت هذه الآية : " وإذا جاؤوك حيوك بما لم يحيك به الله حتى فرغ. رواه أحمد (٧ / ٣٢٧) ومسلم (٢١٦٥) والبيهقى فى "الشعب" (٩٠٩٨) والنسائى فى "الكبرى" (١١٥٧١) عن عائشة رضى الله عنها.

(٢) رواه أحمد (١ / ٦٢٠، ٧٠١، ٧٠٩، ٧١٢) و (٢ / ٤٧، ٤٩، ٥٣، ٣١٧) والبخارى (٦٢٩٠) ومسلم (٢١٨٤) وأبو داود (٤٨٥١) والترمذى (٢٨٢٥) وابن ماجه (٣٧٧٥) وابن حبان (٥٨٣) و (٥٨٤) والبيهقى فى "السنن" (١٠ / ٢٧٨) وفى "الشعب" (١١١٥٩) وأبو يعلى (٥١١٤) و (٥٢٢٠) و (٥٢٥٥) والطبرانى فى "الأوسط" (١٥٨٥) و (١٧٤٤) وفى "الكبير" (١٠ / ١٤٠، ١٨٩) عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه.

[من أخلاق الإيمان](1)

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انشُزُوا فَانشُزُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (11) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (12) أَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [المجادلة: ١١-١٣].

[معاني الكلمات]

النشوز: الخروج والبروز والظهور، والمراد به الإسراع إلى الخير والمبادرة به.

والإشفاق: الخوف والتوجس.

[سبب النزول]

قال قتادة: نزلت هذه الآية في مجالس الذِّكر، وذلك أنهم كانوا إذا رأوا أحدهم مقبلاً ضنوا وبخلوا بمجالسهم عند رسول الله ﷺ، فأمرهم الله تعالى أن يُفْسِح بعضُهم لبعض(2).

وقال مقاتل بن حيان: أُنزلت هذه الآية يوم الجمعة وكان رسول الله ﷺ يومئذ في الصُّفَّة وفي المكان ضيقٌ، وكان يكرم أهل بدر من المهاجرين والأنصار، فجاء ناس من أهل بدر وقد سُبقوا إلى المجلس فقاموا حيالَ رسول الله ﷺ فقالوا: السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته، فردَّ النبيُّ ﷺ، ثم سلموا على القوم بعد ذلك فردُّوا عليهم، فقاموا على أرجلهم ينتظرون أن يُوسَّع لهم، فعرف النبي ﷺ ما يحملهم على القيام فلم يُفْسح لهم، فَشَقَّ ذلك على النبيِّ ﷺ فقال لمن حوله من المهاجرين والأنصار من غير أهل بدر:

---

(1) نشرت في مجلة (جريدة الإخوان المسلمين) الأسبوعية في العدد (٢٤) من السنة الثالثة الصادر في ٢٦ من جمادى الآخرة سنة ١٣٥٤هـ - ٢٤ من سبتمبر سنة ١٩٣٥م.

(2) انظر تفسير البغوي (٨/٥٧) والقرطبي (١٧/٢٩٦).

قم يا فلان، وأنت يا فلان، فلم يزل يقيمهم بعدة النفر الذين هم قيام بين يديه من المهاجرين والأنصار أهل بدر، فشَقَّ ذلك على من أُقيم من مجلسه، وعرف النبى ﷺ الكراهة فى وجوههم[1]. فقال المنافقون: ألستم تزعمون أن صاحبكم هذا يعدل بين الناس؟ والله ما رأيناه قبل عدل على هؤلاء، إن قومًا أخذوا مجالسهم وأحبوا القرب من نبيهم فاقامهم وأجلس من أبطأ عنه[2]. فبلغنا أنَّ رسول الله ﷺ قال: "رحم الله رجلا يفسح لأخيه" فجعلوا يقومون بعد ذلك سراعا فيفسح القوم لإخوانهم، ونزلت هذه الآية يوم الجمعة. رواه ابن أبى حاتم.

وقال أبو العالية والقرظى والحسن: وروى عن ابن عباس: أن الآية فى مجالس القتال والحرب، كان الرجل يأتى القوم فى الصف فيقول: توسَّعوا، فيأبون عليهم لحرصهم على القتال ورغبتهم فى الشهادة، فانزل الله الآية الكريمة[3].

والأول أشهر وأرجح. والآية تحتملهما معًا، وتحتمل غيرهما من معانى الشركة فى الخير، وإفساح المجال فيه للمؤمنين والمبادرة إليه[4].

[شرح الآيات]

ويكون معنى الآية الكريمة على هذا: يا أيها الذين آمنوا إذا طلب إليكم إخوانكم أن تتفسحوا فى المجالس وتُوسِّعوا لهم فيها، فاسمعوا لهم ومَكِّنُوهم من ذلك، وراعوا المنازل والأقدار، فقدِّموا أهلَ الإيمان والعلم أولاً، ثم من يليهم، وأنزلوا الناس - فى ذلك - منازلهم. والله بما تعملون خبير.

وتكون الآية حينئذ إقراراً للرسول ﷺ على فعله من إقامته للمسبوقين، وإذنه لأولى السابقة من البدريين باحتلال أمكنتهم، وعلى ذلك يكون من حقِّ الرئيس أو الكبير أن يأمر بهذا من هم أقل منه فى مجلسه.

---

(١) انظر: الدر المنثور (٦/ ٢٧١).

(٢) انظر: تفسير القرطبى (١٧/ ٢٩٧).

(٣) انظر: تفسر الطبرى (١٢/ ١٨) وتفسير البغوى (٨/ ٥٨).

(٤) ذهب الطبرى إلى هذا الترجيح وإلى الجمع ايضا انظر: تفسير الطبرى (١٢/ ١٨)، والقرطبى كذلك، انظر: تفسير القرطبى (١٧/ ٢٩٧).

ولكن ليس من حق الإنسان أن يقيم شخصًا أيًا كان من مجلسه ليجلس هو مكانه، وخصوصا في الجمعة فقد نُهينا عن ذلك.

روى الإمام أحمد والشافعي بسندهما عن رسول الله ﷺ أنه قال: "لا يُقِمِ الرجُلُ الرجلَ من مجلسه فيجلس فيه، ولكن تَفَسَّحوا وتَوَسَّعوا"(١).

وروى في الصحيحين من حديث نافع وروى الشافعي بسنده: "لا يقيمن أحدُكم أخاه يوم الجمعة، ولكن ليقل: أفسِحُوا"(٢).

والأفضل: أن يجلس الإنسان حيث انتهى به المجلس، ففي الحديث المروى في السُّنن: أنَّ رسول الله ﷺ كان يجلس حيث انتهى به المجلس(٣)، ولكن حيث يجلس يكون صدر ذلك المجلس، فكان الصحابة رضي الله عنهم يجلسون منه على مراتبهم: فالصديق رضي الله عنه يُجلسه عن يمينه، وعمر عن يساره، وبين يديه - غالبًا - عثمان وعلي لأنهما كانا ممن يكتب الوحي، وكان يأمرهم بذلك، كما رواه مسلم من حديث الأعمش بسنده أن رسول الله ﷺ كان يقول: "ليَلِنى منكم أولو الأحلام والنُّهَى"(٤).

وخلاصة هذا الأدب الكريم البادي في هذه الآية المطهرة: المستحبُّ في المجالس أن

(١) رواه أحمد (٣/٢، ٣٣٢، ٧) والشافعي (٢٩٩) عن أبي هريرة رضي الله عنه. والبخاري (٩١١) ومسلم (٢١٧٧) والترمذي (٢٧٤٩) والدارمي (٢٦٥٣) وابن حبان (٥٨٦) وابن خزيمة (١٨٢٠) والبخاري في "الأدب المفرد" (١١٧٣) عن ابن عمر رضي الله عنهما.

(٢) رواه أحمد (٤/ ٢٢٠) ومسلم (٢١٧٨) والشافعي (٣٠٢) والبيهقي في "السنن" (٤/ ٤٩٧) والطبراني في "الكبير" (١٢/ ٣٤٤) عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.

(٣) ذكره الصالحي في "سبل الهدى والرشاد" وقال: رواه أبو نعيم في "الحلية". انظر: سبل الهدى والرشاد (٧/ ١٥٢) طبعة دار الكتب العلمية.

(٤) رواه أحمد (٥/ ١٠٢) ومسلم (٤٣٢) والنسائي في "المجتبى" (٨٠٧) و(٨١٢) وفي "الكبرى" (٨٨١) و(٨٨٦) وابن ماجه (٩٧٦) وأبو داود (٦٧٤) والدارمي (١٢٦٦) وابن حبان (٢١٧٢) و(٢١٧٨) والبيهقي في "السنن" (٤/ ٢٥٠) وعبد الرزاق (٢٤٣٠) وابن أبي شيبة (١/ ٣٨٧) وأبو عوانة في "مسنده" (٢/ ٤١، ٤٢) عن أبي مسعود رضي الله عنه. ورواه أحمد (٢/ ٤٢) والترمذي (٢٢٨) والدارمي (١٢٦٧) والحاكم (٢/ ١٠) وصححه على شرط الشيخين، والبيهقي في "السنن" (٤/ ٢٥٠) وأبو عوانة في "مسنده" (٢/ ٤٢) عن ابن مسعود رضي الله عنه. ورواه الحاكم (١/ ٧٦٥) عن البراء بن عازب رضي الله عنه.

تُنظَّم على حسب اقدار من سيجلسون، ويُوضع كل منهم فى المرتبة اللائقة به، فإذا خولف هذا النظام: فلا بأس بأن يطلب الإنسان الفُسْحَةَ من إخوانه ليصل إلى مرتبته، وعليهم ان يُفْسحوا له، فإذا جلس حيث انتهى به المجلس كان ذلك أجدر بالنسبة له. وإذا أمر الرئيس أو نحوه أحدا بإخلاء مكانه لسواه: فعليه الطاعة لقوله تعالى: (وإذا قيل انشزوا فانشزوا).

وقوله تبارك وتعالى: ﴿ يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ درجات ﴾ [المجادلة: ١١] إما ان يكون المقصود هؤلاء القادمين، ويكون المراد برفعتهم: إنزالهم منزلتهم فى المجلس، وإما ان يكون المراد: الجالسين الذين يمتثلون فيؤمنون بحكمة هذا التشريع ويعلمون اسراره ويطيبون نفسًا به، فيرفعهم الله بحسن الثواب فى الآخرة، أو يكون المراد هما معًا، والله أعلم بمراده.

هذا فى المجالس، وهل يكون الأمر على ذلك فى صفوف الصلاة؟

فأمَّا أبيُّ بن كعب رضى الله عنه: فقد تمسَّك بقول رسول الله ﷺ: "ليلنى منكم أولو الأحْلام والنُّهَى"(١) فكان إذا انتهى إلى الصف الأول انتزع منه رجلا من أفناء(٢) الناس، ويدخل فى الصف المقدم إذ كان سيد القراء بشهادة رسول الله ﷺ(٣).

وأمَّا عبد الله بن عمر: فكان لا يجلس فى المكان الذى يقوم عنه صاحبه، محتجًا بحديث رسول الله ﷺ: "لا يُقم الرَّجلُ الرَّجلَ من مجلسه فيجلس فيه، ولكن تفسحوا وتوسعوا"(٤) ولكل وجهة، فليتصرف المؤمن بحسب ظرفه، وهو فى كلتا الحالتين موافق لما روى عن رسول الله ﷺ.

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) افناء: اى اخلاط.

(٣) شهادة النبى ﷺ لأبى رضى الله عنه بأنه سيد القراء، وردت فى قوله ﷺ: "أقرأ أمتى أبى بن كعب" رواه الطبراني في "الأوسط" (٥٥٧) عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما ورواها ابن سعد فى "الطبقات" (٢ / ٣٤١) عن أنس بن مالك رضى الله عنه.

(٤) تقدم تخريجه.

[حكم القيام للقادم]

وهل يقوم الجالسون للوارد، أو يتفسحون من جلوس فقط؟ أجمع المسلمون على جواز التفسُّح من جُلوس. واختلف الفقهاء في القيام على أقوال، فمنهم من رخَّص فيه مستنداً إلى حديث: "قوموا إلى سيدكم"(١) وحديث قيامه ﷺ لفاطمة رضي الله عنها وقيامها له ﷺ(٢).

ومنهم من منع ذلك محتجًا بحديث: "من أحبَّ أنْ يتمثَّل له الرِّجال قيامًا: فليتبوأ مقعده من النار"(٣).

ومنهم من فَصَّل فقال: يجوز عند القدوم من سفر، وللحاكم في محلِّ ولايته، كما تدل عليه قصة سعد بن معاذ(٤).

---

(١) رواه أحمد (٣/ ٤٠١،٤٨٤) والبخاري (٣٠٤٣) و (٤١٢١) و (٦٢٦٢) ومسلم (١٧٦٨) وأبو داود (٥٢١٥) والنسائي في "الكبرى" (٨٢٢٢) وأبو يعلى (١١٨٨) والبيهقي في "السنن" (٨/ ٤١٠) و (١٣/ ٣٢٦،٣٩٧) وفي "الشعب" (٨٩٢٥) وابن أبي شيبة (٨/ ٥٠٣) وسعيد بن منصور في "سننه" (٢٩٦٤) (٢/ ٣٤٣) والبخاري في "الأدب المفرد" (٩٧٢) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، ورواه أحمد (٧/ ٢٠٣) وابن حبان (٧٠٢٨) عن عائشة رضي الله عنها.

(٢) وهو حديث عائشة رضي الله عنها: "ما رأيت أحدا أشبه سمتا ولا هديا برسول الله ﷺ من فاطمة بنت رسول الله ﷺ ورضي الله تعالى عنها قالت: وكانت إذا دخلت على النبي ﷺ قام إليها فقبلها وأجلسها في مجلسه، وكان النبي ﷺ إذا دخل عليها قامت من مجلسها فقبلته وأجلسته في مجلسها" رواه الترمذي (٣٧٨٢) وقال: حسن غريب، وأبو داود (٥٢١٧) والنسائي في "الكبرى" (٨٣٦٩) والحاكم (٤/ ٣٠٣) وقال: صحيح على شرط الشيخين، ورواه البيهقي في "السنن" (١٠/ ٢٨٣) وفي "الشعب" (٨٩٢٧) عن عائشة رضي الله عنها.

(٣) رواه أحمد (٥/ ٥٤،٥٦) والترمذي (٢٧٥٥) وقال: حديث حسن، وأبو داود (٥٢٢٩) وابن أبي شيبة (٦/ ١٢٠) عن معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما. وقال محققو المسند: إسناده صحيح رجاله ثقات رجال الشيخين. انظر: المسند (٢٨/ ٤٠) برقم (١٦٨٣٠).

(٤) قصة سعد بن معاذ كما ذكرها أبو سعيد الخدري رضي الله عنه قال: لما نزلت بنو قريظة على حكم سعد بن معاذ بعث رسول الله ﷺ بطلبه وكان قريبا منه فجاء على حمار فلما دنا قال رسول الله ﷺ: قوموا إلى سيدكم، فجاء فجلس إلى رسول الله ﷺ فقال له: إن هؤلاء نزلوا على حكمك قال: فإني أحكم أن تُقْتَل المُقَاتِلةُ، وأن تسبى الذرية، قال: لقد حكمت فيهم بحكم الله" رواه أحمد (١٠٧٨٤) و (١١٢٨٣) والبخاري (٣٠٤٣) و (٤١٢١) و (٦٢٦٢) ومسلم (١٧٦٨) وأبو داود (٥٢١٥) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

وفى فتاوى الإمام النووى ما نصُّه: "قيام الناس بعضهم لبعض كما هو العادة هل هو جائز أم حرام أم مكروه، وهل ثبت فى جوازه أو منعه شىء؟

الجواب: القيام لأهل الفضل وذوى الحقوق: فضيلة على سبيل الإكرام، وقد جاءت به أحاديثُ صحيحة، وقد جمعتها من آثار السلف وأقاويل العلماء فى ذلك، والجواب عما جاء مما يوهم معارضتها وليس معارضًا، وقد أوضحت ذلك فى جزء معروف، فالذى نختاره ونعمل به واشتهر عن السلف من أقوالهم وأفعالهم: جواز القيام واستحبابه على الوجه الذى ذكرناه، والله أعلم"(١).

وقد راجعت هذا الجزء المشار إليه وهو الموسُوم بـ (الترخيص بالقيام لذوى الفضل والمَزِيَّة من أهل الإسلام)(٢)، وفيه أوفى الشيخ النووى البحث حقَّه رضى الله عنه ونفع به.

[مكانة العلم والإيمان فى الآية الكريمة]

وفى الآية الكريمة بعد هذا: تنبيه إلى فضل الإيمان والعلم، وإلى بيان استحقاق أصحابهما للرفعة فى الدنيا والآخرة.

روى الإمام أحمد بسنده: أن نافع بن الحارث لَقِى عمر بن الخطاب بعسفان، وكان عمر استعمله على مكة، فقال له عمر: من استخلفت على أهل الوادى؟ قال: استخلفت عليهم ابنَ أبْزَى رجل من مَوَالينا، فقال عمر: استخلفت عليهم مولى؟!(٣) فقال: يا أمير المؤمنين إنه قارئ لكتاب الله، عالم بالفرائض قاضٍ، فقال عمر رضى الله عنه: أمَا إنَّ نبيكم ﷺ قد قال: "إنَّ الله يرفع بهذا الكتاب قومًا، ويضع به آخرين"(٤) وهكذا رواه مسلم من غير وجه(٥)

---

(١) انظر: فتاوى الإمام النووى ص ٦٩ تحقيق وتعليق محمد الحجار. وانظر: فتاوى الإمام النووى ص ١٠٩، ١١٠ بتحقيق: محمد رحمة الله الندوى. وقال بهذا الرأى كذلك العز بن عبد السلام فى فتاويه، انظر: فتاوى العز ص٢٩٧-٢٩٨

(٢) هى رسالة للإمام النووى رحمه الله نشرتها دار البشائر الإسلامية بتحقيق كيلانى خليفة، ودار الفكر ببيروت، وحققها: أحمد راتب حموش.

(٣) المولى: العبد.

(٤) رواه أحمد (١/ ٥٨) وابن ماجه (٢١٨) والدارمى (٣٣٦٥) والبيهقى فى "السنن" (٤/ ٢٣٥) وفى "الشعب" (٢٦٨٢) وابن حبان (٧٧٢) وعبد الرزاق (٢٠٩٤٤) عن عمر رضى الله عنه.

(٥) رواه مسلم (٨١٧) عن عمر رضى الله عنه.

[أدب مناجاة النبي]

ثم ذكر القرآن الكريم بعد ذلك أدبًا يتعلق بالمسلمين مع رسول الله ﷺ، قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس: قوله: (فقدموا بين يدى نجواكم صدقة) وذلك أن المسلمين أكثروا المسائل على رسول الله ﷺ حتى شقُّوا عليه، فأراد الله أن يخفِّف عن نبيه ﷺ فنزلت هذه الآية، فلما شقَّ ذلك عليهم نسخها الله تبارك وتعالى بما بعدها، وأنزل الرُّخصة فى ذلك،(١) حتى قال معمر عن قتادة: إنها منسوخة، ما كانت إلا ساعةً من نهار(٢)

وقد قيل: إنه لم يعمل بهذه الآية قبل نسخها إلا علىُّ بن أبى طالب رضى الله عنه. قال ابن أبى نَجيح عن مجاهد قال: نُهُوا عن مناجاة النبى ﷺ حتى يتصدَّقوا، فلم يُناجه إلا على بن أبى طالب؛ قدَّم ديناراً صدقةً تصدَّق به؛ ثم ناجى النبى ﷺ فسأله عن عشر خصال، ثم أُنزلت الرُّخصة(٣).

وفى بعض روايات هذا الأثر: قال على: "ولم يعمل بها أحدٌ قبلى، ولا يعمل بها أحدٌ بعدى"(٤). وفى رواية أخرى عنه: "أنها حين أُنزلت قال رسول الله ﷺ له: ما ترى؟ دينار، قال: لا يطيقون، قال: نصف دينار؟ قال: لا يطيقون، قال: ما ترى؟ قال: شعيرة، فقال له النبى ﷺ: إنَّك لزَهيد. فنزلت: (أأشفقتم أن تقدموا بين يدى نجواكم صدقات) الآية(٥). قال علىٌّ: "فبى خفَّف الله عن هذه الأمة"(٦).

---

(١) انظر: الناسخ والمنسوخ لأبى عبيد بن سلام ص ٢٥٨

(٢) انظر: تفسير الطبرى (١٢ / ٢١) ونواسخ القرآن لابن الجوزى ص٢٣٥ ونقل السيوطى أن مقاتل قال: بقى هذا الحكم عشرة أيام، ورجح السيوطى قول قتادة. انظر: "التحبير فى علم التفسير" ص٤٤٨

(٣) ذكره الطبرى فى تفسيره (١٢ / ٢٠) والواحدى فى " أسباب النزول " ص٢٣٥، ومكى بن أبى طالب القيسى فى "الإيضاح لناسخ القرآن ومنسوخه" ص٤٢٦

(٤) رواه الحاكم (٢ / ٥٢٤) عن على بن أبى طالب رضى الله عنه. وقال: صحيح على شرط الشيخين.

(٥) انظر: نواسخ القرآن لابن الجوزى ص٢٣٥

(٦) رواه الترمذى (٣٣٠٠) وقال: حسن غريب. والنسائى فى "الكبرى" (٨٥٣٧) وابن حبان (٦٩٤١) و(٦٩٤٢) وأبو يعلى (٤٠٠) والبزار (٦٦٨) وابن أبى شيبة (٧ / ٥٠٥) عن على رضى الله عنه. وضعف إسناده الشيخ الألبانى فى "ضعيف الترمذى" برقم (٦٥٢).

وقال العوفى : عن ابن عباس : كان المسلمون يُقدِّمون بين يدى النَّجوى صدقة، فلما نزلت الزكاة نُسِخَ هذا[1].

وعلى كُلٍّ فالذى يبدو انَّ الحكمة فى هذا التشريع : إشعارهم أن خطاب رسول الله ﷺ ليس كخطاب غيره من الناس، ومنزلته ليست كمنزلته حتى عند المحادثة، حتى إذا تقرَّر هذا فى نفوسهم واستشعرته قلوبهم خفَّف الله عنهم، ورخص لهم، والله رؤوف رحيم.

*****

(١) انظر: تفسير الطبرى (١٢/ ٢١).

[من أوصاف المؤمنين والمنافقين](1)

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (14) أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (15) اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ (16) لَّن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (17) يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ (18) اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَٰئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ (19) إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ (20) كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ (21) لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [المجادلة: ١٤ ـ ٢٢].

[معانى كلمات الآيات]

تولوا قومًا: صاحبوهم واتخذوهم أصدقاء.

يحلفون على الكذب: يحلفون بالكذب، ويريدون تغيير الحقائق بالأيمان.

وهم يعلمون: وهم يعرفون أنهم كاذبون.

والجُنَّة: الوقاية والحاجز.

استحوذ عليهم الشيطان: استولى عليهم وفتنهم.

المحادة: المشاقة والمخالفة.

والتأييد: النصر والمعاضدة والمعونة.

(١) نشرت فى مجلة (جريدة الإخوان المسلمين) الأسبوعية فى العدد (٢٥) من السنة الثالثة فى يوم الثلاثاء [illegible] ٣من رجب ١٣٥٤هـ - ١من اكتوبر سنة ١٩٣٥م.

[شرح موجز للآيات]

في الآيات الكريمة وصف لأحوال نفسية تتجلى في صنفين من الناس، صنفُ المذبذبين المنافقين، الذين يقولون ما لا يعلمون، ويُحرفون ما يسمعون، ويُنكرون ما يقولون، ويريدون إذكاء الفتنة الخامدة، وإيقاظ الشرِّ النائم، وفتنة المؤمنين المخلصين الذين استولت على نفوسهم عقيدتهم، ففنوا فيها بقدر ما امتزجت بأرواحهم، وجعلوا كل أعراض الحياة لها فداء، ومن أمثلة الأولين: عبد الله بن نبتل. ومن أمثلة الآخرين: أبو بكر، وأبو عبيدة، وعلي، وحمزة، وعبيدة بن الحارث، ومصعب بن عمير رضي الله عنهم أجمعين.

[أسباب النزول]

قال السدي ومقاتل في أوائل هذه الآيات: نزلت في عبد الله بن نبتل المنافق؛ كان يجلس إلى رسول الله ﷺ ثم يرفع حديثه إلى اليهود، فبينما رسول الله ﷺ في حجرة من حُجُراته إذ قال: "يدخل عليكم رجل قلبه قلب جبار، وينظر بعَيْنَيْ شيطان، فدخل عبد الله بن نبتل وكان أزرق العينين، فقال له رسول الله ﷺ: "عَلامَ تشتمني أنت وأصحابك؟" فحلف بالله ما فعل، وجاء بأصحابه فحلفوا بالله ما سبُّوه، فأنزل الله عز وجل هذه الآيات[1].

وقال سعيد بن عبد العزيز ومقاتل بن حيان: عن مرة الهمداني عن عبد الله بن مسعود في الآيات الباقية: إنها نزلت في أبي عبيدة عامر بن عبد الله بن الجراح قتل أباه يوم بدر، وقيل: يوم أحد، وفي أبي بكر حين أراد أن يبارز ابنه عبد الرحمن يوم بدر قبل أن يسلم، وقال: يا رسول الله دعني أكن في الرَّعْلَة[2] الأولى، فقال له رسول الله ﷺ: متِّعنا بنفسك يا أبا بكر"[3]، وفي مصعب بن عمير قتل أخاه عبيد بن عمير يوم أُحُد، وفي عمر بن الخطاب قتل خاله العاص بن هشام بن المغيرة يوم بدر، وفي عليٍّ وحمزة

---

(١) رواه أحمد (١/ ٣٩٨) والحاكم (٢/ ٤٨٢) وصححه على شرط مسلم ووافقه الذهبي، والبيهقي في الدلائل (٥/ ٢٨٢) عن ابن عباس رضي الله عنهما. وحسن إسناده محققو المسند: (٤/ ٤٨) حديث رقم (٢١٤٧).

(٢) الرَّعْلة: هي الجماعة القليلة التي تتقدم غيرها.

(٣) رواه الحاكم (٣/ ٥٣٩) والبيهقي (١٢/ ٣٥٩).

وعبيدة بن الحارث قتلوا شيبة وعتبة ابني ربيعة والوليد بن عتبة يوم بدر[١].

ومن هذا الباب: ما قاله عمر حين استشارهم رسول الله ﷺ في أسرى بدر، فكان رأى عمر أن يُمَكِّن رسولُ الله ﷺ كلَّ واحد من المشركين قريبًا له من المسلمين يقتله، يقول عمر: ليعلم الله أنه ليس في قلوبنا موادة للمشركين[٢].

وذكر بعضهم: أنها نزلت عقابًا لحاطب بن أبي بلتعة يوم كتب إلى المشركين في قصته المشهورة[٣].

[شرح الآيات]

ومهما كانت أسباب النزول، ففي الآيات الكريمة: بيان لعدة أوصاف من أوصاف المنافقين، وعدة أوصاف من أوصاف المؤمنين، تلازم كلا منهما أبد الدهر، وكما كانت تلك أوصافهم في كل عصر من العصور خالدة على الزمن، باقية على الدهر، شنشنة تعرف من أخزم[٤]، فتعال معًا نكشف بعض أعراض تلك الأوصاف:

[من أوصاف المنافقين]

فأما الأوَّلون فقد وصفهم القرآن الكريم بأنهم تولوا قومًا غضب الله عليهم فلم يصاحبوا أطهارًا، ولكنهم صاحبوا من على شاكلتهم ممن حلَّت بهم اللعنة ونزل عليهم السخط، وشِبْهُ الشيء مُنْجَذِبٌ إليه، ولن تروج الفتنة ولن يجد الدَّسَّاس مجالاً إلا عند مرضى القلوب، ضِعاف العقائد، صغار النفوس، ووصفهم بأنهم ما هم منكم ولا منهم، فهم لم ينقلوا ما نقلوا بإخلاص، يبتغون من ورائه منفعة المنقول عنهم أو المنقول لهم؛

(١) انظر: الكشاف (٤/٤٩٧).

(٢) رواه أحمد (١/٥١،٥٤) وابن أبي شيبة (٨/٤٧٤) عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه. وحسنه محققو المسند (١/٣٣٦).

(٣) رواه أحمد (١/١٢٨) والبخاري (٣٠٠٧) و(٣٠٨١) ومسلم (٢٤٩٤) وأبو داود (٢٦٥٠) والترمذي (٣٣٠٥) وابن حبان (٧١١٩) وأبو يعلى (٣٩٤) والبزار (٥٣٠) والبخاري في "الأدب المفرد" (٤٤٣) والبيهقي في "السنن" (١٣/٥٠١) وفي "الشعب" (٩٣٧١) والنسائي في "الكبرى" (١١٥٨٥) والشافعي في مسنده (١٤٦٧) عن علي رضي الله عنه.

(٤) «نشنة تعرف من أخزم» مثل يضرب لمن يشبه أباه أو أهل بلده في شيء، فكأنه مثلهم مؤمن أو منافق.

وإنما هو داء وبيل، وخلق ضعيف، فهم يجرون على غرار طبيعتهم، ويسيرون وفق غريزتهم، جُبلوا على الشر، وطُبعوا على الأذى، وويل لمن جعله مفتاحًا للشرّ، مغلاقًا للخير.

ووصفهم بأنهم يحلفون على الكذب، مع علمهم بأنهم كاذبون عن غير خطأ أو نسيان؛ إنما هو جبن وخَوَر يحملهم على التنصُّل من تبعة ما ارتكبوا وعدم الثبات على ما قالوا، فهم قد جمعوا إلى خيانة النقل وتحريف القول كذب اليمين، وفقدان الشجاعة الأدبية، والهروب من التبعة، ووصفهم بأنهم يتخذون هذه الأيمانَ الكاذبة وقاية من الجزاء العاجل، وحاضرًا دون احتمال العقوبة الحاضرة، وهم بذلك يصدون عن سبيل الله، ويحاربون الله ورسوله، إذ حسبوا أن هذه الأيمان تنجيهم من عذاب الله؛ كأنهم لما وجدوا سبيل الهرب وستر أعمالهم وفهموا أن هذه الأيمان تصلح لذلك، اندفعوا في طريق الصدّ عن سبيل الله، والعدوان على نبيه الكريم ﷺ.

ووصفهم بتأصُّل هذه الخصَال في نفوسهم، حتى إنهم يوم القيامة يحاولون أن يخدعوا ربهم في الآخرة، وهي دار الحق بما كانوا يحاولون أن يدفعوا بهم عن أنفسهم في دار الدنيا، فيحلفون بالباطل كما كانوا يحلفون للرسول ﷺ وأصحابه، ونسوا أن الآخرة دار الحساب ودار كشف الخبَآت، وإظهار السيئات والحسنات، يوم تُبلى السرائر فتجد كل نفس ما عملت من خير محضرًا وما عملت من سوء، تود لو بينها وبينه أمدًا بعيدًا، فاعجب لخادع يخدع نفسه.

ثم ذكر الحق تبارك وتعالى أن هؤلاء إنما حَلَّ بهم هذا الوبال من طريق واحد، هو أنهم أسلموا للشيطان قلوبهم، ومكنوه من نفوسهم فاستولى عليهم، وتخلل مسالك أرواحهم، وتمكن من أفئدتهم فكانوا حزبه وشيعته، فزين لهم بالباطل وحَسَّنَ لهم القبائح وحالَ بينهم وبين التفكير في رقابة الحق عليهم، والتفكير في آياته بين يديهم، وليس للقلب إلا وجهة واحدة فإذا مكنت فيه للشيطان هجره ذكر الرحمن، وإذا ملأته بمعرفة الرحمن فارقته لَمَّةُ الشيطان، فالأولون ينطبق عليهم قول الحق تبارك وتعالى: ﴿ومن يَعْشُ عن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ [الزخرف: ٣٦]، والآخرون ينطبق عليهم قوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلاً﴾ [الإسراء: ٦٥].

وبيّن الحقُ بعد ذلك جزاء هؤلاء القوم بعد ان وصف اعمالهم وخصالهم بالسوء والقبح والانحراف عن جادة الصواب، فبين ان لهم عذابًا مهينًا تضيع معه كراماتهم وتنحط اقدارهم ولن يخلصهم من هذا العذاب مال ولا ولد، وإنما هم فى النار خالدون.

ولما كان بعض مزاعم هؤلاء القوم ومن لفَّ لفهم أن رسول الله ﷺ وأصحابه سوف ينهزمون أمام جبابرة الأرض من روم وفرس وغيرهم يهولون ويحاولون به أن ينالوا من عزائم المؤمنين. بيّن الحق تبارك وتعالى سنته فى ذلك وقانونه الذى لا يتخلف. فذكر أن كل من حادَّ الله ورسوله وخالف عن امره وحارب أولياءه: حقَّت عليه كلمة العذاب. وحلَّ به الذل المقيم فى الدنيا بالاسر والهزيمة، وفى الآخرة بالنار التى وقودها الناس والحجارة، كتب الله ذلك يوم خلق السماوات والأرض أن تكون الغلبة لله على اعدائه، ولرسله بنصره إياهم، فمن كان من رسل الحرب فنصره فى ميادين القتال، ومن كان من رسل القول فنصره فى حلبة البيان ونصاعة الحجة ووضوح البرهان، ومن جمعهما الله له أيده بهما جميعًا، تلك سنة الله التى قررتها الأديان، وجرت عليها الأزمان، وأثبتها التاريخ، وعرفها الناس علمًا وعملاً.

[ارتباط الآية بما قبلها]

ونقول فى ارتباط الآية الكريمة بما قبلها: أنه لما كان هؤلاء القوم قد حادُّوا الله ورسوله، بيَّن الله لهم مصايرهم[1] وأنهم سيذلون فى الدنيا والآخرة، ولن ينالوا من رسول الله ﷺ ولا أصحابه نيلاً، والله غالب على أمره؛ وهو سبحانه وتعالى القوى العزيز، وناسب ذلك طبعًا أن يتكلم لك القرآن الكريم عن موقف المؤمنين من هؤلاء المحادِّين، وأن يبين لك بعض أوصافهم كما بين لك أوصاف السابقين.

فهاأنت تراه قد وصفهم بوصفين اثنين كل منهما يقتضى الآخر ويستتبعه. وصفهم بأنهم آمنوا بالله واليوم الآخر إيمانا قويًا متينًا كتبه الله فى قلوبهم، وثبتَّه فى أرواحهم، وتغلغل فى أفئدتهم، فأنتج الفناء فيه والفداء والتضحية بكل شىء فى سبيله، فالإيمان والتضحية وصفا هؤلاء القوم وهما متلازمان كما ترى، فمتى صح الإيمان وصدق:

---

(١) كتبها الإمام البنا (مصائرهم) والصواب كما أثبته.

استغنى به المؤمن عن كل أعراض الحياة فضحى بها فى سبيله. ولن تكون التضحية إلا حيث يكون الإيمان. سنة الله ولن تجد لسنة الله تبديلا. وجزاء هؤلاء القوم المؤمنون عند الله عظيم، فهم حزبه المنتسبون إليه، المقربون لديه، يؤيدهم بنصره ويمدهم بروحه ويسددهم بتوفيقه ويصلح لهم دنياهم بنعمته، ولهم بعد ذلك فى الآخرة جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها، ويعوضهم عن فقدان العشائر والأنصار رضاه عنهم ورضاهم عنه، وما وجد شيئًا من فقده، وما فقد شيئًا من وجده.

إذا صح منه الود فالكل هيّنٌ ... وكل الذى فوق التراب تراب[1]

وهكذا ترى الجزاء من جنس العمل، قومًا يتركون فى سبيل الله آثارهم وإخوانهم وعشيرتهم وأولياءهم فيكون الله لهم وليًا: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

كتب معاوية إلى عائشة رضى الله عنها: أن اكتبى لى كتابًا توصينى فيه ولا تكثرى علىَّ، فكتبت عائشة إلى معاوية: سلامٌ عليك، أما بعد، فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: "من التمس رضا الله بسخط الناس كفاه الله مُؤْنَةَ الناس، ومن التمس رضا الناس بسخَط الله، وكَلَهُ الله إلى الناس، والسلام عليك" رواه الترمذى[2].

وكان من دعائه ﷺ فيما يرويه الديلمى من طريق الحسن بن معاذ "اللهم لا تجعل لفاجر ولا لفاسق يداً ولا نعمةً، فيوده قلبى، فإنى وجدت فيما أوحى إلى: (لا تجد قومًا يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله)[3].

---

(١) من الشائع بين الناس أن هذه الأبيات لرابعة العدوية، وليس بصواب، ولكن الأبيات لأبى فراس الحمدانى يمدح سيف الدولة، وقد رأى العلماء أن هذه العبارات لا يليق أن يخاطب بها بشر، إنما يصلح أن يخاطب بها الله عز وجل، ولذا نسبت ـ بغير صواب ـ إلى رابعة العدوية. انظر: محاضرة: (إنسان سورة العصر) للدكتور يوسف القرضاوى بتحقيقنا. تحت الطبع.

(٢) رواه الترمذى (٢٤١٤) وابن حبان (٢٧٦) و(٢٧٧) المرفوع منه فقط عن عائشة رضى الله عنها. وصححه الألبانى فى "صحيح الترمذى" (١٩٦٧) وفى العقيدة الطحاوية (٢٧٨) وحسنه شعيب الأرناؤوط فى "صحيح ابن حبان" (١/ ٥١٠، ٥١١).

(٣) ذكره الغزالى فى الإحياء، وقال العراقى: أخرجه ابن مردويه فى التفسير من رواية كثير بن عطية عن رجل لم يسم، ورواه أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث معاذ وأبى موسى المدينى فى كتاب: تضييع العمر والأيام مرسلا، وأسانيده كلها ضعيفة. انظر: الإحياء (٢/ ١٤٩).

ومما أخرجه الطبراني والحاكم والترمذي عن واثلة بن الاسقع مرفوعا يقول الحق تبارك وتعالى: "وعزتي لا ينال رحمتي من لم يوال أوليائي ويعاد أعدائي"(١).

وأخرج الإمام أحمد وغيره عن البراء بن عازب مرفوعًا قال: "أوثق [عرًا] الإيمان: الحبُّ في الله، والبغض في الله"(٢).

فهل فهم المسلمون هذا فأحبوا إخوانهم وقاطعوا أعداءهم وكانوا كما قال الله تبارك وتعالى في أسلافهم: ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩]، أم اجتالتهم الشياطين عن دينهم، وخدعتهم الابالسة عن قوميتهم فاتبعوا سنن خصومهم شبرًا بشبرٍ وذراعًا بذراع؟.

[ما اشتملت عليه السورة الكريمة]

أيها الأخ الكريم:

في هذه السورة الحكيمة آداب رائعة، وحكم بارعة، فقد رأيت فيها: ادب الزوجين وحرمة الزوجية، كيف يسمو بها الإسلام إلى حد من القداسة عظيم، وأدب مراقبة الله تبارك وتعالى، وأدب تعظيم رسول الله ﷺ، وأدب احترامك لعواطف غيرك، وأوصاف المنافقين لتتجنَّبها، وأوصاف المؤمنين لتستمسك بها، فشدَّ يدك على هذا الأدب الرباني.

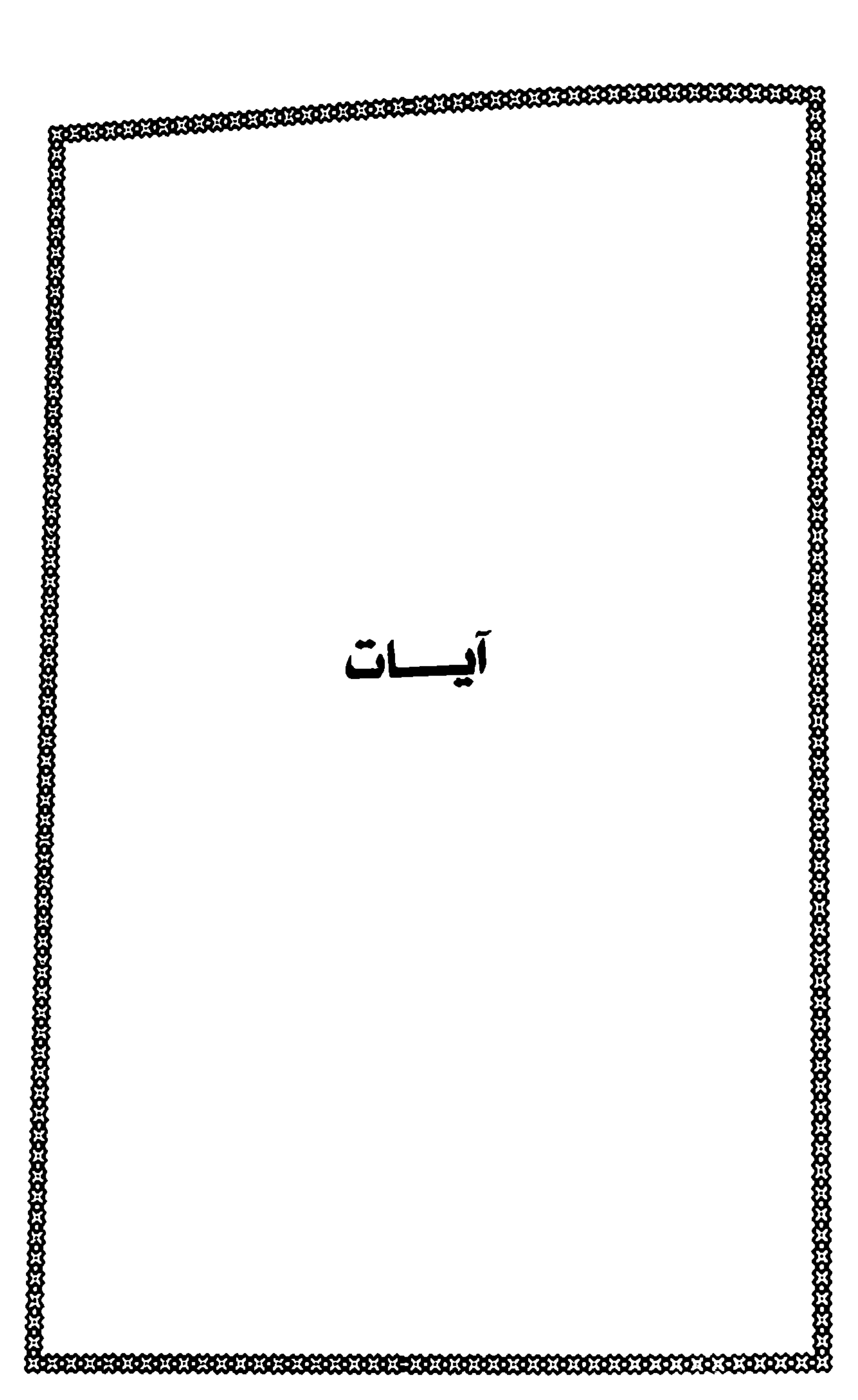
والله ولي توفيقنا وتوفيقك إلى ما يحبه ويرضاه.

*****

---

(١) رواه الطبراني في الكبير (٢٢/ ٥٩) عن واثلة بن الأسقع رضي الله عنه. وقال الهيثمي: فيه بشر بن عون وهو متهم بالوضع. انظر: المجمع (٣/ ١٧٩).

(٢) رواه ابن أبي شيبة (٧/ ٢٢٩) عن ابن مسعود رضي الله عنه، ورواه أيضا (٨/ ١٣٠) عن البراء بن عازب رضي الله عنه.



آيـــات

[موقف المسلم من المحكم والمتشابه في القرآن الكريم][1]

﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ ۝٥ هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لا إِلَٰهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝٦ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ ۝٧ رَبَّنَا لا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴾ [آل عمران: ٥-٨].

المحكم: هو الظاهر المعنى، الواضح الدلالة، الذى يصل العقل البشرى إلى إدراك كُنه حقيقته والمقصود به من آيات كتاب الله.

والمتشابه: ما ليس كذلك من كل ما يقف العقل البشرى أمامه موقف التسليم والتفويض لا موقف الجحود والإنكار والاستحالة.

وهذا التقسيم طبيعى متدرِّج، فإن العقل البشرى قاصر، وهو يترقَّى دائما، ولا يستطيع الوصول إلى كل الحقائق، ولا سيما ما يتَّصل منها بغير هذا العالم الحسى الذى نعيش فيه، فإذا ذكر الحقُّ تبارك وتعالى ما يدل على قدرته وعظمته، وحمل الناس على الإيمان واليقين من حقائق هذا الكون؛ التى لم يصل إليها العقل بعد، أو من حقائق الأكوان الأخرى التى لا يرقى إليها بحث هذا العقل الإنسانى، لم يكن ذلك متنافيًا مع حكمة التشريع التى جاء لها القرآن أساسًا من جهة، وكنا ملزمين بالإيمان والتصديق مع التفويض والتسليم من جهة أخرى.

وبذلك ينتفى اعتراض من يقول: وما حكمة ورود المتشابه فى القرآن؟

وفى المحكم والمتشابه أقوال كثيرة تراجع فى المطوَّلات، والنفس تطمئن لما ذكرت لك.

وقد يقال: إنَّ آيات القرآن وصفت بأنها محكمة فى سورة هود [الآية: ١]: ﴿ كِتَابٌ

---

(١) نشرت فى مجلة (النذير) فى العدد (٢٠) من السنة الثانية فى ١٥ من جمادى الأولى سنة ١٣٥٨هـ.

أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ﴾ ووصفت بأنها متشابهة في سورة الزمر [الآية : ٢٣] : **﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا ﴾** ووصفت هنا بأن منها المحكم والمتشابه فما وجه هذا؟

والجواب : إنها جميعها محكمة في المقاصد والغايات، ومتشابهة في الجمال والحُسْن والقداسة، ومنها : المحكم والمتشابه باعتبار وضوح المعنى أو دقته عن العقل البشرى، فلا خلاف ولا تضارب.

يا أخي : هذان قسمان في خطاب الله : مُحْكَمٌ تؤمن به وتعمل بمقتضاه، ومتشابه تؤمن به وتفوِّض علم حقيقته إلى الله، والرسوخ في العلم : أن تفوِّض، فذلك هو الظاهر من الآية، ومن أَبَى إلا الجدل والمراء في حقائق هذا المتشابه : فهو زائغٌ يبغي الفتنة، والأوْلَى بالناس : صرف بحوثهم إلى ما ينفع، ويستطيعون إدراكه من غرابة صنع الله في الكون وفي أنفسهم، مع الإلحاح بالدعاء أن يهدى الله قلوبهم، وأن يثبتها على الإيمان.

وآيات الصفات وأحاديثها من الاستواء، واليد، والعين، والأعين، ونحوها كلها من المتشابه، وقد ثار الجدل والخلاف بين الناس فيها، فاحذر أن تخوض في هذا الخلاف، أو تقتحم ميدان هذا الجدل، فالأمر أكبر من عقول البشر وتفكيرهم، فلا تُشَبِّه ولا تُعَطِّل، وقل : آمنت بذلك كما جاء عن الله ورسوله، وفقَّنا الله وإياك لخير ما يحب ويرضى.

*****

[المسلمون بين الوحدة والفرقة](1)

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ (100) وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (101) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٠-١٠٢].

ما أشبه الليلة بالبارحة:

روى زيد بن أسلم قال: مرَّ شاس بن قيس اليهودى - وكان شيخًا عظيم الكفر، شديد الطعن على المسلمين - بنفر من الأوس والخزرج، وهم فى مجلس يتحدثون، فغاظه ما رأى من أُلْفَتهم وصلاح ذات بينهم فى الإسلام، بعد الذى كان بينهم من العداوة فى الجاهلية، وقال: "قد اجتمع بنو قيلة - (وهو لقب الأنصار قبل الإسلام) - بهذه البلاد، والله ما لنا معهم من قرار إذا اجتمعوا" فامر شابًا من اليهود كان معه أن يجلس إليهم ويذكرهم يوم بعاث - (وهو يوم القتال بين الأوس والخزرج) - ففعل فتكلَّم القوم عند ذلك، وتنازعوا، وتفاخروا، وتنادوا إلى السلاح، وتداعَوْا بدعوى الجاهلية، فخرج إليهم رسول الله ﷺ ومعه المهاجرون، حتى جاءهم، فقال: يا معشر المسلمين أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم؟ بعد إذ أكرمكم الله بالإسلام، وقطع عنكم أمر الجاهلية، وألَّف بينكم ترجعون إلى ما كنتم عليه كفاراً، الله الله! فعرف القوم أنها نزغة الشيطان، وكيد من عدوهم، فالقوا السلاح من أيديهم وبَكَوْا، واعتنق بعضهم بعضًا، ثم انصرفوا مع رسول الله ﷺ سامعين مطيعين، فانزل الله عز وجل الآيات(2).

أرأيت أيها الأخ المسلم كيف تغيظ وحدة المسلمين عدوهم، فيعمل على تمزيقها، وما حصل بالامس قد تكرَّر اليوم، فإنَّ خصوم الإسلام من المستعمرين والغاصبين والملاحدة رأوا وحدة المسلمين فى ديارهم وأقطارهم، ورأوا شدة تمسُّكهم بدينهم، فعملوا على تمزيق هذه الوحدة بالتجزئة والتقسيم، وإثارة القومية الموضعية بين الأقطار

(١) نشرت فى مجلة (النذير) فى العدد (١٨) من السنة الثانية فى غرة جمادى الأولى سنة ١٣٥٨هـ

(٢) انظر سيرة ابن هشام (٢/١٨٣-١٨٥).

الإسلامية، وبالحزبية بين أفراد الأمة الواحدة، ثم دفعوا المسلمين بعد ذلك إلى طاعتهم وتقليدهم فى كل شىء: فى نظام الحكم، فى القانون، فى التعليم، فى العادات، حتى كادت تنقطع صلة المسلمين بالإسلام، ويرجعون كفاراً يضرب بعضهم وجوه بعض.

فهل ننتبه ونصغى لهذا التحذير فنتقى الله حقَّ تقاته، ونُؤْثر رابطة الإسلام وصلة الإسلام؟

*****

[فلاح المسلمين في وحدتهم وتماسكهم][1]

﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٠٣) وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٠٤) وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٠٥) يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ (١٠٦) وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١٠٧) تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَالَمِينَ (١٠٨) وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ (١٠٩) كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ [آل عمران: ١٠٣ - ١١٠].

اعتصموا: تمسكوا.

حبل الله: تعاليمه وطريقه الموصلة إليه.

شفا حفرة: جانب حفرة.

في الآيات السابقة وقف المسلمون على مفترق الطريق بين أهل كتاب يدعونهم إلى الفرقة والخلاف، وبين منهاج الله الذي يدعوهم إلى الوحدة والخير العظيم في الدنيا والآخرة، فأخذ الله بأبصارهم وقلوبهم وأيديهم وأنقذهم وأرسلهم إلى سلوك طريقه وحده والإعراض عن كل ما سواه فقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، ثم بين في هذه الآيات الكريمة بعض تفاصيل طريقه وإرشاداته المنجية في الدنيا والآخرة، فإذا هي:

١ ـ الاعتصام بالمنهاج الرباني، وهو القرآن الكريم، حبل الله المتين والنور المبين: (واعتصموا بحبل الله جميعًا).

---

(١) نشرت في مجلة (النذير) في العدد (١٩) من السنة الثانية في ٨ من جمادى الأولى سنة ١٣٥٨هـ.

٢- الوحدة وعدم الفرقة والاختلاف: (ولا تفرقوا).

٣- تذكُّر نعمة الله فى الوحدة والإخاء والتمسُّك بعروتهما والتشبُّث بهما وأداء حقوقهما، فالمسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه للظلم. وهذا التمسُّك بالإخاء هو القوة فى الدنيا والنجاة من النار فى الآخرة: (واذكروا نعمة الله عليكم).

٤- دوامُ التناصح والتذكير، والدأب على الدعوة إلى الخير بين المسلمين حتى لا يجتاحهم دعاة الشيطان، فيتركوا طريق الله إلى طريق الشر والفساد، والمثابرة على الدعوة سبب الفلاح: (وأولئك هم المفلحون).

ثم ختمت الآيات الكريمة بمعان سامية وعبر جليلة منها: لفت نظر المسلمين إلى ضرر المخالفة والفرقة والخلاف لغيرهم من الأمم.

ومنها: أنَّ التعليم هو إرشاد الله الذى له ما فى السماوات وما فى الأرض، وإليه يرجع الأمر كله.

ومنها: تذكير المسلمين بمنزلتهم من الأمم وأنهم فى الذؤابة والذروة، فلا يصحُّ أن يُتركوا إلى مرتبة تقليد غيرهم، بل عليهم أن يشرعوا طريق الخير للناس.

أيها الأخ المسلم: كرِّر هذه الآيات الكريمة فى اعتبار وتفكُّر واطمئنان وتذوُّق حلاوتها، ثم الفت إليها أنظار الناس.

*****

[من دلائل الإيمان: الرضا بحكم الله ورسوله][1]

﴿ فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا (٦٥) وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا (٦٦) وَإِذًا لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا (٦٧) وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴾ [النساء: ٦٥-٦٨].

فى صدر هذه الآية الكريمة أمرٌ من [الله] للمؤمنين ان يقوموا بالطاعة لله وللرسول ولأولى الأمر منهم، الذين يشاركونهم إيمانهم ويحرسون دينهم وعقيدتهم، ويامرون بالمعروف وينهون عن المنكر، وإلا انتفت عنهم صفة الولاية إذا خالفوا هذه القواعد، لأنهم حينئذ لا يكونون من المؤمنين.

ثم بيَّن تبارك وتعالى أن الخلاف إذا وقع بين الراعى والرعية، او بين ولى الأمر والمامور رُدَّ ذلك الخلاف إلى الله ورسوله، إلى القانون العام إلى الدستور الخالد الذى تركه فينا رسول الله ﷺ، إلى كتاب الله وسنة محمد ﷺ، ثم كان الحكم فى ذلك الخلاف لذلك الدستور، فإذا قضى لأحد الفريقين لزمه القضاء.

هذه هى القاعدة المنطبقة التى يجب أن يسلِّم بها كل مؤمن اعتقد صدق الرسول واحقيَّة القرآن سواء أكان حاكمًا او محكومًا.

ولكن قومًا مرضى القلوب من المنافقين أبوا هذا التسليم، ولجاوا إلى أحكام الجاهلية وتمرَّدوا على حكم رسول الله ﷺ بينهم، واعترضوا عليه، فعاتبهم الله عتابًا مريرًا، وبيَّن ان ذلك لا يتفق مع الإيمان، فذلك قوله تعالى: ﴿ **يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ** ﴾ [النساء: ٦٠]، وبيَّن أن ذلك هو النفاق الذى يورث الصدود عن[2] الهدى، وبيَّن أنهم إنما ينزلون على حكم الله ورسوله إذا كان مفيدًا لهم موافقًا لأهوائهم، أما إذا كان فى كَبْحِ جِماح شهواتهم فلا.

---

(١) نشرت فى مجلة (النذير) فى العدد (٢١) من السنة الثانية الصادر فى ٢٢ من جمادى الأولى سنة ١٣٥٨هـ.

(٢) كتبت فى المقال على والصواب ما اثبته ولعله من خطأ الطباعة.

ثم أرشد الله رسوله ﷺ إلى ما يجب حيال هؤلاء وأمثالهم من عدم الاهتمام بهم مع بذل النصيحة لهم والتمسك بما أوحي إليه، ثم بيّن أنّ مهمة الرسول تستلزم طاعته، وأقسم تبارك وتعالى بذاته مضافًا إلى رسوله ﷺ تعزيزًا وتكريمًا أن الإيمان لا يتحقّق لأحد حتى يجعل الرسول أميرًا على نفسه، ويحكم فيما شجر بينه وبين غيره، ويتقبل حكمه بالرضا التام والتسليم المطلق، بغير حرج في الصدر، ولا غضاضة في النفس، حتى ولو كان هذا الحكم قتلاً لنفسه، أو هجرا لوطنه وبلده في سبيل الله، وإن كان لا يصبر على ذلك إلا القليل من المؤمنين، ولقد قال عمر وعمار وابن مسعود وناس من أصحابه ﷺ : والله لو أُمِرْنا لفعلنا. وكذلك يكون الإيمان.

ثم بيّن تبارك وتعالى أنهم لو أطاعوا لفعلوا ولظفروا بالأجر العظيم والهداية إلى الصراط، ولكان ذلك خيرًا لهم وأشد تثبيتًا.

ليقرأ إخواننا الذين يعترضون المطالبة بأحكام الله في أمة تَدَّعي الإسلام، ثم يوردون الشبهات على حدود الله التي أمر بها زجرًا عن المعصية ومحاربة للجريمة، هل هم لا يزالون بعد هذا مُصرِّين على دعوى الإيمان؟!

*****

من صور الخلود في كتاب الله

فلسطين والحبشة في آية واحدة(١)

﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ (٨٢) وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ (٨٣) وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ (٨٤) فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾ [المائدة: ٨٢-٨٥].

في العالم اليوم قضيتان تشغل كلٌّ منهما بال السياسة، وتسترعى التفات العالم، هي قضية فلسطين، وقضية الحبشة. وقد جمعهما كتاب الله في آية واحدة. وجلّى الحقيقة الواقعة للناس في صورةٍ موجزة، ولكنها دقيقة واضحة ملموسة.

في الآية الكريمة وصفٌ للمزاج اليهودى. وذلك المزاج القاسي الشديد الذى يعادى الإيمان والمؤمنين، وينفر من دعوة الخير، ويناوئ مظاهر الفضائل، يقف حَجَر عثرة في سبيل التقدُّم البشرى، ويكون أبداً لغماً ينفجر بالدسائس ويثور بالفتن.

كان اليهود قوم موسى، فآذوه أبلغ الأذى، وتمرَّدوا عليه أشدَّ التمرد، وهو الذى حرَّرهم الله على يديه، وأنقذهم به من العبودية الشاملة والعذاب الأليم، ووعدهم على لسانه أن يكونوا سادةَ الدنيا وأئمة الناس، وجعل فيهم أنبياء، وجعلهم ملوكًا، وفضلهم على العالمين(٢)، فكان جزاء هذا النبى الكريم منهم أن أمعنوا في إيذائه، وتفننوا في التجنى عليه، والخروج عن أمره وطاعته.

---

(١) نشرت في مجلة (جريدة الإخوان المسلمين) الأسبوعية في العدد (١١) من السنة الرابعة الصادر في ٤ من ربيع الآخر سنة ١٣٥٥هـ - ٢٣ من يونيو سنة ١٩٣٦م.

(٢) هذا التفضيل ليس على إطلاقه، ولكنه مقيد بشروط لم يلتزموا بها، فقد فضل الله بنى إسرائيل على العالمين الذين عاصروهم، وذلك بكثرة إرسال الرسل إليهم، وأن حباهم وكرمهم بإنزال الكتب عليهم، ولكنهم تنصلوا من أتباع الكتب، وكذبوا الرسل وحاربوهم، فصاروا أخس قوم، ولعنهم الله عز وجل في كتابه، وعلى لسان رسله.

ترعهم مرة يقترحون عليه أن يرجع بهم إلى عبادة الأوثان فيقولون: اجعل لنا إلها كما لهم آلهة، وتارة يأبون أن يؤمنوا حتى يروا الله جهرة، وتارة ينقلبون بعد إيمانهم كفارًا يعبدون عجل السامري، وتارة يرمونه بالزور والبهتان وهُجْر القول؛ حتى برأه الله من إفكهم بعد أن ينال الأذى من نفسه، فتسمع منه كلمة العاتب الأسيف: ﴿يا قوم لم تؤذونني وقد تعلمون أني رسول الله إليكم﴾ [الصف: ٥].

وكانت خاتمة المطاف: أن جبنوا عن دخول بلدهم واستعادة وطنهم واستنقاذ أرضهم من أيدي الغاصبين الحربيين المدمرين، مع أن الله وعدهم النصر وكفل لهم التأييد، ولكنهم أصروا على موقفهم وقالوا: ﴿يا موسى إنا لن ندخلها أبدًا ما داموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون﴾ [المائدة: ٢٤]، ففرّق الله بينهم وبينه، وكتب عليهم الفتنة، وخرج موسى من الدنيا وهو كظيم على هذه الأمة الرعديدة يتطلع إلى أرض الميعاد من جبل، ولا يجد من هؤلاء الجبناء من ينهض بحق الوطن.

تلك موقف اليهود من نبيهم، وأما موقفهم من المسيح عليه السلام، وأمه الصديقة، فموقف الجحود والإنكار، والتحدي الصارخ، والتجربة تلو التجربة، والدسيسة بعد الدسيسة، تارة بينه وبين الشعب، وأخرى بينه وبين الحكومة، حتى انتهت المكايد بأن رفعه الله إليه، وأحبط أعمالهم، ورد في نحورهم كيدهم، وسجّل الخزي عليهم: ﴿فبما نقضهم ميثاقهم وكفرهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء بغير حق وقولهم قلوبنا غلف بل طبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلا (١٥٥) وبكفرهم وقولهم على مريم بهتانا عظيما (١٥٦) وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم﴾ [النساء: ١٥٥-١٥٧]

حتى إذا بُعث سيدنا محمد ﷺ، وقد كانوا يؤمنون به قبل بعثه، ويبشرون الناس بنبوته، ويستفتحون به على الذين كفروا، ويعرفونه كما يعرفون أبناءهم، فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به، وكانوا مثال النفاق والإرجاف حتى أذلهم الله، وأرغم معاطسهم[١]، وأخرجهم من جوار نبيه، يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين فاعتبروا يا أولي الأبصار

أولئك هم اليهود بالتاريخ الغابر. وأما اليهود في التاريخ الحاضر فهم أبناء آبائهم: أحلاس فتنة، ومواقد شرور، وطعام ثوران، ولقاح دسائس، فما من فتنة في دولة، ولا ثورة في أمة إلا وجدت الأصبع اليهودية من ورائها تمدُّها بالوقود، وتعمل على شدتها ومضاعفة أثرها، كأنما يريد هذا الشعب أن يثأر من الدنيا كلها لعزته التي أضاعها عناده، وكرامته التي اهتدرتها ماديته، وما ظلمهم (الناس) ولكن كانوا أنفسهم يظلمون.

أنعم النظرَ في التاريخ الحديث تَرَ اليهود في روسيا وبولند[١] وألمانيا وأمريكا وغيرها من دول العالم تضجُّ من دسائس اليهود وتلاعبهم بسياستها، حتى دعا ذلك الألمانيين إلى هذا الموقف الغريب من الجنس اليهودي[٢]، ومن طالع كتاب "اليهودي المتمول" لـ (فورد) رأى من ذلك الشيء الكثير.

ولقد ضاعف هذا الشر في المزاج اليهودي أنه لا يقيم للفضيلة وزنًا، فكل همِّه أن يجمع المال كيفما كان، ولو دفع ثمن هذا الجمع من الفضيلة والشرف، وباع في سبيله مبادئ الأخلاق العالية، ولهذا أثروا وافتقر بثرائهم الناس، وتجمَّع لديهم الذهب الذي يُعينهم على قضاء مآربهم، وتحقيق مطامعهم، وتلاعبهم بعقول الساسة، وإحباطهم لجهود المصلحين، والفضيلةُ في بعض صورها قيدٌ للفاضل، وإن كان أحلى وأعذب من الانطلاق.

لقد ضجَّت كلُّ دولة من دول العالم على سَعَة أرضها وغناها وثروتها من قسم من هذا الجنس قد لا يتجاوز بضعة آلاف، فكيف تستطيع فلسطين الضيِّقة الرقعة؛ المحدودة الموارد؛ أن تتحمل وحدها شرور هذا الجنس كله مجموعا من آفاق الأرض؟! إلا أن تكون إنجلترا أرادت أن تعتبر فلسطين جوف القنبلة، لا تزال تحشوه بالبارود والديناميت، وليس بعد ذلك إلا أن تنفجر فتتطاير في كل ناحية من نواحي الشرق شظية من شظاياها، وتكون أول ضحية لهذه الشظايا مصالح الإنجليز أنفسهم.

إنَّ اليهود في فلسطين خطرٌ داهم على سياسة الشرق العامة، لأن فلسطين قلب الشرق النابض، وموطن مقدسات مسلميه ومسيحييه على السواء، ودسائس اليهود

---

(١) كتبها الإمام البنا: بولونيا.

(٢) يقصد الإمام الشهيد بذلك قصة (أفران الغاز) التي يزعم فيها اليهود أنَّ الألمان في عهد هتلر وضعوا اليهود في أفران الغاز وأحرقوهم فيها، وأن عددهم ستة ملايين، وقد دلَّل على كذب هذا الكلام المفكر الفرنسي المسلم روجيه جارودي في كتابه (الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية) وقد حوكم الرجل على ما ذكر في كتابه من حقائق تاريخية، وتمحيص منهجي لهذه الفرية!

السياسية غير منكورة، ومطامعهم في الوطن القومي غير محصورة، فهم لا يقتصرون على فلسطين، ولكنهم يستحيفون الأرض من كل جانب[1].

وخطرٌ داهم على وحدة العرب في الشرق لأنهم لا يعيشون إلا في جو التفريق، ولا يحلو لهم الطرب إلا على نغمات الشّقاق.

وخطر داهم على أخلاق الشرق فهم قوم خُلُقُهم المال باعوا من قبل آيات الله بثمن قليل، ولا يزالون يبيعون الأخلاق بثمن بخس.

سمعوا أيها الصهيونيون: لقد أسأتم إلى العالم كله، وأجرمتم في حق الأمم جميعًا، وإنا ندعوكم إلى التوبة ولا نعاملكم بغير شريعة التوراة، فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم، وأريحوا العالم من ويلاتكم، ذلك خير لكم إن كنتم تعقلون.

هذا شطر الآية، وله بقية عن عداوة الذين أشركوا تعلم تفسيرها في بيان المستر (غاندي) عقيب إسلام ابنه (عبد الله)، ذلك البيان الذي يفيض بالحنق والغيظ، ويرمي بالعداوة والشرر[2].

وشطر الآية الثاني: عن المؤمنين في الحبشة المعاصرة للبعثة، وكيف وجدوا من ملكها وبطانته رقة في القلوب، واستعدادًا في الأرواح وحماية المبادئ والعدل والإنصاف التي كفرت بها أوربا في هذا العصر، ولعلنا نتحدث عن ذلك في فرصة أخرى.

وبعد، فليس من صور الإعجاز الخالد أن يتحدَّث القرآن الكريم قبل ألف وثلاثمائة سنة وأكثر عن قضيتي العالم في هذا العصر؛ ويجمعهما في التلاوة من قبل كما اجتمعا في الحدوث من بعد، ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [فصلت: ٥٣].

*****

(١) لليهود أطماع يسمونها إسرائيل الكبرى، وهي - كما قالوا -: من الفرات إلى النيل، ومن الأرز (في لبنان) إلى النخيل (في المدينة المنورة). انظر في أطماع اليهود في البلاد الإسلامية كتاب: "أهداف إسرائيل التوسعية في البلاد العربية والإسلامية" للمرحوم اللواء الركن: محمود شيت خطاب، وهو طبع المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية. وهو في أصله بحث ضمن بحوث مجمع البحوث الإسلامية الدورة السادسة

(٢) أسلم ابن غاندي وسمى نفسه عبد الله، وكتب الإمام البنا مقالا يحيي فيه ابن غاندي، ويشد على يده، ويوصيه بكل خير، ولكن غاندي لم يرق له إسلام ابنه، فصب جام غضبه على الإسلام وأهله، ليس بالكلام فقط بل وبالفعل كذلك، والكفر كله ملة واحدة.

[من سلوك المؤمن غض البصر وحفظ الفرج][1]

﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾ [النور: ٣٠].

فى الآية الكريمة: الأمر بغض البصر، وهو: خفضُه وكفُّه عن محارم الله تبارك وتعالى، وفيها: الأمر بحفظ الفرج، وهو: صيانته عن غير من تحل له من زوجة أو ملْك يمين: ﴿ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴾ [المؤمنون: ٦، ٧].

وفى الآية: بيان الحكمة فى ذلك، وهو: أن هذا هو الأزكى والأطهر والأسلم والأخلق بشهامة الرجولة وعِفَّة الإيمان.

وفيها: التحذير من غضب الله ومَقْته، وعظيم رقابته لخلقه ﴿ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾ [النور: ٣٠].

أيها الأخ المسلم: هذه العين الباصرة من نعم الله عليك، وتصوَّر أنك فقدتها - أمتعكِ الله بسمعك وبصرك وقوتك - فماذا يكون حالك؟ وما مبلغ الخسارة العظيمة التى تشعر بها حينذاك؟

هذه النعمة التى أعطاكها الله لتصرفها فى فائدتك، ولتشكره عليها باستخدامها فى طاعته، ولو شاء لسَلَب نعمته، ولئن سلب نعمته ليكونن الشقاء فى الدنيا والآخرة.

ثم ماذا تستفيد أيها الأخ من إدامة النظر إلى المحارم، ومن الولوغ فى المعاصى والمآثم؟ لا شىء، إلا تعب القلب، وغماء الضمير، وخسارة المال، وفقدان الشرف، وانهدام الصحة، والابتلاء بالأمراض، ويرحم الله القائل:

ورُبَّ نظرة زرَعت شهوة، وشهوة ساعة أورثت حزنًا طويلاً، وترك الخطيئة خيرٌ من علاج الدأء، وإنك لتديم الالتفات، وتختلس النظرات، والله رقيبٌ عليك، وناظرٌ إليك، يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، ثم هو محاسبك بعد ذلك على كل ما جنت عيناك، واقترفت جوارحك إن لم يتغمدك برحمته ويتولك بعنايته.

وعن أبي أُمامة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: "ما من مسلم ينظر إلى محاسن امرأة ثم يغض بصره؛ إلا أحدث الله له عبادة؛ يجد حلاوتها في قلبه" رواه أحمد والطبراني(١).

وفي رواية الطبراني: "ينظر إلى امرأة أول رمقة"(٢) وهو المقصود في الحديث.

وعنه رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: "لتغضنَّ أبصاركم، ولتحفظنَّ فروجكم، أو ليكفنَّ الله وجوهكم"(٣).

فغُضَّ -يا أخي- بصرك، واحفظ فرجك، وغالب نفسك، وفي الحلال مندوحة، وفي العصر فساد، ولتكن داعية الإيمان في نفسك أقوى من فساد الزمن.

*****

---

(١) رواه أحمد (٥/ ٢٦٤) والطبراني وقال الهيثمي: فيه علي بن يزيد الألهاني وهو متروك، انظر: مجمع الزوائد (٨/ ٦٣) وضعفه المنذري ولم يبين، انظر: فيض القدير (٥/ ٦٠١). وقال عنه الألباني: ضعيف جدا. انظر: ضعيف الترغيب والترهيب (١١٩٥).

(٢) رواه الطبراني في الكبير (٨/ ٢٤٧). وإسناده ضعيف كسابقه.

(٣) رواه الطبراني في الكبير (٨/ ٢٤٦) وقال الهيثمي: فيه عليُّ بن الألهاني، وهو متروك. انظر: مجمع الزوائد (٦٣). وقال عنه الألباني: ضعيف جدا. انظر: "ضعيف الترغيب والترهيب (١١٩٧).

ويلاحظ القارئ أن الأحاديث التي ساقها الإمام البنا هنا ضعيفة، ولكن ورد في نفس المعاني أحاديث صحيحة، منها قوله ﷺ: "يا علي إن لك كنزا في الجنة، وإنك ذو قرنيها، فلا تتبع النظرة النظرة، فإنما الأولى لك، وليس لك الآخرة". وحديث: "ثلاثة لا ترى أعينهم النار: عين حرست في سبيل الله، وعين بكت من خشية الله، وعين كفَّت عن محارم الله" وحديث: "اضمنوا لي ستا من أنفسكم، منها: وغضوا أبصاركم" راجع هذه الأحاديث في كتاب النكاح، باب: الترغيب في غض البصر في: "صحيح الترغيب والترهيب" للشيخ الألباني. وفي "المنتقى من الترغيب والترهيب" للدكتور يوسف القرضاوي.

[من سلوك المؤمنة: غض البصر، وحفظ الفرج][1]

﴿ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُوْلِي الإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [النور : ٣١] .

[معاني الكلمات]

غض البصر : خفضه وكفه .

أزكى : أطهر .

الخُمُر : جمع خمار، وهو ما تستر به المرأة رأسها وصدرها (الطرحة) .

الجَيْب : الشق في الثوب فوق الصدر .

[شرح الآية]

في الآية الكريمة : لطائف دقيقة يجب أن ينتبه لها المؤمن الحريص على دينه .

من ذلك : أنه أمر المؤمنات بغض البصر، وهو كفُّه عن المحارم، وحفظ الفرج إلا عن زوج، ثم نهاهن بعد ذلك عن أسباب الاختلاط والإغراء جميعًا، ومن ذلك : إبداء الزينة، وإذا كان النهي منصبًا على إبداء الزينة، فالمراد مواضعها، وإنما جاء اللفظ هكذا مبالغة في وجوب التحرُّز والاحتفاظ .

وبعد ذلك بيان من يجوز للمرأة أن تظهرهم على مواضع زينتها، وهم الاثنا عشر صنفًا المذكورة في الآية، ومنها : التابع الصغير أو الذي لا حظَّ له في النساء . وليس من هذه الأصناف كما ترى السقَّاء ولا الخبَّاز ولا الخادم الكبير، ولا البائع الجوَّال، ولا أقارب

---

(١) نشرت في مجلة (النذير) في العدد (٢٣) من السنة الثانية الصادر في ٧ من جمادى الآخرة سنة ١٣٥٨هـ .

الزوج من أبناء الأعمام والأخوال، بل حتى إخوة الزوج أنفسهم، كل هؤلاء ليسوا من هذه الأصناف التى يحل للمرأة أن تظهر أمامها مواضع الزينة من جسمها، بل إنما إذا اقتضت الضرورة أن تظهر المرأة أمام هؤلاء فتظهر مستترة متحجبة لا يبدو منها إلا الوجه والكفان على الأكثر إذا لم تخف الفتنة.

ومن ذلك: تحذير النساء أن يحاولن إظهار ما استتر من زينتهن بضرب الأرجل ونحوه حتى يلفتن نظر من لم يلتفت.

أين هذه الآداب العالية مما نرى فيه نساءنا المسلمات من التبذُّل والتكشُّف والاختلاط الشائن، بل تَمَادَيْنَ إلى ما هو أكثر من ذلك، إلى حضور الحفلات والمآدب والمُراقَصَة والمخاصرة، والمبالغة فى التزيُّن للأجانب، وإظهار ما يمكن إظهاره من صنوف هذا التزيُّن لهم؟ وبعد ذلك يزعم كثير من الناس أنهم مسلمون...

اللهم لطفًا.

*****

النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم[1]

ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

تعال معى أيها الأخ القارئ لنقف برهة أمام هذه الآية الكريمة فنستجلى ما فيها من روائع الجمال اللفظى وبدائع التفضل المعنوى، ثم نقول بعد ذلك: (ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء).

١- أرأيت كيف عبر القرآن الكريم عن محمد ﷺ: (بالنبى) وهل تذوقت ما فى هذا اللفظ الكريم من معانى التعظيم والتكريم والشرف العالى، والمنحة الخاصة، والمقام السامى الرفيع الذى نبا عن تقدير الناس، وسما عن مقاييسهم وموازينهم.

٢- وأرأيت كيف عبَّر القرآن الكريم عن الاستحقاق بالولاية فوقعت كلمة: (أولى) موقع كلمة أحق لما فى الأولى من الشعور بأن ذلك الاستحقاق إنما كان عن الحب والولاء والرغبة والرجاء، لا عن خوف ولا إرهاب، ولا إلزام ولا إكراه.

٣- وأرأيت كيف عبَّر القرآن الكريم بكلمة: (المؤمنين) ولم يقل الناس أو المسلمين لما فى هذه الكلمة من الإشارة إلى أن هذه الأولوية ثمرة التصديق، ونتيجة الإيمان واليقين، كما قال ﷺ: والله لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين"[2] "ومن نفسه التى بين جنبيه"[3]

---

(١) نشرت فى مجلة (جريدة الإخوان المسلمين) الأسبوعية فى العدد (٨) من السنة الثانية الصادر فى يوم الخميس الموافق ٩ من ربيع الأول سنة ١٣٥٢هـ.

(٢) رواه أحمد (٤/١٨٣) والبخارى (١٥) ومسلم (٤٤) والنسائى فى المجتبى (٥٠١٣) و(٥٠١٤) وابن ماجه (٦٧) عن أنس بن مالك رضى الله عنه.

(٣) لم اجد الحديث بهذا اللفظ وقد ذكره الإمام البنا بمعناه، ولفظه: عن عبد الله بن هشام قال: "كنا مع النبى ﷺ وهو آخذ بيد عمر بن الخطاب، فقال له عمر: يا رسول الله لأنت احب إلىَّ من كل شىء إلا نفسى، فقال النبى ﷺ: لا والذى نفسى، بيده حتى أكون احب إليك من نفسك، فقال له عمر: فإنه الآن والله لأنت احب إلىَّ من نفسى، فقال له النبى ﷺ: الآن يا عمر رواه احمد (٥/٤٤٢) والبخارى (٦٦٣٢) وقد جعل الإمام البنا هذين الحديثين حديثًا واحدًا.

وهناك لطيفة أخرى هي : أن هذه الفضيلة؛ فضيلة موالاة النبي ﷺ إنما كتبها الله لأشرف طبقات الخلق، وهم المؤمنون تعظيمًا لقدر نبيه ﷺ، وتقديرًا لتصديق عباده المؤمنين.

٤- وأرأيت كيف عبّر (بالأنفس) ليدخل في هذه الأولوية كل ما دونها، وهو كل شيء من مباهج الحياة ومظاهرها؛ فالأهل دون النفس، والمال دون النفس، والمسكن دون النفس، والزوج دون النفس، والعشيرة دون النفس، وإنما يكون حب الإنسان لهذه العوارض نتيجة حبه لنفسه، وثمرة حرصه على إسعادها :

ألا كلنا يبغي الحياة لنفسه حريصًا عليها مستهامًا بها صَبًّا

فحب الجبان النفس أورده التقى وحب الشجاع النفس أورده الحربا

فإذا جَادَ الإنسان بنفسه وسخا بروحه، فقد جاد بكل شيء، والجود بالنفس أقصى غاية الجود.

وبعد أيها الأخ : فهذه لوامع بروق تسطع في قلوب المؤمنين حين تهطل عليهم سحائب فيض الحب النبوي من سماء الحقيقة المحمدية، فتهتف بها ألسنتهم، وتجري بها أقلامهم، وإن في القول بعد ذلك لسعة، وإن ما يبدو في مرآة قلوب العارفين لا حدَّ له، فسل الله يعطك، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

وبعد أن ملأت سمعك وقلبك من روائع هذا الجمال هلم نتفهم الآية الكريمة.

إنَّ ربَّك يقول لك : النبيُّ أحقُّ بك من نفسك، فنفسُك وكلُّ ما تملك فداء لنبيِّك، وملك لرسولك ﷺ، ووقف على مناصرة دعوته وحماية شريعته، ليس لك أن ترغب بنفسك عن نفسه، أو تحتجز روحك أو مالك أو كل ما تملك عن مناصرته.

وفي هذا المعنى وردت الآية الكريمة : ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب ٣٦]

والآية الكريمة : ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ

الله ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه﴾ [التوبة: ١٢٠] والحديث الصحيح: "تالله لا يؤمن احدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به"(١).

وإذا كان النبيُّ ﷺ قد اختار الرفيقَ الأعلى، وفارق هذه الحياة الدنيا، فإن هذا المعنى ثابت لسنته من بعده، ولشريعته الباقية الخالدة فهى أولى بكلُ مؤمن من نفسه، وأحق به من أهله وماله وأرضه ومسكنه وقومه وعشيرته والناس أجمعين.

فَهِمَ المسلمون الأوُلون رضوان الله عليهم هذا المعنى فسمعنا حسَّانًا رضى الله عنه يقول:

فإنَّ أبى ووالده وعرضى ... لعرض محمد منكم وِقاء(٢)

وسمعنا أبا بكر رضى الله عنه يبكى، ويقول - حين سمع قول النبى ﷺ: "إن من أَمَنِّ الناس علىَّ فى نفسه وماله: أبا بكر بن أبى قحافة"(٣)-: بأبى أنت وأمى يا رسول الله، وهل أنفسنا وأموالنا إلا ملك يمينك.

فهل يفهم المسلمون الآن هذا فيعلمون ان دينهم أوْلى بهم من أنفسهم وأموالهم فيعملون على مناصرته وإنقاذه أم هم فى غمرة ساهون.

اللهم فَقِّهنا فى دينك، وعلِّمنا من أسرار كتابك.

*****

(١) رواه ابن أبى عاصم فى "السنة" (١/ ١٢) والسيوطى فى "مفتاح الجنة" (١/ ٤٧) وذكره فى "نوادر الأصول" (٤/ ١٦٤) وفى فيض القدير (٥/ ٢٩٥) وذكره النووى فى الأربعين النووية، وضعفه ابن رجب وأطال فى ذكر طرقه، انظر: "جامع العلوم والحكم" (٢/ ٣٩٣-٣٩٥) ط. الرسالة. وضعفه الألبانى فى تخريج لكتاب "السنة" لابن أبى عاصم برقم (١٥) (١/ ١٢،١٣).

(٢) رواه أحمد (٧/ ٢٨٢) والبخارى (٤١٤١) ومسلم (٢٤٩٠) و(٢٧٧٠) عن عائشة رضى الله عنها.

(٣) رواه أحمد (٣/ ٣٩٤) والبخارى (٤٦٦) و (٣٦٥٤) و (٣٩٠٤) ومسلم (٢٣٨٢) والترمذى (٣٦٦٠) عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه، وأحمد (١/ ٤٤٥) والبخارى (٤٦٧) عن ابن عباس رضى الله عنهما، وأحمد (١٥٤٩٢) والترمذى (٣٦٥٩) وقال: حسن غريب عن أبى المعلى بن لوذان رضى الله عنه، والترمذى (٣٦٦١) عن أبى هريرة رضى الله عنه وقال: حسن غريب.

منهاجنا من كتاب الله

١. طمأنينة الإيمان(١)

﴿ سَبَّح لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝ هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الأَبْصَارِ ۝ وَلَوْلا أَن كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ ﴾ [الحشر : ١-٣] .

نَزَل النبي ﷺ المدينة محفوفًا بجلال النبوة، مؤيداً بنصر الله وحياطته، عزيزاً بروعة الدعوة التى جاء بها لإنقاذ البشرية، مسروراً بمن حوله من أنصار الله وجنوده من المؤمنين الصادقين، يستمع فى لذة واستبشار إلى هذه الأغانى البريئة العذبة والأناشيد المؤمنة الحلوة، التى تهتف بها قلوب الجوارى والناشئين من أبناء يثرب من حناجرهم :

طَلَع البدر علينا ... من ثنيات الوداع

وَجَب الشكرُ علينا ... ما دَعَا لله داع

أيها المبعوث فينا ... جئت بالأمر المطاع(٢)

نحن جوار من بنى النجار ... يا حبذا محمدا من جار(٣)

---

(١) نشرت فى مجلة (النذير) فى العدد (٢٧) من السنة الأولى الصادر فى ١٣ من شوال سنة ١٣٥٧هـ.

(٢) لم ترد رواية صحيحة بأن هذه الأبيات قيلت فى استقبال النبى ﷺ عند هجرته للمدينة، انظر فى ذلك: فتح البارى لابن حجر (٧ / ٢٦١، ٢٦٢) وزاد المعاد لابن القيم (٣ / ٥٥١) وشرح المواهب اللدنية للزرقانى (١ / ٣٥٩، ٣٦٠)، وانظر أيضا : (صحيح السيرة النبوية) للدكتور أكرم ضياء العمرى (١ / ٢١٩).

(٣) رواه ابن ماجة (١٨٩٩) وأبو يعلى (٣٤٠٩) وابن السنى فى "عمل اليوم والليلة" برقم (٢٢٩) وأورده ابن حجر فى "المطالب العالية" (٤١٧٩) عن أنس بن مالك رضى الله عنه. وقال البوصيرى فى "مصباح الزجاجة" هذا إسناد صحيح، رجاله ثقات. وقال الهيثمى : رواه أبو يعلى من طريق رشيد، عن ثابت، ورشيد هذا قال عنه الذهبى : مجهول. انظر: مجمع الزوائد (١٠ / ٤٢). وقال محقق أبى يعلى : إسناده ضعيف.

هل ترى فى هذا النشيد إلا وضوحًا فى الغاية، وحلاوة فى اللفظ، وبراءة من التكلُّف، واعتزازًا بالإيمان، وإعلانًا للرجولة، وتقريرًا للدعوة، وترحيبًا بالجوار الكريم ﷺ.

هكذا تكون الأناشيد التى تمثل صفاء روح الأمة، وتبعث فى قلوب بنيها الغايات النبيلة، ودعونا من خُنوثة مدنية القرن العشرين وما فيها من خلاعة وفجور.

واستقرَّ به ﷺ المقام فى مدينته المؤمنة، وأخذ ينظر فى تنظيم شؤون دعوته الشاملة فى هذا المقر الجديد، يؤازره فى ذلك توفيقٌ من الله عجيب وشديد، وتأييدٌ وإرشادٌ سامٍ من الملأ الأعلى يغدو به جبريل ويروح بين السماء والأرض.

هؤلاء الأنصار سكان يثرب وأهل السابقة فيها قد وجد بين قلوبهم الدين الجديد، فدفنوا الخصومات والأحقاد، وأذهب الله عنهم عبية الجاهلية وحميتها الطائشة، فأصبحوا بنعمة الله إخوانًا.

وهؤلاء المهاجرون قد وجدوا فى ظل محبة إخوانهم الأنصار وما غمروهم به من عواطف الإخلاص العميق والتكرم البالغ ما أنساهم مرارة الاغتراب، وغضاضة هجرة الأهل والخلان، فوجدوا فى ظلال النخيل من يثرب المباركة أرضًا بأرض وخلانًا بخلان، وحبَّب الله إليهم المدينة، وأذهب عنهم وباءها ولأواءها، فكملت لهم النعمة، وتجمعت لهم أسباب الوحدة ﴿هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٢، ٦٣].

ولكن إلى جانب هذا الصف المنتظم، وبجوار تلك الكتيبة المؤمنة مواطنون آخرون لهم حقُّ الجوار، وحقُّ الإقامة، وحقُّ الشركة فى المصالح والأرضين والأموال، أولئك هم يهود يثرب من بنى قريظة وبنى النضير وبنى قينقاع وعلى بُعْدٍ منهم يهود خيبر وما والاهم.

هؤلاء اليهود الذين يعتزُّون بانتسابهم إلى نبى الله إسرائيل [يعقوب عليه السلام]، ويفخرون بما ورثوا من تعاليم موسى وهارون ويترفعون عن الناس بأنهم شعب الله المختار، ويَفْضُلُون عرب الجزيرة فى الثقافة والتعليم والمال، وقد نظَّموا أنفسهم كعادتهم فى منزل ينزلونه تنظيمًا يكفل لهم أن يعيشوا فى كل أمة وهم عنها غرباء، وأن ينتهزوا كل فرصة

ليكون لهم الغُنْم وعلى غيرهم الغُرْم، ويتربَّصون الدوائر دائمًا بالأمم والشعوب، وإن نَعمُوا بخيرها وعاشوا في ظلها.

هؤلاء اليهود كانوا يرقبون مبعث النبيُ الجديد حتى يكونوا أول من آمن به، فيسودون بسيادته، وينبه ذكرهم باتِّباع دعوته، ويساهمون في تأييده، فلما جاء وكان عربيا ولم يكن إسرائيليا كفروا به، وناهضوا دعوته، وأسرُّوا خصومته.

ماذا يكون موقف النبي ﷺ منهم وهو لا بد أن يحدِّد هذا الموقف تحديدًا واضحًا حتى يتفرَّغ لما ينتظره من واجبات كبار وأعمال واسعة النطاق؟

وهنا يظهر الخطر في عدم تجانس الأمة، وكثرة الأقليات فيها، وعدم العمل لتوحيد أهدافها حتى تصل إلى غايتها. وما أسعد الأمة المتحدة العناصر، المتشابكة العقائد والآراء والأهداف. وما نصيحة القرآن لأبنائه لو عقلوها: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لا يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ (١١٨) هَا أَنتُمْ أُوْلاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلا يُحِبُّونَكُمْ** ﴾ [آل عمران: ١١٨، ١١٩].

اجه النبيُ ﷺ هذه المشكلة؛ مشكلة الأقلية اليهودية من جيران يثرب ونزلائها فكان بين فريقين: فريق المشركين في مكة، وهؤلاء خصوم ألدَّاء، ناهضوا دعوته، وأخرجوه هو وأصحابه من ديارهم وأموالهم وأهلهم، وَرَانَ على قلوبهم ما كانوا يكسبون من أدران الوثنية وعادات الجاهلية.

وفريق اليهود في يثرب وهم قوم متألهون قد ورثوا شيئًا عن النبوة والأنبياء، فليست الدعوة غريبة عنهم، بل كانوا من المُبَشِّرين بها، والدَّاعين إليها، وهم في الوقت نفسه ليسوا في قوة أولئك، وهم قد وقفوا موقف المترقب المنتظر.

رأى النبيُ ﷺ أمام هذا الوضع أن يحالف هؤلاء اليهود، وبخاصة وهو يُقدِّر[1] أنبياءهم، ويشيد بمآثر رسلهم، ويقصُّ عليهم من تاريخهم، ويذكرهم بأيامهم، ويؤكد

---

(١) كتبت في المقال (يقدس) وهو خطأ، ولعله من خطأ للطبعة في المجلة، والصواب ما أثبته، فلا يوجد في الإسلام تقديس لشخص، إنما تقدير واحترام.

التوحيد، ويناهض الشرك، وذلك أصل الأديان جميعًا، فهم - والحالة هذه - حلفاء طبيعيون لهذه الدعوة لو سلمت نفوسهم من الأهواء والغايات، وساعد على ذلك أمر الله لنبيه ﷺ أن يتحوّل في صلاته إلى بيت المقدس تاليفًا لقلوبهم، وإعلانًا لمسالمتهم، وبيانا بأن هذه الدعوة لن تهدم مجدهم إن اتّبعوها، بل ستزيد في كتاب تاريخهم الديني صفحة مجيدة من النور إن آمنوا وأخلصوا.

أنفذ النبي ﷺ هذه الخطة، وما أحكمها، فسالم اليهود، وعاهدهم على التعاون التام فيما فيه خيرُ البلد المشترك، وألا يخرجهم من المدينة، وألا يناوئوه فيها حتى يظهر أمر الله، ويقضي الله أمرًا كان مفعولاً.

أيّد الله نبيَّه في غزوة بدر، وأدال للإسلام من خصومه، ففرح بذلك بنو النُّضير من يهود المدينة، وقالوا: نبيٌّ كريم يأتيه الناموس الذي أنزل على موسى؛ أيده الله ونصره على قوم وثنيين مشركين(١).

وجاءت غزوة أحد وكان فيها ما كان من كثرة الشهداء في صفوف أهل الإسلام، فأثَّر ذلك في نفوس اليهود وقالوا: لو كان نبيًّا لأيده الله ونصره، وفاتهم ما كان من هذه الغزوة من الدروس العملية الحازمة؛ التي كان لا بد منها لتكوين الأمة الجديدة على أمتن قواعد التكوين، ولكنه الإيمان المتردد الشاك، والعقيدة الزائفة المترجرجة، والنَّفعية القائمة التي تحجب عن القلوب أنوار اليقين، وتدع صاحبها متذبذبًا بين الدعوات، حائرًا بين الهيئات، لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء. فاللهم أذقنا حلاوة الإيمان، وأسعدنا بكمال اليقين.

---

(١) لا أدري من أين أتى الإمام البنا بهذا الكلام، وكيف سُر يهود بني النضير بنصر رسول الله ﷺ في بدر. واليهود كلهم ما زادهم نصر الله لرسوله في بدر إلا حنقا وبغضا له وللإسلام والمسلمين، حتى قالت بنو قينقاع بعد بدر لرسول الله ﷺ: "يا محمد لا يغرنك أنك لقيت قوما لا علم لهم بالحرب فأصبت منهم، إنا والله لئن حاربتنا لتعلمن أنا نحن الناس" فأنزل الله عز وجل: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ [آل عمران: ١٢] حتى يهود بني النضير الذين ذكر الإمام البنا أنهم فرحوا بنصر الله للمسلمين في بدر قال زعيمهم كعب بن الأشرف بعد غزوة بدر شعرا يبكي أصحاب القليب من قريش الذين قتلوا في بدر ذكره ابن هشام في سيرته، ورد عليه حسان بن ثابت رضي الله عنه. انظر: سيرة ابن هشام (٢/ ٤٢٦-٤٣٦). وأرى أن ما ذكره الأستاذ البنا من باب سبق القلم، وسبحان من لا يغفل ولا ينام.

وظنَّ هؤلاء النفعيون الحاسدون أن النصر سيكون لأهل الشرك من بعد ذلك، وشجعهم على هذا منافقو المدينة الآخرون، فأوفدوا رئيسًا منهم هو كعب بن الأشرف على رأس أربعين راجعًا بهم إلى مكة يعاهد قريشًا على المناصرة والتأييد، وينفض بذلك عهد رسول الله ﷺ، فأخرجت لهم قريش أبا سفيان فى أربعين من رجالها، والتقى الفريقان تحت أستار الكعبة يتعاهدون على الغدر والكُفْران، ومناهضة دعوة النبى ﷺ.

لندع هؤلاء فى مكة يأتمرون، ولنعد إلى يثرب لنرى أثر ذلك فى رسول الله ﷺ وصحابته[1].

*****

---

(١) المفترض ان القصة لها بقية، ولكن الإمام البنا لم يكملها، ولا ادرى ما السبب وراء عدم اكتمالها، هل بسبب مشاغله التى تحول دومًا بينه وتكملة كثير من البحوث، أم ان المجلة بعد ذلك صودرت، أو أغلقت. فالمقال كان فى مجلة (النذير) ومن المعلوم انها لم تدم طويلا فقد تركها الإمام لتحول صاحب الامتياز إلى منهج آخر غير منهج الإخوان، فقد كان صاحب الامتياز هو الأستاذ: محمود ابو زيد، وقد اسس مع من اسسوا جماعة (شباب محمد).

المشكلات الثلاث(١)

تعترض الدنيا الجديدة مشكلات ثلاث تذوب أدمغة زعماء الامم، وقادة الشعوب الآن تفكيراً فى حلها وتتلمس العلاج لها: مشكلة الدولة، ومشكلة الثروة، ومشكلة الاسرة..

.وقد عرض القرآن الكريم لهذه المشكلات فذكرها ووضع فى يد الناس -لو صلحت نياتهم وسلم تفكيرهم- مفاتح الحلول الصحيحة لها، وعجيب أن يكون ذلك كله فى "ثلاث وعشرين كلمة" ثمان منها فى مشكلة الدولة، وسبع فى مشكلة الثروة، وثمان أخر فى مشكلة الاسرة.

[مشكلة الدولة]

يقول الله تبارك وتعالى فى سورة آل عمران [الآية: ١٥٩]: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾.

ثمانى كلمات حدَّدت حقَّ الحاكم والمحكوم، فللمحكوم أن يشير وينصح، وأن يقول كل ما عنده، وعلى الحاكم أن يستمع وينتصح، ويأخذ بكل ما هو حق وخير، وله بعد ذلك أن يأمر فيُطاع، ويعزم فيتَّبع، ويتحمل نتيجة تصرُّفه، فإنْ أحسن فله وللناس، وإنْ أساء فعلى نفسها تجنى براقش.

[مشكلة الثروة]

ويقول الله تبارك وتعالى فى سورة المعارج [الآية: ٢٤، ٢٥]: ﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ (٢٤) لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾.

سبع كلمات حلَّت مشكلة الطبقات، ووضعت العلاج لفتنة الثروة، فلو عرف

(١) نشرت فى مجلة (الإخوان المسلمون) الاسبوعية فى العدد (٧) من السنة الثانية الصادر فى غرة ربيع الآخر سنة ١٣٦٣هـ-٢٦ من فبراير سنة ١٩٤٤م. وقد جعل الإمام البنا عنوان المقال: (المشاكل الثلاثة) وهو خطأ لغة، لان مشكلات مفردها مُشْكلة، على وزن مُفْعلة، فيكون جمعها مُشْكلات لا مَشاكِل، وقد كتبها الإمام البنا كثيرا بهذه الصيغة (مشاكل) وهو خطأ، والصواب ما أثبته.

الأغنياء أن للفقراء فى أموالهم حقًا معلومًا للسائل والمحروم، وأخرجوه طيبة به نفوسهم، راضية به قلوبهم، لوجد الفقير فى هذا العطف بلسمًا لجراحه، وشفاءً لذات صدره.

[مشكلة الأسرة]

ويقول الله تبارك وتعالى فى سورة البقرة [الآية: ٢٢٨]: ﴿ **وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ** ﴾.

فهى ثمانى كلمات تقوم أساسًا صحيحًا لسعادة الأسرة، وتبيان جقوق المرأة، فلو عرف الرجال أنَّ للنساء مثل ما عليهن، فادوا الحقوق كما يطالبون بالواجبات، وعرف النساء أنَّ للرجال عليهنَّ درجة الرقابة والتوجيه، فاسلمن لهم القياد طائعات راضيات، لو كان ذلك كذلك لنَعمَت الإنسانية بأسرٍ متكافلة متعاونة ناعمة فى رَغَدٍ من العيش وطمأنينة فى الحياة.

أو ليس غريبًا أن يعرض القرآن الكريم لهذه المشكلات العصرية قبل أربعة عشر قرنًا، ثم يصف لها هذا العلاج الناجع المفيد؟

أو ليس غريبًا أن يجىء أسلوب القرآن فسيحًا غير ضيِّق، مرِنًا غير جامد، وأن يدع دائمًا التفصيل والتفريع للظروف والحوادث والعوامل الموضعية الخاصة.

فكيف يشاورهم؟ ومتى؟ وفى أى شىء؟ ومنْ هم هؤلاء المستشارون؟ وكيف يختارهم الحاكم؟ كل أولئك يتوقف على عوامل عدَّة لا يعلم مداها إلا الله، وهى مع هذا تتغيَّر بتغيُّر الظروف والأزمان، وإذن فحسب القرآن أن يقرر المبدأ العام، ويدع للظروف ما سواه.

وما تلك الدرجة التى للرجل على المرأة؟ وماذا تتناول من شؤون الأسرة؟ هذا أيضًا متروك لهما معا فى كل عصر بحسبه.

وهذا الحق المعلوم فى الزكاة من مال الغنى للفقير جاء محدَّدًا حتى لا تعبث به يد البخل والشح، ثم طلبت الصدقة النافلة بعد ذلك، وأعطى الحاكم بعد ذلك حق النظر فى مصالح الناس وتغليب المنفعة العامة على الحقوق الخاصة مع التعويض المناسب عن اللزوم.

وهكذا عالج القرآن الكريم أدق مشكلات العصر الحديث هذا العلاج الإجمالى الدقيق، الذى لو طبقه الناس بإنصاف وإخلاص - والمنصفون قليل - لانحلت المشكلات، وبرئت علل المجتمع البائس المسكين.

وهذا نمطٌ من رسالة القرآن الكريم التى قامت عليها مدنية الإسلام الحنيف، يؤمن الإخوان المسلمون من قرارة نفوسهم أنه أفضل ما يقدِّمون للإنسانية من خير، ويخصُّونها به من برٍّ، لو التفت إليه واعتمد عليه، فاعملوا - أيها الإخوان - جاهدين، ولا تهنوا، ولا تحزنوا، وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين.

*****

معركة المصحف

بيننا وبين الناس كتاب الله(١)

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴾ [النساء: ١٧٤].

﴿ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ (١٥) يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [المائدة: ١٥، ١٦].

﴿ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (١) اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَوَيْلٌ لِّلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ [إبراهيم: ١، ٢].

﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [النحل: ٤٤].

﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴾ [الفرقان: ١].

﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ [المائدة: ٦٧].

قيل: وما معركة المصحف؟

والجواب: إنها معركة وضع القواعد والحدود، وبيان المميِّزات والفروق، بين الذين آمنوا بالمصحف إيمانًا حقيقيًا، فجرت به ألسنتهم غضًا طريًا، وانشرحت له صدورهم نورًا ربانيًا، وآمنت به قلوبهم إيمانًا عميقًا، وفقهت أحكامه عقولهم فقهًا دقيقًا، فطبَّقوه في حياتهم الخاصة تطبيقًا كاملاً، وطالبوا به في حياتهم العامة مثلاً عاليًا ونظامًا شاملاً، وبين الذين لم يسعدوا بعد بالانتساب إلى هذا الكتاب، أو انتسبوا إليه، ثم رضوا بمجرد الانتساب، إما غفلة أو تبرُّمًا به أو رضًا عن غيره، أو خديعةً بأعدائه، أو ألفةً لسواه، أو خوفا وخشية للذين لا يؤمنون بالله، ﴿ فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ

---

(١) نشرت في جريدة (الإخوان المسلمون) اليومية في العدد (٦٢٥) من السنة الثالثة الصادر في يوم الخميس الموافق ٤ من رجب سنة ١٣٦٧هـ - ١٣ من مايو سنة ١٩٤٧م.

نَخْشَىٰ أَن تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسَرُّوا فِي أَنفُسِهِمْ نَادِمِينَ ﴾ [المائدة : ٥٢] .

والجواب: أنها بين الإخوان المسلمين الذين رأوا منذ عشرين سنة انحراف العالم كله عن جادَّة الصواب، وضلاله فى مسالك النظم الاجتماعية الفاسدة، وإهماله لهذا النظام الربانى الكريم والصِّراط المستقيم، كما رأوا كذلك نسيان أهل القرآن أنفسهم والمنتسبين إليه من أبناء الأمة الإسلامية لما فيه من روائع الحكم والأحكام، وكمال القواعد والأصول، ودقَّة الفروع، وحُسن النظام: ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ (٢٤) تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ﴾ [إبراهيم : ٢٤، ٢٥] . وانصرافهم عنه إلى مبادئ ودعوات لم يعرفوها، ونُظُم وأحكام لم يألفوها، جرَّت عليهم الخَيْبة والفساد فى الدنيا، وسيكون جزاؤها الندم والعذاب فى الآخرة. فقاموا من هذا التاريخ يهتفون " **القرآن دستورنا** " ويطالبون فى إلحاح بأن يكون للقرآن أمته الواعية، ودولته العاملة، تنفُذه الأولى، وتحققه وتحميه الثانية وتنشره، حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله .

المعركة بين هؤلاء وبين أولئك الصنفين: الذين لا يؤمنون به على اختلاف أممهم ودولهم وعقائدهم ليؤمنوا . والذين آمنوا به على اختلاف طوائفهم وهيئاتهم وأحزابهم ومذاهبهم ليتذكَّروا ﴿ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴾ [ق : ٤٥] .

وقيل: وعلى أى أساس تدور؟

والجواب : أنها تدور بالحكمة والموعظة الحسنة، والبيان الصريح الكافى، والدعوة الواضحة المشرقة على أساس النصوص القرآنية المحكمة القاطعة التى لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها ﴿ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [فصلت : ٤٢] .

ولن تدع الخصوم يفلتون من ثنايا وجوه التأويل والتفسير، أو يفرُّون من أبواب النقاش والجدل العقيم، بل سنوقفهم أمام النص المحكم وجهًا لوجه، فلا يستطيعون منه فرارًا أو إفلاتًا، فإما عنادٌ أو تسليمٌ: ﴿ لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأنفال : ٤٢] .

قيل: وما النتيجة المرجوة من ذلك؟

والجواب: هو التميز أولاً. فلا بدَّ أن يمتاز أهل الحق من أهل الباطل، وحينئذ يزداد الذين آمنوا إيمانًا بعد وضوح حجتهم، وبيان محجتهم، ويتعثَّر أهل الرجس في رجسهم، ويشعرون بمرض القلب، وظلمة النفس، وفداحة الجرم، وحرارة الإثم، لعلهم يتقون أو يحدث لهم ذكرًا، وما طال عمر الباطل إلا حين يمتزج به ستار من الحق، أو يمتزج هو بعناصر من الحق، وما فقد بالحق شيء كاختلاطه بطرف من الباطل ﴿لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الفتح:٢٥].

ورحم الله القائل: ميِّزْنا يا خالد. وحين يتم هذا التميُّز في الموازين والقواعد، ثم في النفوس والمشاعر، ثم في الأعمال والتصرفات، تحددت بفعاله الحقوق والواجبات، وانتصر أهل الحق بحقهم وتفرَّق أهل الباطل عن باطلهم، وكانت العاقبة للمتقين، والنصر للمؤمنين، ويومئذ يفرح المؤمنون بنصره، ينصر من يشاء، وهو العزيز الرحيم.

*****

أين حكم الله؟(1)

﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا ﴾ [النساء: ١٠٥].

﴿ وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ (٤٩) أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ [المائدة: ٤٩، ٥٠].

﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ﴾ [النور: ٥١].

الإسلام دين ودولة ما فى ذلك شك،

ومعنى هذا التعبير بالقول الواضح: أنَّ الإسلام شريعة ربانية جاءت بتعاليم إنسانية وأحكام اجتماعية، وكلت حمايتها ونشرها والإشراف على تنفيذها بين المؤمنين بها إلى الدولة، أى إلى الحاكم الذى يرأس جماعة المسلمين ويحكم أمتهم. وإذا قصر الحاكم فى حماية هذه الأحكام لم يعد حاكمًا إسلاميًا، وإذا أهملت شرائع الدولة هذه المهمة لم تعد دولة إسلامية، وإذا رضيت الجماعة أو الأمة الإسلامية بهذا الإهمال ووافقت عليه: لم تعد هى الأخرى أمة إسلامية، مهما ادَّعت ذلك بلسانها.

وأن من شرائط الحاكم المسلم: أن يكون فى نفسه متمسكًا بفرائض الإسلام، بعيدًا عن محارم الله، غير مرتكب للكبائر، وهذا وحده لا يكفى فى اعتباره حاكمًا مسلمًا حتى تكون شرائع دولته ملزمة إياه بحماية أحكام الإسلام بين المسلمين، ملزمة إياه كذلك بتبليغها لغير المسلمين، وتحديد موقف الدولة منهم بناء على موقفهم هم من دعوة الإسلام.

هذا الكلام لا نقاش فيه ولا جدل وهو ما تفرضه هذه الآيات المحكمة من كتاب الله،

---

(١) نشرت فى جريدة (الإخوان المسلمون) اليومية فى العدد: (٦٢٧) من السنة الثالثة الصادر فى يوم الأحد الموافق ٧ من رجب سنة ١٣٦٧هـ - ١٦ من مايو سنة ١٩٤٨م.

ولقد كانت آيات النور صريحة كل الصراحة، واضحة كل الوضوح في الرد على الذين يتهربون من الحكم بما أنزل الله وإخراجهم من زمرة المؤمنين فالله تبارك وتعالى يقول: ﴿ وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [النور: ٤٧-٥١] كما جاءت آيات المائدة تصف المهملين لأحكام الله بالكفر والظلم والفسق فتقول: (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون)، و(الظالمون)، و(الفاسقون)، ثم تقول: ﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ [المائدة: ٥٠].

ولا يكفي في تحقيق الحكم بما أنزل الله أن تعلن الدولة في دستورها أنها دولة مسلمة، وأن دينها الرسمي الإسلام، وأن تحكم بأحكام الله في الأحوال الشخصية، وتحكم بما يصطدم بأحكام الله في الدماء والأموال والأعراض، أو يقول رجال الحكم فيها: إنهم مسلمون - سواء هذا أكانت أعمالهم الشخصية توافق هذا القول أم تخالفه - لا يكفي هذا بحال، ولكن المقصود بحكم الله في الدولة: أن تكون دولة دعوة، وأن يستغرق هذا الشعور الحاكمين مهما علت درجاتهم، والمحكومين مهما تنوعت أعمالهم، وأن يكون هذا المظهر صبغة ثابتة للدولة توصف بها بين الناس، وتعرف بها في المجامع الدولية، وتصدر عنها في كل التصرفات، وترتبط بمقتضياتها في القول والعمل.

في العالم دولة اسمها الاتحاد السوفيتي[1] لها مبدأ معروف، ولون معروف، ومذهب معروف، نحن لا نأخذ به ولا ندعو إليه، ولكنا نقول: إن هذه الدولة عرفت بلونها هذا بين الناس، وفي المجامع الدولية، وهي ترتبط بمقتضياته في كل تصرفاتها وأقوالها وأعمالها.

---

(١) كان هذا قبل تفكك الاتحاد السوفيتي وسقوط الشيوعية إلى غير رجعة إن شاء الله.

وقد أرادت إنجلترا وأمريكا تقليدها فادعتا أنها تصطبغان بالدعوة إلى شيء اسمه الديمقراطية[1]، وإن اختلف مدلوله بمختلف المصالح والمطامع والظروف والحوادث.

فلماذا لا تكون مصر، وهي دولة مستقلة ذات سيادة معروفة في المجامع الدولية بتمسُّكها بهذه الصِّبغة الإسلامية، وحرصها عليها، ودعوتها إليها، وارتباطها بها في كل قول وعمل. ذلك هو أساس الحكم بما انزل الله، ومتى وجد هذا المعنى، وارتبطت الدولة بهذا الاعتبار، واصطبغت بهذه الصبغة، فستكون النتيجة ولا شك تمسُّك الحاكمين بفرائض الإسلام، واتِّصافهم بآدابه وكمالاته، ثم صدور كل التشريعات، وخضوع كل النظم الاجتماعية في الدولة لتوجيهاته وأحكامه فيتحقق حكم الله فرديًّا واجتماعيًّا ودوليًّا وهو المطلوب.

أين نحن من هذا كله؟

الحق أننا لسنا منه في شيء وكل حظنا منه نص المادة (١٤٩)[2] من الدستور، ثم ما بقي في نفوس هذا الشعب من مشاعر وعواطف وتقدير وأعمال وعبادات، أما الحكومة والدولة ففي واد، وحكم الله في واد آخر.

يا دولة رئيس الحكومة: أنت المسؤول بالأصالة.

ويا معالي وزير العدل: أنت المسؤول بالاختصاص.

ويا فضيلة شيخ الأزهر وأصحاب الفضيلة العلماء الأجلاء: أنتم المسؤولون باسم أمانة العلم والتبليغ التي أخذ الله عليكم ميثاقها.

ويا أيتها الأمة: أنت المسؤولة عن الرضا بهذا الخروج عن حكم الله، لأنك مصدر السلطات.

فناضلي حُكَّامك وألزميهم النزول على حكم الله، وخوضي معركة المصحف ولك النصر بإذن الله.

*****

(١) هو محض ادعاء وافتراء، و[illegible]ما تمارسه امريكا من تأييد مطلق لدولة الإرهاب والعدوان (إسرائيل) هو عين الدكتاتورية، وكذلك إنجلترا فهم ديمقراطيون فيما ليس من حقِّ المسلم، اما في حقوق المسلمين فعندئذ يظهرون على حقيقتهم، وللأسف وجد منا من انخدع بباطلهم وانطلى عليه!

(٢) يقصد بذلك ان نص المادة (دين الدولة الرسمي الإسلام) وقد صارت الآن المادة الثانية من الدستور المصري.

والقضاء والتشريع والمحكمة من حكم الله!!(1)

﴿ فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما ﴾ [النساء: ٦٥].

﴿ كتب عليكم القصاص في القتلى الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى فمن عفي له من أخيه شيء فاتباع بالمعروف وأداء إليه بإحسان ذلك تخفيف من ربكم ورحمة فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم (١٧٨) ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب لعلكم تتقون ﴾ [البقرة: ١٧٨، ١٧٩].

﴿ والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالا من الله والله عزيز حكيم ﴾ [المائدة: ٣٨].

﴿ الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين ﴾ [النور: ٢].

تُوضع القوانين، وتنشأ المحاكم، ويُنصب القضاة؛ لصون الحقوق فى الدماء والأموال والأعراض، وهى ما يحرص عليه الناس فى هذه الحياة، ولتفصل بينهم فى كل خلاف يقع حول هذه الأمور الثلاثة التى تواضع المجتمع عليها من لدن وجد إلى الآن على أن الاعتداء عليها تنكر وجريمة يجب أن تقاوم، وجاء الإسلام يؤكد هذا المعنى فيقول رسول الله ﷺ: "كل المسلم على المسلم حرام دمه وعرضه وماله"(2)

فهل خلا القرآن من أصول القواعد التشريعية التى تصون على الناس دماءهم وأموالهم وأعراضهم، وتكشف لهم على طريقة الفصل فيما يقع بينهم حولها من خلاف؟

وهل خلت أيدى المسلمين وعقولهم ومجتمعاتهم من الثروة الفقهية التشريعية التى تفصل لهم فى وجوه الخلاف، وحُرموا أئمة التشريع وأساتذة الحقوق والقوانين؟

---

(١) نشرت فى جريدة (الإخوان المسلمون) اليومية فى العددين: (٦٢٩) من السنة الثالثة الصادر فى يوم الثلاثاء الموافق ٩ من رجب سنة ١٣٦٧هـ - ١٨ من مايو سنة ١٩٤٨م. والعدد (٦٣١) الصادر فى يوم الخميس الموافق ١١ من رجب سنة ١٣٦٧هـ - ٢٠ من مايو سنة ١٩٤٨م.

(٢) رواه أحمد (٢/ ٥٤١) ومسلم (٢٥٦٤) عن أبى هريرة رضى الله عنه.

وهل أقفرت حياتهم الاجتماعية فى أعصارهم التاريخية ودولهم الماضية من القضاء العادل والحكم المنظم والمحكمة التى كانت مصدر عدالة ومشرق نور وإنصاف وهداية؟!!

والجواب على ذلك من كتاب الله، ومن ميراث هذه الأمة الضخم، ومن تاريخها المجيد لا لَبْس فيه ولا غموض.

فقد وضع القرآن الكريم أصول قواعد المحافظة على الدماء، والفَصْل فيها بآيات القصاص فى القتل والجراحات.

ووضع أصول قواعد المحافظة على الأموال والفصل فيها، بتحريم الربا، وفرض الزكاة، وعقوبة السرقة، وآداب التعامل.

ووضع أصول قواعد المحافظة على الأعراض؛ لسد أبواب الفتنة وذرائعها، وعقوبة القذف، وحد الزنا، وتقديس الزواج، وحاط ذلك بسياج من عقوبة المعتدين فى الأرض، فلم يدع زيادة لمتزيِّد وتلك حدود الله، ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه.

وبين أيدى الدارسين والباحثين: ثروةٌ فقهيةٌ تشريعيةٌ ضخمةٌ فخمةٌ، هى بقية مما ترك أولئك الأئمة الأعلام من رجالات الفقه الإسلامى؛ الذين كانوا غرَّة فى جبين الدنيا، ونجومًا زاهرة فى سماء العلم والمعرفة، أمثال أبى حنيفة النعمان، ومالك بن أنس، ومحمد بن إدريس الشافعى، وأحمد بن حنبل الشيبانى، والليث بن سعد المصرى، وداود الظاهرى، وغيرهم من المئات، بل الآلاف. كانوا آية الله فى الفطنة والذكاء، وجودة البحث، وصحة النظر، ودقة الحكم، وصدق الفراسة، حتى ضرب بهم فى ذلك كل الأمثال.

وتاريخ الدول الإسلامية العظيمة حافل بالعدول من القضاة المحدثين، ما كانوا يخشون فى الحق لومة لائم، وكان أحدهم يقضى على نفسه وعلى أقرب الناس إليه، وعلى الأمير فى إمارته، والملك فى عزِّ سطوته، لا تمنعه عظمة العظيم من أن يأخذ الحق منه لأصغر صغير.

وهذه الحقائق ثابتة واضحة لا يجادل فيهن إلا الكفور، فلماذا نعدل عنها ونرضى أن نكون عالةً على غيرنا فى التقنين والتشريع وأصول التحاكم والقضاء؟!

فاصَلَنا الله على هذا، ولن نكون مؤمنين إلا إذا رجعنا فى ذلك كله إلى حكم الله وهل بعد هذه المصارحة من بيان: ﴿ **فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا** ﴾ [النساء: ٦٥].

سيحاول بعض المتحذلقين ان يقول:

إننا لسنا مختارين فى هذا فقد غزتنا الحضارة الاوربية بأوضاعها الاجتماعية فنقلنا عنها هذه القوانين، ولا نملك الآن ان نعدل عنها، وقد اصبحنا مقيدين باتفاقات دولية ومعاهدات سياسية وقانونية.

وماذا نصنع بغير المسلمين الذين يخالفوننا فى الدين، وبالاجانب الذين ينزلون ديارنا، ولا يشتركون معنا في الجنسية.

وكيف نطبق اليوم شريعة مرَّ عليها الف عام أو يزيد بعد ان تطوَّرت قواعد التشريع وأساليبه هذا التطور العجيب مع ما فى هذه الاحكام من قسوة وجحود؟!

سيحاول بعض المتحذلقين أن يقول هذا، وسنرد عليه في الكلمة الآتية بما يكفيه ويشفيه إن شاء الله، ولكن قبل هذه الردود نريد أن نقف نحن وإياه أمام حقيقة الإيمان وجهاً لوجه فنقول له ولأمثاله: نحن يا هذا نخاطب المؤمنين بهذا القرآن الكريم أولاً، فإن كنت منهم فهذا هو صريح القرآن، لا تملك انت ولا غيرك حولاً عنه ولا بديلاً منه، فاختر لنفسك وخذ أو دع ولا ثالثة لهما ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ .. ﴾ [الاحزاب: ٣٦] (صدق الله العظيم)[(١)]

ذكرت فى الكلمة السابقة: أن مقتضى الإيمان بالقرآن الكريم يفرض على كل مؤمن ان يُسَلِّم بما جاء فيه من أحكام، وإلا زال عنه وصف الإيمان، وهذا هو صريح الآيات من مثل قوله تبارك وتعالى: (فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا

(١) يعترض البعض على مقولة "صدق الله العظيم" وبخاصة بعد تلاوة آية، أو الاستشهاد بها، ويدعون بدعية قولها، ولقد تتبعت هذه المقولة فى السنة فوجدتها استخدمت كثيرا على لسان الرسول ﷺ، وعلى لسان صحابته الكرام، فقد استخدمها ﷺ كما فى امره لأحد الصحابة حينما اشتكى أخوه من بطنه، فقال: اسقه عسلا، ثلاث مرات، ثم قال ﷺ: "صدق الله، وكذبت بطن اخيك" رواه البخارى (٥٦٨٤) ومسلم (٢٢١٧) عن ابى سعيد الخدرى رضى الله عنه. وقالها ﷺ عندما كان يخطب على المنبر ونزل يحمل الحسن والحسين، ثم قال: صدق الله (إنما أموالكم واولادكم فتنة) رواه الترمذى (٣٧٧٤) وقال: حسن غريب، ورواه النسائى فى "المجتبى" (١٤١٣) و(١٥٨٥) وابو داود (١١٠٩) وابن ماجه (٣٦٠٠) عن أبى بريدة رضى الله عنه. وغيرها من الأحاديث. انظر: فتوانا هل (صدق الله العظيم) بدعة؟ المنشورة على موقع (إسلام اون لاين.نت) فى قسم الفتاوى.

يجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما) ومثل قوله تعالى : (وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا ان يكون لهم الخيرة من أمرهم) ولنا بعد التسليم باحكام الله تبارك وتعالى الواضحة الصريحة ان نبحث فى حكمها واسرارها، وسيكشف لنا البحث الحر النزيه عن ان وراء كل حكم حكمة عالية، وفائدة شاملة كاملة، فصدق قول الله تبارك وتعالى : ﴿ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾ [الاعراف : ١٥٧].

اما أن نتوقف عن الأخذ باحكام الله القاطعة حتى تظهر لنا حكمها وفوائدها، فذلك لا يستقيم مع مقتضى الإيمان بان علم الله أوسع من علمنا، واختياره لنا أفضل من اختيارنا لأنفسنا، ووعدت بعد ذلك بمناقشة الشبهات التى يثيرها بعض الناس حول ما جاء فى كتاب الله من أحكام وحدود.

ومن ذلك قولهم : إنَّ العُرْف العصرى والاتفاقات الدولية تحول بيننا وبين الرجوع إلى ما جاء فى القرآن من أحكام.

وهذا القول منقوض بقرارات المجامع الدولية نفسها، ففى (لاهاى) وفى (واشنطن) ارتفع صوت المجتمعين بتزكية الشريعة الإسلامية، واعتبارها مصدراً مستقلاً من مصادر التشريع صالحًا للتطور والبقاء، وما مثلت مصر فى محكمة العدل الدولية بعضو قانونى هو سعادة عبد الحميد بك بدوى إلا بهذا الاعتبار، وهو أنها تستمد من شريعة مستقلة هى الشريعة الإسلامية، ولو قيل إنها تستمد تقنينها من إحدى الشرائع الأوربية لاغنى عن تمثيلها العضو الذى يمثل الدولة ذات التشريع الأهلى، على أن العرف الدولى الآن قد تغيَّر تغييراً كبيراً، وصار من المسلَّم به أن من حق كل شعب أن يفكر فى تنظيمه الداخلى كما يشاء، وتعديل الاتفاقيات والمعاهدات جائز فى كل الظروف والأوقات، فلو أردنا نحن إرادة صادقة لما وقف فى وجهنا أحد ولكنَّا نحن الذين لا نريد، ونقيم فى وجه أنفسنا العقبات الثقال ونتوهمها توهمًا لا حقيقة له.

[مشكلة غير المسلمين]

ويقولون أيضًا : وماذا تفعلون مع غير المسلمين من المواطنين؟

والجواب حاضر سهل ميسور مقنع وهو : اننا لا نقدم لهم هذه الأحكام على أنها دين يؤمنون به أو عقيدة جديدة تخالف ما يعتقدون، ولكننا نقدمه على أنه قانون اجتماعى

تُحاربُ به الجريمة التي حرَّمتها كل الأديان، ويحقق ما جاءت به التوراة والإنجيل والكتب السماوية جميعًا، ولا يصطدم مع نص من نصوصها، ولا يتعرض للمؤمنين بها فى عقيدة ولا عبادة ولا عمل من الأعمال، فهل يكره أحد الإصلاح الاجتماعى الذى يحقق فعلاً ما يريده دينه، وما نص عليه كتابه لمجرد أنه ورد فى القرآن أو أوحى به الإسلام، ومن يكون المتعصِّب إذن فى هذه الحال؟!!

[مشكلة الأجانب]

أما الأجانب فنريد أن نسأل مَنْ يرون فى تطبيق هذه الأحكام صعوبة بالنسبة لهم: ماذا يطبق علينا الأجانب فى بلادهم من قوانين؟!..

فإن قالوا: يطبقون قوانينهم. قلنا: فلماذا لا نطبق عليهم نحن قوانيننا؟.. ولماذا لا نضع أنفسنا معهم على قدم المساواة، وما الذى يدعونا أن نستشعر أنا أقل منهم وأضعف؟..

وإن قالوا: يطبقون قوانيننا. قلنا: فلنطبق عليهم قوانينهم، ويكون ذلك امتيازاً بامتياز، على أن الأمر الواقع أنهم يطبقون علينا قوانينهم، ولا يعترضون إن طبقنا نحن عليهم قوانين البلاد، ولا يحتاج الأمر منا إلا أن نؤمن بتشريعنا وأنفسنا.

[مدى صلاحية الشريعة الإسلامية]

ويقال: كيف نطبق شريعة مضى عليها ألف عام أو تزيد؟..

والجواب على هذا: أن هذه الشريعة نفسها قد احتاطت لهذه الأغراض فلم تورط نفسها فى جزئيات الأمور، ولم تتحكَّم فيما يتجدَّد بتجدُّد الحوادث والأعصار، وجاءت على نَسَقٍ جعلها أعظم الشرائع مرونة وقبولاً للتطور مع الأزمان والصلاحية للحكم فى كل عصر ومكان حتى أُثِرَ عن أئمتها الأجلاء قول بعضهم: "تحدث للناس أقضيتهم بقدر ما أحدثوا من الفجور"(١) وما نصَّ عليه فيها من عقوبات لا تتجاوز عدد أصابع اليد لجرائم أساسية وجدت مع الغريزة الإنسانية، ولا يمكن كبحها إلا بهذا الأسلوب من التشريع الحازم الجرىء، ومن قرأ كتب الفقه الإسلامية علم وصدَّق ما نقول، وأدرك جلال ما فيه من مرونة ودقة وانفساح واتِّساع، وقابلية لكل الظروف والأحوال.

---

(١) قالها عمر بن عبد العزيز رحمه الله.

[تهمة قسوة الشريعة الإسلامية]

أما تهمة القسوة والشدة في الحدود التي جعلت بعض الذين لا يعلمون يتطاول إلى وصفها بالوحشية والرجعية والهمجية إلى غير هذه الأوصاف، فأمرٌ مقصود لحكمة سابقة ونظرةٍ عالية يكشف اليوم عن جلالها وجمالها ودقتها وروعتها ما ذهب إليه المشرِّعون العصريون من أن العقاب علاج لا مجرَّد جزاء، وأنه يجب أن يساير طابع النفوس وغرائزها، ويصدر عن علم بخفاياها ودقائقها، والحدود الإسلامية مبنية على ذلك في صورتها، فهي تبدو في شكل من القسوة يرهب ويخيف حقًّا، ولكن لعدد محدود من الجرائم يتَّصل بالغرائز الإنسانية التي لا بدَّ لردعها وعلاجها من هذه الصورة من الدواء، حتى إذا وصل الأمر إلى يد القاضي، فهناك طرق الإثبات، وهناك "ادرءوا الحدود بالشبهات ما استطعتم"(١)

ولن تجد بعد ذلك تشريعًا أرفق وأرحم، ولا أدق وأكرم من تشريع الإسلام، وخذ مثلا لذلك حد الزنى، وهو أقسى الحدود في نظر الناس فهو جَلْدٌ على ملإٍ من الناس، أو رجم بالحجارة إلى الموت، كيف يثبت؟! لا يمكن إلا بالشهادة بصورتها المعروفة، ولن تتوفر، أو بالإقرار ولا عذر لمن أقر، حتى إذا عرفت للقاضي أضيق ثغرة، أو وقعت في نفسه أدنى شبهة عدل عن الحد إلى ما دونه، وهو التعزير والتاديب بما يناسب من العقوبات، وبذلك تجمع هذه الحدود بين الصورة الرادعة والرحمة الوادعة، ولن يستقيم ذلك بعد تشريع العليم الخبير، ومن أحسن من الله حكمًا لقوم يوقنون.

فيا أيها الذين يريدون الاستناد إلى الأوهام: حسبكم وعودوا إلى أحكام الله، ففيها الدواء والشفاء، و "لَحَدٌ من حدود الله يُقام في أرضه، خيرٌ لأهلها من أن يمطروا أربعين صباحا"(٢).

---

(١) هذه قاعدة شرعية مستنبطة من قوله ﷺ: "ادرءوا الحدود عن المسلمين ما استطعتم، فإن كان له مخرج فخلوا سبيله، فإن الإمام ان يخطئ في العفو، خير من ان يخطئ في العقوبة" رواه الترمذي (١٤٢٤).

(٢) رواه أحمد (٣/٤٧، ١١٨) وابن ماجه (٢٥٣٨) والنسائي في "المجتبى (٤٩٠٤) وفي "الكبرى" (٧٣٩١) وابن حبان (٤٣٩٨) وأبو يعلى (٦١١١) والبيهقي في "الشعب" (٧٣٨١) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

والتبعة الأولى على الحكام.

وهى من بعدهم على العلماء والكُتَّاب.

وهى أخيرًا على الأئمة والهيئات والأحزاب.

وليس بعد النصيحة أو البيان إلا المفاصلة والجهاد، ﴿ وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [التوبة: ١٠٥].

تعليق: كتب إلينا كثيرٌ من الإخوان بتأييدهم لما جاء فى هذه الكلمات استعدادًا لمعركة المصحف، وقد لاحظوا فى كتبهم: أن هذا الموضوع الحيوى الجليل سيذهب صداه، ويضيع أثره إذا تابعناه فى الوقت الداوى بصيحات الجهاد، الصاخب بأصوات المدافع وأزيز الطائرات، واقترحوا أن نرجئ أمر هذه المعركة حتى ننتهى من معركة الجهاد القائم فى فلسطين، وتركيزًا للجهود فى ناحية واحدة يهمنا جميعًا أن ننتصر فيها أعظم انتصار، وترقبًا لأنسب الأوقات. وهو كلام جميل، وشعور طيِّب مشكور، وبما أن هذا التوجيه الذى نسير عليه الآن إنفاذ لقرارات الهيئة التأسيسية للإخوان، فإنى أعدُ هؤلاء الإخوان الكاتبين باننى ساعرض مقترحاتهم هذه - التى أقدِّرها حقَّ قدرها - على الهيئة فى اجتماعها غدًا إن شاء الله، وأرجو أن يكون رأيها عند رأيهم، فننصرف جميعًا إلى معركة الحرية حتى ننتصر فيها عن قريب بإذن الله فنعلن معركة المصحف من جديد، والله المستعان [١].

*****

(١) لتمام الفائدة حول هذا الموضوع يراجع أيضا: رسالة (مشكلاتنا فى ضوء النظام الإسلامى) ضمن مجموعة الرسائل للإمام الشهيد حسن البنا.

مراجع التحقيق

القرآن الكريم وعلومه:

الإتقان في علوم القرآن للإمام السيوطي

الأساس في التفسير للشيخ سعيد حوى طبعة: دار السلام الأولى. سنة ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م.

أحكام القرآن للجصاص طبعة: دار الكتاب العربي - بيروت. دون تاريخ.

أحكام القرآن لابن العربي.

أحكام القرآن للكيا الهراسي. طبعة دار الكتب العلمية. بيروت - لبنان. الثانية سنة ١٤٠٥هـ- ١٩٨٥م.

إنسان سورة العصر للدكتور يوسف القرضاوي. جمع وتحقيق: عصام تليمة. طبعة: مكتبة وهبة. تحت الطبع.

الإنسان في القرآن الكريم للأستاذ عباس محمود العقاد. طبعة دار الهلال - القاهرة. طبعة سنة ١٩٧١م.

الإيضاح لناسخ القرآن ومنسوخه لأبي محمد مكي بن أبي طالب القيسي. تحقيق: د. أحمد حسن فرحات. طبعة: دار المنارة - جدة. الأولى سنة ١٤٠٦هـ- ١٩٨٦م.

البرهان في علوم القرآن للزركشي تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم. طبعة: دار المعرفة - بيروت. دون تاريخ.

التبصرة في القراءات السبع للإمام ابن أبي طالب. تحقيق: محمد غوث الندوي. طبعة الدار السلفية بالهند. الثانية سنة ١٤٠٢هـ- ١٩٨٢م.

التحبير في علم التفسير للإمام السيوطي تحقيق: د. زهير عثمان علي نور. ط: وزارة الأوقاف القطرية. الأولى سنة ١٤١٦هـ- ١٩٩٥م.

ترجمة القرآن للدكتور: عبد الله شحاتة. طبعة: دار الاعتصام بالقاهرة.

تفسير ابن أبى حاتم

تفسير ابن الجوزى المسمى (زاد المسير) لابن الجوزى تحقيق: زهير الشاويش. طبعة المكتب الإسلامى.

تفسير ابن عرفة تحقيق: د. حسن المناعى طبعة: مركز البحوث العلمية الزيتونية بالمغرب. الأولى سنة ١٩٨٦م.

تفسير ابن عطية المسمى (المحرر الوجيز) لابن عطية تحقيق المشايخ: الرحالى الفاروق، وعبد الله الأنصارى، والسيد عبد العال إبراهيم، ومحمد الشافعى العنانى. طبعة الدوحة. الأولى سنة ١٣٩٨هـ-١٩٧٧م.

تفسير ابن كثير المسمى (تفسير القرآن العظيم) لابن كثير طبعة دار الحديث.

تفسير أبى حيان المسمى (البحر المحيط) لأبى حيان

تفسير البغوى المسمى (معالم التنزيل) تحقيق: خالد العك، ومروان سوار. ط: دار المعرفة - بيروت. الثانية سنة ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م.

تفسير البغوى المسمى (معالم التنزيل) تحقيق: محمد عبد الله النمر، وعثمان جمعة ضميرية، وسليمان مسلم الحرش. طبعة دار طيبة. الثانية ١٤١٤هـ-١٩٩٣م.

تفسير البيضاوى وبهامشه حاشية الخطيب. طبعة: مركز الكتب الثقافية .بدون تاريخ.

تفسير الحسن البصرى طبعة دار الحديث بالقاهرة.

تفسير الخازن المسمى (لباب التأويل فى معالم التنزيل) ضبط وتحقيق: عبد السلام محمد على شاهين. ط: دار الكتب العلمية. الأولى: ١٤١٥هـ-١٩٩٥م.

تفسير الرازى المسمى (التفسير الكبير) أو (مفاتيح الغيب) للإمام أبى جعفر الرازى. طبعة: دار الفكر - بيروت. الأولى: سنة ١٤٠١هـ- ١٩٨١م.

تفسير سفيان بن عيينة جمع وتحقيق: صالح محايرى. طبعة المكتب الإسلامى - بيروت. الأولى سنة ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م.

تفسير سفيان الثورى ط : دار الكتب العلمية - بيروت. الأولى سنة ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.

تفسير السمعانى المسمى (تفسير القرآن) لأبى مظفر السمعانى. تحقيق : ياسر إبراهيم، وغنيم عباس غنيم. طبعة : دار الوطن - السعودية. الأولى سنة ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م.

تفسير الشوكانى المسمى (فتح القدير) للشوكانى تحقيق : د. عبد الرحمن عميرة. طبعة دار الوفاء الأولى سنة ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م.

تفسير الطبرى المسمى (جامع البيان) تحقيق الشيخ محمود محمد شاكر. طبعة دار المعارف.

تفسير الطبرى المسمى (جامع البيان) طبعة : دار الكتب العلمية. بيروت. الأولى سنة ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م.

تفسير عبد الرزاق المسمى (تفسير القرآن العظيم) لعبد الرزاق

تفسير غريب القرآن لابن قتيبة تحقيق : الشيخ سيد أحمد صقر. طبعة دار الكتب العلمية بيروت. سنة ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م.

تفسير القرطبى المسمى بالجامع لأحكام القرآن. تحقيق : د. محمود الحفناوى، ود. محمود عثمان. ط : دار الحديث بمصر.

تفسير القرطبى المسمى بالجامع لأحكام القرآن. تحقيق : أحمد عبد العليم البردونى. طبعة : مكتبة الغزالى - دمشق. ومؤسسة مناهل العرفان - بيروت. بدون تاريخ.

تفسير مجاهد تحقيق : عبد الرحمن الطاهر بن محمد السورتى. طبعة قطر. الأولى سنة ١٣٩٦هـ - ١٩٧٦م.

تفسير المنار المسمى (تفسير القرآن الحكيم) للشيخ محمد رشيد رضا. طبعة : دار المعرفة. لبنان - بيروت. الثانية. دون تاريخ.

تفسير النيسابورى المسمى (غرائب القرآن ورغائب الفرقان) لنظام الدين القمى النيسابورى. طبعة : دار الفكر - بيروت. سنة ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م.

التفسير والمفسرون للدكتور محمد حسين الذهبى.

جواهر العرفان فى علوم القرآن للدكتور : رؤوف شلبى . طبعة : المطبعة المحمدية بالأزهر ـ القاهرة . د.ت .

حجة القراءات لأبى زرعة بن زنجلة . تحقيق : سعيد الأفغانى . طبعة : دار الرسالة الرابعة : ١٤٠٤هـ ـ ١٩٨٤م .

حدث الأحداث فى الإسلام .. الإقدام على ترجمة القرآن للشيخ محمد سليمان طبعة المطبعة السلفية .

الدر المنثور فى التفسير بالمأثور للسيوطى . طبعة : دار المعرفة ـ بيروت . دون تاريخ .

دقائق التفسير الجامع لتفسير ابن تيمية تحقيق : د. محمد السيد الجليند طبعة مؤسسة علوم القرآن – دمشق ـ بيروت . الثانية سنة ١٤٠٤هـ ـ ١٩٨٤م .

العلم والعقل فى القرآن الكريم للدكتور – يوسف القرضاوى . طبعة مكتبة وهبة بالقاهرة – الأولى .

الفن القصصى فى القرآن الكريم لمحمد أحمد خلف الله . طبعة : مكتبة النهضة المصرية . الثانية سنة ١٩٥٧م .

فوائد فى مشكل القرآن للعز بن عبد السلام . تحقيق : د. سيد رضوان على الندوى . طبعة : دار الشروق ـ جدة . الثانية سنة ١٤٠٢هـ ـ ١٩٨٢م .

قطف الأزهار فى كشف الأسرار للإمام السيوطى تحقيق : د. أحمد محمد الحمادى . طبعة وزارة الأوقاف القطرية الأولى سنة ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٤م .

كشف المعانى فى المتشابه والمثانى لبدر الدين بن جماعة .

كيف نتعامل مع القرآن؟ للشيخ محمد الغزالى طبعة دار الوفاء – الأولى .

كيف نتعامل مع القرآن العظيم؟ للدكتور : يوسف القرضاوى .

اللآلئ الحسان فى علوم القرآن للدكتور : موسى شاهين لاشين .مطبعة : الفجر الجديد بالقاهرة د.ت .

مباحث في علوم القرآن للشيخ مناع القطان. طبعة: مكتبة وهبة بالقاهرة.

متن الشاطبية المسمى (حرز الأماني ووجه التهاني في القراءات السبع) للقاسم بن نيرة الشاطبي. ضبط وتصحيح: محمد تميم الزعبي. طبعة: مكتبة دار الهدى. الثالثة. سنة ١٤١٧هـ-١٩٩٦م.

المدخل إلى التفسير الموضوعي د. عبد الستار فتح الله سعيد. طبعة دار التوزيع والنشر الإسلامية - الثانية.

المصاحف لابن أبي داود تحقيق: د. محب الدين عبد السبحان واعظ. طبعة وزارة الأوقاف القطرية، الأولى سنة ١٤١٥هـ-١٩٩٥م.

مشكلات القرآن الكريم وتفسير سورة الفاتحة للإمام محمد عبده. جمع وتحقيق: محمد رشيد رضا، طبعة: منشورات دار مكتبة الحياة - بيروت. دون تاريخ.

معاني القرآن للفراء طبعة عالم الكتب - بيروت. الثانية سنة ١٩٨٠م.

المعجزة الكبرى: القرآن للشيخ محمد أبو زهرة .طبعة دار الفكر العربي بالقاهرة. د.ت.

المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم لمحمد فؤاد عبد الباقي طبعة: دار الفكر- بيروت. دون تاريخ.

مفردات ألفاظ القرآن للراغب الأصفهاني تحقيق: صفوان عدنان داوودي. طبعة: دار القلم - دمشق. الثانية سنة ١٤١٨هـ-١٩٩٧م.

مقدمة في أصول التفسير لابن تيمية تحقيق: د. عدنان زرزور طبعة دار القرآن الكريم - الكويت. الأولى سنة ١٣٩١هـ-١٩٧١م.

مناهل العرفان لعبد العظيم الزرقاني، طبعة: دار الكتب العلمية - بيروت. سنة ١٤١٦هـ-١٩٩٦م.

الناسخ والمنسوخ لأبي جعفر النحاس. تحقيق: د. سليمان إبراهيم عبد الله اللاحم. طبعة: الرسالة. بيروت. الأولى سنة ١٤١٢هـ-١٩٩١م.

الناسخ والمنسوخ لأبى عبيد بن القاسم بن سلام الهروى. تحقيق: محمد صالح المديفر. طبعة: مكتبة الرشد ـ الرياض. الأولى سنة ١٤١١هـ ـ ١٩٩٠م.

النبأ العظيم د. محمد عبد الله دراز. طبعة دار القلم ـ الكويت. الثانية. سنة ١٣٩٠هـ ـ ١٩٧٠م.

نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور للإمام البقاعى. توزيع: مكتبة ابن تيمية. الطبعة الأولى: ١٤٠٢هـ ـ ١٩٨٢م.

النشر فى القراءات العشر لابن الجزرى. تصحيح: الشيخ على محمد الضباع، طبعة: دار الكتب العلمية. بدون تاريخ.

نواسخ القرآن لأبى الفرج ابن الجوزى. طبعة: دار الكتب العلمية. لبنان ـ بيروت. الأولى سنة ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م.

الوافى فى شرح الشاطبية فى القراءات السبع للشيخ عبد الفتاح عبد الغنى القاضى. طبعة: مكتبة الدار ـ المدينة المنورة. الأولى: سنة ١٤٠٤هـ ـ ١٩٨٣م.

وثيابك فطهر للدكتور محمد عبد الله دراز. نشر دار الأنصار بالقاهرة. الطبعة الأولى رمضان ١٣٩٨هـ ـ أغسطس سنة ١٩٧٨م.

الوحدة الموضوعية للقرآن الكريم للدكتور محمد محمود حجازى طبعة: دار الكتب الحديثة بالقاهرة.

وضح البرهان فى مشكلات القرآن لبيان الحق النيسابورى تحقيق: صفوان عدنان داوودى. طبعة دار القلم ـ دمشق. الطبعة الأولى ١٤١٠هـ ـ ١٩٩٠م.

اليهود فى القرآن الكريم للشيخ صلاح أبو إسماعيل، طبعة: دار الصحوة بالقاهرة – الأولى.

اليهود فى القرآن الكريم للشيخ صلاح أبو إسماعيل طبعة: جمعية الشيخ عبد الله النورى الخيرية بالكويت.

السنة النبوية وعلومها:

الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان تحقيق: الشيخ شعيب الأرناؤوط. طبعة: دار الرسالة - بيروت.

الأدب المفرد للإمام البخارى.

إرشاد السارى شرح صحيح البخارى للقسطلانى على هامشه صحيح مسلم بشرح النووى. طبعة: دار الفكر - بيروت. مصورة عن الطبعة الأميرية ببولاق - مصر. سنة ١٣٠٤هـ.

إرواء الغليل للشيخ الألبانى.

الأساس فى السنة وفقهها للشيخ سعيد حوى قسم السيرة. طبعة: دار السلام بالقاهرة.

الأساس فى السنة وفقهها للشيخ سعيد حوى قسم العقائد. طبعة: دار السلام بالقاهرة.

الآحاد والمثانى لابن أبى عاصم.

تخريج الأحاديث والآثار الواقعة فى تفسير الكشاف للزيلعى. طبعة: دار ابن حزم.

الترغيب والترهيب للمنذرى طبعة: دار التراث بالقاهرة.

تهذيب السنن لابن القيم مطبوع مع مختصر السنن للمنذرى ومعالم السنن للخطابى. طبعة السنة المحمدية.

جامع الأصول لابن الأثير تحقيق: عبد القادر الأرناؤوط. الأولى سنة ١٣٨٩هـ-١٩٦٩م.

جامع العلوم والحكم لابن رجب الحنبلى. تحقيق: الشيخ شعيب الأرناؤوط، وإبراهيم باجس. طبعة: دار الرسالة. الخامسة سنة ١٤١٤هـ-١٩٩٤م.

الجامع لشعب الإيمان للبيهقى. طبعة: دار الكتب العلمية - بيروت.

الجامع لشعب الإيمان للبيهقي. تحقيق: د: عبد العلي عبد الحميد حامد. طبعة: السلفية بومباي الهند.

حلية الأولياء لأبي نعيم

دلائل النبوة للبيهقي. طبعة: دار الكتب العلمية - بيروت.

الرسول والعلم للدكتور يوسف القرضاوي. طبعة مكتبة وهبة بالقاهرة. الأولى سنة ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.

رياض الصالحين للإمام النووي تحقيق: شعيب الأرناؤوط. طبعة: الرسالة - بيروت. الثانية. سنة١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م.

الزهد لهناد بن السري تحقيق: محمد أبو الليث الخيرآبادي. طبعة: إدارة إحياء التراث الإسلامي بدولة قطر. دون تاريخ.

الزهد لوكيع بن الجراح. تحقيق وتخريج: عبد الرحمن عبد الجبار الفريوائي. ط: مكتبة الدار بالمدينة المنورة، الأولى: سنة ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م.

السلسلة الصحيحة للشيخ الألباني.

السلسلة الضعيفة للشيخ الألباني.

سنن ابن ماجه بترقيم: محمد فؤاد عبد الباقي.

سنن أبي داود تحقيق وترقيم: محيي الدين عبد الحميد. ط: المكتبة العصرية. بيروت.

سنن البيهقي الصغرى للإمام البيهقي. تحقيق: بهجة يوسف حمد أبو الطيب. طبعة دار الجيل الأولى. ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م.

سنن البيهقي الكبرى للإمام البيهقي.

السنة لابن أبي عاصم. تحقيق وتخريج: الشيخ محمد ناصر الدين الألباني. طبعة: المكتب الإسلامي - بيروت. الثانية. سنة: ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.

السنة النبوية بين أهل الفقه والحديث للشيخ محمد الغزالي. طبعة دار الشروق بالقاهرة. التاسعة.

سنن الدارقطني بتحقيق: مجدى منصور الشورى. طبعة: دار الكتب العلمية - بيروت. الأولى.

سنن الدارمي تحقيق: زمرلى طبعة الريان بمصر.

سنن سعيد بن منصور تحقيق: طبعة: دار الكتب العلمية - بيروت.

سنن النسائي المسمى بالمجتبى للإمام النسائي ترقيم: الشيخ عبد الفتاح أبو غدة.

سنن النسائي الكبرى للإمام النسائي. نشر دار الكتب العلمية - بيروت.

شرح مشكل الآثار للإمام الطحاوى تحقيق: الشيخ شعيب الأرناؤوط. طبعة: الرسالة - بيروت.

شرح معاني الآثار للإمام الطحاوى.

شرح الموطأ للزرقاني.

صحيح الأدب المفرد للشيخ الألباني.

صحيح ابن خزيمة تحقيق وتخريج: الأعظمى طبعة: المكتب الإسلامي.

صحيح البخاري بترقيم محمد فؤاد عبد الباقي.

صحيح الترغيب والترهيب للألباني.

صحيح الترمذي للإمام الترمذي تحقيق: الشيخ أحمد شاكر. طبعة: دار الحلبي مصر.

صحيح الترمذي للشيخ الألباني.

صحيح الجامع الصغير للشيخ الألباني.

صحيح سنن ابن ماجه للشيخ محمد ناصر الدين الألباني.

صحيح سنن أبي داود للشيخ محمد ناصر الدين الألباني.

صحيح سنن النسائي للشيخ الألباني.

صحيح مسلم بترقيم محمد فؤاد عبد الباقي.

صحيح مسلم بشرح النووى طبعة دار الخير سنة ١٩٩٧م.

ضعيف الأدب المفرد للشيخ الألبانى.

ضعيف الترغيب والترهيب للألبانى.

ضعيف الترمذى للشيخ الألبانى.

ضعيف الجامع الصغير للشيخ الألبانى.

ضعيف سنن ابن ماجه للشيخ محمد ناصر الدين الألبانى.

ضعيف سنن أبى داود للشيخ محمد ناصر الدين الألبانى.

ضعيف سنن النسائى للشيخ الألبانى.

عمل اليوم والليلة لابن السنى

عمل اليوم والليلة للنسائى تحقيق د. فاروق حمادة.

غاية المرام فى تخريج أحاديث الحلال والحرام للشيخ الألبانى.

فتح البارى بشرح صحيح البخارى لابن حجر.

الفتح الربانى ومعه مختصر الامانى. شرح مسند الإمام أحمد لأحمد عبد الرحمن الساعاتى .ط: دار الشهاب بمصر.

الفوائد المجموعة للشوكانى.

فيض القدير شرح أحاديث الجامع الصغير للمناوى. طبعة: دار المعرفة - بيروت.

كشف الخفاء للعجلونى

مجمع البحرين فى زوائد المعجمين للهيثمى. تحقيق: عبد القدوس محمد نذير. طبعة: دار الرشد - السعودية. الأولى سنة ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م.

مجمع الزوائد ومنبع الفوائد للهيثمى.

مرويات الإمام أحمد في التفسير جمع وتخريج: محمد بن رزق بن طرهونى، ود. عبد الغفور عبد الحق البلوشى، وحكمت بشير ياسين. ط: مكتبة المؤيد بالسعودية.

المستدرك للحاكم.

مسند ابن أبى شيبة تحقيق: عادل يوسف العزازى، وأحمد فريد المزيدى. طبعة: دار الوطن - الرياض.

مسند أبى عوانة طبعة دار الكتب العلمية.

مسند أبى يعلى الموصلى.تحقيق وتخريج: حسين سليم أسد. طبعة: دار المأمون بدمشق.

مسند أحمد طبعة دار إحياء التراث العربى - بيروت. الثانية سنة ١٤١٤هـ ١٩٩٣م.

مسند أحمد بتحقيق: الشيخ أحمد شاكر. طبعة دار المعارف بالقاهرة. سنة ١٣٧٧هـ - ١٩٥٨م.

مسند أحمد تحقيق: الشيخ شعيب الأرناؤوط ورفاقه. طبعة دار الرسالة الأولى.

مسند البزار.

مسند الحميدى.

مسند الدارمى المسمى (سنن الدارمى) تحقيق: حسين سليم أسد.

مسند الشافعى.

مسند الطيالسى.

مسند القضاعى.

مصباح الزجاجة فى زوائد ابن ماجه للإمام البوصيرى تحقيق: د. عزت عطية. طبعة دار الكتب الحديثة بالقاهرة.

المصنف لابن أبى شيبة. طبعة دار الكتب العلمية - بيروت.

المصنف لعبد الرزاق. طبعة المكتب الإسلامى.

المطالب العالية لابن حجر.

معارف السنن شرح سنن الترمذى للعلامة محمد يوسف بن زكريا الحسينى البنورى. طبعة كراتشي ـ باكستان، الثانية سنة ١٣٩٨هـ.

المعجم المفهرس لألفاظ الحديث لمجموعة من المستشرقين.

المعجم الأوسط للطبرانى تحقيق وترقيم: أيمن صالح شعبان، وسيد أحمد إسماعيل. طبعة دار الحديث بالقاهرة. الأولى سنة ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٦م.

المعجم الصغير للطبرانى.

المعجم الكبير للطبرانى تحقيق: حمدى السلفى.

المعجم المفهرس لألفاظ الحديث.

مفتاح الجنة للإمام السيوطى.

موسوعة أطراف الحديث

المفهم شرح مسلم للقرطبى طبعة دار ابن كثير.

المنتقى من الترغيب والترهيب للدكتور يوسف القرضاوى. طبعة: المكتب الإسلامى. الثالثة: سنة ١٤٢١هـ ـ ٢٠٠٠م.

المنهل العذب المورود شرح سنن أبى داود لمحمود خطاب السبكى الطبعة الأولى ـ مطبعة السعادة بمصر. سنة ١٣٦٩هـ ـ ١٩٤٩م.

موطأ مالك طبعة: المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية بمصر.

موطأ مالك بترقيم: محمد فؤاد عبد الباقى. طبعة دار الحديث.

كتب السيرة والتاريخ والتراجم:

ابن باديس حياته وآثاره جمع ودراسة د: عمار الطالبى. طبعة دار الغرب.

أبو عبيد القاسم بن سلام للأستاذ سائد بكداش. طبعة: دار القلم ـ دمشق.

أخبار مكة لأبى الوليد الأزرقى تحقيق: رشدى الصالح ملحس. طبعة: مطابع الثقافة ـ مكة المكرمة. الطبعة الثالثة ١٣٩٨هـ ـ ١٩٧٨م.

الإخوان المسلمون أحداث صنعت التاريخ للأستاذ محمود عبد الحليم. طبعة دار الدعوة بالإسكندرية. دون تاريخ.

الاستيعاب لابن عبد البر بهامش الإصابة. طبعة: دار صادر ـ بيروت.

أسد الغابة لابن الأثير طبعة دار الشعب بمصر.

الإصابة لابن حجر تحقيق: على محمد البجاوى. طبعة نهضة مصر.

إمتاع الأسماع للمقريزى طبعة: دار الكتب العلمية. بيروت.

البداية والنهاية لابن كثير طبعة: دار الكتب العلمية ـ بيروت.

تاريخ بغداد للخطيب البغدادى. طبعة: دار الكتب العلمية ـ بيروت. دون تاريخ.

تاريخ دمشق لابن عساكر.

تاريخ الطبرى طبعة دار الكتب العلمية. بيروت.

تاريخ علماء دمشق لمحمد مطيع الحافظ، ونزار أباظة. طبعة: دار الفكر ـ دمشق. الأولى سنة ١٤٠٩هـ ـ ١٩٨٦م.

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم للشيخ محمد طاهر الكردى.

حسن البنا للأستاذ أنور الجندى طبعة دار القلم ـ دمشق. الأولى.

حسن البنا الرجل القرآنى لروبير جاكسون ترجمة أنور الجندى. طبعة دار القرآن بالقاهرة.

حسن البنا مواقف فى الدعوة والتربية للأستاذ عباس السيسى. طبعة دار التوزيع والنشر الإسلامية بالقاهرة.

حضارة العرب لجوستاف لوبون ترجمة عادل زعيتر. طبعة الحلبى بالقاهرة.

خطابات حسن البنا الشاب إلى أبيه للأستاذ جمال البنا. طبعة دار الفكر الإسلامي بالقاهرة.

الدرر في اختصار المغازي والسير لابن عبد البر. تحقيق: د. شوقي ضيف. طبعة دار المعارف ـ القاهرة. الثانية. د.ت.

زاد المعاد لابن القيم تحقيق: الشيخ شعيب الارناؤوط، والشيخ عبد القادر الارناؤوط. ط: الرسالة.

سبل الهدى والرشاد للصالحي تحقيق: فهيم محمد شلتوت، ود: جودة عبد الرحمن هلال. طبعة: المجلس الاعلى للشؤون الإسلامية بمصر. الاولى سنة ١٤٠٤هـ ـ ١٩٨٣م.

سبل الهدى والرشاد للصالحي. تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود، وعلى محمد معوض. طبعة: دار الكتب العلمية. لبنان ـ بيروت. الأولى سنة ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٣

سيرة النبي لابن هشام. تحقيق: محمد محيى الدين عبد الحميد. توزيع: رئاسة إدارة البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد بالرياض. دون تاريخ.

السيرة النبوية الصحيحة للدكتور أكرم ضياء العمري. طبعة: مركز بحوث السنة والسيرة ـ دولة قطر. الطبعة الأولى: سنة ١٤١١هـ ـ ١٩٩١م.

السيرة النبوية من فتح البارى لابن حجر جمع وتحقيق: د: محمد الأمين بن محمد، ومحمود بن أحمد مولود الجكنى. طبع على نفقة المرحومة: مريم خالد إدريس الدوسرى بدولة الكويت.

شبلى النعماني علامة الهند الأديب، والمورخ الناقد الأريب. للدكتور: محمد أكرم الندوى. طبعة: دار القلم ـ دمشق. الأولى.

الشيخ حسن البنا ومدرسته "الإخوان المسلمون" للدكتور رؤوف شلبى. طبعة دار الأنصار بالقاهرة.

طبقات الصوفية لأبى عبد الرحمن السُلَمى. ترتيب: أحمد الشرباصى. طبعة: دار الشعب ـ مصر. الأولى سنة ١٣٨٠هـ.

الطبقات الكبرى لابن سعد .

عالم وكتاب للشيخ محمد عبد الله الخطيب . طبعة دار المنار الحديثة بالقاهرة . الأولى .

فتوح البلدان للبلاذرى . طبعة بيروت .

فتوح مصر لابن عبد الحكم .

فقه السيرة للشيخ محمد الغزالى بتحقيق الشيخ محمد ناصر الدين الألبانى . طبعة دار إحياء التراث بدولة قطر .

قصة الحضارة لوول ديورانت ترجمة : زكى نجيب محمود . طبعة دار التأليف والترجمة .

مذكرات الدعوة والداعية للشيخ حسن البنا .

معالم تاريخ الإنسانية لويلز . ترجمة : توفيق جاويد . طبعة : دار التأليف والترجمة .

المغازى للواقدى تحقيق : د : مارسدن جونس . طبعة عالم الكتب - بيروت . الطبعة الثالثة سنة ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م .

من أعلام الحركة الإسلامية للمستشار عبد الله العقيل . طبعة دار التوزيع والنشر الإسلامية بالقاهرة الأولى .

النهضة الإسلامية فى سير أعلامها المعاصرين للدكتور محمد رجب البيومى . طبعة دار القلم - دمشق .

وسائل الإعلام المطبوعة فى دعوة الإخوان المسلمين للأستاذ محمد فتحى شعير . طبعة : دار المجتمع للنشر التوزيع - جدة . الطبعة الأولى : سنة ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م .

الفقه وأصوله:

اجتهاد نبى الإسلام للمرحوم الشيخ عبد الجليل عيسى . طبعة عيسى الحلبى . الأولى . سنة ١٩٤٩م.

أحكام الذميين والمستأمنين فى الإسلام للدكتور عبد الكريم زيدان. طبعة: دار الرسالة - بيروت.

بدائع الصنائع لعلاء الدين الكاسانى

تحفة الفقهاء لعلاء الدين السمرقندى تحقيق: د. محمد زكى عبد البر، طبعة إدارة إحياء التراث الإسلامى بدولة قطر. الطبعة الثانية. بدون تاريخ.

الترخيص بالقيام لذوى الفضل والمزية من أهل الإسلام للإمام النووى تحقيق: أحمد راتب حموش. طبعة دار الفكر - دمشق. الاولى سنة ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م.

الترخيص بالقيام لذوى الفضل والمزية من أهل الإسلام للإمام النووى بتحقيق كيلانى خليفة. طبعة: دار البشائر الإسلامية.

حكم اليهود والنصارى العقدى للدكتور يوسف القرضاوى. طبعة: مكتبة وهبة - القاهرة. الاولى.

الخراج لابى يوسف

فتاوى الإمام النووى تحقيق وتعليق محمد الحجار. طبعة دار البشائر الإسلامية. ببيروت - لبنان. الطبعة السادسة ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م.

فتاوى الإمام النووى تحقيق ودراسة: محمد رحمت الله الندوى طبعة: المكتب الإسلامى - بيروت. الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م.

فتاوى ابن الصلاح تحقيق: د: عبد المعطى أمين قلعجى. طبعة دار المعرفة - بيروت. الأولى. سنة ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.

فتاوى العز بن عبد السلام تحقيق: محمد جمعة الكردى. طبعة دار الرسالة - بيروت. الأولى سنة ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م.

فتاوى معاصرة للدكتور يوسف القرضاوى. طبعة دار القلم الكويت.

الفقه الإسلامى وأدلته للدكتور وهبة الزحيلى. طبعة: دار الفكر المعاصر - دمشق.

فقه الزكاة للدكتور يوسف القرضاوى. طبعة: مكتبة وهبة بالقاهرة. السادسة عشرة.

سنة: ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.

المبدع في شرح المقنع لابن مفلح. طبعة: المكتب الإسلامي. الأولى: سنة ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.

مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية. جمع: عبد الرحمن بن محمد النجدي.

المغني لابن قدامة تحقيق: د. عبد الله التركي، ود. عبد الفتاح الحلو. طبعة: دار هجر - القاهرة، الطبعة الثانية سنة ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م.

الموافقات للشاطبي تحقيق عبد الله دراز طبعة دار المعرفة - بيروت.

نظرات في اجتهادات الفاروق عمر بن الخطاب للشيخ محمد محمد المدني. نشر دار النفائس والفتح ببيروت.

نيل الأوطار للشوكاني تحقيق: طه عبد الرؤوف سعد، ومصطفى محمد الهواري. طبعة: مكتبة الكليات الأزهرية. بدون تاريخ.

مراجع عامة:

أحاديث الجمعة للإمام الشهيد حسن البنا جمع وتحقيق: عصام تليمة. طبعة دار القلم - دمشق.

إحياء علوم الدين لأبي حامد الغزالي وعليه تخريجات العراقي لأحاديثه. طبعة: دار المعرفة - بيروت.

الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية لروجيه جارودي طبعة: دار الشروق.

الإسلام المفترى عليه بين الشيوعيين والرأسماليين للشيخ محمد الغزالي.

الإسلام في عصر العلم للأستاذ محمد أحمد الغمراوي. طبعة: دار الكتب الحديثة - القاهرة.

الإسلام في عصر العلم للأستاذ محمد فريد وجدي. طبعة: دار الكتاب العربي. بيروت - لبنان. الثالثة. دون تاريخ.

إظهار الحق لرحمت الله خليل الهندي.

حديث الثلاثاء للإمام الشهيد حسن البنا. جمع وإعداد: الشيخ أحمد عيسى عاشور. طبعة مكتبة القرآن. دون تاريخ نشر.

دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين للشيخ محمد الغزالى طبعة: دار الأنصار - القاهرة.

الدعوة إلى الإسلام لأرنولد. ترجمة: الدكاترة: حسن إبراهيم حسن، وإسماعيل النحراوى، وعبد المجيد عابدين. طبعة: مكتبة نهضة مصر، الثالثة.

رسالة التوحيد للإمام محمد عبده. طبعة دار الشعب - مصر.

السياسة الشرعية للدكتور يوسف القرضاوى. طبعة: مكتبة وهبة بالقاهرة. الأولى سنة: ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م.

شرح الطحاوية لابن أبى العز تحقيق الشيخ أحمد شاكر. طبعة دار التراث بالقاهرة. بدون تاريخ.

الصفات الخبرية عند أهل السنة والجماعة للدكتور محمد عياش الكبيسى. طبعة: المكتب المصرى الحديث. الأولى. دون تاريخ.

على أطلال المذهب المادى لكاميل فلامريون، تعريب: محمد فريد وجدى. طبعة: مطبعة دائرة معارف القرن العشرين. سنة ١٣٤٦هـ - ١٩٢٧م.

علل وأدوية للشيخ محمد الغزالى طبعة: مؤسسة دار العلوم بالدوحة. الطبعة الأولى.

علل وأدوية للشيخ محمد الغزالى. طبعة: دار القلم - دمشق. الأولى.

العلماء العزاب الذين آثروا العلم على الزواج للشيخ عبد الفتاح أبى غدة. طبعة: مكتب المطبوعات الإسلامية بحلب. الأولى: سنة ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م.

غير المسلمين فى المجتمع الإسلامى للدكتور يوسف القرضاوى طبعة: مكتبة وهبة - القاهرة.

قيمة الزمن عند العلماء للشيخ عبد الفتاح أبي غدة. طبعة: مكتبة المطبوعات الإسلامية بحلب.

كيف نتعامل مع التراث والتمذهب والاختلاف للدكتور يوسف القرضاوي، طبعة مكتبة وهبة بالقاهرة. الأولى سنة ١٤٢٢هـ-٢٠٠١م.

كيف نفهم الإسلام للشيخ محمد الغزالي. طبعة دار الكتب الحديثة-القاهرة. الأولى.

فقه الائتلاف للمرحوم الشيخ محمود الخزندار، طبعة دار طيبة بالرياض، الطبعة الأولى سنة ١٤٢١هـ.

مجموعة الرسائل للإمام حسن البنا.

مجموعة الرسائل للإمام حسن البنا طبعة: المؤسسة الإسلامية للطباعة والصحافة والنشر. بيروت-لبنان. الثالثة: سنة ١٤٠٤هـ-١٩٨٤م.

مدارج السالكين للإمام ابن القيم. تحقيق: الشيخ حامد الفقي. طبعة: دار الكتاب العربي-بيروت. مصورة عن طبعة مطبعة السنة المحمدية.

معالم في الطريق للشهيد سيد قطب. طبعة دار الشروق. الحادية عشرة. سنة ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م.

منبر **الجمعة** للإمام الشهيد حسن البنا جمع ودراسة: محمد عبد الحكيم خيال. طبعة الدعوة بالقاهرة. الأولى. سنة ١٩٧٨م.

من ثمار الشيخ محمود شلتوت. هدية مجلة الأزهر. شهر سبتمبر ٢٠٠١م.

منظومة الآداب لمحمد بن أحمد بن سالم السفاريني، طبعة: مؤسسة قرطبة.

نظرات في التربية والسلوك للإمام الشهيد حسن البنا جمع وتحقيق: عصام تليمة. طبعة دار البشير-جدة. الأولى سنة ١٤٢٢هـ-٢٠٠١م.

كتب اللغة:

أساس البلاغة للزمخشرى طبعة: دار صادر - بيروت. سنة ١٣٨٥هـ - ١٩٦٥م.

بحوث أصولية ولغوية للشيخ عبد الرحمن تاج، طبعة: المكتب الثقافى بالقاهرة.

ديوان حسان بن ثابت طبعة دار صادر - بيروت.

شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد. طبعة: دار إحياء الكتب العربية عيسى الحلبى. الثانية: سنة ١٣٨٥هـ - ١٩٦٥م.

لسان العرب لابن منظور. طبعة دار صادر.

القاموس المحيط للفيروزآبادى. طبعة: مؤسسة الرسالة، الثانية. سنة: ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.

مجمع الأمثال للميدانى تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم. طبعة: دار الجيل - بيروت. الثانية سنة ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.

مختار الصحاح لأبى بكر الرازى، اعتنى به: محمود خاطر. طبعة: دار المعارف بالقاهرة. بدون تاريخ.

المعجم الوسيط، إصدار: مجمع اللغة العربية بالقاهرة. طبعة: دار إحياء التراث الإسلامى بقطر.

المنجد فى اللغة والأعلام. طبعة دار المشرق - بيروت.

نهاية الأرب للنويرى

الدوريات والمجلات والصحف:

جريدة (الإخوان المسلمون) اليومية.

مجلة (الإخوان المسلمون) الأسبوعية.

مجلة (الأزهر).

مجلة (الرسالة).

مجلة (الشهاب).

مجلة (الفتح).

مجلة (مركز بحوث السنة والسيرة) دولة قطر.

مجلة (المسلمون).

مجلة (المنار).

مجلة (النذير).

التقنيات الحديثة:

جامع الفقه الإسلامى

موسوعة الكتب التسعة. إنتاج شركة (حرف).

الموسوعة الماسية للحديث النبوى وعلومه. إصدار: شركة عبد اللطيف للمعلومات - القاهرة.

مقابلات شخصية:

الأستاذ: جمال البنا (شقيق الإمام البنا).

الدكتور: عبد المنعم تليمة.

الدكتور: محمد سليم العوا.

الدكتور: يوسف القرضاوى.

فهرس تفصيلى

مقدمات

فاتحة الكتاب

سورة البقرة

سورة التوبة

سورة المجادلة

آيات

معركة المصحف

هذا الكتاب

مجموعة مقالات للإمام الشهيد حسن البنا رحمه الله تندرج كلها تحت " القرآن وعلومه " لم يسبق نشرها مجموعًا من قبل .

وهى مادة ثرية تناسب علم صاحبها وفكره وهو ابن القرآن ورجل القرآن والذى ما اغتالته اليد الآثمة إلا لخوضه معركة القرآن ضد باطلهم .

وقد بذل الأستاذ عصام تليمة مجهودًا كبيرًا فى جمع المقالات وتحقيقها ونسبتها إلى مصادرها والتعليق على بعض المواضع وغير ذلك مما لزم القيام به.

الناشر

